



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغفلة



الرعد
عليه صاب

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

مَدِينَةُ الْمَدِينَةِ

وَمَدِينَةُ الْمَدِينَةِ

بِالْمَدِينَةِ

المجلد الثاني



دار الفکر للطباعة والنشر

بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مختصر الميزان فى تفسير القرآن

كاتب:

محمد حسين طباطبايى

نشرت فى الطباعة:

سازمان حج و اوقاف امور خيريه - اسوه

رقمى الناشر:

مركز القائميئ باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١٦	مختصر الميزان فى تفسير القرآن المجلد ٢
١٦	اشاره
١٦	اشاره
٢٢	سوره المائده مدنيه و هى مائه و عشرون آيه
٢٢	اشاره
٢٢	[سوره المائده (٥): الآيات ١ الى ٣]
٢٢	اشاره
٢٣	بيان:
٤٨	بحث روائى آخر:
٥٨	[سوره المائده (٥): الآيات ٤ الى ٥]
٥٨	اشاره
٥٨	بيان:
٦٦	[سوره المائده (٥): الآيات ٦ الى ٧]
٦٦	اشاره
٦٦	بيان:
٧٨	[سوره المائده (٥): الآيات ٨ الى ١٤]
٧٨	اشاره
٧٩	بيان:
٨٥	[سوره المائده (٥): الآيات ١٥ الى ١٩]
٨٥	اشاره
٨٦	بيان:
٩٦	[سوره المائده (٥): الآيات ٢٠ الى ٢٦]
٩٦	اشاره

بيان: ٩٧

[سوره المائده (٥): الآيات ٢٧ الى ٣٢] ١٠٣

اشاره ١٠٣

بيان: ١٠٤

[سوره المائده (٥): الآيات ٣٣ الى ٤٠] ١١٠

اشاره ١١٠

بيان: ١١١

[سوره المائده (٥): الآيات ٤١ الى ٥٠] ١١٥

اشاره ١١٥

بيان: ١١٨

[سوره المائده (٥): الآيات ٥١ الى ٥٤] ١٣١

اشاره ١٣١

بيان: ١٣٢

[سوره المائده (٥): الآيات ٥٥ الى ٥٦] ١٣٨

اشاره ١٣٨

بيان: ١٣٨

بحث روائي: ١٥٠

[سوره المائده (٥): الآيات ٥٧ الى ٦٦] ١٦٢

اشاره ١٦٢

بيان: ١٦٤

[سوره المائده (٥): آيه ٦٧] ١٧٥

اشاره ١٧٥

بيان: ١٧٥

بحث روائي: ١٨٨

[سوره المائده (٥): الآيات ٦٨ الى ٨٦] ١٩٨

اشاره ١٩٨

٢٠٠ بيان:

٢١٤ [سوره المائده (٥): الآيات ٨٧ الى ٨٩]

٢١٤ اشاره

٢١٤ بيان:

٢١٩ [سوره المائده (٥): الآيات ٩٠ الى ٩٣]

٢١٩ اشاره

٢١٩ بيان:

٢٢٥ [سوره المائده (٥): الآيات ٩٤ الى ٩٩]

٢٢٥ اشاره

٢٢٦ بيان:

٢٣٢ [سوره المائده (٥): آيه ١٠٠]

٢٣٢ اشاره

٢٣٢ بيان:

٢٣٣ [سوره المائده (٥): الآيات ١٠١ الى ١٠٢]

٢٣٣ اشاره

٢٣٣ بيان:

٢٣٤ [سوره المائده (٥): الآيات ١٠٣ الى ١٠٤]

٢٣٤ اشاره

٢٣٥ بيان:

٢٣٧ [سوره المائده (٥): آيه ١٠٥]

٢٣٧ اشاره

٢٣٨ بيان:

٢٤٠ [سوره المائده (٥): الآيات ١٠٦ الى ١٠٩]

٢٤٠ اشاره

٢٤١ بيان:

٢٤٩ [سوره المائده (٥): الآيات ١١٠ الى ١١١]

٢٤٩ اشاره

٢٥٠ بيان:

٢٥٢ [سوره المائده (٥): الآيات ١١٢ الى ١١٥]

٢٥٢ اشاره

٢٥٣ بيان

٢٥٩ [سوره المائده (٥): الآيات ١١٦ الى ١٢٠]

٢٥٩ اشاره

٢٥٩ بيان:

٢٧٠ سوره الأنعام و هي سبع آيات

٢٧٠ اشاره

٢٧٠ [سوره الأنعام (٦): الآيات ١ الى ٣]

٢٧٠ اشاره

٢٧٠ بيان:

٢٧٨ [سوره الأنعام (٦): الآيات ٤ الى ١١]

٢٧٨ اشاره

٢٧٩ بيان:

٢٨٣ [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٢ الى ١٨]

٢٨٣ اشاره

٢٨٤ بيان:

٢٩٢ [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٩ الى ٢٠]

٢٩٢ اشاره

٢٩٣ بيان:

٢٩٧ [سوره الأنعام (٦): الآيات ٢١ الى ٣٢]

٢٩٧ اشاره

٢٩٨ بيان:

٣٠٦ [سوره الأنعام (٦): الآيات ٣٣ الى ٣٦]

٣٠٦ اشارة

٣٠٧ بيان:

٣١٢ [سوره الأنعام (٦): الآيات ٣٧ الى ٥٥]

٣١٢ اشارة

٣١٤ بيان:

٣٣٢ [سوره الأنعام (٦): الآيات ٥٦ الى ٧٣]

٣٣٢ اشارة

٣٣٤ بيان:

٣٥٧ [سوره الأنعام (٦): الآيات ٧٤ الى ٨٣]

٣٥٧ اشارة

٣٥٩ بيان:

٣٧٧ [سوره الأنعام (٦): الآيات ٨٤ الى ٩٠]

٣٧٧ اشارة

٣٧٨ بيان:

٣٨٦ [سوره الأنعام (٦): الآيات ٩١ الى ١٠٥]

٣٨٦ اشارة

٣٩٠ بيان:

٤٠٦ [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٠٦ الى ١١٣]

٤٠٦ اشارة

٤٠٧ بيان:

٤١٥ [سوره الأنعام (٦): الآيات ١١٤ الى ١٢١]

٤١٥ اشارة

٤١٦ بيان:

٤٢٣ [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٢٢ الى ١٢٧]

٤٢٣ اشارة

٤٢٤ بيان:

٤٣٢ [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٢٨ الى ١٣٥]

٤٣٢ اشاره

٤٣٣ بيان:

٤٣٨ [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٣٦ الى ١٥٠]

٤٣٨ اشاره

٤٤٠ بيان:

٤٤٨ [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٥١ الى ١٥٧]

٤٤٨ اشاره

٤٤٩ بيان:

٤٥٧ [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٥٨ الى ١٦٠]

٤٥٧ اشاره

٤٥٨ بيان:

٤٦٢ [سوره الأنعام (٦): الآيات ١٦١ الى ١٦٥]

٤٦٢ اشاره

٤٦٣ بيان:

٤٦٦ سورة الأعراف مكيه و هي مائتا و ستة آيه

٤٦٦ اشاره

٤٦٦ [سوره الأعراف (٧): الآيات ١ الى ٩]

٤٦٦ اشاره

٤٦٧ بيان:

٤٧٢ [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٠ الى ٢٥]

٤٧٢ اشاره

٤٧٤ بيان:

٤٨٢ [سوره الأعراف (٧): الآيات ٢٦ الى ٣٦]

٤٨٢ اشاره

٤٨٤ بيان:

- ٤٩٥ [سوره الأعراف (٧): الآيات ٣٧ الى ٥٣]
- ٤٩٥ اشاره
- ٤٩٧ بيان:
- ٥٠٨ له سيمياء لا تشق على البصر
- ٥١٧ [سوره الأعراف (٧): الآيات ٥٤ الى ٥٨]
- ٥١٧ اشاره
- ٥١٧ بيان:
- ٥٢٤ [سوره الأعراف (٧): الآيات ٥٩ الى ٦٤]
- ٥٢٤ اشاره
- ٥٢٥ بيان:
- ٥٢٧ [سوره الأعراف (٧): الآيات ٦٥ الى ٧٢]
- ٥٢٧ اشاره
- ٥٢٨ بيان:
- ٥٣٢ [سوره الأعراف (٧): الآيات ٧٣ الى ٧٩]
- ٥٣٢ اشاره
- ٥٣٣ بيان:
- ٥٣٥ [سوره الأعراف (٧): الآيات ٨٠ الى ٨٤]
- ٥٣٥ اشاره
- ٥٣٦ بيان:
- ٥٣٨ [سوره الأعراف (٧): الآيات ٨٥ الى ٩٣]
- ٥٣٨ اشاره
- ٥٣٩ بيان:
- ٥٤٧ [سوره الأعراف (٧): الآيات ٩٤ الى ١٠٢]
- ٥٤٧ اشاره
- ٥٤٨ بيان:
- ٥٥٧ [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٠٣ الى ١٢٦]

٥٥٧ اشاره

٥٥٩ بيان:

٥٦٩ [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٢٧ الى ١٣٧]

٥٦٩ اشاره

٥٧٠ بيان:

٥٧٧ [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٣٨ الى ١٥٤]

٥٧٧ اشاره

٥٨١ بيان:

٥٩٣ [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٥٥ الى ١٦٠]

٥٩٣ اشاره

٥٩٤ بيان:

٦١٢ [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٦١ الى ١٧١]

٦١٢ اشاره

٦١٣ بيان:

٦٢٠ [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٧٢ الى ١٧٤]

٦٢٠ اشاره

٦٢٠ بيان:

٦٢٤ [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٧٥ الى ١٧٩]

٦٢٤ اشاره

٦٢٧ بيان:

٦٣٣ [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٨٠ الى ١٨٦]

٦٣٣ اشاره

٦٣٣ بيان:

٦٤١ [سوره الأعراف (٧): الآيات ١٨٧ الى ١٨٨]

٦٤١ اشاره

٦٤٢ بيان:

٦٤٥ [سوره الاعراف (٧): الآيات ١٨٩ الى ١٩٨]

٦٤٥ اشاره

٦٤٦ بيان:

٦٥٠ [سوره الاعراف (٧): الآيات ١٩٩ الى ٢٠٦]

٦٥٠ اشاره

٦٥١ بيان:

٦٥٧ سوره الأنفال مدنيه و هي خمس و سبعون آيه

٦٥٧ اشاره

٦٥٧ [سوره الأنفال (٨): الآيات ١ الى ٦]

٦٥٧ اشاره

٦٥٨ بيان:

٦٥٩ و بئرى ذو حفرت و ذو طويت

٦٦٧ [سوره الأنفال (٨): الآيات ٧ الى ١٤]

٦٦٧ اشاره

٦٦٨ بيان:

٦٧٢ [سوره الأنفال (٨): الآيات ١٥ الى ٢٩]

٦٧٢ اشاره

٦٧٤ بيان:

٦٨٨ [سوره الأنفال (٨): الآيات ٣٠ الى ٤٠]

٦٨٨ اشاره

٦٨٩ بيان:

٦٩٦ [سوره الأنفال (٨): الآيات ٤١ الى ٥٤]

٦٩٦ اشاره

٦٩٨ بيان:

٧١٢ [سوره الأنفال (٨): الآيات ٥٥ الى ٦٦]

٧١٢ اشاره

٧١٤ بيان:

٧٢٣ [سوره الأنفال (٨): الآيات ٦٧ الى ٧١]

٧٢٣ اشاره

٧٢٤ بيان:

٧٢٥ [سوره الأنفال (٨): الآيات ٧٢ الى ٧٥]

٧٢٥ اشاره

٧٢٦ بيان:

٧٢٩ سوره التوبه مدنيه و هي مائه و تسع و عشرون آيه

٧٢٩ اشاره

٧٢٩ [سوره التوبه (٩): الآيات ١ الى ١٦]

٧٢٩ اشاره

٧٣١ بيان:

٧٤٥ [سوره التوبه (٩): الآيات ١٧ الى ٢٤]

٧٤٥ اشاره

٧٤٨ بيان:

٧٥٧ [سوره التوبه (٩): الآيات ٢٥ الى ٢٨]

٧٥٧ اشاره

٧٥٧ بيان:

٧٦٢ [سوره التوبه (٩): الآيات ٢٩ الى ٣٥]

٧٦٢ اشاره

٧٦٣ بيان:

٧٧١ [سوره التوبه (٩): الآيات ٣٦ الى ٣٧]

٧٧١ اشاره

٧٧١ بيان:

٧٧٨ [سوره التوبه (٩): الآيات ٣٨ الى ٤٨]

٧٧٨ اشاره

٧٧٩ بيان:

٧٩٤ [سوره التوبه (٩): الآيات ٤٩ الى ٦٣]

٧٩٤ اشاره

٧٩٤ بيان:

٨٠٧ [سوره التوبه (٩): الآيات ٦٤ الى ٧٤]

٨٠٧ اشاره

٨٠٩ بيان:

٨٢١ [سوره التوبه (٩): الآيات ٧٥ الى ٨٠]

٨٢١ اشاره

٨٢٢ بيان:

٨٢٥ [سوره التوبه (٩): الآيات ٨١ الى ٩٦]

٨٢٥ اشاره

٨٢٧ بيان:

٨٣٤ [سوره التوبه (٩): الآيات ٩٧ الى ١٠٦]

٨٣٤ اشاره

٨٣٥ بيان:

٨٤٣ [سوره التوبه (٩): الآيات ١٠٧ الى ١١٠]

٨٤٣ اشاره

٨٤٤ بيان:

٨٤٦ [سوره التوبه (٩): الآيات ١١١ الى ١٢٣]

٨٤٦ اشاره

٨٤٩ بيان:

٨٥٦ [سوره التوبه (٩): الآيات ١٢٤ الى ١٢٩]

٨٥٦ اشاره

٨٥٦ بيان:

٨٦١ تعريف مركز

اشاره

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

[سوره المائدہ (۵): الآيات ۱ الى ۳]

اشاره

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ
وَ اَنْتُمْ حُرْمٌ اِنَّ اللّٰهَ یَحْكُمُ مَا یُرِیدُ (۱) یَا اَیُّهَا الَّذِیْنَ اٰمَنُوا اَوْفُوا بِالْعُقُودِ اُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِیْمَةُ الْاَنْعَامِ اِلَّا مَا یُنْتَلٰی عَلَیْكُمْ غَیْرَ مُحَلِّی الصَّیْدِ
الْبَیْتِ الْحَرَامِ یَتَّبِعُونَ فَضْلًا مِنْ رَّبِّهِمْ وَ رِضْوَانًا وَاِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَ لَا یَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ اَنْ صَدُّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ اَنْ
تَعْتَدُوا وَ تَعَاوَنُوا عَلَی الْبِرِّ وَ التَّقْوٰی وَ لَا تَعَاوَنُوا عَلَی الْاِثْمِ وَ الْعُدُوٰنِ وَ اتَّقُوا اللّٰهَ اِنَّ اللّٰهَ شَدِیْدُ الْعِقَابِ (۲) حُرِّمَتْ عَلَیْكُمْ الْمَیْتَةُ وَ
الْدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنزِیْرِ وَ مَا اُھْلٌ لِّغَیْرِ اللّٰهِ بِهِ وَ الْمُنْخَنِقَةُ وَ الْمُوقُوْذَةُ وَ الْمُتْرَدِیَةُ وَ النَّطِیْحَةُ وَ مَا اَكَلَ السَّبْعُ اِلَّا مَا ذَكَّیْتُمْ وَ مَا ذُبِحَ عَلَی
النُّصْبِ وَ اَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْاَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَنسَ الْیَوْمَ یَسَّ الَّذِیْنَ كَفَرُوا مِنْ دِیْنِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ الْیَوْمَ اَكْمَلْتُ لَكُمْ دِیْنَكُمْ وَ
اَتَمَمْتُ عَلَیْكُمْ نِعْمَتِی وَ رَضِیْتُ لَكُمْ الْاِسْلَامَ دِیْنًا فَمَنْ اضْطَرَّ فِی مَخْمَصِهِ غَیْرَ مُتَّجَانِفٍ لِاِثْمٍ فَاِنَّ اللّٰهَ غَفُوْرٌ رَحِیْمٌ (۳)

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ العقود جمع عقد و هو شدّ أحد شيئين بالآخر نوع شدّ يصعب معه انفصال أحدهما عن الآخر، كعقد الجبل و الخيط بآخر من مثله، و لازمه التزام أحدهما الآخر، و عدم انفكاكه عنه، و قد كان معتبرا عندهم فى الامور المحسوسه أولا ثم استعير فعَمّم للامور المعنويه كعقود المعاملات الدائره بينهم من بيع أو إجاره أو غير ذلك، و كجميع العهود و المواثيق فاطلقت عليها الكلمه لثبوت أثر المعنى الذى عرفت أنه اللزوم و الالتزام فيها.

و لما كان العقد-و هو العهد-يقع على جميع المواثيق الدينيه التى أخذها الله من عباده من أركان و أجزاء كالتوحيد و سائر المعارف الأصلية و الاعمال العباديه و الأحكام المشروعه تأسيسا أو امضاء، و منها عقود المعاملات و غير ذلك، و كان لفظ العقود أيضا جمعا محلى باللام لا جرم كان الأوجه حمل العقود فى الآيه على ما يعمّ كل ما يصدق عليه أنه عقد (1).

قوله تعالى: ﴿أَحَلَّتْ لَكُمْ بِهِمَهُ الْأَنْعَامَ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ﴾ الخ؛ الإحلال هو الإباحه و البهيمه اسم لكل ذى اربع من دواب البر و البحر على ما فى المجمع، و على هذا

فإضافه البهيمة الى الأنعام من قبيل إضافه النوع الى أصنافه كقولنا: نوع الإنسان و جنس الحيوان، و قيل: البهيمة جنس الأنعام، و عليه
فالإضافه لاسميه. و كيف كان فقوله: «أَحَلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ» أى الأزواج الثمانية أى أكل لحومها، و قوله: «إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ»
إشاره الى ما سيأتى من قوله: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَ الدَّمُ وَ لَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَ مَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ» الآية.

و قوله: «غَيْرَ مُحَلَّى الصَّيْدِ وَ أَنْتُمْ حُرْمٌ» حال من ضمير الخطاب فى قوله: «أَحَلَّتْ لَكُمْ» و مفاده حرمة هذا الذى أحل اذا كان
اصطياده فى حال الإحرام، كالوحشى من الطباء و البقر و الحمر اذا صيدت، و ربما قيل: إنه حال من قوله: «أَوْفُوا» أو حال من ضمير
الخطاب فى قوله: «يُتْلَى عَلَيْكُمْ» و الصيد مصدر بمعنى المفعول، كما أن الحرم بضمين جمع الحرام بمعنى المحرم اسم فاعل.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَ لَا الْهَدْيَ وَ لَا الْقَلَائِدَ وَ لَا آمِنَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَنْتَعُونَ فَضْلًا
مِنْ رَبِّهِمْ وَ رِضْوَانًا خَطَابٌ مُجَدِّدٌ لِلْمُؤْمِنِينَ يَفِيدُ شِدَّةَ الْعِنَايَةِ بِحُرْمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى.

و الإحلال هو الإباحه الملازمه لعدم المبالاه بالحرمة و المنزله، و يتعين معناه بحسب ما أضيف إليه: فإحلال شعائر الله عدم
احترامها و تركها، و إحلال الشهر الحرام عدم حفظ حرمة و القتال فيه، و هكذا.

و الشعائر جمع شعيره و هى العلامه، و كأن المراد بها أعلام الحج و مناسكه. و الشهر الحرام ما حرمه الله من شهور السنه القمرية
و هى: المحرم و رجب و ذو القعدة و ذو الحجه. و الهدى ما يساق للحج من الغنم و البقر و الإبل. و القلائد جمع قلاده، و هى ما
يقلد به الهدى فى عنقه من نعل و نحوه ليعلم أنه هدى للحج فلا يتعرض له. و الآمين جمع آم اسم فاعل من أم اذا قصد، و المراد
به القاصدون لزياره البيت الحرام. و قوله: «يَنْتَعُونَ فَضْلًا»، حال من «آمِينَ»

حقوق الناس الحقه بسلب الأمن من نفوسهم أو أعراضهم أو أموالهم وقد مر شطر من الكلام في هذا المعنى في ذيل قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا الْآيَةَ، (آل عمران ٢٠٠)؛ في الجزء الرابع من هذا الكتاب.

ثم أكد سبحانه نهيهِ عن الاجتماع على الإثم والعدوان بقوله: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» و هو في الحقيقة تأكيد على تأكيد.

قوله تعالى: حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ هَذِهِ الْأَرْبَعَةُ مذكوره فيما نزل من القرآن قبل هذه السوره كسورتي الأنعام والنحل و هما مكيتان، و سوره البقره و هي أول سوره مفضله نازله بالمدينه قال تعالى: قُلْ لَا أَحَدٌ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهْلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (الأنعام / ١٤٥) و قال تعالى: إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَّ وَ لَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (البقره ١٧٣).

و الآيات جميعا- كما ترى- تحرّم هذه الأربعة المذكوره في صدر هذه الآيه و تماثل الآيه أيضا في الاستثناء الواقع في ذيلها بقوله: «فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصِهِ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» فأيه المائده بالنسبه الى هذه المعاني المشتركه بينها و بين تلك مؤكده لتلك الآيات.

بل النهي عنها و خاصه عن الثلاثه الاول أعنى الميته و الدم و لحم الخنزير أسبق تشريعا من نزول سورتي الأنعام و النحل المكيتين، فإن آيه الأنعام تعلق تحريم الثلاثه أو خصوص لحم الخنزير بأنه رجس، فتدل على تحريم أكل الرجز، و قد قال تعالى في سوره المدثر- و هي من السور النازله في أول البعثه-: وَ الرُّجْزَ فَاهْجُرْ (المدثر ٥).

و كذلك ما عدّه تعالى بقوله: «وَ الْمُنْخَنِقَهُ وَ الْمُوقُودَةَ وَ الْمُتَرَدِّيَةَ وَ النَّطِيحَةَ وَ مَا أَكَلَ السَّبْعُ»

جميعا من مصاديق الميتة بدليل قوله: «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» فإنما ذكرت في الآية لنوع عنايه بتوضيح أفراد الميتة و مزيد بيان للمحرمات من الأطعمه من غير أن تتضمن الآية فيها على تشريع حديث.

و كذلك ما عدّه الله تعالى بقوله: «وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ وَأَنْ تَسْتَفْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فَسُقٌ» فإنهما و إن كانا أول ما ذكرا ذكرا في هذه السوره لكنه تعالى علل تحريمهما أو تحريم الثانى منهما-على احتمال ضعيف-بالفسق، و قد حرم الفسق في آيه الأنعام، و كذا قوله: «غَيْرَ مُتَّجَانِفٍ لِإِثْمٍ» يدل على تحريم ما ذكر في الآية لكونه إثمًا، و قد دلت آيه البقره على تحريم الاثم، و قال تعالى أيضا: وَ ذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَ بَاطِنَهُ (الأنعام ١٢٠/)، و قال تعالى: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ وَ الْإِثْمَ (الأعراف ٣٣/).

فقد اتضح و بان أن الآية لا تشتمل فيما عدته من المحرمات على أمر جديد غير مسبوق بالتحريم فيما تقدم عليها من الآيات المكيه أو المدنيه المتضمنه تعداد محرمات الأطعمه من اللحوم و نحوها.

قوله تعالى: وَ الْمُنْخَنَقَهُ وَ الْمُوقُودَهُ وَ الْمُتَرَدِّيَهُ وَ النَّطِيحَهُ وَ مَا أَكَلَ السَّبْعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ المنخنقه هي البهيمة التي تموت بالخنق، و هو أعم من أن يكون عن اتفاق أو بعمل عامل اختيارا، و من أن يكون بأى آله و وسيله كانت كحبل يشد على عنقها و يسد بضغطة مجرى تنفسها، أو يادخال رأسها بين خشبتين، كما كانت هذه الطريقه و أمثالها دائره بينهم في الجاهليه.

و الموقوده هي التي تضرب حتى تموت، و المترديه هي التي تردت أى سقطت من مكان عال كشاهق جبل أو بئر و نحوهما.

و النطيحة هي التي ماتت عن نطح نطحها به غيرها، و ما أكل السبع هي التي أكلها أى أكل من لحمها السبع فإن الأكل يتعلق بالمأكول سواء أفنى جميعه أو بعضه و السبع هو الوحش

الضارى كالأسد و الذئب و النمر و نحوها.

و قوله: «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» استثناء لما يقبل التذكيه بمعنى فرى الأوداج الاربعه منها كما اذا كانت فيها بقيه من الحياه يدل عليها مثل حركه ذنب أو أثر تنفس و نحو ذلك، و الاستثناء كما ذكرنا آنفا متعلق بجميع ما يقبله من المعدودات من دون أن يتقيد بالتعلق بالأخير من غير دليل عليه.

و هذه الامور الخمسه أعنى المنخقه و الموقوذه و المترديه و النطичه و ما أكل السبع كل ذلك من أفراد الميتة و مصاديقها، بمعنى أن المترديه أو النطичه مثلا إنما تحرمان اذا ماتتا بالتردى و النطح، و الدليل على ذلك قوله: «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» فإن من البديهي أنهما لا تؤكلان ما دامت الروح فى جثمانهما، و إنما تؤكلان بعد زهوقها و حينئذ فيما أن تذكيا أولا، و قد استثنى الله سبحانه التذكيه فلم يبق للحرمة إلا- اذا ماتتا عن ترد أو نطح من غير تذكيه، و أما لو تردت شاه-مثلا- فى بئر ثم أخرجت سليمة مستقيمه الحال فعاشت قليلا أو كثيرا ثم ماتت حتف أنفها أو ذكيت بذبح فلا تطلق عليها المترديه، يدل على ذلك السياق فإن المذكورات فيها ما اذا هلكت، و استند هلاكها الى الوصف الذى ذكر لها كالانخاق و الوقود و التردى و النطح.

و الوجه فى تخصيص هذه المصاديق من الميتة بالذكر رفع ما ربما يسبق الى الوهم أنها ليست ميتة بناء على أنها أفراد نادره منها، و الذهن يسبق غالبا الى الفرد الشائع، و هو ما اذا ماتت بمرض و نحوه من غير أن يكون لمفاجأه سبب من خارج، فصرح تعالى بهذه الأفراد و المصاديق النادره بأسمائها حتى يرتفع اللبس و تتضح الحرمة.

و قوله تعالى: «وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ» قال الرغاب فى المفردات: نصب الشيء وضعه وضعاً ناتئاً كنصب الرمح و البناء و الحجر، و النصيب الحجره تنصب على الشيء، و جمعه نصائب و نصب، و كان للعرب حجاره تعبدها و تذبح عليها قال: كَانَتْهُمْ إِلَى نُصْبٍ يُوفِضُونَ (المعارج ٤٣)، قال: «وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصَبِ» و قد يقال فى جمعه: أنصاب قال:

وَ الْأَنْصَابُ وَ الْأَزْلَامُ وَ النَّصْبُ وَ النَّصْبُ:التعب.

فالمراد من النهى عن أكل لحوم ما ذبح على النصب أن يستنّ بسنن الجاهليه فى ذلك، فإنهم كانوا نصبوا حول الكعبه أحجارا يقدسونها و يذبحون عليها، و كان من سنن الوثنيه.

قوله تعالى: وَ أَنْ تَشْتَقِيَهُمُ بِالْأَزْلَامِ وَ الْأَزْلَامُ هِيَ الْقِدَاحُ، وَ الْأَسْتِقْسَامُ بِالْقِدَاحِ أَنْ يَأْخُذَ جُزُورًا أَوْ بِهَيْمَةٍ أُخْرَى - عَلَى سَهَامٍ ثُمَّ يَضْرِبُ بِالْقِدَاحِ فِي تَشْخِيسٍ مِنْ لَهُ سَهْمٌ مِمَّنْ لَا سَهْمَ لَهُ، وَ فِي تَشْخِيسِ نَفْسِ السَّهَامِ الْمُخْتَلَفِ وَ هُوَ الْمَيْسِرُ، وَ قَدْ مَرَّ شَرْحُهُ عِنْدَ قَوْلِهِ تَعَالَى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ الْآيَةِ (البقره ٢١٩)؛ فى الجزء الثانى من هذا الكتاب.

قال الراغب: القسم إفراز النصب يقال: قسمت كذا قسما و قسمه، و قسمه الميراث و قسمه الغنيمه تفريقهما على أربابهما، قال: لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (الحجر ٤٤) «وَ بُنِيَتْهُمُ أَنْ الْمَاءَ قَسَمَهُ بَيْنَهُمْ» وَ اسْتَقْسَمْتَهُ سَأَلْتَهُ أَنْ يَقْسِمَ، ثُمَّ قَدْ يَسْتَعْمَلُ فِي مَعْنَى قَسَمَ قَالَ:

«وَ أَنْ تَشْتَقِيَهُمُ بِالْأَزْلَامِ»، وَ مَا ذَكَرَهُ مِنْ كَوْنِ اسْتَقْسَمَ بِمَعْنَى قَسَمَ إِنَّمَا هُوَ بِحَسَبِ الْأَنْطَبَاقِ مُصَدِّقًا، وَ الْمَعْنَى بِالْحَقِيقَةِ طَلَبُ الْقَسْمِ بِالْأَزْلَامِ الَّتِي هِيَ آيَاتُ هَذَا الْفِعْلِ، فَاسْتَعْمَالَ الْآيَةِ طَلَبُ لِحْصُولِ الْفِعْلِ الْمُرْتَبِّ عَلَيْهِا فَيَصْدُقُ الْأَسْتِفْعَالُ. فَالمراد بالاستقسام بالأزلام المنهى عنه على ظاهر السياق هو ضرب القداح على الجزور و نحوه للذهاب بما فى لحمه من النصب.

و قوله: «ذَلِكُمْ فِتْنٌ» يحتمل الاشاره الى جميع المذكورات، و الاشاره الى الأخيرين المذكورين بعد قوله: «إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ» لحيلولة الاستثناء، و الاشاره الى الأخير و لعل الأوسط خير الثلاثة.

قوله تعالى: الْيَوْمَ يَنسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ أَمْرَ الْآيَةِ فى حلولها محلها ثم فى دلالتها عجيب، فإنك اذا تأملت صدر الآيه أعنى قوله تعالى:

«حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ -الى قوله:- ذَلِكُمْ فَسُقُوا» و أضفت إليه ذيلها أعنى قوله: «فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصِهِ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمِ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» وجدته كلاما تاما غير متوقف فى تمام معناه و إفادته المراد منه الى شىء من قوله: «الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» الخ؛ أصلا، و ألفيته آيه كامله مماثله لما تقدم عليها فى النزول من الآيات الواقعه فى سور الأنعام و النحل و البقره المبينه لمحرمت الطعام، فى سورة البقره: «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» و يماثله ما فى سورتي الأنعام و النحل.

و ينتج ذلك أن قوله: «الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا» الخ؛ كلام معترض موضوع فى وسط هذه الآيه غير متوقف عليه لفظ الآيه فى دلالتها و بيانها، سواء قلنا: إن الآيه نازله فى وسط الآيه فتخللت بينها من أول ما نزلت، أو قلنا: إن النبى صلى الله عليه و آله و سلم هو الذى أمر كتّاب الوحى بوضع الآيه فى هذا الموضع مع انفصال الآيتين و اختلافهما نزولا. أو قلنا: إنها موضوعه فى موضعها الذى هى فيه عند التأليف من غير أن تصاحبها نزولا، فإن شيئا من هذه الاحتمالات لا يؤثر أثرا فيما ذكرناه من كون هذا الكلام المتخلل متعرضا اذا قيس الى صدر الآيه و ذيلها.

و يؤيد ذلك أن جل الروايات الوارده فى سبب النزول- لو لم يكن كلها، و هى أخبار جمّه- يخص قوله: «الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا» الخ؛ بالذكر من غير أن يتعرض لأصل الآيه أعنى قوله: «حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ»، أصلا، و هذا يؤيد أيضا نزول قوله: «الْيَوْمَ يَنْسَى» الخ؛ نزولا مستقلا منفصلا عن الصدر و الذيل، و أن وقوع الآيه فى وسط الآيه مستند الى تأليف النبى صلى الله عليه و آله و سلم أو الى تأليف المؤلفين بعده.

و يؤيده ما رواه فى الدر المنثور عن عبد بن حميد عن الشعبي قال: نزل على النبى صلى الله عليه و آله و سلم هذه الآيه- و هو بعرفه- «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» و كان اذا أعجبه آيات جعلهن صدر السوره، قال: و كان جبرئيل يعلمه كيف ينسك.

ثم إن هاتين الجملتين أعنى قوله: «الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» وقوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» متقاربتان مضمونا، مرتبطتان مفهوما بلا- ريب، لظهور ما بين يأس الكفار من دين المسلمين و بين إكمال دين المسلمين من الارتباط القريب، وقبول المضمونين لأن يمتزجا فيتركبا مضمونا واحدا مرتبط الأجزاء، متصل الأطراف بعضها ببعض، مضافا الى ما بين الجملتين من الاتحاد فى السياق.

و يؤيد ذلك ما نرى أن السلف و الخلف من مفسرى الصحابه و التابعين و المتأخرين الى يومنا هذا أخذوا الجملتين متصلتين يتم بعضهما بعضا، وليس ذلك إلا لأنهم فهموا من هاتين الجملتين ذلك، و بنوا على نزولهما معا، و اجتماعهما من حيث الدلالة على مدلول واحد.

و ينتج ذلك أن هذه الآيه المعترضه أعنى قوله: «الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ -الى قوله: - وَ رَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا» كلام واحد متصل بعض أجزائه ببعض مسوق لغرض واحد قائم بمجموع الجملتين من غير تشتت سواء قلنا بارتباطه بالآيه المحيطة بها أو لم نقل، فإن ذلك لا يؤثر البتة فى كون هذا المجموع كلاما واحدا معترضا لا كلامين ذوى غرضين، و أن اليوم المتكرر فى قوله: «الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا»، و فى قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»، أريد به يوم واحد يبس فيه الكفار و أكمل فيه الدين.

ثم ما المراد بهذا اليوم الواقع فى قوله تعالى: «الْيَوْمَ يَبْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ»؟ فهل المراد به زمان ظهور الاسلام ببعثه النبى صلى الله عليه و آله و سلم و دعوته فيكون المراد أن الله أنزل إليكم الإسلام، و أكمل لكم الدين و أتم عليكم النعمه و يأس منكم الكفار؟

لا- سبيل الى ذلك لأن ظاهر السياق أنه كان لهم دين كان الكفار يطمعون فى إبطاله أو تغييره، و كان المسلمون يخشونهم على دينهم فأياس الله الكافرين مما طمعوا فيه و آمن المسلمين و أنه كان ناقصا فأكمله الله و أتم نعمته عليهم، و لم يكن لهم قبل الاسلام دين حتى يطمع فيه الكفار أو يكمله الله و يتم نعمته عليهم.

على أن لازم ما ذكر من المعنى أن يتقدم قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ» ،على قوله: «الْيَوْمَ يَتَسَّ الدِّينَ كَفَرُوا» ،حتى يستقيم الكلام فى نظمه.

أو أن المراد باليوم هو ما بعد فتح مكة حيث أبطل الله فيه كيد مشركى قريش و أذهب شوكتهم،و هدم فيه بنیان دينهم،و كسر أصنامهم،فانقطع رجاؤهم أن يقوموا على ساق، و يضادوا الاسلام و يمانعوا نفوذ أمره و انتشار صيته؟

لا سبيل الى ذلك أيضا فإن الآيه تدل على إكمال الدين و إتمام النعمه و لما يكمل الدين بفتح مكة-و كان فى السنه الثامنه من الهجره-فكم من فريضه نزلت بعد ذلك،و كم من حلال أو حرام شرع فيما بينه و بين رحله النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

على أن قوله: «الدِّينَ كَفَرُوا» يعم جميع مشركى العرب و لم يكونوا جميعا آيسين من دين المسلمين،و من الدليل عليه أن كثيرا من المعارضات و الموائيق على عدم التعرض كانت باقيه بعد على اعتبارها و احترامها،و كانوا يحجون حجه الجاهليه على سنن المشركين،و كانت النساء يحججن عاريات مكشوفات العوره حتى بعث رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عليا عليه السلام بآيات البراءه فأبطل بقايا رسوم الجاهليه.

أو أن المراد باليوم ما بعد نزول البراءه من الزمان حيث انبسط الاسلام على جزيره العرب تقريبا،و عفت آثار الشرك،و ماتت سنن الجاهليه فما كان المسلمون يرون فى معاهد الدين و مناسك الحج أحدا من المشركين،وصفا لهم الأمر،و أبدلهم الله بعد خوفهم أمنا يعبدونه و لا يشركون به شيئا؟

لا سبيل الى ذلك فإن مشركى العرب و إن أسوا من دين المسلمين بعد نزول آيات البراءه و طى بساط الشرك من الجزيره و إعفاء رسوم الجاهليه إلا- أن الدين لم يكمل بعد،و قد نزلت فرائض و أحكام بعد ذلك،و منها ما فى هذه السوره:(سوره المائده)،و قد اتفقوا على نزولها فى آخر عهد النبى صلى الله عليه و آله و سلم،و فيها شىء كثير من أحكام الحلال و الحرام و الحدود

فتحصّل أنه لا- سبيل الى احتمال أن يكون المراد باليوم فى الآيه معناه الواسع مما يناسب مفاد الآيه بحسب بادئ النظر كزمان ظهور الدعوه الاسلاميه أو ما بعد فتح مكه من الزمان، أو ما بعد نزول آيات البراءه فلا سبيل إلا أن يقال: ان المراد باليوم يوم نزول الآيه نفسها، و هو يوم نزول السوره إن كان قوله: «الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا»، معترضا مرتبطا بحسب المعنى بالآيه المحيطه بها، أو بعد نزول سوره المائده فى أواخر عهد النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و ذلك لمكان قوله تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ» .

فهل المراد باليوم يوم فتح مكه بعينه؟ أو يوم نزول البراءه بعينه؟ يكفى فى فساد ما تقدم من الإشكالات الوارده على الاحتمال الثانى و الثالث المتقدمين.

أو أن المراد باليوم هو يوم عرفه من حجه الوداع كما ذكره كثير من المفسرين و به ورد بعض الروايات؟ فما المراد من يأس الذين كفروا يومئذ من دين المسلمين فإن كان المراد باليأس من الدين يأس مشركى قريش من الظهور على دين المسلمين فقد كان ذلك يوم الفتح عام ثمانيه لا يوم عرفه من السنه العاشره، و إن كان المراد يأس مشركى العرب من ذلك فقد كان ذلك عند نزول البراءه و هو فى السنه التاسعه من الهجره، و إن كان المراد به يأس جميع الكفار الشامل لليهود و النصرارى و المجوس و غيرهم- و ذلك الذى يقتضيه إطلاق قوله:

«الَّذِينَ كَفَرُوا» -فهؤلاء لم يكونوا آيسين من الظهور على المسلمين بعد، و لما يظهر للإسلام قوه و شوكة و غلبه فى خارج جزيره العرب اليوم.

و من جهه أخرى يجب أن نتأمل فيما لهذا اليوم- و هو يوم عرفه تاسع ذى الحجه سنه عشر من الهجره- من الشأن الذى يناسب قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي» فى الآيه.

فربما أمكن أن يقال: إن المراد به إكمال أمر الحج بحضور النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بنفسه فيه، و تعليمه

لكن فيه أن مجرد تعليمه الناس مناسك حجهم - وقد أمرهم بحج التمتع و لم يلبث دون أن صار مهجوراً، وقد تقدمه تشريع أركان الدين من صلاه و صوم و حج و زكاه و جهاد و غير ذلك - لا يصح أن يسمى إكمالاً للدين، و كيف يصح أن يسمى تعليم شيء من واجبات الدين إكمالاً لذلك الواجب فضلاً عن أن يسمى تعليم واجب من واجبات الدين لمجموع الدين؟

على أن هذا الاحتمال يوجب انقطاع رباطه الفقيه الاولي أعنى قوله: «الْيَوْمَ يَنْسُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» بهذه الفقيه أعنى قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» و أى ربط لياس الكفار عن الدين بتعليم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم حج التمتع للناس؟

و ربما أمكن أن يقال: إن المراد به إكمال الدين بنزول بقايا الحلال و الحرام فى هذا اليوم فى سورة المائدة، فلا حلال بعده و لا حرام، و بإكمال الدين استولى اليأس على قلوب الكفار، و لاحت آثاره على وجوههم.

لكن يجب أن نتبصر فى تمييز هؤلاء الكفار الذين عبر عنهم فى الآية بقوله: «الَّذِينَ كَفَرُوا» على هذا التقدير و أنهم من هم؟ فإن أريد بهم كفار العرب فقد كان الإسلام عمهم يومئذ و لم يكن فيهم من يتظاهر بغير الإسلام و هو الإسلام حقيقة، فمن هم الكفار الآيسون؟

و إن أريد بهم الكفار من غيرهم كسائر العرب من الامم و الأجيال فقد عرفنا أننا لم يكونوا آيسين يومئذ من الظهور على المسلمين.

ثم نتبصر فى أمر انسداد باب التشريع بنزول سورة المائدة و انقضاء يوم عرفه فقد وردت روايات كثيرة لا يستهان بها عدداً بنزول أحكام و فرائض بعد اليوم كما فى آيه الصيف (1) و آيات الربا، حتى أنه روى عن عمر أنه قال فى خطبه خطبها: من آخر القرآن نزولاً آيه

الربا، وإنه مات رسول الله و لم يبينه لنا، فدعوا ما يريكم الى ما لا يريكم، الحديث. و روى البخارى فى الصحيح عن ابن عباس قال: آخر آيه نزلت على النبي صلى الله عليه و آله و سلم آيه الربا، الى غير ذلك من الروايات.

و ليس للباحث أن يضعف الروايات فيقدم الآيه عليها، لأن الآيه ليست بصريحه و لا ظاهره فى كون المراد باليوم فيها هذا اليوم بعينه و إنما هو وجه محتمل يتوقف فى تعينه على انتفاء كل احتمال ينافيه، و هذه الاخبار لا تقصر عن الاحتمال المجرد عن السند.

أو يقال: إن المراد بإكمال الدين خلوص البيت الحرام لهم، و إجلاء المشركين عنه حتى حجه المسلمون و هم لا يخالطهم المشركون.

و فيه: أنه قد كان صفا الأمر للمسلمين فيما ذكر قبل ذلك بسنه، فما معنى تقييده باليوم فى قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ»؟ على أنه لو سلم كون هذا الخلوص إتماما للنعمه لم يسلم كونه إكمالاً للدين، و أى معنى لتسميه خلوص البيت إكمالاً للدين، و ليس الدين إلا- مجموعته من عقائد و أحكام، و ليس إكماله إلا- أن يضاف الى عدد أجزائها و أبعاضها عدد؟ و أما صفاء الجو لإجرائها، و ارتفاع الموانع و المزاحمات عن العمل بها فليس يسمى إكمالاً للدين البتة.

على أن إشكال يأس الكفار عن الدين على حاله.

و يمكن أن يقال: إن المراد من إكمال الدين بيان هذه المحرمات بيانا تفصيليا ليأخذ به المسلمون، و يجتنبوا و لا يخشوا الكفار فى ذلك لأنهم قد يسوا من دينهم بإعزاز الله المسلمين، و إظهار دينهم و تغليبهم على الكفار.

توضيح ذلك أن حكمه الاكتفاء فى صدر الإسلام بذكر المحرمات الاربعه أعنى الميتة و الدم و لحم الخنزير و ما أهل لغير الله به الواقعه فى بعض السور المكيه و ترك تفصيل ما يندرج فيها مما كرهه الاسلام للمسلمين من سائر ما ذكر فى هذه الآيه الى ما بعد فتح مكه إنما هى التدرج فى تحريم هذه الخبائث و التشديد فيها كما كان التدرج فى تحريم الخمر لثلاثين نفر

العرب من الاسلام، ولا يروا فيه حرجا يرجون به رجوع من آمن فقرائهم و هم أكثر السابقين الأولين.

جاء هذا التفصيل للمحرمات بعد قوه الاسلام، و توسعه الله على أهله و إعزازهم، و بعد أن يؤس المشركون بذلك من نفور أهله منه، و زال طمعهم فى الظهور عليهم، و إزاله دينهم بالقوه القاهره، فكان المؤمنون أجدر بهم لا يبالوهم بالمداواه، و لا يخافوهم على دينهم و على أنفسهم.

فالمراد باليوم يوم عرفه من عام حجه الوداع، و هو اليوم الذى نزلت فيه هذه الآيه المبينه لما بقى من الاحكام التى أبطل بها الاسلام بقايا مهانه الجاهليه و خبائثها و أوهامها، و المبشره بظهور المسلمين على المشركين ظهورا تاما لا مطمع لهم فى زواله، و لا حاجه معه الى شىء من مداراتهم أو الخوف من عاقبه أمرهم.

فالله سبحانه يخبرهم فى الآيه أن الكفار أنفسهم قد يؤسوا من زوال دينهم و أنه ينبغى لهم - و قد بدّلهم بضعفهم قوه، و بخوفهم أمنا، و بفرهم غنى - أن لا يخشوا غيره تعالى، و ينتهوا عن تفاصيل ما نهى الله عنه فى الآيه فيها كمال دينهم. كذا ذكره بعضهم بتلخيص ما فى النقل.

و فيه: أن هذا القائل أراد الجمع بين عده من الاحتمالات المذكوره ليدفع بكل احتمال ما يتوجه الى الاحتمال الآخر من الإشكال فتورّط بين المحاذير برمتها و أفسد لفظ الآيه و معناها جميعا.

فذهل عن أن المراد باليأس إن كان هو اليأس المستند الى ظهور الاسلام و قوته و هو ما كان بفتح مكه أو بنزول آيات البراءه لم يصح أن يقال يوم عرفه من السنه العاشره: «الْيَوْمَ يَبْسُ الدِّينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» و قد كانوا يؤسوا قبل ذلك بسنه أو سنتين، و إنما اللفظ الوافى له أن يقال: قد يؤسوا كما عبر به القائل نفسه فى كلامه فى توضيح المعنى أو يقال: إنهم آيسون.

و ذهل عن أن هذا التدرج الذى ذكره فى محرمات الطعام، و قاس تحريمها بتحريم الخمر إن

أريد به التدرج من حيث تحريم بعض الافراد بعد بعض فقد عرفت أن الآيه لا تشتمل على أزيد مما تشتمل عليه آيات التحريم السابقة نزولاً على هذه الآيه أعنى آيات البقره و الانعام و النحل، و أن المنخقه و الموقوده، الخ؛ من افراد ما ذكر فيها.

و إن أريد به التدرج من حيث البيان الإجمالى و التفصيلى خوفاً من امتناع الناس من القبول فى غير محله، فإن ما ذكر بالتصريح فى السور السابقه على المائده أعنى الميته و الدم و لحم الخنزير و ما أهل لغير الله به أغلب مصداقاً، و أكثر ابتلاءً، و أوقع فى قلوب الناس من أمثال المنخقه و الموقوده و غيرها، و هى أمور نادره التحقق و شاذه الوجود، فما بال تلك الاربعه و هى أهم و أوقع و أكثر يصرح بتحريمها من غير خوف من ذلك ثم يتقى من ذكرها ما لا يعبأ بأمره بالاضافه إليها فيتدرج فى بيان حرمتها، و يخاف من التصريح بها؟

على أن ذلك لو سلم لم يكن إكمالاً للدين، و هل يصح ان يسمى تشريع الاحكام ديناً؟ و إبلاغها و بيانها إكمالاً للدين؟ و لو سلم فإنما ذلك إكمال لبعض الدين و إتمام لبعض النعمه لا- للكل و الجميع، و قد قال تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي» فأطلق القوم من غير تقييد.

على أنه تعالى قد بين أحكاماً كثيره فى ايام كثيره، فما بال هذا الحكم فى هذا اليوم خص بالمزيه فسماه الله أو سمى بيانه تفصيلاً بإشمال الدين و إتمام النعمه؟

أو أن المراد بإكمال الدين إكماله بسد باب التشريع بعد هذه الآيه المبيئه لتفصيل محرّمات الطعام، فما شأن الاحكام النازله ما بين نزول المائده و رحله النبي صلى الله عليه و آله و سلم؟ بل ما شأن سائر الاحكام النازله بعد هذه الآيه فى سوره المائده؟ تأمل فيه.

و بعد ذلك كله ما معنى قوله تعالى: «وَ رَضِيَتْ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا» -و تقديره: اليوم رضيت، الخ؛- لو كان المراد بالكلام الامتنان بما ذكر فى الآيه من المحرمات يوم عرفه من السنه العاشره؟ و ما وجه اختصاص هذا اليوم بأن الله سبحانه رضى فيه الاسلام ديناً، و لا أمر

يختص به اليوم مما يناسب هذا الرضى؟.

و بعد ذلك كله يرد على هذا الوجه أكثر الاشكالات الواردة على الوجه السابقه أو ما يقرب منها مما تقدم بيانه، ولا نطيل بالإعاده.

أو أن المراد باليوم واحد من الايام التى بين عرفه و بين ورود النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم المدينة على بعض الوجوه المذكوره فى معنى يأس الكفار و معنى إكمال الدين.

و فيه من الإشكال ما يرد على غيره على التفصيل المتقدم.

فهذا شطر من البحث عن الآيه بحسب السير فيما قيل أو يمكن ان يقال فى توجيه معناها، و لنبحث عنها من طريق آخر يناسب طريق البحث الخاص بهذا الكتاب.

قوله: «الْيَوْمَ يَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ» -و اليأس يقابل الرجاء، و الدين إنما نزل من عند الله تدريجاً- يدل على ان الكفار قد كان لهم مطمع فى دين المسلمين و هو الاسلام، و كانوا يرجون زواله بنحو منذ عهد و زمان، و أن أمرهم ذلك كان يهدد الاسلام حيناً بعد حين، و كان الدين منهم على خطر يوماً بعد يوم، و أن ذلك كان من حقه ان يحذر منه و يخشاه المؤمنون.

فقوله: «فَلَا تَخْشَوْهُمْ»، تأمين منه سبحانه للمؤمنين مما كانوا منه على خطر، و من تسرّ به على خشيه، قال تعالى: وَذَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ (آل عمران ٦٩)، و قال تعالى: وَذَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (البقره ١٠٩).

و الكفار لم يكونوا يتربصون الدوائر بالمسلمين إلا لدينهم، و لم يكن يضيق صدورهم و ينصدع قلوبهم إلا من جهة ان الدين كان يذهب بسؤددهم و شرفهم و استرسالهم فى اقتراف كل ما تهواه طباعهم، و تألفه و تعتاد به نفوسهم، و يختم على تمتعهم بكل ما يشتهون بلا قيد

فقد كان الدين هو المبعوض عندهم دون اهل الدين الا- من جهة دينهم الحق فلم يكن في قصدهم اباده المسلمين و اِفاء جمعهم بل اِطفاء نور الله و تحكيم اركان الشرك المتزلزله المضطربه به، و ردّ المؤمنين كفارا كما مر في قوله: «لَوْ يَرُدُّوْكُمْ مِنْ بَعْدِ اِيْمَانِكُمْ كُفٰرًا» الآيه؛ قال تعالى:

يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (الصف ٩).

و قد قال تعالى فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (المؤمن ١٤).

و لذلك لم يكن لهم همّ إلا- ان يقطعوا هذه الشجره الطيبه من أصلها، و يهدموا هذا البنيان الرفيع من أسسه بتفتين المؤمنين و تسريه النفاق في جماعتهم و بث الشبهه و الخرافات بينهم لإفساد دينهم.

و قد كانوا يأخذون بادئ الامر يفترّون عزيمة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و يستمحقون همّته في الدعوه الدينيه بالمال و الجاه، كما يشير اليه قوله تعالى: وَ انْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ امشُوا وَ اصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (ص ٦) أو بمخالطه أو مداهنه، كما يشير اليه قوله: وَ دُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (القلم ٩)، و قوله: وَ لَوْ لَا أَنْ تَبْتَئَاكَ لَقَدْ كِدْتُمْ تَزْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا (الإسراء ٧٤)، و قوله: يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ وَ لَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (الكافرون ٣) على ما ورد في اسباب النزول.

و كان آخر ما يرجونه في زوال الدين، و موت الدعوه المحقه، أنه سيموت بموت هذا القائم بأمره و لا عقب له، فإنهم كانوا يرون أنه ملك في صوره النبوه، و سلطنه في لباس الدعوه و الرساله، فلو مات أو قتل لانقطع أثره و مات ذكره و ذكر دينه على ما هو المشهود عاده من حال السلاطين و الجابره أنهم مهما بلغ أمرهم من التعالي و التجبر و ركوب رقاب الناس فإن ذكرهم يموت بموتهم، و سننهم و قوانينهم الحاكمه بين الناس و عليهم تدفن معهم في قبورهم،

يشير الى رجائهم هذا قوله تعالى: إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ (الكوثر ٣) على ما ورد في أسباب النزول.

فقد كان هذه و أمثالها أمانى تمكّن الرجاء من نفوسهم، و تطمعهم فى إطفاء نور الدين، و تزّين لأوهامهم ان هذه الدعوه الطاهره ليست الا- أهدوئه ستكذبه المقادير و يقضى عليها و يعفو أثرها مرور الايام و الليالى، لكن ظهور الاسلام تدريجا على كل ما نازله من دين و أهله، و انتشار صيته، و اعتلاء كلمته بالشوكة و القوه قضى على هذه الأمانى فيئسوا من إفساد عزيمة النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و إيقاف همّته عند بعض ما كان يريد، و تطمئنه بمال أو جاه.

قوه الاسلام و شوكته أياستهم من جميع تلك الاسباب:- أسباب الرجاء- إلا واحدا، و هو أنه صلى الله عليه و آله و سلم مقطوع العقب لا ولد له تخلفه فى أمره، و يقوم على ما قام عليه من الدعوه الدينيه فسيموت دينه بموته، و ذلك أن من البديهي ان كمال الدين من جهه أحكامه و معارفه -و إن بلغ ما بلغ- لا يقوى بنفسه على حفظ نفسه، و أن سنه من السنن المحدثه و الأديان المتبعه لا- تبقى على نضارتها و صفائها لا- بنفسها و لا بانتشار صيتها و لا بكثره المنتحلين بها، كما أنها لا تنمحي و لا تنطمس بقهر أو جبر أو تهديد أو فتنه أو عذاب أو غير ذلك إلا بموت حملتها و حفظتها و القائمين بتدبير أمرها.

و من جميع ما تقدم يظهر ان تمام يأس الكفار إنما كان يتحقق عند الاعتبار الصحيح بأن ينصب الله لهذا الدين من يقوم مقام النبي صلى الله عليه و آله و سلم فى حفظه و تدبير أمره، و إرشاد الامه القائمه به فيتعقب ذلك يأس الذين كفروا من دين المسلمين لما شاهدوا خروج الدين عن مرحله القيام بالحامل الشخصى الى مرحله القيام بالحامل النوعى، و يكون ذلك إكمالا للدين بتحويله من صفه الحدوث الى صفه البقاء، و إتماما لهذه النعمه، و ليس يبعد ان يكون قوله تعالى: وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْتَفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

(البقره ١٠٩/١) باشماله على قوله: «حَتَّى يَأْتِيَ»، اشاره الى هذا المعنى.

و هذا يؤيد ما ورد من الروايات ان الآيه نزلت يوم غدیر خم، و هو اليوم الثامن عشر من ذى الحجه سنه عشر من الهجره فى أمر ولايه على عليه السلام، و على هذا فيرتبط الفقرتان أوضح الارتباط، و لا يرد عليه شيء من الإشكالات المتقدمه.

ثم إنك بعد ما عرفت معنى اليأس فى الآيه تعرف أن اليوم فى قوله: «الْيَوْمَ يَيْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» ظرف متعلق بقوله: «يَيْسَ» و أن التقديم للدلاله على تفخيم أمر اليوم، و تعظيم شأنه، لما فيه من خروج الدين من مرحله القيام بالقيم الشخصى الى مرحله القيام بالقيم النوعى، و من صفه الظهور و الحدوث الى صفه البقاء و الدوام.

و لا- يقاس الآيه بما سيأتى من قوله: «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ» الآيه؛ فإن سياق الآيتين مختلف فقوله: «الْيَوْمَ يَيْسَ»، فى سياق ال-اعتراض، و قوله: «الْيَوْمَ أُحِلَّ»، فى سياق الاستيناف، و الحكمان مختلفان: فحكم الآيه الاولى تكوينى مشتمل على البشرى من وجه و التحذير من وجه آخر، و حكم الثانيه تشريعى منبئ عن الامتنان. فقوله: «الْيَوْمَ يَيْسَ»، يدل على تعظيم أمر اليوم لاشتماله على خير عظيم الجدوى و هو يأس الذى كفروا من دين المؤمنين، و المراد بالذين كفروا- كما تقدمت الإشاره اليه- مطلق الكفار من الوثنيين و اليهود و النصارى و غيرهم لمكان الإطلاق.

و أما قوله: «فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَ اَخْشَوْنِى» فالنهي إرشادى لا مولوى، معناه أن لا موجب للخشيه بعد يأس الذين كنتم فى معرض الخطر من قبلهم- و من المعلوم ان الانسان لا يهتم بأمر بعد تمام اليأس من الحصول عليه و لا يسعى الى ما يعلم ضلال سعيه فيه- فأنتم فى أمن من ناحيه الكفار، و لا ينبغى لكم مع ذلك الخشيه منهم على دينكم فلا تخشوهم و اخشونى.

و من هنا يظهر أن المراد بقوله: «وَ اَخْشَوْنِى» بمقتضى السياق أن اخشونى فيما كان عليكم ان

تخشوهم فيه لو لا بأسهم و هو الدين و نزعهم من أيديكم، و هذا نوع تهديد للمسلمين كما هو ظاهر، و لهذا لم نحمل الآية على الامتنان.

و يؤيد ما ذكرنا ان الخشية من الله سبحانه واجب على أى تقدير من غير ان يتعلق بوضع دون وضع، و شرط دون شرط، فلا وجه للإضراب من قوله: «فَلَا تَخْشَوْهُمْ» الى قوله:

«وَ اِحْشَوْنِ» لو لا أنها خشية خاصة فى مورد خاص.

و لا- تقاس الآية بقوله تعالى: «فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُونِ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» (آل عمران/ ١٧٥) لأن الامر بالخوف من الله فى تلك الآية مشروط بالإيمان، و الخطاب مولوى، و مفاده انه لا يجوز للمؤمنين ان يخافوا الكفار على أنفسهم بل يجب ان يخافوا الله سبحانه وحده.

فالآية تنهاهم عما ليس لهم بحق و هو الخوف منهم على أنفسهم سواء أمروا بالخوف من الله ام لا، و لذلك يعلى ثانيا الامر بالخوف من الله بقيد مشعر بالتعليل، و هو قوله: «إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» و هذا بخلاف قوله: «فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَ اِحْشَوْنِ» فإن خشيتهم هذه خشية منهم على دينهم، و ليست بمبغوضه لله سبحانه لرجوعها الى ابتغاء مرضاته بالحقيقه، بل إنما النهى عنها لكون السبب الداعى إليها- هو عدم بأس الكفار منه- قد ارتفع و سقط أثره فالنهى عنه إرشادى، فكذا الامر بخشية الله نفسه، و مفاد الكلام ان من الواجب أن تخشوا فى امر الدين، لكن سبب الخشية كان الى اليوم مع الكفار فكنتم تخشونهم لرجائهم فى دينكم و قد يسوا اليوم و انتقل السبب الى ما عند الله فاخشوه وحده. فافهم ذلك.

فالآية لمكان قوله: «فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَ اِحْشَوْنِ» لا تخلو عن تهديد و تحذير، لأن فيه أمرا بخشية خاصة دون الخشية العامه التى تجب على المؤمن على كل تقدير و فى جميع الاحوال، فلننظر فى خصوصيه هذه الخشية، و أنه ما هو السبب الموجب لوجوبها و الامر بها؟.

لا إشكال فى ان الفقرتين أعنى قوله: «الْيَوْمَ يَبْسُ»، و قوله: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي»، فى الآية مرتبطتان مسوقتان لغرض واحد، و قد تقدم بيانه، فالدين

الذى أكمله الله اليوم، و النعمة التى أتمها اليوم- و هما أمر واحد بحسب الحقيقة-هو الذى كان يطمع فيه الكفار و يخشاهم فيه المؤمنون فأياسهم الله منه و أكمله و أتمه، و نهاهم عن أن يخشوهم فيه، فالذى أمرهم بالخشية من نفسه فيه هو ذاك بعينه و هو أن ينزع الله الدين من ايديهم، و يسلبهم هذه النعمة الموهوبه.

و قد بين الله سبحانه ان لا سبب لسلب النعمة إلا الكفر بها، و هدد الكفور أشد التهديد، قال تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيَّرًا نِعْمَهُ أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (الأنفال ٥٣) و قال تعالى: وَ مَنْ يُدِلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (البقره ٢١١) و ضرب مثلا كلياً لنعمه و ما يؤول اليه أمر الكفر بها فقال وَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَوْمًا كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَ الْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (النحل ١١٢).

فالآية أعنى قوله: «الْيَوْمَ يَيْسَ -الى قوله- دِينًا» تؤذن بأن دين المسلمين فى أمن من جهه الكفار، مصون من الخطر المتوجه من قبلهم، و أنه لا يتسرب اليه شىء من طوارق الفساد و الهلاك إلا من قبل المسلمين أنفسهم، و أن ذلك إنما يكون بكفرهم بهذه النعمة التامه، و رفضهم هذا الدين الكامل المرضى، و يومئذ يسلبهم الله نعمته و يغيرها الى النقمه، و يذيقهم لباس الجوع و الخوف، و قد فعلوا و فعل.

و من أراد الوقوف على مبلغ صدق هذه الآية فى ملحمتها المستفاده من قوله: «فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَ اخْشَوْنِ» فعليه ان يتأمل فيما استقر عليه حال العالم الاسلامى اليوم ثم يرجع القهقرى بتحليل الحوادث التاريخيه حتى يحصل على أصول القضايا و أعراقها.

و آيات الولايه فى القرآن ارتباط تام بما فى هذه الآية، من التحذير و الإيعاد، و لم يحذر الله العباد عن نفسه فى كتابه إلا فى باب الولايه، فقال فيها مره بعد مره وَ يُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ (آل عمران ٢٨ و ٣٠) و تعقيب هذا البحث أزيد من هذا خروج عن طور الكتاب.

قوله تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيَتْ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا الْإِكْمَالُ وَالْإِتِمَامُ مُتَقَارِبَا الْمَعْنَى، قَالَ الرَّاعِبُ: كَمَالُ الشَّيْءِ حَصُولُ مَا هُوَ الْغَرَضُ مِنْهُ. وَقَالَ: تَمَامُ الشَّيْءِ انْتِهَاؤُهُ إِلَى حَدٍّ لَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهُ، وَالنَّاقِصُ مَا يَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهُ.

و لكَ ان تحصل على تشخيص معنى اللفظين من طريق آخر، و هو ان آثار الاشياء التي لها آثار على ضربين. فضرب منها ما يترتب على الشيء عند وجود جميع اجزائه - إن كان له اجزاء - بحيث لو فقد شيئاً من اجزائه أو شرائطه لم يترتب عليه ذلك الامر كالصوم فإنه يفسد اذا أخل بالإمساك في بعض النهار، و يسمى كون الشيء على هذا الوصف بالتمام، قال تعالى:

ثُمَّ أَتَمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ (البقره ١٨٧/)، و قال: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَ عَدْلًا (الأنعام ١١٥/).

و ضرب آخر: الأثر الذى يترتب على الشيء من غير توقف على حصول جميع اجزائه، بل أثر المجموع كمجموع آثار الاجزاء، فكلما وجد جزء ترتب عليه من الأثر ما هو بحسبه، و لو وجد الجميع ترتب عليه كل الأثر المطلوب منه، قال تعالى: فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَ سَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ (البقره ١٩٦/). و قال: وَ لِيَتَكْمَلُوا الْعِدَّةَ (البقره ١٨٥/). فإن هذا العدد يترتب الأثر على بعضه كما يترتب على كله، و يقال: تم لفلان امره و كمل عقله، و لا يقال: تم عقله و كمل امره.

و أما الفرق بين الإكمال و التكميل، و كذا بين الاتمام و التتميم فإنما هو الفرق بين بابى الإفعال و التفعيل، و هو ان الإفعال بحسب الاصل يدل الدفعه و التفعيل على التدريج، و إن كان التوسع الكلامى أو التطور اللغوى ربما يتصرف فى البابين بتحويلهما الى ما يبعد من مجرى المجرى أو من أصلهما كالإحسان و التحسين، و الإصداق و التصديق، و الامداد و التمديد و الافراط و التفريط، و غير ذلك، فإنما هى معان طرأت بحسب خصوصيات الموارد ثم تمكنت

فى اللفظ بالاستعمال.

و ينتج ما تقدم ان قوله: «أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي» يفيد أن المراد بالدين هو مجموع المعارف و الاحكام المشرّعه و قد أضيف الى عددها اليوم شىء و أن النعمة أياما كانت امر معنوى واحد كأنه كان ناقصا غير ذى اثر فتمم و ترتب عليه الأثر المتوقع منه.

و النعمة بناء نوع و هى ما يلائم طبع الشىء من غير امتناعه منه، و الاشياء و إن كانت بحسب وقوعها فى نظام التدبير متصله مرتبطه متلائما بعضها مع بعض، و أكثرها أو جميعها نعم اذا أضيفت الى بعض آخر مفروض كما قال تعالى: «وَ إِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا» (إبراهيم ٣٤) و قال: «وَ أَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَ بَاطِنَةً» (لقمان ٢٠).

إلا انه تعالى وصف بعضها بالشر و الخمسه و اللعب و اللهو و أوصاف آخر غير ممدوحه كما قال: «وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمَلِّى لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ» (آل عمران ١٧٨)، و قال: «وَ مَا هَدَى الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوَ وَ لَعِبٌ وَ إِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ» (العنكبوت ٦٤)، و قال: «وَ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ بُئْسَ الْمِهَادُ» (آل عمران ١٩٧) الى غير ذلك.

و الآيات تدل على ان هذه الاشياء المعدوده نعمًا إنما تكون نعمه اذا وافقت الغرض الالهى من خلقها لأجل الانسان، فإنها إنما خلقت لتكون إمدادا إلهيا للانسان يتصرف فيها فى سبيل سعادته الحقيقيه، و هى القرب منه سبحانه بالعبوديه و الخضوع للربوبيه، قال تعالى: «وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» (الذاريات ٥٦).

فكل ما تصرف فيه الانسان للسلوك به الى حضره القرب من الله و ابتغاء مرضاته فهو نعمه، و إن انعكس الأمر عاد نقمه فى حقه، فالاشياء فى نفسها عزل، و إنما هى نعمه لاشتمالها على روح العبوديه، و دخولها من حيث التصرف المذكور تحت ولايه الله التى هى تدبير

الربوبية لشئون العبد، ولازمه أن النعمه بالحقيقه هي الولاية الإلهيه، و أن الشىء إنما يصير نعمه إذا كان مشتتملا على شىء منها، قال تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (البقره ٢٥٧/)، وقال تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (محمد ١١/). وقال فى حق رسوله: فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (النساء / ٦٥) الى غير ذلك.

فالاسلام و هو مجموع ما نزل من عند الله سبحانه ليعبده به عباده دين، و هو من جهه اشتماله- من حيث العمل به- على ولايه الله و ولايه رسوله و أولياء الأمر بعده نعمه.

و لا يتم ولايه الله سبحانه أى تدبيره بالدين لامور عباده إلا بولايه رسوله، و لا ولايه رسوله إلا بولايه أولى الأمر من بعده، و هى تدبيرهم لامور الامه الدينيه بإذن من الله، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ (النساء / ٥٩) و قد مر الكلام فى معنى الآيه، و قال: إِنَّمَا وَثَّيْكُمْ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ (المائده ٥٥/). و سيجىء الكلام فى معنى الآيه إن شاء الله تعالى.

مفصّل معنى الآيه: اليوم- و هو اليوم الذى يئس فيه الذين كفروا من دينكم- أكملت لكم مجموع المعارف الدينيه التى أنزلتها إليكم بفرض الولايه، و أتممت عليكم نعمتى و هى الولايه التى هى إداره أمور الدين و تدبيرها تدبيرا إلهيا، فإنها كانت الى اليوم ولايه الله و رسوله، و هى إنما تكفى ما دام الوحي ينزل، و لا تكفى لما بعد ذلك من زمان انقطاع الوحي، و لا رسول بين الناس يحمى دين الله و يذب عنه بل من الواجب أن ينصب من يقوم بذلك، و هو ولى الأمر بعد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم القيم على أمور الدين و الامه.

فالولايه مشروعه واحده، كانت ناقصه غير تامه حتى اذا تمت بنصب ولى الأمر بعد

و اذا كمل الدين فى تشريعه،و تمت نعمه الولايه فقد رضيت لكم من حيث الدين الاسلام الذى هو دين التوحيد الذى لا يعبد فيه إلا الله و لا يطاع فيه-و الطاعه عباده-إلا الله و من أمر بطاعته من رسول أو ولى.

فآليه تنبئ عن أن المؤمنين اليوم فى أمن بعد خوفهم،و أن الله رضى لهم أن يتدينوا بالاسلام الذى هو دين التوحيد فعليهم أن يعبدوه و لا- يشركوا به شيئاً بطاعه غير الله أو من أمر بطاعته.و اذا تدبرت قوله تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسِّرَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَ لَيُيَسِّرَنَّ لَهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (النور ٥٥/٥٥) ثم طبقت فقرات الآيه على فقرات قوله تعالى: «الْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ» الخ؛وجدت آيه سوره المائده من مصاديق إنجاز الوعد الذى يشتمل عليه آيه سوره النور على أن يكون قوله: «يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا» مسوقا سوق الغايه كما ربما يشعر به قوله: «وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» .

و سوره النور قبل المائده نزولا كما يدل عليه اشتمالها على قصه الإفك و آيه الجلد و آيه الحجاب و غير ذلك.

قوله تعالى: فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصِهِ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ المخمصه هى المجاعه،و التجانف هو التمايل من الجنف بالجيم و هو ميل القدمين الى الخارج مقابل الحنف بالحاء الذى هو ميلهما الى الداخل.

و فى سياق الآيه دلالة اولاه- على أن الحكم حكم ثانوى اضطرارى،و ثانيا على أن التجويز و الإباحه مقدر بمقدار يرتفع به الاضطرار و يسكن به ألم الجوع،و ثالثا على أن صفه المغفره و مثلها الرحمه كما تتعلق بالمعاصى المستوجهه للعقاب كذلك يصح أن تتعلق بمنشئها،و هو

الحكم الذى يستتبع مخالفته تحقق عنوان المعصية الذى يستتبع العقاب (١)(٢).

بحث روائى آخر:

فى غاية المرام: عن أبى المؤيد موفق بن احمد فى كتاب فضائل على، قال: أخبرنى سيد الحفاظ شهردار بن شيرويه بن شهردار الديلمى فيما كتب إلى من همدان، أخبرنا ابو الفتح عبدوس بن عبد الله بن عبدوس الهمداني كتابه، حدثنا عبد الله بن إسحاق البغوى، حدثنا الحسين بن عليل الغنوى، حدثنا محمد بن عبد الرحمن الزراع، حدثنا قيس بن حفص، حدثنا على بن الحسين، حدثنا ابو هريره عن ابى سعيد الخدرى: إن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يوم دعا الناس الى غدیر خم أمر بما تحت الشجره من شوك فقم، و ذلك يوم الخميس يوم دعا الناس الى علىّ و أخذ بضبعه ثم رفعها حتى نظر الناس الى بياض إبطيه ثم لم يفترقا حتى نزلت هذه الآيه: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضَيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: اللهُ أكبر على إكمال الدين و إتمام النعمه و رضا الرب برسالتى و الولايه لعلی، ثم قال: اللهم وال من والاه، و عاد من عاداه، و انصر من نصره، و اخذل من خذله.

و قال حسان بن ثابت: أ تأذن لى يا رسول الله أن أقول أبياتا؟ قال: قل ينزله الله تعالى، فقال حسان بن ثابت:

يناديهم يوم الغدير نبينهم

بخمّ و أسمع بالنبى مناديا

بأنى مولاكم نعم و وليكم

فقالوا و لم يبدوا هناك التعاميا

إلهك مولانا و أنت ولينا

و لا تجدن فى الخلق للأمر عاصيا

ص: ٣٣

١- ١). المائده ٣-١: بحث علمى فى فصول ثلاثه (العقائد فى اكل اللحم، كيف امر بقتل الحيوان و الرحمه تأباه، لما ذا بنى الاسلام على التذكيه.

٢- ٢). المائده ٣-١: بحث روائى حول «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا»؛ شعائر الله آمين البيت الحرام؛ الحيوانات التى حرّم اكلها.

فقال له قم يا علي فإنني

رضيتك من بعدى إماما و هاديا

و عن كتاب نزول القرآن فى أمير المؤمنين على بن أبى طالب للحافظ أبى نعيم رفعه إلى قيس بن الربيع، عن أبى هارون العبدى، عن أبى سعيد الخدرى مثله، و قال فى آخر الأبيات:

فمن كنت مولاه فهذا وليه

فكونوا له أنصار صدق مواليا

هناك دعا اللهم وال وليه

و كن للذى عادى عليا معاديا

و عن نزول القرآن أيضا يرفعه إلى على بن عامر عن أبى الحجاج عن الأعمش عن عضه قال: نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى على بن أبى طالب: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَ قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا .

و عن إبراهيم بن محمد الحموينى قال: أنبأنى الشيخ تاج الدين أبو طالب على بن الحسين ابن عثمان بن عبد الله الخازن، قال: أنبأنا الإمام برهان الدين ناصر بن أبى المكارم المطرزى إجازة، قال: أنبأنا الإمام أخطب خوارزم أبو المؤيد موفق بن أحمد المكى الخوارزمى، قال:

أنبأنى سيد الحفاظ فى ما كتب إلى من همدان، أنبأنا الرئيس أبو الفتح كتابه، حدثنا عبد الله بن إسحاق البغوى، أنبأنا الحسن بن عقيل الغنوى، أنبأنا محمد بن عبد الله الزّراع، أنبأنا قيس بن حفص قال: حدثنى على بن الحسين العبدى عن أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى، و ذكر مثل الحديث الأول.

و عن الحموينى أيضا عن الحفاظ و أبو منصور شهردار بن شيرويه بن شهردار الديلمى، قال: أخبرنا الحسن بن أحمد بن الحسن الحداد المقرئ الحفاظ عن أحمد بن عبد الله بن أحمد، قال: أنبأنا محمد بن أحمد بن على، قال: أنبأنا محمد بن عثمان بن أبى شبيه، قال: أنبأنا يحيى الحمانى، قال: حدثنا قيس بن الربيع عن أبى هارون العبدى عن أبى سعيد الخدرى، و ذكر مثل الحديث الأول.

قال: قال الحموي عقيب هذا الحديث: هذا حديث له طرق كثيرة إلى أبي سعيد سعد بن مالك الخدري الأنصاري.

و عن المناقب الفاخره للسيد الرضى رحمه الله عن محمد بن إسحاق، عن أبي جعفر، عن أبيه عن جده قال: لما انصرف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَجَّةِ الْوَدَاعِ نَزَلَ أَرْضًا يُقَالُ لَهُ: ضَوْجَانٌ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ فَلَمَّا نَزَلَتْ عَصَمْتَهُ مِنَ النَّاسِ نَادَى: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ فَاجْتَمَعَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَقَالَ: مَنْ أَوْلَى مِنْكُمْ بِأَنْفُسِكُمْ: فَضَجُّوا بِأَجْمَعِهِمْ فَقَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ فَأَخَذَ بِيَدِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، وَقَالَ: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَى مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مِنَ الْآلِهِ، وَعَادَ مِنْ عَادَاهُ، وَأَنْصَرَ مَنْ نَصَرَهُ، وَأَخَذَ مَنْ خَذَلَهُ لِأَنَّهُ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ، وَهُوَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي. وَكَانَتْ آخِرَ فَرِيضَةٍ فَرَضَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى أُمِّهِ مُحَمَّدٍ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَاتَّمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا.

قال ابو جعفر: فقبلوا من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كُلِّ مَا أَمَرَهُمُ اللَّهُ مِنَ الْفَرَائِضِ فِي الصَّلَاةِ وَالصُّومِ وَالزَّكَاةِ وَالْحَجِّ، وَصَدَقُوهُ عَلَى ذَلِكَ.

قال ابن إسحاق: قلت لأبي جعفر: ما كان ذلك؟ قال لتسع (١) عشره ليله خلت من ذى الحجة سنة عشره عند منصرفه من حجة الوداع، وكان بين ذلك وبين النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مائة يوم و كان سمع (٢) رسول الله بغدير خم اثنا عشر.

و عن المناقب لابن المغازلي يرفعه إلى ابى هريره قال: من صام يوم ثمانية عشر من ذى

ص: ٣٥

١-١. سبع في نسخه البرهان.

٢-٢. سمى رسول الله بغدير خم اثنا عشر رجلا. نسخه البرهان.

الحججه كتب الله له صيامه ستين شهرا، و هو يوم غدیر خم، بها اخذ النبي بيعة على ابن ابى طالب، و قال: من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه و عاد من عاداه، و انصر من نصره، فقال له عمر بن الخطاب: بَخَّ بَخَّ لك يا ابن ابى طالب اصبحت مولاي و مولى كل مؤمن و مؤمنه، فأنزل الله تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَمْتُ .

و عن المناقب لابن مردويه و كتاب سرقات الشعر للمرزباني عن ابى سعيد الخدرى مثل ما تقدم عن الخطيب.

اقول: و روى الحديثين فى الدر المنثور عن أبى سعيد و ابى هريره و وصف سندیهما بالضعف. و قد روى بطرق كثيره تنتهى من الصحابه (لو دقق فيها) إلى عمر بن الخطاب و على بن أبى طالب و معاويه و سمره: ان الآيه نزلت يوم عرفه من حجه الوداع و كان يوم الجمعة، و المعتمد منها ما روى عن عمر فقد رواه عن الحميدى و عبد بن حميد و احمد البخارى و مسلم و الترمذى و النسائى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن حبان و البيهقى فى سننه عن طارق ابن شهاب عن عمر، و عن ابن راهويه فى مسنده و عبد بن حميد عن ابى العالى عن عمر، و عن ابن جرير عن قبيضة بن ابى ذؤيب عن عمر، و عن البزاز عن ابن عباس، و الظاهر أنه يروى عن عمر.

ثم أقول: أما ما ذكره من ضعف سندی الحديثين فلا يجديه فى ضعف المتن شيئا فقد أوضحنا فى البيان المتقدم أن مفاد الآيه الكريمة لا يلائم غير ذلك من جميع الاحتمالات و المعانى المذكوره فيها، فهاتان الروايتان و ما فى معناهما هى الموافقه للكتاب من بين جميع الروايات فهى المتعينه للأخذ.

على أن الأحاديث الداله على نزول الآيه فى مسأله الولايه - و هى تزيد على عشرين حديثا من طرق أهل السنه و الشيعه - مرتبطه بما ورد فى سبب نزول قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْآيَه، (المائده ٦٧)؛ و هى تربو على خمسه عشر

حديثا رواها الفريقان، وجميع مرتبط بحديث الغدير: «من كنت مولاه فعلى مولاه» وهو حديث متواتر مروى عن جم غفير من الصحابه، اعترف بتواتره جمع كثير من علماء الفريقين.

و من المتفق عليه أن ذلك كان فى منصرف رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من مكه إلى المدينه. وهذه الولاية (لو لم تحمل على الهزل و التهكم) فريضه من الفرائض كالتولى و التبرى اللذين نص عليهما القرآن فى آيات كثيره، و إذا كان كذلك لم يجر أن يتأخر جعلها عن نزول الآيه أعنى قوله: أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ، فالآيه إنما نزلت بعد فرضها من الله سبحانه، و لا اعتماد على ما ينافى ذلك من الروايات لو كانت منافية.

و أما ما رواه من الروايه فقد عرفت ما ينبغى أن يقال فيها غير أن هاهنا أمرأ يجب التنبه له، و هو أن التدبر فى الآيتين الكريمتين: **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَةَ اللَّهِ**؛ على ما سيجىء من بيان معناه، و قوله: **أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** الآيه؛ و الأحاديث الواردة من طرق الفريقين فيهما و روايات الغدير المتواتره، و كذا دراسته أوضاع المجتمع الاسلامى الداخليه فى أواخر عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و البحث العميق فيها يفيد القطع بأن أمر الولاية كان نازلا قبل يوم الغدير بأيام، و كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يتقى الناس فى إظهاره، و يخاف أن لا يتلقوه بالقبول أو يسيئوا القصد إليه فيختل أمر الدعوه، فكان لا يزال يؤخر تبليغه الناس من يوم إلى غد حتى نزل قوله: **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ** الآيه؛ فلم يمهل فى ذلك.

و على هذا فمن الجائز أن ينزل الله سبحانه معظم السوره و فيه قوله: **أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** الآيه؛ و ينزل معه أمر الولاية كل ذلك يوم عرفه فأخر النبى صلى الله عليه وآله وسلم بيان الولاية إلى غد دير خم، و قد كان تلا آيتها يوم عرفه، و أما اشتمال بعض الروايات على نزولها يوم الغدير فليس من المستبعد أن يكون ذلك لتلاوته صلى الله عليه وآله وسلم الآيه مقارنة لتبليغ أمر الولاية لكونها فى

شأنها.

و على هذا فلا تنافى بين الروايات أعنى ما دل على نزول الآية فى امر الولاية، و ما دل على نزولها يوم عرفه كما روى عن عمر و على و معاوية و سمره، فإن التنافى إنما كان يتحقق لو دل أحد القبيلين على النزول يوم غدیر خم، و الآخر على النزول على يوم عرفه.

و اما ما فى القبيل الثانى من الروايات أن الآية تدل على كمال الدين بالحج و ما أشبهه فهو من فهم الراوى لا ينطبق به الكتاب و لا بيان من النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم يعتمد عليه.

و ربما استفيد هذا الذى ذكرناه مما رواه العياشى فى تفسيره عن جعفر بن محمد بن محمد بن محمد الخزاعى عن ابيه قال: سمعت ابا عبد الله عليه السلام يقول لما نزل رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم عرفات يوم الجمعة أتاه جبرئيل فقال له: إن الله يقرئك السلام، و يقول لك: قل لا تمتك: اليوم أكملت دينكم بولايه على بن ابى طالب و اتممت عليكم نعمتى و رضيت لكم الاسلام دينا و لست أنزل عليكم بعد هذا، قد انزلت عليكم الصلاه و الزكاه و الصوم و الحج، و هى الخامسة، و لست اقبل عليكم بعد هذه الأربعة إلا بها.

على ان فيما نقل عن عمر من نزول الآية يوم عرفه إشكالا آخر، و هو أنها جميعا تذكر ان بعض اهل الكتاب - و فى بعضها انه كعب - قال لعمر: إن فى القرآن آية لو نزلت مثلها علينا معشر اليهود لاتخذنا اليوم الذى نزلت فيه عيداً، و هى قوله: أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ الآية؛ فقال له عمر: و الله انى لأعلم اليوم و هو يوم عرفه من حجه الوداع.

و لفظ ما رواه ابن راهويه و عبد بن حميد عن أبى العالى هكذا: قال: كانوا عند عمر فذكروا هذه الآية، فقال رجل من اهل الكتاب: لو علمنا اى يوم نزلت هذه الآية لاتخذناه عيداً، فقال عمر الحمد لله الذى جعله لنا عيداً و اليوم الثانى، نزلت يوم عرفه و اليوم الثانى يوم النحر فأكمل لنا الأمر فعلمنا أن الامر بعد ذلك فى انتقاص.

و ما يتضمنه آخر الروايه مروى بشكل آخر فى الدر المنثور: عن ابى شيبه و ابن جرير

عن عنتره قال: لما نزلت اليومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ و ذلك يوم الحج الأكبر بكى عمر فقال له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم ما بيكيك؟ قال: ابكاني أَنَا كُنَّا فِي زِيَادَةٍ مِنْ دِينِنَا فَأَمَّا إِذْ كَمَلْنَا فَإِنَّهُ لَمْ يَكْمَلْ شَيْءٌ قَطَّ إِلَّا نَقَصَ، فقال: صدقت.

و نظيره الروايه بوجه روايه أخرى رواها أيضا في الدر المنثور عن أحمد عن علقمه ابن عبد الله المزني قال: حدثني رجل قال: كنت في مجلس عمر بن الخطاب فقال عمر لرجل من القوم: كيف سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم ينعث الاسلام؟ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم يقول: إن الاسلام بدئ جذاعا ثم ثنيا ثم رباعيا ثم سدسيا ثم بازلا. قال عمر: فما بعد البزول إلا النقصان.

فهذه الروايات- كما ترى- تروم بيان أن معنى نزول الآية يوم عرفه إلفات نظر الناس إلى ما كانوا يشاهدونه من ظهور أمر الدين و استقلاله بمكة في الموسم، و تفسير إكمال الدين و إتمام النعمة بصفاء جو مكة و محوضه الأمر للمسلمين يومئذ فلا دين يعبد به يومئذ هناك إلا دينهم من غير أن يخشوا أعداءهم و يتحذروا منهم.

و بعبارة أخرى المراد بكمال الدين و تمام النعمة كمال ما بأيديهم يعملون به من غير أن يختلط بهم أعداؤهم أو يكلفوا بالتحذر منهم دون الدين بمعنى الشريعة المفعولة عند الله من المعارف و الاحكام، و كذا المراد بالاسلام ظاهر الاسلام الموجود بأيديهم في مقام العمل. و إن شئت فقل: المراد بالدين صورته الدين المشهوده من أعمالهم، و كذا في الاسلام، فان هذا المعنى هو الذي يقبل الانتقاص بعد الازدياد.

و أما كليات المعارف و الاحكام المشرعه من الله فلا يقبل الانتقاص بعد الازدياد الذي يشير اليه قوله في الروايه: «إنه لم يكمل شيء قط إلا نقص» فإن ذلك سنه كونه تجرى أيضا في التاريخ و الاجتماع بتبع الكون، و أما الدين فإنه غير محكوم بأمثال هذه السنن و النواميس إلا عند من قال: إن الدين سنه اجتماعيه متطورّه متغيره كسائر السنن الاجتماعيه.

إذ عرفت ذلك علمت أنه يرد عليه أولاً: أن ما ذكر من معنى كمال الدين لا يصدق عليه قوله تعالى: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ و قد مر بيانه.

و ثانياً: أنه كيف يمكن ان يعد الله سبحانه الدين بصورته التي كان يتراءى عليها كاملاً- و ينسبه إلى نفسه امتناناً بمجرد خلوّ الأرض من ظاهر المشركين، و كون المجتمع على ظاهر الاسلام فارغاً من أعدائهم المشركين، و فيهم من هو أشد من المشركين إضراراً و إفساداً، و هم المنافقون على ما كانوا عليه من المجتمعات السريه و التسرب في داخل المسلمين، و إفساد الحال، و تقلب الامور، و الدس في الدين، و إلقاء الشبه، فقد كان لهم نبأ عظيم تعرّض لذلك آيات جمّه من القرآن كسوره المنافقين و ما في سوره البقره و النساء و المائده و الأنفال و البراءه و الأحزاب و غيرها.

فليت شعري أين صار جمعهم؟ و كيف خمدت أنفاسهم؟ و على أي طريق بطل كيدهم و زهق باطلهم؟ و كيف يصح مع وجودهم أن يمتن الله يومئذ على المسلمين بإكمال ظاهر دينهم، و إتمام ظاهر النعمه عليهم، و الرضا بظاهر الاسلام بمجرد أن دفع من مكه أعداءهم من المسلمين، و المنافقون أعدى منهم و أعظم خطراً و أمر أثاراً! و تصديق ذلك قوله تعالى يخاطب نبيه فيهم: هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرُهُم (المنافقون ٤).

و كيف يمتن الله سبحانه و يصف بالكمال ظاهر دين هذا باطنه، أو يذكر نعمه بالتمام و هي مشوبه بالنقمه، أو يخبر برضاه صورته إسلام هذا معناه! و قد قال تعالى وَ مَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (الكهف ٥١). و قال في المنافقين: -و لم يرد إلا دينهم- فَإِنْ تَرَضُوا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (البراءه ٩٦). و الآيه بعد هذا كله مطلقه لم تقيّد شيئاً من الإكمال و الاتمام و الرضا و لا الدين و الاسلام و النعمه بوجهه دون وجهه.

فإن قلت: الآيه- كما تقدمت الاشاره إليه- إنجاز للوعد الذي يشتمل عليه قوله تعالى:

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ

مِنْ قِبَلِهِمْ وَ لِيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَ لِيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا الْآيَةَ، (النور ٥٥/).

فالآيه كما ترى-تعدهم بتمكين دينهم المرضى لهم، و يحاذى ذلك من هذه الآيه قوله:

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ قَوْلُهُ: وَ رَضَيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فالمراد بأكملهم المرضى تمكينه لهم أى تخليصه من مزاحمه المشركين، و أما المنافقون فشأنهم شأن آخر غير المزاحمه، و هذا هو المعنى الذى تشير إليه روايات نزولها يوم عرفه، و يذكر القوم ان المراد به تخليص الأعمال الدينيه و العاملين بها من المسلمين من مزاحمه المشركين.

قلت: كون آيه: الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ، من مصاديق إنجاز ما وعد فى قوله: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا الْآيَةَ؛ و كذا كون قوله فى هذه الآيه: أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ، محاذيا لقوله: وَ لِيَمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ، فى تلك الآيه و مفيدا معناه كل ذلك لا ريب فيه.

إلا أن آيه سوره النور تبدأ بقوله: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ هم طائفه خاصه من المسلمين ظاهر أعمالهم يوافق باطنها، و ما فى مرتبه أعمالهم من الدين يحاذى و ينطبق على ما عند الله سبحانه من الدين المشرّع، فتمكين دينهم المرضى لله سبحانه لهم إكمال ما فى علم الله و إرادته من الدين المرضى بإفراغه فى قالب التشريع، و جمع اجزائه عندهم بالإنزال ليعبدوه بذلك بعد إياس الذين كفروا من دينهم.

و هذا ما ذكرناه: أن معنى إكمال الدين إكمال ما فى علم الله و إرادته من الدين المرضى بإفراغه فى قالب التشريع، فتمكين دينهم المرضى لله سبحانه لهم إكمال ما فى علم الله و إرادته من الدين المرضى بإفراغه فى قالب التشريع، و جمع اجزائه عندهم بالإنزال ليعبدوه بذلك بعد إياس الذين كفروا من دينهم.

و فى تفسير القمى قال: حدثنى ابى، عن صفوان بن يحيى، عن العلاء، عن محمد بن مسلم عن ابى جعفر عليه السلام قال: آخر فريضه أنزلها الولايه ثم لم ينزل بعدها فريضه ثم أنزل: الْيَوْمَ

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ بِكَرَاعِ الْغَمِيمِ، فَأَقَامَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِالْجَحْفَةِ فَلَمْ يَنْزَلْ بَعْدَهَا فَرِيضَهُ.

أقول: وروى هذا المعنى الطبرسي في المجمع عن الإمامين: الباقر و الصادق عليهما السّلام و رواه العياشي في تفسيره عن زراره عن الباقر عليه السّلام.

و في أمالي الشيخ بإسناده، عن محمد، عن أبيه أبي عبد الله عليه السّلام، عن علي أمير المؤمنين عليه السّلام قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يقول: بناء الإسلام على خمس خصال: على الشهادتين، و القرينتين. قيل له: أما الشهادتان فقد عرفنا فما القرينتان؟ قال: الصلاة و الزكاة فإنه لا تقبل إحداهما إلا بالأخرى، و الصيام و حج بيت الله من استطاع إليه سبيلا، و ختم ذلك بالولاية فأنزل الله عزّ و جل: **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا**.

و في روضه الواعظين للفتال، ابن الفارسي عن أبي جعفر عليه السّلام و ذكر قصه خروج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ للحج ثم نصبه عليا للولاية عند منصرفه إلى المدينة و نزول الآيه، و فيه خطبه رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يوم الغدير و هي خطبه طويله جدا.

أقول: وروى مثله الطبرسي في الاحتجاج بإسناد متصل عن الحضرمي عن أبي جعفر الباقر عليه السّلام، و روى نزول الآيه في الولاية أيضا الكليني في الكافي و الصدوق في العيون جميعا مسندا عن عبد العزيز بن مسلم عن الرضا عليه السّلام، و روى نزولها فيها أيضا الشيخ في أماليه بإسناده عن ابن أبي عمير عن المفضل بن عمر عن الصادق عن جده أمير المؤمنين عليه السّلام، و روى ذلك أيضا الطبرسي في المجمع بإسناده عن أبي هارون العبدى عن ابى سعيد الخدرى، و روى ذلك الشيخ في أماليه بإسناده عن إسحاق بن إسماعيل النيسابورى عن الصادق عن آبائه عن الحسن بن علي عليهم السّلام و قد تركنا إيراد الروايات على طولها إيثارا للاختصار فمن أراد فليراجع محالها و الله الهادى.

اشاره

يَسْئَلُونَكَ ۖذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلُّ أَحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (۴) الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (۵)

بيان:

قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ ۖذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلُّ أَحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ سؤال مطلق أوجب عنه بجواب عام مطلق فيه إعطاء الضابط الكلى الذى يميز الحلال من الحرام، وهو أن يكون ما يقصد التصرف فيه بما يعهد فى مثله من التصرفات أمرا طيبا، وإطلاق الطيب أيضا من غير تقييده بشىء يوجب أن يكون المعترف فى تشخيص طيبه استطابه الأفهام المتعارفه ذلك فما يستطاب عند الأفهام العاديه فهو طيب، وجميع ما هو طيب حلال.

وإنما نزلنا الحليه و الطيب على المتعارف المعهود لمكان أن الإطلاق لا يشمل غيره على ما بين فى فن الاصول.

قوله تعالى: ﴿مَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ قِيلَ: إن الكلام معطوف على موضع الطيبات أى و أحل لكم ما علمتم من الجوارح أى صيد ما علمتم من الجوارح، فالكلام بتقدير مضاف محذوف اختصارا لدلاله السياق عليه.

و الظاهر أن الجملة معطوفه على موضع الجملة الاولى. و ﴿مَا عَلَّمْتُمْ﴾ شرطيه و جزاؤها قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ﴾ من غير حاجه الى تكلف التقدير.

و الجوارح جمع جارحه و هى التى تكسب الصيد من الطير و السباع كالصقر و البازى و الكلاب و الفهود، و قوله: ﴿مُكَلِّبِينَ﴾ حال، و أصل التكليل تعليم الكلاب و تربيتها للصيد أو اتخاذ كلاب الصيد و إرسالها لذلك، و تقييد الجملة بالتكليب لا يخلو من دلالة على كون الحكم مختصا بكلب الصيد لا يعدوه الى غيره من الجوارح.

و قوله: ﴿مِمَّا أَمْسَكَنَّ عَلَيْكُمْ﴾ التقييد بالظرف للدلالة على أن الحل محدود بصوره صيدها لصاحبها لا لنفسها.

و قوله: ﴿وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ تتميم لشرائط الحل و أن يكون الصيد مع كونه مصطادا بالجوارح و من طريق التكليل و الإمساك على الصائد مذكورا عليه اسم الله تعالى.

و محصل المعنى أن الجوارح المعلمه بالتكليب-أى كلاب الصيد-إذا كانت معلمه و اصطادت لكم شيئا من الوحش الذى يحل أكله بالتذكية و قد سميت عليه فكلوا منه إذا قتلته دون أن تصلوا إليه فذلك تذكية له، و أما دون القتل فالتذكية بالذبح و الإهلال به لله يغنى عن هذا الحكم.

ثم ذيل الكلام بقوله: ﴿وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ إشعارا بلزوم اتقاء الله فيه حتى لا يكون الاضطهاد إسرافا فى القتل، و لا عن تله و تجبر كما فى صيد اللهو و نحوه فإن الله سريع الحساب يجازى سيئه الظلم و العدوان فى الدنيا قبل الآخرة، و لا يسلك أمثال هذه المظالم

و العدوانات بالاغتيال و الفك بالحيوان العجم إلا الى عاقبه سوآى على ما شاهدنا كثيرا.

قوله تعالى: **الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَ طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ** إعادته ذكر حل الطيبات مع ذكره فى الآيه السابقه، و تصديره بقوله:

«الْيَوْمَ» للدلاله على الامتنان منه تعالى على المؤمنين بإحلال طعام أهل الكتاب و المحصنات من نسائهم للمؤمنين.

و كأن ضم قوله: «**أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ**» الى قوله: «**وَ طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ**» الخ؛ من قبيل ضم المقطوع به الى المشكوك فيه لإيجاد الطمأنينه فى نفس المخاطب و إزاله ما فيه من القلق و الاضطراب كقول السيد لخادمه: لك جميع ما ملكته و زياده هى كذا و كذا فإنه اذا ارتاب فى تحقق ما يعده سيده من الإعطاء شفع ما يشك فيه بما يقطع به ليزول عن نفسه أذى الريب الى راحه العلم، و من هذا الباب بوجه قوله تعالى: **لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَ زِيَادَةٌ** (يونس ٢٦/) و قوله تعالى: **لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَ لَدَيْنَا مَزِيدٌ** (ق ٣٥).

فكان نفوس المؤمنين لا تسكن عن اضطراب الريب فى أمر حل طعام أهل الكتاب لهم بعد ما ما كانوا يشاهدون التشديد التام فى معاشرتهم و مخالطتهم و مساسهم و ولايتهم حتى ضم الى حديث حل طعامهم أمر حل الطيبات بقول مطلق، ففهموا منه أن طعامهم من سنخ سائر الطيبات المحلله فسكن بذلك طيش نفوسهم، و اطمأنت قلوبهم و كذلك القول فى قوله:

«**وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ**» .

و أما قوله: «**وَ طَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَ طَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ**» فالظاهر أنه كلام واحد ذو مفاد واحد، اذ من المعلوم أن قوله: «**وَ طَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ**» ليس فى مقام تشريع حكم الحل لأهل الكتاب، و توجيه التكليف إليهم و إن قلنا بكون الكفار مكلفين بالفروع الدينيه كالأصول، فإنهم غير مؤمنين بالله و رسوله و بما جاء به رسوله و لا هم يسمعون و لا هم يقبلون، و ليس من دأب القرآن أن يوجه خطابا أو يذكر حكما اذا استظهر من المقام أن

الخطاب معه يكون لغوا و التكليم معه يذهب سدى. اللهم إلا اذا أصلح ذلك بشيء من فنون التكليم كالاتفات من خطاب الناس الى خطاب النبي و نحو ذلك كقوله: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكُمْ (آل عمران ٦٤) و قوله: قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا (الإسراء ٩٣) الى غير ذلك من الآيات.

و بالجمله ليس المراد بقوله: «و طَعَامُ الَّذِينَ» ، بيان حل طعام أهل الكتاب للمسلمين حكما مستقلا و حل طعام المسلمين لأهل الكتاب حكما مستقلا آخر، بل بيان حكم واحد و هو ثبوت الحل و ارتفاع الحرمة عن الطعام، فلا منع فى البين حتى يتعلق بأحد الطرفين نظير قوله تعالى: فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ (الممتحنه ١٠) أى لا حل فى البين حتى يتعلق بأحد الطرفين.

ثم إن الطعام بحسب أصل اللغة كل ما يقتات به و يطعم لكن قيل: إن المراد به البر و سائر الحبوب ففى لسان العرب: و أهل الحجاز اذا أطلقوا اللفظ بالطعام عنوا به البر خاصة. قال:

و قال الخليل: العالى فى كلام العرب أن الطعام هو البر خاصة، انتهى. و هو الذى يظهر من كلام ابن الأثير فى النهايه، و لهذا ورد فى أكثر الروايات المرويه عن أئمه أهل البيت عليهم السّلام: أن المراد بالطعام فى الآيه هو البر و سائر الحبوب إلا ما فى بعض الروايات مما يظهر به معنى آخر و سيجىء الكلام فيه فى البحث الروائى الآتى.

و على أى حال لا يشمل هذا الحل ما لا يقبل التذكيه من طعامهم كالحم الخنزير، أو يقبلها من ذبائحهم لكنهم لم يذكوها كالذى لم يهل به لله، و لم يذك تذكيه إسلاميه فإن الله سبحانه عد هذه المحرمات المذكوره فى آيات التحريم - و هى الآى الأربع التى فى سور البقره و المائده و الأنعام و النحل - رجسا و فسقا و إثما كما بيناه فيما مر، و حاشاه سبحانه أن يحل ما سماه رجسا أو فسقا أو إثما امتنانا بمثل قوله: «الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ» .

على أن هذه المحرمات بعينها واقعه قبيل هذه الآيه فى نفس السوره، و ليس لأحد أن يقول

فى مثل المورد بالنسخ و هو ظاهر، و خاصه فى مثل سورة المائده التى ورد فيها أنها ناسخه غير منسوخه.

قوله تعالى: **وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ**، الإيتان فى متعلق الحكم بالوصف أعنى ما فى قوله: «الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» من غير أن يقال: من اليهود و النصارى مثلا أو يقال: من أهل الكتاب، لا يخلو من إشعار بالعليه، و اللسان لسان الامتنان، و المقام مقام التخفيف و التسهيل، فالمعنى: إنا نمتن عليكم بالتخفيف و التسهيل فى رفع حرمه الازدواج بين رجالكم و المحصنات من نساء أهل الكتاب لكونهم أقرب إليكم من سائر الطوائف غير المسلمه، و هم أوتوا الكتاب و أذعنوا بالتوحيد و الرساله بخلاف المشركين و الوثنيين المنكرين للنبوه، و يشعر بما ذكرنا أيضا تقييد قوله: «أُوتُوا الْكِتَابَ» بقوله: «مِنْ قَبْلِكُمْ» فإن فيه إشعارا واضحا بالخطط و المزج و التشريك.

و كيف كان لما كانت الآيه واقعه موقع الامتنان و التخفيف لم تقبل النسخ بمثل قوله تعالى:

وَ لَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ (البقره ٢٢١/) و قوله تعالى: **وَ لَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفِرِ (المتحنه ١٠/)** و هو ظاهر.

على أن الآيه الاولى واقعه فى سورة البقره، و هى أول سورة مفضّله نزلت بالمدينه قبل المائده: و كذا الآيه الثانيه واقعه فى سورة الممتحنه، و قد نزلت بالمدينه قبل الفتح، فهى أيضا قبل المائده نزولا، و لا وجه لنسخ السابق للاحق مضافا الى ما ورد: أن المائده آخر ما نزلت على النبى صلى الله عليه و آله و سلم فنسخت ما قبلها، و لم ينسخها شىء.

على أن قد عرفت فى الكلام على قوله تعالى: **وَ لَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ (البقره ٢٢١/)**؛ فى الجزء الثانى من الكتاب أن الآيتين أعنى آيه البقره و آيه الممتحنه أجنبيتان من الدلاله على حرمه نكاح الكتائبه.

و لو قيل بدلاله آيه الممتحنه بوجه على التحريم كما يدل على سبق المنع الشرعى ورود آيه المائده فى مقام الامتنان و التخفيف- و لا- امتنان و لا- تخفيف لو لم يسبق منع- كانت آيه المائده هى الناسخه لآيه الممتحنه لا بالعكس لأن النسخ شأن المتأخر، و سيأتى فى البحث الروائى كلام فى الآيه الثانيه.

ثم المراد بالمحصنات فى الآيه: العفائف و هو أحد معانى الإحصان، و ذلك أن قوله «و الْمُحْصِنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَ الْمُحْصِنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ»، يدل على أن المراد بالمحصنات غير ذوات الأزواج و هو ظاهر، ثم الجمع بين المحصنات من أهل الكتاب و المؤمنات على ما مر من توضيح معناها يقضى بأن المراد بالمحصنات فى الموضوعين معنى واحد، و ليس هو الإحصان بمعنى الاسلام لمكان قوله: و المحصنات من الذين أوتوا الكتاب، و ليس المراد بالمحصنات الحرائر فإن الامتنان المفهوم من الآيه لا يلائم تخصيص الحل بالحرائر دون الإماء، فلم يبق من معانى الإحصان إلا العفء فتعين أن المراد بالمحصنات العفائف.

و بعد ذلك كله إنما تصرّح الآيه بتشريع حل المحصنات من أهل الكتاب للمؤمنين من غير تقييد بدوام أو انقطاع إلا ما ذكره من اشتراط الأجر و كون التمتع بنحو الإحصان لا بنحو المسافحه و اتخاذ الأخذان، فينتج أن الذى أحل للمؤمنين منهن أن يكون على طريق النكاح عن مهر و أجر دون السفاح، من غير شرط آخر من نكاح دوام أو انقطاع، و قد تقدم فى قوله تعالى: فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ (النساء ٢٤) فى الجزء الرابع من الكتاب أن المتعه نكاح كالنكاح الدائم، و للبحث بقايا تطلب من علم الفقه.

قوله تعالى: إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَ لَا- مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ الآيه فى مساق قوله تعالى فى آيات محرمات النكاح: وَ أَحِلَّ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ (النساء ٢٤). و الجملة قرينه على

كون المراد بالآيه بيان حليته التروّج بالمحصنات من أهل الكتاب من غير شمول منها لملك اليمين.

قوله تعالى: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ الْكُفْرَ فِي الْأَصْلِ هُوَ السُّتْرُ فَتَحَقَّقْ مَفْهُومَهُ يَتَوَقَّفُ عَلَى أَمْرٍ ثَابِتٍ يَقَعُ عَلَيْهِ السُّتْرُ كَمَا أَنَّ الْحِجَابَ لَا يَكُونُ حِجَابًا إِلَّا إِذَا كَانَ هُنَاكَ مَحْجُوبٌ فَالْكُفْرُ يَسْتَدْعِي مَكْفُورًا بِهِ ثَابِتًا كَالْكُفْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَالْكُفْرِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَالْكُفْرِ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.

فالكفر بالإيمان يقتضى وجود إيمان ثابت، وليس المراد به المعنى المصدري من الإيمان بل معنى اسم المصدر وهو الأثر الحاصل والصفه الثابته فى قلب المؤمن أعنى الاعتقادات الحقه التى هى منشأ الأعمال الصالحه، فيثول معنى الكفر بالإيمان الى ترك العمل بما يعلم أنه حق كتولى المشركين، والاختلاط بهم، والشركه فى أعمالهم مع العلم بحقيه الإسلام، وترك الأركان الدينيه من الصلاه والزكاه والصوم والحج مع العلم بثبوتها أركاناً للدين.

فهذا هو المراد من الكفر بالإيمان لكن هاهنا نكته وهى أن الكفر لما كان ستراً وستر الأمور الثابته لا يصدق بحسب ما يسبق الى الذهن إلا مع المداومه والمزاوله فالكفر بالإيمان إنما يصدق اذا ترك الانسان العمل بما يقتضيه إيمانه، ويتعلق به علمه، ودام عليه، وأما اذا ستر مَرّه أو مرتين من غير أن يدوم عليه فلا يصدق عليه الكفر وإنما هو فسق أتى به.

و من هنا يظهر أن المراد بقوله: «وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ» هو المداومه والاستمرار عليه وإن كان عبّر بالفعل دون الوصف. فتارك الاتباع لما حق عنده من الحق، وثبت عنده من أركان الدين كافر بالإيمان، حابط العمل كما قال تعالى: «فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ» .

فآلآيه تنطبق على قوله تعالى: «وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (الأعراف ١٤٧) فوصفهم باتخاذ

سبيل الغي و ترك سبيل الرشده بعد رؤيتهما و هى العلم بهما ثم بَدَل ذلك بتوصيفهم بتكذيب الآيات، و الآيه إنما تكون آيه بعد العلم بدلائلها، ثم فسره بتكذيب الآخرة لما أن الآخرة لو لم تكذب منع العلم بها عن ترك الحق، ثم أخبر بحبط أعمالهم.

و نظير ذلك قوله تعالى: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ لِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا (الكهف ١٠٥) و انطباق الآيات على مورد الكفر بالإيمان بالمعنى الذى تقدم بيانه ظاهر.

و بالتأمل فيما ذكرنا يظهر وجه اتصال الجملة أعنى قوله: «وَ مَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ»، بما قبله فالجملة متممه للبيان السابق، و هى فى مقام التحذير عن الخطر الذى يمكن ان يتوجه الى المؤمنين بالتساهل فى أمر الله، و الاسترسال مع الكفار فإن الله سبحانه إنما أحل طعام أهل الكتاب و المحصنات من نسائهم للمؤمنين ليكون ذلك تسهيلاً و تخفيفاً منه لهم، و ذريعه الى انتشار كلمه التقوى، و سرايه الأخلاق الطاهره الاسلاميه من المسلمين المتخلفين بها الى غيرهم، فيكون داعيه الى العلم النافع، و باعته نحو العمل الصالح.

فهذا هو الغرض من التشريع لا لأن يتخذ ذلك وسيله الى السقوط فى مهابط الهوى، و الإصعاد فى أوديه الهوسات، و الاسترسال فى حبهن و الغرام بهن، و التوله فى جمالهن، فيكن قدوه تتسلط بذلك أخلاقهن و أخلاق قومهن على أخلاق المسلمين، و يغلب فسادهن على صلاحهم، ثم يكون البلوى و يرجع المؤمنون الى أعقابهم القهقرى، و مآل ذلك عود هذه المنه الالهيه فتنه و محنه مهلكه، و صيروره هذا التخفيف الذى هو نعمه نقمه.

فحذر الله المؤمنين بعد بيان حليته طعامهم و المحصنات من نسائهم أن لا يسترسلا فى التمتع بهذه النعمه استرسالاً يؤدى الى الكفر بالإيمان، و ترك أركان الدين، و الإعراض عن

الحق فإن ذلك يوجب حبط العمل، وينجر الى خسران السعى فى الآخرة (١).

[سوره المائده (٥): الآيات ٦ الى ٧]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ ۗ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦) وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّتِي وَاثَقَكُمْ بِهَا إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِعَدَاتِ الصُّدُورِ (٧)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ القِيَامِ إِذَا عَدَى بِإِلَى رَبِّمَا كُنَى بِهِ عَنِ إِرَادَةِ الشَّيْءِ الْمَذْكُورِ لِلْمَلَاذِمَةِ وَالْقُرْآنِ بَيْنَهُمَا، فَإِنْ إِرَادَهُ الشَّيْءَ لَا تَنْفَكَ عَنِ الْحَرَكَةِ إِلَيْهِ، وَإِذَا فَرَضَ الْإِنْسَانَ مَثَلًا قَاعِدًا لِأَنَّهُ حَالٌ سَكُونُهُ وَلا يَزِمُ سَبَاتَهُ عَادَتَهُ، وَفَرَضَ الشَّيْءَ الْمُرَادَ فَعَلًا - مَتَعَارَفًا يَتَحَرَّكُ إِلَيْهِ عَادَهُ كَانَ مِمَّا يَحْتَاجُ فِي اتِّبَانِهِ إِلَى الْقِيَامِ غَالِبًا، فَأَخَذَ الْإِنْسَانَ فِي تَرْكِ السَّكُونِ وَالِانْتِصَابِ لِإِدْرَاكِ الْعَمَلِ هُوَ الْقِيَامُ إِلَى الْفِعْلِ، وَهُوَ يَلْزِمُ الْإِرَادَةَ.

ص: ٥١

١ - ١). المائده ٤-٥: بحث روائى فى صيد الكلاب؛ التعليم؛ الاطعمه المحلله و المحرمه، طعام أهل الكتاب، نكاح الكتائبه.

و نظيره قوله تعالى: **وَ إِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ** (النساء ١٠٢) أى أردت أن تقيم لهم الصلاة. و عكسه من وجه قوله تعالى: **وَ إِنْ أَرَدْتُمْ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَ آتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا** (النساء ٢٠) أى اذا طلقتم زوجا تزوجتم باخرى، فوضعت إرادته الفعل و طلبه مقام القيام به.

و بالجمله الآيه تدل على اشتراط الصلاة بما تذكره من الغسل و المسح أعنى الوضوء، و لو تم لها إطلاق لدل على اشتراط كل صلاة بوضوء مع الغض عن قوله: **«وَ إِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا»** لكن الآيات المشرعه قلما يتم لها الإطلاق من جميع الجهات. على أنه يمكن أن يكون قوله الآتى: **«وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهَّرَكُمْ»** مفسرا لهذا الاشتراط على ما سيجىء من الكلام.

هذا هو المقدار الذى يمكن أن يبحث عنه فى تفسير الآيه، و الزائد عليه مما أطنب فيه المفسرون بحث فقهي خارج عن صناعه التفسير.

قوله تعالى: **فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ** الغسل بفتح الغين إمرار الماء على الشىء، و يكون غالبا لغرض التنظيف و إزالة الوسخ و الدرن و الوجه ما يستقبلك من الشىء، و غلب فى الجانب المقبل من رأس الإنسان مثلا، و هو الجانب الذى فيه العين و الأنف و الفم، و يعين بالظهور عند المشافهه، و قد فسر فى الروايات المنقوله عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام بما بين قصاص الشعر من الناصيه و آخر الذقن طولاً، و ما دارت عليه الإبهام و الوسطى و السبابه، و هناك تحديدات آخر ذكرها المفسرون و الفقهاء.

و الأيدى جمع يد و هى العضو الخاص الذى به القبض و البسط و البطش و غير ذلك، و هو ما بين المنكب و أطراف الأصابع، و إذا كانت العناية فى الأعضاء بالمقاصد التى يقصدها الإنسان منها كالقبض و البسط فى اليد مثلا، و كان المعظم من مقاصد اليد تحصل بما دون المرفق الى أطراف الأصابع سمي أيضا باليد، و لذلك بعينه ما سمي ما دون الزند الى أطراف الأصابع فصار اللفظ بذلك مشركا أو كالمشرك بين الكل و الأبعاض.

و هذا الاشتراك هو الموجب لذكر القرينه المعينه اذا أريد به أحد المعانى، و لذلك قيد تعالى قوله: «وَ أَيْدِيكُمْ» بقوله: «إِلَى الْمِرْفَاقِ» ليتعين أن المراد غسل اليد التى تنتهى الى المرفاق، ثم القرينه أفادت أن المراد به القطعه من العضو التى فيها الكف، و كذا فسرتها السنه. و الذى يفيد الاستعمال فى لفظه «الى» أنها لا تنتهى الفعل الذى لا- يخلو من امتداد الحركه، و أما دخول مدخول «الى» فى حكم ما قبله أو عدم دخوله فأمر خارج عن معنى الحرف، فشمول حكم الغسل للمرفاق لا يستند الى لفظه «الى» بل الى ما بينه السنه من الحكم.

و أما قوله تعالى: «لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ» فهو من قبيل تضمين الأكل معنى الضم و نحوه مما يتعدى بإلى لا- أن لفظه «الى» هنالك بمعنى مع.

و قد تبين بما مر أن قوله: «إِلَى الْمِرْفَاقِ» قيد لقوله: «أَيْدِيكُمْ» فيكون الغسل المتعلق بها مطلقا غير مقيد بالغايه يمكن أن يبدأ فيه من المرفق الى أطراف الاصابع و هو الذى يأتى به الإنسان طبعا اذا غسل يده فى غير حال الوضوء من سائر الاحوال أو يبدأ من أطراف الاصابع و يختتم بالمرفق، لكن الاخبار الوارده من طرق أئمه أهل البيت عليهم السلام تفتى بالنحو الأول دون الثانى.

قوله تعالى: «وَ امْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَ أَرْجُلِكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ الْمَسْحِ: إمرار اليد أو كل عضو لا مس على الشىء بالمباشرة، يقال مسحت الشىء و مسحت بالشىء، فإذا عدى بنفسه أفاد الاستيعاب، و اذا عدى بالباء دل على المسح ببعضه من غير استيعاب و إحاطه.

فقوله: «وَ امْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ» يدل على مسح بعض الرأس فى الجملة، و أما أنه أى بعض من الرأس فمما هو خارج من مدلول الآيه، و المتكفل لبيانه السنه، و قد صح أنه جانب الناصيه من الرأس.

و أما قوله: «وَ أَرْجُلَكُمْ» فقد قرء بالجذر، و هو لا محاله بالعطف على رءوسكم. و ربما قال القائل: إن الجر للاتباع، كقوله: وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ (الأنبياء ٣٠) و هو خطأ فإن الاتباع على ما ذكره لغه رديئه لا يحمل عليها كلام الله تعالى. و أما قوله: «كُلُّ شَيْءٍ حَيٍّ» فإنما جعل هناك بمعنى الخلق، و ليس من الاتباع فى شىء.

على أن الاتباع- كما قيل- إنما ثبت فيما ثبت فى صورته اتصال التابع و المتبوع كما قيل فى قولهم: جحر ضب خرب، بجر الخرب اتباعا لا فى مثل المورد مما يفضل العاطف بين الكلمتين.

و قرء: و أرجلكم- بالنصب و أنت اذا تلقيت الكلام مخلى الذهن غير مشوب الفهم لم يلبث دون أن تقضى أن «أَرْجُلَكُمْ» معطوف على موضع «بِرؤوسكم» و هو النصب، و فهمت من الكلام وجوب غسل الوجه و اليدين، و مسح الرأس و الرجلين، و لم يخطر ببالك أن ترد «وَ أَرْجُلَكُمْ» الى «وَأُجُوهَكُمْ» فى أول الآيه مع انقطاع الحكم فى قوله: «فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَ أَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ» بحكم آخر و هو قوله: «و امسحوا بوجوهكم»، فان الطبع السليم يأبى عن حمل الكلام البليغ على ذلك، و كيف يرضى طبع متكلم بليغ أن يقول مثلا: قبلت وجه زيد و رأسه و مسحت بكتفه و يده بنصب يد عطفا على «وجه زيد» مع انقطاع الكلام الأول، و صلاحية قوله: «يده» لأن يعطف على محل المجرور المتصل به، و هو أمر جائز دائر كثير الورد فى كلامهم.

و على ذلك وردت الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام و أما الروايات من طرق أهل السّنة فإنها و إن كانت غير ناظره الى تفسير لفظ الآيه، و إنما تحكى عمل النبى صلى الله عليه و آله و سلم و فتوى بعض الصحابه، لكنها مختلفه: منها ما يوجب مسح الرجلين، و منها ما يوجب غسلهما.

و قد رجح الجمهور منهم أخبار الغسل على أخبار المسح، و لا- كلام لنا معهم فهذا المقام لأنه بحث فقهي راجع الى علم الفقه، خارج عن صناعه التفسير.

لكنهم مع ذلك حاولوا تطبيق الآيه على ما ذهبوا إليه من الحكم الفقهي بتوجيهات مختلفه ذكروها فى المقام، والآيه لا تحتمل شيئاً منها إلا مع ردها من أوج بلاغتها الى مهبط الرداءه.

و أما قوله تعالى: «إِلَى الْكُعْبَيْنِ» فالكعب هو العظم الناتىء فى ظهر القدم. و ربما قيل: إن الكعب هو العظم الناتىء فى مفصل الساق و القدم، و هما كعبان فى كل قدم فى المفصل.

قوله تعالى: «وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَمَا طَهَّرُوا الْجَنْبَ فِي الْأَصْلِ» مصدر غلب عليه الاستعمال بمعنى اسم الفاعل، و لذلك يستوى فيه المذكر و المؤنث و المفرد و غيره، يقال: رجل جنب و امرأه جنب و رجلاؤن أو امرأتان جنب، و رجال أو نساء جنب، و اختص الاستعمال بمعنى المصدر للجنباه.

و الجملة أعنى قوله: «وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَمَا طَهَّرُوا» معطوفه على قوله: «فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ» لأن الآيه مسوقه لبيان اشتراط الصلاه بالطهاره فالتقدير: و تطهروا إن كنتم جنباً، فيؤول الى تقدير شرط الخلاف فى جانب الوضوء و تقدير الكلام: فاغسلوا ووجوهكم و أيديكم و امسحوا براءوسكم و أرجلكم إن لم تكونوا جنباً و إن كنتم جنباً فاطهروا و يستفاد من ذلك أن تشريع الوضوء إنما هو فى حال عدم الجنباه، و أما عند الجنباه فالغسل فحسب كما دلت عليه الأخبار.

و قد بين الحكم بعينه فى آيه النساء بقوله: «وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا» فهذه الآيه تزيد على تلك الآيه بيانا بتسميه الاغتسال تطهراً، و هذا غير الطهاره الحاصله بالغسل، فانها أثر مترتب، و هذا نفس الفعل الذى هو الاغتسال و قد سمي تطهراً كما يسمى غسل أو ساخ البدن بالماء تنظفاً.

و يستفاد من ذلك ما ورد فى بعض الأخبار من قوله عليه السلام: «ما جرى عليه الماء فقد طهر».

قوله تعالى: «وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا شُرُوعَ فِي بِيَانِ حَكْمِ مَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ»

حتى يغسل أو يغتسل.

و الذى ذكر من الموارد و عدّ بالترديد ليس بعضها يقابل بعضا مقابله حقيقيه،فان المرض و السفر ليسا بنفسهما يوجبان حدثا مستدعيا للطهاره بالوضوء أو الغسل بل إنما يوجبانه اذا أحدث المكلف معهما حدثا صغيرا أو كبيرا،فالشقان الأخيران لا يقابلان الأولين بل كل من الأولين كالمنقسم الى الاخيرين،و لذلك احتمل بعضهم أن يكون «أو» فى قوله: «أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ»،بمعنى الواو كما سيجىء،على أن العذر لا ينحصر فى المرض و السفر بل له مصاديق أخر.

لكن الله سبحانه ذكر المرض و السفر و هما مظنه عدم التمكن من الماء غالبا،و ذكر المجيء من الغائط و ملامسه النساء و فقدان الماء معهما اتفاقى،و من جهة أخرى-و هى عكس الوجهه الاولى-عروض المرض و السفر للإنسان بالنظر إلى بنيته الطبيعیه أمر اتفاقى بخلاف التردد الى الغائط و ملامسه النساء فإنهما من حاجه الطبيعه:أحدهما يوجب الحدث الاصغر الذى يرتفع بالوضوء،و الآخر الحدث الاكبر الذى يرتفع بالغسل.

فهذه الموارد الاربع موارد يبتلى الإنسان ببعضها اتفاقا و ببعضها طبعاً.و هى تصاحب فقدان الماء غالبا كالمرض و السفر أو اتفاقا كالتخلى و المباشرة اذا انضم إليها عدم وجدان الماء فالحكم هو التيمم.

و على هذا يكون عدم وجدان الماء كناية عن عدم القدره على الاستعمال.كُنِيَ به عنه لان الغالب هو استناد عدم القدره الى عدم الوجدان،و لازم ذلك أن يكون عدم الوجدان قيذا لجميع الامور الاربعه المذكوره حتى المرض.

و قد تبين بما قدمناه اولاً:أن المراد بالمرض فى قوله: «كُنْتُمْ مَرْضَى» هو المرض الذى يتخرج معه الإنسان من استعمال الماء و يتضرر به على ما يعطيه التقييد بقوله: «فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً» و يفيدُه أيضا سياق الكلام فى الآيه.

و ثانيا: أن قوله: «أَوْ عَلَيَّ سَيِّفَرٍ» شق برأسه يبتلى به الإنسان اتفاقا، و يغلب عليه فيه فقدان الماء، فليس بمقيد بقوله: «أَوْ لَجَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ» الخ؛ بل هو معطوف على قوله:

«فَاغْسِلُوا» و التقدير: إذا قمتم الى الصلاه و كنتم على سفر و لم تجدوا ماء فتييموا، فحال هذا الفرض في إطلاقه و عدم تقيده بوقوع أحد الحديثين حال المعطوف عليه أعنى قوله: «إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا» الخ؛ فكما لم يحتج الى التقييد ابتداء لم يحتج اليه ثانيا عند العطف.

و ثالثا: أن قوله: «أَوْ لَجَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ» شق آخر مستقلا و ليس كما قيل: إن «أو» فيه بمعنى الواو كقوله تعالى: «وَأَرْسَلْنَا إِلَى آلِ آلِيهِ أَلْفَ أَوْ يَزِيدُونَ» (الصفافات ١٤٧/) لما عرفت من عدم الحاجه الى ذلك. على أن «أو» في الآيه المستشهد بها ليس إلا بمعناها الحقيقي، و إنما الترديد راجع الى كون المقام مقاما يتردد فيه بالطبع لا لجهل في المتكلم كما يقال بمثله في الترجي و التمنى الواقعين في القرآن كقوله: «لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (البقره ٢١/)، و قوله:

«لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» (البقره ١٠٢/).

و حكم هذه الجملة في العطف حكم سابقتها، و التقدير: إذا قمتم الى الصلاه و كان جاء أحد منكم من الغائط و لم تجدوا ماء فتييموا.

و ليس من البعيد أن يستفاد من ذلك عدم وجوب اعاده التيمم أو الوضوء لمن لم تنتقض طهارته بالحدث الأصغر إن كان على طهاره بناء على مفهوم الشرط فيتأيد به من الروايات ما يدل على عدم وجوب التطهر لمن كان على طهاره.

و في قوله تعالى: «أَوْ لَجَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ مِنَ الْأَدْبِ الْبَارِعِ مَا لَا يَخْفَى لِلْمَتَدَبِّرِ حَيْثُ كُنِيَ عَنِ الْمَرَادِ بِالْمَجِيءِ مِنَ الْغَائِطِ، وَ الْغَائِطُ هُوَ الْمَكَانُ الْمُنْخَفِضُ مِنَ الْأَرْضِ وَ كَانُوا يَقْصِدُونَهُ لِقِضَاءِ الْحَاجَةِ لِيَتَسْتَرُوا بِهِ مِنَ النَّاسِ تَأْدِيبًا، وَ اسْتِعْمَالِ الْغَائِطِ فِي مَعْنَاهُ الْمَعْرُوفِ الْيَوْمَ اسْتِعْمَالُ مُسْتَحْدَثٍ مِنْ قَبِيلِ الْكِنَايَاتِ الْمَبْتَدَلَةِ كَمَا أَنَّ لَفْظَ الْعِذْرَةِ كَذَلِكَ، وَ الْأَصْلُ فِي مَعْنَاهَا عَتَبَهُ الْبَابُ سَمِيَتْ بِهَا لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَخْلُونَ مَا اجْتَمَعَ فِي كَنِيْفِ الْبَيْتِ فِيهَا عَلَى

ما ذكره الجوهرى فى الصحاح.

و لم يقل: أو جئتم من الغائط لما فيه من تعيين المنسوب إليه، وكذا لم يقل: أو جاء أحدكم من الغائط لما فيه من الإضافة التى فيها شوب التعيين بل بالغ فى الإبهام فقال: «أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ» رعايه لجانب الأدب.

و رابعا: أن قوله: «أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ» كسابقه شق من الشقوق المفروضة مستقل و حكمه فى العطف و المعنى حكم سابقه، و هو كناية عن الجماع أدا صوتنا للسان من التصريح بما تأبى الطباع عن التصريح به.

فإن قلت: لو كان كذلك كان التعبير بمثل ما عبر به عنه سابقا بقوله: «وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا» أولى لكونه أبلغ فى رعايه الأدب.

قلت: نعم لكنه كان يفوت نكته مرعيه فى الكلام، و هى الدلالة على كون الامر مما يقتضيه طبيعه كما تقدم بيانه، و التعبير بالجنابه فاقد للإشعار بهذه النكته.

و ظهر أيضا فسا ما نسب الى بعضهم: أن المراد بملامسه النساء هو الملامسه حقيقه بنحو التصريح من غير أن تكون كناية عن الجماع. وجه فساده أن سياق الآيه لا يلائمه، و إنما يلائم الكناية فإن الله سبحانه ابتدأ فى كلامه ببيان حكم الحدث الاصغر بالوضوء و حكم الجنابه بالغسل فى الحال العادى، و هو حال وجدان الماء، ثم انتقل الكلام الى بيان الحكم فى الحال غير العادى، و هو حال فقدان الماء فبين فيه حال بدل الوضوء و هو التيمم فكان الاخرى و الانسب بالطبع أن يذكر حال بدل الغسل أيضا، و هو قرين الوضوء، و قد ذكر ما يمكن أن ينطبق عليه، و هو قوله: «أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ» على سبيل الكناية، فالمراد به ذلك لا محاله، و لا وجه لتخصيص الكلام ببيان حكم بدل الوضوء و هو أحد القرينين، و إهمال حكم بدل القرين الآخر و هو الغسل رأسا.

و خامسا: يظهر بما تقدم فساد ما أورد على الآيه من الإشكالات: فمنها أن ذكر المرض

و السفر مستدرک، فانهما انما یوجبان التیمم بانضمام احد الشقین الآخرین و هو الحدث و الملامسه، مع أنهما یوجبانہ و لو لم یکن معهما مرض أو سفر فذكر الآخرین یغنی عن ذکر الأولین. و الجواب أن ذکر الشقین الآخرین لیس لغرض انضمامهما الی أحد الأولین بل کل من الأربعه شق مستقل مذکور لغرض خاص به یفوت بحذفه من الکلام علی ما تقدم بیانہ.

و منها: أن الشق الثانی و هو قوله: «أَوْ عَلَيَّ سَفَرٍ» مستدرک و ذلك بمثل ما وجّه به الإشکال السابق غیر المرض لما كان عذره الموجب للانتقال الی البدل هو عدم التمكن من استعمال الماء الموجود لا عدم وجدان الماء كان من اللازم أن یقدر له ذلك فی الکلام، و لا یغنی عن ذكره ذکر الشقین الآخرین مع عدم وجدان الماء، و نتیجه هذا الوجه کون السفر مستدرک فقط.

و الجواب أن عدم الوجدان فی الآیه کنایه عن عدم التمكن من استعمال الماء أعم من صورہ وجدانہ أو فقدانہ كما تقدم.

و منها: أن قوله: «فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً» یغنی عن ذکر جمیع الشقوق، و لو قیل مکان قوله: «وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ» الخ؛ «و ان لم تجدوا ماء» لکان أوجز و أبین، و الجواب: أن فیہ اضاعه لما تقدم من النکات.

و منها: أن لو قیل: و ان لم تقدروا علی الماء أو ما یفید معناه كان أولى، لشموله عذر المرض مضافا الی عذر غیره. و الجواب: انه افید بالکنایه، و هی ابلغ.

قوله تعالی: فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ التيمم هو القصد، و الصعيد هو وجه الأرض، و توصيفه بالطيب-و الطيب فی الشیء كونه علی حال یقتضيه طبعه- للإشاره الی اشتراط كونه علی حاله الأصلي كالتراب و الأحجار العادیه دون ما خرج من الأرضیه بطبخ أو نضج أو غیر ذلك من عوامل التغير كالجص و النوره و الخزف و المواد المعدنيه، قال تعالی: وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ بِبَاتِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا (الأعراف ٥٨) و من ذلك يستفاد الشروط التي اخذت السنّه فی

الصعيد الذى يتيمم به.

و ربما يقال: ان المراد بالطيب الطهاره، فيدل على اشتراط الطهاره فى الصعيد.

وقوله: «فَأَمْسِيحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ» ينطبق ما ذكره فى التيمم للمسح على ما ذكره فى الوضوء للغسل، فالتيمم فى الحقيقه وضوء أسقطت فيه المسحتان: مسح الرأس و مسح الرجلين، و ابدلت فيه الغسلتان: غسله الوجه و اليدين الى المرفقين بالمسحتين، و ابدل الماء بالتراب تخفيفا.

و هذا يشعر بأن العضوين فى التيمم هما العضوان فى الوضوء، و لما عبّر تعالى بالمسح المتعدى بالباء دل ذلك على أن المعتبر فى التيمم هو مسح بعض عضوى الغسل فى الوضوء أعنى بعض الوجه، و بعض اليد الى المرفق، و ينطبق على ما ورد من طرق أئمه أهل البيت عليهم السلام من تحديد الممسوح من الوجه بما بين الجبينين و الممسوح من اليد بما دون الزند منها.

و بذلك يظهر فساد ما ذكره بعضهم من تحديد اليد بما دون الإبطين. و ما ذكره آخرون أن المعتبر من اليد فى التيمم عين ما اعتبر فى الوضوء و هو ما دون المرفق، و ذلك أنه لا يلائم المسح المتعدى بالباء الدال على مرور الماسح ببعض الممسوح.

و«من» فى قوله: «مِنْهُ» كأنها ابتدائية و المراد ان يكون المسح بالوجه و اليدين مبتدأ من الصعيد، و قد بينته السنّه بأنه بضرب اليدين على الصعيد و مسحهما بالوجه و اليدين.

و يظهر من بعضهم: أن«من» هاهنا تبعيضية فتفيد أن يكون فى اليدين بعد الضرب بقيه من الصعيد كغبار و نحوه بمسح الوجه و اليدين و استنتج منه وجوب كون الصعيد المضروب عليه مشتملا على شىء من الغبار يمسح منه بالوجه و اليدين فلا يصح التيمم على حجر املس لم يتعلق به غبار، و الظاهر ما قدمناه- و الله أعلم- و ما استنتجه من الحكم لا يختص بما احتمله.

وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ دُخُولَ «من» عَلَى مَفْعُولٍ «مَا يُرِيدُ» لِتَأْكِيدِ النَّفْيِ، فَلَا حَكْمَ يَرَادُ بِهِ الْحَرَجُ بَيْنَ الْأَحْكَامِ الدِّينِيَّةِ أَصْلًا، وَ لِذَلِكَ عُلِقَ النَّفْيُ عَلَى إِرَادَةِ الْجَعْلِ دُونَ نَفْسِ الْحَرَجِ.

و الحرج حرجان: حرج يعرض ملاك الحكم و مصلحته المطلوبه، و يصدر الحكم حينئذ حرجيا بذاته لتبعيه ملاكه كما لو حرم الالتذاذ من الغذاء لغرض حصول ملكه الزهد، فالحكم حرجي من رأس، و حرج يعرض الحكم من خارج عن أسباب اتفاقه فيكون بعض أفراد حرجيا و يسقط الحكم حينئذ في تلك الأفراد الحرجيه لا في غيرها مما لا حرج فيه، كمن يتخرج عن القيام في الصلاة لمرض يضره معه ذلك، و يسقط حينئذ وجوب القيام عنه لا عن غيره ممن يستطيعه.

و إضرابه تعالى بقوله: ﴿وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾، عن قوله: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ يدل على أن المراد بالآيه نفى الحرج الذى فى الملاك أى إن الأحكام التى يجعلها عليكم ليست بحرجيه شرعت لغرض الحرج، و ذلك لأن معنى الكلام أن مرادنا بهذه الأحكام المجعوله تطهيركم و إتمام النعمه و هو الملاك، لا أن نشق عليكم و نحزجكم، و لذلك لما وجدنا الوضوء و الغسل حرجيين عليكم عند فقدان الماء انتقلنا من إيجاب الوضوء و الغسل الى إيجاب التيمم الذى هو فى وسعكم، و لم يبطل حكم الطهاره من رأس لإرادته تطهيركم و إتمام النعمه عليكم لعلكم تشكرون.

قوله تعالى: ﴿وَ لَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَ لِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لازم ما تقدم من معنى نفى إرادته الحرج أن يكون المراد بقوله: ﴿يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾ أن تشريع الوضوء و الغسل و التيمم إنما هو حصول الطهاره فيكم لكونها أسبابا لذلك، و هذه الطهاره اياما كانت ليست بطهاره عن الخبث بل هى طهاره معنويه حاصله بأحد هذه الأعمال الثلاثه، و هى التى تشترط بها الصلاه فى الحقيقه.

و من الممكن أن يستفاد من ذلك عدم وجوب الإتيان بعمل الطهاره عند القيام إلى كل صلاه اذا كان المصلى على طهاره غير منقوضه، و لا ينافى ذلك ظهور صدر الآيه فى الإطلاق لأن التشريع أعم مما يكون على سبيل الوجوب.

و أما قوله: «وَلِيْتِمَّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ» ، فقد مر معنى النعمه و إتمامها فى الكلام على قوله تعالى:

الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي (المائدہ ٣) و معنى الشكر فى الكلام على قوله تعالى: وَ سَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (آل عمران ١٤٤) فى الجزء الرابع من الكتاب فالمراد بالنعمه فى الآيه هو الدين لا من حيث أجزائه من المعارف و الاحكام، بل من حيث كونه إسلام الوجه لله فى جميع الشئون، و هو ولايه الله على العباد بما يحكم فيهم، و إنما يتم ذلك باستيفاء التشريع جميع الاحكام الدينيه التى منها حكم الطهارات الثلاث.

و من هنا يظهر أن بين الغائتين أعنى قوله: «لِيُطَهَّرَكُمْ» و قوله: «لِيْتِمَّ نِعْمَتُهُ» فرقا، و هو أن الطهاره غايه لتشريع الطهارات الثلاث بخلاف إتمام النعمه، فإنه غايه لتشريع جميع الاحكام، و ليس الطهارات الثلاث منها إلا سهمها، فالغائتان خاصه و عامه.

و على هذا فالمعنى: و لكن نريد يجعل الطهارات الثلاث حصول الطهاره بها خاصه لكم، و لأنها بعض الدين الذى يتم بتشريع جميعها نعمه الله عليكم لعلكم تشركون الله على نعمته فيخلصكم لنفسه، فافهم ذلك.

قوله تعالى: وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَ ميثاقَهُ الَّذِي وَ اتَّقُوا بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَ اطَّعْنَا، هذا هو الميثاق الذى كان مأخوذا منهم على الإسلام كما تشهد به تذكيرته لهم بقوله: «إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَ اطَّعْنَا» فإنه السمع المطلق، و الطاعه المطلقه، و هو الإسلام لله فالمعنى بالنعمه فى قوله: «وَ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» هو المواهب الجميله التى وهبهم الله سبحانه إياها فى شعاع الإسلام، و هو التفاضل الذى بين حالهم فى جاهليتهم و حالهم فى إسلامهم من الأمن و العافيه و الثروه و صفاء القلوب و طهاره الأعمال كما قال تعالى: وَ اذْكُرُوا

نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرِهِ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا (آل عمران ١٠٣).

أو أن الإسلام بحقيقته هو المراد بالنعمة، فإنه أم النعم ترتفع منها كل نعمة كما تقدم بيانه، و غير مخفى عليك ان المراد بكون النعمة هي الإسلام بحقيقته أو الولايه إنما هو تعيين المصداق دون تشخيص مفهوم اللفظ، فإن المفهوم هو الذى يشخصه اللغه، و لا كلام لنا فيه.

ثم ذكرهم نفسه و أنه عالم بخفايا زوايا القلوب، فأمرهم بالتقوى بقوله: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ» (١).

[سوره المائده (٥): الآيات ٨ الى ١٤]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨) وَعِدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٩) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٠) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أُنِيسِي طُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١) وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ بَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَ آتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَ عَزَرْتُمْهُمْ وَ أقرضتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَمَا كُفِرْتُمْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ لَمَّا دَخَلْنَاكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَ لَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣) وَ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِذَا نَصَبْنَا إِلَهًُا نَصَبْنَا إِلَهًُا وَإِذَا نَصَبْنَا إِلَهًُا نَصَبْنَا إِلَهًُا وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١٤)

ص: ٦٣

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا الْآيَةَ نَظِيرَهُ الْآيَةَ الَّتِي فِي
سُورَةِ النِّسَاءِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا
فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا (النساء ١٣٥).

و إنما الفرق بين الآيتين ان آيه النساء فى مقام النهى عن الانحراف عن العدل فى الشهاده لاتباع الهوى بأن يهوى الشاهد المشهود له لقرابه و نحوها، فيشهد له بما ينتفع به على خلاف الحق، و هذه الآيه-أعنى آيه المائده-فى مقام الردع عن الانحراف عن العدل فى الشهاده لشتان و بغض من الشاهد للمشهود عليه، فيقيم الشهاده عليه يريد بها نوع انتقام منه و دحض لحقه.

و هذا الاختلاف فى غرض البيان هو الذى أوجب اختلاف القيود فى الآيتين: فقال فى آيه النساء: «كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ» و فى آيه المائده: «كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ» .

و ذلك أن الغرض فى آيه المائده لما كان هو الردع عن الظلم فى الشهاده لسابق عداوه من الشاهد للمشهود عليه قيد الشهاده بالقسط، فأمر بالعدل فى الشهاده و أن لا- يشتمل على ظلم حتى على العدو بخلاف الشهاده لأحد بغير الحق لسابق حب و هوى، فإنها لا تعد ظلما فى الشهاده و انحرافا عن العدل و إن كانت فى الحقيقه لا تخلو عن ظلم و حيف، و لذلك أمر فى آيه المائده بالشهادة بالقسط، و فرّعه على الأمر بالقيام لله، و أمر فى آيه النساء بالشهادة لله أى أن لا يتبع فيها الهوى، و فرّعه على الامر بالقيام بالقسط.

و لذلك أيضا فرّع فى آيه المائده على الامر بالشهادة بالقسط قوله: «اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَ اتَّقُوا اللَّهَ» فدعا الى العدل، و عدّه ذريعه الى حصول التقوى، و عكس الامر فى آيه النساء ففرّع على الأمر بالشهادة لله قوله: «فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا» فمنهى عن اتباع الهوى و ترك التقوى، و عدّه وسيله سيئه الى ترك العدل.

ثم حذر فى الآيتين جميعا فى ترك التقوى تحذيرا واحدا فقال فى آيه النساء: «وَ إِنْ تَلُؤُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» أى إن لم تتقوا، و قال فى آيه المائده: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» و أما معنى قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ، الخ؛ فقد ظهر فى الكلام على الآيات

قوله تعالى: اَعْدِلُوا هُوَ اَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ،الضمير راجع الى العدل المدلول عليه بقوله: «اعْدِلُوا» و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ الجملة الثانيه أعنى قوله: «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ»، إنشاء للوعد الذى أخبر عنه بقوله: «وَعَدَ اللَّهُ»، وهذا كما قيل: أكد بيانا من قوله: وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (الفتح ٢٩/لا- لما قيل: إنه لكونه خبرا بعد خبر، فإن ذلك خطأ، بل لكونه تصريحاً بإنشاء الوعد من غير أن يدل عليه ضمناً، كما به سورة الفتح.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ قَالَ الرغب: الجحيمه شدة تأجج النار و منه الجحيم، والآيه تشتمل على نفس الوعيد، و تقابل قوله تعالى فى الآيه السابقه: «لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ» .

و تقييد الكفر بتكذيب الآيات للاحتراز عن الكفر الذى لا يقارن تكذيب الآيات الداله، و لا ينتهى الى إنكار الحق مع العلم بكونه حقاً كما فى صوره الاستضعاف، فإن أمره الى الله إن يشأ يغفره و إن يشأ يعذب عليه فهاتان الآيتان وعد جميل للذين آمنوا و عملوا الصالحات، و إبعاد شديد للذين كفروا و كذبوا بآيات الله، و بين المرحلتين مراحل متوسطه و منازل متخلله أبهم الله سبحانه أمرها و عقباها.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ أَنْ يَسِيطُوا السُّخ؛ هذا المضمون يقبل الانطباق على وقائع متعدده مختلفه وقعت بين الكفار و المسلمين كغزوات بدر و أحد و الأحزاب و غير ذلك، فالظاهر أن المراد به مطلق ما هم به المشركون من قتل المؤمنين و إمحاء أثر الاسلام و دين التوحيد.

قوله تعالى: وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ امر بالتقوى و التوكل

على الله، والمراد بالحقيقه النهى و التحذير الشديد عن ترك التقوى و ترك التوكل على الله سبحانه،و الدليل على ذلك ما سرده تعالى من قصه اخذ الميثاق من بنى اسرائيل و من الذين قالوا انا نصارى،ثم نقض الطائفتين الميثاق الإلهى و ابتلاء الله اياهم باللعن و تقسيه القلوب، و نسيان حظ من دينهم،و اغراء العداوه و البغضاء بينهم الى يوم القيامه.

و لم يذكر القصة إلا ليستشهد بها على المؤمنين،و يجعلها نصب أعينهم ليعتبروا بها و يتبها بأن اليهود و النصارى إنما ابتلوا بما ابتلوا به لنسيانهم ميثاق الله سبحانه و لم يكن إلا ميثاقا بالاسلام لله،و اثقوه بالسمع و الطاعه،و كان لازم ذلك أن يتقوا مخالفه ربهم و أن يتوكلوا عليه فى أمور دينهم أى يتخذوه و كيلا- فيها يختارون ما يختاره لهم،و يتركون ما يكرهه لهم،و طريقه طاعه رسلهم بالايمان بهم،و ترك متابعه غير الله و رسله،ممن يدعو الى نفسه و الخضوع لأمره من الجابره و الطغاه و غيرهم حتى الاحبار و الرهبان فلا طاعه إلا لله أو من امر بطاعته.

لكنهم نبذوه وراءهم ظهريا فابعدوا من رحمه الله و حزفوا الكلم عن مواضعه و فسروها بغير ما أريد بها فأوجب ذلك أن نسوا حظا من الدين و لم يكن إلا حظا و سهما يرتحل بارتحاله عنهم كل خير و سعاده و أفسد ذلك ما بقى بأيديهم من الدين،فإن الدين مجموع من معارف و أحكام مرتبط بعضها ببعض يفسد بعضه بعضا سيما الأركان و الاصول،و ذلك كمن يصلى لكن لا لوجه الله،أو ينفق لا لمرضاه الله،أو يقاتل لا لإعلاء كلمه الحق.فلا ما بقى فى أيديهم نفعهم،إذا كان محرّفا فاسدا،و لا ما نسوه من الدين أمكنهم أن يستغنوا عنه،و لا غنى عن الدين و لا سيما اصوله و أركانه.

فمن هنا يعلم ان المقام يقتضى أن يحذّر المؤمنون عن مخالفه التقوى و ترك التوكل على الله بذكر هذه القصة و دعوتهم الى الاعتبار بها.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ**

نَقِيًّا الْآيَةِ؛ قَالَ الرَّابِعُ: النَّقْبُ فِي الْحَائِطِ وَالْجِلْدُ كَالثَّقْبِ فِي الْخَشْبِ. قَالَ: وَالنَّقِيبُ الْبَاحِثُ عَنِ الْقَوْمِ وَعَنْ أَحْوَالِهِمْ، وَجَمْعُهُ نَقَبَاءٌ.

وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يَقْصُصُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ مِنْ هَذِهِ الْأَمَةِ مَا جَرَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ إِحْكَامِ دِينِهِمْ وَتَثْبِيتِ أَمْرِهِمْ بِأَخْذِ الْمِيثَاقِ، وَبَعَثَ النَّقَبَاءَ، وَابْتِلَاغَ الْبَيَانَ، وَاتِّمَامَ الْحُجَّةِ ثُمَّ مَا قَابَلُوهُ بِهِ مِنْ نَقْضِ الْمِيثَاقِ، وَمَا قَابَلَهُمْ بِهِ اللَّهُ سَبْحَانَهُ مِنَ اللَّعْنِ وَتَقْسِيهِ الْقُلُوبِ، الْخ: فَقَالَ: «وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ» وَهُوَ الَّذِي يَذْكُرُهُ كَثِيرًا كَثِيرًا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَغَيْرِهَا: «وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا» وَالظَّاهِرُ أَنَّهُمْ رُؤَسَاءُ الْأَسْبَاطِ الْإِثْنَى عَشَرَ، كَانُوا كَالْوَلَاةِ عَلَيْهِمْ يَتَوَلَّوْنَ أُمُورَهُمْ فَنَسَبْتَهُمْ إِلَى أَسْبَاطِهِمْ بِوَجْهِ كَنْسَبِهِ أَوْلَى الْأَمْرِ إِلَى الْأَفْرَادِ فِي هَذِهِ الْأَمَةِ لَهُمُ الْمَرْجِعُ فِي أُمُورِ الدِّينِ وَالْدُنْيَا غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَلْتَقُونَ وَحْيًا، وَلَا يَشْرَعُونَ شَرِيعَةً، وَإِنَّمَا ذَلِكَ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ «وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ» إِيذَانًا بِالْحِفْظِ وَالْمِرَاقَبَةِ فَيَتَفَرَّعُ عَلَيْهِ أَنْ يَنْصِرَهُمْ إِنْ أَطَاعُوهُ وَيَخْذَلَهُمْ إِنْ عَصَوْهُ وَلِذَلِكَ ذَكَرَ الْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فَقَالَ: «لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ» وَالتَّعْزِيزُ هُوَ النَّصْرُ مَعَ التَّعْظِيمِ، وَالْمُرَادُ بِالرَّسْلِ مَا سَيَسْتَقْبِلُهُمْ بَعَثْتَهُ وَدَعْوَتَهُ كَعِيسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَسَائِرٍ مِنْ بَعَثَهُ اللَّهُ بَيْنَ مُوسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ «وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا» وَهُوَ الْإِنْفَاقُ الْمُنْدُوبُ دُونَ الزَّكَاةِ الْوَاجِبَةِ «لَا كُفْرَانَ عَنْكُمْ سِئَاتِكُمْ وَأَلَّا تَدْخُلْتُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» فَهَذَا مَا يَرْجِعُ إِلَى جَمِيلِ الْوَعْدِ. ثُمَّ قَالَ: «فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ».

قَوْلُهُ تَعَالَى: «فَبِمَا نَقَضْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعْنَاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً» ذَكَرَ تَعَالَى جَزَاءَ الْكُفْرِ بِالْمِيثَاقِ الْمَذْكُورِ ضَلَالِ سَوَاءِ السَّبِيلِ، وَهُوَ ذَكَرَ إِجْمَالِيًّا يَفْصِلُهُ مَا فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنْ أَنْوَاعِ النِّقَمِ الَّتِي نَسَبَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بَعْضُهَا إِلَى نَفْسِهِ كَاللَّعْنِ وَتَقْسِيهِ الْقُلُوبِ مِمَّا تَسْتَقِيمُ فِيهِ النَّسَبَةُ، وَبَعْضُهَا إِلَى أَنْفُسِهِمْ مِمَّا وَقَعَ بِاخْتِيَارِهِمْ كَالَّذِي يَعْنِي بِقَوْلِهِ: «وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ» فَهَذَا كُلُّهُ جَزَاؤُهُمْ بِمَا كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الَّتِي عَلَى رَأْسِهَا الْمِيثَاقُ الْمَأْخُوذُ مِنْهُمْ، أَوْ

جزاء كفرهم بالميثاق خاصة فإن سواء السبيل الذى ضلوه هو سبيل السعادة التى بها عماره دنياهم و آخراهم.

فقوله: «فَمَا نَقَضَ لَهُمْ مِيثَاقَهُمْ» الظاهر أنه هو الكفر الذى توعد الله عليه فى الآيه السابقه، و لفظه «ما» فى قوله: «فَمَا» للتأكيد، و يفيد الإبهام لغرض التعظيم أو التحقير أو غيرهما، و المعنى: فبنقض ما منهم لميثاقهم «لَعَنَاهُمْ» و اللعن هو الإبعاد من الرحمه «وَ جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً» و قسوه القلب مأخوذ من قسوه الحجاره و هى صلابتها و القسى من القلوب ما لا يخشع لحق و لا يتأثر برحمه، قال تعالى: أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (الحديد ١٦).

و بالجملة عقب قسوه قلوبهم أنهم عادوا «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ» بتفسيرها بما لا يرضى به الله سبحانه و بإسقاط أو زياده أو تغيير، فكل ذلك من التحريف، و أفصاهم ذلك أن فاتهم حقائق ناصعه من الدين «وَ نَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ» و لم يكن إلا حطا من الاصول التى تدور على مدارها السعادة، و لا يقوم مقامها إلا ما يسجل عليهم الشقوه اللازمه كقولهم بالتشبيه، و خاتمه نبوه موسى، و دوام شريعه التوراه، و بطلان النسخ و البداء الى غير ذلك.

«وَ لَا تَرَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ» أى على طائفه خائنه منهم، أو على خيانه منهم «إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَ اصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» و قد تقدم مرارا ان استثناء القليل منهم لا ينافى ثبوت اللعن و العذاب للجماعه التى هى الشعب و الامه.

قوله تعالى: وَ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ أَرَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعَزَّيْنَا، قال الرغب: غرى بكذا أى لهج به و لصق، و أصل ذلك من الغراء و هو ما يلصق به، و أغريت فلانا بكذا نحو ألهمت به.

و قد كان المسيح عيسى بن مريم نبى رحمه يدعو الناس الى الصلح و السلم، و يندبهم الى

الإشراف على الآخرة، والإعراض عن ملاذ الدنيا وزخارفها، وبنهاهم عن التكالب لأجل هذا العرض الأدنى فلما نسوا حظا مما ذكروا به أثبت الله سبحانه في قلوبهم مكان السلم والصلح حربا، وبدل المؤاخاه والمواده التي ندبوا إليها معاده ومباغضه كما يقول «فَسُوا حَظًا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَعْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» .

وهذه العداوه والبغضاء اللتان ذكرهما الله تعالى صارتا من الملكات الراسخه المرتكزه بين هؤلاء الامم المسيحيه و كالنار الآخرة التي لا مناص لهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها و ذوقوا عذاب الحريق.

و لم يزل منذ رفع عيسى بن مريم عليه السلام، و اختلف حواريوه و الدعاة السائحون من تلامذتهم فيما بينهم نشب الاختلاف فيما بينهم، و لم يزل ينمو و يكثر حتى تبدل الى الحروب و المقاتلات و الغارات و أنواع الشرد و الطرد و غير ذلك حتى انتهى الى حروب عالميه كبرى تهدد الأرض بالخراب و الإنسانيه بالفناء و الانقراض.

كل ذلك من تبدل النعمه بنقمه، و إنتاج السعي ضلالا «و سَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» .

[سوره المائده (٥): الآيات ١٥ الى ١٩]

اشاره

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٦) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَ أُمُّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (١٨) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَ لَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَ نَذِيرٌ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩)

قوله تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ أَمَا بَيَّنَّاهُ كَثِيرًا كَانُوا يخفون من الكتاب فكبيانه آيات النبوه و بشاراتها كما يشير اليه قوله تعالى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ الْآيَةَ (الأعراف ١٥٧)؛ وقوله تعالى:

يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الْآيَةَ (البقره ١٢٤) وقوله: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ -الى قوله- ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ الْآيَةَ (الفتح ٢٩) و كبيانه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ حَكَمَ الرَّجُلَ الَّذِي كَتَمُوهُ وَ كَابَرُوا فِيهِ الْحَقَّ عَلَى مَا يَشِيرُ إِلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي مَا سَيَأْتِي: لَا يَخْزُنُكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ الْآيَاتِ (المائده ٤١)؛ و هذا

الحكم أعنى حكم الرجم موجود الآن فى الإصحاح الثانى و العشرين من سفر التثنيه من التوراه الدائره بينهم.

و أما عفوه عن كثير فهو تركه كثيرا مما كانوا يخفونه من الكتاب، و يشهد بذلك الاختلاف الموجود فى الكتابين، كاشتغال التوراه على امور فى التوحيد و النبوه لا يصح استنادها اليه تعالى كالتجسم و الحلول فى المكان و نحو ذلك، و ما لا يجوز العقل نسبه الى الأنبياء الكرام من أنواع الكفر و الفجور و الزلات، و كفقدان التوراه ذكر المعاد من رأس و لا يقوم دين على ساق إلا بمعاد، و كاشتغال ما عندهم من الأنجيل و لا سيما إنجيل يوحنا على عقائد الوثنيه.

قوله تعالى: **قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَ كِتَابٌ مُبِينٌ** ظاهر قوله: **«قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ»** كون هذا الجائى قائما به تعالى نحو قيام كقيام البيان أو الكلام بالمبين و المتكلم و هذا يؤيد كون المراد بالنور هو القرآن، و على هذا فيكون قوله: **«وَ كِتَابٌ مُبِينٌ»** معطوفا عليه عطفا تفسيرا، و المراد بالنور و الكتاب المبين جميعا القرآن، و قد سمي الله تعالى القرآن نورا فى موارد من كلامه كقوله تعالى: **وَ اتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ (الأعراف ١٥٧)** و قوله:

فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ النُّورِ الَّذِي أُنزِلْنَا (التغابن ٨) و قوله: **وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا (النساء ١٧٤)**.

و من المحتمل أن يكون المراد بالنور النبى صلى الله عليه و آله و سلم على ما ربما أفاده صدر الكلام فى الآيه، و قد عدده الله تعالى نورا فى قوله: **وَ سِرَاجًا مُبِينًا (الأحزاب ٤٦)**.

قوله تعالى: **يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ** الباء فى قوله:

«به» للاله و الضمير عائد الى الكتاب أو الى النور سواء أريد به النبى صلى الله عليه و آله و سلم أو القرآن فمال الجميع واحد فإن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أحد الأسباب الظاهريه فى مرحله الهدايه، و كذا القرآن و حقيقه الهدايه قائمه به قال تعالى: **إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ (القصص ٥٦)**، و قال: **وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ**

وَلَا الْإِيمَانُ وَ لَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (الشورى / ٥٣) والآيات كما ترى تنسب الهداية الى القرآن و الى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم فِي عَيْنِ أَنَّهَا تَرْجِعُهَا إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ فَهُوَ الْهَادِي حَقِيقَهُ وَ غَيْرِهِ سَبَبٌ ظَاهِرِي مَسْخَرٌ لِأَحْيَاءِ أَمْرِ الْهَدَايَةِ.

و قد قيد تعالى قوله: «يَهْدِي بِهِ اللَّهُ» بقوله: «مَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ» و يؤول الى اشتراط فعلية الهداية الإلهية باتباع رضوانه، فالمراد بالهداية هو الإيصال الى المطلوب، و هو أن يورده الله تعالى سبيلا من سبل السلام أو جميع السبل أو أكثرها واحدا بعد آخر.

و قد أطلق تعالى السلام فهو السلامه و التخلص من كل شقاء يختل به أمر سعادته الحياه في دنيا أو آخره، فيوافق ما وصف القرآن الإسلام لله و الإيمان و التقوى بالفلاح و الفوز و الأمن و نحو ذلك، و قد تقدم في الكلام على قوله تعالى: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (الحمد ٦) في الجزء الأول من الكتاب أن الله سبحانه بحسب اختلاف حال السائرين من عباده سبلا كثيرة تتحد الجميع في طريق واحد منسوب اليه تعالى يسميه في كلامه بالصرراط المستقيم قال تعالى: وَ الَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (العنكبوت ٦٩)، و قال تعالى: وَ أَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنِ سَبِيلِهِ (الأنعام ١٥٣). فدل على أن له سبلا كثيرة لكن الجميع تتحد في الإيصال الى كرامته تعالى من غير أن تفرق سالكيها و يبين كل سبيل سالكيه عن سالكي غيره من السبل كما هو شأن غير صراطه تعالى من السبل.

فمعنى الآية -و الله تعالى-: يهدي الله سبحانه و يورد بسبب كتابه أو بسبب نبيه من اتبع رضاه سبلا من شأنها أنه يسلم من سار فيها من شقاء الحياه الدنيا و الآخره، و كل ما تتكدر به العيشه السعيده.

فأمر الهداية الى السلام و السعاده يدور مدار اتباع رضوان الله، و قد قال تعالى:

وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ (الزمر ٧)، وقال: فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (التوبة ٩٦) ويتوقف بالأخره على اجتناب سبيل الظلم والانحراف في سلك الظالمين، وقد نفى الله سبحانه عنهم هدايته و آيسهم من نيل هذه الكرامه الإلهيه بقوله: وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (الجمعه ٥) فالآيه أعنى قوله: «يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ» تجرى بوجه مجرى قوله: الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (الأنعام ٨٢).

قوله تعالى: وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ فِي جَمْعِ الظُّلُمَاتِ وَإِفْرَادِ النُّورِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ طَرِيقَ الْحَقِّ لَا اخْتِلَافَ فِيهِ وَلَا تَفْرُقَ وَإِنْ تَعَدَّدَتْ بِحَسَبِ الْمَقَامَاتِ وَالْمَوَاقِفِ بِخِلَافِ طَرِيقِ الْبَاطِلِ.

و الإخراج من الظلمات الى النور اذا نسب الى غيره تعالى كنى أو كتاب فمعنى إذنه تعالى فيه إجازته و رضاه كما قال تعالى: كَذَٰبٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ (إبراهيم ١) فقيد إخراجهم إياهم من الظلمات الى النور بإذن ربهم ليخرج بذلك عن الاستقلال فى السببيه فإن السبب الحقيقى لذلك هو الله سبحانه و قال: وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (إبراهيم ٥) فلم يقيده بالإذن لاشتمال الأمر على معناه.

و اذا نسب ذلك الى الله تعالى فمعنى إخراجهم بإذنه إخراجهم بعلمه و قد جاء الاذن بمعنى العلم يقال: أذن به أى علم به، و من هذا الباب قوله تعالى: وَ أذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ (التوبة ٣) فَقُلْ أَذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ (الأنبياء ١٠٩)، و قوله: وَ أذُنٌ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ (الحج ٢٧) الى غيرها من الآيات.

و أما قوله تعالى: «و يَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» فقد أعيد فيه لفظ الهدايه لحيلولة قوله:

«و يُخْرِجُهُمْ» ، بين قوله: «يَهْدِي بِهِ اللَّهُ» ، و بين هذه الجملة، و لأن الصراط المستقيم كما تقدم

بيانه فى سورة الفاتحه طريق مهيمن على الطرق كلها فالهداياه اليه أيضا هدايه مهيمنه على سائر أقسام الهداياه التى تتعلق بالسبل الجزئيه.

و لا ينافى تنكير قوله: «صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» كون المراد به هو الصراط المستقيم الوحيد الذى نسبه الله تعالى فى كلامه الى نفسه-إلا فى سورة الفاتحه-لأن قرينه المقام تدل على ذلك، وإنما التنكير لتعظيم شأنه و تفخيم أمره.

قوله تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ هؤلاء إحدى الطوائف الثلاثة التى تقدم نقل أقوالهم فى سورة آل عمران، و هى القائله باتحاد الله سبحانه بالمسيح فهو إله بشر بعينه، و يمكن تطبيق الجملة أعنى قولهم: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ» على القول بالبنوه و على القول بثالث ثلاثة أيضا غير أن ظاهر الجملة هو حصول العينيه بالاتحاد.

قوله تعالى: قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَ أُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً الآية؛ هذا برهان على إبطال قولهم: من جهه مناقضه بعضه بعضا لأنهم لما وضعوا أن المسيح مع كونه إلهيا بشر كما وصفوه بأنه ابن مريم جوزوا له ما يجوز على أى بشر مفروض من سكان هذه الارض، و هم جميعا كسائر أجزاء السماوات و الارض و ما بينهما مملوكون لله تعالى مسخرون تحت ملكه و سلطانه، فله تعالى أن يتصرف فيهم بما أراد، و أن يحكم لهم أو عليهم كيفما شاء، فله أن يهلك المسيح كماله أن يهلك أمه و من فى الأرض على حد سواء من غير مزيه للمسيح على غيره، و كيف يجوز الهلاك على الله سبحانه؟! فوضعهم أن المسيح بشر يبطل وضعهم أنه هو الله سبحانه للمناقضه.

فقوله: «فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً» كناية عن نفى المانع مطلقا فملك شىء من الله هو السلطنه عليه تعالى فى بعض ما يرجع اليه، و لازمها انقطاع سلطنته عن ذلك الشىء، و هو أن يكون سبب من الأسباب يستقل فى التأثير فى شىء بحيث يمانع تأثيره تعالى أو يغلب عليه فيه، و لا

ملك إلا لله وحده لا شريك له إلا ما ملك غيره تمليكاً لا يبطل ملكه و سلطانه.

وقوله: «إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَ مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» إنما قيد المسيح بقوله: «ابْنُ مَرْيَمَ» للدلالة على كونه بشراً تاماً واقعا تحت التأثير الربوبي كسائر البشر، ولذلك بعينه عطف عليه «أمه» لكونه مسانخه له من دون ريب، وعطف عليه «مَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً» لكون الحكم في الجميع على حد سواء.

ومن هنا يظهر أن في هذا التقييد والعطف تلويحا الى برهان الإمكان، ومحصله أن المسيح يماثل غيره من أفراد البشر كامه و سائر من في الأرض فيجوز عليه ما يجوز عليهم لأن حكم الامثال فيما يجوز فيما لا يجوز واحد، ويجوز على غيره أن يقع تحت حكم الهلاك فيجوز عليه ذلك ولا مانع هناك يمنع، ولو كان هو الله سبحانه لما جاز عليه ذلك.

وقوله: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» في مقام التعليل للجمله السابقه، والتصريح بقوله: «وَمَا بَيْنَهُمَا» مع أن القرآن كثيرا ما يعبر عن عالم الخلقه بالسموات و الارض فقط إنما هو ليكون الكلام أقرب من التصريح، وأسلم من ورود التوهمات و الشبهات فليس لمتوهم أن يتوهم أنه إنما ذكر السموات و الارض و لم يذكر ما بينهما، ومورد الكلام مما بينهما.

و تقديم الخبر أعنى قوله «و لله» للدلالة على الحصر، وبذلك يتم البيان، والمعنى: كيف يمكن أن يمنع مانع من إرادته تعالى إهلاك المسيح و غيره و وقوع ما أراده من ذلك، و الملك و السلطنه المطلقه في السموات و الأرض و ما بينهما لله تعالى لا ملك لأحد سواه؟ فلا مانع من نفوذ حكمه و مضى أمره.

وقوله: «يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» في مقام التعليل للجمله السابقه عليه أعنى قوله: «وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» فإن الملك -بضم الميم- و هو نوع سلطنه و مالكيه على سلطنه الناس و ما يملكونه إنما يتقوم بشمول القدره و نفوذ المشيئه، و لله سبحانه ذلك في جميع السموات و الارض و ما بينهما، فله القدره على كل شيء و هو يخلق ما يشاء من

الأشياء فله الملك المطلق فى السماوات و الارض و ما بينهما فخلقه ما يشاء و قدرته على كل شىء هو البرهان على ملكه كما أن ملكه هو البرهان على أن له أن يريد إهلاك الجميع ثم يمضى إرادته لو أراد، و هو البرهان على أنه لا يشاركه أحد منهم فى ألوهيته.

و أما البرهان على نفوذ مشيئته و شمول قدرته فهو أنه الله عز اسمه، و لعله لذلك كرر لفظ الجلاله فى الآيه مرات فقد آل فرض الألوهيه فى شىء الى أنه لا شريك له فى ألوهيته.

قوله تعالى: **وَ قَالَتِ الْيَهُودُ وَ النَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاؤُهُ لَا رَيْبَ أَنَّهُمْ لَم يَكُونُوا يَدْعُونَ الْبَنُوهُ الْحَقِيقِيهِ كَمَا يَدْعِيهِ مَعْظَمُ النَّصَارَى لِلْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامِ فَلَا الْيَهُودَ كَانَتْ تَدْعِي ذَلِكَ حَقِيقَهُ وَ لَا النَّصَارَى، وَ إِنَّمَا كَانُوا يَطْلُقُونَهَا عَلَى أَنْفُسِهِمْ إِطْلَاقًا تَشْرِيفِيًا بِنَوْعٍ مِنَ التَّجَوُّزِ، وَ قَدْ وَرَدَ فِي كِتَابِهِمُ الْمُقَدَّسِ هَذَا الْإِطْلَاقُ كَثِيرًا كَمَا فِي حَقِّ آدَمَ (١) وَ يَعْقُوبَ (٢) وَ دَاوُدَ (٣) وَ أَقْوَامَ (٤) عِيسَى (٥) وَ أَطْلَقَ (٦) أَيْضًا عَلَى صَلْحَاءِ الْمُؤْمِنِينَ.**

و كيف كان فإنما اريد بالابناء أنهم من الله سبحانه بمنزله الابناء من الاب، فهم بمنزله أبناء الملك بالنسبه إليه المنحازين عن الرعيه المخصوصين بخصيصه القرب المقتضيه أن لا يعامل معهم معامله الرعيه كأنهم مستثنون عن إجراء القوانين و الاحكام المجراه بين الناس لأن تعلقهم بعرش الملك لا يلائم مجازاتهم بما يجازى به غيرهم و لا إيقافهم موقفا توقف فيه سائر الرعيه، فلا يستهان بهم كما يستهان بغيرهم فكل ذلك لما تتعقبه علقه النسب من علقه الحب

ص: ٧٧

-
- ١-١. آيه ٣٨ من الاصحاح الثالث من انجيل لوقا.
 - ٢-٢. آيه ٢٢ من الاصحاح الرابع من سفر الخروج من التوراه.
 - ٣-٣. آيه ٧ من المزمور ٢ من مزامير داود.
 - ٤-٤. آيه ٩ من الاصحاح ٣١ من نبوه أرميا.
 - ٥-٥. آيه ٩ من الاصحاح ٥ إنجيل متى، و فى غيره من الاناجيل.
 - ٦-٦. موارد كثيره من الاناجيل و ملحقاتها.

فالمراد بهذه البنوه الاختصاص و التقرب، و يكون عطف قوله: «وَ أَحِبَّاءُهُ» على قوله «أَبْنَاءُ اللَّهِ» كعطف التفسير و ليس به حقيقه، و غرضهم من دعوى هذا الاختصاص و المحبوبيه إثبات لازمه و هو أنه لا سبيل الى تعذيبهم و عقوبتهم فلن يصيروا إلا الى النعمه و الكرامه لأن تعذيبه تعالى إياهم يناقض ما خصهم به من المزيه، و جباهم به من الكرامه.

و الدليل عليه ما ورد فى الرد عليهم من قوله تعالى: «يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ»، اذ لو لا أنهم كانوا يريدون بقولهم: «نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاءُهُ» أنه لا سبيل الى عذابهم و إن لم يستجيبوا الدعوه الحقه لم يكن وجه لذكر هذه الجملة: «يغفر»، ردا عليهم و لا لقوه له: «يَلُ أُنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ» موقع حسن مناسب فمعنى قولهم: «نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَ أَحِبَّاءُهُ» أنا خاصه الله و محبوبوه لا سبيل له تعالى الى تعذيبنا و إن فعلنا ما فعلنا، و تركنا ما تركنا لأن انتفاء السبيل وقوع الا من التام من كل مكروه و محذور هو لازم معنى الاختصاص و الحب.

قوله تعالى: قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ أمر نبيه بالاحتجاج عليهم و رد دعوهم بالحجه، و تلك حجتان: إحداهما: النقض عليهم بالتعذيب الواقع عليهم، و ثانيتهما:

معارضتهم بحجه تنتج نقيض دعوهم.

و محصل الحجه الاولى التى يشتمل عليها قوله: «فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ» أنه لو صحت دعوكم أنكم أبناء الله و أحبائه مأمونون من التعذيب الالهى لا سبيل إليه فيكم لكنتم مأمونين من كل عذاب اخروى أو دنيوى فما هذا العذاب الواقع عليكم المستمر فيكم بسبب ذنوبكم؟ فأما اليهود فلم تزل تذب ذنوبا كقتلهم أنبياءهم و الصالحين من شعبهم و تفجر بنقض المواثيق الالهيه المأخوذه منهم، و تحريف الكلم عن مواضعه و كتمان آيات الله و الكفر بها و كل طغيان و اعتداء، و تذوق وبال أمرها نكالا عليها من مسخ بعضهم و ضرب الذله و المسكنه على آخرين، و تسلط الظالمين عليهم يقتلون أنفسهم و يهتكون أعراضهم

و يخزبون بلادهم، و ما لهم من العيش إلا عيشه الحرص الذى لا هو حى فيرجى و لا ميت فينسى (١).

و فى الآيه أعنى قوله: «قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ» وجه آخر و هو أن يكون المراد بالعذاب الاخرى، و المضارع (يُعَذِّبُكُمْ) بمعنى الاستقبال دون الاستمرار كما فى الوجه السابق فإن أهل الكتاب معترفون بالعذاب بحذاء ذنوبهم فى الجملة: أما اليهود فقد نقل القرآن عنهم قولهم: لَنْ تَمَسَّنَا الذَّارُّ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً (البقره ٨٠) و أما النصارى فإنهم و إن قالوا بالفداء لمغفره الذنوب لكنه إثبات فى نفسه للذنوب و العذاب الذى أصاب المسيح بالصلب و الأناجيل مع ذلك تثبت ذنوبا كالزنا و نحوه، و الكنيسه كانت تثبته عملا بما كانت تصدره من صكوك المغفره. هذا. لكن الوجه هو الاول.

قوله تعالى: يَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا وَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ حجه ثانيه مسوقه على نحو المعارضه محصيه لها: أن النظر فى حقيقتكم يؤدى الى بطلان دعواكم أنكم أبناء الله و أحباؤه، فإنكم بشر من جملة من خلقه الله من بشر أو غيره لا تمازون عن سائر من خلقه الله منهم، و لا يزيد أحد من الخليقه من السماوات و الارض و ما بينهما على أنه مخلوق لله الذى هو المليك الحاكم فيه و فى غيره بما شاء و كيفما شاء و يصير الى ربه المليك الحاكم فيه و فى غيره، و اذا كان كذلك كان لله سبحانه أن يغفر لمن شاء منهم، و يعذب من شاء منهم من غير أن تمنعه مزيه أو كرامه أو غير ذلك من ان يريد فى شىء ما يريده من مغفره أو عذاب أو يقطع سبيله قاطع أو يضرب دونه حجاب يحجبه عن نفوذ المشيئه و مضى الحكم.

فقوله: «بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ» بمنزله إحدى مقدمات الحججه، و قوله: «وَ لِلَّهِ مُلْكُ

ص: ٧٩

١- ١). المائده ١٥-١٩: كلام فى الابتلاءات و العذاب النازل على أهل الكتاب.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا» مقدمه أخرى و قوله: «وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ» مقدمه ثالثه، و قوله:

«يَعْفُو لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ» بمنزله نتيجه البيان التى تناقض دعواهم: أنه لا سبيل الى تعذيبهم.

قوله تعالى: يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ قال الراغب: الفتور سكون بعد حدّه، و لين بعد شدّه، و ضعف بعد قوه قال تعالى:

«يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ» أى سكون خال عن مجيء رسول الله.

و الآيه خطاب ثان لأهل الكتاب متمم للخطاب السابق فإن الآيه الاولى بينت لهم أن الله ارسل اليهم رسولا ايده بكتاب مبين يهدى بإذن الله الى كل خير و سعاده، و هذه الآيه تبين ان ذلك البيان الإلهي إنما هو لإتمام الحججه عليهم ان يقولوا: ما جاءنا من بشير ولا نذير.

و بهذا البيان يتأيد ان يكون متعلق الفعل (يبين لكم) فى هذه الآيه هو الذى فى الآيه السابقه، و التقدير: يبين لكم كثيرا مما كنتم تخفون من الكتاب اى ان هذا الدين الذى تدعون اليه هو بعينه دينكم الذى كنتم تدينون به مصدقا لما معكم و الذى يرى فيه من موارد الاختلاف فإنما هو بيان لما أخفيتموه من معارف الدين التى بينته الكتب الالهيه، و لازم هذا الوجه ان يكون قوله: يا اهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم من قبيل إعاده عين الخطاب السابق لضم بعض الكلام المفصول عن الخطاب السابق المتعلق به و هو قوله: «أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا» الخ؛ اليه و انما جوز ذلك وقوع الفصل الطويل بين المتعلق و المتعلق به و هو شائع فى اللسان.

و يمكن ان يكون خطابا مستأنفا و الفعل (يبين لكم) انما حذف متعلقه.

للدلاله على العموم أى يبين لكم جميع ما يحتاج الى البيان، أو لتفخيم أمره أى يبين لكم

أمرا عظيما تحتاجون الى بيانه، وقوله: «عَلَى فِتْرِهِ مِنَ الرُّسُلِ» لا يخلو عن إشعار أو دلالة على هذه الحاجه فإن المعنى: يبين لكم ما مست حاجتكم الى بيانه و الزمان خال من الرسل حتى يبينوا لكم ذلك.

و قوله: «أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ»، متعلق بقوله: «فَقَدْ جَاءَكُمْ» بتقدير:

حذر أن تقولوا، أو لئلا تقولوا.

و قوله: «وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» كأنه لدفع الدخول فإن اليهود كانت لا ترى جواز تشريع شريعته بعد شريعته التوراه لذهابهم الى امتناع النسخ و البداء فرد الله سبحانه مزعمتهم بأنها تنافى عموم القدره، و قد تقدم الكلام فى النسخ فى تفسير قوله تعالى: مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ الْآيَةِ (البقره ١٠٦)؛ فى الجزء الأول من الكتاب (١)(٢)(٣).

[سوره المائده (٥): الآيات ٢٠ الى ٢٦]

اشاره

وَ إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ أذكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَ جَعَلَ لَكُم مَّلُوكًا وَ اتَّأَمَّكُمْ مِمَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (٢٠) يَا قَوْمِ أَدْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ لَا تَوْتَدُوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا فِيهَا قَوْمٌ جَبَّارِينَ وَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَ عَلَى اللَّهِ فِتْنَتُكُمْ وَإِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَّا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعٌ دُونَ (٢٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَ أَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٢٦)

ص: ٨١

١-١). المائده ١٥-١٩: كلامه فى طريق التفكير الذى يهدى اليه القرآن و هو بحث مختلف.

٢-٢). المائده ١٥-١٩: بحث فى تاريخ التفكير الاسلامى و الطريق الذى سلكته الامه الاسلاميه.

٣-٣). المائده ١٥-١٩: بحث روائى فى: كتمان اليهود حكم الرجم فى عهد النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ الِى آخِرِ الْآيَةِ؛ الآيات النازله فى قصص موسى تدل على أن هذه القصة-دعوه موسى إياهم الى دخول الأرض المقدسه-إنما كانت بعد خروجهم من مصر، كما أن قوله فى هذه الآيه «وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا» يدل على ذلك أيضا.

و يدل قوله: «وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ» على سبق عده من الآيات النازله عليهم كالمن و السلوى و انفجار العيون من الحجاره و إظلال الغمام.

و يدل قوله: «الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» المتكرر مرتين على تحقق المخالفه و معصيه الرسول منهم قبل القصة مره بعد مره حتى عادوا بذلك متلبسين بصفه الفسق.

فهذه قرائن تدل على وقوع القصة أعنى قصه التيه فى الشطر الأخير من زمان مكث موسى عليه السلام فيهم بعد أن بعثه الله تعالى إليهم و أن غالب القصص المقتصه فى القرآن عنهم إنما وقعت قبل ذلك.

فقول موسى لهم: «اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» أريد به مجموع النعم التي أنعم الله بها عليهم و جباهم بها، و إنما بدأ بذلك مقدمه لما سيندبهم إليه من دخول الأرض المقدسه فذكرهم نعم ربهم لينشطوا بذلك لاستزاده النعمه و استتمامها فإن الله قد كان أنعم عليهم بعثه موسى و هذه يتهم الى دينه، و نجاتهم من آل فرعون، و إنزال التوراه، و تشريع الشريعة فلم يبق لهم من تمام النعمه إلا أن يمتلكوا أرضا مقدسه يستقلون فيها بالقطن و السؤدد.

و قد قسم النعمه التي ذكرهم بها ثلاثه أقسام حين التفصيل فقال: «إِذْ جَعَلْنَا فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ» و هم الأنبياء الذين فى عمود نسبهم كإبراهيم و إسحاق و يعقوب و من بعدهم من الأنبياء، أو خصوص الأنبياء من بنى إسرائيل كيوسف او الاسباط و موسى و هارون، و النبوه نعمه أخرى.

ثم قال: «وَجَعَلْنَاكُمْ مَلُوكًا» أى مستقلين بأنفسكم خارجين من ذل استرقاق الفراعنه و تحكم الجبابره، و ليس الملك إلا من استقل فى أمر نفسه و أهله و ماله، و قد كان بنو إسرائيل فى زمن موسى يسيرون بسنه اجتماعيه هى أحسن السنن و هى سنه التوحيد التي تأمرهم بطاعه الله و رسوله، و العدل التام فى مجتمعهم، و عدم الاعتداء على غيرهم من الامم من غير ان يتأمر عليهم بعضهم أو يختلف طبقاتهم اختلافًا يخل به امر المجتمع، و ما عليهم إلا موسى و هو نبى غير سائر سيره ملك أو رئيس عشيره يستعلى عليهم بغير الحق.

و يمكن أن يكون المراد بالملك مجرد ركوز الحكم عند بعض الجماعه فيشمل سنه الشيخوخه، و يكون على هذا موسى عليه السلام ملكا و بعده يوشع النبى و قد كان يوسف ملكا من قبل، و ينتهى الى الملوك المعروفين طالوت و داود و سليمان و غيرهم. هذا، و يرد على هذا الوجه

أيضا ما يرد على سابقه.

ثم قال: «وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ» و هي العنايات و الألفاظ الإلهيه التي اقترنت بآيات باهره قيمه بتعديل حياتهم لو استقاموا على ما قالوا، و داموا على ما واثقوا، و هي الآيات البينات التي أحاطت بهم من كل جانب أيام كانوا بمصر، و بعد اذ نجاهم الله من فرعون و قومه، فلم يتوافر و يتواتر من الآيات المعجزات و البراهين الساطعات و النعم التي يتنعم بها في الحياه على امه من الامم الماضيه المتقدمه على عهد موسى ما توافرت و تواترت على بنى اسرائيل.

قوله تعالى: يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتُدُّوا عَلَيَّ آذِينَكُمْ فَتَنْفَلْتُمْ خَاسِرِينَ أمرهم بدخول الأرض المقدسه، و كان يستنبط من حالهم التمرد و التأبى عن القبول، و لذلك أكد أمره بالنهي عن الارتداد و ذكر استتباعه الخسران. و الدليل على أنه كان يستنبط منهم الرد توصيفه اياهم بالفاسقين بعد ردهم، فإن الردّ و هو فسق واحد لا يصح اطلاق «الفاسقين» عليهم الدالّ على نوع من الاستمرار و التكرّر.

و قد وصف الأرض بالمقدسه، و قد فسروه بالمطهره من الشرك لسكون الأنبياء و المؤمنين فيها، و لم يرد في القرآن الكريم ما يفسر هذه الكلمه. و الذى يمكن أن يستفاد منه ما يقرب من هذا المعنى قوله تعالى: إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ (الإسراء 1) و قوله:

وَ أَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا (الأعراف 137) و ليست المباركه فى الارض الا جعل الخير الكثير فيها، و من الخير الكثير اقامه الدين و اذهاب قذاره الشرك.

و قوله: «كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ» ظاهر الآيات أن المراد به قضاء توطنهم فيها، و لا ينافيه قوله فى آخرها: «فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً» بل يؤكد فى قوله: «كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ» كلام مجمل

أبهم فيه ذكر الوقت و حتى الاشخاص، فإن الخطاب للامة من غير تعرض لحال الافراد و الاشخاص، كما قيل: ان السامعين لهذا الخطاب الحاضرين المكلفين به ماتوا و فنوا عن آخرهم فى التيه، و لم يدخل الارض المقدسه الا أبناءهم و أبناء أبنائهم مع يوشع بن نون، و بالجملة لا يخلو قوله: «فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً» عن اشعار بأنها مكتوبه لهم بعد ذلك.

و هذه الكتابه هى التى يدل عليها قوله تعالى: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ (القصص ٦) و قد كان موسى عليه السلام يرجو لهم ذلك بشرط الاستعانه بالله و الصبر حيث يقول قال موسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ قَالُوا أَوْذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَ مِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوُّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (الأعراف ١٢٩).

و هذا هو الذى يخبر تعالى عن انجازه بقوله: وَ أَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسَيْنِ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا (الأعراف ١٣٧) فدللت الآية على أن استيلاءهم على الارض المقدسه و توطنهم فيها كانت كلمه الهيه و كتابا و قضاء مقضيا مشرطا بالصبر على الطاعة و عن المعصيه، و فى مرّ الحوادث.

قوله تعالى: قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَارِينَ وَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ قال الرغب: أصل الجبر إصلاح الشىء بضرب من القهر يقال: جبرته فانجبر و اجتبر. قال: و قد يقال الجبر تاره فى الإصلاح المجرى نحو قول على رضى الله عنه: يا جابر كل كسير و يا مسهل كل عسير، و منه قولهم للخبز: جابر بن حبه، و تاره فى القهر المجرى نحو قوله عليه السلام: لا جبر و لا تفويض، قال: و الإيجاب فى الاصل حمل

الغير على أن يجبر الآخر لكن تعورف فى الإكراه المجرّد فقيل: أجبرته على كذا كقولك:

أكرهته. قال: والجبر فى صفه الإنسان يقال لمن يجبر نقيصه بادعاء منزله من التعالى لا يستحقها، وهذا لا يقال إلا على طريق الدم كقوله عزّ وجلّ وَ خَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ وقوله تعالى: وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وقوله عزّ وجلّ «إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ» قال: ولتصوّر القهر بالعلوّ على الاقران قيل: نخله جباره و ناقه جباره انتهى موضع الحاجة.

فظهر أن المراد بالجبارين هم أولو السطوه و القوه من الذين يجبرون الناس على ما يريدون.

وقوله: «وَ إِذَا لَمْ نَدْخُلْهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا مِنْهَا» اشتراط منهم خروج القوم الجبارين فى دخول الارض، و حقيقته الرد لأمر موسى و إن وعدوه ثانياً الدخول على الشرط بقولهم «فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ» .

قوله تعالى: قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا الى آخر الآيه؛ ظاهر السياق أن المراد بالمخافه مخافه الله سبحانه و أن هناك رجالا- كانوا يخافون الله أن يعصوا أمره و أمر نبيه، و منهم هذا الرجلان اللذان قالوا ما قالوا، و أنهما كانا يختصان من بين اولئك الذين يخافون بأن الله أنعم عليهما، و قد مر فى موارد تقدمت من الكتاب أن النعمه اذا اطلقت فى عرف القرآن يراد بها الولايه الالهيه فهما كانا من أولياء الله تعالى، و هذا فى نفسه قرينه على أن المراد بالمخافه مخافه الله سبحانه فإن أولياء الله لا يخشون غيره قال تعالى: أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (يونس ٦٢).

و يمكن أن يكون متعلق «أنعم» المحذوف أعنى المنعم به هو الخوف، فيكون المراد أن الله أنعم عليهما بمخافته، و يكون حذف مفعول «يخافون» للاكتفاء بذكره فى قوله: «أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا» اذ من المعلوم أن مخافتهما لم يكن من اولئك القوم الجبارين و الالم يدعوا بنى اسرائيل الى الدخول بقولهما «ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ» .

و قوله: «ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبِلَادَ» لعل المراد به أول بلد من بلاد أولئك الجبابرة يلي بنى إسرائيل، وقد كان على ما يقال: أريحاء، وهذا استعمال شائع أو المراد باب البلده.

و قوله: «فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَابْتَئِنُّوا غَائِبُونَ» وعد منهما لهم بالفتح و الظفر على العدو، وإنما أخبرا إخبارا بتيا اتكالا منهما بما ذكره موسى عليه السلام أن الله كتب لهم تلك الأرض لإيمانهما بصدق أخباره، أو أنهما عرفا ذلك بنور الولاية الالهيه. وقد ذكر المعظم من مفسرى الفريقين: أن الرجلين هما يوشع بن نون و كالب بن يوفنا و هما من نقيب بنى إسرائيل الاثنى عشر.

ثم دعواهم الى التوكل على ربهم بقولهما «وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» لأن الله سبحانه كافي من توكل عليه، وفيه تطيب لنفوسهم و تشجيع لهم.

قوله تعالى: «قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا الْآيَةُ؛ تَكَرَّرَهُمْ قَوْلُهُمْ «إِنَّا لَن نَدْخُلُهَا» ثَانِيَا لِيَأْسَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ أَنْ يَصِرَ عَلَى دَعْوَتِهِ فَيَعُودَ إِلَى الدَّعْوَةِ بَعْدَ الدَّعْوَةِ.

قوله تعالى: «قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَ أَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» السياق يدل على أن قوله: «إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَ أَخِي» كناية عن نفى قدره على حمل غير نفسه و أخيه على ما أتاهم به من الدعوه. فإنه انما كان فى مقدرته حمل نفسه على امضاء ما دعا اليه و حمل أخيه هارون و قد كان نبياً مرسلًا و خليفه له فى حياته لا يتمرد عن أمر الله سبحانه. أو أن المراد أنه ليس له قدره الا على نفسه و لا لأخيه قدره الا كذلك.

قوله تعالى: «قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ» الضمير فى قوله «فإنها» راجعه الى الارض المقدسه، و المراد بالتحريم التكوينى و هو القضاء، و التيه التحير، و اللام فى «الأرض» للعهد، و قوله «فلا تأس» نهى من الاسى و هو الحزن، و قد أمضى الله تعالى قول موسى عليه السلام حيث

وصفهم في دعائه بالفاسقين.

و المعنى: أن الارض المقدسه أى دخولها و تملكها محرمه عليهم، أى قضينا أن لا يوفقوا لدخولها أربعين سنه يسرون فيها فى الارض متحيرين لا هم مدنيون يستريحون الى بلد من البلاد، ولا هم بدويون يعيشون عيشه القبائل و البدوين، فلا تحزن على القوم الفاسقين من نزول هذه النقمه عليهم لانهم فاسقون لا ينبغى أن يحزن عليهم اذا أذيقوا وبال أمرهم (١).

[سوره المائده (٥): الآيات ٢٧ الى ٣٢]

اشاره

وَ أَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٢٧) لَئِن بَسِطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطِ يَدَيْ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٢٨) إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ (٢٩) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَفَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الخَاسِرِينَ (٣٠) فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَهُ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَهُ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ (٣١) مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَ مَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَ لَقَدْ جَاءَهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ (٣٢)

ص: ٨٨

١- ١). المائده ٢٠-٢٦: بحث روائى فى: بنى اسرائيل و الارض المقدسه، موت موسى عليه السلام فى التيه.

قوله تعالى: وَآتَىٰ عَلَيْهِم نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ ۖ أَيُّهُ التَّلَاوَهُ مِنَ التَّلُوِّ وَ هِيَ الْقِرَاءَةُ سَمِيَتْ بِهَا لِأَنَّ الْقَارِئَ لِلنَّبِيِّ يَأْتِي بِبَعْضِ اجْزَائِهِ فِي تَلْوِ بَعْضِ آخَرِهِ. وَ النَّبَأُ هُوَ الْخَبْرُ إِذَا كَانَ ذَا جَدْوَى وَ نَفْعٍ. وَ الْقِرْبَانُ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَوْ إِلَى غَيْرِهِ، وَ هُوَ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرٌ لَا- يَشْنَى وَ لَا- يَجْمَعُ. وَ التَّقْبَلُ هُوَ الْقَبُولُ بِزِيَادَةِ عِنَايَةٍ وَ اِهْتِمَامٍ بِالْمَقْبُولِ وَ الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ «عَلَيْهِمْ» لِأَهْلِ الْكِتَابِ لَمَّا مَرَّ مِنْ كَوْنِهِمْ هُمُ الْمَقْصُودِينَ فِي سَرْدِ الْكَلَامِ وَ الْمُرَادُ بِهَذَا الْمَسْمُوعِ بِآدَمَ هُوَ آدَمُ الَّذِي يَذْكَرُ الْقُرْآنَ أَنَّهُ أَبُو الْبَشَرِ.

و قوله: «إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَ لَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ» ظَاهِرُ السِّيَاقِ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَدَّمَ إِلَى الرَّبِّ تَعَالَى شَيْئًا يَتَقَرَّبُ بِهِ «وَ إِنَّمَا لَمْ يَشْنَ لَفْظُ الْقِرْبَانِ لِكَوْنِهِ فِي الْأَصْلِ مَصْدَرًا لَا يَشْنَى وَ لَا يَجْمَعُ.

و قوله: «قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» الْقَائِلُ الْأَوَّلُ هُوَ الْقَاتِلُ وَ الثَّانِي هُوَ الْمَقْتُولُ، وَ سِيَاقُ الْكَلَامِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُمَا عِلْمًا يَقْبَلُ قِرْبَانَ أَحَدُهُمَا وَ عَدَمَ تَقْبَلِهِ مِنَ الْآخَرِ، وَ أَمَّا أَنَّهُمَا مِنْ أَيْنَ عِلْمًا ذَلِكَ؟ أَوْ بِأَيِّ طَرِيقٍ اسْتَدَلُّوا عَلَيْهِ؟ فَالْآيَةُ سَاكِنَةٌ عَنِ ذَلِكَ.

فَقَوْلُهُ «إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ» مَسْجُوقٌ لِقِصْرِ الْاِفْرَادِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ التَّقْبَلَ لَا يَشْمَلُ قِرْبَانَ التَّقِيِّ وَ غَيْرِ التَّقِيِّ جَمِيعًا، أَوْ لِقِصْرِ الْقَلْبِ كَأَنَّ الْقَاتِلَ كَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ سَيَتَقَبَّلُ قِرْبَانَهُ دُونَ

قربان المقتول زعما منه ان الأمر لا يدور مدار التقوى أو أن الله سبحانه غير عالم بحقيقه الحال، يمكن أن يشتهه عليه الامر كما ربما يشتهه على الانسان.

قوله تعالى: لئن بسطت إلیّ یدک لتقتلنی [□] ما أنا بباسط یدى إلیک الخ؛ اللام للقسم، و بسط اليد اليه كناية عن الاخذ بمقدمات القتل و اعمال اسبابه، و قد اتى فى جواب الشرط بالنفى الوارد على الجملة الاسميه، و بالصفه (ببساط) دون الفعل و اكد النفى بالباء ثم الكلام بالقسم، كل ذلك للدلاله على انه بمراحل من البعد من اراده قتل اخيه، لا يهم به و لا يخطر بباله.

و اكد ذلك كله بتعليل ما ادعاه من قوله: «ما أنا بباسط یدى» الخ؛ بقوله: «إني أخاف الله رب العالمين» فإن ذكر المتقين لربهم و هو الله رب العالمين الذى يجازى فى كل اثم بما يتعقبه من العذاب ينبه فى نفوسهم غريزه الخوف من الله تعالى، و لا يخليهم و ان يرتكبوا ظلما يوردهم مورد الهلكه.

ثم ذكر تأويل قوله: «لئن بسطت إلیّ یدک لتقتلنی [□] ما أنا بباسط یدى» الخ؛ بمعنى حقيقه هذا الذى أخبر به، و محصيه له أن الامر على هذا التقدير يدور بين أن يقتل هو أخاه فيكون هو الظالم الحامل للائم الداخل فى النار، أو يقتله أخوه فيكون هو كذلك، و ليس يختار قتل أخيه الظالم على سعادته نفسه و ليس بظالم، بل يختار أن يشقى أخوه الظالم بقتله و يسعد هو و ليس بظالم، و هذا هو المراد بقوله: «إني أريد» الخ؛ كنى بالإرادته عن الاختيار على تقدير دوران الأمر.

فالأيه فى كونها تأويلا لقوله «لئن بسطت إلیّ یدک» الخ؛ كالذى وقع فى قصه موسى و صاحبه حين قتل غلاما لقياه فاعترض عليه موسى بقوله: أقتلت نفساً زكیه بغير نفس لصد جئت شيئاً نكراً فنبأه صاحبه بتأويل ما فعل بقوله: و أمّا الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا و كُفراً فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاه و أقرب رُحماً

قوله تعالى: «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ الدَّارِ»، أى ترجع بإثمي وإثمك كما فسره بعضهم، وقال الرغب في مفرداته: أصل البواء مساواه الأجزاء في المكان خلاف النبوه الذى هو منافاه الأجزاء يقال: مكان بواء اذا لم يكن نابئا بنازله، و بؤأت له مكانا: سؤيته فتبؤأ-الى أن قال-وقوله: إني اريد أن تبوء بإثمي وإثمك أى تقيم بهذه الحاله (١).

قوله تعالى: «فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ» قال الراغب في مفرداته: الطوع الانقياد و يضادّه الكره، و الطاعه مثله لكن أكثر ما يقال فى الايتمار لما أمر و الارتسام فيما رسم، و قوله: فطوّعت له نفسه نحو أسمح له قرينته و انقادت له و سؤلت، و طوّعت أبلغ من أطاعت و طوعت له نفسه بإزاء قولهم: تأبّت عن كذا نفسه. انتهى ملخصا. و ليس مراده أن طوعت مضمن معنى انقادت أو سؤلت بل يريد ان التطويح يدل على التدرّيج كالإطاعه على الدفعه، كما هو الغالب فى بابى الإفعال و التفعيل فالتطويح فى الآيه اقتراب تدرّيجى للنفس من الفعل بوسوسه بعد وسوسه و همامه بعد همامه تنقاد لها حتى تتم لها الطاعه الكامله فالمعنى: انقادت له نفسه و أطاعت امره إياها بقتل أخيه طاعه تدرّيجيه، فقوله «قَتَلَ أَخِيهِ» من وضع المأمور به موضع الأمر كقولهم: أطاع كذا فى موضع: أطاع الأمر بكذا.

و ربما قيل: إن قوله: طوعت بمعنى زينت فقوله «قَتَلَ أَخِيهِ» مفعول به، و قيل: بمعنى طاعوت أى طاعوت له نفسه فى قتل أخيه، فالقتل منصوب بنزع الخافض، و معنى الآيه ظاهر.

ص: ٩١

(١-١). المائده ٢٧-٣٢: كلام فى معنى قول ابن آدم لآخيه «إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ».

و ربما استفيد من قوله: «فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ» أنه إنما قتله ليلاً، وفيه كما قيل: أن أصبح - وهو مقابل أمسى - وإن كان بحسب أصل معناه يفيد ذلك لكن عرف العرب يستعمله بمعنى صار من غير رعايه أصل اشتقاقه، وفي القرآن شيء كثير من هذا القبيل كقوله فَأَصْبَحَ بِحُجَّتِهِمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا (آل عمران ١٠٣/) وقوله: فَيُضِضُ بِحُجْوَةِ عَلِيٍّ مَا أَسْرَوْا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ (المائدة ٥٢/) فلا سبيل أى إثبات إرادته المعنى الأصلي في المقام.

قوله تعالى: فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِي سَوَاءَهُ أَخِيهِ الْبَحْثَ طَلَبَ الشَّيْءِ فِي التَّرَابِ ثم يقال: بحثت عن الأمر بحثاً كذا في المجمع. و الموارد:

الستر، و منه التوارى للستر، و وراء لما خلف الشيء. و السوؤه ما يتكرهه الإنسان. و الويل الهلاك. و يا ويلتا كلمة تقال عند الهلكة، و العجز مقابل الاستطاعة.

و الآية بسياقها تدل على أن القاتل قد كان بقى زماناً على تحير من أمره، و كان يحذر أن يعلم به غيره، و لا يدرى كيف الحيله الى أن لا يظفروا بجسده حتى بعث الله الغراب، و لو كان بعث الغراب و بحثه و قتله أخاره متقاربين لم يكن وجه لقوله «يَا وَيْلَتَى أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ» (١)(٢).

قوله تعالى: مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا فِي الْمَجْمَعِ: الاجل في اللغة الجنايه، انتهى. و قال الراغب في المفردات: الاجل الجنايه التي يخاف منها آجلا، فكل أجل جنايه و ليس كل جنايه آجلا.

يقال: فعلت ذلك من أجله، انتهى. ثم استعمل للتعليل، يقال: فعلته من أجل كذا أى إن كذا

ص: ٩٢

(١ - ١). المائدة ٢٧-٣٢: كلام في ان ابن آدم تعلم من الغراب كيف يورى سوؤه اخيه.

(٢ - ٢). المائدة ٢٧-٣٢: كلام في معنى الاحساس و التفكير.

سبب فعلى، و لعل استعمال الكلمه فى التعليل ابتداءً أولاً فى مورد الجنايه و الجريره كقولنا:

أساء فلان و من أجل ذلك أدبته بالضرب أى إن ضربى ناش من جنايته و جريرته التى هى إساءته أو من جنايه هى إساءته، ثم أرسلت كلمه تعليل فقيل: أزورك من أجل حبى لك و لاجل حبى لك.

و ظاهر السياق أن الاشاره بقوله: «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ» الى نبأ آدم المذكور فى الآيات السابقه اى إن وقوع تلك الحادثه الفجيعه كان سبباً لكتابتنا على بنى إسرائيل كذا و كذا، و ربما قيل: إن قوله: «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ» متعلق بقوله فى الآيه السابقه: «فَأَضَى بِحِمْيَرَ مِنَ النَّادِمِينَ» أى كان ذلك سبباً لندامته، و هذا القول و إن كان فى نفسه غير بعيد كما فى قوله تعالى: كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ فى الدُّنْيَا وَ الْمَآخِرَةِ وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى الْآيَه (البقره ٢٢٠)؛ إلا- أن لازم ذلك كون قوله: «كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ» الخ؛ مفتتح الكلام و المعهود من السياقات القرآنيه أن يؤتى فى مثل ذلك بواو الاستيناف كما فى آيه البقره المذكوره آنفاً و غيرها.

و أما وجه الإشاره فى قوله: «مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ» الى قصه ابنى آدم فهو أن القصه تدل على أن من طباع هذا النوع الإنسانى أن يحمله اتباع الهوى و الحسد الذى هو الخنق للناس بما ليس فى اختيارهم أن يحمله أو هن شىء على منازعه الربوبيه و إبطال غرض الخلقه بقتل أحدهم أخاه من نوعه و حتى شقيقه لأبيه و أمه.

و أما قوله: «أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فى الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا» استثنى سبحانه قتل النفس بالنفس و هو القود و القصاص و هو قوله تعالى: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فى الْقَتْلِ (البقره ١٧٨) و قتل النفس بالفساد فى الارض، و ذلك قوله فى الآيه التاليه «إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ يَشْعُونَ فى الْأَرْضِ فَسَادًا» الآيه.

و أما المنزله التى يدل عليها قوله «فَكَأَنَّمَا» الخ؛ فقد تقدم بيانه أن الفرد من الانسان من حيث حقيقته المحموله له التى تحيا و تموت انما يحمل الانسانيه التى هى حقيقه واحده فى جميع

الأفراد و البعض و الكل، و الفرد الواحد و الأفراد الكثيرون فيه واحد، و لازم هذا المعنى أن يكون قتل النفس الواحده بمنزله قتل نوع الانسان و بالعكس احياء النفس الواحده بمنزله احياء الناس جميعا، و هو الذى تفيده الآيه الشريفه.

و أما قوله تعالى: «وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا» فالكلام فيه كالكلام فى الجملة السابقه، و المراد بالاحياء ما يعد فى عرف العقلاء احياء كإنقاذ الغريق و إطلاق الأسير، و قد عد الله تعالى فى كلامه الهدايه الى الحق احياء قال تعالى: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ (الأنعام ١٢٢) فمن دل نفسا الى الايمان فقد احيها.

و أما قوله تعالى: «وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ» فهو معطوف على صدر الآيه أى و لقد جاءتهم رسلنا بالبينات يحذرونهم القتل و كل ما يلحق به من وجوه الفساد فى الارض.

و أما قوله تعالى: «ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعِدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمْ يُسِرُّوْنَ» فهو متمم للكلام، بانضمامه إليه يستنتج الغرض المطلوب من البيان، و هو ظهور أنهم قوم مفسدون مصرون على استكبارهم و عتوهم فلقد بينا لهم منزله القتل و جاءتهم رسلنا فيها و فى غيرها بالبينات، و بينوا لهم و حذروهم مع ذلك لم ينتهوا عن إصرارهم على العتو و الاستكبار فأسرفوا فى الارض قديما و لا يزالون يسرفون.

و الإسراف الخرج عن القصد و تجاوز الحد فى كل فعل يفعله الإنسان، و إن كان يغلب عليه الاستعمال فى مورد الإنفاق كقوله تعالى: وَ الَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَ لَمْ يَقْتُرُوا وَ كَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا (الفرقان ٦٧) على ما ذكره الراغب فى المفردات (١)(٢).

ص: ٩٤

١-١). المائده ٢٧-٣٢: بحث روائى فى: ابنى آدم و قتل احدهما الآخر؛ مجازات القاتل فى الآخره؛ قتل الانسان و احيائه.

٢-٢). المائده ٢٧-٣٢، بحث علمى و تطبيق بين القرآن و التوراه حول ابنى آدم.

إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (۳۳) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۴) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (۳۵) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقَبَّلُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (۳۶) يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوكَ مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (۳۷) وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (۳۸) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (۳۹) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۴۰)

قوله تعالى: **إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا** . «فَسَادًا» مصدر وضع موضع الحال، و محاربه الله و إن كانت بعد استحاله معناها الحقيقي و تعين إرادته المعنى المجازى منها ذات معنى و سيع يصدق على مخالفه كل حكم من الأحكام الشرعية و كل ظلم و إسراف لكن ضم الرسول إليه يهدى الى ان المراد بها بعض ما للرسول فيه دخل، فيكون كالمتعين ان يراد بها ما يرجع الى إبطال اثر ما للرسول عليه و لايه من جانب الله سبحانه كمحاربه الكفار مع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ و اخلال قطع الطريق بالأمن العام الذى بسطه بولايته على الارض، و تعقب الجملة بقوله: «وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا» يشخص المعنى المراد و هو الافساد فى الأرض بالاخلال بالأمن و قطع الطريق دون مطلق المحاربه مع المسلمين، على ان الضروره قاضيه بأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ لم يعامل المحاربين من الكفار بعد الظهور عليهم و الظفر بهم هذه المعامله من القتل و الصلب و المثله و النفي.

على ان الاستثناء فى الآيه التاليه قرينه على كون المراد بالمحاربه هو الافساد المذكور فانه ظاهر فى ان التوبه انما هى من المحاربه دون الشرك و نحوه.

فالمراد بالمحاربه و الافساد على ما هو الظاهر هو الاخلال بالامن العام، و الامن العام انما يختل بايجاد الخوف العام و حلوله محله، و لا يكون بحسب الطبع و العاده إلا باستعمال السلاح المههد بالقتل طبعاً و لهذا ورد فيما ورد من السنه تفسير الفساد فى الارض بشهر السيف و نحوه، و سيجىء فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: **أَنْ يُقْتَلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا** الخ؛ التقتيل و التصليب و التقطيع تفعيل من القتل و الصلب و القطع يفيد شدة فى معنى المجرد أو زياده فيه، و لفظه «أو» إنما تدل على

الترديد المقابل للجمع، واما الترتيب أو التخيير بين أطراف التريد فإنما يستفاد احدهما من قرينه خارجيه حاله أو مقالیه فالآیه غير خاليه عن الاجمال من هذه الجبهه. و إنما تبيينها السنه و سيجىء ان المروى عن ائمه اهل البيت عليهم السلام ان الحدود الاربعه مترتبه بحسب درجات الافساد كمن شهر سيفاً فقتل النفس و أخذ المال أو قتل فقط أو أخذ المال فقط أو شهر سيفاً فقط على ما سيأتى فى البحث الروائى التالى ان شاء الله.

و أما قوله: **أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَ أَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ** فالمراد بكونه من خلاف أن يأخذ القطع كلا- من اليد و الرجل من جانب مخالف لجانب الاخرى كاليد اليمنى و الرجل اليسرى، وهذا هو القرينه على كون المراد بقطع الأيدي و الأرجل قطع بعضها دون الجميع أى إحدى اليدين و إحدى الرجلين مع مراعاة مخالفه الجانب.

و أما قوله: **أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ** فالنفي هو الطرد و التغييب و فسر فى السنه بطرده من بلد الى بلد.

و فى الآيه أبحاث آخر ففهيه تطلب من كتب الفقه.

قوله تعالى: **ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ** الخزى هو الفضيحه، و المعنى ظاهر. و قد استدل بالآيه على أن جريان الحد على المجرم لا يستلزم ارتفاع عذاب الآخره، و هو حق فى الجمله.

قوله تعالى: **إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ** الخ؛ و أما بعد القبض عليهم و قيام البيئه فإن الحد غير ساقط، و أما قوله تعالى: **«فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ»** فهو كناية عن رفع الحد عنهم، و الآيه من موارد تعلق المغفره بغير الأمر الاخرى.

قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ** الخ؛ قال الراغب فى المفردات: الوسيله التوصل الى الشىء برغبه، و هى أخص من الوسيله لتضمنها لمعنى الرغبه، قال تعالى: **وَ ابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ**، و حقيقه الوسيله الى الله تعالى مراعاة سبيله

بالعلم و العباده، و تحرى مكارم الشريعه، و هى كالتقربه، و اذ كانت نوعا من التوصل و ليس إلا توصلا و اتصالا معنويا بما يوصل بين العبد و ربه و يربط هذا بذاك، و لا رابط يربط العبد بربه إلا ذله العبوديه، فالوسيله هى التحقق بحقيقه العبوديه و توجيه وجه المسكنه و الفقر الى جنبه تعالى، فهذه هى الوسيله الرابطه، و أما العلم و العمل فإنما هما من لوازمها و أدواتها كما هو ظاهر إلا أن يطلق العلم و العمل على نفس هذه الحاله.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ ظاهره- كما تقدمت الإشارة إليه- أن يكون تعليلا لمضمون الآية السابقه، و المحصل أنه يجب عليكم أن تتقوا الله و تبتغوا إليه الوسيله و تجاهدوا فى سبيله فإن ذلك أمر يهكم فى صرف عذاب أليم مقيم عن انفسكم، و لا بدل له يحل محله فإن الذين كفروا فلم يتقوا الله و لم يبتغوا إليه الوسيله و لم يجاهدوا فى سبيله لو انهم ملكوا ما فى الارض جميعا- و هو اقصى ما يتمناه ابن آدم من الملك الدنيوى عاده- ثم زيد عليه مثله ليكون لهم ضعفا ما فى الارض ثم ارادوا ان يفتدوا به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منهم و لهم عذاب اليم يريدون ان يخرجوا من النار و هى العذاب و ما هم بخارجين منها لانه عذاب خالد مقيم عليهم لا يفارقهم ابدا.

و فى الآية إشارة اولا الى ان العذاب هو الاصل القريب من الإنسان و انما يصرف عنه الإيمان و التقوى كما يشير إليه قوله تعالى: وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا- وَارِدُهُمَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَ نَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا (مريم ٧٢) و كذا قوله: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ (العصر ٣).

و ثانيا: أن الفطره الأصلية الإنسانية و هى التى تتألم من النار غير باطله فيهم و لا منتفيه عنهم و إلا لم يتألموا و لم يتعذبوا بها و لم يريدوا الخروج منها.

قوله تعالى: وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا الْآيَةَ؛ الواو للاستيناف و الكلام فى مقام التفصيل فهو فى معنى «و السارق و السارقة» الخ؛ و لذلك دخل الفاء فى

الخبر أعنى قوله: «فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا» لأنه في معنى جواب أما، كذا قيل.

و أما استعمال الجمع في قوله «أَيْدِيَهُمَا» مع أن المراد هو المثنى فقد قيل: إنه استعمال شائع، و الوجه فيه: أن بعض الأعضاء أو أكثرها في الإنسان مزدوجه كالقرنين و العينين و الاذنين و اليدين و الرجلين و القدمين، و اذا أضيفت هذه الى المثنى صارت أربعا و لها لفظ الجمع كأعينهما و أيديهما و أرجلهما و نحو ذلك ثم اطرده الجمع في الكلام اذا أضيف عضو الى المثنى و إن لم يكن العضو من المزدوجات كقولهم: ملأت ظهورهما و بطونهما ضربا، قال تعالى: «إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا» (التحریم ١٤) و اليد ما دون المنكب و المراد بها في الآية اليمين بتفسير السنه، و يصدق قطع اليد بفصل بعض أجزائها أو جميعها عن البدن بآله قطاعه.

قوله: «جَزَاءٌ بِمَا كَسَبْتُمْ نَكَالًا مِنْ اللَّهِ» الظاهر أنه في موضع الحال من القطع المفهوم من قوله «فَاقْطَعُوا» أي حال كون القطع جزاء بما كسبا نكالا من الله، و النكال هو العقوبة التي يعاقب بها المجرم لينتهي عن إجرامه، و يعتبر بها غيره من الناس.

و هذا المعنى أعنى كون القطع نكالا- هو المصحح لأن يتفرع عليه قوله: «فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ، الخ؛ أي لما كان القطع نكالا- يراد به رجوع المنكول به عن معصيته فمن تاب من بعد ظلمه توبه ثم أصلح و لم يحم حول السرقة- و هذا أمر يستثبت به معنى التوبه- فإن الله يتوب عليه و يرجع اليه بالمغفرة و الرحمة لأن الله غفور رحيم، قال تعالى:

«مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ وَ كَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا» (النساء ١٤٧).

و في الآيه أبحاث آخر كثيره فقهيه للطالب أن يراجع فيها كتب الفقه.

قوله تعالى: «أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» الآية في موضع التعليل لما ذكر في الآية السابقه من قبول توبه السارق و السارقه اذا تابا و أصلحا من بعد ظلمهما فإن الله سبحانه لما كان له ملك السموات و الأرض، و للملك أن يحكم في مملكته و رعيته بما أحبّ و أراد من عذاب أو رحمه كان له تعالى أن يعذب من يشاء و يغفر لمن يشاء

على حسب الحكمة و المصلحه فيعذب السارق و السارقه إن لم يتوبا، و يغفر لهما إن تابا.

و قوله: «وَ اللَّهُ عَلِيٌّ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» في موضع التعليل لقوله «لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» فإن الملك (بضم الميم) من شئون قدره كما أن الملك (بكسر الميم) من فروع الخلق و الإيجاد اعنى القيمومه الإلهيه.

بيان ذلك: ان الله تعالى خالق الأشياء و موجدها فما من شيء إلا و ما له من نفسه و آثار نفسه لله سبحانه، هو المعطى لما اعطى و المانع لما منع، فله ان يتصرف فى كل شيء، و هذا هو الملك (بكسر الميم) قال تعالى: قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَ هُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (الرعد ١٦)، و قال:

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَ لَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ (البقره / ٢٥٥) و هو تعالى مع ذلك قادر على اى تصرف شاء و اراد اذ كلما فرض من شيء فهو منه فله مضى الحكم و نفوذ الاراده و هو الملك (بضم الميم) و السلطنه على كل شيء فهو تعالى مالك لانه قيوم على كل شيء، و ملك لانه قادر غير عاجز و لا ممنوع من نفوذ مشيئته و إرادته (١).

[سوره المائده (٥): الآيات ٤١ الى ٥٠]

اشاره

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَبَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤١) سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَالُونَ لِلشُّحِّ فَإِنْ جَاؤَكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرَضْ عَنْهُمْ وَ إِنْ تُعْرَضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَ إِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢) وَ كَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ مَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٣) إِذَا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَ الرُّبَابِيُّونَ وَ الْأَجْبَارُ بِمَا اسْتِخْفَضُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَ كَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَ إِخْشَاؤِنِ وَ لَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِنَا ثَمَنًا قَلِيلًا وَ مَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ (٤٤) وَ كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَ الْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَ الْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَ الْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَ السِّنَّ بِالسِّنِّ وَ الْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَ مَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٤٥) وَ قَفَيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَ آتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَ هُدًى وَ مَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَ لِيُحْكُمَ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَ مَنْ لَمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤٧) وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَ مُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مَنَاجِيًا وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٤٨) وَ أَنْ أُحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَ إِخْذَرَهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصَيِّبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ (٤٩) أَ فَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (٥٠)

١-١). المائده ٣٣-٤٠: بحث روائى فى جزاء الذين يحاربون الله ورسوله و يسعون فى الارض فسادا؛ قطع يد السارق.

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ، تسلييه للنبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم و تطيبب لنفسه مما لقي من هؤلاء المذكورين فى الآيه، و هم الذين يسارعون فى الكفر أى يمشون فيه المشيه السريعه، و يسرون فيه السير الحثيث، تظهر من افعالهم و اقوالهم موجبات الكفر واحده بعد أخرى فهم كافرون مسارعون فى كفرهم، و المسارعه فى الكفر غير المسارعه الى الكفر.

و قوله: مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَ لَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ بيان لهؤلاء الذين

يسارعون في الكفر أى من المنافقين، وفي وضع هذا الوصف موضع الموصوف إشارة الى عله النهى كما ان الأخذ بالوصف السابق اعنى قوله: «الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ» للإشارة الى عله المنهى عنه، والمعنى -والله أعلم- لا يحزنك هؤلاء بسبب مسارعتهم في الكفر فانهم انما آمنوا بألسنتهم لا بقلوبهم و ما أولئك بالمؤمنين، وكذلك اليهود الذين جاءوك و قالوا ما قولوا.

وقوله: وَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا عطف على قوله: «مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا» الخ؛ على ما يفيد السياق، وليس من الاستيناف في شيء، وعلى هذا فقوله «سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَاعُونَ لِقَوْمٍ آخِرِينَ لَمْ يَأْتَوْكَ» خبر لمبتدأ محذوف أى هم سماعون، الخ.

وهذه الجملة المتسقة ببيان حال الذين هادوا، و أما المنافقون المذكورون في صدر الآية فحالهم لا يوافق هذه الأوصاف كما هو ظاهر.

فهؤلاء المذكورون من اليهود هم سَمَاعُونَ للكذب أى يكثر من سماع الكذب مع العلم بأنه كذب، وإلا لم يكن صفه ذم، و هم كثير السمع لقوم آخرين لم يأتوك، يقبلون منهم كل ما ألقوه اليهم و يطيعونهم في كل ما أرادوه منهم، و اختلاف معنى السمع هو الذى أوجب تكرار قوله: «سَمَاعُونَ» فإن الأول يفيد معنى الإصغاء و الثانى معنى القبول.

وقوله: «يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعِيدِ مَوَاضِعِهِ» أى من بعد استقرارها فى مستقرها و الجملة صفه لقوله «لِقَوْمٍ آخِرِينَ» و كذا قوله: «يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا» .

و يتحصل من المجموع أن عده من اليهود ابتلوا بواقعه دينيه فيما بينهم، لها حكم إلهى عندهم لكن علماءهم غيروا الحكم بعد ثبوته ثم بعثوا طائفه منهم الى النبي صلى الله عليه و آله و سلم و أمرهم أن يحكموه فى الواقعه فإن حكم بما أنبأهم علماءهم من الحكم المحرف فليأخذوه و إن حكم بغير ذلك فليحذروا.

وقوله: «وَ مَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً» الظاهر أنه معترضه يبين بها أنهم فى

أمرهم هذا مفتونون بفتنه إلهيه، فلتطب نفس النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّ الْأَمْرَ مِنَ اللَّهِ وَإِلَيْهِ وَلَيْسَ يَمْلِكُ مِنْهُ تَعَالَى شَيْءٌ فِي ذَلِكَ، وَلاَ مُوجِبٌ لِلتَّحْزَنِ فِيمَا لاَ سَبِيلَ إِلَى التَّخْلِصِ مِنْهُ.

وقوله: «أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ» فقلوبهم باقية على قذارتها الأولى لما تكرر منهم من الفسق بعد الفسق فأضلهم الله به، وما يضل به إلا الفاسقين.

وقوله: «لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ» إيعاد لهم بالخزي في الدنيا وقد فعل بهم، وبالعذاب العظيم في الآخرة.

قوله تعالى: سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ قَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ:

السحت القشر الذى يستأصل، قال تعالى: «فَيَسْحَتُكُمْ بِعَذَابٍ» و قرئ: فيسحتكم (أى بفتح الياء) يقال: سحته و أسحته، و منه السحت للمحذور الذى يلزم صاحبه العار كأنه يسحت دينه و مروءته، قال تعالى: «أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ» أى لما يسحت دينهم، و قال عليه السلام كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به، و سمي الرشوه سحتا. انتهى.

فكل مال اكتسب من حرام فهو سحت، و السياق يدل على أن المراد بالسحت فى الآية هو الرشا و يتبين من إيراد هذا الوصف فى المقام أن علماءهم الذين بعثوا طائفه منهم الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كانوا قد أخذوا فى الواقعه رشوه لتحرير حكم الله فقد كان الحكم مما يمكن أن يتضرر به بعضه فسد الباب بالرشوه، فأخذوا الرشوه و غيروا حكم الله تعالى.

و من هنا يظهر أن قوله تعالى: «سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ» باعتبار المجموع و وصف لمجموع القوم، و أما بحسب التوزيع فقوله «سَمَاعُونَ لِلْكَذِبِ» و وصف لقوله «الَّذِينَ هَادُوا» و هم المبعوثون الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و من فى حكمهم من التابعين، و قوله: «أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ» و وصف لقوم آخرين، و المحصل أن اليهود منهم علماء يأكلون الرشوى، و عامه مقلدون سماعون لأكاذيبهم.

قوله تعالى: فَإِنْ جَاؤُكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛

تخير للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بين أن يحكم بينهم إذا حكموه أو يعرض عنهم، و من المعلوم أن اختيار أحد الأمرين لم يكن يصدر منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إلا لمصلحه داعيه فيؤول الى إرجاع الأمر الى نظر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و رأيه.

ثم قرر تعالى هذا التخير بأنه ليس عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ضرر لو ترك الحكم فيهم و أعرض عنهم، و بين له أنه لو حكم بينهم فليس له أن يحكم إلا بالقسط و العدل.

فيعود المضمون بالأخره الى أن الله سبحانه لا يرضى أن يجرى بينهم إلا حكمه فإما أن يجرى فيهم ذلك أو يهمل أمرهم فلا يجرى من قبله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حكم آخر.

قوله تعالى: وَ كَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَ عِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَ مَا أُولَئِكَ بِالمُؤْمِنِينَ تعجيب من فعالهم أنهم أمه ذات كتاب و شريعه و هم منكرون لنبوتك و كتابك و شريعتك ثم يتلون بواقعه في كتابهم حكم الله فيها، ثم يتلون بعد ما عندهم التوراه فيها حكم الله و الحال أن أولئك المبتعدين من الكتاب و حكمه ليسوا بالذين يؤمنون بذلك.

و على هذا المعنى فقوله «ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ» أى عن حكم الواقعه مع كون التوراه عندهم و فيها حكم الله، و قوله: «وَ مَا أُولَئِكَ بِالمُؤْمِنِينَ» أى بالذين يؤمنون بالتوراه و حكمها، فهم تحولوا من الإيمان بها و بحكمها الى الكفر.

و يمكن أن يفهم من قوله: «ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ»، التولى عما حكم به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و من قوله: «وَ مَا أُولَئِكَ بِالمُؤْمِنِينَ» نفى الإيمان بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و سلم على ما كان يظهر من رجوعهم اليه و تحكيمهم إياه، أو نفى الإيمان بالتوراه و بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جميعا، لكن ما تقدم من المعنى أنسب السياق الآيات.

و فى الآيه تصديق ما للتوراه التى عند اليهود اليوم، و هى التى جمعها لهم عزراء ياذن «كورش» ملك إيران بعد ما فتح بابل، و أطلق بنى اسرائيل من أسر البابليين و أذن لهم فى

الرجوع الى فلسطين و تعمير الهيكل، و هى التى كانت بيدهم فى زمن النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و هى التى بيدهم اليوم، فالقرآن يصدق أن فيها حكم الله، و هو أيضا يذكر أن فيها تحريفا و تغييرا.

و يستنتج من الجميع: أن التوراه الموجوده الدائره بينهم اليوم فيها شىء من التوراه الأصلية النازله على موسى عليه السلام و أمور حرفت و غيرت اما زياده أو نقصان أو تغيير لفظ أو محل أو غير ذلك، و هذا هو الذى يراه القرآن فى أمر التوراه، و البحث الوافى عنها أيضا يهدى الى ذلك.

قوله تعالى: **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ السَّخ؛** بمنزله التعليل لما ذكر فى الآيه السابقه، و هى و ما بعدها من الآيات تبين أن الله سبحانه شرع لهذه الامم على اختلاف عهودهم شرائع، و أودعها فى كتب انزلها اليهم ليهدوا بها و يتبصروا بسببها، و يرجعوا إليها فيما اختلفوا فيه، و امر الأنبياء و العلماء منهم ان يحكموا بها، و يتحفظوا عليها و يقوها من التغيير و التحريف، و لا يطلبوا فى الحكم ثمنا ليس الا قليلا، و لا يخافوا فيها الا الله سبحانه و لا يخشوا غيره.

و أكد ذلك عليهم و حذرهم اتباع الهوى، و تفتين أبناء الدنيا، و إنما شرع من الأحكام مختلفا باختلاف الامم و الأزمان ليتم الامتحان الإلهى فإن استعداد الأزمان مختلف بمرور الدهور، و لا يستكمل المختلفان فى الاستعداد شده و ضعفا بمكمل واحد من التريبه العلميه و العمليه على و تيره واحده.

فقوله **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ** أى شىء من الهدايه يهتدى بها، و شىء من النور يتبصر به من المعارف و الأحكام على حسب حال بنى إسرائيل، و مبلغ استعدادهم، و قد بين الله سبحانه فى كتابه عامه أخلاقهم، و خصوصيات أحوال شعبههم و مبلغ فهمهم، فلم ينزل اليهم من الهدايه إلا - بعضها و من النور إلا بعضه لسبق عهدهم و قدمه أمتهم، و قلله استعدادهم، قال تعالى: **وَ كَتَبْنَا لَهُ فِي التَّوْرَةِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ**

وقوله: يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا إنما وصف النبيين بالإسلام وهو التسليم لله، الذي هو الدين عند الله سبحانه للإشارة إلى أن الدين واحد، وهو الإسلام لله و عدم الاستنكاف عن عبادته، ليس لمؤمن بالله- وهو مسلم له- أن يستكبر عن قبول شيء من أحكامه و شرائعه.

وقوله: «وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ» أى و يحكم بها الربانيون و هم العلماء المنقطعون إلى الله علما و عملاء أو الذين اليهم تربية الناس بعلومهم بناء على اشتقاق اللفظ من الرب أو الترييه، و الأحبار و هم الخبراء من علمائهم يحكمون بما أمرهم الله به و أرادهم الله به و يحفظوه من كتاب الله، و كانوا من جهة حفظهم له و تحملهم إياه شهداء عليه لا يتطرق إليه تغيير و تحريف لحفظهم له فى قلوبهم، فقوله «وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ» بمنزله النتيجة لقوله «بِمَا اسْتَحْفَظُوا» الخ؛ أى أمروا بحفظه فكانوا حافظين له بشهادتهم عليه.

و أما قوله تعالى: فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَ اِخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا فهو متفرع على قوله: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا»، أى لما كانت التوراه منزله من عندنا مشتمله على شريعته يقضى بها النبيون و الربانيون و الأحبار بينكم فلا تكتموا شيئا منها و لا- تغيروها خوفا أو طمعا، أما خوفا فبأن تخشوا الناس و تنسوا ربكم بل الله فإخشوا حتى لا تخشوا الناس، و أما طمعا فبأن تشتروا بآيات الله ثمنا قليلا هو مال أو جاه دنيوى زائل باطل.

و يمكن أن يكون متفرعا على قوله: «بِمَا اسْتَحْفَظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ» بحسب المعنى لأنه فى معنى أخذ الميثاق على الحفظ أى أخذنا منهم الميثاق على حفظ الكتاب و أشهدناهم عليه أن لا يغيروه و لا يخشوا فى إظهاره غيرى، و لا يشتروا بآياتى ثمنا قليلا، قال

تعالى: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا (آل عمران ١٨٧) وقال تعالى: فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْمَآذِنِ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ (الأعراف ١٧٠).

و هذا المعنى الثانى لعله أنسب و أوفق لما يتلوه من التأكيد و التشديد بقوله «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ»

قوله تعالى: وَكُتِبَ عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسِ بِالنَّفْسِ -الى قوله- وَالْجُرُوحِ قِصَاصٌ السِّيَاقُ وَخَاصَهُ بِالنَّظَرِ إِلَى قَوْلِهِ: «وَالْجُرُوحِ قِصَاصٌ» يدل على أن المراد به بيان حكم القصاص فى أقسام الجنائيات من القتل و القطع و الجرح، فالمقابلة الواقعة فى قوله:

«النَّفْسِ بِالنَّفْسِ» و غيره إنما وقعت بين المقتص له و المقتص به و المراد به أن النفس تعادل النفس فى باب القصاص، و العين تقابل العين و الأنف الأنف و هكذا و الباء للمقابلة كما فى قولك: بعث هذا بهذا.

فيؤول معنى الجمل المتسقة الى ان النفس تقتل بالنفس، و العين تفتق بالعين و الانف تجدع بالانف، و الاذن تصلم بالاذن، و السن تقطع بالسن و الجروح ذوات قصاص، و بالجمله إن كلا من النفس و اعضاء الانسان مقتص بمثله.

و لعل هذا هو مراد من قدر فى قوله: «النَّفْسِ بِالنَّفْسِ» ان النفس مقتصه أو مقتوله بالنفس و هكذا و إلا -فالتقدير بمعزل عن الحاجة، و الجمل تامه من دونه و الظرف لغو.

و الآيه لا تخلو من إشعار بأن هذا الحكم غير الحكم الذى حكموا فيه النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و تذكره الآيات السابقه فإن السياق قد تجدد بقوله «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ» .

و الحكم موجود فى التوراه الدائره على ما سيجىء نقله فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: **فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ** أى فمن عفى من أولياء القصاص كولى المقتول أو نفس المجنى عليه و المجروح عن الجانى، و وهبه ما يملكه من القصاص فهو أى العفو كفاره لذنوب المتصدق أو كفاره عن الجانى فى جنايته.

و الظاهر من السياق ان الكلام فى تقدير قولنا: **فإن تصدق به من له القصاص فهو كفاره له**، و ان لم يتصدق فليحكم صاحب الحكم بما انزله الله من القصاص، و من لم يحكم بما انزل الله فاولئك هم الظالمون.

قوله تعالى: **وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ** جعل الشىء خلف الشىء و هو مأخوذ من القفا، و الآثار جمع أثر و هو ما يحصل من الشىء مما يدل عليه، و يغلب استعماله فى الشكل الحاصل من القدم ممن يضرب فى الأرض، و الضمير فى «آثارهم» للأنبياء.

فقوله: **«وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ»** استعاره بالكنايه أريد بها الدلاله على أنه سلك به عليه السلام المسلك الذى سلكه من قبله من الأنبياء، و هو طريق الدعوه الى التوحيد و الإسلام لله.

و قوله: **«مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ»** تبين لما تقدمه من الجمله و إشاره الى أن دعوه عيسى هى دعوه موسى عليهما السلام من غير بينونه بينهما أصلا.

قوله تعالى: **وَ آتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَ نُورٌ وَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ** الخ؛ سياق الآيات من جهه تعرضها لحال شريعته موسى و عيسى و محمد صلى الله

عليه وآله وعليهما ونزولها في حق كتبهم يقضى بانطباق بعضها على بعض (١).

وقوله تعالى: وَهُدًى وَ مَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ قد مر توضيحه، والآيه تدل على أن في الإنجيل النازل على المسيح عنايه خاصه بالتقوى في الدين مضافا الى ما يشتمل عليه التوراه من المعارف الاعتقاديه و الاحكام العمليه، و التوراه الدائره بينهم اليوم و إن لم يصدقها القرآن كل التصديق، وكذا الأناجيل الاربعه المنسوبه الى متى و مرقس و لوقا و يوحنا و إن كانت غير ما يذكره القرآن من الانجيل النازل على المسيح نفسه لكنها مع ذلك كله تصدق هذا المعنى كما سيجىء إن شاء الله الاشاره إليه.

وقوله تعالى: وَ لِيُحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ الْحَقُّ؛ و قد أنزل فيه تصديق التوراه في شرائعها إلا ما استثنى من الاحكام المنسوخه التي ذكرت في الانجيل النازل على عيسى عليه السلام، فان الانجيل لما صدق التوراه فيما شرعته، و أحل بعض ما حرم فيها كان العمل بما في التوراه في غير ما أحلها الانجيل من المحرمات عملا بما أنزل الله في الانجيل، و هو ظاهر.

و أما قوله: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» فهو تشديد في الامر المدلول عليه بقوله «وَلِيُحْكُمَ»، و قد كرر الله سبحانه هذه الكلمه للتشديد ثلاث مرات: مرتين في أمر اليهود و مره في أمر النصارى باختلاف يسير فقال «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ، فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ، فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» فسجل عليهم الكفر و الظلم و الفسق.

وقوله تعالى: وَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَ مُهَيِّمًا عَلَيْهِ هَيْمَنَةَ الشَّيْءِ عَلَى الشَّيْءِ - على ما يتحصل من معناها - كون الشيء ذا

ص: ١١٠

سلطه على الشيء في حفظه و مراقبته و انواع التصرف فيه، و هذا حال القرآن الذى وصفه الله تعالى بأنه تبيان كل شيء بالنسبه الى ما بين يديه من الكتب السماويه: يحفظ منها الاصول الثابته غير المتغيره و ينسخ منها ما ينبغى ان ينسخ من الفروع التى يمكن أن يتطرق إليها التغير و التبديل حتى يناسب حال الانسان بحسب سلوكه صراط الترقى و التكامل بمرور الزمان قال تعالى: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ (الإسراء ٩) و قال ﴿ مَا نَنْسَخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخُهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا ﴾ (البقره ١٠٦) و قال الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (الأعراف ١٥٧).

فهذه الجملة أعنى قوله: «وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ» متممه لقول «و مصدقا لما بين يديه من الكتاب» تتميم إيضاح اذ لولاها لأمكن ان يتوهم من تصديق القرآن للتوراه و الإنجيل أنه يصدق ما فيهما من الشرائع و الاحكام تصديق إبقاء من غير تغيير و تبديل لكن توصيفه بالهيمنه يبين ان تصديقه لها تصديق أنها معارف و شرائع حقه من عند الله و لله ان يتصرف منها فيما يشاء بالنسخ و التكميل كما يشير إليه قوله ذيلًا: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبِّئُكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ» .

فقول «مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ» معناه تقرير ما فيها من المعارف و الأحكام بما يناسب حال هذه الامه فلا ينافيه ما تطرق إليها من النسخ و التكميل و الزيادة كما كان المسيح عليه السلام أو انجيله مصدقا للتوراه مع إحلاله بعض ما فيها من المحرمات كما حكاها الله عنه فى قوله: وَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَ لِأَحَلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ (آل عمران ٥٠).

قوله تعالى: فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ

الْحَقُّ أى اذا كانت الشريعة النازله إليك المودعه فى الكتاب حقا و هو حق فيما وافق ما بين يديه من الكتب و حق فيما خالفه لكونه مهيمنا عليه فليس لك الا أن تحكم بين أهل الكتاب - كما يؤيده ظاهر الآيات السابقه- أو بين الناس- كما تؤيده الآيات اللاحقه- بما أنزل الله إليك و لا تتبع أهواءهم بالاعراض و العدول عما جاءك من الحق.

و من هنا يظهر جواز أن يراد بقوله «فَأَحْكُم بَيْنَهُمْ» الحكم بين أهل الكتاب أو الحكم بين الناس، لكن تبعد المعنى الاول حاجته الى تقدير كقولنا فاحكم بينهم ان حكمت، فان الله سبحانه لم يوجب عليه صلى الله عليه و آله و سلم الحكم بينهم بل خيره بين الحكم و الاعراض بقوله «فَإِنْ جَاؤُكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ» الآية؛ على ان الله سبحانه ذكر المنافقين مع اليهود فى اول الآيات فلا موجب لاختصاص اليهود برجوع الضمير إليهم لسبق الذكر و قد ذكر معهم غيرهم، فالأنسب أن يرجع الضمير الى الناس لدلاله المقام.

و يظهر ايضا ان قوله: «عَمَّا جَاءَكَ» متعلق بقوله «وَلَا تَتَّبِعْ» بإشراجه معنى العدول أو الاعراض.

قوله تعالى: لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهَا جَاءَ قَالَ الراغب فى المفردات:

الشرع نهج الطريق الواضح يقال: شرعت له طريقا و الشرع مصدر ثم جعل اسما للطريق النهج ف قيل له: شرع و شرع و شرعه، و استعير ذلك للطريقه الالهيه قال «شِرْعَةً وَ مِنْهَا جَاءَ» -الى ان قال- قال بعضهم: سميت الشريعة شريعة تشبيها بشريعة الماء انتهى.

و لعل الشريعة بالمعنى الثانى مأخوذ من المعنى الاول لوضوح طريق الماء عندهم بكثره الورود و الصدور و قال: النهج (بالفتح فالسكون): الطريق الواضح، و نهج الأمر و أنهج وضح، و منهج الطريق و منهاجه (1).

ص: ١١٢

(١-١). المائده ٤١-٥٠: كلام فى معنى الشريعة و الفرق بينها و بين الدين و المله فى عرف القرآن.

قوله تعالى: وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ لَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ بيان لسبب اختلاف الشرائع، وليس المراد بجعلهم أمة واحدة جعل التكويني بمعنى النوعية الواحدة فإن الناس أفراد نوع واحد يعيشون على نسق واحد كما يدل عليه قوله تعالى: وَ لَوْ لَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُوتِيَهُمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَ مَعَارِجَ عَلِيهَا يَظْهَرُونَ (الزخرف ١٣٣).

فمعنى الآية-و الله أعلم-: لكل أمة جعلنا منكم (جعلنا تشريعياً) شرعه و منهاجا و لو شاء الله لأخذكم أمة واحدة و شرع لكم شريعته واحدة، و لكن جعل لكم شرائع مختلفة ليمتحنكم فيما آتاكم من النعم المختلفة، و اختلاف النعم كان يستدعي اختلاف الامتحان الذي هو عنوان التكاليف و الاحكام المجعولة فلا محاله ألقى الاختلاف بين الشرائع.

و هذه الامم المختلفة هي أمم نوح و ابراهيم و موسى و عيسى و محمد صلى الله عليه و آله و عليهم كما يدل عليه ما يمتن الله به على هذه الامة بقوله شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً و الذى أوحينا إليك و ما وصىنا به ابراهيم و موسى و عيسى (الشورى ١٣).

قوله تعالى: فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً الخ؛ الاستباق أخذ السبق، و المرجع مصدر ميمي من الرجوع، و الكلام متفرع على قوله: «لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مَنَاجِياً» بما له من لازم المعنى أى و جعلنا هذه الشريعة الحقة المهيمنة على سائر الشرائع شريعة لكم، و فيه خيركم و صلاحكم لا- محاله فاستبقوا الخيرات و هى الأحكام و التكاليف، و لا تشتغلوا بأمر هذه الاختلافات التى بينكم و بين غيركم فإن مرجعكم جميعاً الى ربكم تعالى فَيُبْتَلُوكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ، و يحكم بينكم حكماً فصلاً، و يقضى قضاء عدلاً.

قوله تعالى: وَ أَنْ احْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ، ثم يختلفان فيما

فرع على كل منهما، و يعلم منه أن التكرار لحيازه هذه الفائده فالآيه الاولى تأمر بالحكم بما أنزل الله و تحذر اتباع أهواء الناس لان هذا الذى أنزله الله هو الشريعة المجموعه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و لامته فالواجب عليهم أن يستبقوا هذه الخيرات، و الآيه الثانيه تأمر بالحكم بما أنزل الله، و تحذر اتباع أهواء الناس و تبين أن توليهم ان تولوا عما أنزل الله كاشف عن اضلال الهى لهم لفسقهم و قد قال الله تعالى يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦).

و قوله: «وَ اخِذْهُمْ أَنْ يَفْتَنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ» امره تعالى نبيه بالحذر عن فتنهم مع كونه صلى الله عليه و آله و سلم معصوما بعصمه الله انما هو من جهه ان قوه العصمه لا توجب بطلان الاختيار و سقوط التكليف المبنيه عليه فإنها من سنخ الملكات العلميه، و العلوم و الادراكات لا- تخرج القوى العامله و المحركه فى الاعضاء و الاعضاء الحامله لها عن استواء نسبه الفعل و الترك إليها.

و قوله: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاَعْلَمَنَّ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصَيِّبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ» بيان لامر اضلالهم اثر فسقهم كما تقدم، و فيه رجوع الى بدء الكلام فى هذه الآيات «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ» الخ؛ ففيه تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و تطيب لنفسه، و تعليم له ما لا- يدب معه الحزن فى قلبه، و هكذا فعل الله سبحانه فى جل الموارد التى نهى فيها النبي صلى الله عليه و آله و سلم عن ان يحزن عن توليهم عن الدعوه الحقه و استنكافهم عن قبول ما يرشدهم الى سبيل الرشاد و الفلاح فبين له صلى الله عليه و آله و سلم انهم ليسوا بمعجزين لله فى ملكه و لا غالبين عليه بل الله غالب على امره، و هو الذى يضلهم بسبب فسقهم، و يزيغ قلوبهم عن زيغ منهم، و يجعل الرجس عليهم بسلب توفيقه عنهم و استدراجه إياهم، قال تعالى: «وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (الأنفال ٥٩)» و اذا كان الأمر الى الله سبحانه، و هو الذى يذب عن ساحه دينه الطاهره كل رجس نجس فلم يفته شىء مما أراده و لا وجه للحزن اذا لم يكن فائت.

وقوله: «وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ» في محل التعليل لقوله «أَتَمَّا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ» الخ؛ على ما تقدم بيانه.

قوله تعالى: «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» تفريع بنحو الاستفهام على ما بين في الآيه السابقه من توليهم مع كون ما يتولون عنه هو حكم الله النازل اليهم و الحق الذي علموا أنه حق، و يمكن أن يكون في مقام النتيجة اللازمه لما بين في جميع الآيات السابقه.

و المعنى: و اذا كانت هذه الأحكام و الشرائع حقه نازله من عند الله و لم يكن وراءها حكم حق لا يكون دونها الا حكم الجاهليه الناشئه عن اتباع الهوى فهؤلاء الذين يتولون عن الحكم الحق ما ذا يريدون بتوليهم و ليس هناك الا حكم الجاهليه؟ أفحكم الجاهليه يبغون و الحال أنه ليس أحد أحسن حكما من الله لهؤلاء المدّعين للإيمان؟

فقوله «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ» استفهام توبيخي، و قوله: «وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا» استفهام انكارى أى لا أحد أحسن حكما من الله، و انما يتبع الحكم لحسنه، و قوله: «لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» فى أخذ وصف اليقين تعريض لهم بأنهم ان صدقوا فى دعواهم الايمان بالله فهم يوقنون بآياته، و الذين يوقنون بآيات الله ينكرون أن يكون أحد أحسن حكما من الله سبحانه (١).

[سوره المائده (٥): الآيات ٥١ الى ٥٤]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥١) فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَحْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضِيعَ بُحُوًا عَلَىٰ مَا أَسْرَوْا فِي أَنفُسِهِمْ نَادِمِينَ (٥٢) وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ (٥٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤)

ص: ١١٥

١- ١). المائده ٤١-٥٠: بحث روائى فى حكم الرجم فى التوراه؛ مباحثه ابن صوريا اليهودى مع رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و اسلامه؛ القصاص و الديه فى التوراه و القرآن؛ الربانيون؛ حكم الله و حكم الجاهليه.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: الْاِتِّخَاذُ هُوَ الْاِعْتِمَادُ عَلَى الشَّيْءِ لِإِعْدَادِهِ لِأَمْرٍ، وَهُوَ افْتِعَالٌ مِنَ الْأَخْذِ، وَأَصْلُهُ الْاِتِّخَاذُ فَأَبْدَلْتُ الْهَمْزَ تَاءً، وَأَدْغَمْتُهَا فِي التَّاءِ الَّتِي بَعْدَهَا وَمِثْلَهُ الْاِتِّعَادُ مِنَ الْوَعْدِ، وَالْأَخْذُ يَكُونُ عَلَى وَجْهِ تَقْوِيلٍ: أَخَذَ الْكِتَابَ إِذَا تَنَاوَلَهُ، وَأَخَذَ الْقَرِيبَانَ إِذَا تَقَبَّلَهُ، وَأَخَذَهُ اللَّهُ مِنْ مَأْمَنِهِ إِذَا أَهْلَكَهُ، وَأَصْلُهُ جَوَّازُ الشَّيْءِ مِنْ جِهَةٍ إِلَى جِهَةٍ مِنَ الْجِهَاتِ.

انتهى.

وَقَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ: الْوَلَاءُ وَالتَّوَالَى أَنْ يَحْصَلَ شَيْئَانِ فَصَاعِدًا حَصُولًا لَيْسَ بَيْنَهُمَا مَا لَيْسَ مِنْهُمَا، وَيَسْتَعَارُ ذَلِكَ لِلْقُرْبِ مِنْ حَيْثُ الْمَكَانِ، وَمِنْ حَيْثُ النِّسْبَةِ وَمِنْ حَيْثُ الدِّينِ، وَمِنْ حَيْثُ الصِّدَاقِ وَالنَّصْرَةِ وَالْاِعْتِقَادِ (انْتَهَى مَوْضِعَ الْحَاجَةِ) وَسَيَأْتِي اسْتِيفَاءُ الْبَحْثِ فِي

و بالجمله الولاية نوع اقتراب من الشىء يوجب ارتفاع الموانع و الحجب بينهما من حيث ما اقترب منه لاجله فإن كان من جهة التقوى و الانتصار فالولى هو الناصر الذى لا يمنعه عن نصره من اقتراب منه شىء، و إن كان من جهة الالتيام فى المعاشرة و المحبة التى هى الانجذاب الروحى فالولى هو المحبوب الذى لا يملك الإنسان نفسه دون أن ينفعل عن إرادته، و يعطيه فيما يهواه، و ان كان من جهة النسب فالولى هو الذى يرثه مثلا من غير مانع يمنعه، و إن كان من جهة الطاعة فالولى هو الذى يحكم فى أمره بما يشاء.

و لم يقيد الله سبحانه فى قوله: «لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ» الولاية بشىء من الخصوصيات و القيود فهى مطلقه غير أن قوله تعالى فى الآيه التاليه: «فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ»، يدل على أن المراد بالولاية نوع من القرب و الاتصال يناسب هذا الذى اعتدروا به بقولهم «نَخْشَىٰ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ» و هى الدوله تدور عليهم، و كما أن الدائره من الجائر أن تصيبهم من غير اليهود و النصارى فيتأيدوا بنصره الطائفتين بأخذهما أولياء النصره كذلك يجوز أن تصيبهم من نفس اليهود و النصارى فينجوا منها باتخاذهما أولياء المحبه و الخلطه.

و الولاية بمعنى قرب المحبه و الخلطه تجمع الفائدتين جميعا أعنى فائده النصره و الامتزاج الروحى فهو المراد بالآيه، و سيجىء ما فى القيود و الصفات المأخوذه فى الآيه الاخيره «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزِدْكُمْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ»، من الدلاله على أن المراد بالولاية هاهنا ولاية المحبه لا غير (١).

و ربما أمكن أن يستفاد من قوله: «بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» معنى آخر، و هو أن لا تتخذوهم

(١-١). المائده ٥١-٥٤: بحث فى معنى الولاية فى الآيه «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ...» .

أولياء لأنكم إنما تتخذونهم أولياء لتنتصروا ببعضهم الذى هم أولياؤكم على البعض الآخر، ولا ينفعكم ذلك فإن بعضهم أولياء بعض فليسوا ينصرونكم على أنفسهم.

قوله تعالى: وَمَنْ يَتَّخِذْهُمْ مِنْكُمْ فَمَا نُهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ التولى اتخاذ الولي، و«من» تبعيضية والمعنى أن من يتخذهم منكم أولياء فإنه بعضهم، وهذا إلحاق تنزيلي يصير به بعض المؤمنين بعضا من اليهود والنصارى، ويثول الأمر الى أن الإيمان حقيقته ذات مراتب مختلفة من حيث الشوب والخلوص، والكدوره والصفاء كما يستفاد ذلك من الآيات القرآنية قال تعالى: وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (يوسف ١٠٦) وهذا الشوب والكدر هو الذى يعبر تعالى عنه بمرض القلوب فيما سيأتى من قوله: «فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ» .

فهؤلاء الموالون لاولئك أقوام عداهم الله تعالى من اليهود والنصارى وإن كانوا من المؤمنين ظاهرا، وأقل ما فى ذلك أنهم غير سالكين سبيل الهدايه الذى هو الإيمان بل سالكو سبيل اتخذه اولئك سبيلا يسوقه الى حيث يسوقهم وينتهى به الى حيث ينتهى بهم.

ولذلك علل الله سبحانه لحوقه بهم بقوله «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» فالكلام فى معنى: أن هذا الذى يتولاهم منكم هو منهم غير سالك سبيلكم لأن سبيل الإيمان هو سبيل الهدايه الإلهيه، وهذا المتولى لهم ظالم مثلهم، والله لا يهدى القوم الظالمين.

والآيه- كما ترى- تشتمل على أصل التنزيل أعنى تنزيل من تولاهم من المؤمنين منزلتهم من غير تعرض لشيء من آثاره الفرعيه، واللفظ وإن لم يتقيد بقيد لكنه لما كان من قبيل بيان الملاك- نظير قوله: وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ (البقره ١٨٤) وقوله: إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ (العنكبوت ٤٥) الى غير ذلك- لم يكن إلا مهملا يحتاج التمسك به فى اثبات حكم فرعى الى بيان السنه، والمرجع فى البحث عن ذلك فن الفقه.

قوله تعالى: فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ تَفْرِيعَ عَلَى قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» فمن عدم شمول الهداية الالهيه لحالهم -و هو الضلال- مسارعتهم فيهم و اعتذارهم في ذلك بما لا يسمع من القول، وقد قال تعالى:

«يُسَارِعُونَ فِيهِمْ» و لم يقل: يسارعون اليهم، فهم منهم و حالون في الضلال محلهم، فهؤلاء يسارعون فيهم لا لخشيته اصابه دائره عليهم فليسوا يخافون ذلك، و انما هي معذره يختلقونها لانفسهم لدفع ما يتوجه اليهم من ناحيه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ و المؤمنين من اللوم و التوبيخ بل انما يحملهم على تلك المسارعه توليهم أولئك (اليهود و النصارى).

و لما كان من شأن كل ظلم و باطل أن يزهد يوما و يظهر للملأ فضيخته، و ينقطع رجاء من توسل الى أغراض باطله بوسائل صورتها صورته الحق كما قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» كان من المرجو قطعا أن يأتي الله بفتح أو أمر من عنده فيندموا على فعالهم، و يظهر للمؤمنين كذبهم فيما كانوا يظهرونه.

قوله تعالى: فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَىٰ مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ لفظه «عسى» و إن كان في كلامه تعالى للترجي كسائر الكلام- على ما قدمنا أنه للترجي العائد الى السامع أو الى المقام- لكن القرينه قائمه على أنه مما سيقع قطعا فإن الكلام مسوق لتقرير ما ذكره بقوله «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» و تثبت صدقه، فما يشتمل عليه واقع لا محاله.

و الذي ذكره الله تعالى من الفتح- و قد ردد بينه و بين أمر من عنده غير بين المصداق بل الترديد بينه و بين أمر مجهول لنا- لعله يؤيد كون اللام في «الفتح» للجنس لا- للعهد حتى يكون المراد به فتح مكة المعهود بوعد وقوعه في مثل قوله تعالى: إِنَّ الَّذِي فَرضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَيَّ مَعَادٍ (الفصص ٨٥/) و قوله: لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ (الفتح ٢٧/) و غير ذلك.

قوله تعالى: وَ يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ و قرء «يُقُولُ» بالنصب عطفًا على قوله: «فَيُضِيحُوا» و هى أرجح لكونها أوفق بالسياق فإن ندامتهم على ما أسروه فى أنفسهم و قول المؤمنين «أَهْؤَلَاءِ» الخ؛ جميعًا تقريع لهم بعاقبه توليهم و مسارعتهم فى اليهود و النصارى، و قوله: «هؤلاء» إشارة الى اليهود و النصارى، و قوله: «معكم» خطاب للذين فى قلوبهم مرض و يمكن العكس، و كذا الضمير فى قوله: «حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا»، يمكن رجوعه الى اليهود و النصارى، و الى الذين فى قلوبهم مرض.

لكن الظاهر من السياق أن الخطاب للذين فى قلوبهم مرض، و الإشارة الى اليهود و النصارى، و قوله: «حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ»، كالجواب لسؤال مقدر، و المعنى: و عسى أن يأتى الله بالفتح أو أمر من عنده فيقول الذين آمنوا لهؤلاء الضعفاء الإيمان عند حلول السخط الإلهى بهم: أ هؤلاء اليهود و النصارى هم الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم أى أيمانهم التى بالغوا و جهدوا فيها جهدا أنهم لمعكم فلما ذالوا- ينفعونكم؟! ثم كأنه سئل فقليل: فإلى م انتهى أمر هؤلاء الموالين؟ فقليل فى جوابه: حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين (١).

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزِدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ ارْتَدَّ عَنْ دِينِهِ رَجَعُ عَنْهُ، و هو فى اصطلاح أهل الدين الرجوع من الإيمان الى الكفر سواء كان إيمانه مسبقًا بكفر آخر كالكافر يؤمن ثم يرتد أو لم يكن، و هما المسميان بالارتداد الملى و الفطرى (حقيقه شرعيه أو متشرعيه).

ربما يسبق الى الذهن أن المراد بالارتداد فى الآية هو ما اصطلاح عليه أهل الدين، و يكون الآية على هذا غير متصله بما قبلها، و إنما هى آيه مستقلة تحكى عن نحو استغناء من الله سبحانه عن إيمان طائفه من المؤمنين بإيمان آخرين.

ص: ١٢٠

لكن التدبر في الآيه و ما تقدم عليها من الآيات يدفع هذا الاحتمال فإن الآيه على هذا تذكر المؤمنين بقدره الله سبحانه على أن يعبد في أرضه، و أنه سوف يأتي بأقوام لا يرتدون عن دينه بل يلزمون كقوله تعالى: فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (الأنعام/٨٩) أو كقوله تعالى: وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (آل عمران/٩٧) وقوله تعالى: إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (إبراهيم/٨) (١).

قوله تعالى: أَذَلَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ الاذله و الاعزه جمعا الدليل و العزيز، و هما كنيستان عن خفضهم الجناح للمؤمنين تعظيما لله الذي هو وليهم و هم أولياؤه، و عن ترفعهم من الاعتناء بما عند الكافرين من العزه الكاذبه التي لا يعبأ بأمرها الدين كما أدب بذلك نبيه في قوله: لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَ اخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (الحجر/٨٨). و لعل تعديده «أذله» بعلى لتضمينه معنى الحنان أو الحنو كما قيل.

قوله تعالى: يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ أَمَا قَوْلُهُ:

«يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» فقد اختص بالذكر من بين مناقبهم الجمه لكون الحاجه تمس إليه في المقام لبيان أن الله ينتصر لدينه بهم، و أما قوله: «وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ» فالظاهر أنه حال متعلق بالجمل المتقدمه لا بالجمله الأخيره فقط- و إن كانت هي المتيقنه في أمثال هذه التركيبات- و ذلك لأن نصره الدين بالجهاد في سبيل الله كما يزاحمها لومه اللاتمين الذين يحذرونهم تضييع الاموال و إتلاف النفوس و تحمل الشدائد و المكاره كذلك التذلل للمؤمنين و التعزز على الكافرين و عندهم من زخارف الدنيا و مبتغيات الشهوه، و أمتعته الحياه ما ليس

ص: ١٢١

عند المؤمنين هما مما يمانعه لومه اللائم، وفي الآيه ملحمة غيبية سنبحت عنها في كلام مختلط من القرآن والحديث ان شاء الله تعالى (١)(٢).

[سوره المائده (٥): الآيات ٥٥ الى ٥٦]

اشاره

إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦)

بيان:

الآيتان- كما ترى- موضوعتان بين آيات تنهى عن ولاية أهل الكتاب والكفار، ولذلك رام جماعه من مفسري القوم إشراكهما مع ما قبلهما وما بعدهما من حيث السياق، وجعل الجميع ذات سياق واحد يقصد به بيان وظيفه المؤمنين في أمر ولايه الأشخاص ولايه النصره، والنهي عن ولايه اليهود والنصارى والكفار، وقصر الولاية في الله سبحانه ورسوله والمؤمنين الذين يقيمون الصلاه ويؤتون الزكاه وهم راعون، وهؤلاء هم المؤمنون حقا فيخرج بذلك المنافقون والذين في قلوبهم مرض، ويبقى على وجوب الولاية المؤمنون حقا، وتكون الآيه داله على مثل ما يدل عليه مجموع قوله تعالى: وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران/٦٨)، وقوله تعالى: أَلَيْسَ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ (الأحزاب/٦)،

ص: ١٢٢

١- (١). المائده ٥١-٥٤: بحث روائي حول الآيه «إِنَّمَا أَوْلِيَاكُمْ اللَّهُ...؛ ولايه على عليه السلام.

٢- (٢). المائده ٥١-٥٤: كلام و بحث مختلط من القرآن والحديث حول الخطابات القرآنيه؛ نتائج التمرد على اوامر القرآن؛ سبب تغيير النعم الالهيه؛ اشراط الساعه؛ ملاحم آخر الزمان.

و قوله تعالى فى المؤمنین: أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ (الأنفال ٧٢)، و قوله تعالى:

وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ الْآيَه (التوبه ٧١)؛ فمحصّل الآيه جعل ولايه النصره لله و لرسوله و المؤمنین على المؤمنین.

نعم يبقى هناك إشكال الجملة الحاليه التى يتعقبها قوله: «وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» و هى قوله:

«وَ هُمْ رَاكِعُونَ» و يرتفع الإشكال بحمل الركوع على معناه المجازى و هو مطلق الخضوع لله سبحانه أو انحطاط الحال لفقر و نحوه، و يعود معنى الآيه الى أنه ليس أولياؤكم اليهود و النصارى و المنافقين بل أولياؤكم الله و رسوله و المؤمنون الذين يقيمون الصلاه و يؤتون الزكاه، و هم فى جميع هذه الأحوال خاضعون لساحه الربوبيه بالسمع و الطاعه، أو أنهم يؤتون الزكاه و هم فقراء معسرون هذا.

لكن التدبر و استيفاء النظر فى الآيتين و ما يحقهما من آيات ثم فى أمر السوره يعطى خلاف ما ذكره، و أول ما يفسد من كلامهم ما ذكره من أمر وحده سياق الآيات، و ان غرض الآيات التعرض لأمر ولايه النصره، و تمييز الحق منها من غير الحق فإن السوره و إن كان من المسلم نزلها فى آخر عهد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فى حجه الوداع لكن من المسلم أيضا أن جميع آياتها لم تنزل دفعه واحده ففى خلالها آيات لا شبيهه فى نزلها قبل ذلك، و مضامينها تشهد بذلك، و ما ورد فيها من أسباب النزول يؤيده فليس مجرد وقوع الآيه بعد الآيه أو قبل الآيه يدل على وحده السياق، و لا أن بعض المناسبه بين آيه و آيه يدل على نزلها معا دفعه واحده أو اتحادهما فى السياق.

على أن الآيات السابقه أعنى قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» الخ؛ تنهى المؤمنین عن ولايه اليهود و النصارى، و تعبير المنافقين و الذين فى قلوبهم مرض بالمسارعه اليهم و رعايه جانبهم من غير أن يرتبط الكلام بمخاطبه اليهود و النصارى و إسماعهم الحديث بوجه بخلاف الآيات التاليه أعنى قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَ لَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ، الخ؛ فإنها تنهى عن ولايتهم و تتعرض لحالهم بالأمر بمخاطبتهم ثم يعيّرهم بالنفاق و الفسق فالغرض فى القبيلين من الآيات السابقه و اللاحقه مختلف، و معه كيف يتحد السياق؟!

على أنك قد عرفت فى البحث عن الآيات السابقه أعنى قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَ النَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ» الآيات؛ أن ولايه النصره لا تلائم سياقها، و أن خصوصيات الآيات و العقود المأخوذه فيها و خاصه قوله: «بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» و قوله:

«وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» لا تناسبها فإن عقد ولايه النصره و اشتراطها بين قومين لا يوجب صيروره أحدهما الآخر و لحوقه به، و لا أنه يصح تعليل النهى عن هذا العقد بأن القوم الفلانى بعضهم أولياء بعض بخلاف عقد ولايه الموده التى توجب الامتزاج النفسى و الروحى بين الطرفين، و تبيح لأحدهما التصرف الروحى و الجسمى فى شئون الآخر الحيويه و تقارب الجماعتين فى الأخلاق و الأعمال الذى يذهب بالخصائص القوميه.

على أنه ليس من الجائر أن يعدّ النبى صلّى الله عليه و آله و سلم وليا للمؤمنين بمعنى ولايه النصره بخلاف العكس فإن هذه النصره التى يعتنى بأمرها الله سبحانه، و يذكرها القرآن الكريم فى كثير من آياته هى النصره فى الدين و حينئذ يصح أن يقال: إن الدين لله بمعنى أنه جاعله و شارع شرائعه فيندب النبى صلّى الله عليه و آله و سلم أو المؤمنون أو هما جميعا الى نصرته أو يدعوا أنصارا لله فى ما شرّعه من الدين كقوله تعالى: قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ (الصف ١٤)، و قوله تعالى: إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ (محمد ٧)، و قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ -الى أن قال- لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ (آل عمران ٨١)، الى غير ذلك من الآيات الكثيره.

و يصح أن يقال: إن الدين للنبى صلّى الله عليه و آله و سلم بمعنى أنه الداعى اليه و المبلّغ له مثلا؛ أو إن الدين لله و لرسوله بمعنى التشريع و الهدايه فيدعى الناس الى النصره، أو يمدح المؤمنون بالنصره كقوله

تعالى: وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ (الأعراف ١٥٧/)، و قوله تعالى: وَ يَنْصُرُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ (الحشر ٨/)، و قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا (الأنفال ٧٢/)، الى غير ذلك من الآيات.

و يصح أن يقال: إن الدين للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و للمؤمنين جميعا، بمعنى أنهم المكلفون بشرائعه العاملون به فيذكر أن الله سبحانه وليهم و ناصرهم كقوله تعالى: وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ (الحج ٤٠/)، و قوله تعالى: إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (غافر ٥١/)، و قوله تعالى: وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصِيرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم ٤٧/)، الى غير ذلك من الآيات.

لكن لا يصح أن يفرد الدين بوجه للمؤمنين خاصة، و يجعلوا أصلا فيه و النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بمعزل عن ذلك، ثم يعدّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ناصرا لهم فيما لهم، اذ ما من كرامه دينيه إلا هو مشاركهم فيها أحسن مشاركه، و مساهمهم أفضل سهام؛ و لذلك لا نجد القرآن يعد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ ناصرا للمؤمنين و لا في آيه واحده، و حاشا ساحه الكلام الإلهي أن يساهل في رعايه أدبه البارِع.

و هذا من أقوى الدليل على أن المراد بما نسب الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ من الولايه في القرآن هو ولايه التصرف أو الحب و الموده كقوله تعالى: النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ (الأحزاب ٦/)، و قوله تعالى: إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الْآيَه؛ فإن الخطاب للمؤمنين، و لا معنى لعد النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وليا لهم ولايه النصره كما عرفت.

فقد ظهر أن الآيتين أعنى قوله تعالى: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ» الى آخر الآيتين لا تشاركان السياق السابق عليهما لو فرض أنه متعرض لحال ولايه النصره، و لا- يغرنك قوله تعالى في آخر الآيه الثانيه: «فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ»، فإن الغلبه كما تناسب الولايه بمعنى النصره، كذلك تناسب ولايه التصرف و كذا ولايه المحبه و الموده، و الغلبه الدينيه التي هي آخر بغيه أهل الدين تتحصل باتصال المؤمنين بالله و رسوله بأى وسيله تمت و حصلت، و قد

قرع الله سبحانه أسماعهم ذلك بصريح وعده حيث قال كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي (المجادله ٢١)، وقال وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ * وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (الصافات ١٧٣).

على أن الروايات متكاثره من طرق الشيعة و أهل السنه على أن الآيتين نازلتان فى أمير المؤمنين على عليه السلام لما تصدق بخاتمته و هو فى الصلاة، فالآيتان خاصتان غير عامتين، و سيجىء نقل جل ما ورد من الروايات فى ذلك فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

و لو صح الإعراض فى تفسير آيه بالأسباب المأثوره عن مثل هذه الروايات على تكاثرها و تراكمها لم يصح الركون الى شىء من أسباب النزول المأثوره فى شىء من آيات القرآن و هو ظاهر، فلا- و جل لحمل الآيتين على إرادته و لايه المؤمنين بعضهم لبعض يجعلها عامه.

نعم استشككوا فى الروايات- و لم يكن ينبغى أن يستشكل فيها مع ما فيها من الكثره البالغه-أولا: بأنها تنافى سياق الآيات الظاهر فى و لايه النصره كما تقدمت الإشاره اليه؛ و ثانيا: أن لازمها إطلاق الجمع و إرادته الواحد فإن المراد بالذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة، الخ؛ على هذا التقدير هو على و لا يساعده اللغه، و ثالثا: أن لازمها كون المراد بالزكاه هو التصديق بالخاتم، و لا يسمى ذلك زكاه.

قالوا: فالمتعين أن تؤخذ الآيه عامه، و تكون مسوقه لمثل قصر القلب أو الأفراد فقد كان المنافقون يسارعون الى و لايه أهل الكتاب و يؤكدونها، فنهى الله عن ذلك و ذكر أن أولياءهم إنما هم الله و رسوله و المؤمنون حقا دون أهل الكتاب و المنافقين.

و لا- يبقى إلا- مخالفه هذا المعنى لظاهر قوله: «وَهُمْ رَاكِعُونَ» و يندفع بحمل الركوع على معناه المجازى، و هو الخضوع لله أو الفقر و رثائه الحال، هذا ما استشككوه.

لكن التدبر فى الآيه و ما يناظرها من الآيات يوجب سقوط الوجوه المذكوره جميعا:

أما وقوع الآيه فى سياق ولايه النصره، و لزوم حملها على إرادته ذلك فقد عرفت أن الآيات غير مسوقه لهذا الغرض أصلا، و لو فرض سرد الآيات السابقه على هذه الآيه لبيان أمر ولايه النصره لم تشاركها الآيه فى هذا الغرض.

و أما حديث لزوم إطلاق الجمع و إرادته الواحد فى قوله: «وَ الَّذِينَ آمَنُوا» الخ؛ فقد عرفت فى الكلام على آيه المباهله فى الجزء الثالث من هذا الكتاب تفصيل الجواب عنه، و أنه فرق بين إطلاق لفظ الجمع و إرادته الواحد و استعماله فيه، و بين إعطاء حكم كلّى أو الإخبار بمعرف جمعى فى لفظ الجمع لينطبق على من يصح أن ينطبق عليه، ثم لا يكون المصداق الذى يصح أن ينطبق عليه إلا واحدا فردا و اللغه تأبى عن قبول الأول دون الثانى على شيوعه فى الاستعمالات.

و ليت شعرى ما ذا يقولون فى مثل قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عِدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ - الى أن قال - تَبَيَّرُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ الآيه (الممتحنه / ١)، و قد صح أن المراد به خاطب بن أبى بلتعنه فى مكاتبتة قريشا؟ و قوله تعالى: يَقُولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ (المنافقون / ٨)، و قد صح أن القائل به عبد الله بن أبى بن سلول؟ و قوله تعالى: يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ (البقره / ٢١٥) و السائل عنه واحد؟ و قوله تعالى: الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً (البقره / ٢٧٤) و قد ورد أن المنفق كان عليا أو أبا بكر؟ الى غير ذلك من الموارد الكثيره.

و أعجب من الجميع قوله تعالى: «يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ» و القائل هو عبد الله بن أبى، على ما رووا فى سبب نزوله و تلقوه بالقبول، و الآيه واقعه بين الآيات المبحوث عنها نفسها.

فإن قيل: إن هذه الموارد لا تخلو عن اناس كانوا يرون رأيهم أو يرضون بفعالهم فعبر الله تعالى عنهم و عمن يلحق بهم بصيغته الجمع. قيل: إن محصله جواز ذلك فى اللغه لنكته مجوزه

فليجر الآيه أعنى قوله: «وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ» هذا المجرى، و لتكن النكته هي الإشارة الى أن أنواع الكرامات الدينيه-و منها الولايه المذكوره فى الآيه-ليست موقوفه على بعض المؤمنين دون بعض وقفا جزافيا، و إنما يتبع التقدم فى الإخلاص و العمل لا غير.

على أن جل الناقلين لهذه الأخبار هم صحابه النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ التابعون المتصلون بهم زمانا و هم من زمرة العرب العرباء الذين لم تفسد لغتهم و لم تختلط ألسنتهم، و لو كان هذا النحو من الاستعمال لا تبيحه اللغة و لا يعهده أهلها لم تقبله طباعهم، و لكانوا أحق باستشكاله و الاعتراض عليه، و لم يؤثر من أحد منهم ذلك.

و أما قولهم: إن الصدقه بالخاتم لا تسمى زكاه، فيدفعه أن تعين لفظ الزكاه فى معناها المصطلح إنما تحقق فى عرف المشرعه بعد نزول القرآن بوجوبها و تشريعها فى الدين، و أما الذى تعطيه اللغة فهو أعم من الزكاه المصطلحه فى عرف المشرعه و يساوق عند الإطلاق أو عند مقابله الصلاه إنفاق المال لوجه الله كما يظهر مما وقع فيما حكاه الله عن الأنبياء السالفين كقوله تعالى فى إبراهيم و إسحاق و يعقوب: وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ آتَاءَ الزَّكَاةِ (الأنبياء ٧٣)، و قوله تعالى فى إسماعيل: وَ كَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ وَ كَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا (مريم ٥٥) و قوله تعالى حكايه عن عيسى عليه السلام فى المهد: وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (مريم ٣١) و من المعلوم أن ليس فى شرائعهم الزكاه المالى بالمعنى الذى اصطلح عليه فى الإسلام.

و كذا قوله تعالى: قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَرَكَ * وَ ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى (الأعلى ١٥) و قوله تعالى: الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى (الليل ١٨) و قوله تعالى: الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (السجده ٧) و قوله تعالى: وَ الَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (المؤمنون ٤) و غير ذلك من الآيات الواقعه فى السور المكيه و خاصه السور النازله فى أوائل

البعثه كسوره حم السجده و غيرها، و لم تكن شرعت الزكاه المصطلحه بعد؛ فليت شعري ما ذا كان يفهمه المسلمون من هذه الآيات فى لفظ الزكاه.

بل آيه الزكاه أعنى قوله تعالى: **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صِلَا تَكَ سَكَنٌ لَهُمْ** (التوبه ١٠٣) تدل على أن الزكاه من أفراد الصدقه، و إنما سميت زكاه لكون الصدقه مطهره مزكاه مطلقا، و قد غلب استعمالها فى الصدقه المصطلحه.

فتبين من جميع ما ذكرنا أنه لا مانع من تسميه مطلق الصدقه و الإنفاق فى سبيل الله زكاه، و تبين أيضا أن لا موجب لارتكاب خلاف الظاهر بحمل الركوع على معناه المجازى، و كذا ارتكاب التوجيه فى قوله: **إِنَّمَا وَئِيكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا** حيث أتى باسم إن (وليكم) مفردا و بقوله **الَّذِينَ آمَنُوا** و هو خبر بالعطف بصيغه الجمع، هذا.

قوله تعالى: **إِنَّمَا وَئِيكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا** قال الراغب فى المفردات:

الولاء (بفتح الواو) و التوالى أن يحصل شيان فصاعدا حصولا ليس بينهما ما ليس منهما، و يستعار ذلك للقرب من حيث المكان و من حيث النسبه و من حيث الصداقه و النصره و الاعتقاد، و الولايه النصره، و الولايه تولى الأمر، و قيل: الولايه و الولايه (بالفتح و الكسر) واحده نحو الدلاله و الدلاله و حقيقته تولى الأمر، و الولى و المولى يستعملان فى ذلك، كل واحد منهما يقال فى معنى الفاعل أى الموالى (بكسر اللام) و معنى المفعول أى الموالى (بفتح اللام) يقال للمؤمن: هو ولى الله عزّ و جل و لم يرد مولاه، و قد يقال: الله ولى المؤمنين و مولاهم.

قال: و قولهم: تولى اذا عدى بنفسه اقتضى معنى الولايه و حصوله فى أقرب المواضع منه يقال: و لیت سمعى كذا، و وليت عينى كذا، و وليت وجهى كذا أقبلت به عليه قال الله عزّ و جل **فَلَنَوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، وَ حَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ** و إذا عدى بعن لفظا أو تقديرا اقتضى معنى الإعراض و ترك قربه انتهى.

و الظاهر أن القر الكذائى المعبر عنه بالولاية، أول ما اعتبره الإنسان إنما اعتبره فى الأجسام و أمكنتها و أزمنتها ثم استعير لأقسام القرب المعنوية بالعكس مما ذكره لأن هذا هو المحصل من البحث فى حالات الإنسان الأوليه فالنظر فى أمر المحسوسات و الاشتغال بأمرها أقدم فى عيشه الإنسان من التفكير فى المعقولات و المعانى و أنحاء اعتبارها و التصرف فيها.

و اذا فرضت الولاية-و هى القرب الخاص-فى الامور المعنوية كان لازمها أن للولى ممن و ليه ما ليس لغيره إلا بواسطته فكل ما كان من التصرف فى شئون من و ليه مما يجوز أن يخلفه فيه غيره فإنما يخلفه الولى لا غيره كولى الميت، فإن التركة التى كان للميت أن يتصرف فيها بالملك فإن لوارثه الولى أن يتصرف فيها بولاية الوراثة، و لى الصغير يتصرف بولايته فى شئون الصغير المالىه بتدبير أمره، و لى النصره له أن يتصرف فى أمر المنصور من حيث تقويته فى الدفاع، و الله سبحانه و لى عباده يدبر أمرهم فى الدنيا و الآخرة لا و لى غيره، و هو و لى المؤمنين فى تدبير أمر دينهم بالهدايه و الدعوه و التوفيق و النصره و غير ذلك، و النبى و لى المؤمنين من حيث إن له أن يحكم فيهم و لهم و عليهم بالتشريع و القضاء، و الحاكم و لى الناس بالحكم فيهم على مقدار سعه حكومته، و على هذا القياس سائر موارد الولاية كولاية العتق و الحلف و الجوار و الطلاق و ابن العم، و ولاية الحب و ولاية العهد و هكذا، و قوله: «يُولُونَ الْأَدْبَارَ» أى يجعلون أديبارهم تلى جهه الحرب و تدبر أمرها، و قوله: «تَوَلَّيْتُمْ» أى توليتم عن قبوله أى اتخذتم أنفسكم تلى جهه خلاف جهته بالإعراض عنه أو اتخذتم و جوهكم تلى خلاف جهته بالإعراض عنه؛ فالمحصل من معنى الولاية فى موارد استعمالها هو نحو من القرب يوجب نوعا من حق التصرف و مالكيه التدبير.

و قد اشتمل قوله تعالى: «إِنَّمَا وَتَّيَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا» إلخ؛ من السياق على ما يدل على وحده ما فى معنى الولاية المذكوره فيه حيث تضمن العد فى قوله: «اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا» و أسند الجميع الى قوله: «وَوَتَّيَكُمُ» و ظاهره كون الولاية فى الجميع بمعنى واحد.

و يؤيد ذلك أيضا قوله فى الآيه التالىة: «فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» حيث يشعر أو يدل على كون المتولين جميعا حزبا لله لكونهم تحت ولايته؛ فولايه الرسول و الذين آمنوا إنما هو من سنخ ولايه الله.

و قد ذكر الله سبحانه لنفسه من الولاية، الولاية التكوينية التى تصحح له التصرف فى كل شىء و تدبير أمر الخلق بما شاء و كيف شاء، قال تعالى: أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ (الشورى ٩) و قال مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (السجده ٤) و قال أَنْتَ وَلِيُّى فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ (يوسف ١٠١) و قال فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ (الشورى ٤٤) و فى معنى هذه الآيات قوله: وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (ق ١٦)، و قوله: وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ (الأنفال ٢٤).

و ربما لحق بهذا الباب ولايه النصره التى ذكرها لنفسه فى قوله: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ أَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (محمد ١١) و قوله: فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ (التحریم ٤) و فى معنى ذلك قوله: وَ كَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم ٤٧).

و ذكر تعالى أيضا لنفسه الولاية على المؤمنين فيما يرجع الى أمر دينهم من تشريع الشريعة و الهدايه و الإرشاد و التوفيق و نحو ذلك كقوله تعالى: اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ (البقره ٢٥٧)، و قوله: وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (آل عمران ٦٨)، و قوله: وَ اللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (الجاثية ١٩)، و فى هذا المعنى قوله تعالى: وَ مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَ رَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَ مَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَفَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا (الأحزاب ٣٦).

فهذا ما ذكره الله تعالى من ولايه نفسه فى كلامه، و يرجع محصلها الى ولايه التكوين و ولايه التشريع، و إن شئت سميتها بالولاية الحقيقيه و الولاية الاعتباريه.

و قد ذكر الله سبحانه لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم من الولاية التى تخصه الولاية التشريعيه و هى القيام

بالتشريع و الدعوه و تربيته الامه و الحكم فيهم و القضاء في امرهم، قال تعالى: **الْأُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أُنْفُسِهِمْ (الأحزاب ٦/٦)**، و في معناه قوله تعالى: **إِذَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ (النساء ١٠٥/١٠٥)**، و قوله: **وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (الشورى ٥٢/٥٢)**، و قوله: **رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ (الجمعه ٢/٢)**، و قوله: **لِيُتَبَيَّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (النحل ٤٤/٤٤)**، و قوله: **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ (النساء ٥٩/٥٩)**، و قوله: **وَإِن كَانِ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ (الأحزاب ٣٦/٣٦)**، و قوله: **وَإِن احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ (المائدة ٤٩/٤٩)**، و قد تقدم أن الله لم يذكر ولايه النصره عليه للامه.

و يجمع الجميع أن له صلى الله عليه وآله وسلم الولاية على الامه في سوقهم الى الله و الحكم فيهم و القضاء عليهم في جميع شئونهم فله عليهم الإطاعه المطلقه فترجع ولايته صلى الله عليه وآله وسلم الى ولايه الله سبحانه بالولاية التشريعيه، و معنى بذلك أن له صلى الله عليه وآله وسلم التقديم عليهم بافترض الطاعه لأن طاعته طاعه الله، فولايته ولايه الله كما يدل عليه بعض الآيات السابقه كقوله **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ (الآيه)**؛ و قوله: **وَإِن كَانِ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُمْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا (الآيه)**؛ و غير ذلك.

و هذا المعنى من الولاية لله و رسوله هو الذى تذكره الآيه للذين آمنوا بعطفه على الله و رسوله فى قوله: **«إِنَّمَا وَدَّعِيكُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا»** على ما عرفت من دلاله السياق على كون هذه الولاية ولايه واحده هى لله سبحانه بالاصاله و لرسوله و الذين آمنوا بالتبع و بإذن منه تعالى.

و لو كانت الولاية المنسوبه الى الله تعالى فى الآيه غير المنسوبه الى الذين آمنوا-و المقام مقام الالتباس- كان الأنسب أن تفرد ولايه اخرى للمؤمنين بالذكر رفعا للالتباس كما وقع

نظيره في نظيرها، قال تعالى: قُلْ أَذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ (التوبه / ٦١)، فكرر لفظ الإيمان لما كان في كل من الموضوعين لمعنى غير الآخر، وقد تقدم نظيره في قوله تعالى: أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ (النساء ٥٩)، في الجزء السابق على هذا الجزء من الكتاب.

على أن لفظ «وَأَيُّكُمْ» أتى به مفردا وقد نسب الى الذين آمنوا و هو جمع، وقد وجهه المفسرون بكون الولاية ذات معنى واحد هو لله سبحانه على الاصاله و لغيره بالتبع.

و قد تبين من جميع ما مر أن القصر في قوله: «إِنَّمَا وَئِيكُمُ اللَّهُ» الخ؛ لقصر الإفراد كأن المخاطبين يظنون أن الولاية عامه للمذكورين في الآية و غيرهم فافرد المذكورون للقصر، و يمكن بوجه أن يحمل على قصر القلب.

قوله تعالى: الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ بيان للذين آمنوا المذكور سابقا، وقوله: «وَ هُمْ رَاكِعُونَ» حال من فاعل «يؤتون» و هو العامل فيه.

و الركوع هو الهيئة المخصوصه في الانسان، و منه الشيخ الراكع، و يطلق في عرف الشرع على الهيئة المخصوصه في العباده، قال تعالى: الرَّاٰكِعُونَ السَّاجِدُونَ (التوبه ١١٢)، و هو ممثل للخضوع و التذلل لله، غير أنه لم يشرع في الإسلام في غير حال الصلاه بخلاف السجده.

و لكونه مشتملا على الخضوع و التذلل ربما استعير لمطلق التذلل و الخضوع أو الفقر و الإعسار الذي لا يخلو عادة عن التذلل للغير.

قوله تعالى: وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ، التولي هو الأخذ وليا، و «الَّذِينَ آمَنُوا» مفيد للعهد و المراد به المذكور في الآية السابقه (وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ) الخ؛ وقوله: «فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» واقع موقع الجزاء و ليس به بل هو من قبيل وضع الكبرى موضع النتيجة للدلاله على عله الحكم، و التقدير:

و من يتول فهو غالب لأنه من حزب الله و حزب الله هم الغالبون، فهو من قبيل الكنايه عن أنهم حزب الله.

و الحزب على ما ذكره الراغب جماعه فيها غلظ، و قد ذكر الله سبحانه حزبه في موضع آخر من كلامه قريب المضمون من هذا الموضع، و سُمهم بالفلاح فقال لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولِيَّكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَ آيَدَهُمْ بَرُوحٍ مِنْهُ - إلى أن قال - أُولِيَّكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا - إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (المجادله ٢٢).

و الفلاح الظفر و إدراك البغيه التي هي الغلبه و الاستيلاء على المراد، و هذه الغلبه و الفلاح هي التي وعدها الله المؤمنين في أحسن ما وعدهم به و بشرهم بنيله، قال تعالى: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (المؤمنون ١)، و الآيات في ذلك كثيره، و قد اطلق اللفظ في جميعها، فالمراد الغلبه المطلقه و الفلاح المطلق أي الظفر بالسعاده و الفوز بالحق و الغلبه على الشقاء، و إدحاض الباطل في الدنيا و الآخره، أما في الدنيا فبالحياه الطيبه التي توجد في مجتمع صالح من أولياء الله في أرض مطهره من أولياء الشيطان على تقوى و ورع، و أما في الآخره ففي جوار رب العالمين.

بحث روائي:

في الكافي عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن عمر بن اذينه، عن زراره؛ و الفضيل بن يسار، و بكير بن أعين، و محمد بن مسلم، و بريد بن معاويه، و أبي الجارود، جميعا عن أبي جعفر عليه السلام قال: أمر الله عزّ و جل رسوله بولايه علي و أنزل عليه «إِنَّمَا وَ لِيُكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ» و فرض من ولايه اولي الأمر فلم يدروا ما هي؟ فأمر الله محمدا صلى الله عليه و آله و سلم أن يفسر لهم الولايه كما فسر الصلاه

فلما أتاه ذلك من الله ضاق بذلك صدر رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و تخوف أن يرتدوا عن دينهم و أن يكذبوه، فضاق صدره و راجع ربه عزَّ و جل فأوحى الله عزَّ و جل إليه يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ، فصدع بأمر الله عز ذكره، فقام بولاية علي عليه السلام يوم غدير خم فنادى: الصلاة جامعة، و أمر الناس أن يبلغ الشاهد الغائب.

قال عمر بن اذينة: قالوا جميعا غير أبي الجارود: قال أبو جعفر عليه السلام: و كانت الفريضة الاخرى، و كانت الولاية آخر الفرائض فأنزل الله عزَّ و جل الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، قال أبو جعفر عليه السلام: يقول الله عزَّ و جل: لا- انزل عليكم بعد هذه فريضة قد أكملت لكم الفرائض.

و في البرهان و غايه المرام عن الصدوق بإسناده عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله عزَّ و جل «إِنَّمَا وَثَّقْتُكُمْ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» ، قال: إن رهطا من اليهود أسلموا منهم عبد الله بن سلام و أسد و ثعلبه و ابن يامين و ابن سوريا فأتوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقالوا: يا نبي الله إن موسى أوصى الى يوشع بن نون، فمن وصيك يا رسول الله؟ و من ولينا بعدك؟ فنزلت هذه الآية «إِنَّمَا وَثَّقْتُكُمْ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ» .

قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: قوموا فقاموا و أتوا المسجد فإذا سائل خارج فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: يا سائل هل أعطاك أحد شيئا؟ قال: نعم هذا الخاتم قال: من أعطاكه؟ قال: أعطانيه ذلك الرجل الذي يصلي؛ قال علي أي حال أعطاك؟ قال: كان راعيا فكبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و كبر أهل المسجد.

فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: علي وليكم بعدى قالوا: رضينا بالله ربا، و بمحمد نبيا، و بعلي ابن أبي

طالب وليا فأنزل الله عزّ وجل «وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» الحديث.

و في تفسير القمي قال: حدثني أبي، عن صفوان، عن أبان بن عثمان، عن أبي حمزة الثمالي، عن أبي جعفر عليه السلام: بينا رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم جالس و عنده قوم من اليهود فيهم عبد الله بن سلام إذ نزلت عليه هذه الآية فخرج رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم الى المسجد فاستقبله سائل فقال صَلَّى الله عليه وآله وسلم: هل أعطاك أحد شيئا؟ قال: نعم ذلك المصلي، فجاء رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم فإذا هو على عليه السلام.

أقول: و رواه العياشي في تفسيره عنه عليه السلام.

و في أمالي الشيخ قال: حدثنا محمد بن محمد -يعنى المفيد- قال: حدثني أبو الحسن علي بن محمد الكاتب، قال: حدثني الحسن بن علي الزعفراني، قال: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الثقفى، قال: حدثنا محمد بن علي، قال: حدثنا العباس ابن عبد الله العنبري، عن عبد الرحمن بن الأسود الكندي الشكري، عن عون بن عبيد الله، عن أبيه عن جده أبي رافع قال: دخلت على رسول الله صَلَّى الله عليه وآله وسلم يوما و هو نائم و حيه في جانب البيت فكرهت أن أقتلها و اوقظ النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم فظننت أنه يوحى اليه فاضطجعت بينه و بين الحيه فقلت: إن كان منها سوء كان إلى دونه.

فكنت هنيهة فاستيقظ النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم و هو يقرأ «إِنَّمَا وَدَّعْتُمُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا» -حتى أتى على آخر الآية- ثم قال: الحمد لله الذي أتم لعلى نعمته، و هنيهة له بفضل الله الذي آتاه، ثم قال لي: ما لك ها هنا؟ فأخبرته بخبر الحيه فقال لي: اقتلها ففعلت ثم قال لي: يا (أبا، ظ) رافع كيف أنت و قوم يقاتلون عليا و هو على الحق و هم على الباطل؟ جهادهم حقا لله عز اسمه فمن لم يستطع بقلبه، ليس وراءه شيء فقلت: يا رسول الله ادع الله لي إن أدركتهم أن يقويني على قتالهم قال: فدعا النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم و قال: إن لكل نبي أمينا، و إن أميني أبو رافع.

قال: فلما بايع الناس عليا بعد عثمان، و سار طلحه و الزبير ذكرت قول النبي صَلَّى الله عليه وآله وسلم فبعت

دارى بالمدينه و أرضا لى بخبير و خرجت بنفسى و ولدى مع أمير المؤمنين عليه السلام لأستشهد بين يديه فلم أدرك معه حتى عاد من البصره، و خرجت معه الى صفين فقلت (فقاتلت، ظ) بين يديه بها و بالنهروان أيضا، و لم أزل معه حتى استشهد على عليه السلام، فرجعت الى المدينه و ليس لى بها دار و لا- أرض فأعطانى الحسن بن على عليه السلام أرضا بينبع، و قسم لى شطر دار أمير المؤمنين عليه السلام فنزلتها و عيالى.

و فى تفسير العياشى بإسناده عن الحسن بن زيد، عن أبيه زيد بن الحسن، عن جده قال:

سمعت عمار بن ياسر يقول: وقف لعلى بن أبى طالب سائل و هو راعى فى صلاه تطوع فنزع خاتمه فأعطاه السائل فأتى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فأعلم بذلك فنزل على النبى صلى الله عليه و آله و سلم هذه الآيه «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَ رِسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ» الى آخر الآيه؛ فقرأها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم علينا ثم قال: من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، و عاد من عاداه.

و فى تفسير العياشى، عن المفضل بن صالح، عن بعض أصحابه، عن أحدهما عليهما السلام قال:

قال: إنه لما نزلت هذه الآيه «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَ رِسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» شق ذلك على النبى صلى الله عليه و آله و سلم و خشى أن تكذبه قريش فأنزل الله يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْآيَةَ؛ فقام بذلك يوم غدير خم.

و فيه عن أبى جميله عن بعض أصحابه عن أحدهما عليهما السلام قال: إن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم قال: إن الله أوحى إلى أن أحب أربعة: عليا و أبا ذر و سلمان و المقداد، فقلت: ألا- فما كان من كثره الناس أ ما كان أحد يعرف هذا الأمر؟ فقال: بلى ثلاثة قلت: هذه الآيات التى أنزلت «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَ رِسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا» و قوله: «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ» ما كان أحد يسأل فيمن نزلت؟ فقال: من ثم أتاهم لم يكونوا يسألون.

و فى غايه المرام عن الصدوق بإسناده عن أبى سعيد الوراق عن أبيه عن جعفر بن محمد

عن أبيه عن جده في حديث مناشده على عليه السّلام لأبى بكر حين ولى أبو بكر الخلافة، و ذكر عليه السّلام فضائله لأبى بكر و النصوص عليه من رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم فكان فيما قال له: فانشدك بالله ألى الولاية من الله مع و لاية رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم فى آيه زكاه الخاتم أم لك؟ قال: بل لك.

و فى مجالس الشيخ بإسناده الى أبى ذر فى حديث مناشده أمير المؤمنين عليه السّلام عثمان و الزبير و عبد الرحمن بن عوف و سعد بن أبى وقاص يوم الشورى و احتجاجه عليهم بما فيه من النصوص من رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم، و الكل منهم يصدقه عليه السّلام فيما يقوله فكان مما ذكره عليه السّلام: فهل فيكم أحد أتى الزكاه و هو راعٍ فنزلت فيه «إِنَّمَا وَثِيكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ» غيرى؟ قالوا: لا.

و فى الاحتجاج فى رساله أبى الحسن الثالث على بن محمد الهادى عليه السّلام الى أهل الأهواز حين سأله عن الجبر و التفويض:

قال عليه السّلام: اجتمعت الامة قاطبه لا- اختلاف بينهم فى ذلك: أن القرآن حق لا- ريب فيه عند جميع فرقها فهم فى حاله الاجتماع عليه مصيبون، و على تصديق ما أنزل الله مهتدون لقول النبى صلّى الله عليه و آله و سلم «لا- تجتمع امتى على ضلاله»، فأخبر عليه السّلام: أن ما اجتمعت عليه الامة و لم يخالف بعضها بعضا هو الحق، فهذا معنى الحديث لا- ما تأوله الجاهلون، و لا- ما قاله المعاندون من إبطال حكم الكتاب، و اتباع أحكام الأحاديث المزورة، و الروايات المزخرفة، و اتباع الأهواء المردئه المهلكه التى تخالف نص الكتاب، و تحقيق الآيات الواضحات النيرات، و نحن نسال الله أن يوفقنا للصلاه، و يهدينا الى الرشاد.

ثم قال عليه السّلام: فإذا شهد الكتاب بصدق خبر و تحقيقه فأنكرته طائفه من الامة عارضته بحديث من هذه الأحاديث المزورة، فصارت بإنكارها و دفعها الكتاب ضلالا، و أصح خبر مما عرف تحقيقه من الكتاب مثل الخبر المجمع عليه من رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم قال «إنى مستخلف فيكم خليفتين كتاب الله و عترتى. ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى و إنهما لن يفترقا حتى يردا

على الحوض» واللفظه الاخرى عنه فى هذا المعنى بعينه قوله صلى الله عليه وآله وسلم «إنى تارك فيكم الثقلين:

كتاب الله وعترتى أهل بيتى، وإنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض، ما إن تمسكتما بهما لن تضلوا».

وجدنا شواهد هذا الحديث نصا فى كتاب الله مثل قوله: «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ». ثم اتفقت روايات العلماء فى ذلك لأمير المؤمنين عليه السلام: أنه تصدق بخاتمه وهو راع فشكر الله ذلك له، وأنزل الآية فيه. ثم وجدنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد أبانه من أصحابه بهذه اللفظه «من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه وعاد من عاداه» وقوله صلى الله عليه وآله وسلم «على يقضى دينى، وينجز موعدى، وهو خليفتى عليكم بعدى» وقوله صلى الله عليه وآله وسلم «يا رسول الله: أ تخلفنى على النساء والصبيان؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم: أ ما ترضى أن تكون منى بمنزله هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدى؟

فعلمنا أن الكتاب شهد بتصديق هذه الأخبار، وتحقيق هذه الشواهد فيلزم الامه الإقرار بها إذا كانت هذه الأخبار وافقت القرآن فلما وجدنا ذلك موافقا لكتاب الله، ووجدنا كتاب الله موافقا لهذه الأخبار، وعليها دليلا كان الاقتداء فرضا لا يتعداه إلا أهل العناد والفساد.

وفى الاحتجاج فى حديث عن أمير المؤمنين عليه السلام: قال المنافقون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: هل بقى لربك علينا بعد الذى فرض علينا شىء آخر يفترضه فتذكر فتسكن أنفسنا الى أنه لم يبق غيره؟ فأنزل الله فى ذلك قُلْ إِنَّمَا أَعْطُكُمْ بِوَاحِدِهِ يَعْنَى الْوَلَايَةَ فَاَنْزَلَ اللَّهُ «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ»، وليس بين الامه خلاف أنه لم يؤت الزكاة يومئذ وهو راع غير رجل واحد، الحديث.

وفى الاختصاص للمفيد عن أحمد بن محمد بن عيسى، عن القاسم بن محمد الجوهري، عن

الحسن بن أبى العلاء قال: قلت لأبى عبد الله عليه السلام: الأوصياء طاعتهم مفترضة؟ فقال: نعم، هم الذين قال الله «أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ أُولَى الْأَمْرِ مِنْكُمْ» وَ هم الذين قال الله «إِنَّمَا وَدَّعْتُمُ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ» .

اقول: و رواه فى الكافى عن الحسين بن أبى العلاء عنه عليه السلام، و روى ما فى معناه عن أحمد بن عيسى عنه عليه السلام.

و إسناد نزول ما نزل فى على عليه السلام الى جميع الأئمة عليهم السلام لكونهم أهل بيت واحد، و أمرهم واحد.

و عن تفسير الثعلبى أخبرنا أبو الحسن محمد بن القاسم الفقيه قال: حدثنا عبد الله ابن أحمد الشعرانى قال: أخبرنا أبو على أحمد بن على بن رزين قال: حدثنا المظفر بن الحسن الأنصارى قال: حدثنا السرى بن على الوراق قال: حدثنا يحيى بن عبد الحميد الجمانى عن قيس بن الربيع عن الأعمش، عن عبايه بن الربعى قال: حدثنا عبد الله بن عباس رضى الله عنه و هو جالس بشفير زمزم يقول: قال رسول الله: اذ أقبل رجل معتم بعمامة فجعل ابن عباس لا يقول «قال رسول الله» إلا و قال الرجل: قال رسول الله.

فقال له ابن عباس: سألتك بالله من أنت؟ قال: فكشف العمامة عن وجهه و قال: يا أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى و من لم يعرفنى فأنا جندب بن جنادة البدرى أبو ذر الغفارى سمعت رسول الله بهاتين و إلا فصمتا، و رأيت بهاتين و إلا فعميتا يقول: على قائد البرره و قاتل الكفرة، منصور من نصره، مخذول من خذله.

أما إنى صليت مع رسول الله يوما من الأيام صلاه الظهر فسأل سائل فى المسجد فلم يعطه أحد فرفع السائل يده الى السماء و قال: اللهم اشهد أنى سألت فى مسجد رسول الله فلم يعطنى أحد شيئا، و كان على راععا فأوماً اليه بخنصره اليمنى، و كان يتختم فيها فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، و ذلك بعين النبى صلى الله عليه و آله و سلم فلما فرغ من صلاته رفع رأسه الى السماء

وقال: اللهم موسى سألك فقال: رب اشرح لي صدري، ويسر لي أمري، واحلل عقده من لساني يفقهوا قولي، واجعل لي وزيرا من أهلي هارون أخي، اشدد به أزري، وأشركه في أمري. فأُنزلت عليه قرآنا ناطقا: سنشد عضدك بأخيك، ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما بآياتنا.

اللهم و أنا محمد نبيك و صفيك، اللهم و اشرح لي صدري و يسر لي أمري، واجعل لي وزيرا من أهلي عليا اشدد به ظهري.

قال أبو ذر: فما استتم رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم الكلمه حتى نزل عليه جبرئيل من عند الله تعالى فقال: يا محمد اقرأ قال: وما أقرأ قال: اقرأ: إنما وليكم الله و رسوله و الذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاه و هم راعون.

و عن الجمع بين الصحاح الستة لزرين من الجزء الثالث في تفسير سورة المائده قوله تعالى:

«إِنَّمَا وَتِيكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ» الآية؛ من صحيح النسائي عن ابن سلام: قال أتيت رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم فقلنا: إن قومنا حادونا لما صدقنا الله و رسوله، و أفسموا أن لا يكلمونا فأنزل الله تعالى «إِنَّمَا وَتِيكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاعُونَ» الآية.

ثم أذن بلال لصلاه الظهر فقام الناس يصلون فمن بين ساجد و راع و سائل اذ سائل يسأل، و أعطى علي خاتمه و هو راع فاخبر السائل رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم فقرأ علينا رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم «إِنَّمَا وَتِيكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاعُونَ* وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهُ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ» .

و عن مناقب ابن المغازلي الشافعي في تفسير قوله تعالى: «إِنَّمَا وَتِيكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ» الآية؛ قال: أخبرنا محمد بن أحمد بن عثمان قال: أخبرنا أبو بكر أحمد بن ابراهيم بن شاذان البزاز إذنا قال: حدثنا الحسن بن علي العدوي قال: حدثنا سلمه ابن شبيب قال: حدثنا عبد الرزاق

قال: أخبرنا مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى: «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ» قال: نزلت في علي.

و عنه قال: أخبرنا أحمد بن محمد بن طاوان قال: أخبرنا أبو أحمد عمر بن عبد الله بن شوذب قال: حدثنا محمد بن أحمد العسكري الدقاق قال: حدثنا محمد بن عثمان بن أبي شيبة قال: حدثنا عباده قال: حدثنا عمر بن ثابت عن محمد بن السائب عن أبي صالح، عن ابن عباس قال: كان علي راکعاً فجاءه مسكين فأعطاه خاتمه فقال رسول الله: من أعطاك هذا؟ فقال: أعطاني هذا الراكع فأنزل الله هذه الآية «إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا» الى آخر الآية.

و عنه قال: حدثنا أحمد بن محمد بن طاوان إذنا: أن أبا أحمد عمر بن عبد الله بن شوذب أخبرهم قال: حدثنا محمد بن جعفر بن محمد العسكري قال: حدثنا محمد بن عثمان قال:

حدثنا إبراهيم بن محمد بن ميمون قال: حدثنا علي بن عابس قال: دخلت أنا و أبو مريم علي عبد الله بن عطاء، قال أبو مريم: حدث علياً بالحديث الذي حدثتني عن أبي جعفر، قال: كنت عند أبي جعفر جالسا إذ مر عليه ابن عبد الله بن سلام قلت: جعلني الله فداك، هذا ابن الذي عنده علم الكتاب؟ قال: لا و لكنه صاحبكم علي بن أبي طالب الذي أنزلت فيه آيات من كتاب الله عز و جل «وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ، أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ، إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا» الآية.

و عن الخطيب الخوارزمي في جواب مكاتبه معاوية الى عمرو بن العاص قال عمرو بن العاص: لقد علمت يا معاوية ما أنزل في كتابه من الآيات المتلوات في فضائله التي لا- يشركه فيها أحد كقوله تعالى: «يُوفُونَ بِالنَّذْرِ، إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ، أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيْتِهِ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ»، و قد قال الله تعالى: رَجُلًا صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ و قد قال الله تعالى لرسوله قُلْ لَا

أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى .

و عنه بإسناده الى أبي صالح عن ابن عباس قال: أقبل عبد الله بن سلام و معه نفر من قومه ممن قد آمن بالنبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم فقالوا: يا رسول الله إن منازلنا بعيده، و ليس لنا مجلس و لا متحدث دون هذا المجلس، و إن قومنا لما رأونا قد آمننا بالله و رسوله و قد صدقناه رفضونا، و آلوا على أنفسهم أن لا يجالسونا و لا يناكحونا و لا يكلمونا، و قد شق ذلك علينا فقال لهم النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم «إِنَّمَا وَئِيكُمُ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ» .

ثم إن النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم خرج الى المسجد و الناس بين قائم و راکع، و بصر بسائل، فقال له النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم: هل أعطاك أحد شيئاً؟ قال: نعم خاتم من ذهب، فقال له النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم: من أعطاكه؟ فقال: ذلك القائم - و أوماً بيده الى على بن أبى طالب - فقال النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم: على أى حال أعطاك؟ قال: أعطانى و هو راکع، فكبر النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم ثم قرأ «وَ مَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْعَالِيُونَ» فأنشأ حسان بن ثابت يقول:

أبا حسن تفديك نفسى و مهجتى

و كل بطيء فى الهدى و مسارع

أ يذهب مدحى و المحبين ضائعا

و ما المدح فى ذات الإله بضائع؟

فأنت الذى أعطيت اذ كنت راکعا

فدتك نفوس القوم يا خير راکع

يخاتمك الميمون يا خير سيد

و يا خير شار ثم يا خير بائع

فأنزل فيك الله خير ولايه

و بينها فى محكمات الشرائع

و عن الحموينى بإسناده الى أبى هديه إبراهيم بن هديه قال: نبأنا أنس بن مالك: أن سائلا أتى المسجد و هو يقول: من يقرض الملى الوفى؟ و على راکع يقول بيده خلفه للسائل: أن اخلع الخاتم من يدي، قال: فقال النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم: يا عمر وجبت، قال: بأبى و امى يا رسول الله ما وجبت؟ قال صَلَّى الله عليه و آله و سلم: وجبت له الجنة، و الله ما خلعه من يده حتى خلعه من كل ذنب و من كل خطيئه.

و عنه بإسناده عن زيد بن علي بن الحسين عن أبيه عن جده قال: سمعت عمار بن ياسر -رضي الله عنه- يقول: وقف لعلي بن أبي طالب سائل وهو راکع في صلاة التطوع فنزع خاتمه و أعطاه السائل، فأتي رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فأعلمه ذلك، فنزلت على النبي صلى الله عليه و آله و سلم هذه الآية «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ رَاكِعُونَ» فقرأها رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، ثم قال صلى الله عليه و آله و سلم: من كنت مولاه فعلى مولاه.

و عن الحافظ أبي نعيم عن أبي الزبير عن جابر -رضي الله عنه- قال: جاء عبد الله بن سلام و أتى معه قوم يشكون مجانبه الناس إياهم منذ أسلموا فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: ابغوا إلى سائلا فدخلنا المسجد فدنا سائل اليه فقال له: أعطاك أحد شيئا؟ قال: نعم مررت برجل راکع فأعطاني خاتمه، قال: فاذهب فأرني قال: فذهبنا فإذا على قائم، فقال: هذا؛ فنزلت «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» .

و عنه عن موسى بن قيس الحضرمي عن سلمه بن كهيل قال: تصدق على بخاتمه و هو راکع فنزلت! «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» الآية.

و عنه عن عوف بن عبيد بن أبي رافع عن أبيه عن جده قال: دخلت على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و هو نائم اذ يوحى اليه و اذا حيه في جنب البيت فكرهت أن أدخلها و اوقظه فاضطجعت بينه و بين الحيه فإن كان شيء كان في دونه، فاستيقظ و هو يتلو هذه الآية «إِنَّمَا وَرِثَكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» قال: الحمد لله فأتى الى جانبي فقال: ما اضطجعت هاهنا؟ قلت: لمكان هذه الحيه قال: قم إليها فاقتلها فقتلتها.

ثم أخذ بيدي فقال: يا أبا رافع سيكون بعدى قوم يقاتلون عليا حق على الله جهادهم، فمن لم يستطع جهادهم بيده فبلسانه، فمن لم يستطع بلسانه فبقبله ليس وراء ذلك.

أقول: و الروايات في نزول الآيتين في قصة التصديق بالخاتم كثيره أخرجنا عدة منها من كتاب غايه المرام للبحراني، و هي موجوده في الكتب المنقول عنها، و قد اقتصرنا على ما نقل

عليه من اختلاف اللحن في سرد القصة.

وقد اشترك في نقلها عدة من الصحابة كأبي ذر و ابن عباس و انس بن مالك و عمار و جابر و سلمه بن كهيل و أبي رافع و عمرو بن العاص، و علي و الحسين و كذا السجاد و الباقر و الصادق و الهادي و غيرهم من أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وقد اتفق على نقلها من غير رد أئمة التفسير المأثور كأحمد و النسائي و الطبري و الطبراني و عبد بن حميد و غيرهم من الحفاظ و أئمة الحديث و قد تسلم ورود الرواية المتكلمون، و أوردها الفقهاء في مسأله الفعل الكثير من بحث الصلاة، و في مسأله «هل تسمى صدقه التطوع زكاه» و لم يناقش في صحه انطباق الآيه على الروايه فحول الأدب من المفسرين كالزمرخشي في الكشاف و أبي حيان في تفسيره، و لا الرواه النقله و هم أهل اللسان.

فلا- يعبا بما ذكره بعضهم: أن حديث نزول الآيه في قصه الخاتم موضوع مختلق، و قد أفرط بعضهم كشيخ الإسلام ابن تيميه فادعى إجماع العلماء على كون الروايه موضوع؟ و هي من عجيب دعاوى، و قد عرفت ما هو الحق في المقام في البيان المتقدم.

[سوره المائده (٥): الآيات ٥٧ الى ٦٦]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَ لَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَ الْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُتُبَكُمْ مُؤْمِنِينَ (٥٧) وَ إِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوا هُزُؤًا وَ لَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ (٥٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَتَّقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَ مَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَ أَنْ أَكْثَرَكُمْ فَاسِقُونَ (٥٩) قُلْ هَلْ أُنبِئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَ غَضِبَ عَلَيْهِ وَ جَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَ الْخَنَازِيرَ وَ عَتِيدَ الطَّاغُوتِ أَوْلِيَاءَ شَرٌّ مَكَانًا وَ أَضَلُّ عَنِ سُبُلِ السَّبِيلِ (٦٠) وَ إِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (٦١) وَ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَ الْعَيْدُونَ وَ أَكَلِهِمُ الشُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٦٢) لَوْ لَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّائِيُونَ وَ الْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَ أَكَلِهِمُ الشُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (٦٣) وَ قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَ كُفْرًا وَ أَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَ يَسْعَوْنَ فِي الْأَمْزَاجِ فِسَادًا وَ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (٦٤) وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَ لَأَدْخَلْنَاَهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٦٥) وَ لَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَمَا كَلُوا مِنْ فَوَاحِشِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦)

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ الْخَبْرَةَ﴾ قال الراغب: الهزؤ مزح فى خفيه، و قد يقال لما هو كالمزح (انتهى)، و قال: و لعب فلان اذا كان فعلة غير قاصد به مقصدا صحيحا، يلعب لعبا، (انتهى)، و إنما يتخذ الشىء هزؤا و يستهزئ به اذا اتخذ على وصف لا يعنى بأمره اعتنا جد لإظهار أنه مما لا ينبغى أن يلتفت اليه، و كذا الشىء يلعب به اذا كان مما لا يتخذ لواحد من الأغراض الصحيحة العقلانية إلا أن يتخذ لبعض الشئون غير الحقيقة فالهزء بالدين و اللعب به إنما هما لإظهار انه لا يعدل إلا- بعض الأغراض الباطلة غير الصحيحة و غير الجديه، و لو قدروه دينا حقا أو قدروا أن مشرعه و الداعى اليه و المؤمنين به ذووا أقدام جد و صدق، و احتراموا له و لهم مكانهم لما وضعوه ذاك الموضوع فاتخاذهم الذين هزؤا و لعبا قضاء منهم بأن ليس له من الواقعيه و المكانه الحقيقيه شىء إلا أن يؤخذ به ليمزح به أو ليلعب به لعبا.

و من هنا يظهر أولا: أن ذكر اتخاذهم الدين هزؤا و لعبا فى وصف من نهى عن ولايتهم إنما هو للإشاره الى عله النهى فإن الولايه التى من لوازمها الامتزاج الروحى و التصرف فى الشئون النفسيه و الاجتماعيه لا يلائم استهزاء الولى و لعبه بما يقدهس و ليه و يحترمه و يراه أعز من كل شىء حتى من نفسه فمن الواجب أن لا يتخذ من هذا شأنه ولها، و لا يلقى أزمه التصرف فى الروح و الجسم اليه.

و ثانيا: ما فى اتخاذ وصف الإيمان فى الخطاب فى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من المناسبه لمقابلته بقوله «الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَ لَعِبًا» و كذلك ما فى إضافه الدين اليهم فى قوله: «دِينَكُمْ» .

و ثالثا: أن قوله: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ» بمنزله التأكيد لقوله: «لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا

دِينَكُمْ هُزُؤًا وَ لَعِبًا» الخ؛ بتكراره بلفظ أعم و أشمل فإن المؤمن و هو الآخذ بعروه الإيمان لا معنى لأن يرضى بالهزاء و اللعب بما آمن به فهؤلاء إن كانوا متلبسين بالإيمان-أى كان الدين لهم ديناً-لم يكن لهم بد من تقوى الله فى أمرهم أى عدم اتخاذهم أولياء.

و من المحتمل أن يكون قوله: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» إشاره الى ما ذكره تعالى من نحو قوله قبيل آيات: «وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ» و المعنى: و اتقوا الله فى اتخاذهم أولياء إن لم تكونوا منهم، و المعنى الأول لعله أظهر.

قوله تعالى: «وَ إِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُؤًا وَ لَعِبًا الخ؛ تحقيق لما ذكر أنهم يتخذون دين الذين آمنوا هزوا و لعباً، و المراد بالنداء الى الصلاة الأذان المشروع فى الإسلام قبل الصلوات المفروضة اليوميه، و لم يذكر الأذان فى القرآن الكريم إلا فى هذا الموضع - كما قيل -.

و الضمير فى قوله: «اتَّخَذُوهَا» راجع الى الصلاة أو الى المصدر المفهوم من قوله: «إِذَا نَادَيْتُمْ» أعنى المناداه، و يجوز فى الضمير العائد الى المصدر التذكير و التأنيث، و قوله: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ» تذييل يجرى مجرى الجواب عن فعلهم و بيان أن صدور هذا الفعل أعنى اتخاذ الصلاة أو الأذان هزوا و لعباً منهم إنما هو لكونهم قوما لا يعقلون فلا يسعهم أن يتحققوا ما فى هذه الأركان و الأعمال العباديه الدينيه من حقيقه العبوديه و فوائد القرب من الله، و جماع سعادته الحياه فى الدنيا و العقبى.

قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قال الراغب فى مفردات القرآن: نَقَمْتُ الشَّيْءَ (بالكسر) و نَقَمْتَهُ (بالفتح) اذا أنكرته إما باللسان و إما بالعقوبه، قال تعالى: «وَ مَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ، وَ مَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ، هَلْ تَنْقِمُونَ مِنَّا» الآية؛ و النقمه: العقوبه قال تعالى: «فَاتَّقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَعْرَفْتَاهُمْ فِي الْيَوْمِ»، انتهى.

فمعنى قوله: «هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا» الخ؛ هل تنكرون أو تكرهون منا إلا هذا الذى تشاهدونه و هو أنا آمننا بالله و ما أنزله و أنكم فاسقون؟ نظير قول القائل: هل تكره منى إلا- أنى عفيف و أنك فاجر، و هل تنكر منى إلا أنى غنى و أنك فقير؟ الى غير ذلك من موارد المقابلة و الازدواج فالمعنى: هل تنكرون منا إلا أنا مؤمنون و أن أكثركم فاسقون.

و ربما قيل: إن قوله: «وَ أَنْ أَكْثَرُكُمْ فَاسِقُونَ» بتقديم لام التعليل و المعنى: هل تنقمون منا إلا لأن أكثركم فاسقون؟

و قوله: أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ فى معنى ما انزل الينا و اليكم، و لم ينسبه اليهم تعريضا بهم كأنهم اذا لم يفوا بما عاهدوا الله عليه و لم يعملوا بما تأمرهم به كتبهم فكتبهم لم تنزل اليهم و ليسوا بأهلها.

و محصل المعنى: أنا لا نفرق بين كتاب و كتاب مما أنزله الله على رسله فلا نفرق بين رسله، و فيه تعريض لهم أنهم يفرقون بين رسل الله و يقولون: نؤمن ببعض و نكفر ببعض كما كانوا يقولون: آمنوا بما أنزل على المؤمنين وجه النهار و اكفروا آخره، قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ يَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَ نَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَ يُرِيدُونَ أَنْ يُتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا* أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَ أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا (النساء ١٥١/).

قوله تعالى: قُلْ هَلْ أُبْتِكُمْ بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ الى آخر الآية؛ ذكروا أن هذا أمر منه تعالى لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يخاطب اولئك المستهزئين اللاعبين بالدين على طريق التسليم أخذا بالنصفه فى التكليم ليلزمهم أنهم إن نقموا من المؤمنين إيمانهم بالله و ما أنزله على رسله فعليهم أن ينقموا أنفسهم لأنهم شر مكانا و أضل عن سواء السبيل لابتلائهم باللعن الإلهى و المسخ بالقرده و الخنازير و عباده الطاغوت فإذا لم ينقموا أنفسهم على ما فيهم من أسباب النقمه فليس لهم أن ينقموا من لم يبتل إلا بما هو دونه فى الشر، و هم

المؤمنون في إيمانهم على تقدير تسليم أن يكون إيمانهم بالله و كتبه شرا، و لن يكون شرا.

فالمراد بالمتوبه مطلق الجزاء، و لعلها استعيرت للعاقبه و الصفه اللازمه كما يستفاد من تقييد قوله: «بِشَرِّ مِنْ ذَلِكَ مَثُوبَهُ» بقوله «عِنْدَ اللَّهِ» فإن الذى عند الله هو أمر ثابت غير متغير و قد حكم به الله و أمر به، قال تعالى: «وَ مَا عِنْدَ اللَّهِ بِأَقْبَلُ» (النحل ٩٦/١)، و قال تعالى: «لَا مُعْتَبَ لِحُكْمِهِ» (الرعد ٤١/١)، فهذه المتوبه مثوبه لازمه لكونه عند الله سبحانه.

و فى الكلام شبه قلب، فإن مقتضى استواء الكلام أن يقال: إن اللعن و المسخ و عباده الطاغوت شر من الإيمان بالله و كتبه و أشد ضلالا، دون ان يقال: إن من لعنه الله و جعل منهم القرده و الخنازير و عبد الطاغوت شر مكانا و أضل إلا بوضع الموصوف مكان الوصف، و هو شائع فى القرآن الكريم كقوله تعالى: «وَ لَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ» الآية.

و بالجملة فمحصل المعنى أن إيماننا بالله و ما أنزله على رسله إن كان شرا عندكم فأنا اخبركم بشر من ذلك يجب عليكم أن تنقموه و هو النعت الذى فيكم.

و ربما قيل: إن الإشاره بقوله «ذلك» الى جمع المؤمنين المدلول عليه بقوله «هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا» و على هذا فالكلام على استوائه من غير قلب، و المعنى هل انبئكم بمن هو شر من المؤمنين لتنقموهم؟ و هم أنتم أنفسكم، و قد ابتليتم باللعن و المسخ و عباده الطاغوت.

و ربما قيل: إن قوله: «مِنْ ذَلِكَ» إشاره الى المصدر المدلول عليه بقوله «هَلْ تَنْقُمُونَ مِنَّا» أى هل أنبئكم بشر من نقتكم هذه مثوبه و جزاء؟ هو ما ابتليتم به من اللعن و المسخ و غير ذلك.

قوله تعالى: «وَ إِذَا جَاءُكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَ قَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ يَشِيرُ تَعَالَى إِلَى نِفَاقِ قُلُوبِهِمْ وَ إِضْمَارِهِمْ مَا لَا يَرْضِيهِ اللَّهُ سَبْحَانَهُ فِي لِقَائِهِمُ الْمُؤْمِنِينَ فَقَالَ: وَ إِذَا جَاءُكُمْ قَالُوا آمَنَّا أَى أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ وَ الْحَالُ أَنَّهُمْ قَدْ دَخَلُوا عَلَيْكُمْ

مع الكفر وقد خرجوا من عندكم بالكفر أى هم على حاله واحده عند الدخول و الخروج و هو الكفر لم يتغير عنه و إنما يظهرون الإيمان إظهاراً، والحال أن الله يعلم ما كانوا يكتُمونه سابقاً من الغدر و المكر.

فقوله «وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكَفْرِ وَ هُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ» فى معنى قولنا: لم يتغير حالهم فى الكفر، و الضمير فى قوله: «هُمْ قَدْ خَرَجُوا» جىء به للتأكيد، و إفاده تمييزهم فى الأمر و تثبيت الكفر فيهم.

و ربما قيل: إن المعنى أنهم متحولون فى أحوال الكفر المختلفه.

قوله تعالى: وَ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ الى آخر الآيه؛ الظاهر أن المراد بالإثم هو الخوض فى آيات الدين النازله على المؤمنين و القول فى معارف الدين بما يوجب الكفر و الفسوق على ما يشهد به ما فى الآيه التاليه من قوله: «عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ» .

و على هذا فالامور الثلاثه أعنى الإثم و العدوان و أكل السحت تستوعب نماذج من فسوقهم فى القول و الفعل، فهم يقتربون الذنب فى القول و هو الإثم القولى، و الذنب فى الفعل و هو إما فيما بينهم و بين المؤمنين و هو التعدى عليهم، و إما عند أنفسهم كأكلهم السحت، و هو الربا و الرشوه و نحو ذلك ثم ذم ذلك منهم بقوله «لَبَسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» ثم أتبعه بتوبيخ الربانيين و الأحبار فى سكوتهم عنهم و عدم نهيهم عن ارتكاب هذه الموبقات من الآثام و المعاصى و هم عالمون بأنها معاص و ذنوب فقال «لَوْ لَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّائِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبَسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» .

و ربما أمكن أن يستفاد من قوله: «عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ» عند تطبيقه على ما فى الآيه السابقه «يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ» حيث ترك العدوان فى الآيه الثانيه أن الإثم و العدوان شىء واحد، و هو تعدى حدود الله سبحانه قولاً تجاه المعصيه الفعلية

التي انمذجها أكلهم السحت.

فيكون المراد بقوله «يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ» إراءه سيئه قوليه منهم و هي الإثم و العدوان، و سيئه اخرى فعليه منهم و هي أكلهم السحت.

و المسارعه مبالغه في معنى السرعة و هي ضد البطيء، و الفرق بين السرعة و العجله على ما يستفاد من موارد استعمال الكلمتين أن السرعة أمس بعمل الأعضاء و العجله بعمل القلب، نظير الفرق بين الخضوع و الخشوع، و الخوف و الخشيه، قال الراغب في المفردات: السرعة ضد البطيء، و يستعمل في الأجسام و الأفعال، يقال: سرع (بضم الراء) فهو سريع و أسرع فهو مسرع، و أسرعوا صارت إليهم سراعا نحو أبلدوا، و سارعوا و تسارعوا، انتهى.

قوله تعالى: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ» كانت اليهود لا ترى جواز النسخ في الأحكام الدينيه، و لذا كانت لا تقبل بنسخ التوراه و تعير المسلمين بنسخ الأحكام، و كذا كانت لا ترى جواز البداء في القضايا التكوينية على ما يتراءى من خلال الآيات القرآنيه كما تقدم الكلام فيه في تفسير قوله تعالى: «مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا آيَةٌ (البقره ١٠٦)» في الجزء الأول من هذا الكتاب و في موارد آخر.

و الآيه أعنى قوله تعالى: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ» تقبل الانطباق على قولهم هذا غير أن ظاهر قوله تعالى جوابا عنهم: «بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ» يأبى عن ذلك، و يدل على أنهم إنما تكلموا بهذه الكلمه الأثيمه في شىء من أمر الرزق إما في خصوص المؤمنين لما في عامتهم من الفقر الشامل و العسر و ضيق المعيشه، و أنهم إنما قالوا هذا القول استهزاء بالله سبحانه إيماء الى أنه لا يقدر على إغناء عباده المؤمنين به و إنجائهم من الفقر و المذله، لكن هذا الوجه لا يناسب وقوع الآيه في سوره المائده إن كانت نازله في مطاوى سائر آياتها فإن المسلمين كانوا يوم نزولها على خصب من العيش و سعه من الرزق و رفاهيه من

و إما أنهم إنما تفوهوا بذلك لما سمعوا أمثال قوله تعالى: مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (البقره ٢٤٥/)، وقوله تعالى: وَ أَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا (المزمل ٢٠/)، فقالوا:

يد الله مغلوله لا يقدر على تحصيل ما ينفق في حوائجه لترويج دينه و إحياء دعوته. و قد قالوا ذلك سخرية و استهزاء على ما يظهر من بعض آخر مما ورد في أسباب النزول، و هذا الوجه أقرب الى النظر.

و كيف كان فهذه النسبه أعنى نسبه غل اليد و المغلوليه عند بعض الحوادث مما لا يباه تعليمهم الدينى و الآراء الموجده فى التوراه؛ فالتوراه تجوز أن يكون الامور معجزا لله سبحانه و صادا مانعا له من إنفاذ بعض ما يريد من مقاصده كالأقوياء من الانسان، يشهد بذلك ما تقصه من قصص الأنبياء كآدم و غيره.

فعندهم من وجوه الاعتقاد ما يبيح لهم أن ينسبوا إليه تعالى ما لا يناسب ساحه قدسه و كبرياء ذاته جلت عظمته و إن كانت الكلمه إنما صدرت منهم استهزاء فإن لكل فعل مبادئ فى الاعتقاد ينبعث إليه الانسان منا و يتجراً بها.

و أما قوله: «غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا» فهو دعاء عليهم بعذاب مشابه لما نسبوا إليه تعالى من النقص غير المناسب لساحه قدسه، و هو مغلوليه اليد و انسلاب القدره على ما يحبه و يشاؤه، و على هذا فقوله «وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا» عطف تفسير على قوله: «غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ» فإن مغلوليه أيديهم مصداق لعنه الله عليهم اذ القول من الله سبحانه فعل، و لعنه تعالى أحدا إنما هو تعذيبه بعذاب إما دنيوى أو أخروى فاللعن هو العذاب المساوى لغل أيديهم أو الأعم منه و من غيره.

و أما قوله: بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ فهو جواب عن قولهم «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ» مضروب فى قالب الإضراب.

و الجملة أعنى قوله: «يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ» كناية عن ثبوت القدره، و هو شائع فى الاستعمال.

و إنما قيل «يَدَاهُ» بصيغه التشبيه مع كون اليهود إنما أتوا فى قولهم «يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ» بصيغه الإفراد ليدل على كمال القدره كما ربما يستفاد من نحو قوله تعالى: قَالَ يَا إِبْرَاهِيمُ مَا مَنَّكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبِرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (ص ٧٥) لما فيه من الإشعار أو الدلاله على أعمال كمال القدره، و نحو قولهم «لا يدين بهالك» فإن ذلك مبالغه فى نفى كل قدره و نعمه.

و ربما ذكروا ليد معانى مختلفه فى اللغه غير الجارحه كالقدره و القوه و النعمه و الملك و غير ذلك، لكن الحق أن اللفظه موضوعه فى الأصل للجارحه، و إنما استعملت فى غيرها من المعانى على نحو الاستعاره لكونها من الشئون المنتسبه الى الجارحه نوعاً من الانتساب كانتساب الإنفاق و الجود الى اليد من حيث بسطها، و انتساب الملك إليها من حيث التصرف و الوضع و الرفع و غير ذلك.

فما يثبت الكتاب و السنه لله سبحانه من اليد يختلف معناه باختلاف الموارد كقوله تعالى:

«يَبْلُغُ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ» الآية؛ و قوله: أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتَ بِيَدَيَّ (ص ٧٥) يراد به القدره و كمالها، و قوله: يَبْدِكَ الْخَيْرُ (آل عمران ٢٦)، و قوله: فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (يس ٨٣)، و قوله: تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ (الملك ١)، الى غير ذلك يراد بها الملك و السلطه، و قوله: لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ (الحجرات ١) يراد بها الحضور و نحوه.

و أما قوله: «يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ» فهو بيان لقوله «يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ» .

قوله تعالى: وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَ كُفْرًا هذه الجملة و ما يتولها الى آخر الآية كلام مسرود لتوضيح قوله: «وَ قَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ»

عُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَ لُعِنُوا بِمَا قَالُوا» على ما يعطيه السياق.

فأما قوله: «وَلِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ» الخ؛ فيشير الى أن اجترأهم على الله العظيم و تفوههم بمثل قولهم «يَدُ اللَّهِ مَعْلُومَةٌ» ليس من المستبعد منهم فإن القوم متلبسون بالاعتداء و الكفر من قديم أيامهم، و قد أورتهم ذلك البغى و الحسد، و لا يؤمن من هذه سجيته اذا رأى أن الله فضل غيره عليه بما لا يقدر قدره من النعمة أن يزداد طغيانا و كفرا (1).

قوله تعالى: «وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ضمير بينهم راجع الى اليهود على ما هو ظاهر وقوع الجملة فى سياق الكلام على اليهود خاصة و إن كانت الآيات بدأت الكلام فى أهل الكتاب عامه، و على هذا فالمراد بالعداوة و البغضاء بينهم ما يرجع الى الاختلاف فى المذاهب و الآراء، و قد أشار الله سبحانه اليه فى مواضع من كلامه كقوله «لَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ» الى أن قال - فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (الجاثية / ١٧) و غير ذلك من الآيات.

و العداوة كأن المراد بها البغض الذى يستصحب التعدى فى العمل، و البغضاء هو مطلق ما فى القلب من حاله النفار و إن لم يستعقب التعدى فى العمل فيفيد اجتماعهما معنى البغض الذى يوجب الظلم على الغير و البغض الذى يقصر عنه.

و فى قوله تعالى: «إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ» ما لا يخفى من الدلالة على بقاء امتهم الى آخر الدنيا.

قوله تعالى: «كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ» إيقاد النار إشعالها، و إطفأؤها إخمادها، و المعنى واضح، و من المحتمل أن يكون قوله: «كُلَّمَا أَوْقَدُوا» الخ؛ بيانا لقوله «وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ» الخ؛ فيعود المعنى الى أنه كلما أثاروا حربا على النبي صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين

ص: ١٥٥

أطفأها الله بإلقاء الاختلاف بينهم.

و الآيه على ما يدل عليه السياق تسجل عليهم خيبه المسعى فى إيقاد النيران التى يوقدونها على دين الله سبحانه، و على المسلمين بما أنهم مؤمنون بالله و آياته، و أما الحروب التى ربما أمكن أن يوقدوا نارها لا لأمر الدين الحق بل لسياسه أو تغلب جنسى أو ملى فهى خارجه عن مساق الآيه.

قوله تعالى: وَيَسْجُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ السعى هو السير السريع، و قوله: «فَسَادًا» مفعول له أى يجتهدون لإفساد الأرض، و الله لا يحب المفسدين فلا يخليهم و أن ينالوا ما أرادوه من فساد الأرض فيخيب سعيهم، و الله أعلم.

فهذه كله بيان لكونهم غلت أيديهم و لعنوا بما قالوا، حيث إنهم غير نائلين ما قصدوه من إثارة الحروب على النبى صلى الله عليه و آله و سلم و المسلمين، و ما اجتهدوا لأجله من فساد الأرض.

قوله تعالى: وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ الخ؛ عود الى حال أهل الكتاب عامه كما كان بدأ الكلام فيهم عامه، و ختم الكلام بتخليص القول فى ما فاتهم من نعمه السعاده فى الآخره و الدنيا، و هى جنه النعيم و نعمه الحياه السعيده.

و المراد بالتقوى بعد الإيمان التورع عن محارم الله و اتقاء الذنوب التى تحتم السخط الإلهى و عذاب النار، و هى الشرك بالله و سائر الكبائر الموبقه التى أوعده الله عليها النار، فيكون المراد بالسيئات التى وعد الله سبحانه تكفيرها الصغائر من الذنوب، و ينطبق على قوله سبحانه:

إِنْ تَجَنَّبُوا كِبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا (النساء / ٣١).

قوله تعالى: وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَمَا كَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ المراد بالتوراه و الإنجيل الكتابان السماويان اللذان يذكر القرآن أن الله أنزلهما على موسى و عيسى عليهما السلام دون ما بأيدي القوم من الكتب التى

يذكر أنه لعبت بها يد التحريف.

و الظاهر أن المراد بما أنزل إليهم من ربهم سائر الكتب المنسوبة الى الأنبياء الموجوده عندهم كمزامير داود الذى يسميه القرآن بالزبور، وغيره من الكتب.

فالظاهر أن المراد بما أنزل إليهم من ربهم بعد التوراه و الإنجيل سائر الكتب و أقسام الوحي المنزله على أنبياء بنى إسرائيل كزبور داود و غيره، و المراد بإقامه هذه الكتب حفظ العمل العام بما فيها من شرائع الله تعالى، و الاعتقاد بما بين الله تعالى فيها من معارف المبدأ و المعاد من غير أن يضرب عليها بحجب التحريف و الكتمان و الترك الصريح، فلو أقاموها هذه الإقامه لأكلوا من فوقهم و من تحت أرجلهم.

و أما قوله تعالى: «لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ» فالمراد بالأكل التنعم مطلقا سواء كان بالأكل كما فى مورد الأغذيه أو بغيره كما فى غيره، و استعمال الأكل فى مطلق التصرف و التنعم من غير مزاحم شائع فى اللغه.

و المراد من فوقهم هو السماء، و من تحت أرجلهم هو الأرض، فالجمله كناية عن تنعمهم بنعم السماء و الأرض و إحاطه برعاتها عليهم نظير ما وقع فى قوله تعالى: «وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا بِرَحْمَتِنَا عَلَيْكُمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ، وَ لَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (الأعراف ٩٦)».

و الآيه من الدليل على أن الإيمان هذا النوع أعنى نوع الإنسان و أعماله الصالحه تأثيرا فى صلاح النظام الكونى من حيث ارتباطه بالنوع الإنسانى فلو صلح هذا النوع صلح نظام الدنيا من حيث إيفائه باللازم لحياه الإنسان السعيده من اندفاع النقم و وفور النعم.

قوله تعالى: «مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءٌ مَا يَعْمَلُونَ» الاقتصاد أخذ القصد و هو التوسط فى الامور، فالامه المقتصده هى المعتدله فى أمر الدين و التسليم لأمر الله.

و الكلام مستأنف اريد به بيان حال جميع ما نسب إليهم من التعدى عن حدود الله و الكفر بآيات الله و نزول السخط و اللعن على جماعتهم أن ذلك كله إنما تلبس به أكثرهم، و هو المصحح لنسبه هذه الفظائع إليهم، و أن منهم امه معتدله ليست على هذا النعت، و هذا من نصفه الكلام الإلهى حيث لا يضع حقا من الحقوق، و يراقب إحياء أمر الحق و إن كان قليلا (١).

[سوره المائده (٥): آيه ٦٧]

اشاره

يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٦٧)

بيان:

معنى الآيه فى نفسها ظاهر فإنها تتضمن أمر الرسول صلى الله عليه و آله و سلم بالتبليغ فى صورته التهديد، و وعده صلى الله عليه و آله و سلم بالعصمه من الناس، غير أن التدبر فى الآيه من حيث وقوعها موقعها الذى وقعت فيه، و قد حففتها الآيات المتعرضه لحال أهل الكتاب و ذمهم و توبيخهم بما كانوا يتعاورونه من أقسام التعدى الى محارم الله و الكفر بآياته. و قد اتصلت بها من جانبيها الآيتان، أعنى قوله: «وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ» الآيه؛ و قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ» الآيه.

ثم الإمعان فى التدبر فى نفس الآيه و ارتباط الجمل المنصوده فيها يزيد الإنسان عجا على

ص: ١٥٨

فلو كانت الآية متصله بما قبلها و ما بعدها فى سياق واحد فى أمر أهل الكتاب لكان محصلها أمر النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أشد الأمر بتبليغ ما أنزله الله سبحانه فى أمر أهل الكتاب، و تعين بحسب السياق أن المراد بما انزل إليه من ربه هو ما يأمره بتبليغه فى قوله: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التُّورَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ» الآية.

و سياق الآية ياباه فإن قوله: «وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» يدل على أن هذا الحكم المنزل المأمور بتبليغه أمر مهم فيه مخافه الخطر على نفس النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أو على دين الله تعالى من حيث نجاح تبليغه، و لم يكن من شأن اليهود و لا النصرارى فى عهد النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أن يتوجه اليه من ناحيتهم خطر يسوغ له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أن يمسك عن التبليغ أو يؤخره الى حين فيبلغ الأمر الى حيث يحتاج الى أن يعده الله بالعصمه منهم إن بلغ ما امر به فيهم حتى فى أوائل هجرته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم الى المدينه و عنده حده اليهود و شدتهم حتى انتهى الى وقائع خبير و غيرها.

على أن الآية لا تتضمن أمرا شديدا و لا قولاً حادا، و قد تقدم عليه تبليغ ما هو أشدّ و أحدّ و أمرّ من ذلك على اليهود، و قد أمر النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بتبليغ ما هو أشد من ذلك كتبليغ التوحيد و نفى الوثنيه الى كفار قريش و مشركى العرب و هم أغلظ جانبا و أشد بطشا و أسفك للدماء، و أفتك من اليهود و سائر أهل الكتاب، و لم يهدده الله فى أمر تبليغهم و لا آمنه بالعصمه منهم.

على أن الآيات المتعرضه لحال أهل الكتاب معظم أجزاء سورة المائده فهى نازله فيها قطعاً، و اليهود كانت عند نزول هذه السوره قد كسرت سورتهم، و خمدت نيرانهم، و شملتهم السخطه و اللعنه كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفالها الله فلا معنى لخوف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم منهم فى دين الله، و قد دخلوا يومئذ فى السلم فى حظيره الإسلام و قبلوا هم و النصرارى الجزيه، و لا معنى لتقريره تعالى له خوفه منهم و اضطرابه فى تبليغ أمر الله اليهم، و هو أمر قد بلغ اليهم ما هو أعظم منه، و قد وقف قبل هذا الموقف فيما هو أهول منه و أوحش.

فلا ينبغي الارتياح في أن الآيه لا تشارك الآيات السابقه عليها و اللاحقه لها في سياقها، و لا تتصل بها في سردها، و إنما هي آيه مفرده نزلت وحدها.

و الآيه تكشف عن أمر قد انزل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ (إما مجموع الدين أو بعض أجزائه) و كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ يخاف الناس من تبيغته و يؤخره الى حين يناسبه، و لو لا مخافته و إمساكه لم يحتج الى تهديده بقوله «وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ» كما وقع في آيات أول البعثه الخاليه عن التهديد كقوله تعالى: «إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ إِلَى آخِرِ سُورَةِ الْعَلَقِ، وَ قَوْلِهِ: يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ (المدثر ٢/٢)، وَ قَوْلِهِ: فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَ اسْتَغْفِرُوا وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (حم السجده ٦/٦) الى غير ذلك.

فهو صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كان يخافهم و لم يكن مخافته من نفسه في جنب الله سبحانه فهو أجل من أن يستنكف عن تفديه نفسه أو يبخل في شيء من أمر الله بمهجته فهذا شيء تكذبه سيرته الشريفة و مظاهر حياته، على أن الله شهد في رسوله على خلاف ذلك كما قال تعالى: «مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سِنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَ كَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا * الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَ كَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا

(الأحزاب ٣٩/٣٩)، و قد قال تعالى في أمثال هذه الفروض: «فَلَا تَخَافُوهُمْ وَ خَافُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (آل عمران ١٧٥/١٧٥)، و قد مدح الله سبحانه طائفه من عباده بأنهم لم يخشوا الناس في عين أن الناس خوفوهم فقال: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَ قَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَ نِعْمَ الْوَكِيلُ (آل عمران ١٧٣/١٧٣).

و ليس من الجائز أن يقال: إنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ كان يخاف على نفسه أن يقتلوه فيبطل بذلك أثر الدعوه و ينقطع دابرها فكان يعوقه الى حين ليس فيه هذه المفسده فإن الله سبحانه يقول له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ (آل عمران ١٢٨/١٢٨)، لم يكن الله سبحانه يعجزه لو قتلوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أن يحيى دعوته بأى وسيله من الوسائل شاء، و بأى سبب أراد.

نعم من الممكن أن يقدر لمعنى قوله: «وَاللَّهُ يَعْصِي مِمنَ النَّاسِ» أن يكون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يخاف الناس في أمر تبليغه أن يتهموه بما يفسد به الدعوه فسادا لا تنجح معه أبدا فقد كان أمثال هذا الرأي و الاجتهاد جائزا له مأذونا فيه من دون أن يرجع معنى الخوف الى نفسه بشيء.

□
و من هنا يظهر أن الآيه لم تنزل في بدء البعثه كما يراه بعض المفسرين إذ لا معنى حينئذ لقوله تعالى: «وَاللَّهُ يَعْصِي مِمنَ النَّاسِ» إلا أن يكون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يماطل في إنجاز التبليغ خوفا من الناس على نفسه أن يقتلوه فيحرم الحياه أو أن يقتلوه و يذهب التبليغ باطلا لا أثر له فإن ذلك كله لا سبيل الى احتماله.

على أن المراد بما أنزل اليه من ربه لو كان أصل الدين أو مجموعته في الآيه عاد معنى قوله:

«وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ» الى نحو قولنا: يا أيها الرسول بلغ الدين و إن لم تبلغ الدين فما بلغت الدين.

و أما جعله من قبيل قول أبي النجم:

أنا أبو النجم و شعري شعري

كما ذكره بعضهم أن معنى الآيه: و إن لم تبلغ الرسالة فقد لزمك شناعه القصور في التبليغ و الإهمال في المسارعه الى ائتمار ما أمرك به الله سبحانه، و أكده عليك كما أن معنى قول أبي النجم: أنى أنا أبو النجم و شعري شعري المعروف بالبلاغه المشهور بالبراعه.

فإن ذلك فاسد لأن هذه الصناعه الكلاميه إنما تصح في موارد العام و الخاص و المطلق و المقيد و نظائر ذلك فيفاد بهذا السياق اتحادهما كقول أبي النجم: شعري شعري أى لا ينبغي أن يتوهم على متوهم أن قريحتى كُلت أو أن الحوادث أعتنى أن أقول من الشعر ما كنت أقوله فشعري الذى أقوله اليوم هو شعري الذى كنت أقوله بالأمس.

و أما قوله تعالى: «وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ» فليس يجرى فيه مثل هذه العناية فإن

الرسالة التي هي مجموع الدين أو أصله على تقدير نزول الآية في أول البعثة أمر واحد غير مختلف ولا متغير حتى يصح أن يقال: إن لم تبلغ هذه الرسالة فما بلغت تلك الرسالة أو لم تبلغ أصل الرسالة فإن المفروض أنه أصل الرسالة التي هي مجموع المعارف الدينية.

فقد تبين أن الآية بسياقها لا تصلح أن تكون نازله في بدء البعثة و يكون المراد فيها بما أنزل الى الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مجموع الدين أو أصله، و يتبين بذلك أنها لا تصلح أن تكون نازله في خصوص تبليغ مجموع الدين أو أصله في أى وقت آخر غير بدء البعثة فإن الإشكال إنما ينشأ من جهة لزوم اللغو في قوله تعالى: «وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ» كما مر.

على أن قوله: «إِنَّمَا أُتِيهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» لا يلائم النزول في أى وقت آخر غير بدء البعثة على تقدير إرادته الرسالة بمجموع الدين أو أصله، وهو ظاهر.

على أن محذور دلالة قوله: «وَاللَّهُ يَعِصُكُمْ مِنَ النَّاسِ» على أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان يخاف الناس في تبليغه على حاله.

فظهر أن ليس هذا الأمر الذى أنزل على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وأكد الآية تبليغه هو مجموع الدين أو أصله على جميع تقاديره المفروضه، فلنضع أنه بعض الدين، والمعنى: بلغ الحكم الذى أنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته، الخ؛ و لازم هذا التقدير أن يكون المراد بالرسالة مجموع ما حملة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من الدين و رسالته، وإلا فالمحذور السابق و هو لزوم اللغو فى الكلام على حاله اذ لو كان المراد بقوله «رِسَالَتُهُ» الرسالة الخاصة بهذا الحكم كان المعنى: بلغ هذا الحكم و إن لم تبلغه فما بلغت، وهو لغو ظاهر.

فالمراد أن بلغ هذا الحكم و إن لم تبلغه فما بلغت أصل رسالته أو مجموعها، و هو معنى صحيح معقول، و حينئذ يرد الكلام نظير المورد الذى ورده قول أبى النجم «أنا أبو النجم و شعرى شعرى».

و أما كون هذا الحكم بحيث لو لم يبلغ فكأنما لم تبلغ الرسالة فإنما ذلك لكون المعارف

و الأحكام الدينيه مرتبطه بعضها ببعض بحيث لو أخل بأمر واحد منها أخل بجميعها و خاصه فى التبليغ لكمال الارتباط، و هذا التقدير و إن كان فى نفسه مما لا بأس به لكن ذيل الآيه و هو قوله: «وَ اللَّهُ يَعْصِي مَمَكٌ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» لا يلائمه فإن هذا الذيل يكشف عن أنّ قوما كافرين من الناس هموا بمخالفه هذا الحكم النازل أو كان المترقب من حالهم أنهم سيخالفونه مخالفه شديده، و يتخذون أى تدبير يستطيعونه لإبطال هذه الدعوه و تركه سدى لا يؤثر أثرا و لا ينفع شيئا و قد وعد الله رسوله أن يعصمه منهم، و يبطل مكرهم، و لا يهديهم فى كيدهم.

و لا يستقم هذا المعنى مع أى حكم نازل فرض فإن المعارف و الأحكام الدينيه فى الإسلام ليست جميعا فى درجه واحده ففيها التى هى عمود الدين، و فيها الدعاء عند رؤيه الهلال، و فيها زنى المحصن و فيها النظر الى الأجنبية، و لا يصح فرض هذه المخافه من النبى صلى الله عليه و آله و سلم و الوعد بالعصمه من الله مع كل حكم حكم منها كيفما كان بل فى بعض الأحكام.

فليس استلزام عدم تبليغ هذا الحكم لعدم تبليغ غيره من الأحكام إلا لمكان أهميته و وقوعه من الأحكام فى موقع لو أهمل أمره كان ذلك فى الحقيقه إهمالا لأمر سائر الأحكام، و صيرورتها كالجسد العادم للروح التى بها الحياه الباقية و الحس و الحركه، و تكون الآيه حينئذ كاشفه عن أن الله سبحانه كان قد أمر رسوله صلى الله عليه و آله و سلم بحكم يتم به أمر الدين و يستوى به على عريشه القرار، و كان من المترقب أن يخالفه الناس و يقبلوا الأمر على النبى صلى الله عليه و آله و سلم بحيث تنهدم أركان ما بناه من بنیان الدين و تتلاشى أجزاءه، و كان النبى صلى الله عليه و آله و سلم يتفرس ذلك و يخافهم على دعوته فيؤخر تبليغه الى حين بعد حين ليجد له طرفا صالحا و جوا آمنا عسى أن تنجح فيه دعوته، و لا يخيب مسعاه فأمره الله تعالى بتبليغ عاجل، و بين له أهميه الحكم، و وعده أن يعصمه من الناس، و لا يهديهم فى كيدهم، و لا يدعهم يقبلوا له أمر الدعوه.

و إنما يتصور تقلب أمر الدعوه على النبى صلى الله عليه و آله و سلم و إبطال عمله بعد انتشار الدعوه

الإسلاميه لا من جانب المشركين و وثنيه العرب أو غيرهم كأن تكون الآيه نازله فى مكه قبل الهجره، و تكون مخافه النبى صلى الله عليه و آله و سلم من الناس من جهه افتراءهم عليه و اتهامهم إياه فى أمره كما حكاه الله سبحانه من قولهم مُعَلِّمٌ مَّجْنُونٌ (الدخان ١٤/) و قولهم شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَبِّبَ الْمَنُونِ (الطور ٣٠/)، و قولهم سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (الذاريات ٥٢/) و قولهم: إِنَّ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا (الإسراء ٤٧/) و قولهم إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ (المدثر ٢٤/) و قولهم أَسْدَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلِّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أَصِيلًا (الفرقان ٥/) و قولهم إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ (النحل ١٠٣/) و قولهم: أَنْ اْمشُوا وَ اصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ (ص ٦/) الى غير ذلك من أقاويلهم فيه صلى الله عليه و آله و سلم.

فهذه كلها ليست مما يوجب وهن قاعده الدين، و إنما تدل-إذا دلت-على اضطراب القوم فى أمرهم، و عدم استقامتهم فيه على أن هذه الافتراءات و المرامى لا-تختص بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم حتى يضطرب عند تفرسها و يخاف وقوعها فسائر الأنبياء و الرسل يشاركونه فى الابتلاء-بهذه البلىا و المحن، و مواجهه هذه المكاره من جمله امهم كما حكاه الله تعالى عن نوح و من بعده من الأنبياء المذكورين فى القرآن.

بل إن كان شىء-و لا بد-فإنما يتصور بعد الهجره و استقرار أمر الدين فى المجتمع الإسلامى و المسلمون كالمعجون الخليط من صلحاء مؤمنين و قوم منافقين اولى قوه لا يستهان بأمرهم، و آخرين فى قلوبهم مرض و هم سماعون-كما نص عليه الكتاب العزيز-و هؤلاء كانوا يعاملون مع النبى صلى الله عليه و آله و سلم-فى عين أنهم آمنوا به واقعا أو ظاهرا-معامله الملوك، و مع دين الله معامله القوانين الوضعيه القوميه كما يشعر بذلك طوائف من آيات الكتاب قد تقدم تفسير بعضها فى الأجزاء السابقه من هذا الكتاب (١).

ص: ١٦٤

فكان من الممكن أن يكون تبليغ بعض الأحكام مما يوقع في الوهم انتفاع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بتشريعه وإجرائه يستوجب أن يقع في قلوبهم أنه ملك في صورة النبوه وقانون ملكي في هيئته الدين كما ربما وجد بعض شواهد ذلك في مطاوي كلمات بعضهم (١).

وهذه شبهه لو كانت وقعت هي أو ما يماثلها في قلوبهم أَلقت الى الدين من الفساد والضيعة ما لا يدفعه أي قوه دافعه، ولا يصلحه أي تدبير مصلح فليس هذا الحكم النازل المأمور بتبليغه إلا حكما فيه توهم انتفاع للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، واختصاص له بمزيه من المزايا الحيويه لا يشاركه فيها غيره من سائر المسلمين، نظير ما في قصه زيد وتعدد الأزواج والاختصاص بخمس الغنائم ونظائر ذلك.

غير أن الخصائص اذا كانت مما لا- تمس فيه عامه المسلمين لم يكن من طبعها إثارة الشبهه في القلوب فإن الازدواج بزوجه المدعو ابنا مثلا لم يكن يختص به و الازدواج بأكثر من أربع نسوه لو كان تجويزه لنفسه عن هوى بغير إذن الله سبحانه لم يكن يمنعه أن يجوّز مثل ذلك لسائر المسلمين، وسيرته في إثارة المسلمين على نفسه في ما كان يأخذه لله ولنفسه من الأموال ونظائر هذه الامور لا تدع ريبا لمرتاب ولا يشتهه أمرها لمشتبه دون أن تزول الشبهه.

فقد ظهر من جميع ما تقدم أن الآيه تكشف عن حكم نازل فيه شوب انتفاع للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، واختصاصه بمزيه حيويه مطلوبه لغيره أيضا يوجب تبليغه والعمل به حرمان الناس عنه فكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يخاف إظهاره فأمره الله بتبليغه و شدد فيه، و وعدة العصمه من الناس و عدم هدايتهم في كيدهم إن كادوا فيه.

وهذا يؤيد ما وردت به النصوص من طرق الفريقين أن الآيه نزلت في أمر ولايه على عليه السلام، وان الله أمر بتبليغها وكان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يخاف أن يتهموه في ابن عمه، و يؤخر تبليغها وقتا الى

ص: ١٦٥

(١-١). كما يذكر عن أبي سفيان في كلمات قالها في مجلس عثمان حينما تم له أمر الخلافة.

وقت حتى نزلت الآية فبلغها بغدير خم، وقال فيه: من كنت مولاه فهذا علي مولاه.

و كون ولايه امر الامه مما لا غنى للدين عنه ظاهر لا ستر عليه، وكيف يسوغ لمتوهم أن يتوهم أن الدين الذي يقرر بسعته لعامه البشر في عامه الأعصار و الأقطار جميع ما يتعلق بالمعارف الأصلية، و الاصول الخلقية، و الأحكام الفرعية العامه لجميع حركات الإنسان و سكناته، فرادى و مجتمعين على خلاف جميع القوانين العامه لا- يحتاج الى حافظ يحفظه حق الحفظ؟ أو ان الامه الإسلاميه و المجتمع الديني مستثنى من بين جميع المجتمعات الإنسانيه مستغنيه عن وال يتولى أمرها و مدبر يدبرها و مجر يجرها؟ و بأى عذر يمكن أن يعتذر الى الباحث عن سيره النبي الاجتماعيه؟ حيث يرى أنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان اذا خرج الى غزوه خلف مكانه رجلا يدير رحي المجتمع، و قد خلف عليا مكانه على المدينه عند مسيره الى تبوك فقال: يا رسول الله أ تخلفني على النساء و الصبيان؟ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: اما ترضى ان تكون منى بمنزله هارون من موسى إلا انه لا نبي بعدي؟

و كان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ينصب الولاة الحكام فى ما بيد المسلمين من البلاد كمكه و الطائف و اليمن و غيرها، و يؤمّر رجالا- على السرايا و الجيوش التى يبعثها الى الأطراف، و أى فرق بين زمان حياته و ما بعد مماته دون أن الحاجه الى ذلك بعد غيبته بالموت أشد، و الضروره اليه أمس ثم أمس.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ خَاطِبُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالرساله لكونها أنسب الصفات الى ما تتضمنه الآيه من الأمر بالتبليغ لحكم الله النازل فهو كالبرهان على وجوب التبليغ الذى تظهره الآيه و تفرعه سمع رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فإن الرسول لا شأن له إلا تبليغ ما حمل من الرساله فتحمل الرساله يفرض عليه القيام بالتبليغ.

و لم يصرح باسم هذا الذى أنزل اليه من ربه بل عبر عنه بالنعته و أنه شىء أنزل اليه، إشعارا بتعظيمه و دلالة على أنه أمر ليس فيه لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ صنع، و لاله من أمره شىء

ليكون كبرهان آخر على عدم خيره منه صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم في كتمانته وتأخيره تبليغه، ويكون له عذرا في إظهاره على الناس، وتلويحها الي أنه صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم مصيب في ما تفرسه منهم و تخوف عليه، وإيماء الي أنه مما يجب أن يظهر من ناحيته صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم و بلسانه و بيانه.

قوله تعالى: **وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ** المراد بقوله «**رِسَالَتَهُ**» و قرئ «رسالاته» كما تقدم مجموع رسالات الله سبحانه التي حملها رسوله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم، وقد تقدم أن الكلام يفيد أهميه هذا الحكم المرموز اليه، وأن له من المكانه ما لو يبلغه كان كأن لم يبلغ شيئا من الرسالات التي حملها.

فالكلام موضوع في صورته التهديد، و حقيقته بيان أهميه الحكم، و أنه بحيث لو لم يصل الي الناس، و لم يراع حقه كان كأن لم يراع حق شيء من أجزاء الدين فقوله **«وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ»** جملة شرطيه سيقت لبيان أهميه الشرط وجودا و عدما لترتب الجزاء الأهم عليه وجودا و عدما.

و ليست شرطيه مسوقه على طبع الشرطيات الدائره عندنا فإننا نستعمل «**إِنْ**» الشرطيه طبعاً فيما نجعل تحقق الجزاء للجهل بتحقق الشرط، و حاشا ساحه النبي صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم من أن يقدر القرآن في حقه احتمال ان يبلغ الحكم النازل عليه من ربه و أن لا يبلغ، و قد قال تعالى: **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** (الأنعام ١٢٤).

فالجمله أعنى قوله: **«وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ»** الخ؛ إنما تفيد التهديد بظاها و تفيد إعلامه عليه السّلام و إعلام غيره ما لهذا الحكم من الأهميه، و أن الرسول معذور في تبليغه.

قوله تعالى: **وَ اللَّهُ يَعْصِي مِمْكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ** قال الراغب: العصم (بالفتح فالسكون) الإمساك و الاعتصام الاستمساك- الي أن قال- و العصام (بالكسر) ما يعتصم به أى يشد، و عصمه الأنبياء حفظه إياهم أولاً بما خصهم به من صفاء الجوهر، ثم بما أولاهم من الفضائل الجسميه و النفسيه، ثم بالنصره و بتثيت أقدامهم، ثم

بإنزال السكينه عليهم و بحفظ قلوبهم و بالتوفيق قال تعالى: «وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» .

و العصمه شبه السوار، و المعصم موضعها من اليد، و قيل للبياض بالرسغ عصمه تشبيها، و ذلك كتسميه البياض بالرجل تحجيلا، و على هذا قيل: غراب أعصم، انتهى.

و ما ذكره من معنى عصمه الأنبياء حسن لا بأس به غير أنه لا ينطبق على الآيه «وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» بل لو انطبق فإنما ينطبق على مثل قوله: «وَمَا يَصُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ عَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَ كَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا (النساء / ١١٣)» .

و أما قوله: «وَاللَّهُ يَعَصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» فإن ظاهره أنها عصمه بمعنى الحفظ و الوقايه من شر الناس المتوجه الى نفس النبي الشريفه أو مقاصده الدينيه أو نجاح تبليغه و فلاح سعيه، و بالجمله المعنى المناسب لساحته المقدسه.

و كيف كان فالمتحصل من موارد استعمال الكلمه أنها بمعنى الإمساك و القبض فاستعماله فى معنى الحفظ من قبيل استعاره اللازم لملزومه فإن الحفظ يلزمه القبض.

و كان تعليق العصمه بالناس من دون بيان أن العصمه من أى شأن من شئون الناس كتعدياتهم بالايذاء فى الجسم من قتل أو سم أو أى اغتيال، أو بالقول كالسب و الافتراء، أو بغير ذلك كتقليب الامور بنوع من المكر و الخديعه و المكيد و بالجمله السكوت عن تشخيص ما يعصم منه لإفاده نوع من التعميم، و لكن الذى لا يعدو عنه السياق هو شرهم الذى يوجب انقلاب الأمر على النبي صلى الله عليه و آله و سلم بحيث يسقط بذلك ما رفعه من أعلام الدين.

و الناس مطلق من وجد فيه معنى الإنسانيه من دون أن يعتبر شىء من خصوصياته الطبيعیه التكوينية كالمذكوره و الأنوثه أو غير الطبيعیه كالعلم و الفضل و الغنى و غير ذلك.

و لذلك قل ما ينطبق على غير الجماعه، و لذلك أيضا ربما دل على الفضلاء من الإنسان اذا كان الفضل روعى فيه وجود معنى الانسانيه كقوله تعالى: «إِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ» أى

الذين وجد فيهم معنى الإنسانيه، و هو ملاك درك الحق و تمييزه من الباطل.

و ربما كان دالا- على نوع من الخسه و سقوط الحال، و ذلك اذا كان الأمر الذى يتكلم فيه مما يحتاج الى اعتبار شىء من الفضائل الانسانيه التى اعتبرت زائده على أصل معنى النوع كقوله **وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** (الروم ٣٠) و كقولك: لا تنقل بمواعيد الناس، و لا- تستظهر بسوادهم نظرا منك الى أن الوثوق و الاستظهار يجب أن يتعلقا بالفضلاء من الانسان ذوى ملكه الوفاء بالعهد و الثبات على العزيمه لا على من ليس له إلا مجرد صدق اسم الانسانيه، و ربما لم يفد شيئا من مدح أو ذم اذا تعلق الغرض بما لا- يزيد على أصل معنى الإنسانيه كقوله تعالى: **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَ جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** (الحجرات ١٣).

و لعل قوله: **«وَاللَّهُ يَعْصِي مُمْكَ مِنَ النَّاسِ»** أخذ فيه لفظ الناس اعتبارا بسواد الأفراد الذى فيه المؤمن و المنافق و الذى فى قلبه مرض، و قد اختلطوا من دون تمايزه، فاذا خيف خيف من عامته، و ربما أشعر به قول **«إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ»** فإن الجملة فى مقام التعليل لقوله **«وَاللَّهُ يَعْصِي مُمْكَ مِنَ النَّاسِ»** و قد تقدم أيضا أن الآيه نزلت بعد الهجره و ظهور شوكة الاسلام، و كان السواد الأعظم من الناس مسلمين بحسب الظاهر و إن كان فيهم المنافقون و غيرهم.

فالمراد بالقوم الكافرين قوم هم فى الناس مذكورى النعت ممحوى الاسم وعد الله سبحانه أن يبطل كيدهم و يعصم رسوله صلى الله عليه و آله و سلم من شرهم.

و الظاهر أيضا أن يكون المراد بالكفر الكفر بآيه من آيات الله و هو الحكم المراد بقوله **«مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ»**، كما فى قوله فى آيه الحج: **وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ** (آل عمران ٩٧)، و أما الكفر بمعنى الاستكبار عن أصل الشهادتين فإنه مما لا يناسب مورد الآيه البتة إلا- على القول بكون المراد بقوله **«أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ»** مجموع رسالات الدين، و قد عرفت عدم استقامته.

و المراد بعدم هدايته تعالى هؤلاء القوم الكافرين عدم هدايته إياهم في كيدهم و مكرهم، و منعه الأسباب الجارية أن تنقاد لهم في سلوكهم الى ما يرومونه من الشر و الفساد نظير قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (المنافقون ٦/٦)، و قوله تعالى: وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (البقره ٢٥٨/٢٥٨)، و قد تقدم البحث عنه في الجزء الثاني من هذا الكتاب.

و أما كون المراد بعدم الهدايه هو عدم الهدايه الى الإيمان فغير صحيح البتة لمنافاته أصل التبليغ و الدعوه فلا يستقيم أن يقال: ادعهم الى الله أو الى حكم الله و أنا لا أهديهم اليه إلا في مورد إتمام الحجه محضاً.

على أن الله سبحانه قد هدى و لا يزال يهدى كثيرين من الكفار بدليل العيان، و قد قال أيضاً وَ اللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (البقره ٢١٣/٢١٣).

فتبين أن المراد بعدم هدايه الكافرين عدم تخليتهم لinalوا ما يهيمون به من إبطال كلمه الحق و إطفاء نور الحكم المنزل فإن الكافرين و كذا الظالمين و الفاسقين يريدون بشآمه أنفسهم و ضلال رأيهم أن يبدلوا سنه الله الجارية في الخلقه و سياقه الأسباب السالكة الى مسبباتها و يغيروا مجارى الأسباب الحقه الظاهره عن سمه عصيان رب العالمين الى غايتهم الفاسده مقاصدهم الباطله الله رب العالمين لن يعجزه قواهم الصوريه التي لم يودعها فيهم و لم يقدرها في بناهم إلا هو.

فهم ربما تقدموا في مساعيهم أحياناً، و نالوا ما راموه أوينات و استعلوا و استقام أمرهم برهه لكنه لا يلبث دون أن يبطل أخيراً و ينقلب عليهم مكرهم و لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، و كذلك يضرب الله الحق و الباطل فأما الباطل فيذهب جفاء، و أما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض.

و على هذا فقوله «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» تفسير قوله: «وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ» بالتصرف في سعه إطلاقه، و يكون المراد بالعصمه عصمته صلى الله عليه و آله و سلم من أن يناله الناس

بسوء دون أن ينال بغيته في تبليغ هذا الحكم و تقريره بين الامه كأن يقتلوه دون أن يبلغه أو يثوروا عليه و يقبلوا عليه الامور أو يتهموه بما يرتد به المؤمنون عن دينه، أو يكيدوا كيدا يميت هذا الحكم و يقبره بل الله يظهر كلمه الحق و يقيم الدين على ما شاء و أينما شاء و متى ما شاء و فيمن شاء، قال تعالى: **إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَ كَانَ اللَّهُ عَلِيمًا ذَكِيمًا** (النساء ١٣٣).

و أما أخذ الآيه أعنى قوله: **«وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ»** بإطلاقه على ما فيه من السعه و الشمول فمما ينافيه القرآن و المأثور من الحديث و التاريخ القطعى، و قد نال صلى الله عليه و آله و سلم من امته أعم من كفارهم و مؤمنهم و منافقيهم من المصائب و المحن و أنواع الزجر و الأذى ما ليس فى وسع أحد أن يتحملة إلا نفسه الشريفه، و قد قال صلى الله عليه و آله و سلم - كما فى الحديث المشهور - ما اودى نبي مثل ما اوديت قط.

بحث روائى:

فى تفسير العياشى عن أبى صالح، عن ابن عباس و جابر بن عبد الله قالوا: أمر الله تعالى نبيه محمدا صلى الله عليه و آله و سلم أن ينصب عليا علما فى الناس ليخبرهم بولايته فتخوف رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أن يقولوا: حابى (١) ابن عمه و أن يطعنوا (٢) فى ذلك عليه. قال: فأوحى الله اليه هذه الآيه **«إِنَّمَا أَنزَلْنَا إِلَيْهَا الرُّسُولَ لِيُبَلِّغَ مَا نُزِّلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنَّا لَمَّا تَفَعَّلْنَا مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ»** فقام رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم بولايته يوم غدير خم.

و فيه عن حنان بن سدير، عن أبيه عن أبى جعفر عليه السلام قال: لما نزل جبرئيل على عهد رسول

ص: ١٧١

١-١. جاءنا، خ ل.

٢-٢. يطغوا، خ ل.

اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِي حُجَّةِ الْوُدَّاعِ بِإِعْلَانِ أَمْرِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ. قَالَ: فَمَكَثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثًا حَتَّى أَتَى الْجَحْفَةَ فَلَمْ يَأْخُذْ بِيَدِهِ فَرَقَا مِنَ النَّاسِ.

فَلَمَّا نَزَلَ الْجَحْفَةَ يَوْمَ غَدِيرِ فِي مَكَانٍ يُقَالُ لَهُ «مَهْيَعُهُ» فَنَادَى: الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ، فَاجْتَمَعَ النَّاسُ فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: مَنْ أَوْلَى بِكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ؟ فَجَهَرُوا فَقَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ ثُمَّ قَالَ لَهُمُ الثَّانِيَةَ، فَقَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ، ثُمَّ قَالَ لَهُمُ الثَّلَاثَةَ، فَقَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ.

فَأَخَذَ بِيَدِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلَى مَوْلَاهُ، اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادَ مِنْ عَادَاهُ، وَانصُرْ مَنْ نَصَرَهُ، وَاخْذَلْ مَنْ خَذَلَهُ فَإِنَّهُ مِنِّي وَ أَنَا مِنْهُ، وَهُوَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي.

وَفِيهِ عَنْ أَبِي الْجَارُودِ، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: لَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَ اللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» قَالَ: فَأَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِيَدِ عَلِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مِمَّنْ كَانَ قَبْلِي إِلَّا وَ قَدْ عَمِرَ ثُمَّ دَعَاهُ فَأَجَابَهُ، وَ أَوْشَكَ أَنْ أَدْعَى فَاجِيبٌ، وَ أَنَا مُسْتَوِلٌ وَ أَنْتُمْ مُسْتَوِلُونَ فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟ فَقَالُوا: نَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَلَّغْتَ وَ نَصَحْتَ وَ أَدَيْتَ مَا عَلَيْكَ فَجَزَاكَ اللَّهُ أَفْضَلَ مَا جَزَى الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ.

ثُمَّ قَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ لِيَبْلُغَ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ أَوْصِي مِنْ آمَنَ بِي وَ صَدَقَنِي بِوَلَايَةِ عَلِيٍّ، أَلَا إِنَّ وِلَايَةَ عَلِيٍّ وَ لَايَتِي عَهْدَا عَهْدَهُ إِلَى رَبِّي وَ أَمْرُنِي أَنْ أَبْلُغَكُمْوَهُ، ثُمَّ قَالَ: هَلْ سَمِعْتُمْ؟ -ثَلَاثَ مَرَّاتٍ يَقُولُهَا- فَقَالَ قَائِلٌ: قَدْ سَمِعْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ.

وَ فِي الْبَصَائِرِ بِإِسْنَادِهِ عَنِ الْفَضِيلِ بْنِ يَسَارٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي قَوْلِهِ: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَ إِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ» قَالَ: هِيَ الْوَلَايَةُ.

أَقُولُ: وَ رَوَى نَزُولَ الْآيَةِ فِي أَمْرِ الْوَلَايَةِ وَ قِصَّةِ الْغَدِيرِ مَعَهُ الْكَلْبِيِّ فِي الْكَافِي بِإِسْنَادِهِ، عَنْ

أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السّلام في حديث طويل، وروى هذا المعنى الصدوق في المعاني بإسناده عن محمد بن الفيض بن المختار، عن أبيه عن أبي جعفر عليه السّلام في حديث طويل، ورواه العياشي أيضا عن أبي الجارود في حديث طويل، و بإسناده عن عمرو بن يزيد عن أبي عبد الله عليه السّلام مختصرا.

و عن تفسير الثعلبي قال: قال جعفر بن محمد: معنى قوله: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» في فضل علي، فلما نزلت هذه أخذ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بيد علي فقال: من كنت مولاه فعلى مولاه.

و عنه بإسناده عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس في هذه الآية قال: نزلت في علي بن أبي طالب، أمر الله النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَلْغِي فِيهِ فَأَخَذَ بِيَدِ عَلِيٍّ فَقَالَ: مَنْ كُنْتَ مَوْلَاهُ فَعَلِيَ مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ، وَعَادَ مَنْ عَادَاهُ.

و في تفسير البرهان، عن إبراهيم الثقفي بإسناده عن الخدري، و بريده الأسلمي و محمد بن علي: نزلت يوم الغدير في علي.

و من تفسير الثعلبي في معنى الآية قال: قال أبو جعفر محمد بن علي: معناه بلغ ما أنزل اليك من ربك في علي.

و في تفسير المنار عن تفسير الثعلبي: أن هذا القول من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في موالاه علي شاع و طار في البلاد فبلغ الحارث بن النعمان الفهري فأتى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ علي ناقتة، و كان بالأبطح فنزل و عقل ناقتة، و قال للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -و هو في ملأ- من أصحابه-: يا محمد أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلا الله و أنك رسول الله؛ فقبلنا منك- ثم ذكر سائر أركان الاسلام- ثم لم ترض بهذا حتى مددت بضبعي ابن عمك، و فضلته علينا، و قلت: «من كنت مولاه فعلى مولاه» فهذا منك أم من الله؟ فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: و الله الذي لا إله إلا هو هو أمر الله، فولى الحارث يريد راحلته، و هو يقول: اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجاره من السماء أو

فما وصل الى راحلته حتى رماه الله بحجر فسقط على هامته و خرج من دبره، و أنزل الله تعالى: سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ الْحَدِيث.

أقول:قال فى المنار بعد نقل هذا الحديث ما لفظه:و هذه الروايه موضوعه،و سوره المعارج هذه مكيه،و ما حكاه الله من قول بعض كفار قريش(اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك)كان تذكيرا بقول قالوه قبل الهجره،و هذا التذكير فى سوره الأنفال،و قد نزلت بعد غزوه بدر قبل نزول المائده ببضع سنين،و ظاهر الروايه أن الحارث بن النعمان هذا كان مسلما فارتد و لم يعرف فى الصحابه،و الأبطح بمكه و النبى صلى الله عليه و آله و سلم لم يرجع من غدير خم الى مكه بل نزل فيه منصرفه من حجه الوداع الى المدينه،انتهى.

و أنت ترى ما فى كلامه من التحكم:أما قوله:[إن الروايه موضوعه،و سوره المعارج هذه مكيه]

فيقول فى ذلك على ما فى بعض الروايات عن ابن عباس و ابن الزبير أن سوره المعارج نزلت بمكه،و لیت شعرى ما هو المرجح لهذه الروايه على تلك الروايه،و الجميع آحاد؟سلمنا أن سوره المعارج مكيه كما ربما تؤيده مضامين معظم آياته فما هو الدليل على أن جميع آياتها مكيه؟فلتكن السوره مكيه،و الآيتان خاصه غير مكيتين كما أن سورتنا هذه أعنى سوره المائده مدنيه نازله فى آخر عهد رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم،و قد وضعت فيها الآيه المبحوث عنها أعنى قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» الآيه؛و هو كعده من المفسرين مصرون على أنها نزلت بمكه فى أول البعته،فاذا جاز وضع آيه مكيه(آيه: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ)فى سوره مدنيه(المائده)فليجز وضع آيه مدنيه(آيه: سَأَلَ سَائِلٌ)فى سوره مكيه(سوره المعارج).

و أما قوله:[و ما حكاه الله من قول بعض كفار قريش]

الى آخره،فهو فى التحكم كسابقه؛ فهب إن سوره الأنفال نزلت قبل المائده ببضع سنين فهل يمنع ذلك أن يوضع عند التأليف بعض

الآيات النازله بعدها فيها كما وضعت آيات الربا وآيه وَ اتَّقُوا يَوْمًا تُزْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ (البقره ٢٨١)، وهى آخر ما نزل على النبى صَلَّى الله عليه وآله وسلم عندهم فى سورة البقره النازله فى أوائل الهجره وقد نزلت قبلها بيضع سنين.

ثم قوله: [إِنَّ آيَةَ وَ إِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ الْآيَةَ؛ تذكير لما قالوه قبل الهجره]

تحكم آخر من غير حجه لو لم يكن سياق الآيه حجه على خلافه فإن العارف بأساليب الكلام لا يكاد يرتاب فى أن هذا أعنى قوله: اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَقِطْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنًا بِعَذَابِ أَلِيمٍ لاشتماله على قوله: إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ بما فيه من اسم الإشاره و ضمير الفصل و الحق المحلى باللام و قوله: مِنْ عِنْدِكَ ليس كلام وثنى مشرك يستهزئ بالحق و يسخر منه، وإنما هو كلام من أذعن بمقام الربوبيه، و يرى أن الامور الحقه تتعين من لدنه، و أن الشرائع مثلا تنزل من عنده، ثم إنه يتوقف فى أمر منسوب الى الله تعالى يدعى مدع أنه الحق لا غيره، و هو لا يتحمل ذلك و يتخرج منه فيدعو على نفسه دعاء منزجر ملول سئم الحياه.

و أما قوله: [و ظاهر الروايه أن الحارث بن النعمان هذا كان مسلما فارتد و لم يعرف فى الصحابه]

تحكم آخر؛ فهل يسع أحدا أن يدعى أنهم ضبطوا أسماء كل من رأى النبى صَلَّى الله عليه وآله وسلم و آمن به أو آمن به فارتد؟ و إن يكن شىء من ذلك فليكن هذا الخبر من ذلك القبيل.

و أما قوله: [و الأبطح بمكه و النبى صَلَّى الله عليه وآله وسلم لم يرجع من غدیر خم الى مكه]

فهو يشهد على أنه أخذ لفظ الأبطح اسما للمكان الخاص بمكه و لم يحمله على معناه العام و هو كل مكان ذى رمل، و لا دليل على ما حمله عليه بل الدليل على خلافه و هو القصة المسروده فى الروايه و غيرها، و ربما استفيد من مثل قوله:

نجوت و قد بل المرادى سيفه

من ابن أبى شيخ الأباطح طالب

أن مكه و ما والاها كانت تسمى الأباطح.

قال فى مراصد الاطلاع: أبطح بالفتح ثم السكون و فتح الطاء و الحاء المهمله كل مسيل فيه رقاق الحصى فهو أبطح، و قال ابن دريد: الأبطح و البطحاء السهل المنبسط على وجه الأرض، و قال أبو زيد: الأبطح أثر المسيل ضيقا كان أو واسعا، و الأبطح يضاف الى مكه و الى منى لأن مسافته منهما واحده، و ربما كان الى منى أقرب و هو المحصب، و هى خيف بنى كنانه، و قد قيل: إنه ذو طوى، و ليس به، انتهى.

على أن الروايه بعينها رواها غير الثعلبى و ليس فيه ذكر من الأبطح و هى ما يأتى من روايه المجمع من طريق الجمهور و غيرها.

و بعد هذا كله فالروايه من الآحاد، و ليست من المتواترات و لا- مما قامت على صحتها قرينه قطعيه، و قد عرفت من أبحاثنا المتقدمه أنا لا نعول على الآحاد فى غير الأحكام الفرعيه على طبق الميزان العام العقلائى الذى عليه بناء الإنسان فى حياته، و إنما المراد بالبحث الآنف بيان فساد ما استظهر به من الوجوه التى استنتج منها أنها موضوعه.

و فى المجمع: أخبرنا السيد أبو الحمد قال: حدثنا الحاكم أبو القاسم الحسكاني قال: أخبرنا أبو عبد الله الشيرازى قال: أخبرنا أبو بكر الجرجاني قال: أخبرنا أبو أحمد البصرى قال:

حدثنا محمد بن سهل قال: حدثنا زيد بن إسماعيل مولى الأنصار قال: حدثنا محمد بن أيوب الواسطى قال: حدثنا سفيان بن عيينه عن جعفر بن محمد الصادق عن آبائه قال: لما نصب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم عليا يوم غدير خم قال: من كنت مولاه فهذا على مولاه، فقال (فطار، ظ) ذلك فى البلاد فقدم على النبى النعمان بن الحارث الفهرى فقال: أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلا الله، و أنك رسول الله، و أمرتنا بالجهد و بالحج و بالصوم و الصلاه و الزكاه فقبلنا، ثم لم ترض حتى نصبت هذا الغلام فقلت: من كنت مولاه فعلى مولاه فهذا شىء منك أو أمر من الله تعالى؟ فقال: بلى و الله الذى لا إله إلا هو إن هذا من الله.

فولى النعمان بن الحارث و هو يقول: اللهم إن كانت هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا

حجاره من السماء فرماه الله بحجر على رأسه فقتله، فأُنزل الله سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ .

أقول: وهذا المعنى مروى فى الكافى أيضا.

و عن كتاب نزول القرآن للحافظ أبى نعيم يرفعه الى على بن عامر، عن أبى الحجاج، عن الأعمش، عن عطيه قال: نزلت هذه الآيه على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى على بن أبى طالب «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» و قد قال الله تعالى الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَ أَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَ رَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا .

و عن الفصول المهمه للمالكى قال: روى الإمام أبو الحسن الواحدى فى كتابه المسمى بأسباب النزول رفعه بسنده الى أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: نزلت هذه الآيه «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» يوم غدير خم فى على ابن أبى طالب.

أقول: و رواه فى فتح القدير عن ابن أبى حاتم و ابن مردويه و ابن عساكر عن أبى سعيد الخدرى و كذلك فى الدر المنثور.

و قوله: «بغدير خم» هو بضم الخاء المعجمه و تشديد الميم مع التنوين اسم لغيطه على ثلاثه أميال من الجحفه عندها غدير مشهور يضاف الى الغيطه، هكذا ذكره الشيخ محيى الدين النووى.

و فى فتح القدير أخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: كنا نقرأ على عهد رسول صلى الله عليه وآله وسلم:

«يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» إن عليا مولى المؤمنين و إن لم تفعل فما بلغت رسالته و الله يعصمك من الناس.

أقول: و هذه نبذه من الأخبار الداله على نزوله قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» الخ؛ فى حق على عليه السلام يوم غدير خم، و أما حديث الغدير أعنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم «من كنت مولاه فعلى مولاه» فهو حديث متواتر منقول من طرق الشيعة و أهل السنه بما يزيد على مائه طريق.

وقد روى عن جمع كثير من الصحابه منهم البراء بن عازب، وزيد بن أرقم، وأبو أيوب الأنصاري، وعمر بن الخطاب، وعلي بن ابي طالب، وسلمان الفارسي، وأبو ذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وبريده، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عباس، وأبو هريره، وجابر بن عبد الله، وأبو سعيد الخدري، وأنس بن مالك، وعمران بن الحصين، وابن أبي أوفى، وسعدانه، وامراه زيد بن أرقم.

وقد أجمع عليه أئمه أهل البيت عليهم السلام، وقد ناشد على عليه السلام الناس بالرحبه في الحديث فقام جماعه من الصحابه حضروا المجلس، فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقوله يوم الغدير.

وفي كثير من هذه الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: أيها الناس أستم تعلمون أنى أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى، قال: من كنت مولاه فعلى مولاه كما في عده من الأخبار التي رواها أحمد بن حنبل في مسنده أو رواها غيره، وقد افردت لإحصاء طرقها والبحث في متنها تأليف من أهل السنه والشيعة بحثوا فيها بما لا مزيد عليه.

وعن كتاب السمطين للحمويني بإسناده عن أبي هريره قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ليله اسرى بي الى السماء السابعة سمعت نداء من تحت العرش: إن عليا آيه الهدى، وحيب من يؤمن بي، بلغ عليا عليه السلام، فلما نزل النبي صلى الله عليه وآله وسلم من السماء أنسى ذلك فأنزل الله عز وجل ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

وفي فتح القدير: أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبد الله قال: لما غزا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بنى أنمار نزل ذات الرقيع بأعلى نخل فبينما هو جالس على رأس بئر قد دلى رجليه فقال الوارث من بنى النجار: لأقتلن محمدا، فقال له أصحابه: كيف تقتله؟ قال: أقول له: أعطنى سيفك فاذا أعطانيه قتلته به، فأتاه فقال: يا محمد أعطنى سيفك أشمه فأعطاه إياه فرعدت يده حتى سقط السيف من يده فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: حال الله بينك وبين ما تريد، فأنزل الله سبحانه ﴿يَا أَيُّهَا

الرَّسُولُ بَلَّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ» الآية.

أقول: ثم ذكر في فتح القدير أن ابن حبان أخرجه في صحيحه و أخرجه أيضا ابن مردويه عن أبي هريره نحو هذه القصة و لم يسم الرجل، و أخرج ابن جرير من حديث محمد بن كعب القرظي نحوه، و قصه غورث بن الحارث ثابتة في الصحيح، و هي معروفة مشهوره (انتهى)، و لكن الشأن تطبيق القصة على المحصل من معنى الآية، و لن تنطبق أبدا.

و في الدر المنثور و فتح القدير و غيرهما عن ابن مردويه و الضياء في المختاره عن ابن عباس:

أن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم سئل: أى آيه انزلت من السماء أشد عليك؟ فقال: كنت بمنى أيام موسم فاجتمع مشركوا العرب و أفناء الناس فى الموسم فانزل على جبريل فقال «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ» الآية.

قال: فقامت عند العقبة فناديت: يا أيها الناس من ينصرنى على أن ابلي رساله ربي و له الجنة؟ أيها الناس قولوا: لا إله إلا الله و أنا رسول الله إليكم تفلحوا و تنجحوا و لكم الجنة.

قال: فما بقى رجل و لا- امرأه و لا صبى إلا يرمون بالتراب و الحجارة، و ييزقون فى وجهى و يقولون: كذاب صابئ فعرض على عارض فقال: يا محمد إن كنت رسول الله فقد آن لك أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك، فقال النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم: اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون.

فجاء العباس عمه فأنقذهم منه و جردهم عنه.

أقول: الآية بتمامها لا ينطبق على هذه القصة على ما عرفت تفصيل القول فيه.

اللهم إلا- أن تحمل الروايه على نزول قطعه من الآية- و هى قوله: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» فى ذلك اليوم، و ظاهر الروايه يآباه، و نظيرها ما يأتى.

و فى الدر المنثور و فتح القدير: أخرج عبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبى حاتم و أبو الشيخ عن مجاهد قال: لما نزلت «بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» قال: يا رب إنما أنا واحد كيف أصنع؟

يجتمع على اناس فنزلت «وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغَتْ رِسَالَتَهُ» .

و فيها عن الحسن: أن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم قال: إن الله بعثني برسالته فضقت بها ذرعا، و عرفت أن الناس مكذبي فوعدني لابلغن أو ليعذبني فأنزل «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ» .

أقول: الروايتان على ما فيهما من القطع و الإرسال فيهما ما في سابقتهما، و نظيرتهما في هذا التشويش بعض ما ورد في أن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم كان يحترس برجال فلما نزلت الآية فرقهم و قال عليه السلام: إن ربي و عدني أن يعصمني .

و في تفسير المنار: روى أهل التفسير المأثور و الترمذى و أبو الشيخ و الحاكم و أبو نعيم و البيهقي و الطبراني عن بضعة رجال من الصحابة: أن النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم كان يحرس في مكة قبل نزول هذه الآية فلما نزلت ترك الحرس، و كان أبو طالب أول الناس اهتماما بحراسته، و حرسه العباس أيضا .

و فيه: و مما روى في ذلك عن جابر و ابن عباس أن النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم كان يحرس، و كان يرسل معه عمه أبو طالب كل يوم رجالا من بني هاشم حتى نزلت الآية فقال: يا عم إن الله قد عصمني لا حاجة لي الى من يبعث .

أقول: و الروايتان - كما ترى - تدلان على ان الآية نزلت في أواسط إقامة النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم بمكة و انه صَلَّى الله عليه و آله و سلم بلغ رسالته زمانا و اشتد عليه أمر إيذاء الناس و تكذيبهم حتى خاف على نفسه منهم فترك التبليغ و الدعوه فامر ثانيا بالتبليغ، و هدد من جانب الله سبحانه، و وعد بالعصمه، فاشتغل ثانيا بما كان يشتغل به اولا، و هذا شيء يجلب عنه ساحة النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم .

و في الدر المنثور و فتح القدير: أخرج عبد بن حميد و الترمذى و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و الحاكم و ابن مردويه و أبو نعيم و البيهقي كلاهما في الدلائل عن عائشه قالت: كان رسول الله يحرس حتى نزلت «وَ اللَّهُ يَعْصِي مَمَكًا مِنَ النَّاسِ» فأخرج رأسه من القبه

فقال: أيها الناس انصرفوا فقد عصمتني الله.

اقول: و الروايه - كما ترى - ظاهره في نزولها بالمدينه.

و في تفسير الطبري عن ابن عباس في قوله: «وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ» يعني إن كتمت آيه أنزل اليك لم تبلغ رسالته.

اقول: إن كان المراد به آيه معينه أى حكم معين مما أنزل الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فله وجه صحه، و إن كان المراد به التهديد فى أى آيه فرضت أو حكم قدر فقد عرفت فيما تقدم أن الآيه لا تلائم بمضمونها.

[سوره المائده (٥): الآيات ٦٨ الى ٨٦]

اشاره

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسِيْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لِيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَ كُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٦٨) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا وَ الصَّابِئُونَ وَ النَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٩) لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ الرُّسُلَ كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَ فَرِيقًا يَقْتُلُونَ (٧٠) وَ حَسِبُوا أَلَّا يَكُونَ لَنَا قِتْنَةٌ فَعَمَّوْا وَ صَمَّوْا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمَّوْا وَ صَمَّوْا كَثِيرًا مِنْهُمْ وَ اللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَ قَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَا أُوَاهُ النَّارُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٧٢) لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَلَاثَةٌ وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَ إِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَ يَسْتَغْفِرُونَهُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤) مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَ أُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَتْ يَأْكُلَنِ الطَّعَامَ أَنْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥) قُلْ أَعْتَبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا وَ اللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٧٦) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَ لَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَ ضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ (٧٧) لِعَنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٧٩) تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ فِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ (٨٠) وَ لَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِّ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَ لَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ (٨١) لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا وَ لَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَ رُهْبَانًا وَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ (٨٢) وَ إِذَا سَجَعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْهِ الرُّسُولِ تَرَىٰ أُعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُمْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٨٣) وَ مَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ مَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَ نَطْمَعُ أَنْ يَدْخُلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (٨٤) فَأَتَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٨٥) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٨٦)

قوله تعالى: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ

وَ الْإِنْجِيلَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الْإِنْسَانُ يَجِدُ مِنْ نَفْسِهِ خَلَالَ أَعْمَالِهِ أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ إِعْمَالَ قُوهِ وَ شَدَهُ فِيمَا يَحْتَاجُ إِلَى ذَلِكَ، وَجِبَ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى مَسْتَوَى يَسْتَوِي عَلَيْهِ أَوْ يَتَّصِلَ بِهِ كَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَجْذِبَ أَوْ يَدْفَعُ أَوْ يَحْمِلَ أَوْ يَقِيمَ شَيْئًا ثَقِيلًا فَإِنَّهُ يَثْبِتُ قَدَمِيهِ عَلَى الْأَرْضِ أَوْ لَا ثُمَّ يَصْنَعُ مَا شَاءَ لِمَا يَعْلَمُ أَنَّ لَوْ لَا ذَلِكَ لَمْ يَتَيَسَّرَ لَهُ مَا يَرِيدُ، وَ قَدْ بَحِثَ عَنْهُ فِي الْعُلُومِ الْمَرْبُوطَةِ بِهِ.

وَ إِذَا أُجْرِينَا هَذَا الْمَعْنَى فِي الْأُمُورِ الْمَعْنَوِيَةِ كَأَفْعَالِ الْإِنْسَانِ الرَّوْحِيَةِ أَوْ مَا يَتَعَلَّقُ مِنْ أَفْعَالِ الْجَوَارِحِ بِالْأُمُورِ النَّفْسِيَةِ كَانَ ذَلِكَ مُنْتَجَا أَنْ صَدُورَ مَهَامِ الْأَفْعَالِ وَ عِظَائِمِ الْأَعْمَالِ يَتَوَقَّفُ عَلَى أَسْ مَعْنَوِيٍّ وَ مَبْنِيٍّ قُوِيٍّ نَفْسِيٍّ كَتَوَقُّفِ جَلَائِلِ الْأُمُورِ عَلَى الصَّبْرِ وَ الثَّبَاتِ وَ عُلُوِّ الْهَمَمِ وَ قُوهِ الْعِزْمَةِ وَ تَوَقُّفِ النَّجَاحِ فِي الْعِبُودِيَةِ عَلَى حَقِّ التَّقْوَى وَ الْوَرَعِ عَنِ مَحَارِمِ اللَّهِ.

وَ مِنْ هُنَا يَظْهَرُ أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: «لَسِيْتُمْ عَلَيَّ شَيْءٌ» كُنْيَاهُ عَنِ عَدَمِ اعْتِمَادِهِمْ عَلَى شَيْءٍ يَثْبِتُ عَلَيْهِ أَقْدَامَهُمْ فَيَقْدِرُونَ بِذَلِكَ عَلَى إِقَامَةِ التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ وَ مَا أَنْزَلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ تَلْوِيحًا إِلَى أَنَّ دِينَ اللَّهِ وَ حُكْمَهُ لَهَا مِنْ الثَّقَلِ مَا لَا يَتَيَسَّرُ حَمْلُهُ لِلْإِنْسَانِ حَتَّى يَعْتَمِدَ عَلَى أَسَاسٍ ثَابِتٍ وَ لَا يُمْكِنُ إِقَامَتُهُ بِمَجْرَدِ هَوَىٍّ مِنْ نَفْسِهِ كَمَا يَشِيرُ تَعَالَى إِلَى ذَلِكَ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ بِقَوْلِهِ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا (المزمل ٥/٥)، وَ قَوْلِهِ: لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَاهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (الحشر ٢١/٢١)، وَ قَوْلِهِ: إِذَا عَرَضْنَا الْأُمَمَ لَهُ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ الْجِبَالِ فَأَيُّنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَ أَشْفَقْنَ مِنْهَا الْآيَةَ (الأحزاب ٧٢/٧٢).

وَ قَالَ فِي أَمْرِ التَّوْرَةِ خُطَابًا لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَخَذُّهَا بِقُوِّهِ وَ أَمْرُ قَوْمِكَ يَا خُذُوا بِأَحْسَنِهَا (الأعراف ١٤٥/١٤٥)، وَ قَالَ خُطَابًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوِّهِ (البقره ٦٣/٦٣) وَ قَالَ خُطَابًا لِيَحْيَى عَلَيْهِ السَّلَامُ يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوِّهِ (مريم ١٢/١٢).

فَيَعُودُ الْمَعْنَى إِلَى أَنْكُمْ فَاقْدُوا الْعِمَادَ الَّذِي يَجِبُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَعْتَمِدُوا عَلَيْهِ فِي إِقَامَةِ دِينِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ فِي كِتَابِهِ وَ هُوَ التَّقْوَى وَ الْإِنَابَةُ إِلَى اللَّهِ بِالرُّجُوعِ إِلَيْهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى وَ الْإِتِّصَالُ

به و الإيواء الى ركنه بل مستكبرون عن طاعته و متعدون حدوده.

و يظهر هذا المعنى من قوله تعالى خطابا لنبيه و المؤمنين: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى فجمع الدين كله فيما ذكره، ثم قال: أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ فبين أن ذلك كله يرجع الى إقامه الدين كلمه واحده من غير تفرق ثم قال: كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ وَ ذلك لكبر الاتفاق و الاستقامه فى اتباع الدين عليهم، ثم قال: اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ فَأنبأ أن إقامه الدين لا يتيسر إلا بهدايه من الله، ولا يصلح لها إلا- المتصف بالإنابه التى هى الاتصال بالله و عدم الانقطاع عنه بالرجوع اليه مره بعد اخرى، ثم قال: وَ مَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ فذكر أن السبب فى تفرقهم و عدم إقامتهم للدين هو بغيهم و تعديهم عن الوسط العدل المضروب لهم (الشورى ١٤).

و أما قوله تعالى: وَ لَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَ كُفْرًا فقد تقدم البحث عن معناه، و قوله: «فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ» تسليه منه تعالى لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم فى صورته النهى عن الأسى.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا وَ الصَّابِئُونَ وَ النَّصَارَى الآيه ظاهرها أن الصابئون عطف على «الَّذِينَ آمَنُوا» بحسب موضعه و جماعه من النحويين يمنعون العطف على اسم إن بالرفع قبل مضى الخبر، و الآيه حجه عليهم.

و الآيه فى مقام بيان أن لا- عبره فى باب السعاده بالأسماء و الألقاب كتسمى جمع بالمؤمنين و فرقه بالذين هادوا، و طائفه بالصابئين و آخرين بالنصارى، و إنما العبره بالإيمان بالله و اليوم الآخر و العمل الصالح، و قد تقدم البحث عن معنى الآيه فى تفسير سوره البقره الآيه ال ٦٢ فى الجزء الأول من الكتاب.

قوله تعالى: لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا الى آخر

الآية؛ هذه الآية و ما بعدها الى عدة آيات تتعرض لحال أهل الكتاب كالحججه على ما يشتمل عليه قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسِيئُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ» الخ؛ فإن هذه الجرائم و الآثام لا تدع للانسان اتصالا بربه حتى يقيم كتب الله معتمدا عليه.

و يمكن أن يكون هذه الآيات كالمبينه لقوله «إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ هَادُوا» الخ؛ و هو كالمبين لقوله: «يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسِيئُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ» الآية؛ و المعنى ظاهر.

و قوله: «فَرِيقًا كَذَّبُوا وَ فَرِيقًا يَقْتُلُونَ» الظاهر أن كلمتي «فَرِيقًا» في الموضوعين مفعولان للفعلين بعدهما قدما عليهما للعنايه بأمرهما، و التقدير: كذبوا فريقا و يقتلون فريقا، و المجموع جواب قوله: «كُلَّمَا جَاءَهُمْ» الخ؛ و المعنى نحو من قولنا: كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم أساءوا و واجهته و إجابته و جعلوا الرسل الآتين فريقين: فريقا كذبوا و فريقا تقتلون.

قال في المجمع: فإن قيل: لم عطف المستقبل على الماضي يعني في قوله: «فَرِيقًا كَذَّبُوا وَ فَرِيقًا يَقْتُلُونَ»؟ فجوابه: ليدل على أن ذلك من شأنهم فيه معنى كذبوا و قتلوا و يكذبون و يقتلون مع أن قوله: «يَقْتُلُونَ» فاصله يجب أن يكون موافقا لرءوس الآي، انتهى.

قوله تعالى: وَ حَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَ صَمُّوا الخ؛ متمم للكلام في الآية السابقه، و الحسبان هو الظن، و الفتنة هي المحنة التي تغر الإنسان أو هي أعم من كل شر و بليه، و العمى هو عدم إِبصار الحق و عدم تمييز الخير من الشر، و الصمم عدم سماع العظه و عدم الإعباء بالنصيحه، و هذا العمى و الصمم معلولا- حسبانهم أن لا تكون فتنة، و الظاهر أن حسبانهم ذلك معلول ما قدروا لأنفسهم من الكرامه بكونهم من شعب إسرائيل و أنهم أبناء الله و أحبأوه فلا- يمسهم السوء و إن فعلوا ما فعلوا و ارتكبوا ما ارتكبوا.

فمعنى الآية- و الله أعلم- أنهم لمكان ما اعتقدوا لأنفسهم من كرامه اليهود ظنوا أن لا يصيبهم سوء أو لا يفتنون بما فعلوا فأعمى ذلك الظن و الحسبان أبصارهم عن إِبصار الحق، و أصم ذلك آذانهم عن سماع ما ينفعهم من دعوه أنبيائهم.

قوله تعالى: **ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ** التوبة من الله على عباده رجوعه تعالى بالرحمة اليهم، وهذا يدل على أن الله سبحانه قد كان بعدهم من رحمته وعنايته و لذلك أخذهم الحسبان المذكور و لزمهم العمى و الصمم، لكن الله سبحانه رجع اليهم ثانية بالتوبة فرفع هذا الحسبان عن قلوبهم، و العمى و الصمم عن أبصارهم و آذانهم، فعرفوا أنفسهم بأنهم عباد لا كرامه لهم على الله إلا بالتقوى، و أبصروا الحق و سمعوا عظه الله لهم بلسان أنبيائه فتبين لهم أن التسمية لا ينفع شيئا.

ثم عموا و صموا كثير منهم، و إسناد العمى و الصمم الى جمعهم أولا ثم الى كثير منهم - بإتيان كثير منهم بدلا من واو الجمع - أخذ بالنصفه فى الكلام بالدلالة على أن إسناد العمى و الصمم الى جمعهم من قبيل إسناد حكم البعض الى الكل، و الواقع أن المتصف بهاتين الصفتين كثير منهم لا كلهم أولا، و إيماء الى أن العمى و الصمم المذكورين أولا شملا جميعهم على ما يدل عليه المقابلة ثانيا، و أن التوبة الإلهية لم يبطل أثرها و لم تذهب سدى بالمره بل نجا بالتوبة بعضهم فلم يأخذهم العمى و الصمم اللاحقان أخيرا ثالثا.

ثم ختم تعالى الآيه بقوله **«وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ»** للدلالة على أن الله تعالى لا يغفله شىء، فغيره تعالى اذا أكرم قوما بكرامه ضرب ذلك على بصره بحجاب يمنعه أن يرى منهم السوء و المكروه، و ليس الله سبحانه على هذا النعت بل هو البصير لا يحجبه شىء عن شىء.

قوله تعالى: **لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ** و هذا كالبيان لكون النصارى لم تنفعهم النصرانية و الانتساب الى المسيح عليه السلام عن تعلق الكفر بهم اذا أشركوا بالله و لم يؤمنوا به حق إيمانه حيث قالوا: إن الله هو المسيح بن مريم.

و النصارى و إن اختلفوا فى كيفية اشتمال المسيح بن مريم على جوهره الالوهيه بين قائل باشتقاق اقنوم المسيح و هو العلم من اقنوم الرب (تعالى) و هو الحياه، و ذلك الابوه و البنوه،

وقائل بأنه تعالى صار هو المسيح على نحو الانقلاب، وقائل بأنه حل فيه كما تقدم بيان ذلك تفصيلا في الكلام على عيسى بن مريم عليه السلام في تفسير سوره آل عمران في الجزء الثالث من الكتاب.

لكن الأقوال الثلاثة جميعا تقبل الانطباق على هذه الكلمه (إن الله المسيح ابن مريم) فالظاهر أن المراد بالذين تفوهوا بهذه الكلمه جميع النصارى الغالين في المسيح عليه السلام لا خصوص القائلين منهم بالانقلاب.

و توصيف المسيح بابن مريم لا- يخلو من دلالة أو إشعار بسبب كفرهم و هو نسبه الالوهيه الى انسان ابن انسان مخلوقين من تراب، و أين التراب و رب الأرباب؟!

قوله تعالى: وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ احتجاج على كفرهم و بطلان قولهم بقول المسيح عليه السلام نفسه؛ فإن قوله عليه السلام:

«اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ» يدل على أنه عبد مربوب مثلهم، وقوله: «إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ» يدل على أن من يجعل لله شريكا في الوهيته فهو مشرك كافر محرم عليه الجنة.

و في قوله تعالى حكاية عنه عليه السلام: «فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَ مَا وَاهُ النَّارُ وَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ» عناية بإبطال ما ينسبونه الى المسيح من حديث التفديه، و أنه عليه السلام باختياره الصلب فدى بنفسه عنهم فهم مغفور لهم مرفوع عنهم التكليف الإلهيه و مصيرهم الى الجنة و لا يمسون نارا كما تقدم نقل ذلك عنهم في تفسير سوره آل عمران في قصه عيسى عليه السلام فقضه التفديه و الصلب إنما سيقّت لهذا الغرض.

و ما تحكيه الآيه من قوله عليه السلام موجود في متفرقات الأبواب من الأناجيل كالأمر

بالتوحيد (١)، وإبطال عباده المشرك (٢)، والحكم بخلود الظالمين فى النار (٣).

قوله تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ أَي أَحَدُ الثَّلَاثَةِ: الأب و الابن و الروح، أى هو ينطبق على كل واحد من الثلاثة، وهذا لازم قولهم: إن الأب إله، و الابن إله، و الروح إله، و هو ثلاثة، و هو واحد يضاهاون بذلك نظير قولنا: إن زيد بن عمرو إنسان، فهناك أمور ثلاثة هى: زيد و ابن عمرو و الإنسان، و هناك أمر واحد و هو المنعوت بهذه النعوت، و قد غفلوا عن أن هذه الكثرة إن كانت حقيقه غير اعتباريه أوجبت الكثرة فى المنعوت حقيقه، و أن المنعوت إن كان واحدا حقيقه أوجب ذلك أن تكون الكثرة اعتباريه غير حقيقه فالجمع بين هذه الكثرة العديديه و الواحده العديديه فى زيد المنعوت بحسب الحقيقه مما يستنكف العقل عن تعقله.

و لذا ربما ذكر بعض الدعاه من النصارى أن مسأله التثليث من المسائل المأثوره من مذاهب الأسلاف التى لا تقبل الحل بحسب الموازين العلميه، و لم يتنبه أن عليه أن يطالب الدليل على كل دعوى يقرع سمعه سواء كان من دعاوى الأسلاف أو من دعاوى الأخلاف.

قوله تعالى: وَمِمَّنْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ رد منه تعالى لقولهم «إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ» بأن الله سبحانه لا يقبل بذاته المتعاليه الكثره بوجه من الوجوه فهو تعالى فى ذاته واحد، و اذا اتصف بصفاته الكريمه و أسمائه الحسنى لم يزد ذلك على ذاته الواحده شيئا، و لا الصفه اذا أضيفت الى الصفه أورت ذلك كثره و تعددا فهو تعالى احدى الذات لا ينقسم لا فى خارج و لا فى وهم و لا فى عقل.

فليس الله سبحانه بحث يتجزأ فى ذاته الى شىء و شىء قط، و لا أن ذاته بحيث يجوز أن

ص: ١٨٩

١-١. الاصحاح ١٢:٢٩ (انجيل مرقس).

٢-٢. الاصحاح ٦:٢٤ (انجيل متى).

٣-٣. الاصحاح ٢٥:٣١، ٥٠:١٣-٤٧ (انجيل متى ايضا).

يُضَافُ إِلَيْهِ شَيْءٌ فَيَصِيرُ اثْنَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ، كَيْفَ؟ وَهُوَ تَعَالَى مَعَ هَذَا الشَّيْءِ الَّذِي تَرَادُ إِضَافَتُهُ إِلَيْهِ تَعَالَى فِي وَهْمٍ أَوْ فَرَضٍ أَوْ خَارِجٍ.

فَهُوَ تَعَالَى وَاحِدٌ فِي ذَاتِهِ لَكِنْ لَا بِالْوَحْدَةِ الْعَدَدِيَّةِ الَّتِي لِسَائِرِ الْأَشْيَاءِ الْمَتَكُونِ مِنْهَا الْكَثْرَاتُ، وَ لَا مَنَعُوتٍ بِكَثْرَتِهِ فِي ذَاتٍ أَوْ اسْمٍ، أَوْ صِفَةٍ، كَيْفَ؟ وَ هَذِهِ الْوَحْدَةُ الْعَدَدِيَّةُ وَ الْكَثْرَةُ الْمَتَأَلِّفَةُ مِنْهَا كِلْتَاهُمَا مِنْ آثَارِ صِنْعِهِ وَ إِيجَادِهِ فَكَيْفَ يَتَصَفَّ بِمَا هُوَ مِنْ صِنْعِهِ؟

وَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ» مِنَ التَّأَكِيدِ فِي إِثْبَاتِ التَّوْحِيدِ مَا لَيْسَ فِي غَيْرِهِ حَيْثُ سَبَقَ الْكَلَامُ بِنَحْوِ النَّفْيِ وَ الْإِسْتِثْنَاءِ، ثُمَّ أُدْخِلَ «مِنْ» عَلَى النَّفْيِ لِإِفَادَةِ التَّأَكِيدِ الْإِسْتِغْرَاقِ، ثُمَّ جِيءَ بِالْمُسْتَشْنَى وَ هُوَ قَوْلُهُ: «إِلَهُ وَاحِدٌ» بِالتَّنْكِيرِ الْمَفِيدِ لِلتَّنْوِيحِ وَ لَوْ أُورِدَ مَعْرِفَهُ كَقَوْلِنَا «إِلَّا إِلَهُ الْوَاحِدِ» لَمْ يَفِدْ مَا يَرَامُ مِنْ حَقِيقَةِ التَّوْحِيدِ.

فَالْمَعْنَى: لَيْسَ فِي الْوُجُودِ شَيْءٌ مِنْ جِنْسِ الْإِلَهِ أَصْلًا إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ نَوْعًا مِنَ الْوَحْدَةِ لَا يَقْبَلُ التَّعَدُّدَ أَصْلًا لَا تَعَدُّدَ الذَّاتِ وَ لَا تَعَدُّدَ الصِّفَاتِ، لَا خَارِجًا وَ لَا فَرَضًا، وَ لَوْ قِيلَ: وَ مَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ لَمْ يَدْفَعْ بِهِ قَوْلُ النَّصَارِيِّ (إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ) فَإِنَّهُمْ لَا يَنْكُرُونَ الْوَحْدَةَ فِيهِ تَعَالَى، وَ إِنَّمَا يَقُولُونَ: إِنَّهُ ذَاتٌ وَاحِدَةٌ لَهَا تَعْيِينٌ بِصِفَاتِهَا الثَّلَاثِ، وَ هِيَ وَاحِدَةٌ فِي عَيْنِ أَكْثَرِهِ حَقِيقَةً.

وَ لَا يَنْدَفِعُ مَا احْتَمَلُوهُ مِنَ الْمَعْنَى إِلَّا بِإِثْبَاتِ وَحْدِهِ لَا تَتَأَلَّفُ مِنْهُ كَثْرَةٌ أَصْلًا، وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَخَّاهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ بِقَوْلِهِ «وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ».

وَ هَذَا مِنْ لَطَائِفِ الْمَعَانِي الَّتِي يَلُوحُ إِلَيْهَا الْكِتَابُ الْإِلَهِيُّ فِي حَقِيقَتِهِ مَعْنَى التَّوْحِيدِ وَ سَنُغَوِّرُ فِي الْبَحْثِ الْمُسْتَوْفَى عَنْهُ فِي بَحْثِ قُرْآنِيٍّ خَاصٍّ ثُمَّ فِي بَحْثِ عَقْلِيٍّ وَ آخِرِ نَقْلِيٍّ إِيْفَاءً لِحَقِّهِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ تَهْدِيدٌ لَهُمْ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ الْآخِرِيِّ الَّذِي هُوَ ظَاهِرُ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ».

وَ لَمَّا كَانَ الْقَوْلُ بِالتَّثْلِيثِ الَّذِي تَتَضَمَّنُهُ كَلِمَةُ «إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ» لَيْسَ فِي وَسْعِ عَقُولِ

عامه الناس أن تتعقله فأغلب النصارى يتلقونه قولاً مذهيباً مسلماً بلفظه من غير أن يعقلوا معناه، ولا أن يطمعوا في تعقله كما ليس في وسع العقل السليم أن يعقله عقلاً صحيحاً، وإنما يتعقل كتعقل الفروض المحاله كالإنسان اللاإنسان، والعدد الذي ليس بواحد ولا كثير ولا زوج ولا فرد فلذلك تتسلمه العامه تسلماً من غير بحث عن معناه، وإنما يعتقدون في النبوه والابوه شبه معنى التشريف فهو لاء في الحقيقه ليسوا من أهل التثليث، وإنما يمضغون الكلمه مضغاً، و يتمون إليها انتماء بخلاف غير العامه منهم و هم الذين ينسب الله سبحانه اليهم اختلاف المذاهب و يقرر أن ذلك بغيرهم كما قال تعالى: **أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ -** الى أن قال - **وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ** (الشورى ١٤).

فالكفر الحقيقى الذى لا ينتهى الى استضعاف - هو الذى فيه إنكار التوحيد و التكذيب بآيات الله - إنما يتم فى بعضهم دون كلهم، وإنما أوعد الله بالنار الخالد الذين كفروا و كذبوا بآيات الله، قال **وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ** (البقره ٣٩) الى غير ذلك من الآيات، وقد مر الكلام فى ذلك فى تفسير قوله تعالى: **إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ** الآية (النساء ٩٨).

و لعل هذا هو السر فى التبعيض الظاهر فى قوله: **«لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ»** أو أن المراد به الإشارة الى أن من النصارى من لا يقول بالتثليث، ولا يعتقد فى المسيح إلا - أنه عبد الله و رسوله، كما كانت على ذلك مسيحيو الحبشه و غيرها على ما ضبطه التاريخ فالمعنى: لئن لم ينته النصارى عما يقولون (نسبه قول بعض الجماعه الى جميعهم) ليمسن الذين كفروا منهم - وهم القائلون بالتثليث منهم - عذاب أليم.

و ربما وجهوا الكلام أعنى قوله: **«لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ»** بأنه من قبيل وضع الظاهر موضع المضمرة، و الأصل: ليمسنهم (انتهى)، و إنما عدل الى وضع الموصول وصلته مكانه ليدل على أن ذلك القول كفر بالله، و أن الكفر سبب العذاب الذى توعدهم به.

و هذا وجه لا- بأس به لو لا- أن الآيه مصدره بقوله «لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ» و نظيره فى البعد قول بعض آخر: إن «من» فى قوله: «مِنْهُمْ» بيانيه فإنه قول من غير دليل.

أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ تحضيض على التوبه و الاستغفار، و تذكير بمغفره الله و رحمته، أو إنكار أو توبيخ.

قوله تعالى: يَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا- رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَأَنَّا بِاِكْلَانِ الطَّعَامِ رد لقولهم «إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ» أو لقولهم هذا و قولهم المحكى فى الآيه السابقه «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ» جميعا، و محصله اشتمال المسيح على جوهره الالوهيه، بأن المسيح لا يفارق سائر رسل الله الذين توفاهم الله من قبله كانوا بشرا مرسلين من غير أن يكونوا أربابا من دون الله سبحانه، و كذلك أمه مريم كانت صديقه تصدق بآيات الله تعالى و هى بشر، و قد كان هو و أمه جميعا يأكلان الطعام، و أكل الطعام مع ما يتعقبه مبنى على أساس الحاجه التى هو أول إماره من أمارات الإمكان و المصنوعيه فقد كان المسيح عليه السلام ممكنا متولدا من ممكن، و عبدا و رسولا مخلوقا من أمه كانا يعبدان الله، و يجريان فى سبيل الحاجه و الافتقار من دون أن يكون ربا.

و ما بيد القوم من كتب الإنجيل معترفه بذلك تصرح بكون مريم فتاه كانت تؤمن بالله و تعبه، و تصرح بأن عيسى تولد منها كالانسان من الإنسان، و تصرح بأن عيسى كان رسولا- من الله الى الناس كسائر الرسل و تصرح بأن عيسى و أمه مريم كانا يأكلان الطعام.

فهذه امور صرحت بها الأناجيل، و هى حجج على كونه عليه السلام عبدا رسولا.

و يمكن أن تكون الآيه مسوقه لنفى ألوهيه المسيح و أمه كليهما على ما يظهر من قوله تعالى:

أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ (المائدة ١١٦) أنه كان هناك من يقول بالوهيتها كالمسيح أو أن المراد به اتخاذها إلها كما ينسب الى أهل الكتاب أنهم اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أربابا من دون الله، و ذلك بالخضوع لها و لهم بما لا يخضع لبشر بمثله.

و كيف كان فالآية على هذا التقدير تنفى عن المسيح و أمه معا الالوهيه بأن المسيح كان رسولا كسائر الرسل، و أمه كانت صديقه، و هما معا كانا يأكلان الطعام، و ذلك كله ينافى الالوهيه.

و فى قوله تعالى: «قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ» حيث وصف الرسل بالخلو من قبله، و هو الموت تأكيد للحجه بكونه بشرا يجوز عليه الموت و الحياه كما جاز على الرسل من قبله.

قوله تعالى: «أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنِّي يُؤْفَكُونَ» الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و هو فى مقام التعجيب أى تعجب من كيفيه بياننا لهم الآيات، و هو أوضح بيان لأظهر آيه فى بطلان دعواهم الوهيه المسيح، و كيفيه صرفهم عن تعقل هذه الآيات؛ فالى أى غايه يصرفون عنها، و لا تلتفت الى نتيجتها- و هى بطلان دعواهم- عقولهم؟

قوله تعالى: «قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» كان الخضوع لأمر الربوبيه إنما انتشر بين البشر فى أقدم عهوده، و خاصه بين العامه منهم- و عامتهم كانوا يعبدون الأصنام- طمعا فى أن يدفع الرب عنهم الشر و يوصل اليهم النفع كما يتحصل من الأبحاث التاريخيه، و أما عباده الله لأنه الله عز اسمه فلم يكن يعدو الخواص منهم كالأنبياء و الربانيين من اممهم.

قوله تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ» خطاب آخر للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بأمره أن يدعو أهل الكتاب الى عدم الغلو فى دينهم، و أهل الكتاب و خاصه النصارى مبتلون بذلك، و «الغالى» المتجاوز عن الحد بالإفراط، و يقابله «القالى» فى طرف التفريط.

قوله تعالى: «وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَ ضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ» ظاهر السياق أن المراد بهؤلاء القوم الذين نهوا عن اتباع أهوائهم هم المتبوعون المطاعون فى آرائهم و أوامرهم فيكون ضلالهم لمكان التزامهم بآرائهم؛ إضلالهم كثيرا هو اتباع غيرهم لهم، و ضلالهم عن سواء السبيل هو المتحصل لهم من ضلالهم

و إضلالهم، و هو ضلال على ضلال.

و كذلك ظاهر السياق أن المراد بهم هم الوثنيه و عبده الأصنام فإن ظاهر السياق أن الخطاب إنما هو لجميع أهل الكتاب لا للمعاصرين منهم للنبي صلى الله عليه و آله و سلم حتى يكون نهيا لمتأخريهم عن اتباع متقدميهم.

قوله تعالى: لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ إخبار بأن الكافرين منهم ملعونون بلسان أنبيائهم، و فيه تعريض لهؤلاء الذين كفرهم الله في هذه الآيات من اليهود ملعونين بدعوه أنبيائهم أنفسهم، و ذلك بسبب عصيانهم لأنبيائهم، و هم كانوا مستمرين على الاعتداء و قوله: «كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ» الخ؛ بيان لقوله «وَ كَانُوا يَعْتَدُونَ» .

قوله تعالى: تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا الخ؛ و هذا من قبيل الاستشهاد بالحس على كونهم معتدين فإنهم لو قدروا دينهم حق قدره لزموه و لم يتعدوه، و لازم ذلك أن يتولوا أهل التوحيد و يتبرءوا من الذين كفروا لأن أعداء ما يقدره قوم أعداء لذلك القوم، فإذا تحابوا و توالوا دل ذلك على إعراض ذلك القوم و تركهم ما كانوا يقدرونه و يحترمونه، و صديق العدو عدو، ثم ذمهم الله تعالى بقوله «لَبِئْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُمْ أَنْفُسَهُمْ» و هو ولاية الكفار عن هوى النفس، و كان جزاؤه و وبال «أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَ فِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ»، ففي الآيه وضع جزاء العمل و عاقبته موضع العمل كأن أنفسهم قدمت لهم جزاء العمل بتقديم نفس العمل.

وَ لَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ النَّبِيِّ وَ مَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا لَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَ لَكِن كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ أى و لو كان أهل الكتاب هؤلاء يؤمنون بالله و النبي محمد صلى الله عليه و آله و سلم و ما أنزل إليه، أو نبي أنفسهم كموسى مثلا و ما أنزل إليه كالتوراه مثلا ما اتخذوا أولئك الكفار أولياء لأن الإيمان يجب سائر الأسباب، و لكن كثيرا منهم فاسقون متمردون عن الإيمان.

قوله تعالى: لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا - الى قوله - نَصَارَى لما بين سبحانه فى الآيات السابقة الرذائل المشتركة بين أهل الكتاب عامه، وبعض ما يختص ببعضهم كقول اليهود يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ وقول النصارى «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ» ختم الآيات بما يختص به كل من الطائفتين اذا قيس حالهم من المؤمنين ودينهم، وأضاف الى حالهم حال المشركين ليتم الكلام فى وقع الإسلام من قلوب الامم غير المسلمه من حيث قربهم وبعدهم من قبوله.

و يتم الكلام فى أن النصارى أقرب تلك الامم موده للمسلمين و اسمع لدعوتهم الحقه.

و إنما عددهم الله سبحانه أقرب موده للمسلمين لما وقع من إيمان طائفه منهم بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كما يدل عليه قوله فى الآيه التاليه: «وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ» الخ؛ لكن لو كان إيمان طائفه تصحح هذه النسبه الى جميعهم كان من الواجب أن تعد اليهود و المشركون كمثلى النصارى و ينسب اليهما نظير ما نسب اليهم لمكان إسلام طائفه من اليهود كعبد الله بن سلام و أصحابه، و إسلام عدده من مشركى العرب و هم عامه المسلمين اليوم فتخصيص النصارى بمثل قوله:

«وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ» الخ؛ دون اليهود و المشركين يدل على حسن إقبالهم على الدعوه الإسلاميه و إجابته النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مع أنهم على خيار بين أن يقيموا على دينهم و يؤدوا الجزيه، و بين أن يقبلوا الإسلام، أو يحاربوا.

و من المعلوم أن قوله تعالى: «لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا» من قبيل بيان الضابط العام فى صورته خطاب خاص نظير ما مر فى الآيات السابقه «تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا» و «تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الْإِثْمِ» .

قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ القسيس معرب «كشيش» و الرهبان جمع الراهب و قد يكون مفردا، قال الرغب: الرهبه و الرهب مخافه مع تحرز-الى أن قال-و الترهه التعبد، و الرهبانيه غلو فى تحمل التعبد من

فرط الرهبه، قال تعالى: «وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا» و الرهبان يكون واحدا و جمعا فمن جعله واحدا جمعه على رهابين، انتهى.

علل تعالى ما ذكره من كون النصارى أقرب موده و آنس قلوبا للذين آمنوا بخصال ثلاث يفقدها غيرهم من اليهود و المشركين، و هى أن فيهم علماء و ان فيهم رهبانا و زهادا، و أنهم لا يستكبرون و ذلك مفتاح تهيئهم للسعاده.

قوله تعالى: «وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ السَّخِّ بِمَا ضَمَّتِ الْعَيْنُ بِالْدمعِ سأل دمعا بكثرة، و«من» فى قوله: «مِنَ الدَّمْعِ» للابتداء، و فى قوله: «مما» للنشوء، و فى قوله: «من الحق» بيانيه.

قوله تعالى: «وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ السَّخِّ؛ لفظه «يُدْخِلْنَا» كأنها مضمنه معنى الجعل، و لذلك عدى بمع، و المعنى: يجعلنا ربنا مع القوم الصالحين مدخلا لنا فيهم.

و فى هذه الأفعال و الأقوال التى حكاها الله تعالى عنهم تصديق ما ذكره عنهم أنهم أقرب موده للذين آمنوا، و تحقيق أن فيهم العلم النافع و العمل الصالح و الخضوع للحق حيث كان فيهم قسيسون و رهبان و هم لا يستكبرون.

قوله تعالى: «فَأَذَابُهمُ اللهُ إِلَى آخِرِ الآيَتَيْنِ؛ و الإثابه» المجازاه، و الآيه الاولى ذكر جزائهم، و الآيه الثانيه فيها ذكر جزاء من خالفهم على طريق المقابله استيفاء للأقسام (١)(٢)(٣)(٤).

ص: ١٩٦

- ١-١. المائده ٦٨-٨٦: بحث روائى فى: لعن بنى اسرائيل على لسان داود و عيسى بن مريم؛ مسخ جماعه من بنى اسرائيل؛ عيسى بن مريم عليه السلام؛ هجره جماعه من المسلمين الى الحبشه.
- ٢-٢. المائده ٦٨-٨٦: كلام فى معنى التوحيد فى القرآن.
- ٣-٣. المائده ٦٨-٨٦: بحث روائى فى التوحيد.
- ٤-٤. المائده ٦٨-٨٦: بحث تاريخى فى توحيد الصانع.

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (۸۷) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ (۸۸) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۸۹)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْرُمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ، قال الراغب في المفردات: الحرام الممنوع منه إما بتسخير إلهي، وإما بمنع قهري، وإما بمنع من جهة العقل أو جهة الشرع أو من جهة من يرتسم أمره، انتهى موضع الحاجة.

وقال أيضا: أصل الحل حل العقد، ومنه قوله عزّ وجل: وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ، و حللت: نزلت، أصله من حل الأحمال عند النزول ثم جرد استعماله للنزول ف قيل: حل حلولا وأحله غيره، قال عزّ وجل أو تحلّ قريبا من دارهم، وأحلوا قومهم دار البوار، و يقال: حل الدين وجب أداءه، والحله القوم النازلون وحى حلال مثله، والمحلّه مكان النزول، وعن حل العقده استعير قولهم: حل الشيء حلا قال الله تعالى «وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ

حَلَالًا طَيِّبًا»، و قال تعالى: هَذَا حَلَالٌ وَ هَذَا حَرَامٌ، انتهى.

فالظاهر أن مقابله الحل الحرمة، وكذا التقابل بين الحل و الحرمة أو الإحرام من جهة تخيل العقد فى المنع الذى هو معنى الحرمة و غيرها ثم مقابله بالحل المستعار لمعنى الجواز و الإباحة، و اللفظان أعنى الحل و الحرمة من الحقائق العرفية قبل الإسلام دون الشرعية أو المتشريعة.

و الآيه أعنى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا﴾ الخ؛ تنهى المؤمنين عن تحريم ما أحل الله لهم، و تحريم ما أحل الله هو جعله حراما كما جعله الله تعالى حلالا و ذلك إما بتشريع قبال تشريع، و إما بالمنع أو الامتناع بأن يترك شيئا من المحللات بالامتناع عن إتيانه أو منع نفسه أو غيره من ذلك فإن ذلك كله تحريم و منه و منازعه لله سبحانه فى سلطانه و اعتداء عليه ينافى الايمان بالله و آياته، و لذلك صدر النهى بقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فإن المعنى: لا تحرموا ما أحل الله لكم و قد آمنتم به و سلمتم لأمره.

و يؤيده أيضا قوله فى ذيل الآيه التاليه: ﴿وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾.

و إضافه قوله: «طَيِّبَاتٍ» الى قوله: ﴿مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ - مع أن الكلام تام بدونه- للإشاره الى تتميم سبب النهى فإن تحريم المؤمنين لما أحل الله لهم على أنه اعتداء منهم على الله فى سلطانه، و نقض لإيمانهم بالله و تسليمهم لأمره كذلك هو خروج منهم عن حكم الفطره، فإن الفطره تستطيب هذه المحللات من غير استخبات، و قد أخبر الله سبحانه عن ذلك فيما نعت به نبيه صلى الله عليه و آله و سلم و الشريعة التى جاء بها حيث قال الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ الْأَنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَ يَحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْجَبَائِثَ وَ يُضَعُّ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (الأعراف / ١٥٧).

فمحصل مفاد الآيه النهى عن تحريم ما أحله الله بالاجتناب عنه و الامتناع من الاقتراب منه فإنه يناقض الإيمان بالله و آياته و يخالف كون هذه المحللات طيبات لا خباثه فيها حتى يجتنب عنها لأجلها، و هو اعتداء و الله لا يحب المعتدين.

قوله تعالى: **وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** قد عرفت أن ظاهر السياق أن المراد بالاعتداء هو التحريم المذكور فى الجمله السابقه عليه فقوله **«وَلَا تَعْتَدُوا** يجرى مجرى التأكيد لقوله **«لَا تُحَرِّمُوا»** الخ.

قوله تعالى: **وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالًا طَيِّبًا** الى آخر الآيه؛ ظاهر العطف أعنى الانعطاف قوله: **«وَكُلُوا»** على قوله: **«لَا تُحَرِّمُوا»** أن يكون مفاد هذه الآيه بمنزله التكرار و التأكيد لمضمون الآيه السابقه، و يؤيده سياق صدر الآيه من حيث اشتماله على قوله:

«حَلالًا طَيِّبًا»، و هو يحاذى قوله فى الآيه السابقه: **«طَيِّبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ»**، و كذا ذيلها من حيث المحاذاه الواقعه بين قوله فيه: **«وَأَتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ»** و قوله فى الآيه السابقه: **«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا»** و قد مر بيانه.

و على هذا فقوله: **«كلوا»** الخ؛ من قبيل ورود الأمر عقيب الحظر، و تخصيص قوله: **«كلوا»** بعد تعميم قوله: **«لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتٍ»** الخ؛ إما تخصيص بحسب اللفظ فقط، و المراد بالأكل مطلق التصرف فيما رزقه الله تعالى من طيبات نعمه، سواء كان بالأكل بمعنى التغذى أو بسائر وجوه التصرف، و قد تقدم مرارا أن استعمال الأكل بمعنى مطلق التصرف استعمال شائع ذائع.

و إما أن يكون المراد- و من الممكن ذلك- الأكل بمعناه الحقيقى، و يكون سبب نزول الآيتين تحريم بعض المؤمنين فى زمن النزول المأكولات الطيبه على أنفسهم فتكون الآيتان نازلتين فى النهى عن ذلك، و قد عمم النهى فى الآيه الاولى للأكل و غيره إعطاء للقاعده الكليه لكون ملاك النهى يعم محللات الأكل و غيرها على حد سواء.

و قوله: **«مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ»** لازم ما استظهرناه من معنى الآيتين كونه مفعولا لقوله **«كلوا»**

و قوله: «حَلَالًا طَيِّبًا» حالين من الموصول و بذلك تتوافق الآيتان، و ربما قيل: إن قوله:

«حَلَالًا طَيِّبًا» مفعول قوله: «كُلُوا» و قوله: «مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» متعلق بقوله «كُلُوا» أو حال من الحلال قدم عليه لكونه نكرة، أو كون قوله: «حَلَالًا» وصفا لمصدر محذوف، و التقدير:

رزقا حلالا طيبا الى غير ذلك.

قوله تعالى: «لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ اللَّغْوُ مَا لَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ أَثَرٌ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَ الْأَيْمَانُ جَمْعُ يَمِينٍ وَ هُوَ الْقَسْمُ وَ الْحَلْفُ؛ قَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ: وَ الْيَمِينُ فِي الْحَلْفِ مُسْتَعَارٌ مِنَ الْيَدِ اعْتِبَارًا بِمَا يَفْعَلُهُ الْمُعَاهِدُ وَ الْمُحَالِفُ وَ غَيْرِهِ، قَالَ تَعَالَى: أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بِاللَّعْنَةِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَ أَفَسِيحُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ «لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ» انتهى، و التعقيد مبالغه في العقد و قرئ:

عقدتم بالتخفيف، و قوله: «فِي أَيْمَانِكُمْ» متعلق بقوله «لَا يُؤَاخِذُكُمْ» أو بقوله «بِاللَّغْوِ» و هو أقرب.

و التقابل الواقع بين قوله: «بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ» و قوله: «بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ» يعطى أن المراد باللغو في الأيمان ما لا يعقد عليه الحالف، و إنما يجرى على لسانه جريا لعاده اعتادها أو لغيرها و هو قوله -و خاصه في قبيل البيع و الشرى-: لا- و الله، بلى و الله، بخلاف ما عقد عليه عقدا بالالتزام بفعل أو ترك كقول القائل: و الله لأفعلن كذا، و الله لأتركن كذا.

و أما قوله: «وَ لَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمُ الْأَيْمَانَ» فلا- يشمل إلا- اليمين الممضاه شرعا لمكان قوله في ذيل الآية: «وَ احْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ» فإنه لا- مناص عن شموله لهذه الأيمان بحسب إطلاق لفظه، و لا- معنى للأمر بحفظ الأيمان التي ألغى الله سبحانه اعتبارها فالمتعين أن اللغو من الأيمان في الآية ما لا عقد فيه، و ما عقد عليه هو اليمين الممضاه.

قوله تعالى: فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ -الى قوله- أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ، الكفاره هي العمل الذي يستر به مساءه المعصيه بوجه، من الكفر بمعنى الستر، قال تعالى:

نُكْفَرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ (النساء ٣١)، قال الراغب: والكفار ما يغطي الاثم و منه كفاره اليمين، انتهى.

و قوله: «فَكَفَّارَتُهُ» تفریح على اليمين باعتبار مقدر هو نحو من قولنا: فان حنثتم فكفارته كذا، و ذلك لأن في لفظ الكفار دلاله على معصيه تتعلق به الكفار، و ليست هذه المعصيه هي نفس اليمين، و لو كان كذلك لم يورد في ذيل الآيه قوله: «وَ احْفَظُوا أَيَّمَانِكُمْ» اذ لا معنى لحفظ ما فيه معصيه فالكفار إنما تتعلق بحنث اليمين لا بنفسها.

و منه يظهر أن المؤاخذة المذكوره في قوله: «وَ لَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ» هي المؤاخذة على حنث اليمين لا على نفس إيقاعها، و إنما أضيفت الى اليمين لتعلق متعلقها-أعنى الحنث-بها، فقوله «فَكَفَّارَتُهُ» متفرع على الحنث لا المقدر لدلاله قوله: «يُؤَاخِذُكُمْ» الخ؛ عليه، و نظير هذا البيان جار في قوله: «ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيَّمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ» و تقديره: اذا حلفتكم و حنثتم.

و قوله: «إِطْعَامُ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ» خصال ثلاث يدل الترديد على تعيين إحداها عند الحنث من غير جمع، و يدل قوله بعده: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ» على كون الخصال المذكوره تخيريته من غير لزوم مراعاة الترتيب الواقع بينها في الذكر، و إلا لغي التفریح في قوله: «فَمَنْ لَمْ يَجِدْ» الخ؛ و كان المتعين بحسب اقتضاء السياق أن يقال: أو صيام ثلاثة أيام.

و في الآيه أبحاث فرعيه كثيره مرجعها علم الفقه.

قوله تعالى: «ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيَّمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ» تقدم أن الكلام في تقدير: اذا حلفتكم و حنثتم، و في قوله: «ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيَّمَانِكُمْ» و كذا في قوله: «كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ» نوع التفات و رجوع من خطاب المؤمنين الى خطاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم، و لعل النكته فيه أن الجملتين جميعا من البيان الإلهي للناس إنما هو بوساطه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم فكأن في ذلك حفظا لمقامه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم في بيان ما

أوحى اليه للناس كما قال تعالى: وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ (النحل / ٤٤).

قوله تعالى: كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أى يبين لكم بواسطة نبيه أحكامه لعلكم تشكرونه بتعلمها و العمل بها (١).

[سوره المائده (٥): الآيات ٩٠ الى ٩٣]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠) إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعِدَاوَةَ وَالْبُغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصِيدَكُمُ عَنِ الذِّكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ (٩١) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ إِخْذُوا بِمَا نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْكِتَابَ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَّمَنَا عَلَى رُسُولِنَا الْبَلَاغَ الْمُبِينِ (٩٢) لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَ آمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَ أَحْسَنُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (٩٣)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ قد تقدم

ص: ٢٠٢

١- ١). المائده ٨٧-٨٩: بحث روائى فى: النهى عن تحريم طبيبات ما أحل الله؛ الايمان.

الكلام فى أول السوره فى معنى الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام فالخمر ما يخمر العقل من كل مائع مسكر عمل بالتخمير، و الميسر هو القمار مطلقاً، و الأنصاب هى الأصنام أو الحجاره التى كانت تنصب لذبح القرابين عليها و كانت تحترم و يترك بها، و الأزلام هى الأقداح التى كانت يستقسم بها، و ربما كانت تطلق على السهام التى كانت يتفاهل بها عند ابتداء الامور و العزيمه عليها كالخروج الى سفر و نحوه لكن اللفظ قد وقع فى أول السوره للمعنى الأول لوقوعه بين محرّمات الأكل فيتأيد بذلك كون المراد به هاهنا هو ذلك.

و أما قوله: رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فالرجس الشىء القذر على ما ذكره الراغب فى مفرداته فالرجاسه بالفتح كالنجاسه و القذاره هو الوصف الذى يتعد و ينتزه عن الشىء بسببه لتنفّر الطبع عنه.

و كون هذه المعدودات من الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام رجسا هو اشتمالها على وصف لا- تستيح الفطره الإنسانيه الاقتراب منها لأجله، و ليس إلا أنها بحيث لا تشتمل على شىء مما فيه سعادته إنسانيه أصلاً سعادته يمكن أن تصفو و تتخلص فى حين من الأحيان كما ربما أو ما إليه قوله تعالى: يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَإِنَّهُمَا لَأَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا (البقره ٢١٩)، حيث غلب الإثم على النفع و لم يستثن.

و لعله لذلك نسب هذه الأرجاس الى عمل الشيطان و لم يشرك له أحداً، ثم قال فى الآيه التالیه «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَ الْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ وَ يَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَ عَنِ الصَّلَاةِ» (١).

و أما قوله تعالى: فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ فتصريح بالنهاى بعد بيان المفسده ليكون أوقع فى النفوس ثم ترج للفلاح على تقدير الاجتناب، و فيه أشد التأكيد للنهاى لتثبيته

ص: ٢٠٣

ان لا رجاء لفلاح من لا يجتنب هذه الأرجاس.

قوله تعالى: **إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ فِي الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ** الى آخر الآية؛ قال الراغب في المفردات: العدو التجاوز و منافاه الائتنام فتاره يعتبر بالقلب فيقال له: العداوه و المعاداه، و تاره بالمشى فيقال له: العدو، و تاره في الإخلال بالعداله في المعامله فيقال له: العدو و العدو قال **فَيَسْتَبُوا اللَّهَ عَدُوًّا بَغْئِيرِ عِلْمٍ** و تاره بأجزاء المقر فيقال له: العدو يقال: مكان ذو عدواء اى غير متلائم الأجزاء فمن المعاداه يقال: رجل عدو و قوم عدو قال **بَغْضًا كُمْ لِبَعْضٍ عَدُوًّا** و قد يجمع على عدى (بالكسر فالفتح) و اعداء قال **وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ**، انتهى.

و البغض و البغضاء خلاف الحب، و الصد الصرف، و الانتهاء قبول النهى و خلاف الابتداء.

ثم إن الآية- كما تقدم- مسوقه بيانا لقوله «**مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**» أو لقوله «**رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ**» اى إن حقيقه كون هذه الامور من عمل الشيطان أو رجسا من عمل الشيطان ان الشيطان لا بغيه له و لا غايه فى الخمر و الميسر- اللذين قيل: إنهما رجسان من عمله فقط- إلا ان يوقع بينكم العداوه و البغضاء بتجاوز حدودكم و بغض بعضكم بعضا، و ان يصرفكم عن ذكر الله و عن الصلاه فى هذه الامور جميعا اعنى الخمر و الميسر و الانصاب و الأزلام (1).

و أما قوله تعالى: **فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ** فهو استفهام توبيخى فيه دلالة ما على أن المسلمين لم يكونوا ينتهون عن المناهى السابقه على هذا النهى، و الآية أعنى قوله: «**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ**» الخ؛ كالتفسير يفسر بها قوله: **يَسْتَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَ المَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا** **إِنَّكُمْ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَ إِنَّهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا** أى إن النفع الذى فرض فيهما مع الإثم ليس بحيث

ص: ٢٠٤

يمكن أن يفرز أحيانا من الإثم أو من الإثم الغالب عليه كالكذب الذى فيه إثم و نفع، و ربما افرز نفعه من إثمه كالكذب لمصلحه إصلاح ذات البين.

و ذلك لمكان الحصر فى قوله: «إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعِدَاةَ وَ الْبَغْضَاءَ» الخ؛ بعد قوله: «رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» فالمعنى أنها لا تقع إلا رجسا من عمل الشيطان، و أن الشيطان لا يريد بها إلا إيقاع العداوه و البغضاء بينكم فى الخمر و الميسر و صدكم عن ذكر الله و عن الصلاة فلا يصاب لها مورد يخلص فيه النفع عن الإثم حتى تباح فيه، فافهم ذلك.

قوله تعالى: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ وَ اخِذُوا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تأكيد للأمر السابق باجتناّب هذه الأرجاس أولا بالأمر بطاعه الله سبحانه و بيده أمر التشريع، و ثانيا بالأمر بطاعه الرسول و اليه الإجراء، و ثالثا بالتحذير صريحا.

ثم فى قوله: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَيَّ رَسُولُنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ تأكيد فيه معنى التهديد و خاصه لاشتماله على قوله: «فَاعْلَمُوا» فإن فيه تلويحا الى أنكم إن توليتم و اقترتم هذه المعاصى فكأنكم ظننتم أنكم كابرتم النبى صلى الله عليه و آله و سلم فيه نهيه عنها و غلبتموه، و قد جهلتم أو نسيتم أنه رسول من قبلنا ليس له من الأمر شىء إلا- بلاغ مبين لما يوحى اليه و يؤمر بتبليغه، و إنما نازعتم ربكم فى ربوبيته.

قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا الى آخر الآيه؛ الطعم و الطعام هو التغذى، و يستعمل فى المأكول دون المشروب، و هو فى لسان المدنيين البر خاصه، و ربما جاء بمعنى الذوق، و يستعمل حيثئذ بمعنى الشرب كما يستعمل بمعنى الأكل قال تعالى: فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَ مَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي (البقره ٢٤٩)، و فى بعض الروايات عن النبى صلى الله عليه و آله و سلم أنه قال فى ماء زمزم: إنه طعام طعم و شفاء سقم.

و الآيه لا تصلح بسياقها إلا أن تتصل بالآيات السابقه فتكون دفع دخل تتعرض لحال

المؤمنين ممن ابتلى بشرب الخمر قبل نزول التحريم أو قبل نزول هذه الآيات، وذلك أن قوله فيها: ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ مطلق غير مقيد بشيء مما يصلح لتقييده، والآية مسوقة لرفع الحظر عن هذا الطعام المطلق، وقد قيد رفع الحظر بقوله ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَبُوا﴾ والمتيقن من معنى هذا القيد- وقد ذكر فيه التقوى ثلاث مرات- هو التقوى الشديد الذي هو حق التقوى.

فالذي ينبغي أن يقال: إن الآيه في معنى الآيات السابقة عليها على ما هو ظاهر اتصالها بها، وهي متعرضه لحال من ابتلى من المسلمين بشرب الخمر و طعمها، أو بالطعم لشيء منها أو مما اقتناه باليسر أو من ذبيحه الأنصاب كأنهم سألوا بعد نزول التحريم الصريح عن حال من ابتلى بشرب الخمر، أو بها و غيرها مما ذكره الله تعالى في الآية قبل نزول التحريم من إخوانهم الماضين أو الباقين المسلمين لله سبحانه في حكمه.

فاجيب عن سؤالهم ان ليس عليهم جناح إن كانوا من الذين آمنوا و عملوا الصالحات إن كانوا جارين على صراط التقوى بالإيمان بالله و العمل الصالح ثم الإيمان بكل حكم نازل على النبي صلى الله عليه و آله و سلم ثم الإحسان بالعمل على طبق الحكم النازل.

و بذلك يتبين أن المراد بالموصول في قوله: ﴿فِيمَا طَعِمُوا﴾ هو الخمر من حيث شربها أو جميع ما ذكر من الخمر و الميسر و الأنصاب و الأزلام حيث ما يصح أن يتعلق بها من معنى الطعم، و المعنى: ليس على الذين آمنوا و عملوا الصالحات جناح فيما ذاقوه قبل نزول التحريم من خمر أو منها و من غيرها من المحرمات المذكوره.

و أما قوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَبُوا﴾ فظاهر قوله: ﴿إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أنه إعادته لنفس الموضوع المذكور في قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ للدلاله على دخاله الوصف في الحكم الذي هو نفى الجناح كقوله تعالى في خطاب المؤمنين: ﴿ذَلِكَ يُوعِظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾

يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ (البقره ٢٣٢)، وهو شائع في اللسان.

و ظاهر قوله: «ثُمَّ اتَّقُوا وَ آمَنُوا» اعتبار الإيمان بعد الإيمان، و ليس إلا الإيمان التفصيلي بكل حكم حكم مما جاء به الرسول من عند ربه من غير رد و امتناع، و لازمه التسليم للرسول فيما يأمر به و ينهى عنه قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ آمَنُوا بِرَسُولِهِ (الحديد / ٢٨)، و قال تعالى: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ -الى ان قال- فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَ يُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (النساء ٦٥)، و الآيات في هذا المعنى كثيره.

و ظاهر قوله: «ثُمَّ اتَّقُوا وَ أَحْسَنُوا» إضافة الإحسان الى الإيمان بعد الإيمان اعتباراً، و الإحسان هو إتيان العمل على وجه حسنه من غير نيه فاسده كما قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا (الكهف ٣٠)، و قال الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَ اتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ (آل عمران ١٧٢)، اى يكون استجابتهم ابتغاء لوجه الله و تسليماً لأمره لا لغرض آخر، و من الإحسان ما يتعدى الى الغير، و هو ان يوصل الى الغير ما يستحسنه، قال تعالى:

وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (البقره ٨٣)، و قال وَ أَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ (القصص / ٧٧).

و المناسب لمورد الآيه هو المعنى الأول من معنى الإحسان، و هو إتيان الفعل على وجه حسنه فإن التقوى الدينى لا يوفى حقه بمجرد الإيمان بالله و تصديق حقه دينه ما لم يؤمن تفصيلاً بكل واحد واحد من الأحكام المشرعه فى الدين فإن رد الواحد منها رد لأصل الدين، و لا أن الإيمان التفصيلي بكل واحد واحد يوفى به حق التقوى ما لم يحسن بالعمل بها و فى العمل بها بأن يجرى على ما يقتضيه الحكم من فعل أو ترك، و يكون هذا الجرى ناشئاً من الانقياد و الاتباع لا عن نيه نفاقه فمن الواجب على المتزود بزد التقوى أن يؤمن بالله و يعمل

صالحا، و ان يؤمن برسوله في جميع ما جاء به، و ان يجرى في جميع ذلك على نهج الاتباع و الإحسان (١).

[سوره المائده (٥): الآيات ٩٤ الى ٩٩]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيُبْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالَهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَ أَنْتُمْ حُرْمٌ وَ مَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَيْدِيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكُمْ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَ مَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥) أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَ لِلسِّيَّارَةِ وَ حُرْمٌ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرْمًا وَ اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٩٦) جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ لِيَأْتِيَ النَّاسَ وَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَ الْهَيْدِيَّ وَ الْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ وَ أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٩٧) اِعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَ أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٨) مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَ مَا تَكْتُمُونَ (٩٩)

ص: ٢٠٨

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَتْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ البلاء هو الامتحان والاختبار، ولام القسم والنون المشددة للتأكيد، وقوله: بشيء من الصيد يفيد التحقير ليكون تلقينه للمخاطبين عوناً لهم على انتهائهم إلى ما سيواجههم من النهي في الآيه الآتية، وقوله: «تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ» تعميم للصيد من حيث سهوله الاصطياد كما في فراخ الطير و صغار الوحش والبيض تنالها الأيدي فتصطاد بسهولة، ومن حيث صعوبه الاصطياد ككبار الوحش لا تصطاد عادة إلا بالسلاح.

و ظاهر الآيه أنها مسوقه كالتوطئه لما ينزل من الحكم المشدد في الآيه التاليه، ولذلك عقب الكلام بقوله «لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ» فإن فيه إشعاراً بأن هناك حكماً من قبيل المنع والتحريم ثم عقبه بقوله «فَمَنْ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

قوله تعالى: لِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ لا يبعد أن يكون قوله: لِيَتْلُوَنَّكُمْ اللَّهُ ليعلم كذا كناية عن أنه سيقدر كذا ليطمئن منكم من يخاف الله بالغيب عمن لا يخافه لأن الله سبحانه لا يجوز عليه الجهل حتى يرفعه بالعلم، وقد تقدم البحث المستوفى عن معنى الامتحان في تفسير قوله تعالى: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ» الآيه (آل عمران ١٤٢) في الجزء الرابع من هذا الكتاب، وتقدم أيضاً معنى آخر لهذا العلم.

و أما قوله: «مَنْ يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ» فالظرف متعلق بالخوف، ومعنى الخوف بالغيب أن يخاف الانسان ربه و يحترز ما ينذر به من عذاب الآخرة و أليم عقابه، و كل ذلك في غيب من الانسان لا يشاهد شيئاً منه بظاهر مشاعره، قال تعالى: «إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ

التفسير قوله بعد: «أَحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ» هذا من جهة الصيد، ويفسره من جهة معنى القتل قوله: «وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ» الخ؛ فقوله «مُتَعَمِّدًا» حال من قوله: «مَنْ قَتَلَهُ» و ظاهر التعمد ما يقابل الخطأ الذي هو القتل من غير أن يريد بفعله ذلك كمن يرمى الى هدف فأصاب صيدا، و لازمه وجوب الكفاره اذا كان قاصدا لقتل الصيد سواء كان على ذكر من إحرامه أو ناسيا أو ساهيا.

و قوله: فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعْمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ لظاهر معناه: فعليه جزاء ذلك الجزاء مثل ما قتل من الصيد، و ذلك الجزاء من النعم المماثله لما قتله يحكم به أى بذلك الجزاء المماثل رجلا منكم ذوا عدل فى الدين حال كون الجزاء المذكور هديا يهدى به بالغ الكعبه ينحر أو يذبح فى الحرم بمكه أو بمنى على ما بينه السنه النبويه.

فقوله «جزاء» بالرفع مبتدأ لخبر محذوف يدل عليه الكلام، و قوله: «مِثْلُ مَا قَتَلَ» و قوله: «مِنْ النَّعْمِ» و قوله: «يَحْكُمُ بِهِ» الخ؛ أو صاف للجزاء، و قوله: «هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ» موصوف و صفه، و الهدى حال من الجزاء كما تقدم، هذا، و قد قيل: غير ذلك.

و قوله: «أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا» خصلتان اخريان من خصال كفاره قتل الصيد، و كلمه «أَوْ» لا يدل على أزيد من مطلق الترديد، و الشارح السنه، غير أن قوله: «أَوْ كَفَّارَةٌ» حيث سمي طعام المساكين كفاره ثم اعتبر ما يعادل الطعام من الصيام لا يخلو من إشعار بالترتيب بين الخصال.

و قوله: «لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ» اللام للغايه، و هى و مدخولها متعلق بقوله «فَجَزَاءٌ» فالكلام يدل على أن ذلك نوع مجازاه.

قوله تعالى: عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَ مَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تعلق العفو بما سلف قرينه على أن المراد بما سلف هو ما تحقق من قتل الصيد قبل نزول الحكم

بنزول الآيه فإن تعلق العفو بما يتحقق حين نزول الآيه أو بعده يناقض جعل الحكم و هو ظاهر، فالجمله لدفع توهم شمول حكم الكفار للحوادث السابقه على زمان النزول.

و الآيه من الدليل على جواز تعلق العفو بما ليس بمعصيه من الأفعال اذا كان من طبعها اقتضاء النهى المولوى لاشتمالها على المفسده، و أما قوله: «وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ» فظاهر العود تكرر الفعل، و هذا التكرر ليس تكرر ما سلف من الفعل بأن يكون المعنى: و من عاد الى مثل ما سلف منه من الفعل فينتقم الله منه لأنه حينئذ ينطبق على الفعل الذى يتعلق به الحكم فى قوله: «وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ» الخ؛ و يكون المراد بالانتقام هو الحكم بالكفار، و هو حكم ثابت بالفعل لكن ظاهر قوله: «فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ» أنه إخبار عن أمر مستقبل لا عن حكم حال فعلى.

و هذا شاهد على أن المراد بالعود العود ثانيا الى فعل تعلق به الكفار، و المراد بالانتقام العذاب الإلهى غير الكفار المجعوله.

و على هذا فالآيه بصدرها و ذيلها تتعرض لجهات مسأله قتل الصيد، أما ما وقع منه قبل نزول الحكم فقد عفا الله عنه، و أما بعد جعل الحكم فمن قتله فعليه جزاء مثل ما قتل فى المره الاولى فإن عاد فينتقم الله منه و لا كفاره عليه، و على هذا يدل معظم الأخبار المرويه عن أئمه أهل البيت عليهم السلام فى تفسير الآيه.

و لو لا هذا المعنى كان كالمتعين حمل الانتقام فى قوله: «فَيَنْتَقِمِ اللَّهُ مِنْهُ» على ما يعم الحكم بوجوب الكفار، و حمل العود على فعل ما يماثل ما سلف منهم من قتل الصيد أى و من عاد الى مثل ما كانوا عليه من قتل الصيد قبل هذا الحكم، أى و من قتل الصيد فينتقم الله منه أى يؤاخذه بإيجاب الكفار، و هذا- كما ترى- معنى بعيد من اللفظ.

قوله تعالى: أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَ طَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ الى آخر الآيه؛ الآيات فى مقام بيان حكم الاصطياد من بحر أو بر، و هو الشاهد على أن متعلق الحل هو

الاصطياد في قوله: «أَجِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ» دون أكله، وبهذه القرينه يتعين قوله: «وَ طَعَامُهُ» في أن المراد به ما يؤكل دون المعنى المصدرى الذى هو الأكل و المراد بحل طعام البحر حل أكله فمحصل المراد من حل صيد البحر و طعامه جواز اصطياد حيوان البحر و حل أكل ما يؤخذ منهم.

و ما يؤخذ من طعام البحر و إن كان أعم مما يؤخذ منه صيدا كالعقيق من لحم الصيد أو ما قذفته البحر من ميتة حيوان و نحوه إلا أن الوارد من أخبار أئمة أهل البيت عليهم السّلام تفسيره بالمملوح و نحوه من عتيق الصيد، و قوله: «مَتَاعاً لَكُمْ وَ لِلسَّيَّارَةِ» كأنه حال من صيد البحر و طعامه، و فيه شيء من معنى الامتنان.

و حيث كان الخطاب للمؤمنين من حيث كونهم محرمين كانت المقابلة بينهم و بين السياره فى قوه قولنا: متاعا للمحرمين و غيرهم.

و اعلم أن فى الآيات أبحاثا فرعيه كثيره معنونه فى الكتب الفقهيه من أرادها فليراجعها.

قوله تعالى: جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فَيَا مَآ لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَ الْهُدَى وَ الْقَلَانِدَ ظاهر تعليق الكلام بالكعبه ثم بيانه بالبيت بأنه بيت حرام، و كذا توصيف الشهر بالحرام ثم ذكر الهدى و القلائد اللذين يرتبط شأنهما بحرمه البيت، كل ذلك يدل على أن الملاك فيما يبين الله سبحانه فى هذه الآيه من الأمر إنما هو الحرمة.

و القيام ما يقوم به الشيء، قال الرغاب: و القيام و القوام اسم لما يقوم به الشيء أى يثبت كالعماد و السناد لما يعمد و يسند به كقوله: «وَ لَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَيَا مَآ» أى جعلها مما يمسككم، و قوله: «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فَيَا مَآ لِلنَّاسِ» أى قواما لهم يقوم به معاشهم و معادهم، قال الأصم: قائما لا ينسخ، و قرئ: قيما بمعنى قياما، انتهى.

فيرجع معنى قوله: «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فَيَا مَآ لِلنَّاسِ» الى أنه تعالى جعل الكعبه بيتا حراما احترامه، و جعل بعض الشهور حراما، و وصل بينهما حكما كالحج فى ذى

الحججه الحرام، و جعل هناك امورا تناسب الحرمه كالهدى و القلائد كل ذلك لتعتمد عليه حياه الناس الاجتماعيه السعيده.

فإنه جعل البيت الحرام قبله يوجه اليه الناس و جوههم فى صلواتهم و يوجهون اليه ذبائحهم و أمواتهم، و يحترمونه فى سئى حالاتهم، فيتوحد بذلك جمعهم، و يجتمع به شملهم، و يحيى و يدوم به دينهم، و يحجون اليه من مختلف الاقطار و أفاصى الآفاق فيشهدون منافع لهم، و يسلكون به طرق العبوديه.

و يهدى باسمه و يذكره و النظر اليه و التقرب به و التوجه اليه العالمون، و قد بينه الله تعالى بوجه آخر قريب من هذا الوجه بقوله: **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَ هُدًى لِّلْعَالَمِينَ** (آل عمران 96)، و قد أفاك فى الآيه فى الجزء الثالث من هذا الكتاب من الكلام ما يتنور به المقام.

و من هنا يظهر وجه اتصال قوله: **«ذَلِكَ لَتَعْلَمُوا»** الى آخر الآيه؛ بما قبله، و المشار اليه بقوله **«ذَلِكَ»** إما نفس الحكم المبين فى الآيات السابقه الذى يوضح حكمه تشريعه قوله:

«جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فِيمَا لِلنَّاسِ» الخ؛ و إما بيان الحكم الموضح بقوله **«جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ»** الخ؛ المدلول عليه بالمقام.

و المعنى على التقدير الأول أن الله جعل البيت الحرام و الشهر الحرام قياما للناس و وضع ما يناسبهما من الأحكام لينتقلوا من حفظ حرمتها و العمل بالأحكام المشرعه فيهما الى أن الله عليهم بما فى السماوات و الأرض و ما يصلح شئونها، فشرع ما شرع لكم عن علم من غير أن يكون شئ من ذلك حكما خرافيا صادرا عن جهاله الوهم.

و المعنى على التقدير الثانى أنا بينا لكم هذه الحقيقه و هى جعل البيت الحرام و الشهر الحرام و ما يتبعهما من الأحكام قياما للناس لتعلموا أن الله عليهم بما فى السماوات و الأرض و ما يتبعها من الأحكام المصلحه لشئونها فلا تتوهموا أن هذه الأحكام المشرعه لاغيه من غير جدوى

أو أنها خرافات مختلفة.

قوله تعالى: **إِعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ** إلى آخر الآيتين؛ تأكيد للبيان و تثبيت لموقع الأحكام المذكوره، و عيد و وعد للمطيعين و العاصين، و فيه شائبه تهديد، و لذلك قدم توصيفه بشده العقاب على توصيفه بالمغفره و الرحمه، و لذلك أيضا أعقب الكلام بقوله **«مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ»** (١).

[سوره المائده (٥): آيه ١٠٠]

اشاره

قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ وَالطَّيْبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْثِ فَاثْقُوا اللَّهَ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٠٠)

بيان:

قوله تعالى: **قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَيْثُ وَالطَّيْبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَيْثِ كَأَنَّ الْمَرَادَ بِعَدَمِ اسْتِوَاءِ الْخَيْثِ وَالطَّيْبِ أَنَّ الطَّيْبَ خَيْرٌ مِنَ الْخَيْثِ، وَهُوَ أَمْرٌ بَيْنَ فَيْكُونَ الْكَلَامِ مَسْوِقًا لِلْكُنْيَا، وَذَلِكَ أَنَّ الطَّيْبَ بِحَسَبِ طَبْعِهِ وَبِقِضَاءِ مِنَ الْفِطْرَةِ أَعْلَى دَرَجَةٍ وَأَسْمَى مَنزَلَةً مِنَ الْخَيْثِ؛ فَلَوْ فَضُرَّ انْعِكَاسُ الْأَمْرِ وَصَيْرُورُهُ الْخَيْثَ خَيْرًا مِنَ الطَّيْبِ لِعَارِضٍ يَعْضُهُ كَانَ مِنَ الْوَاجِبِ أَنْ يَتَدْرَجَ الْخَيْثُ فِي الرَّقِيِّ وَالصُّعُودِ حَتَّى يَصِلَ إِلَى حَدِّ يَحَازِي الطَّيْبَ فِي مَنزَلَتِهِ وَيَسَاوِيهِ ثُمَّ يَتَجَاوِزُهُ فَيَفُوقُهُ فَإِذَا نَفَى اسْتِوَاءَ الْخَيْثِ وَالطَّيْبِ كَانَ ذَلِكَ أَبْلَغَ فِي نَفْيِ خَيْرِيهِ الْخَيْثِ مِنَ الطَّيْبِ.**

و من هنا يظهر وجه تقديم الخيـث على الطيب، فإن الكلام مسوق لبيان أن كثرة الخيـث لا تصيره خيرا من الطيب، وإنما يكون ذلك بارتفاع الخيـث من حضيض الرداء و الخسه الى

ص: ٢١٥

أوج الكرامه و العزه حتى يساوى الطيب فى مكانته ثم يعلو عليه و لو قيل: لا- يستوى الطيب و الخبيث كانت العناية الكلاميه متعلقه ببيان أن الطيب لا يكون أردى و أخس من الخبيث، و كان من الواجب حينئذ أن يذكر بعده أمر قله الطيب مكان كثره الخبيث فافهم ذلك.

قوله تعالى: فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ تفرّيع على المثل المضروب فى صدر الآيه، و محصل المعنى أن التقوى لما كان متعلقه الشرائع الإلهيه التى تبنى هى أيضا على طيبات و خبائث تكوينيه فى رعايه أمرها سعادته الانسان و فلاحه على ما لا يرتاب فى ذلك ذو لب و عقل فيجب عليكم يا اولى الألباب أن تتقوا الله بالعمل بشرائعه لعلكم تفلحون.

[سوره المائده (٥): الآيات ١٠١ الى ١٠٢]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَشْؤُكُمْ وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّلَ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَ اللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١) قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ (١٠٢)

بيان:

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ إِن تَبَدَّلَ لَكُمْ تَشْؤُكُمْ الآيه؛ الإبداء الإظهار، و ساءه كذا خلاف سرّه.

و الآيه تنهى المؤمنين عن أن يسألوا عن أشياء إن تبد لهم تشؤهم، و قد سكتت أولا عن المسئول من هو؟ غير أن قوله بعد: «وَإِن تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّلَ لَكُمْ»، و كذا قوله فى الآيه التاليه: «قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ» يدل على أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم

مقصود بالسؤال مسئول بمعنى أن الآيه سيقى للنهى عن سؤال النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن أشياء من شأنها كيت و كيت، وإن كانت العله المستفاده من الآيه الموجهه للنهى تفيد شمول النهى لغير مورد الغرض و هو أن يسأل الانسان و يفحص عن كل ما عفاه العفو الإلهى، و ضرب دون الاطلاع عليه بالأسباب العاديه و الطرق المألوفه سترافإن فى الاطلاع على حقيقه مثل هذه الامور مظنه الهلاك و الشقاء كمن تفحص عن يوم وفاته أو سبب هلاكه أو عمر أحبته و أعزته أو زوال ملكه و عزته، و ربما كان ما يطلع عليه هو السبب الذى يخترمه بالفناء أو يهدده بالشقاء.

قوله تعالى: قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِنْ قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا بِهَا كَافِرِينَ يقال: سأله و سأل عنه بمعنى، و«ثم» يفيد التراخى بحسب الرتبه الكلاميه دونه بحسب الزمان. و الباء فى قوله: «بها» متعلقه بقوله «كافرين» على ما هو ظاهر الآيه من كونها مسوقه للنهى عن السؤال عما يتعلق بقيود الأحكام و الشرائع المسكوت عنها عند التشريع؛ فالكفر كفر بالأحكام من جهه استلزامها تخرج النفوس عنها و تضيق القلوب من قبولها، و يمكن أن تكون الباء للسببيه و لا يخلو عن بعد.

و الآيه و إن أبهمت القوم المذكورين و لم يعرفهم لكن فى القرآن الكريم ما يمكن أن تنطبق عليه الآيه من القصص كقصه المائده من قصص النصارى و قصص اخرى من قوم موسى و غيرهم.

[سوره المائده (٥): الآيات ١٠٣ الى ١٠٤]

اشاره

مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيَّةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (١٠٣) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ (١٠٤)

قوله تعالى: **مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِيَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ**، هذه أصناف من الأنعام كان أهل الجاهلية يرون لها أحكاما مبنية على الاحترام و نوع من التحرير، وقد نفى الله سبحانه أن يكون جعل من ذلك شيئا، فالجعل المنفى متعلق بأوصافها دون ذواتها فإن ذواتها مخلوقة لله سبحانه لله سبحانه أن يكون جعل من ذلك شيئا، فالجعل المنفى متعلق بأوصافها دون ذواتها فإن ذواتها مخلوقة لله سبحانه من غير شك، وكذلك أوصافها من جهة أنها أوصاف فحسب، وإنما الذى تقبل الإسناد إليه تعالى و نفيه هي أوصافها من جهة كونها مصادر لأحكام كانوا يدعونها لها فهي التى تقبل الإسناد و نفيه، فنفى جعل البحيره و أخواتها فى الآية نفى لمشروعيه الأحكام المنتسبه إليها المعروفه عندهم.

و هذا الأصناف الأربعة من الأنعام و إن اختلفوا فى معنى أسمائها و يتفرع عليه الاختلاف فى تشخيص أحكامها كما ستقف عليه، لكن من المسلم أن أحكامها مبنية على نوع من تحريرها و الاحترام لها برعايه حالها، ثلاثه منها و هي البحيره و السائبه و الحامى من الإبل، و واحده و هي الوصيله من الشاه.

أما البحيره ففى المجمع: أنها الناقه كانت اذا نتجت خمسه أبطن و كان آخرها ذكرا بحروا أذنهما (أى شقوها شقا واسعا) و امتنعوا عن ركوبها و نحرها، و لا تطرد عن ماء و لا تمنع عن مرعى، فإذا لقيها المعبى لم تركبها، عن الزجاج.

و قيل: إنهم كانوا اذا نتجت الناقه خمسه أبطن نظروا فى البطن الخامس فإن كان ذكرا نحروه

فأكله الرجال و النساء جميعا،و إن كانت أنثى شقوا أذنها فتلك البحيره ثم لا يجز لها وبر،و لا يذكر لها اسم الله إن ذكيت،و لا حمل عليها،و حرم على النساء أن يذفن من لبنها شيئا،و لا أن ينتفعن بها،و كان لبنها و منافعها للرجال خاصه دون النساء حتى تموت فإذا ماتت اشتركت الرجال و النساء فى أكلها،عن ابن عباس،و قيل:إن البحيره بنت السائبه،عن محمد بن إسحاق.

و أما السائبه ففى المجمع أنها ما كانوا يسيبونه فإن الرجل اذا نذر القدوم من سفر أو البرء من عله أو ما أشبه ذلك قال:ناقتى سائبه فكانت كالبحيره فى أن لا ينتفع بها،و أن لا تخلى عن ماء و لا تمنع من مرعى،عن الزجاج،و هو قول علقمه.

قوله تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَىٰ آخِرَ آيَةٍ فِي حِكَايَةِ دَعْوَتِهِمْ إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَىٰ الرَّسُولِ الَّذِي شَأْنُهُ الْبَلَاغُ فَقَطْ فَالدَّعْوَةُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَهُوَ الصِّدْقُ الْخَالِي عَنِ الْفَرِيهَةِ،و العلم المبرى من الجهل فإن الآيه السابقه تجمع الافتراء و عدم التعقل فى جانبهم فلا يبقى لما يدعون اليه-أعنى جانب الله سبحانه-إلا الصدق و العلم.

لكنهم ما دفعوه إلا بالتقليد حيث قالوا:حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا،و التقليد و إن كان حقا فى بعض الأحيان و على بعض الشروط و هو رجوع الجاهل الى العالم،و هو مما استقر عليه سير المجتمع الإنسانى فى جميع أحكام الحياه التى لا يتيسر فيها للانسان أن يحصيّل العلم بما يحتاج الى سلوكه من الطريق الحيوى،لكن تقليد الجاهل فى جهله بمعنى رجوع الجاهل الى جاهل آخر مثله مذموم فى سنه العقلاء كما يذم رجوع العالم الى عالم آخر بترك ما يستقلّ بعمله من نفسه و الأخذ بما يعلم غيره.

و لذلك رده تعالى بقوله «أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» و مفاده أن العقل-لو كان هناك عقل-لا يبيح للانسان الرجوع الى من لا-علم عنده و لا اهتداء فهذه سنّه الحياه لا تبيح سلوكك طريق لا تؤمن مخاطره،و لا يعلم وصفه لا بالاستقلال و لا باتباع من له به خبره.

و لعل إضافه قوله: «وَلَا يَهْتَدُونَ» الى قوله: «لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا» لتتميم قيود الكلام بحسب الحقيقه، فإن رجوع الجاهل الى مثله و إن كان مذموما لكنه إنما يذم اذا كان المستؤل المتبوع مثل السائل التابع فى جهله لا يمتاز عنه بشىء، و أما اذا كان المتبوع نفسه يسلك الطريق بهدايه عالم خبير به و دلالتة فهو مهتد فى سلوكه، و لا ذم على من اتبعه فى مسيره و قلده فى سلوك الطريق، فإن الأمر ينتهى الى العلم بالآخره كمن يتبع عالما بأمر الطريق ثم يتبعه آخر جاهل به.

و من هنا يتضح أن قوله: «أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا» غير كاف فى تمام الحجه عليهم لاحتمال أن يكون آباؤهم الذين اتبعوهم بالتقليد مهتدين بتقليد العلماء الهداه فلا يجرى فيهم حكم الذم، و لا تتم عليهم الحجه فدفع ذلك بأن آباءهم لا يعلمون شيئا و لا يهتدون، و لا مسوغ لاتباع من هذا حاله.

و لما تحصل من الآيه الاولى أعنى قوله: «مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ» الخ؛ أنهم بين من لا يعقل شيئا و هم الأكثرون و من هو معاند مستكبر تحصل أنهم بمعزل من أهليه توجيه الخطاب و إلقاء الحجه و لذلك لم تلق اليهم الحجه فى الآيه الثانيه بنحو التخاطب بل سيق الكلام على خطاب غيرهم و الصفح عن مواجهم فقيل «أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ» .

و قد تقدم فى الجزء الأول من أجزاء هذا الكتاب بحث علمى أخلاقى فى معنى التقليد يمكنك أن تراجع.

و يتبين من الآيه أن الرجوع الى كتاب الله و الى رسوله-و هو الرجوع الى السنه-ليس من التقليد المذموم فى شىء.

[سوره المائده (٥): آيه ١٠٥]

إشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥)

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ لَا تَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ لَفْظُهُ «عَلَيْكُمْ» اسم فعل بمعنى أَلْزَمُوا، و«أَنْفُسِكُمْ» مفعوله.

و من المعلوم أن الضلال و الاهتداء- و هما معنيان متقابلان- إنما يتحققان في سلوك الطريق لا غير؛ فالملازم لمتن الطريق ينتهي الى ما ينتهي إليه الطريق، و هو الغايه المطلوبه التي يقصدها الإنسان السالك في سلوكه، أما اذا استهان بذلك و خرج عن مستوى الطريق فهو الضلال الذي تفوت به الغايه المقصوده فالآيه تقدر للانسان طريقا يسلكه و مقصدا يقصده غير أنه ربما لزم الطريق فاهتدى إليه أو فسق عنه فضل و ليس هناك مقصد يقصده القاصد إلا الحياه السعيده، و العاقبه الحسنی بلا ريب لكنها مع ذلك تنطبق بأن الله سبحانه هو المرجع الذي يرجع اليه الجميع: المهتدي و الضال.

فالثواب الذي يريده الإنسان في مسيره بالفطره إنما هو عند الله سبحانه يناله المهتدون، و يحرم عنه الضلال، و لازم ذلك أن يكون جميع الطرق المسلوكة لأهل الهدايه و الطرق المسلوكة لأهل الضلال تنتهي الى الله سبحانه، و عنده سبحانه الغايه المقصوده و إن كانت تلك الطرق مختلفه في إيصال الإنسان الى البغيه و الفوز و الفلاح أو ضربه بالخيبه و الخسران، و كذلك في القريب و البعد كما قال تعالى: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ (الانشقاق ٦) و قال تعالى: أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (المجادله ٢٢) و قال تعالى: أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ يَدَّٰلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَ أَحْلَوْا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (إبراهيم ٢٨) و قال تعالى: فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَ لِيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (البقره ١٨٦) و قال تعالى:

وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ

بين تعالى فى هذه الآيات أن الجميع سائرون اليه سبحانه سيرا لا- مناص لهم عنه، غير أن طريق بعضهم قصير و فيه الرشد و الفلاح، و طريق آخرين طويل لا ينتهى الى سعادته، و لا يعود الى سالكه إلا الهلاك و البوار.

و بالجمله فالآيه تقدر للمؤمنين و غيرهم طريقين اثنين ينتهيان الى الله سبحانه، و تأمر المؤمنين بأن يشتغلوا بأنفسهم و ينصرفوا عن غيرهم و هم أهل الضلال من الناس و لا يقعون فيهم و لا يخافوا ضلالهم فإنما حسابهم على ربهم لا على المؤمنين و ليسوا بمسئولين عنهم حتى يهملهم أمرهم؛ فالآيه قريبه المضمون من قوله تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (الجاثيه ١٤) و نظيرها قوله تعالى: تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَ لَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (البقره ١٣٤).

فعلى المؤمن أن يشتغل بما يهمل نفسه من سلوك سبيل الهدى، و لا يهزهزه ما يشاهده من ضلال الناس و شيوخ المعاصي بينهم و لا يشغله ذلك و لا يشتغل بهم فالحق حق و إن ترك و الباطل باطل و إن أخذ به كما قال تعالى: قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَ الطَّيِّبُ وَ لَوْ أَعْجَبَيْكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (المائد ١٠٠) و قال تعالى: وَ لَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَ لَا السَّيِّئَةُ (حم السجده ٣٤).

فقوله تعالى: لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ بِنَاءً عَلَى مَا مَرَّ مَسُوقٌ سَوْقَ الْكِنَايَةِ أُرِيدَ بِهِ نَهْيُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ التَّأَثُّرِ مِنْ ضَلَالِ مَنْ ضَلَّ مِنَ النَّاسِ فَيَحْمِلُهُمْ ذَلِكَ عَلَى تَرْكِ طَرِيقِ الْهَدَايَةِ كَأَن يَقُولُوا: إِنَّ الدُّنْيَا الْحَاضِرَةَ لَا- تساعد الدين و لا- تبيح التنحل بالمعنويات فإنما ذلك من السنن الساذجه و قد مضى زمنه و انقرض أهله، قال تعالى: وَ قَالُوا إِنَّ نَتَبِعَ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفُ مِنْ أَرْضِنَا (القصص ٥٧).

أو يخافوا ضلالهم على هدى أنفسهم فيشتغلوا بهم و ينسوا أنفسهم فيصبروا مثلهم فإنما الواجب على المؤمن هو الدعوه الى ربه و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر و بالجمله الأخذ بالأسباب العاديه ثم إيكال أمر المسيبات الى الله سبحانه فالله الأمر كله، فأما أن يهلك نفسه في سبيل إنقاذ الغير من الهلكه فلم يؤمر به، و لا يؤاخذ بعمل غيره، و ما هو عليه بوكيل، و على هذا فتصير الآية في معنى قوله تعالى: فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَٰلِكَ أَلْحِقْنَا لَكَ الْآثَارَ بِمَا كَانُوا لَكَ آثَارًا وَيَتْلَوْهُمُ أَنَّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَ إِذْنَا لَجَّاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا (الكهف ٨)، و قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا سَأَلُوا بِرَبِّهِمْ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَلِّغْ لِلَّهِ الْأُمُورَ جَمِيعًا فَلَمْ يُيَاسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَىٰ النَّاسَ جَمِيعًا (الرعد ٣١) و نحو ذلك (١)(٢)(٣).

[سوره المائده (٥): الآيات ١٠٦ الى ١٠٩]

اشاره

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذُوَا عَدْلٍ مِّنْكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسِبُوهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ اِرْتَبْتُمْ لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَلَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ إِنْ آتَا إِذَا لَمِنَ الْآمِنِينَ (١٠٦) فَإِنْ عَثَرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَيْحَقَّا إِثْمًا فَآخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ (١٠٧) ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعِيدٌ أَيْمَانِهِمْ وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اسْمِعُوا وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١٠٨) يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ يَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١٠٩)

ص: ٢٢٣

١- ١). المائده ١٠٥: بحث في تربيته النفس.

٢- ٢). المائده ١٠٥: بحث روائى فى النفس و معرفتها و تربيتها.

٣- ٣). المائده ١٠٥: بحث علمى ملفق من اشارات تاريخيه و ابحاث آخر نفسيه و غير ذلك فى فصول (حقيقه النفس، معرفه النفس، اساليب الاقوام و الشعوب المختلفه من تزكيه النفس، العرفان، كرامات خارقه للعاده، متى انقادت الاشياء للانسان، علم النفس.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ محصل مضمون الآيتين أن أحدهم إذا كان على سفر فأراد أن يوصى فعليه أن يشهد حين الوصيه شاهدين عدلين من المسلمين و إن لم يجد فشاهدين آخرين من غير المسلمين من أهل الكتاب فإن ارتاب أولياء الميت في أمر الوصيه يحبس الشاهدان بعد الصلاة فيقسمان بالله على صدقهما فيما يشهدان عليه و ترفع بذلك الخصومه، فإن اطلعوا على أن الشاهدين كذبا في شهادتهما أو خانا في الأمر فيوقف شاهدان آخران مقام الشاهدين الأولين فيشهدان على خلافهما و يقسمان بالله على ذلك.

فهذا ما تفيداه الآيتان بظاهرهما فقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاب للمؤمنين و الحكم مختص بهم «شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ» أى شهاده بينكم شهاده ذوى عدل منكم، ففى جانب الخبر مضاف مقدر، أو شهداء بينكم ذوا

عدل منكم، والمراد أن عدد الشهود اثنان فالمصدر-الشهادة-بمعنى اسم الفاعل كقولهم:

رجل عدل ورجلان عدل.

و حضور الموت كناية عن حضور داعى الوصيه فإن الناس بحسب الطبع لا يشتغلون بأمثال هذه الامور من غير حضور أمر يوجب الظن بالموت، وهو عادة المرض الشديد الذى يشرف الإنسان به على الموت.

وقوله: حِينَ الْوَصِيَّةِ ظرف متعلق بالشهادة أى الشهادة حين الوصيه، والمراد بالعدل- وهو مصدر-الاستقامه فى الأمر، و قرينه المقام تعطى أن المراد به الاستقامه فى أمر الدين، و يتعين بذلك أن المراد بقوله: «مِنْكُمْ» و قوله: «مِنْ غَيْرِكُمْ» المسلمون و غير المسلمين، دون القرابه و العشيره فإن الله سبحانه قابل بين قوله: «أَتَيْنَانِ» و قوله: «آخِرَانِ»، ثم وصف الأول بقوله «ذَوَا عَدْلٍ» و قوله: «مِنْكُمْ» و لم يصف الثانى إلا- بقوله «مِنْ غَيْرِكُمْ» دون أن يصفه بالعداله، و الاتصاف بالاستقامه فى الدين و عدمه إنما يختلف فى المسلم و غير المسلم، و لا موجب لاعتبار العداله فى الشهود اذا كانوا قرابه أو من عشيره المشهود له و إلغائها اذا كان الشاهد أجنبيا.

و على هذا فقوله: «أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ» ترديد على سبيل الترتيب أى إن كان هناك نفر من المسلمين يستشهد اثنان منهم، و إن لم يكن إلا من غير المسلمين يستشهد باثنين منهم، كل ذلك بالاستفاده من قرينه المقام.

و هذه القرينه بعينها هى التى توجب أن يكون قوله: «إِنْ أَنْتُمْ ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَأَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ» قيدا متعلقا بقوله «أَوْ آخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ» فإن المسلم لما كان بالطبع إنما يعيش فى مجتمع المسلمين لا تمس الحاجه فى الحضر عادة الى الاستشهاد بشهيد من غير المسلمين بخلاف حاله السفر و الضرب فى الأرض فإنها مظنه وقوع أمثال هذه الوقائع و الاضطراب و مسيس الحاجه الى الانتفاع من غير المسلم بشهاده أو غيرها.

و قرينه المقام اعنى المناسبه بين الحكم و الموضوع بالذوق المتخذ من كلامه تعالى تدل على أن المراد من غير المسلمين أهل الكتاب خاصه لأن كلامه تعالى لا يشرف المشركين بكرامه.

و قوله تعالى: تَحْبِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ أَيْ تَوْقِفُونَهُمَا، و الحبس الإيقاف، «فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ» أَيْ الشَّاهِدَانِ «إِنْ أَرْتَبْتُمْ» أَيْ شَكَّكْتُمْ فيما يظهره الوصى من أمر الوصيه أو المال الذى تعلقت به الوصيه أو فى كيفية الوصيه، و المقسم عليه هو قوله: «لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ» أَيْ لَا نَشْتَرِي بِالشَّهَادَةِ لِلْوَصَىٰ فيما يدعيه ثمننا قليلا و لو كان ذا قربي، و اشتراء الثمن القليل بالشهاده أن ينحرف الشاهد فى شهادته عن الحق لغايه دنيويه من مال أو جاه أو عاطفه قرابه فيبذل شهادته بإزاء ثمن دنيوى، و هو الثمن القليل.

و قوله: «وَلَا نَكْتُمُ الشَّهَادَةَ لِلَّهِ أَيْ بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ خِلَافِ الْوَاقِعِ «إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثِمِينَ» الْحَامِلِينَ لِلْإِثْمِ، و الجملة معطوفه على قوله: «لَا نَشْتَرِي بِهِ ثَمَنًا» كعطف التفسير.

و إضافه الشهاده الى الله فى قوله: «شَهَادَةَ اللَّهِ» إما لأن الواقع يشهده الله سبحانه كما شهده الشاهدان فهو شهادته سبحانه كما هو شهادتهما و الله أحق بالملك فهو شهادته تعالى حقا و بالأصالة و شهادتهما تبعا، و قد قال تعالى: وَ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا (النساء/٧٩) و قال تعالى:

وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ (البقره/٢٥٥).

و إما لأن الشهاده حق مجعول لله على عباده يجب عليهم أن يقيموها على وجهها من غير تحريف أو كتمان، و هذا كما يقال: دين الله، فينسب الدين إليه تعالى مع أن العباد هم المتلبسون به، قال تعالى: وَ أَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ (الطلاق/٣) و قال: وَ لَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ (البقره/٢٨٣).

و قوله: فَإِنْ عُثِرَ عَلَىٰ أَنَّهُمَا اسْتَحَقَّا إِثْمًا الْعُثُورُ عَلَى الشَّيْءِ الْحَصُولُ عَلَيْهِ

و وجدانه، وهذه الآية بيان و تفصيل للحكم فى صورته ظهور خيانه الشاهدين و كذبهما فى شهادتهما.

و المراد باستحقاق الإثم الإجرام و الجنايه يقال: استحق الرجل أى أذنب، و استحق فلان إثما على فلان كناية عن إجرامه و جنايته عليه و لذا عدى بعلى فى قوله تعالى: ذيلًا: «اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ» أى أجرما و جنيا عليهم بالكذب و الخيانه، و أصل معنى قولنا: استحق الرجل طلب أن يحق و يثبت فيه الإثم أو العقوبه فاستعماله الكنائى من قبيل إطلاق الطلب و إرادته المطلوب و وضع الطريق موضع الغايه، و إنما ذكر الإثم فى قوله: «اسْتَحَقَّ إِثْمًا» بالبناء على ما تقدم فى قوله: «إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَثْمِينَ» .

و قوله تعالى: فَآخِرَانِ يُقِيمَانِ مَقَامَهُمَا أى إن عشر على أن الشاهدين استحقا بالكذب و الخيانه فشاهدان آخران يقومان مقامهما فى اليمين على شهادتهما عليهما بالكذب و الخيانه.

و قوله: مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فى موضع الحال أى حال كون هذين الجديدين من الذين استحق عليهم أى أجرم و جنى عليهم الشاهدان الأولان اللذين هما الأوليان الأقربان بالميت من جهة الوصيه كما ذكره الرازى فى تفسيره، و المراد بالذين استحق عليهم الأوليان أولياء الميت، و حاصل المعنى أنه إن عشر على أن الشاهدين أجرما على أولياء الميت بالخيانه و الكذب فيقوم شاهدان آخران من أولياء الميت اللذين أجرم عليهم الشاهدان الأولان الأوليان بالموت قبل ظهور استحقاقهما للإثم.

هذا على قراءة «استحق» بالبناء للفاعل و هو قراءه عاصم على روايه حفص، و أما على قراءه الجمهور «استحق» بضم التاء و كسر الحاء بالبناء للمفعول فظاهر السياق أن يكون الأوليان مبتدأ خبره قوله: «فَآخِرَانِ يُقِيمَانِ» الخ؛ قدم عليه لتعلق العنايه به، و المعنى إن عشر على أنهما استحقا إثما فالأوليان بالميت هما آخران يقومان مقامهما من أوليائه المجرم

و فى قراءه عاصم من طريق أبى بكر و حمزه و خلف و يعقوب «الأولين» جمع الأول مقابل الآخر، و هو بظاهره بمعنى الأولياء و المقدمين، و وصف أو بدل من قوله: «الذين».

و قد فرع على قوله: «فَأَخْرَانِ يَقُومَانِ» الخ؛ تفريع الغايه على ذى الغايه قوله: «فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ» أى الشاهدان الآخران من أولياء الميت «لَشَهَادَتِنَا» بما يتضمن كذبهما و خيانتهما «أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا» أى من شهادته الشاهدين الأولين بما يدعيان من أمر الوصيه «وَمَا اعْتَدَيْنَا» عليهما بالشهاده على خلاف ما شهدا عليه «إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ».

قوله تعالى: ذَلِكْ أَذْنَى أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَىٰ وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بَعِيدَ أَيْمَانِهِمُ الآيه؛ فى مقام بيان حكمه التشريع و هى أن هذا الحكم على التريب الذى قرره الله تعالى أحوط طريق الى حيازه الواقع فى المقام، و أقرب من أن لا يجوز الشاهدان فى شهادتهما و يخافا من أن يتغير الأمر عليهما برد شهادتهما بعد قبولهما.

ثم عقب تعالى القول بالموعظه و الإنذار فقال «وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اسْمَعُوا وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» و المعنى واضح.

قوله تعالى: يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا بِئِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ الآيه؛ لا تأبى الاتصال بما قبلها فإن ظاهر قوله تعالى فى ذيل الآيه السابقه: «وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ اسْمَعُوا» الخ؛ و إن كان مطلقا لكنه بحسب الانطباق على المورد نهى عن الانحراف و الجور فى الشهاده و الاستهانه بأمر اليمين بالله فناسب أن يذكر فى المقام بما يجرى بينه سبحانه و بين رسله يوم القيامه و هم شهداء على اممهم و أفضل الشهداء، حيث يسألهم الله سبحانه عن الذى أجابهم به اممهم و هم أعلم الناس بأعمال اممهم و الشاهدون من عند الله عليهم فيجيوبونه بقولهم «لَا عِلْمَ لَنَا بِئِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ».

فإذا كان الأمر على هذه الوتيره، و كان الله سبحانه هو العالم بكل شىء حق العلم فجدير

بالشهود أن يخافوا مقام ربهم: و لا- ينحرفوا عن الحق الذى رزقهم الله العلم به، و لا- يكتموا شهاده الله فيكونوا من الآ-ثمين و الظالمين و الفاسقين.

فقوله تعالى: يَوْمَ يَجْمَعُ الخ؛ ظرف متعلق بقوله فى الآيه السابقه «وَ اتَّقُوا اللَّهَ» الخ؛ و ذكر جمع الرسل دون أن يقال «يوم يقول الله للرسل» لمكان مناسبه مع جمع الشهداء للشهاده كما يشعر به قوله: «تَحْسِبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ» .

و أما نفيهم العلم يومئذ عن أنفسهم بقولهم «لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» فإثباتهم جميع علوم الغيوب لله سبحانه على وجه الحصر يدل على أن المنفى ليس أصل العلم فإن ظاهر قولهم «إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» يدل على أنه لتعليل النفى، و من المعلوم أن انحصار جميع علوم الغيب فى الله سبحانه لا يقتضى رفع كل علم عن غيره و خاصة اذا كان علما بالشهاده، و المسئول عنه أعنى كيفيه إجابه الناس لرسولهم من قبيل الشهاده دون الغيب.

فقولهم: لَا عِلْمَ لَنَا ليس نفيا لمطلق العلم بل لحق العلم الذى لا- يخلو عن التعلق بالغيب فإن من المعلوم أن العلم إنما يكشف لعالمه من الواقع على قدر ما يتعلق بأمر من حيث أسبابه و متعلقاته، و الواقع فى العين مرتبط بجميع أجزاء الخارج مما يتقدم على الأمر الواقع فى الخارج و ما يحيط به مما يصاحبه زمانا فالعلم بأمر من الامور الخارجيه بحقيقه معنى العلم لا يحصل إلا بالإحاطه بجميع أجزاء الوجود ثم بصانعه المتعالى من أن يحيط به شىء، و هذا أمر وراء الطاقه الإنسانيه.

فلم يرزق الإنسان من العلم فى هذا الكون الذى يبهته التفكير فى سعه ساحته، و تهوله النظره فى عظمه أجرامه و مجراته، و يطير لبه الغور فى متون ذراته، و يأخذ الدوار اذا أراد الجرى بين هاتين الغائيتين إلا اليسير من العلم على قدر ما يحتاج اليه فى مسير حياته كالشمعه الصغيره يحملها طارق الليل المظلم لا ينتفع من نورها إلا أن يميز ما يضع عليه قدمه من الأرض.

فما يتعلق به علم الإنسان ناشب بوجوده متعلق بواقعيته بأطراف ثم بأطراف أطراف، و هكذا كل ذلك في غيب من إدراك الإنسان فلا يتعلق العلم بحقيقته معنى الكلمه بشيء إلا اذا كان متعلقا بجميع الغيوب في الوجود، ولا يسع ذلك لمخلوق محدود مقدر إنسانا أو غيره إلا لله الواحد القهار الذى عنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو، قال الله تعالى: **وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** (البقره ٢١٦) فدل على أن من طبع الإنسان الجهل فلا يرزق من العلم إلا محدودا مقدرًا كما قال تعالى: **وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ** (الحجر ٢١) و هو قوله عليه السلام حيث سئل عن عله احتجاب الله عن خلقه فقال: لأنه بناهم بنيه على الجهل، و قال تعالى: **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ** (البقره ٢٥٥) فدل على أن العلم كله لله، و إنما يحيط منه الإنسان بما شاء الله، و قال تعالى: **وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا** (الإسراء ٨٥) فدل على أن هناك علما كثيرا لم يؤت الإنسان إلا قليلا منه.

فإذن حقيقته الأمر أن العلم حق العلم لا يوجد عند غير الله سبحانه، و إذا كان يوم القيامة يوما يظهر فيه الأشياء بحقائقها على ما تفيد الآيات الواصفه لأمره فلا مجال فيه إلا للكلام الحق كما قال تعالى: **لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا**، ذلك اليوم الحق (النبا ٣٩) كان من الجواب الحق اذا ما سئل الرسل ف قيل لهم **«مَاذَا أُجِبْتُمْ»** أن يجيبوا بنفى العلم عن أنفسهم لكونه من الغيب، و يشبهه لربهم سبحانه بقولهم **لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**.

و هذا الجواب منهم عليهم السلام نحو خضوع لحضره العظمه و الكبرياء و اعتراف بحاجتهم الذاتيه و بطلانهم الحقيقى قبال مولا هم الحق رعايه لأدب الحضور و إظهارا لحقيقه الأمر، و ليس جوابا نهائيا لا جواب بعد البته:

أما أولا- فلأن الله سبحانه جعلهم شهداء على امهم كما ذكره في قوله: **فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا** (النساء ٤١) و قال: **وَوَضِعَ الْكِتَابَ وَجِئْنَا**

بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ (الزمر ٦٩/) ولا معنى لجعلهم شهداء إلا لشهدوا على اممهم يوم القيامة بما هو حق الشهاده يومئذ، فلا محاله هم سيشهدون يومئذ كما قدر الله ذلك فقولهم يومئذ لا - عِلْمٌ لَنَا جَرَى عَلَى الْأَدْبِ الْعِبَادِي قِبَالَ الْمَلِكِ الْحَقِّ الَّذِي لَهُ الْأَمْرُ وَالْمَلِكِ يَوْمئِذٍ، وبيان لحقيقه الحال و هو أنه هو يملك العلم لذاته و لا يملك غيره إلا ما ملكه، و لا ضير أن يجيبوا بعد هذا الجواب بما لهم من العلم الموهوب المتعلق بأحوال اممهم، و هذا مما يؤيد ما قدمناه فى البحث عن قوله تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ الْآيَةِ (البقره ١٤٣/) فى الجزء الأول من هذا الكتاب: أن هذا العلم و الشهاده ليسا من نوع العلم و الشهاده المعروفين عندنا و أنهما من العلم المخصوص بالله الموهوب لطائفه من عباده المكرمين.

و أما ثانيا فلأن الله سبحانه أثبت العلم لطائفه من مقربى عباده يوم القيامة على ما له من الشأن، قال تعالى: وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِئْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ (الروم ٥٦/) و قَالَ تَعَالَى: وَ عَلَى الْمَاعْرِفِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كَلِمًا بَسِيْمًا هُمْ (الأعراف ٤٦/) و قَالَ تَعَالَى: وَ لَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف ٨٧/) و عيسى بن مريم عليه السلام ممن تعمه الآيه و هو رسول فهو ممن يشهد بالحق و هم يعلمون، و قَالَ تَعَالَى: وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (الفرقان ٣١/) و المراد بالرسول رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و الذى تحكيه الآيه من قوله هو بعينه جواب لما تشتمل عليه هذه الآيه من السؤال أعنى قوله تعالى: فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ فظهر أن قول الرسل عليهم السلام «لا علم لنا» ليس جوابا نهائيا كما تقدم.

و أما ثالثا فلأن القرآن يذكر السؤال عن المرسلين و المرسل إليهم جميعا كما قال تعالى:

فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ (الأعراف ٦/) ثم ذكر عن الامم المرسل اليهم جوابات كثيره عن سؤالات كثيره، و الجواب يستلزم العلم كما أن السؤال يقرره، و قال

أَيْضاً فِيهِمْ: لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق / ٢٢) وَقَالَ أَيْضاً: وَ لَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ (السجده ١٢) الى غير ذلك من الآيات الكثيره، و اذا كانت الامم - وخاصة المجرمون منهم - على علم في هذا اليوم فكيف يتصور أن يعدمه الرسل الكرام عليهم السلام فالمصير الى ما قدمناه (١)(٢)(٣)(٤).

[سوره المائده (٥): الآيات ١١٠ الى ١١١]

اشاره

إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْمَكْمَةَ وَالأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَيْنَ إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ (١١٠) وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَإِشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (١١١)

ص: ٢٣٢

١- ١). المائده ١٠٥: كلام في معنى الشهاده.

٢- ٢). المائده ١٠٥: كلام في العداله.

٣- ٣). المائده ١٠٥: كلام في اليمين.

٤- ٤). المائده ١٠٥: بحث روائى في: الوصيه؛ الشهاده؛ معنى الآيه «لَا عِلْمَ لَنَا بِإِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» .

قوله تعالى: إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ -الى قوله- وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي الْآيَةَ تعدّده من الآيات الباهرة الظاهرة بيده عليه السلام إلا أنها تمتن بها عليه و على أمه جميعا، و هى مذكوره بهذا اللفظ تقريبا فيما يحكيه تعالى من تحديث الملائكه مريم عند بشارتها بعيسى عليه السلام فى سورة آل عمران، قال تعالى: إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ -الى أن قال- وَ يُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهْلًا -الى أن قال- وَ يُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ وَ رَسُولًا -إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ، أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَ أُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَ الْأَبْرَصَ وَ أُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ الْآيَاتِ (٤٥-٥٠).

و التأمل فى سياق الآيات يوضح الوجه فى عدّ ما ذكره من الآيات المختصه ظاهرا بالمسيح نعمه عليه و على والدته جميعا كما تشعر به آيات آل عمران فإن البشاره إنما تكون بنعمه، و الأمر على ذلك فإن ما اختص به المسيح عليه السلام من آيه و موهبه كالولاده من غير أب و التأييد بروح القدس و خلق الطير و إبراء الأكمه و الأبرص و إحياء الموتى بإذن الله سبحانه فهى بعينها كرامه لمريم كما أنها كرامه لعيسى عليها السلام فهما معا منعمان بالنعمه الإلهيه كما قال تعالى: نعمتى التى أنعمت عليك و على والدتك.

و الى ذلك يشير تعالى بقوله وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (الأنبياء ٩١) حيث عدّهما معا آيه واحده لا آيتين.

و قوله: إِذْ أُيِّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ الظاهر أن التأييد بروح القدس هو السبب المهيئ له لتكليم الناس فى المهده، و لذلك وصل قوله: تُكَلِّمُ النَّاسَ من غير أن يفصله بالعطف الى الجملة السابقه إشعارا بأن التأييد و التكليم معا أمر واحد مؤلف من سبب

و مسبب، و اكتفى فى موارد من كلامه بذكر أحد الأمرين عن الآخر كقوله فى آيات آل عمران المنقوله آنفا: تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَ كَهَلًا، و قوله: وَ آتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَاتِ وَ أَيْدِنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ (البقره ٢٥٣/).

على أنه لو كان المراد بتأييده بروح القدس مسأله الوحي بوساطه الروح لم يختص بعيسى بن مريم عليه السّلام و شاركه فيها سائر الرسل مع أن الآيه تأبى ذلك بسياقها.

و قوله: وَ إِذْ عَلَّمْتِكَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ التَّوْرَةَ وَ الْإِنْجِيلَ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَسْتَفَادَ مِنْهُ أَنَّهُ عَلَيْهِ السّلام إنما تلقى علم ذلك كله بتلق واحد عن أمر إلهى واحد من غير تدريج و تعدد كما أنه أيضا ظاهر جمع الجميع و تصديرها بإذ من غير تكرار لها.

و كذلك قوله: وَ إِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ظاهر السياق من جهه عدم تكرار لفظه «إذ» أن خلق الطير و إبراء الأكمه و الأبرص كانا متقارنين زمانا، و أن تذييل خلق الطير بذكر الإذن من غير أن يكتفى بالإذن المذكور فى آخر الجملة إنما هو لعظمه أمر الخلق بإفاضه الحياه فتعلقت العناية به فاختص بذكر الإذن بعده من غير أن ينتظر فيه آخر الكلام صونا لقلوب السامعين من أن يخطر فيها أن غيره تعالى يستقل دونه بإفاضه الحياه أو تلبث فيها هذه الخطره و لو لحظات يسيره، و الله أعلم.

و قوله: وَ إِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي إِخْرَاجَ الْمَوْتَى كِنَايَةً عَنْ إِحْيَائِهَا، و فيه عنايه ظاهره بأن الإحياء الذى جرى على يديه عليه السّلام كان إحياء لموتى مقبورين بإفاضه الحياه عليهم و إخراجهم من قبورهم الى حياه دنيويه، و فى اللفظ دلالة على الكثره، و قد تقدم فى الكلام على آيات آل عمران بقيه ما يتعلق بهذه الآيات من الكلام فراجع ذلك.

قوله تعالى: وَ إِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ فيه دلالة على أنهم قصدوه بشر فكفهم الله عن ذلك فينطبق على ما ذكره الله فى سورة آل عمران فى قصصه عليه السّلام

بقوله وَ مَكَرُوا وَ مَكَرَ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ .

قوله تعالى: وَ إِذِ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ الْآيَةَ؛ الْآيَةَ مِنْطَبِقَهُ عَلَى آيَاتِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ بِقَوْلِهِ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (آل عمران ٥٢).

و من هنا يظهر أن هذا الإيمان الذى ذكره فى الآيه بقوله «وَ إِذِ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمَنُوا بِي وَ بِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا» الْآيَةَ؛ غير إيمانهم الأول به عليه السّلام فإن ظاهر قوله فى آيه آل عمران: فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ أَنَّهُ كَانَ فِي أَوَاخِرِ أَيَّامِ دَعْوَتِهِ وَ قَدْ كَانَ الْحَوَارِيُّونَ وَ هُمُ السَّابِقُونَ الْأَوْلُونَ فِي الْإِيمَانِ بِهِ مُلَازِمِينَ لَهُ.

على أن ظاهر قوله فى آيه آل عمران: قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَ أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ أن الدعوه إنما سيقّت لأخذ الميثاق على نصره دين الله لا أصل الإيمان بالله، لأنك ختم الآيه بقولهم «وَ أَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» وَ هُوَ التّسليم لأمر الله بإقامه دعوته وَ تحمّل الأذى فى جنبه، وَ كل ذلك بعد أصل الإيمان بالله طبعاً.

فتبين أن المراد بقوله «وَ إِذِ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ» الخ؛ قصه أخذ الميثاق من الحواريين، وَ فى الآيه ابّحاث آخر مرت فى تفسير سورة آل عمران (١).

[سوره المائده (٥): الآيات ١١٢ الى ١١٥]

إشارة

إِذِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ سَيَتَطَيَّعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١١٢) قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَ تَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَ نَكُونَ عَلَيَّهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣) قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَ آخِرِنَا وَ آيَةً مِنْكَ وَ أَرْزُقْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤) قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)

ص: ٢٣٥

(١-١). المائده ١١٢-١١٥: بحث روائى فى: المعجزه و تناسبها لزمانها؛ ان عيسى هل احيا احدا بعد موته.

قوله تعالى: إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ «إِذْ» ظرف متعلق بمقدر و التقدير: اذكر اذ قال، الخ؛ أو ما يقرب منه، و ذهب بعضهم الى أنه متعلق بقوله فى الآيه السابقه «قَالُوا آمَنَّا» الخ؛ أى قال الحواريون: آمنا بالله و أشهد بأننا مسلمون فى وقت قالوا فيه لعيسى «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ» و المراد أنهم ما كانوا على صدق فى دعواهم، و لا على جد فى إسهادهم عيسى عليه السلام على إسلامهم له.

و فيه أنه مخالف لظاهر السياق، و كيف يكون إيمانهم غير خالص؟ و قد ذكر الله أنه هو أوحى اليهم أن آمنوا بي و برسولى، و هو تعالى يمتن بذلك على عيسى عليه السلام؛ على أنه لا وجه حينئذ للإظهار فى قوله: «إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ» الخ.

و«المائدة» الخوان اذا كان فيه طعام، قال الراغب: و المائدة الطبق الذى عليه الطعام، و يقال لكل واحده منهما مائدة، و يقال: مادنى يميدنى أى أطعمنى، انتهى.

و متن السؤال الذى حكى عنهم فى الآيه و هو قولهم «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا

مَا تَدَّهَ مِنَ السَّمَاءِ» بحسب ظاهر ما يتبادر من معناه مما يستعبد العقل صدورَه عن الحواريين و هم أصحاب المسيح و تلامذته و أخصاؤه الملازمون له المقتبسون من أنوار علومه و معارفه المتبعون آدابه و آثاره، و الإيمان بأدنى مراتبه ينبه الإنسان على أن الله سبحانه على كل شيء قدير، و لا يجوز عليه العجز و لا يغلبه العجز؛ فكيف جاز أن يستفهموا رسولهم عن استطاعه ربه على إنزال مائده من السماء.

و لذلك قرأ الكسائي من السبعة «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ» بناء المضارعه و نصب «رَبُّكَ» على المفعوليه أى هل تستطيع أنت أن تسأل ربك، فحذف الفعل الناصب للمفعول و اقيم «تستطيع» مقامه، أو أنه مفعول لفعل محذوف فقط.

و قد اختلف المفسرون فى توجيهه على بناء من أكثرهم على أن المراد به غير ما يتبادر من ظاهره من الشك فى قدره الله سبحانه لتزاهه ساحتهم من هذا الجهل السخيف.

و أوجه ما يمكن أن يقال هو أن الاستطاعه فى الآيه كناية عن اقتضاء المصلحه و وقوع الإذن كما أن الإمكان و القدره و القوه يكنى بها عن ذلك كما يقال «لا يقدر الملك أن يصغى الى كل ذى حاجه» بمعنى أن مصلحه الملك تمنعه من ذلك و إلا فمطلق الإصغاء مقدور له، و يقال «لا يستطيع الغنى أن يعطى كل سائل» أى مصلحه حفظ المال لا تقتضيه، و يقال «لا يمكن للعالم أن يبث كل ما يعلمه» أى يمنعه عن ذلك مصلحه الدين أو مصلحه الناس و النظام الدائر بينهم، و يقول أحدنا لصاحبه «هل تستطيع أن تروح معى الى فلان»؟ و إنما السؤال عن الاستطاعه بحسب الحكمه و المصلحه لا بحسب أصل القدره على الذهاب، هذا.

قوله تعالى: قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ توبيخ منه عليه السلام لهم لما يشتمل عليه ظاهر كلامهم من الاستفهام عن استطاعه ربه على إنزال المائده فإن كلامهم مريب على أى حال.

و أما على ما قدمناه من أن الأصل في مؤاخذتهم الذى يترتب عليه الوعيد الشديد فى آخر الآيات هو أنهم سألوا آيه حيث لا حاجه إليها و اقترحوا بما فى معنى العبث بآيات الله سبحانه، ثم تعبيرهم بما يتبادر من ظاهره كونهم كأنهم لم يعقدوا قلوبهم على القدره الربويه فوجه توبيخه عليه السلام لهم بقوله «اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ» أظهر.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَ تَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَ نَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَ نَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ السياق ظاهر فى أن قولهم هذا عذر اعتذروا به للتخلص من توبيخه عليه السلام و ما ذكروه ظاهر التعلق باقتراحهم الآيه بنزول المائده دون ما يظهر من قولهم: هل يستطيع ربك ان ينزل، من المعنى الموهم للشك فى إطلاق القدره، و هذا ايضا احد الشواهد على ان ملاك المؤاخذة فى المقام هو انهم سألوا آيه على آيه من غير حاجه إليها.

و أما قولهم «نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا» الخ؛ فقد عدوا فى بيان غرضهم من اقتراح الآيه امورا أربعه:

أحدها: الأكل و كأن مرادهم بذكره أنهم ما أرادوا به اللعب بآيات الله بل أرادوا أن يأكلوا منها، و هو غرض عقلائى، و قد تقدم أن هذا القول منهم كالتسليم لاستحقاقهم التوبيخ من عيسى عليه السلام و الوعيد الشديد من الله لمن يكفر منهم بآيه المائده.

و ذكر بعضهم: أن المراد بذكر الأكل إبانة أنهم فى حاجه شديده الى الطعام و لا يجدون ما يسد حاجتهم. و ذكر آخرون أن المراد: نريد أن نتبركه بأكله. و أنت تعلم أن المعنى الذى قرر فى كل من هذين الوجهين أمر لا يدل عليه مجرد ذكر الأكل، و لو كان مرادهم ذلك و هو أمر يدفع به التوبيخ لكان مقتضى مقام الاعتذار التصريح بذكره، و حيث لم يذكر شىء من ذلك مع حاجه المقام الى ذكره لو كان مرادا فليس المراد بالأكل إلا مطلق معناه من حيث إنه غرض عقلائى هو أحد أجزاء غرضهم فى اقتراح نزول المائده.

الثاني: اطمئنان القلب و هو سكونه باندفاع الخطورات المنافية للخلوص و الحضور.

و الثالث: العلم بأنه عليه السّلام قد صدقهم فيما بلغهم عن ربه، و المراد بالعلم حينئذ هو العلم اليقيني الذي يحصل في القلب بعد ارتفاع الخطورات و الوسواس النفسانية عنه، أو العلم بأنه قد صدقهم فيما وعدهم من ثمرات الإيمان كاستجابة الدعاء كما ذكره بعضهم، لكن يبعده أن الحواريين ما كانوا يسألون إنزال المائدة من السماء إلا بدعاء عيسى عليه السّلام و مسألته، و بالجمله بإعجاز منه عليه السّلام و قد كانوا رأوا منه عليه السّلام آيات كثيرة فإنه عليه السّلام لم يزل في حياته قرينا لآيات إلهيه كبرى، و لم يرسل الى قومه و لم يدعهم دعوه إلا- مع آيات ربه فلم يزلوا يرون ثمرات إيمانه من استجابة الدعاء إن كان المراد الثمره التي هي استجابة دعائه عليه السّلام، و إن كان المراد الثمره التي هي استجابة دعائهم أنفسهم فإنهم لم يسألوا نزول الآيه بدعاء أنفسهم، و لم تنزل إلا بدعاء عيسى عليه السّلام.

الرابع: أن يكونوا عليها من الشاهدين عند ما يحتاج الى الشهاده كالشهادة عند المنكرين، و الشهاده عند الله يوم القيامة، فالمراد بها مطلق الشهاده، و يمكن أن يكون المراد مجرد الشهاده عند الله سبحانه كما وقع في بعض قولهم الذي حكاه الله تعالى اذ قال: رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَ اتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (آل عمران ٥٣).

فقد تحصل أنهم- فيما اعتذروا به- ضموا امورا جميله مرضيه الى غرضهم الآخر الذي هو الأكل من المائدة السماويه ليحسموا به ماده الحزازة عن اقتراحهم الآيه بعد مشاهدته الآيات الكافيه فأجابهم عيسى عليه السّلام الى مسألتهم بعد الإصرار.

قوله تعالى: قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَ آخِرِنَا وَ آيَةً مِنْكَ وَ ارزُقْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ خلط عليه السّلام نفسه بهم في سؤال المائدة، و بدأ بنداء ربه بلفظ عام فقال «اللَّهُمَّ رَبَّنَا» و قد كانوا قالوا له «هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ» ليوافق النداء الدعاء.

وقد توحد هذا الدعاء من بين جميع الأدعية و المسائل المحكية فى القرآن عن الانبياء عليهم السلام بأن صدر «باللهم ربنا» وغيره من أدعيتهم مصدر بلفظ «رب» أو «ربنا» وليس إلا لدقه المورد و هول المطلع، نعم يوجد فى أقسام الثناء المحكية نظير هذا التصدير كقوله: قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ (النمل ٥٩/) وقوله: قُلِ اللَّهُمَّ مَا لَكَ الْمُلكِ (آل عمران ٢٦/) وقوله: قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ (الزمر ٤٤/).

ثم ذكر عليه السلام عنوانا لهذه المائده النازله هو الغرض له ولأصحابه من سؤال نزولها و هو أن تنزل فتكون عيدا له ولجميع امته، و لم يكن الحواريون ذكروا فيما اقترحوه أنهم يريدون عيدا يخصون به لكنه عليه السلام عنون ما سأله بعنوان عام و قلبه فى قالب حسن ليخرج عن كونه سؤالاً للآيه مع وجود آيات كبرى إلهيه بين أيديهم و تحت مشاهدتهم، و يكون سؤالاً مرضيا عند الله غير مصادم لمقام العزه و الكبرياء فإن العيد من شأنه أن يجمع الكلمه، و يجدد حياه المله، و ينشط نفوس العائدين، و يعلن كلما عاد عظمه الدين.

و لذلك قال: «عِيداً لَأَوْلِنَا وَ آخِرِنَا» أى أول جماعتنا من الامه و آخر من يلحق بهم -على ما يدل عليه السياق- فإن العيد من العود و لا يكون عيدا إلا اذا عاد حيناً بعد حين، و فى الخلف بعد السلف من غير تحديد.

و هذا العيد مما اختص به قوم عيسى عليه السلام كما اختصوا بنوع هذه الآيه النازله على ما تقدم بيانه.

و قوله: «وَ آيَةٌ مِنْكَ» لما قدم مسأله العيد و هى مسأله حسنه جميله لا عتاب عليها عقبها بكونها آيه منه تعالى كأنه من الفائده الزائده المترتبه على الغرض الأصلى غير مقصوده وحدها حتى يتعلق بها عتاب أو سخط، و إلا فلو كانت مقصوده وحدها من حيث كونها آيه لم تخل مسألتها من نتيجته غير مطلوبه فإن جميع المزايا الحسنه التى كان يمكن أن يراد بها كانت ممكنه الحصول بالآيات المشهوده كل يوم منه عليه السلام للحواريين

وغيرهم.

وقوله: «وَ ارزُقْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» وهذه فائده اخرى عدها مترتبه على ما سأله من العيد من غير أن تكون مقصوده بالذات، و قد كان الحواريون ذكروه مطلوباً بالذات حيث قالوا «تُرِيدُ أَنْ تَأْكَلَ مِنْهَا» فذكروه مطلوباً لذاته و قدموه على غيره، لكنه عليه السلام عده غير مطلوب بالذات و أخره عن الجميع و أبدل لفظ الأكل من لفظ الرزق فأردفه بقوله «وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» .

قوله تعالى: قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعِيدٌ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ قرأ أهل المدينة و الشام و عاصم «مُنَزَّلُهَا» بالتشديد و الباقر «مُنَزَّلُهَا» بالتخفيف-على ما فى المجمع-و التخفيف اوفق لأن الإنزال هو الدال على النزول الدفعى، و كذلك نزلت المائدة، و أما التنزيل فاستعماله الشائع إنما هو فى النزول التدريجى كما تقدم كرارا.

وقوله تعالى: «إِنِّي مُنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ» وعد صريح بالإنزال و خاصه بالنظر الى الإتيان به فى هيئه اسم الفاعل دون الفعل، و لازم ذلك أن المائدة قد نزلت عليهم.

و من هنا يظهر ان المراد بالعالمين عالمو جميع الامم لا عالمو زمانهم فإن ذلك مرتبطاً بمن يمتازون عنهم من الناس و هم جميع الامم لا اهل زمان عيسى عليه السلام خاصة من امم الأرض.

و من هناك يظهر ايضا ان قوله: «فَأِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ» و إن كان وعيدا شديدا بعذاب بئس لكن الكلام غير ناظر الى كون العذاب فوق جميع العذابات و العقوبات فى الشده و الألم، و إنما هو مسوق لبيان انفراد العذاب فى بابه، و اختصاصهم من بين الامم به (1).

ص: ٢٤١

(١- ١). المائدة ١١٢-١١٥: بحث روائى فى: نزول المائدة على المسيح عليه السلام و اصحابه.

اشاره

وَ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا عَلَّمَ لِي وَ لَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَ لَآ أَغْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (۱۱۶) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَ رَبَّكُمْ وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَ أَنْتَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۱۱۷) إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلِأَنَّهُمْ عَصَوْاكَ وَ إِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۱۱۸) قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (۱۱۹) لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا فِيهِنَّ وَ هُوَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (۱۲۰)

بيان:

قوله تعالى: وَ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ «إِذْ» ظرف متعلق بمحذوف يدل عليه المقام، والمراد به يوم

القيامه لقوله تعالى فيها: «قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ» و قول عيسى عليه السلام فيها:

«وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ» .

و قد عبرت الآيه عن مريم بالامومه فقيل «اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلَهَيْنِ» دون ان يقال «اتخذوني و مريم إلهين» للدلاله على عمدته حجتهم فى الالوهيه و هو ولادته منها بغير أب، فالبنوه و الامومه الكذائيتين هما الأصل فى ذلك بالتعبير به و بامه أدل و أبلغ من التعبير بعيسى و مريم.

و«دون» كلمه تستعمل بحسب المآل فى معنى الغير، قال الراغب: يقال للقاصر عن الشىء «دون» قال بعضهم: هو مقلوب من الدنو، و الأدون الدنى، و قوله تعالى: لا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ أى من لم يبلغ منزلتكم فى الديانه، و قيل: فى القرابه، و قوله: وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ أى ما كان أقل من ذلك، و قيل: ما سوى ذلك، و المعنيان متلازمان، و قوله:

«أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَ أُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ» أى غير الله، انتهى (١).

قوله تعالى: قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ الْآيَةِ وَ التى تتلوها جواب المسيح عيسى بن مريم عليه السلام عما سئل عنه و قد أتى عليه السلام فيه بأدب عجيب:

فبدأ بتسبيحه تعالى لما فاجأه أن سمع ذكر ما لا يليق نسبته الى ساحه الجلال و العظمه و هو اتخاذ الناس إلهين من دون الله شريكين له سبحانه فمن أدب العبوديه أن يسبح العبد ربه اذا سمع ما لا- ينبغى أن يسمع فيه تعالى أو ما يخطر بالبال تصور ذلك، و عليه جرى التأديب الإلهى فى كلامه كقوله: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ (الأنبياء ٢٦) و قوله:

وَ يَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ (النحل ٥٧).

ثم عاد الى نفى ما استفهم عن انتسابه إليه، و هو أن يكون قد قال للناس اتخذوني و أمى

ص: ٢٤٣

إلهين من دون الله، ولم ينفه بنفسه بل بنفى سببه مبالغه في التنزيه فلو قال: «لم أقل ذلك أ و لم أفعل» لكان فيه إيمان الى إمكان وقوعه منه لكنه لم يفعل، لكن اذا نفاه بنفى سببه فقال: «مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ» كان ذلك نفيا لما يتوقف عليه ذلك القول، و هو أن يكون له أن يقول ذلك حقا فنفي هذا الحق نفى ما يتفرع عليه بنحو أبلغ نظير اذا قال المولى لعبده: لم فعلت ما لم آمرك أن تفعله؟ فإن أجاب العبد بقوله «لم أفعل» كان نفيا لما هو في مظنه الوقوع، و إن قال: «أنا أعجز من ذلك» كان نفيا بنفى السبب و هو القدره، و إنكارا لأصل إمكانه فضلا عن الوقوع.

و قوله: «مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ» إن كان لفظ «يَكُونُ» ناقصه فاسمها قوله: «أَنْ أَقُولَ» و خبرها قوله: «لِي» و اللام للملك، و المعنى: ما أملك ما لم أملكه و ليس من حقي القول بغير حق، و إن كانت تامه فلفظ «لِي» متعلق بها و قوله: «أَنْ أَقُولَ» الخ؛ فاعلها، و المعنى: ما يقع لي القول بغير حق، و الأول من الوجهين أقرب، و على أى حال يفيد الكلام نفى الفعل بنفى سببه.

و قوله عليه السّلام: «إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ» نفى آخر للقول المستفهم عنه لا- نفيا لنفسه بنفسه بل بنفى لازمه فإن لازم وقوع هذا القول أن يعلم به الله لأنه الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض و لا في السماء و هو القائم على كل نفس بما كسبت، المحيط بكل شيء.

و هذا الكلام منه عليه السّلام يتضمن أولا فائده إلقاء القول مع الدليل من غير أن يكتفى بالدعوى المجردة؛ و ثانيا الإشعار بأن الذي كان يعتبره في أفعاله و أقواله هو علم الله سبحانه من غير أن يعبا بغيره من خلقه علموا أو جهلوا، فلا شأن له معهم.

و بلفظ آخر السؤال إنما يصح طبعا في ما كان مظنه الجهل فيراد به نفى الجهل و إفاده العلم، إما لنفس السائل اذا كان هو الجاهل بواقع الأمر، أو لغيره اذا كان السائل عالما و أراد أن يعلم غيره بما يعلم هو من واقع الأمر كما يحمل عليه نوع السؤال الواقع في كلامه تعالى، و قوله عليه السّلام

فى الجواب فى مثل المقام «إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ» إرجاع للأمر الى علمه تعالى و إشعار أنه لا يعتبر شيئاً فى أفعاله و أقواله غير علمه تعالى.

ثم أشار بقوله «تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَ لَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» ليكون تنزيها لعلمه تعالى عن مخالطه الجهل إياه، و هو و إن كان ثناء أيضا فى نفسه لكنه غير مقصود لأن المقام ليس بمقام الثناء بل مقام التبرى عن انتساب ما نسب اليه.

فقوله عليه السلام «تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي» توضيح لنفوذ العلم الذى ذكره فى قوله: «إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ» و بيان أن علمه تعالى بأعمالنا و هو الملك الحق يومئذ ليس من قبيل علم الملوك منا بأحوال رعيته بارتفاع أخبار المملكة إليه ليعلم بشىء و يجهل بشىء، و يستحضر حال بعض و يغفل عن حال بعض، بل هو سبحانه لطيف خبير بكل شىء و منها نفس عيسى بن مريم بخصوصه.

و مع ذلك لم يستوف حق البيان فى وصف علمه تعالى فإنه سبحانه يعلم كل شىء، لا كعلم أحدنا بحال الآخر و علم الآخر بحاله، بل يعلم ما يعلم بالإحاطه به من غير أن يحيط به شىء و لا- يحيطون به علما فهو تعالى إله غير محدود و كل من سواه محدود مقدر لا يتعدى طور نفسه المحدود، و لذلك ضم عليه السلام الى الجملة جمله اخرى فقال: «تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَ لَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ».

أما قوله: «إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» فيه بيان العله لقوله «تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي» الخ؛ و فيه استيفاء حق البيان من جهه اخرى و هو رفع توهم أن حكم العلم فى قوله: «تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَ لَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ» مقصور بما بينه و بين ربه لا يطرد فى كل شىء فبين بقوله «إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ» أن العلم التام بجميع الغيوب منحصر فيه فما كان عند شىء من الأشياء و هو غيب عن غيره فهو معلوم لله سبحانه و هو محيط به.

و لازم ذلك أن لا يعلم شىء من الأشياء بغيبه تعالى و لا بغيب غيره الذى هو تعالى عالم به

لأنه مخلوق محدود لا- يتعدى طور نفسه فهو علام جميع الغيوب، ولا- يعلم شىء غيره تعالى بشىء من الغيوب لا الكل ولا البعض.

على أنه لو أحيط من غيبه تعالى بشىء فإن أحاط تعالى به لم يكن هذا المحيط محيطاً حقيقه بل محاطاً له تعالى ملكه الله بمشيئته أن يحيط بشىء من ملكه من غير أن يخرج بذلك من ملكه كما قال تعالى: **وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ** (البقره ٢٥٥).

و إن لم يحط سبحانه تعالى بما أحاط به كان مضروباً بحد فكان مخلوقاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

قوله تعالى: **مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ** لما نفى عليه السلام القول المسئول عنه عن نفسه بسمى سببه أولاً نفاه ببيان وظيفته التي لم يتعدها ثانياً فقال: **«مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ»** الخ؛ وأتى فيه بالحصص بطريق النفي والإثبات ليدل على الجواب بنفى ما سئل عنه وهو القول **«اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ»**.

و فسر ما أمره به ربه من القول بقوله **«أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ»** ثم وصف الله سبحانه بقوله **«رَبِّي وَرَبَّكُمْ»** لثلاث بقى أدنى شائبه من الوهم فى أنه عبد رسول يدعو الى الله ربه و رب جميع الناس وحده لا شريك له.

و على هذه الصراحه كان يسلك عيسى بن مريم عليه السلام فى دعوته ما دعاهم الى التوحيد على ما يحكى عنه القرآن الشريف، قال تعالى حكاية عنه: **إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ** (الزخرف ٦٤) وقال: **وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ** (مريم ٣٦).

قوله تعالى: **وَ كُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ** ثم ذكر عليه السلام وظيفته الثانية من جانب الله سبحانه وهو الشهادة على أعمال أمته كما قال تعالى: **وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً**

يقول عليه السّلام ما كان لى من الوظيفة فيهم إلا- الرسالة إليهم و الشهاده على أعمالهم: أما رساله فقد أديتها على أصرح ما يمكن، و أما الشهاده فقد كنت عليها ما دمت فيهم، و لم أتعد ما رسمت لى من الوظيفة فأنا براء من أن أكون القى إليهم أن اتخذونى و امى إلهين من دون الله.

و قوله: **فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ** الرقاب هو الحفظ، و المراد به فى المقام بدلاله السياق هو الحفظ على الأعمال، و كأنه أبدال الشهيد من الرقيب احترازا عن تكرار اللفظ بالنظر الى قوله بعد: «وَأَنْتَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ»، و لا نكته تستدعى الإتيان بلفظ «الشهيد» ثانيا بالخصوص.

و اللفظ أعنى قوله: «كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ» يدل على الحصر، و لازمه أنه تعالى كان شهيدا ما دام عيسى عليه السّلام شهيدا و شهيدا بعده؛ فشهادته عليه السّلام كانت وسطه فى الشهاده لا شهاده مستقلة على حد سائر التدبيرات الإلهيه التى و كل عليها بعض عباده ثم هو على كل شىء و وكيل كالرزق و الإحياء و الإمامته و الحفظ و الدعوه و الهدايه و غيرها، و الآيات الشريفه فى ذلك كثيره لا حاجه الى إيرادها.

و لذلك عقب عليه السّلام قوله: «فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ» بقوله: «وَأَنْتَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ» ليدل بذلك على أن الشهاده على أعمال امته التى كان يتصداها ما دام فيهم كانت حصه يسيره من الشهاده العامه المطلقه التى هى شهاده الله سبحانه على شىء فإنه تعالى شهيد على أعيان الأشياء و على أفعالها التى منها أعمال عباده التى منها أعمال امه عيسى ما دام فيهم و بعد توفيه، و هو تعالى شهيد مع الشهداء و شهيد بدونهم.

و من هنا يظهر أن الحصر صادق فى حقه تعالى مع قيام الشهداء على شهادتهم فإنه عليه السّلام حصر الشهاده بعد توفيه فى الله سبحانه مع أن لله بعده شهداء من عباده و رسله و هو عليه السّلام يعلم ذلك.

و من الدليل على ذلك بشارته عليه السلام بمجىء النبي صلى الله عليه وآله وسلم - على ما يحكيه القرآن - بقوله يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراه و مبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد (الصف ٦) و قد نص القرآن على كون النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الشهداء قال تعالى:

وَ جِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (النساء ٤١).

على أن الله سبحانه حكى عنه هذا الحصر «فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ» و لم يرد به بالإبطال فالله سبحانه هو الشهيد لا غير مع وجود كل شهيد أي إن حقيقه الشهاده هي لله سبحانه كما أن حقيقه كل كمال و خير هو لله سبحانه، و أن ما يملكه غيره من كمال أو خير أو حسن فإنما هو بتمليكه تعالى من غير أن يستلزم هذا التمليك انعزاله تعالى عن الملك و لا زوال ملكه و بطلانه، و عليك بالتدبر في أطراف ما ذكرناه.

فبان بما أورده من بيان حاله المحكى عنه في الآيتين أنه برىء مما قاله الناس في حقه و أن لا عهده عليه فيما فعلوه، و لذلك ختم عليه السلام كلامه بقوله «إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ» الى آخر الآية.

قوله تعالى: «إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَ إِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» لما انضح بما أقام عليه السلام من الحجة أن لم يكن له من الوظيفة بالنسبة الى الناس إلا أداء الرسالة و القيام بأمر الشهاده، و أنه لم يشتغل فيهم إلا بذلك و لم يتعد الى ما ليس له بحق فهو غير مسئول عما تفوهوا به من كلمه الكفر، بان أنه عليه السلام بمعزل عن الحكم الإلهي المتعلق بهم فيما بينهم و بين ربهم، و لذلك استأنف الكلام ثانيا فقال من غير وصل و تفرع: «إِنْ تُعَذِّبُهُمْ» الخ.

فالآيه كالصالحه لأن يوضع موضع البيان السابق، و مفادها أنه لا عهده على فيما وقعوا فيه من الشرك الشنيع، و لم ادخل أمرهم في شيء حتى اشار بهم فيما بينك و بينهم من الحكم عليهم بما شئت فهم و حكمك في حقهم بما أردت، و هم و صنعك فيهم بما صنعت، إن تعذبهم بما حكمت فيمن أشرك بك بدخول النار فإنهم عبادك، و إليك تدبير أمرهم، و لك أن تسخط عليهم به

لأنك المولى الحق والى المولى أمر عباده، وإن تغفر لهم يمحاه أثر هذا الظلم العظيم فإنك أنت العزيز الحكيم لك حق العزه والحكمه، وللعزيز (و هو الذى له من الجده و القدره ما ليس لغيره) ولا سيما اذا كان حكيما (لا يقدم على أمر إلا اذا كان مما ينبغى أن يقدم عليه) أن يغفر الظلم العظيم فإن العزه والحكمه اذا اعتنقتا فى فاعل لم تدعا قدره تقوم عليه ولا مغمضه فى ما قضى به من أمر.

و بما تقدم من البيان ظهر أولا: أن قوله: «فَمَا تَهُمُ عِبَادُكَ» بمنزله أن يقال: «فإنك مولا هم الحق» على ما هو دأب القرآن من ذكر أسماء الله بعد ذكر أفعاله كما فى آخر الآيه.

و ثانيا: أن قوله: «فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» ليس مسوقا للحصر بل الإتيان بضمير الفصل و إدخال اللام فى الخبر للتأكيد، و يؤول معناه الى أن عزتك و حكمتك مما لا يداخله ريب فلا مجال للاعتراض عليك إن غفرت لهم.

و ثالثا: أن المقام (مقام المشافهه بين عيسى بن مريم عليه السلام و ربه) لما كان مقام ظهور العظمه الإلهيه التى لا يقوم لها شىء كان مقتضاه أن يراعى فيه جانب ذله العبوديه للغايه بالتحرز عن الدلال و الاسترسال و التجنب عن مداخله فى الأمر بدعاء أو سؤال، و لذلك قال عليه السلام «وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَاِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» و لم يقل «فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» لأن سطوع آيه العظمه و السطوه الإلهيه القاهره الغالبه على كل شىء لا يدع للعبد إلا أن يلتجئ اليه بماله من ذله العبوديه و مسكنه الرقيه و المملوكيه المطلقه، و الاسترسال عند ذلك ذنب عظيم.

و أما قول إبراهيم عليه السلام لربه فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَ مَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (إبراهيم ٣٦) فإنه من مقام الدعاء و للعبد أن يثير فيه ناشئه الرحمه الإلهيه بما استطاع.

قوله تعالى: قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ تقرير لصدق عيسى بن مريم عليه السلام على طريق التكنيه فإنه لم يصرح بشخصه و إنما المقام هو الذى يفيد ذلك.

و المراد بهذا الصدق من الصادقين صدقهم فى الدنيا فإنه تعالى يعقب هذه الجملة بقوله

«لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» السخ؛ و من البين أنه بيان لجزاء صدقهم عند الله سبحانه فهو النفع الذى يعود اليهم من جهه الصدق، و الأعمال و الأحوال الاخرويه- و منها صدق أهل الآخره- لا يترتب عليها أثر النفع بمعنى الجزاء و بلفظ آخر: الأعمال و الأحوال الاخرويه لا- يترتب عليها جزاء كما يترتب على الأعمال و الأحوال الدنيويه؛ اذ لا تكليف فى الآخره، و الجزاء من فروع التكليف، و إنما الآخره دار حساب و جزاء كما أن الدنيا دار عمل و تكليف، قال تعالى: يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (إبراهيم ٤١) و قال: الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (الجاثيه ٢٨) و قال تعالى: إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ (المؤمن ٣٩).

و الذى ذكره عيسى عليه السلام من حاله فى الدنيا مشتمل على قول و فعل و قد قرره الله على الصدق فالصدق الذى ذكر فى الآيه يشمل الصدق فى الفعل كما يشمل الصدق فى القول؛ فالصادقون فى الدنيا فى قولهم و فعلهم ينتفعون يوم القيامة بصدقهم، لهم الجنات الموعوده و هم الراضون المرضيون الفائزون بعظيم الفوز.

على أن الصدق فى القول يستلزم الصدق فى الفعل-بمعنى الصراحه و تنزه العمل عن سمه النفاق-و ينتهى به الى الصلاح، و قد روى أن رجلا من أهل البدو استوصى النبى صلى الله عليه و آله و سلم فوصاه أن لا يكذب ثم ذكر الرجل أن رعايه ما وصى به كفه عن عامه المعاصى اذ ما من معصيه عرضت إلا ذكر أنه لو اقترحها ثم سئل عنها وجب عليه أن يعترف بها على نفسه و بخر بها الناس فلم يقترفها مخافه ذلك.

قوله تعالى: لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ رضى الله عنهم بما قدموا اليه من الصدق، و رضوا عن الله بما آتاهم من الثواب.

و قد علق رضاه بهم أنفسهم لا بأعمالهم كما فى قوله تعالى: وَ رَضِيَ لَهُ قَوْلًا (طه/

١٠٩) وقوله: وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ (الزمر ٧) وبين القسمين من الرضى فرق فإن رضاك عن شيء هو أن لا تدفعه بكراهه و من الممكن أن يأتي عدوك بفعل ترضاه و أنت تسخط على نفسه، و أن يأتي صديقك الذى تحبه يفعل لا ترضاه.

فقوله «رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ» يدل على أن الله يرضى عن أنفسهم، و من المعلوم أن الرضى لا يتعلق بأنفسهم ما لم يحصل غرضه جل ذكره من خلقهم، و قد قال تعالى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (الذاريات ٥٦)، فالعبودية هو الغرض الإلهي من خلق الإنسان فالله سبحانه إنما يرضى عن نفس عبده اذا كان مثالا للعبودية أى أن يكون نفسه نفس عبد لله الذى هو رب كل شيء فلا يرى نفسه و لا شيئا غيره إلا مملوكا لله خاضعا لربوبيته لا يثوب الى ربه و لا يرجع إلا اليه كما قال تعالى فى سليمان و أيوب: نَعَمْ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (ص ٤٤) و هذا هو الرضى عنه.

و هذا من مقامات العبودية، و لازمته طهاره النفس عن الكفر بمراتبه و عن الاتصاف بالفسق كما قال تعالى: وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ (الزمر ٧)، و قال تعالى: فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (التوبه ٩٦).

و من آثار هذا المقام أن العبودية اذا تمكنت من نفس العبد و رأى ما يقع عليه بصره و تبلغه بصيرته مملوكا لله خاضعا لأمره فإنه يرضى عن الله فإنه يجد أن كل ما آتاه الله فإنه آتاه من فضله من غير أن يتحتم عليه فهو جود و نعمه، و أن ما منعه فإنه منعه عن حكمه.

على أن الله سبحانه يذكر عنهم و هم فى الجنة بقوله لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ (النحل ٣١، الفرقان ١٦)، و من المعلوم أن الإنسان اذا وجد كل ما يشاؤه لم يكن له إلا أن يرضى.

و هذا غاية السعاده الإنسانيه بما هو عبد، و لذلك ختم الكلام بقوله «ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» .

قوله تعالى: لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، الملك-بالكسر-سلطه خاصه على رقبه الأشياء و أثره نفوذ الإراده فيما يقدر عليه

المالك من التصرف فيها، والملك-بالضم-سلطه خاصه على النظام الموجود بين الأشياء و أثره نفوذ الإراده فيما يقدر عليه، و
بعبارة ساذجه: الملك-بالكسر-متعلق بالفرد، و الملك -بالضم-متعلق بالجماعه.

و حيث كان الملك فى نفوذ الإراده بالفعل مقيدا أو متقوما بالقدره فإذا تمت القدره و أطلقت كان الملك ملكا مطلقا غير مقيد
بشئء دون شئء و حال دون حال، و لبيان هذه النكته عقب تعالى قوله: «لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا فِيهِنَّ» بقوله «وَ هُوَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» .

و اختتمت السوره بهذه الآيه الداله على الملك المطلق، و المناسبه ظاهره، فإن غرض السوره هو حث العباد و ترغيبهم على الوفاء
بالعهود و المواثيق المأخوذه عليهم من جانب ربهم، و هو الملك على الإطلاق فلا يبقى لهم إلا- أنهم عباد مملوكون على
الإطلاق ليس لهم فيما يأمرهم به و ينهاهم عنه إلا السمع و الطاعه، و لا فيما يأخذ منهم من العهود و المواثيق إلا الوفاء بها من
غير نقض (١)(٢)(٣)(٤)(٥).

ص: ٢٥٢

١-١). المائده ١١٦-١٢٠: بحث روائى فى اسماء الله تعالى.

٢-٢). ١١٦-١٢٠: كلام فى معنى الأدب؛ الادب الذى ادب الله به انبياءه و رسله عليهم السلام نماذج من ادب الانبياء.

٣-٣). ١١٦-١٢٠: بحث روائى فى خلق الرسول الكريم صلى الله عليه و آله و سلم و ادبه الجميل.

٤-٤). ١١٦-١٢٠: كلام فى الرق و الاستعباد(اعتبار العبوديه لله سبحانه، استعباد الانسان و اسبابه، سير الاستعباد فى التاريخ، مال
الذى رآه الاسلام فى ذلك، ما هو السبيل الى الاستعباد فى الاسلام، ما هى سيره الاسلام فى العبيد و الاماء، سير الاستعباد فى
التاريخ).

٥-٥). ١١٦-١٢٠: كلام فى المجازات و العفو فى فصول(ما معنى الجزاء؟ العفو و المغفره، للعفو مراتب، هل المؤاخذه أو المغفره
تستلزم ذنبا، رابطه العمل و الجزاء و العمل يؤدى رابطه الى النفس).

سوره الأنعام و هي سبع آيات

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سوره الأنعام (٦): الآيات ١ الى ٣]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ
يَعْدِلُونَ (١) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢) وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي
الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)

بيان:

غرض السوره هو توحيدہ تعالیٰ بمعناه الأعم أعنى أن للإنسان ربا هو رب العالمين جميعا منه يبدأ كل شيء و إليه ينتهى و يعود كل شيء، أرسل رسلا مبشرين و منذرين يهدى بهم عباده المرابين الى دينه الحق، و لذلك نزلت معظم آياتها فى صورہ الحجاج على

المشركين فى التوحيد و المعاد و النبوه، و اشتملت على إجمال الوظائف الشرعيه و المحرمات الدينيه.

و سياقها-على ما يعطيه التدبر-سياق واحد متصل لا دليل فيه على فصل يؤدى الى نزولها نجوما.

و هذا يدل على نزولها جملة واحده، و أنها مكيه فإن ذلك ظاهر سياقها الذى ووجه الكلام فى جلها أو كلها الى المشركين.

و قد اتفق المفسرون و الرواه على كونها مكيه إلا فى ست آيات روى عن بعضهم أنها مدنيه. و هى قوله تعالى: **وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ** (آيه ٩١) الى تمام ثلاث آيات، و قوله تعالى: **قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ** (آيه ١٥١) الى تمام ثلاث آيات.

و قيل: إنها كلها مكيه إلا آيتان منها نزلتا بالمدينه، و هما قوله تعالى: **«قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ»** و التى بعدها.

و قيل: نزلت سوره الأنعام كلها بمكه إلا آيتين نزلتا بالمدينه فى رجل من اليهود، و هو الذى قال: **«مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشْرٍ مِنْ شَيْءٍ الْآيَةَ»**.

و قيل: إنها كلها مكيه إلا آيه واحده نزلت بالمدينه، و هو قوله تعالى: **«وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ»** الآيه.

و هذه الأقوال لا دليل على شىء منها من جهة سياق اللفظ على ما تقدم من وحده السياق و اتصال آيات السوره، و سنيها بما نستطيعه، و قد ورد عن أئمه أهل البيت عليهم السلام و كذا عن أبى و عكرمه و قتاده: أنها نزلت جملة واحده بمكه.

قوله تعالى: **«الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ افْتَتَحَ بِالثَّناء عَلَى اللَّهِ وَهُوَ كالمقدمه لما يراد بيانه من معنى التوحيد، و ذلك بتضمن الثناء ما هو محصل غرض السوره ليتوسل بذلك الى الاحتجاج عليه تفصيلا، و تضمينه:**

العجب منهم و لومهم على أن عدلوا به غيره و الامتراء فى وحدته ليكون كالتمهيد على ما سيورد من جمل الوعظ و الإنذار و التخويف.

و قد أشار فى هذا الثناء الموضوع فى الآيات الثلاث الى جمل ما تعتمد عليه الدعوة الدينيه فى المعارف الحقيقيه التى هى بمنزله المادة للشريعته، و تنحل الى نظمات ثلاث:

نظام الكون العام و هو الذى تشير إليه الآيه الاولى، و نظام الإنسان بحسب وجوده، و هو الذى تشتمل عليه الآيه الثانيه، و نظام العمل الإنسانى و هو الذى تومئ إليه الآيه الثالثه.

فالمتحصل من مجموع الآيات الثلاث هو الثناء عليه تعالى بما خلق العالم الكبير الذى يعيش فيه الإنسان، و بما خلق عالما صغيرا هو وجود الإنسان المحدود من حيث ابتدائه بالطين و من حيث انتهائه بالأجل المقضى، و بما علم سرّ الإنسان و جهره و ما يكسبه.

و ما فى الآيه الثالثه: **وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ فِي الْأَرْضِ**، بمنزله الإيضاح لمضمون الآيتين السابقتين، و التمهيد لبيان علمه بسرّ الإنسان و جهره و ما تكسبه نفسه.

فقوله **«خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ وَ جَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَ النُّورَ»** إشاره الى نظام الكون العام الذى عليه تدبر الأشياء على كثرتها و تفرقتها فما عالمنا فى نظامه الجارى المحكم إلا عالم الأرض الذى يحيط به عالم السماوات على سعتها ثم يتصرف بها بالنور و الظلمات الذين عليهما يدور رحى العالم المشهود فى تحوله و تكامله فلا يزال يتولد شىء من شىء، و يتقلب شىء الى شىء، و يظهر واحد و يخفى آخر، و يتكون جديد و يفسد قديم، و ينتظم من تلاقى هذه الحركات المتنوعه على شتاتها الحركه العالميه الكبرى التى تحمل أثقال الأشياء، و تسير بها الى مستقرها.

و الجعل فى قوله: **«وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ»** الخ؛ بمعنى الخلق غير أن الخلق لما كان مأخوذا فى الأصل من خلق الثوب كان التركيب من أجزاء شتى مأخوذا فى معناه بخلاف الجعل، و لعل هذا هو السبب فى تخصيص الخلق بالسماوات و الأرض لما فيها من التركيب بخلاف الظلمه

و النور، و لذا خصا باستعمال الجعل. و الله أعلم.

و قد أتى بالظلمات بصيغه الجمع دون النور، و لعله لكون الظلمه متحققه بالقياس الى النور فإنها عدم النور فيما من شأنه أن يتنور فتكثر بحسب مراتب قربه من النور و بعده بخلاف النور فإنه أمر وجودى لا يتحقق بمقايسته الى الظلمه التى هى عدميه، و تكثيره تصورا بحسب قياسه التصورى الى الظلمه لا يوجب تعدده و تكثره حقيقه.

قوله تعالى: **ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ** مسوق للتعجب المشوب بلوم أى إن الله سبحانه بخلقه السماوات و الأرض و جعله الظلمات و النور متوحدا باللوهيه متفردا بالربوبيه لا يماثله شىء و لا يشاركه، و من العجب أن الذين كفروا مع اعترافهم بأن الخلق و التدبير لله بحقيقه معنى الملك دون الأصنام التى اتخذوها آلهه يعدلون بالله غيره من أصنامهم و يسوون به أوثانهم فيجعلون له أندادا تعادله بزعمهم فهم ملومون على ذلك.

و بذلك يظهر وجه الإتيان بشم الدال على التأخير و التراخى فكأن المتكلم لما وصف تفرده بالصنع و الإيجاد و توحده باللوهيه و الربوبيه ذكر مزعمه المشركين و أصحاب الأوثان أن هذه الحجاره و الأخشاب المعموله أصناما يعدلون بها رب العالمين فشغله التعجب زمانا و كفّه عن التكلم ثم جرى فى كلامه و أشار الى وجه سكوته، و أن حيره التعجب كان هو المانع عن جريه فى كلامه فقال: **الذين كفروا بربهم يعدلون.**

قوله تعالى: **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا** يشير الى خلقه العالم الإنسانى الصغير بعد الإشاره الى خلق العالم الكبير فيبين أن الله سبحانه هو الذى خلق الإنسان و دبر أمره بضرب الأجل لبقائه الدنيوى ظاهرا فهو محدود الوجود بين الطين الذى بدأ منه خلق نوعه و إن كان بقاء نسله جاريا على سنّه الازدواج و الوقاع كما قال تعالى:

وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (السجده ٨).

و بين الأجل المقضى الذى يقارن الموت كما قال تعالى: **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا**

و كيف كان فظاهر كلامه تعالى أن المراد بالأجل و الأجل المسمى هو آخر مده الحياه لاتمام المده كما يفيدده قوله فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ الْآيَهُ.

فتبين بذلك أن الأجل أعلان: الأجل على إبهامه، و الأجل المسمى عند الله تعالى. و هذا هو الذى لا يقع فيه تغير لمكان تقييده بقوله «عنده» و قد قال تعالى: وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بِأَقْبَ (النحل ٩٦/١) و هو الأجل المحتوم الذى لا يتغير و لا يتبدل قال تعالى: إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَأْجِرُونَ (يونس ٤٩/١).

فنسبه الأجل المسمى الى الأجل غير المسمى نسبه المطلق المنجز الى المشروط المعلق فمن الممكن أن يتخلف المشروط المعلق عن التحقق لعدم تحقق شرطه الذى علق عليه بخلاف المطلق المنجز فإنه لا سبيل الى عدم تحققه البتة.

و التدبر فى الآيات السابقه منضمه الى قوله تعالى: لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ، يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَ عِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (الرعد ٣٩/١) يفيد أن الأجل المسمى هو الذى وضع فى أم الكتاب، و غير المسمى من الأجل هو المكتوب فيما نسميه بلوح المحو و الإثبات، و سيأتى إن شاء الله تعالى أن أم الكتاب قابل الانطباق على الحوادث الثابته فى العين أى الحوادث من جهه استنادها الى الأسباب العامه التى لا تتخلف عن تأثيرها، و لوح المحو و الإثبات قابل الانطباق على الحوادث من جهه استنادها الى الأسباب الناقصه التى ربما نسميها بالمقتضيات التى يمكن اقترانها بموانع تمنع من تأثيرها.

و اعتبر ما ذكر من أمر السبب التام و الناقص بمثال إضاءة الشمس فإننا نعلم أن هذه الليله ستتنقضى بعد ساعات و تطلع علينا الشمس فتضىء وجه الأرض لكن يمكن أن يقارن ذلك بحيلولة سحابه أو حيلولة القمر أو أى مانع آخر فتمنع من الإضاءة، و أما اذا كانت الشمس فوق الافق و لم يتحقق أى مانع مفروض بين الأرض و بينها فإنها تضىء وجه الأرض لا محاله.

فطلوع الشمس وحده بالنسبه الى الإضاءة بمنزله لوح المحو و الإثبات، و طلوعها مع حلول وقته و عدم أى حائل مفروض بينها و بين الأرض بالنسبه الى الإضاءة بمنزله أم الكتاب المسمى باللوح المحفوظ.

فالتركيب الخاص الذى لبنيه هذا الشخص الإنسانى مع ما فى أركانه من الاقتضاء المحدود يقتضى أن يعمر العمر الطبيعى الذى ربما حدوده بمائه أو بمائه و عشرين سنه و هذا هو المكتوب فى لوح المحو و الإثبات مثلا غير أن لجميع أجزاء الكون ارتباطا و تأثيرا فى الوجود الإنسانى فربما تفاعلت الاسباب و الموانع التى لا- نحصيها تفاعلا- لا- نحيط به فأدى الى حلول أجله قبل أن ينقضى الأمد الطبيعى، و هو المسمى بالموت الاخرامى.

و بهذا يسهل تصور وقوع الحاجه بحسب ما نظم الله الوجود الى الأجل المسمى و غير المسمى جميعا، و أن الإبهام الذى بحسب الأجل غير المسمى لا ينافى التعيين بحسب الأجل المسمى، و أن الأجل غير المسمى و المسمى ربما توافقا و ربما تخالفا و الواقع حينئذ هو الأجل المسمى البته.

قوله تعالى: **ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ** من المربه بمعنى الشك و الريب، و قد وقع فى الآيه التفات من الغيبه الى الحضور، و كأن الوجه فيه أن الآيه الاولى تذكر خلقا و تدبيرا عاما ينتج من ذلك أن الكفار ما كان ينبغى لهم أن يعدلوا بالله سبحانه غيره، و كان يكفى فى ذلك ذكرهم بنحو الغيبه لكن الآيه الثانيه تذكر الخلق و التدبير الواقعين فى الإنسان خاصه فكان من الحرى الذى يهيج المتكلم المتعجب اللائم أن يواجههم بالخطاب و يلومهم بالتجيه كأنه يقول:

هذا خلق السماوات و الأرض و جعل الظلمات و النور عذرناكم فى الغفله عن حكمه لكون ذلك أمرا عاما ربما أمكن الدهول عما يقتضيه فما عذركم أنتم فى امترائكم فيه و هو الذى خلقكم و قضى فيكم أجلا و أجل مسمى عنده؟.

قوله تعالى: **وَ هُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ فِي الْأَرْضِ** الآيتان السابقتان تذكران

الخلق و التدبير فى العوالم عامه و فى الإنسان خاصه، و يكفى ذلك فى التنبيه على أن الله سبحانه هو الإله الواحد الذى لا شريك له فى خلقه و تدبيره.

لكنهم مع ذلك أثبتوا آلهه أخرى و شفعاء مختلفه لوجوه التدبير المختلفه كإله الحياه و إله الرزق و إله البر و إله البحر و غير ذلك، و كذا للأنواع و الأقوام و الامم المتشتمته كإله السماء و إله هذه الطائفه و إله تلك الطائفه فنفى ذلك بقوله «وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ فِي الْأَرْضِ» .

فآليه نظيره قوله وَ هُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَ فِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (الزخرف ٨٤) مفادها انبساط حكم ألوهيته تعالى فى السماوات و فى الأرض من غير تفاوت أو تحديد، و هى إيضاح لما تقدم و تمهيد لما يتلوها من الكلام.

قوله تعالى: يَغْلَمُ سِرِّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ السر و الجهر متقابلان و هما وصفان للأعمال، فسرهم ما عملوه سرا و جهرهم ما عملوه جهرا من غير ستر.

و أما ما يكسبون فهو الحال النفسانى الذى يكسبه الإنسان بعمله السرى و الجهرى من حسنه أو سيئه فالسر و الجهر المذكوران- كما عرفت- و وصفان صوريان لمتون الأعمال الخارجيه، و ما يكسبونه حال روحى معنوى قائم بالنفوس فهما مختلفان بالصوريه و المعنويه، و لعل اختلاف المعلومين من حيث نفسهما هو الموجب لتكرار ذكر العلم فى قوله: «يَغْلَمُ سِرِّكُمْ وَ جَهْرَكُمْ وَ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ» .

و الآيه كالتمهيد لما ستعرض له من أمر الرساله و المعاد فإن الله سبحانه لما كان عالما بما يأتى به الإنسان من عمل سرا أو جهرا، و كان عالما بما يكسبه لنفسه بعمله من خير أو شر، و كان إليه زمام التريه و التدبير كان له أن يرسل رسولا بدين يشرعه لهدايه الناس على الرغم مما يصرّ عليه الوثنيون من الاستغناء عن النبوه كما قال تعالى: إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (الليل / ١٢).

و كذا هو تعالى لما كان عالما بالأعمال و بتبعاتها فى نفس الإنسان كان عليه أن يحاسبهم فى

يوم لا- يغادر منهم أحدا كما قال تعالى: أَمْ نَجْعِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعِلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (ص ٢٨) (١).

[سورة الأنعام (٦): الآيات ٤ إلى ١١]

إشارة

وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِمَا لَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَتْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَوْمٍ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ يُمْكِنْ لَكُمْ وَ أَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِطْرًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِمُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ (٦) وَ لَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧) وَقَالُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَ لَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ (٨) وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَ لَلْبَشِينَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ (٩) وَ لَقَدْ أَسْتَهْزِئُوا بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ أَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِّبِينَ (١١)

ص: ٢٦١

١- ١). الانعام ١-٣: بحث روائي في: فضل سورة الانعام، معنى خلق الطاعة و المعصية، اجل موقوف و اجل محتوم.

قوله تعالى: وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ إشاره الى أن سجيته الاستكبار رسخت في نفوسهم فأنتجت فيهم الإعراض عن الآيات الداله على الحق فلا يلتفتون الى آيه من الآيات من غير تفاوت بين آيه و آيه لأنهم كذبوا بالأصل المقصود الذي هو الحق، و هو

قوله تعالى: «فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ» .

قوله تعالى: فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَجَابٌ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ تخويف و إنذار فإن الذين يستهزءون به حق، و الحق يأبى إلا أن يظهر يوماً و يخرج من حد النبأ الى حد العيان قال تعالى: وَ يَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَ يَحِقُّ الْحَقُّ بِكَلِمَاتِهِ (الشورى ٢٤)، و قال: يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ. هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (الصف ٩)، و قال فى مثل ضربه: كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَ الْبَاطِلَ فَامَّا الزَّيْدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَ أَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُتْ فِي الْأَرْضِ (الرعد ١٧).

و من المعلوم أن الحق اذا ظهر لم يستوفى مساسه المؤمن و الكافر، و الخاضع و المستهزئ، قال تعالى: وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَ إِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى حِينٍ وَ أَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ أَ فَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَابُ الْمُنذِرِينَ (الصفات ١٧٧).

قوله تعالى: أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قال الراغب: القرن القوم المقترنون فى زمن واحد و جمعه قرون انتهى.

و قال أيضا: قال تعالى: وَ أَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً يُزِيلُ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً و أصله من الدر-بالفتح-و الدر-بالكسر-أى اللب، و يستعار ذلك للمطر استعاره أسماء

الغير و أوصافه فقيل: لله درّه و درّ درّك، و منه استعير قولهم غسوق دره أى نفاق-بالفتح- انتهى.

و فى قوله تعالى: مَكَّنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ التُّفَاتِ مِنَ الْغَيْبِ إِلَى الْحُضُورِ، و الوجه فيه ظاهراً رفع اللبس من جهة مرجع الضمير فلو لا-الالتفات إلى الحضور فى قوله: «مَا لَمْ تُمَكِّنْ لَكُمْ» أو هم السياق رجوعه إلى ما يرجع إليه الضمير فى قوله: «مكنا لهم» و إلا فأصل السياق فى مفتاح السوره للغيبه، و قد تقدم الكلام فى الالتفات الواقع فى قوله: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ» .

و فى قوله فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ دَلَالَهُ عَلَى أَنْ لِلسَّيِّئَاتِ وَ الذُّنُوبِ دَخْلًا فِي الْبَلَايَا وَ الْمُحَنِّ الْعَامِهِ، و فى هذا المعنى و كذا فى معنى دخل الحسنات و الطاعات فى إفاضات النعم و نزول البركات آيات كثيره.

قوله تعالى: وَ لَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ إشاره إلى أن استكبارهم قد بلغ مبلغاً لا ينفع معه حتى لو أنزلنا كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم فناله حسهم بالبصر و السمع، و تأيد بعض حسهم ببعض فإنهم قائلون حينئذ لا محاله: هذا سحر مبين، فلا ينبغي أن يعبأ باللغو من قولهم وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُؤْيَاكَ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرُؤُهُ (الإسراء ٩٣).

و قد نكر الكتاب فى قوله: «كِتَابًا فِي قُرْطَاسٍ» لأن هذا الكتاب نزل نوع تنزيل لا يقبل إلا التنزيل نجوماً و تدريجاً، و قيده بكونه فى قرطاس ليكون أقرب إلى ما اقترحوه، و أبعد مما يختلج فى صدورهم أن الآيات النازله على النبى صلى الله عليه و آله و سلم من منشآت نفسه من غير أن ينزل به الروح الأمين على ما يذكره الله سبحانه نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المُنذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (الشعراء ١٩٥).

قوله تعالى: وَ قَالُوا لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَ لَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكَاً لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ

لَا يُنظَرُونَ قَوْلَهُمْ «لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ» تحضيضاً للتعجيز، وقد أخبرهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بما كان يتلو عليهم من آيات الله النازلة عليه أن الذي جاء به إليه ملك كريم نازل من عند الله كقوله تعالى: إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ، ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ، مُطَاعٍ ثُمَّ أَمِينٍ (كورت ٢١/٢١) إلى غيرها من الآيات.

قوله تعالى: وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَ لَلْبَشَرِيتَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبَسُونَ اللبس بالفتح الستر بساير لما يجب ستره لقبحه أو لحاجته إلى ذلك، واللبس بالضم التغطية على الحق، وكان المعنى استعاري والأصل واحد.

قال الراغب في المفردات: لبس الثوب استتر به و ألبسه غيره- إلى أن قال- وأصل اللبس (بضم اللام) ستر الشيء و يقال ذلك في المعاني يقال: لبست عليه أمره قال: و للبسنا عليه ما يلبسون و قال: و لا تلبسوا الحق بالباطل، لم تلبسوا الحق بالباطل، الذين آمنوا و لم يلبسوا إيمانهم بظلم، و يقال: في الأمر لبسه أي التباس، انتهى.

و معمول يلبسون محذوف، و ربما استفيد من ذلك العموم و التقدير يلبس الكفار على أنفسهم أعم من لبس البعض على نفسه، و لبس البعض على البعض الآخر.

أما لبسهم على غيرهم فكما يلبس علماء سوء الحق بالباطل لجهله مقلديهم و كما يلبس الطواغيت المتبعون لضعفه أتباعهم الحق بالباطل كقول فرعون فيما حكي الله لقومه يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَ فَلَآ تُبْصِرُونَ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لَآ يَكَادُ بِهَيْنٍ، فَلَوْ لَآ أَلْقَى عَلَيْهِ سُورَةٌ مِّنْ ذَهَبٍ أَوْ جِوَارٍ مَّعَهُ الْمَلَائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ، فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَاطَاعُوهُ (الزخرف ٥٤/٥٤) و قوله مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَ مَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ (المؤمن ٢٩/٢٩).

و أما لبسهم على أنفسهم فهو بتخييلهم إلى أنفسهم أن الحق باطل و أن الباطل حق ثم تماديهم على الباطل فإن الإنسان و إن كان يميز الحق من الباطل فطره الله التي فطر الناس

عليها، و كان تلهم نفسه فجورها و تقواها غير أن تقويته جانب الهوى و تأييده روح الشهوه و الغضب من نفسه تولد في نفسه ملكه الاستكبار عن الحق، و الاستعلاء على الحقيقه فتجذب نفسه إليه، و تغتر بعمله، و لا تدعه يلتفت الى الحق و يسمع دعوته، و عند ذاك يزين له عمله، و يلبس الحق بالباطل و هو يعلم كما قال تعالى: أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَ أَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَ خَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَ قَلْبِهِ وَ جَعَلَ عَلَى بَصِيرِهِ غِشَاوَةً (الجاثية ٢٣) و قال: قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (الكهف ١٠٤).

و هذا هو المصحح لتصوير ضلال الإنسان في أمر مع علمه به فلا- يرد عليه أن لبس الإنسان على نفسه الحق بالباطل إقدام منه على الضرر المقطوع و هو غير معقول.

على أنا لو تعمقنا في أحوالنا أنفسنا ثم أخذنا بالنصفه عثرنا على عادات سوء نقضى بمساءتها لكننا لسنا نتركها لرسوخ العاده و ليس ذلك إلا من الضلال على علم، و لبس الحق بالباطل على النفس و التلهي باللذه الخياليه و التوله إليها عن التثبت على الحق و العمل به، أعاننا الله تعالى على مرضاته.

و على أى حال فقوله تعالى: «وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا» الخ؛ الجواب عن مسألتهم نزول الملك ليكون نذيرا فيؤمنوا به.

و محصله أن الدار دار اختيار لا تتم فيها للإنسان سعادته الحقيقه إلا بسلوكه مسلك الاختيار، و اكتسابه لنفسه أو على نفسه ما ينفعه في سعادته أو يضره، و سلوك أى الطريقين رضى لنفسه أمضى الله سبحانه له ذلك (١).

قوله تعالى: وَ لَقَدْ اسْتَهْزَيْتَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ، الحيق الحلول

ص: ٢٦٥

و الإصابه، و فى مفردات الراغب: قيل و أصله حق فقلب نحو زل و زال، و قد قرئ «فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ» فأزالهما، و على هذا ذمه و ذامه، انتهى.

و قد كان استهزاءؤهم بالرسل بالاستهزاء بالعذاب الذى كانوا ينذرونهم بتزوله و حلوله فحاق بهم عين ما استهزاءوا به، و فى الآيه الاولى تطيب لنفس النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و إنذار للمشركين، و فى الآيه الثانيه أمر بالاعتبار و عظه.

[سوره الأنعام (٦): الآيات ١٢ الى ١٨]

اشاره

قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَهُ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْفِيَامِهِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢) وَ لَهُ مَا سَيَكُنْ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣) قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَأَطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَ لَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥) مَنْ يُضَيِّرْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦) وَ إِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَ إِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧) وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨)

قوله تعالى: «قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ شُرُوعٌ فِي الْبُرْهَانِ عَلَى الْمَعَادِ، وَمَحْصَلُهُ أَنْ اللَّهَ تَعَالَى مَالِكٌ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَمِيعًا لَهُ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِيهَا كَيْفَ شَاءَ وَأَرَادَ، وَقَدْ اتَّصَفَ سُبْحَانَهُ بِصِفَةِ الرَّحْمَةِ وَهِيَ رَفْعُ حَاجَةِ كُلِّ مَحْتَاجٍ وَإِيصَالُ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى مَا يَسْتَحِقُّهُ وَإِفَاضَتُهُ عَلَيْهِ وَعَدَهُ مِنْ عِبَادِهِ وَمِنْهُمْ الْإِنْسَانُ صَالِحُونَ لِحَيَاةِ خَالِدِهِ مُسْتَعِدُونَ لِأَنْ يَسْعَدُوا فِيهَا فَهُوَ بِمَقْتَضَى مَلِكِهِ وَرَحْمَتِهِ سَيَتَصَرَّفُ فِيهِمْ بِحُشْرِهِمْ وَإِعْطَائِهِمْ مَا يَسْتَحِقُّونَهُ الْبَتَّةَ.

فقوله تعالى: «قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» الخ؛ يتضمن إحدى مقدمات الحجج وقوله: «كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِي الرَّحْمَةَ» يتضمن مقدمه أخرى، وقوله: «وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» الخ؛ مقدمه أخرى ثالثه بمنزلة الجزء من الحجج.

فقوله تعالى: «قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» الخ؛ يأمر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَسْأَلَهُمْ عَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَ لَهُ التَّصَرُّفُ فِيهَا بِمَا شَاءَ مِنْ غَيْرِ مَانِعٍ يَمْنَعُهُ، وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ لِأَنَّ غَيْرَهُ حَتَّى الْأَصْنَامُ وَأَرْبَابُ الْأَصْنَامِ الَّتِي يَدْعُوهَا الْمُشْرِكُونَ هِيَ كَسَائِرُ الْخَلْقِ يَنْتَهَى خَلْقُهَا وَأَمْرُهَا إِلَيْهِ تَعَالَى فَهُوَ الْمَالِكُ لِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَمِيعًا.

وَلِكُونَ الْمَسْئُولَ عَنْهُ مَعْلُومًا بَيْنَنَا عِنْدَ السَّائِلِ وَالْمَسْئُولِ جَمِيعًا وَالْخَصْمَ مُعْتَرِفًا بِهِ لَمْ يَحْتَاجْ إِلَى صُدُورِ الْجَوَابِ عَنِ الْخَصْمِ وَاعْتِرَافِهِ بِهِ بِلِسَانِهِ، وَأَمْرُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَذَكَرَ هُوَ الْجَوَابُ وَ يَتَكْفَلُ ذَلِكَ لِتَمِّمِ الْحِجَّةَ مِنْ غَيْرِ انْتِظَارِ مَا لِيَجْوَِبَهُمْ.

وَالسُّؤَالُ عَنِ الْخَصْمِ، وَمُبَاشَرَةُ السَّائِلِ بِنَفْسِهِ الْجَوَابَ كِلَاهِمَا مِنَ السَّلَاقِ الْبَدِيعَةِ الدَّائِرَةِ فِي سِرِّ الْحِجْجِ، يَقُولُ الْمُنْعَمُ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْهِ فَكَفَرَ بِنِعْمَتِهِ: مَنْ الَّذِي أَطْعَمَكَ وَسَقَاكَ وَ كَسَاكَ؟ أَنَا الَّذِي فَعَلَ ذَلِكَ بِكَ وَ مِنْ بَها عَلَيْكَ وَ أَنْتَ تَجَازِينِي بِالْكَفْرِ.

و بالجمله ثبت بهذا السؤال و الجواب أن الله سبحانه هو المالك على الإطلاق فله التصرف فيها بما شاء من إحياء و رزق و إيماته و بعث بعد الموت من غير أن يمنعه من ذلك مانع كدقه في العمل و موت و غيبه و اختلال و غير ذلك. و بهذا تمت إحدى مقدمات الحجج فألحقها المقدمه الاخرى و هي قوله: كتب على نفسه الرحمه.

قوله تعالى: كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِي الرِّحْمَةَ الْكِتَابَةَ هو الإثبات و القضاء الحتم، و اذ كانت الرحمه- و هي إفاضه النعمه على مستحقها و إيصال الشئ الى سعادته التي تليق به- من صفاته تعالى الفعلية صح أن ينسب الى كتابته تعالى، و المعنى: أوجب على نفسه الرحمه و إفاضه النعم و إنزال الخير لمن يستحقه.

قوله تعالى: وَ لَهُ مَا سَيَكُنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ السكون في الليل و النهار هو الوقوع في ظرف هذا العالم الطبيعي الذي يدبر أمره بالليل و النهار، و يجرى نظامه بغشيان النور الساكب من شمس مضيئه، و عمل التحولات النوريه فيه بالقرب و البعد و الكثره و القله و الحضور و الغيبه و المسامته و غيرها.

فالليل و النهار هما المهد العام يربى فيه العناصر الكليه و مواليدها تربيته تسوق كل جزء من أجزائها و كل شخص من أشخاصها الى غايته التي قدرت له، و تكملها روحا و جسما (1).

و الآيه أعنى قوله: «وَ لَهُ مَا سَيَكُنَ فِي اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ» الخ؛ كما حدى مقدمات الحجج المبينه بالآيه السابقه فإن الحجج على المعاد و إن تمت بقوله: «قُلْ لِمَنْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِي الرِّحْمَةَ» لكن النظر الابتدائي الساذج ربما غفل عن كون ملكه تعالى للأشياء مستلزما لعلمه بها و سمعه بما يسمع منها كالأصوات و الأقوال.

و لذلك نبه عليه بتكرار ملك السموات و الأرض، و تفريع السمع و العلم عليه فقال: «وَ لَهُ

ص: ٢٤٨

(١-١). الانعام ١٢-١٨: بحث في مالكيه الله تعالى لمخلوقاته.

مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ - وهو فى معنى قوله: «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» فكانت هذه الآيه لذلك بمنزله مقدمه متممه للحجه المسروده فى الآيه السابقه.

و الآيه-على أنا لم نستوف حقاها و لن يستوفى-من أرق الآيات القرآنيه معنى و أدقها إشاره و حجه،و أبلغها منطقا.

قوله تعالى: قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخَذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ شروع فى الاحتجاج على وحدانيته تعالى و أن لا شريك له.

و الذى يتحصل من تاريخ الوثنيه و اتخاذ الأصنام و الآلهه أنهم كانوا إنما دانوا بذلك و خضعوا للآلهه لأحد أمرين: إما أنهم وجدوا أنفسهم فى حاجه الى أسباب كثيره فى إبقاء الحياه كالتغذى بالطعام و اللباس و المسكن و الأزواج و الأولاد و العشيره و نحو ذلك،و عمدتها الطعام الذى حاجه الإنسان إليه أشد من حاجته الى غيره بحسب النظر الساذج،و قد اعتقدوا أن لكل صنف من أصناف هذه الحوائج تعلقا بسبب هو الذى وجود لهم بالتمتع من وسيله رفع تلك الحاجه كالسبب الذى يمطر السماء فينبت المرعى و الكلاء لدوابهم و يمنح بالخصب لأنفسهم،و السبب الذى يدبّر أمر السهل و الجبل أو يلقى بالمحبه و الألفه أو إليه أمر البحر و السفائن الجاربه فيها.

ثم وجدوا أن قوتهم لا تنفى بالتسلط على تلك الحاجه أو الحوائج الضروريه فاضطروا الى الخضوع الى السبب المربوط بحاجتهم و اتخاذها إلهام ثم عبادته.

و إما لأنهم وجدوا هذا الإنسان الأعزل غرضا لسهام الحوادث محصورا بمكاره و شرور عامه عظيمه لا يقاومها كالسيل و الزلزله و الطوفان و القحط و الوباء،و بيلايا و محن أخرى جزئيه لا يحصيها كالأمرض و الأوجاع و السقوط و الفقر و العقم و العدو و الحاسد و الشائى و غير ذلك،ثم وضعوا لها أسبابا قاهره هى المرسله لها إليهم،و القاصمه بها ظهورهم، و المكدره لصفوه عيشهم،و هى مخلوقات علويه كأرباب الأنواع و أرواح الكواكب و الأجرام

العلويه فاتخذوها آلهه خوفا من سخطهم و عذابهم، و عبدوهما ليستميلوها بالعباده و يرضوها بالخضوع و الاستكانه فيخلصوا بذلك عن المكاره و الرزايا و يأمنوا شرورها و المضار النازله منها إليهم.

و الآيه أعنى قوله: «قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ اتَّخِذْ وَلِيًّا» الخ؛ و الآيات التاليه لها تحتج على المشركين بقلب حجتيهم بعينهما إليهم أى تسلّم أصل الحججه و تعدّها حقه لكن تبين أن لازمها أن يعبد الله سبحانه وحده، و ينفى عنه كل شريك موضوع.

فقوله تعالى: «قُلْ أَغَيَّرَ اللَّهُ اتَّخِذْ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ يُطْعِمُ وَ لَا يُطْعَمُ» إشارة الى الحججه من المسلك الأول، و هو مسلك الرجاء أن يعبد الإله لأنه منعم فيكون عبادته شكرا لانعامه سببا لمزيده.

أمر سبحانه نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أن يبين لهم فى صورته الاستفهام و السؤال أن الله سبحانه وحده هو الولي للنعمة التي يتنعم بها الانسان و غيره لأنه هو الرازق الذي لا يحتاج الى أن يرزقه غيره يطعم و لا يطعم، و الدليل عليه أنه تعالى هو الذي فطر السموات و الأرض، و أخرجها من ظلمه العدم الى نور الوجود، و أنعم عليها بنعمه التحقق و الثبوت، ثم أفاض عليها بنعم لا يحصيها إلا- هو لإبقاء وجود، و منها الإطعام للإنسان و غيره فإن جميع هذه النعم المعده لبقاء وجود الانسان و غيره، و الأسباب التي تسوق تلك النعم الى محال الاستحقاق كل ذلك ينتهى الى فطره و إيجاد الأشياء و الأسباب و مسبباتها جميعا من صنعه.

فإليه سبحانه يرجع الرزق الذي من أهم مظاهره عند الإنسان الإطعام فيجب أن يعبد الله وحده لأنه هو الذي يطعمنا من غير حاجه الى إطعام من غيره.

ثم أمر سبحانه بعد تمام الحججه نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أن يذكر لهم ما يؤيد به هذه الحججه العقلية، و هو أن الله أمره من طريق الوحي أن يجرى فى اتخاذ الإله على الطريق الذي يهدى إليه العقل و هو التوحيد، و نهاه صريحا أن يتخطاه الى أن يلحق بالمشركين فقال: «قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ

مَنْ أَسْلَمَ» ثم قال: «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» .

بقي هنا أمران:

أحدهما: أن قوله: «أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ» إن كان المراد أول من أسلم من بينكم فهو ظاهر فقد أسلم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ قبل امته، وإن كان المراد به أول من أسلم من غير تقييد كما هو ظاهر الإطلاق كانت أوليته في ذلك بحسب المرتبة دون الزمان.

و ثانيهما: أن نتيجة الحجج لما كانت هي العبودية و هي نوع خضوع و تسليم كان استعمال لفظه الإسلام في المقام أولى من لفظه الإيمان لما فيه من الدلالة على غرض العبادة، وهو الخضوع.

وقوله تعالى: قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ وهذا هو المسلك الثاني من المسلكين اللذين تقدم أن المشركين تعلقوا بهما في اتخاذ الآلهة، وهو أن عبادة آلهتهم يؤمنهم من شمول سخطها و نزول عذابها.

و قد أخذ سبحانه في الحجج أخوف ما يجب أن يخاف منه من أنواع العذاب و أمره و هو عذاب الساعة التي ثقلت في السماوات و الأرض كما أخذ في الحجج الأولى أخرج ما يحتاج إليه الإنسان بحسب بادئ النظر من النعم، وهو الإطعام.

و قد قيل: «إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي» دون أن يقال: إن أشركت بربي إشارة إلى ما في قوله تعالى في الآيه السابقة: «وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» من نهيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عن الشرك فأدت الآيه أن من الواجب على عقلا أن أعبد الله وحده لأومن مما أخاف من عذاب يوم عظيم، وهذا الذي دل عليه العقل دلني عليه للوحي من ربي.

و بهذا تناظر هذه الآيه السابقة من جهة إقامة الحجج العقلية أولا ثم تأييده بالوحي من الله سبحانه فافهم ذلك، وهذا من لطائف إيجاز القرآن الكريم فقد اكتفى في إفاده هذا المعنى على سعة بمجرد وضع قوله: «عَصَيْتُ» موضع أشركت.

وقوله تعالى: مَنْ يُضْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ الْخ؛ المعنى ظاهر الآيه متممه للحجه المسروده فى الآيه السابقه فظاهر الآيه السابقه بحسب النظر البسيط إقامه النبى صَلَّى الله عليه وآله وسلم الحجه فى وجوب التوحيد على نفسه بأن الله نهاه عن الشرك فيجب عليه تويده ليؤمن عذاب الآخره.

فيلوح لنظر المغفل غير المتدبر أن يرد عليه الحجه بأن النهى لما كان مختصا بك كما تدعيه يختص الخوف ثم وجوب التوحيد أيضا بك فلا تقتضى الحجه وجوب التوحيد ونفى الشريك على غيرك، وتصير الحجه عليك لا على غيرك.

فأفاد بقوله: مَنْ يُضْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ أَنْ عذابه مشرف على الجميع محيط بالكل لا مخلص عنه إلا برحمته فعلى كل إنسان أن يخاف من عذاب يومئذ على نفسه ما يخافه النبى صَلَّى الله عليه وآله وسلم على نفسه فالحجه عامه قائمه على جميع الناس لا خاصه به صَلَّى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قد كانت الحجتان المذكورتان فى الآيات السابقه أخذتا أنموذجا مما يرجوه الإنسان وهو الإطعام وأنموذجا مما يخافه وهو عذاب يوم القيامة، وتمتا بهما البيان، ولم تتعرضا لسائر أنواع الضرر وأقسام الخير التى يمس الله سبحانه بهما الإنسان، والكل من الله عز اسمه.

فالآيه توضح بالتصريح أن هناك من الضر ما هو غير عذاب يوم القيامة يمس الله سبحانه به الانسان يجب أن يتوجه إليه تعالى فى كشفه، وأن من الخير ما يمس الله به الانسان ولا راد لفضله ولا مانع يمنع من إفاضته لقدرته على كل شىء، ورجاء الخير يوجب على الانسان أن يتخذ سبحانه إلها معبودا.

ولما أمكن أن يتوهم أن كونه تعالى يمس الانسان بضر أو بخير إنما يقتضى أن يتخذ معبودا،

و الخصم لا ينكر ذلك (١). و أما قصر الالوهيه و المعبوديه فيه تعالى فلا لأن ما اتخذوه من الآلهه هى أسباب متوسطه و شفعاء أقوياء لها تأثيرات فى الكون من شر أو خير يوجب على الانسان أن يتقرب إليها خوفا من شرها أو رجاء لخيرها.

دفعه بأن الله سبحانه هو القاهر فوق عباده لا يفوقه منهم أحد و لا يعادله فهم أنفسهم تحت قهره، و كذا أفعالهم و آثارهم لا يعملون عملا من خير أو شر إلا بإذنه و مشيته غير مستقلين بأمر البته و لا يملكون لأنفسهم ضرا و لا نفعا و لا غير ذلك، فما يطلع من أفق ذواتهم من أثر خيرا أو شرا ينتهى الى أمره و مشيته و اذنه يستند اليه على ما يليق بساحه قدسه و عزته من الاستناد.

فالآيتان جميعا تتممان معنى واحدا، و هو أن ما يصيب الانسان من خير أو شر فمن الله على ما يليق بساحته من الانتساب، فالله سبحانه هو المتوحد بالالوهيه، و المتفرد بالمعبوديه لا إله غيره، و لا معبود سواه.

و قد عبّر عن إصابه الضر و الخير بالمس الدال على الحقاره فى قوله: «إِنْ يَمْسَسْكَ» «و إِنْ يَمْسَسْكَ» ليدل به على أن ما يصيب الانسان من ضر أو من خير شىء يسير مما تحمله القدره غير المتناهيه التى لا يقوم لها شىء، و لا يطيقها و لا يتحملها مخلوق محدود.

و كأن قوله تعالى فى جانب الخير: «فَهُوَ عَلِيٌّ كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» وضع موضع نحو من قولنا:

فلا مانع يمنعه، ليدل على أنه تعالى قدير على كل خير مفروض كما أنه قدير على كل ضر مفروض، و تنكشف به عله قوله: فلا كاشف له إلا هو اذ لو كشف غيره تعالى شيئا مما مس به من ضر دفع ذلك قدرته عليه، و كذلك قدرته على كل شىء تقتضى أن لا يقوى شىء على دفع

ص: ٢٧٣

١- ١). الخاصه من الوثنيه و ان كانوا يجوزون عبادته تعالى استنادا إلى أنه غير محدود الوجود لا يتعلق به التوجه العبادى لكن العامه منهم ربما عبده فى عرض سائر الآلهه كما يظهر من تلبيه مشركى مكه فى الحج: لبيك لا شريك لك الله شريكا هو لك تملكه و له ملك.

ما يمس به من خير.

و تخصيص ما يمس به من ضرر أو خير بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ في هذه الآية نظير التخصيص الواقع في قوله: «قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» و يفيد قوله: «وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ» من التعميم نظير ما أفاد قوله: «مَنْ يُضِرَّهُ عَنَّا يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ» .

قوله تعالى: وَ هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَ هُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ القهر هو نوع من الغلبة، و هو أن يظهر شيء على شيء فيضطره الى مطاوعه أثر من الغالب يخالف ما للمغلوب من الأثر طبعاً أو بنحوه من الافتراض كالماء يظهر على النار فيقهرها على الخمود، و النار تقهر الماء فتبخره أو تجفف رطوبته. و اذ كانت الأسباب الكونية إنما أظهرها الله سبحانه لتكون وسائط في حدوث الحوادث فتضع آثارها في مسبباتها، و هي كائنه ما كانت مضطره الى مطاوعه ما يريده الله سبحانه فيها و بها، يصدق عليها عامه أنها مقهوره لله سبحانه فالله قاهر عليها.

فالقاهر من الأسماء التي تصدق عليه تعالى كما تصدق على غيره، غير أن بين قهره تعالى و قهر غيره فرقاً، و هو أن غيره تعالى من الأشياء إنما يقهر بعضها بعضاً و هما مجتمعان من جهة مرتبه وجودهما و درجه كونهما بمعنى أن النار تقهر الحطب على الاحتراق و الاشتعال، و هما معا موجودان طبيعياً يقتضى أحدهما بالطبع خلاف ما يقتضيه الآخر لكن النار أقوى في تحميل أثرها على الحطب منه من النار فهي تظهر عليه في تأثيرها بأثرها فيه.

و الله سبحانه قاهر لا- كقهر النار الحطب، بل هو قاهر بالتفوق و الإحاطه على الإطلاق بمعنى أنا اذا نسبنا احراق جسم و إشعاله كالحطب مثلاً- إلى الله سبحانه فهو سبحانه قاهر عليه بالوجود المحدود الذي أوجده به، قاهر عليه بالخواص و الكيفيات التي أعطاهها له و عبأه بها بيده، قاهر عليه بالنار التي أوقدها لإحراقه و إشعاله، و هو المالك لجميع ما للنار من ذات و أثر، قاهر عليه بقطع عطيه المقاومه للحطب، و وضع الاحتراق و الاشتعال موضعه فلا

ص: ٢٧٤

مقاومه و لا تعصى و لا جموح و لا شبه ذلك قبال إرادته و مشيئته لكونها من أفق أعلى.

فهو تعالى قاهر على عباده لكنه فوقهم لا كقهر شيء شيئا و هما متزاملان. و قد صدق القرآن الكريم هذا البحث بنتيجته فذكره اسما له تعالى فى موضعين من هذه السوره و هما هذه الآيه و آيه (٦١).

و قيد الاسم فى كلا-الموضعين بقوله: «فَوْقَ عِبَادِهِ» و الغالب فى المحفوظ من موارد استعمال القهر هو أن يكون المغلوب من اولى العقل بخلاف الغلبه، و لذا فسّره الراغب بالتذيل، و الذله فى اولى العقل أظهر، و لا يمنع ذلك من صحه صدقه فى غير مورد اولى العقل بحسب الاستعمال أو بعنايه.

و الله سبحانه قاهر فوق عباده يمسهم بالضرر و بالخير و يذلهم لمطاوعته و قاهر فوق عباده فيما يفعلونه و يؤثرون به من أثر لأنه المالك لما ملكهم و القادر على ما عليه أقدرهم.

و لما نسب فى الآيتين إليه المس بالضرر و الخير، و قد ينسبان الى غيره، ميز مقامه من مقام غيره بقوله فى ذيل الآيه: «وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَيْرُ» فهو الحكيم لا يفعل ما يفعل جزافا و جهلا، الخير لا يخطئ و لا يغلط كغيره.

[سوره الأنعام (٦): الآيات ١٩ الى ٢٠]

إشاره

قُلْ أُمِّي شَيْءٌ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ أِنَّكُمْ تَشْهَدُونَ أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهَةٌ أُخْرَىٰ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠)

قوله تعالى: قُلْ أَى شَىءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ أَمْرٌ نَبِيهِ أَنْ يَسْأَلَهُمْ عَنِ الْأَشْيَاءِ مِنْ حَيْثُ الشَّهَادَةُ، والشهادة هى تحمّل الخبر عن نوع من العيان كالإبصار ونحوه، وأداء ما تحمّل كذلك بالإخبار والإنباء، وإذا كان التحمّل والأداء- وخاصة التحمّل- مما يختلف بحسب إدراك المتحمّلين و بحسب وضوح الخبر الذى تحمّله المتحمّل، و بحسب قوه المؤدى بيانا و ضعفه اختلافا فاحشا.

فليس المتحمّل الذى يغلب على مزاجه السهو والنسيان أو الغفلة كالذى يحفظ ما يعيه سمعه و يقع عليه بصره، و ليس الصاحي كالسكران و لا الخبير الأخصائي بأمر كالأجنبي الأعزل.

و اذا كان الامر على ذلك فلا يقع ريب فى أن الله سبحانه هو أكبر من كل شىء شهادة فإنه هو الذى أوجد كل ما دق و جل من الأشياء، و إليه ينتهى كل أمر و خلق، و هو المحيط بكل شىء و مع كل شىء لا يعزب عن علمه مثقال ذره فى السماوات و الأرض و لا أصغر من ذلك و لا أكبر لا يضل و لا ينسى.

و لكون الأمر بيانا لا- يقع فيه شك لم يحتج الى إيراد الجواب فى اللفظ بأن يقال: قل الله أكبر شهادة، كما قيل: قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ قُلْ لِلّهِ (الأنعام ١٢) أو يقال:

سيقولون الله، كما قيل: قُلْ لِمَنْ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ، سَيَقُولُونَ لِلّهِ (المؤمنون ٨٥).

على أن قوله: «قُلِ اللّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ» يدل عليه و يسد مسده، و ليس من البعيد أن يكون قوله: «شَهِيدٌ» خبرا لمبتدأ محذوف هو الضمير العائد الى الله، و التقدير: «قل الله هو شهيد بينى و بينكم» فتشتمل الجملة على جواب السؤال و على ما استؤنف من الكلام.

و قوله: «قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» على أنه يشتمل على إخباره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بشهادة الله تعالى هو بنفسه شهادة لمكان قوله: «قُلِ» إذ أمره بأن يخبرهم بشهادته تعالى بالنبوه لا ينفك عن الشهاده بذلك، و على هذا فلا حاجة الى التشبث بأنواع ما وقع في القرآن الكريم من شهادة الله تعالى على نبوته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و على نزول القرآن من عنده كقوله تعالى: وَ اللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ (المنافقون) أو قوله: لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ (النساء ١٦٦) و غير ذلك من الآيات الداله على ذلك تصريحاً أو تلويحاً بلفظ الشهاده أو بغيره.

و تقييد شهادته تعالى بقوله: «بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ» يدل على توسطه تعالى بين طرفين متخاصمين هما النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و قومه، و النبي لم ينزل عنهم و لم يتميز منهم في جانب إلا- في دعوى النبوه و الرساله و دعوى نزول القرآن لكن نزول القرآن بالوحي قد ذكر بعد في قوله:

«وَ أَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنُ» فالمراد بشهادته تعالى بينه و بينهم شهادته بنبوته، و يؤيده أيضا قوله في الآيه التاليه: «الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ» على ما سيجيء إن شاء الله.

قوله تعالى: «وَ أَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ مِنْ مَقُولِ الْقَوْلِ وَ هُوَ مَعْطُوفٌ عَلَى قَوْلِهِ: «اللَّهُ شَهِيدٌ» الخ؛ و جعل الإنذار غايه لنزول القرآن الكريم أخذ بمسلك الخوف في الدعوه النبويه، و هو الأوقع في أفهام عامه الناس فإن مسلك الرجاء و الوعد و إن كان أحد الطريقتين في الدعوه، و قد استعمله الكتاب العزيز في الجملة لكن رجاء الخير لا يبعث الى طلبه بعثا إلزاميا و إنما يورث شوقا و رغبه بخلاف الخوف لوجوب دفع الضرر المحتمل عقلا.

و لأن دعوه الإسلام إنما هي الى دين الفطره، و هو مخزون مكنوز في فطره الناس و إنما حجبهم عنه ما ابتلوا به من الشرك و المعصيه مما يوجب عليهم غلبه الشقوه و نزول السخط

الإلهى فالأقرب الى الحكمة و الحزم فى دعوتهم أن تبدأ بالإنداز، و لهذا كله ربما حصر شأن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم فى الإنداز كما فى قوله: **إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ** (فاطر ٢٣/) و قوله: **وَ إِيْمًا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ** (العنكبوت ٥٠/).

هذا فى عامه الناس و أما الخاصه من عباد الله، و هم الذين يعبدونه حبا له لا خوفا من نار و لا طمعا فى جنه فانهم يتلقون من الدعوه بالخوف و الرجاء أمرا آخر فانهم يتلقون من النار أنها دار بعد و سخط فيخافونها لذلك، و من الجنه أنها ساحه قرب و رضوان فيشتاقون إليها لذلك.

و ظاهر قوله: **«لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ»** أنه خطاب لمشركى مكه أو لقريش أو للعرب عامه إلا أن التقابل بين ضمير الخطاب و بين من بلغ -و المراد بمن بلغ هو من لم يشافهه النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بالدعوه فى زمن حياته أو بعد- يدل على أن المراد بالمخاطبين فى قوله: **«لِأُنذِرْكُمْ بِهِ»** هم الذين شافههم النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بالدعوه ممن تقدم دعاؤه على نزول الآيه أو قارنه أو تأخر عنه.

فقوله: **«وَ أَوْحَىٰ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ»** يدل على عموم رسالته عليه السّلام بالقرآن لكل من سمعه منه أو سمعه من غيره الى يوم القيامة، و إن شئت فقل: تدل الآيه على كون القرآن الكريم حجه من الله و كتابا له ينطق بالحق على أهل الدنيا من لدن نزوله الى يوم القيامة.

و قد قيل: **«لِأُنذِرْكُمْ بِهِ»** و لم يقل: **«لأنذركم بقراءته فالقرآن حجه على من سمع لفظه و عرف معناه و اهتدى الى مقاصده، أو فسر له لفظه و قرع سمعه بمضامينه فليس من شرط كتاب مكتوب الى قوم أن يكون بلسانهم بل أن تقوم عليهم حجته و تشملهم مضامينه، و قد دعا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بكتابه الى مصر و الحبشه و الروم و إيران و لسانهم غير لسان القرآن، و قد كان فيمن آمن به فى حياته و قبل إيمانهم سلمان الفارسى و بلال الحبشى و صهيب الرومى و عدده من اليهود و لسانهم عبرى هذا كله مما لا ريب فيه.**

قوله تعالى: أَيْنَكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهَهُ أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ لما ذكر شهادة الله و هو أكبر شهادته على رسالته و لم يرسل إلا ليدعوهم الى دين التوحيد، و ليس لأحد بعد شهادة الله سبحانه على أن لا شريك له فى ألوهيته أن يشهد أن مع الله آلهة أمر نبيه أن يسألهم سؤال متعجب منكر: هل يشهدون بتعدد الآلهة، و هذا هو الذى يدل عليه تأكيد المسئول عنه بأن و اللام، كأن النفس لا تقبل أن يشهدوا به بعد أن سمعوا شهادة الله تعالى.

ثم أمره أن يخالفهم فى الشهادة فىنفى عن نفسه الشهادة بما شهدوا به فقال: «قُلْ لَا أَشْهَدُ» أى بما شهدتم به بقربنه المقام، ثم قال: «قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَ إِنِّى بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ» و هو شهادة على وحدانيته تعالى، و البراءة مما يدعون له من شركاء.

قوله تعالى: الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ و هذا إخبار عما شهد به الله سبحانه فى الكتب المنزلة على أهل الكتاب، و علمه علماء أهل الكتاب مما عندهم من كتب الأنبياء من البشارة بعد البشارة بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم و وصفه بما لا يعتريه شك و لا يطراً عليه ريب.

فهم بما استحضروا من نعتة صلى الله عليه و آله و سلم يعرفونه بعينه كما يعرفون أبناءهم، قال تعالى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ (الأعراف / ١٥٧) و قال تعالى: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَ الَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سَاجِدًا يَنْتَعِنُونَ فَضلاً مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَاناً سَيمَاهُمْ فى وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فى التَّوْرَةِ وَ مَثَلُهُمْ فى الْإِنْجِيلِ (الفتح ٢٩)، و قال تعالى: أَوْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ (الشعراء ١٩٧).

و لما كان بعض علمائهم يكتمون ما عندهم من بشاراته و نعوته صلى الله عليه و آله و سلم و يستنكفون عن الإيمان به بين الله تعالى خسرانهم فى أمرهم فقال: «الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» .

وقد تقدم بعض الكلام فى تفسير الآيه من سورة البقره (آيه ١٤٦) و بينا هناك وجه الالتفات من الحضور الى الغيبه و سيأتى تمام الكلام فى سورة الأعراف (آيه ١٥٦) إن شاء الله تعالى (١).

[سوره الأنعام (٦): الآيات ٢١ الى ٣٢]

اشاره

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١) وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا
أَيْنَ شُرَكَائُكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢) ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى
أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَ جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَ إِنْ
يَرَوْا كَلِمًا آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥) وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَ
يَتَأَوَّنَ عَنْهُ وَ إِنْ يَهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (٢٦) وَ لَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى الدَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَ لَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبَّنَا وَ
نَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧) بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨) وَ قَالُوا إِنْ هِيَ
إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩) وَ لَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَ رَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ
بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَ هُمْ
يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا - سَاءَ مَا يَزُرُونَ (٣١) وَ مَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهُوَ وَ اللَّدَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلَآ
تَعْقِلُونَ (٣٢)

ص: ٢٨٠

قوله تعالى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ الظلم من أشنع الذنوب بل التحليل الدقيق يقضى أن سائر الذنوب إنما هي شنيعه مذمومه بمقدار ما فيها من معنى الظلم، وهو الانحراف و الخروج عن الوسط العدل.

و الظلم كما يكبر و يصغر من جهه خصوصيات من صدر عنه الظلم كذلك يختلف حاله بالكبر و الصغر من جهه من وقع عليه الظلم أو أريد إيقاعه عليه فكلما جل موقعه و عظم شأنه كان الظلم أكبر و أعظم، و لا أعز قدرا و أكرم ساحه من الله سبحانه و لا من آياته الداله عليه، فلا أظلم ممن ظلم هذه الساحه المنزهه أو ما ينتسب إليها بوجه، و لا يظلم إلا نفسه.

و قد صدق الله سبحانه هذه النظره العقليه بقوله: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ

كَذَّبَ بِآيَاتِهِ» أما افتراء الكذب عليه تعالى فإثبات الشريك له، ولا شريك له، أو دعوى النبوه أو نسبه حكم إليه كذبا وابتداعا، و
أما تكذيب آياته الداله عليه فكتكذيب النبي الصادق في دعواه المقارنه للآيات الإلهيه أو إنكار الدين الحق، و منه إنكار الصانع
أصلا.

و الآيه تنطبق على المشركين، و هم أهل الأوثان الذين إليهم وجه الاحتجاج من جهة أنهم أثبتوا لله سبحانه شركاء بعنوان أنهم
شفعاء مصادر امور في الكون، و إليهم ينتهى تدبير شئون العالم مستقلين بذلك، و من جهة أنهم أنكروا آياته تعالى الداله على
النبوه و المعاد.

و ربما الحق بعضهم بذلك القائلين بجواز شفاعه النبي صلى الله عليه و آله و سلم أو الطاهرين من ذريته أو الأولياء الكرام من
امته ففضى بكون الاستشفاع بهم فى شىء من حوائج الدنيا أو الآخره شركا تشمله الآيه و ما يناظرها من الآيات الشريفه.

و كأنه خفى عليهم أنه تعالى أثبت الشفاعه اذا قارنت الإذن فى كلامه من غير أن يقيد به بدنيا أو آخره، فقال عز من قائل: مَنْ ذَا
الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ (البقره ٢٥٥).

على أنه تعالى قال: وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف ٨٦) فأثبت الشفاعه
حقا للعلماء الشهداء بالحق، و القدر المتيقن منهم الأنبياء و منهم النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و قد أثبت الله سبحانه شهادته
بقوله: وَ جِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا (النساء ٤١) و نص على علمه حيث قال: وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ (النحل ٨٩)، و
قال: نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ (الشعراء ١٩٤) و هل يعقل نزول الكتاب الذى هو تبيان كل شىء على قلب من غير علم
به، أو بعثه تعالى إياه شهيدا و ليس بشهيد بالحق؟ و قال الله تعالى: لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ (البقره ١٤٣)، و قال: وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ
شُهَدَاءَ (آل عمران ١٤٠)، و قال تعالى: وَ تِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَ مَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ (العنكبوت ٤٣) فأثبت فى هذه الامه
شهداء علماء و لا يثبت إلا الحق.

وقال تعالى فى أهل بيته عليهم السّلام: **إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً** (الأحزاب ٣٣) فبين أنهم مطهرون بتطهيره، ثم قال: **إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ، فِى كِتَابٍ مَّكْنُونٍ، لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ** (الواقعه ٧٩) فعدّهم العلماء بالقرآن الذى هو تبيان كل شىء و المطهرون هم القدر المتيقن من هذه الامه فى الشهاده بالحق التى لا سبيل للغو و التأثيم إليها، و قد أشبعنا الكلام فى معنى الشفاعة فى الجزء الأول من الكتاب فليراجع.

قوله تعالى: **إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ** الفلاح و الفوز و النجاح و الظفر و السعاده ألفاظ قريبه المعنى، و لهذا فسر الراغب الفلاح بإدراك البغيه الذى هو معنى السعاده تقريبا، قال فى المفردات: الفلح: الشق، و قيل الحديد بالحديد يفلح أى يشق، و الفلاح الأكار لذلك و الفلاح الظفر و إدراك البغيه، و ذلك ضربان دنيوى و أخروى:

فالدنيوى الظفر بالسعادات التى تطيب بها حياه الدنيا و هو البقاء و الغنى و العز و إياه قصد الشاعر بقوله:

أفلح بما شئت فقد يدرك

بالضعف و قد يخدع الأريب

و فلاح اخروى، و ذلك أربعه أشياء: بقاء بلا- فناء، و غنى بلا- فقر، و عز بلا ذل، و علم بلا جهل. انتهى، فمن الممكن أن يقال: إن الفلاح هو السعاده سميت به لأن فيها الظفر و إدراك البغيه بشق الموانع الحائله دون المطلوب.

و هذا معنى جامع ينطبق على موارد الاستعمال كقوله: **قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ** (المؤمنون / ١)، و قوله: **قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا** (الشمس / ٩)، و قوله: **إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ** (المؤمنون / ١١٧) الى غير ذلك من الموارد.

فقوله: **«إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ»** - و قد أخذ الظلم و صفا- معناه أن الظالمين لا يدركون بغيتهم التى تشبثوا لأجل إدراكها بما تشبثوا به فإن الظلم لا يهدى الظالم الى ما يبتغيه من

قوله تعالى: وَ يَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً الى آخر الآيتين، الظرف متعلق بمقدر و التقدير: و اذكر يوم، الخ؛ و قد تعلق العنايه فى الكلام بقوله «جَمِيعاً» للدلاله على أن العلم و القدره لا يتخلفان عن أحد منهم، فالله سبحانه محيط بجميعهم علما و قدره سيحصيهم يحشرهم و لا يغادر منهم أحدا.

و الجملة فى مقام بيان قوله: «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» كانه لما قيل «إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ» سئل فقيل: و كيف ذلك؟ فقيل: لأن الله سيحشرهم و يسألهم عن شركائهم فيضلون عنهم و يفقدونهم فينكرون شركهم و يقسمون لذلك بالله كذبا، و لو أفلح هؤلاء الظالمون فى اتخاذهم لله شركاء لم يضل عنهم شركاؤهم، و لم يكذبوا على أنفسهم بل وجدوهم على ما ادعوا من الشركه و الشفاعة و نالوا شفاعتهم.

و قوله: «ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ» الخ؛ قيل: المراد بالفتنه الجواب أى لم يكن جوابهم إلا أن أقسموا بالله على أنهم ما كانوا مشركين، و قيل: الكلام على تقدير مضاف و المراد: لم تكن عاقبه افتتانهم بالأوثان إلا أن قالوا، الخ؛ و قيل: المراد بالفتنه المعذره، و لكل من الوجوه وجه.

قوله تعالى: أُنظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ بيان. لمحل الاستشهاد فيما قص من حالهم يوم القيامة، و المراد أنهم سيكذبون على أنفسهم و يفقدون ما افتروا به، و لو أفلحوا فى ظلمهم و سعدوا فيما طلبوا لم ينجر أمرهم الى فقد ذلك و إنكاره على أنفسهم.

أما كذبهم على أنفسهم فلأنهم لما أقسموا بالله أنهم ما كانوا مشركين أنكروا ما ادعوه فى

الدنيا من أن الله سبحانه شركاء، وهم كانوا يصرون عليه و يعرضون فيه عن كل حجه واضحه و آيه بينه ظلما و عتوا، و هذا كذب منهم على أنفسهم.

و أما ضلال ما كانوا يفترونه عنهم فلأن اليوم يوم ينجلي فيه عيانا أن الأمر و الملك و القوه لله جميعا ليس لغيره من شيء إلا ذل العبوديه، و الفقر و الحاجه من غير أى استقلال قال تعالى: وَ لَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرُونَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (البقره ١٦٥)، و قال: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (المؤمن ١٦) و قال: يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا، وَ الْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (الانفطار ١٩).

فيشاهدون عندئذ مشاهده عيان أن الالهيه لله وحده لا شريك له، و يظهر لهم أوثانهم و شركاؤهم و هم لا يملكون ضرا و لا نفعا لأنفسهم و لا لغيرهم، و وجدوا الأوصاف التى أثبتوها لهم من الربوبيه و الشفاعة و غيرهما انما هى لله وحده، و قد كان اشتبه عليهم الأمر فتوهموها لغيره و ضل عنهم ما كانوا يفترون.

و بالتدبر فى هذه الآيات يظهر أن المراد بضلال ما افتروا به هو ظهور حقيقه شركائهم فاقده لوصف الشركه و الشفاعة و تبيينهم أن ما ظهر لهم من ذلك فى الدنيا لم يكن إلا ظهورا سرايبا كما قال تعالى: وَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمَانُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَ وَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ (النور ٣٩).

قوله تعالى: وَ مِنْهُمْ مَنْ يَشْتُمِعُ إِلَيْكَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ لأنه جمع كن بكسر الكاف و هو الغطاء الذى يكن فيه الشيء و يغطى، و الوقر هو الثقل فى السمع، و الأساطير جمع اسطوره بمعنى الكذب و المين على ما نقل عن المبرد، و كأنه أصله السطر و هو الصف من الكتابه أو الشجر أو الناس غلب استعماله فيما جمع و نظم و رتب من الأخبار الكاذبه.

و كان ظاهر السياق أن يقال: يقولون إن هذا إلا أساطير الأولين، و لعل الإظهار للإشعار بالسبب فى هذا الرمى و هو الكفر.

قوله تعالى: وَ هُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ينهون عنه أى عن أتباعه، و النأى الابتعاد، و القصر فى قوله: «وَ إِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ» من قصر القلب فإنهم كانوا يحسبون أن النهى عنه و النأى عنه إهلاك له و إبطال الدعوه الإلهيه، و أبى الله إلا أن يتم نوره فهم هم الهالكون من حيث لا يشعرون.

قوله تعالى: وَ لَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَى النَّارِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِينَ. بيان لعاقبه جحودهم و إصرارهم على الكفر و الإعراض عن آيات الله تعالى.

و قوله: يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَ لَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا الخ؛ على قراءه النصب فى «نكذب» و «نكون» تمن منهم للرجوع الى الدنيا و الانسلاك فى سلك المؤمنين ليخلصوا به من عذاب النار يوم القيامه، و هذا القول منهم نظير إنكارهم الشرك بالله و حلفهم بالله على ذلك كذبا من باب ظهور ملكاتهم النفسانيه يوم القيامه فإنهم قد اعتادوا التمنى فيما لا سبيل لهم الى حيازته من الخيرات و المنافع الفائتة عنهم، و خاصه اذا كان فوتها مستندا الى سوء اختيارهم و قصور تدبيرهم فى العمل، و نظيره أيضا ما سيجىء من تحصرهم على ما فرطوا فى أمر الساعه.

على أن التمنى يصح فى المحالات المتعذره كما يصح فى الممكنات المتعسره كتمنى رجوع الأيام الخاليه و غير ذلك قال الشاعر:

ليت و هل ينفع شيئا ليت

ليت الشباب بوع فاشترت

و قوله: بَلْ بَدَأَ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلِ الْخ؛ ظاهر الكلام أن مرجع الضمائر أعنى ضمائر «لَهُمْ» و «كَانُوا» و «يُخْفُونَ» واحد و هو المشركون السابق ذكرهم، و أن المراد بالقبل هو الدنيا فالمعنى أنه ظهر لهؤلاء المشركين حين وقفوا على النار ما كانوا هم أنفسهم يخفونه فى الدنيا فبعثهم ظهور ذلك على أن تمنوا الرد الى الدنيا، و الإيمان بآيات الله، و الدخول فى جماعه المؤمنين.

و لم يبذلهم إلا النار التي وقفوا عليها يوم القيامة فقد كانوا أخفوها في الدنيا بالكفر و الستر للحق و التغطية عليه بعد ظهوره لهم كما يشير إليه نحو قوله تعالى: لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَ كَيْفَ بَصُرْتُمْ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (ق ٢٢).

و أما نفس الحق الذي كفروا به في الدنيا مع ظهوره لهم فهو كان بادئا لهم من قبل و السياق يأبى أن يكون مجرد ظهور الحق لهم مع الغضب عن ظهور النار و هول يوم القيامة باعنا لهم على هذا التمني.

و قوله: وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ أَي فِي قَوْلِهِمْ «يَا لَيْتِنَا نُرَدُّ وَ لَا نُكَذِّبُ بِآيَاتِ رَبِّنَا» الخ؛ و التمني و إن كان إنشاء لا يقع فيه الصدق و الكذب إلا أنهم لما قالوا «نُرَدُّ وَ لَا نُكَذِّبُ» أَي رَدْنَا اللَّهَ إِلَى الدُّنْيَا و لوردنا لم نكذب، و لم يقولوا: نعود و لا نكذب، كان كلامهم مضمنا للمسألة و الوعد أعنى مسألة الرد و وعد الإيمان و العمل الصالح كما صرح بذلك في قوله: وَ لَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصِرْنَا وَ سَجِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (السجده ١٢) و قوله: وَ هُمْ يَضِطْرُّونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ (فاطر ٣٧).

و بالجملة قولهم «يَا لَيْتِنَا نُرَدُّ وَ لَا نُكَذِّبُ» الخ؛ في معنى قولهم ربنا ردنا الى الدنيا لا نكذب بآياتك و نكن من المؤمنين، و بهذا الاعتبار يحتمل الصدق و الكذب، و يصح عداهم كاذبين.

و ربما وجه نسبة الكذب إليهم في تمنيههم بأن المراد كذب الأمل و التمني و هو عدم تحققه خارجا كما يقال: كذبك أملك، لمن تمنى ما لا يدرك.

و ربما قيل: إن المراد كذبهم في سائر ما يخبرون به عن أنفسهم من إصابه الواقع و اعتقاد الحق، هو كما ترى.

قوله تعالى: وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ. ذكر لأنكارهم الصريح للحشر و ما يستتبعه يوم القيامة من الإشهاد و أخذ الاعتراف بما أنكروه، و الوثنيه

يَوْمَ يَذُتُ الْمُسْتَقَرُّ» و الوزر (بالكسر فالسكون) الثقل تشبيها بوزر الجبل، و يعبر بذلك عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل قال: «لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً» الآية كقوله: «وَلِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَ أَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ»، انتهى.

و الآية تبين تبعه اخرى من تبعات إنكارهم البعث و هو أن الساعه سيفاجئهم فينادون بالحسره على تفریطهم فيها و يتمثل لهم أوزارهم و ذنوبهم و هم يحملونها على ظهورهم و هو أشق أحوال الإنسان و أردؤها إلا- ساء ما يزون و يحملونه من الثقل أو من الذنب أو من وبال الذنب.

و الآية أعنى قوله: «قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ» بمنزله النتيجة المأخوذه من قوله:

«وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا» الى آخر الآيتين، و هى أنهم بتعويضهم راحه الآخره و روح لقاء الله من إنكار البعث و ما يستتبعه من أليم العذاب خسروا صفاقه.

قوله تعالى: «وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَ لَهُوَ وَ اللَّذَارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ الْخ؛» تتمه للكلام فيه بيان حال الحياتين: الدنيا و الآخره و المقايسه بينهما فالحياه الدنيا لعب و لهو ليس إلا فإنها تدور مدار سلسله من العقائد الاعتباريه و المقاصد الوهميه كما يدور عليه اللعب فهى لعب، ثم هى شاغله للإنسان عما يههمه من الحياه الاخرى الحقيقه الدائمه فهى لهو، و الحياه الآخره لكونها حقيقه ثابتة فهى خير و لا ينالها إلا المتقون فهى خير لهم (١).

[سوره الأنعام (٦): الآيات ٣٣ الى ٣٦]

اشاره

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لِيَحْزُنَكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَ لَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣) وَ لَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبِّرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَ أُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَ لَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ (٣٤) وَ إِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اشْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سَلْمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥) إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتَىٰ يَنْعَمُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦)

ص: ٢٨٩

(١-١). الانعام ٢١-٣٢: بحث روائى فى: العفو؛ ابى طالب و دفاعه عن رسول الله.

قوله تعالى: قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ «قَدْ» حرف تحقيق في الماضي، وتفيد في المضارع التقليل وربما استعملت فيه أيضا للتحقيق، وهو المراد في الآية، وحزنه كذا وأحزانه بمعنى واحد، وقد قرئ بكلا الوجهين.

وقوله: فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ قرئ بالتشديد من باب التفعيل، وبالتخفيف، والظاهر أن الفاء في قوله: «فَإِنَّهُمْ» للتفريع و كأن المعنى قد نعلم إن قولهم ليحزنك لكن لا ينبغي أن يحزنك ذلك فإنه ليس يعود تكذيبهم إليك لأنك لا تدعو إلا إلينا، وليس لك فيه إلا الرساله بل هم يظلمون بذلك آياتنا و يجحدونها.

فما في هذه الآية مع قوله في آخر الآيات «ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ» في معنى قوله تعالى: وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (لقمان/ ٢٣) وقوله: فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إنا نعلم ما يسئرون و ما يعلنون (يس/ ٧٦) و غير ذلك من

الآيات النازله فى تسليته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، هذا على قراءة التشديد.

و أما على قراءة التخفيف فالمعنى: لا تحزن فإنهم لا يظهرون عليك بإثبات كذبك فيما تدعو إليه، ولا يبطلون حججتك بحجه و إنما يظلمون آيات الله بجحدها و إليه مرجعهم.

و قوله: **وَ لَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ** كان ظاهر السياق أن يقال:

و لكنهم، فالعدول الى الظاهر للدلاله على أن الجحد منهم إنما هو عن ظلم منهم لا عن قصور و جهل و غير ذلك فليس إلا عتوا و بغيا و طغيانا و سيبعثهم الله ثم إليه يرجعون.

و لذلك وقع الالتفات فى الكلام من التكلم الى الغيبه فقيل «بِآيَاتِ اللَّهِ» و لم يقل: بآياتنا، للدلاله على أن ذلك منهم معارضة مع مقام الالوهيه و استعلاء عليه و هو المقام الذى لا يقوم له شىء.

قوله تعالى: **وَ لَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا** الى آخر الآيه؛ هدايه له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الى سبيل من تقدمه من الأنبياء، و هو سبيل الصبر فى ذاته الله، و قد قال تعالى: **أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدُهُ** (الأنعام ٩٠).

و قوله: **حَتَّىٰ آتَاهُمْ نَصْرُنَا** بيان غايه حسنه لصبرهم، و إشاره الى الوعد الإلهي بالنصر، و فى قوله: **وَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ** تأكيد لما يشير إليه الكلام السابق من الوعد و حتم له، و إشاره الى ما ذكره بقوله **كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَ رُسُلِي** (المجادله ٢١)، و قوله: **وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ، إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ** (الصفات ١٧٢).

و وقوع المبدل فى قوله: «**لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ**» فى سياق النفي ينفى أى مبدل مفروض سواء كان من ناحيته تعالى بأن يتبدل مشيته فى خصوص كلمه بأن يمحوها بعد إثباتها أو ينقضها بعد إبرامها أو كان من ناحيه غيره تعالى بأن يظهر عليه و يقهره على خلاف ما شاء فيبدل ما أحكم و يغيره بوجه من الوجوه.

و من هنا يظهر أن هذه الكلمات التى أنبا سبحانه عن كونها لا تقبل التبديل أمور خارجه

عن لوح المحو والإثبات، فكلمه الله وقوله وكذا وعده في عرف القرآن هو القضاء الحتم الذي لا مطمع في تغييره وتبديله، قال تعالى: **قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ** (ص ٨٤) وقال تعالى:

وَ اللَّهُ يَقُولُ الْحَقُّ (الأحزاب ٧٤)، وقال تعالى: **أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ** (يونس ٥٥) وقال تعالى: **لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ** (الزمر ٢٠) وقد مر البحث المستوفى في معنى كلمات الله تعالى وما يرادفها من الألفاظ في عرف القرآن في ذيل قوله تعالى: **مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ** (البقره ٢٥٣).

وقوله في ذيل الآية: **«وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُؤْمِنِينَ»** تثبيت واستشهاد لقوله: **«وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ»** الح؛ ويمكن أن يستفاد منه أن هذه السوره نزلت بعد بعض السور المكيه التي تقص قصص الأنبياء كسوره الشعراء و مريم و أمثالهما، وهذه السور نزلت بعد أمثال سوره العلق و المدثر قطعاً فتقع سوره الأنعام على هذا في الطبقة الثالثه من السوره النازله بمكّه قبل الهجره، والله أعلم.

قوله تعالى: **وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ** - إلى قوله - **فَتَأْتِيهِمْ بَأْيَهُ** قال الراغب: النفق الطريق النافذ و السرب في الأرض النافذ فيه قال: فإن استطعت أن تبتغي نفقا في الأرض، و منه نافقاء اليربوع، و قد نافق اليربوع و نفق، و منه النفاق و هو الدخول في الشرع من باب و الخروج عنه من باب، و على ذلك تبه بقوله: **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** أي الخارجون من الشرع، و جعل الله المنافقين شرا من الكافرين فقال: **إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ**، و نيفق السراويل معروف، انتهى.

وقال: السلم ما يتوصل به إلى الأمكنه العاليه فيرجى به السلامه ثم جعل اسما لكل ما يتوصل به إلى شيء رفيع كالسبب، قال تعالى: **أَمْ لَهُمْ سَلْمٌ يَسْتَعْمُونَ** به، و قال: **أَوْ سَلَمَا فِي السَّمَاءِ**، و قال الشاعر: **و لو نال أسباب السماء بسلم، انتهى.**

و جواب الشرط في الآية محذوف للعلم به، و التقدير كما قيل: **و إن استطعت أن تبتغي كذا**

و كذا فافعل.

و المراد بالآيه فى قوله تعالى: «فَتَيَأْتِيهِمْ بِآيَةٍ» الآيه التى تضطرهم الى الإيمان فى الخطاب أعنى قوله: «وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ» الخ؛ إنما ألقى الى النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من طريق القرآن الذى هو أفضل آيه إلهيه تدل على حقيقته دعوته، و يقرب إعجازه من فهمهم و هم بلغاء عقلاء فالمراد أنه لا- ينبغى أن يكبر و يشق عليك إعراضهم فى الدار دار الاختيار، و الدعوه الى الحق و قبولها جاريان على مجرى الاختيار، و إنك لا تقدر على الحصول على آيه توجب عليهم الإيمان و تلتزمهم على ذلك فإن الله سبحانه لم يرد منهم الإيمان إلا على اختيار منهم فلم يخلق آيه تجبر الناس على الإيمان و الطاعه، و لو شاء الله لآمن الناس جميعا فالتحق هؤلاء الكافرون بالمؤمنين بك فلا تبتئس و لا تجزع بإعراضهم فتكون من الجاهلين بالمعارف الإلهيه.

و أما ما احتمله بعضهم: أن المراد: فتأتيتهم بآيه هى أفضل من الآيه التى أرسلناك بها أى القرآن فلا تلائمها سياق الآيه و خاصه قوله: «وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى» فإنه ظاهر فى الاضطرار.

و من هنا يظهر أن المراد بالمشيه أن يشاء الله منهم الاهتداء الى الإيمان فيضطروا الى القبول فيبطل بذلك اختيارهم هذا ما يقتضيه ظاهر السياق من الآيه الشريفه.

لكنه سبحانه فيما يشابه الآيه من كلامه لم يبين عدم مشيته ذلك على لزوم الاضطرار كقوله تعالى: «وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا، وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ» (السجده ١٣) يشير تعالى بذلك الى نحو قوله: «قَالَ فَالْحَقُّ وَ الْحَقُّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» (ص ٨٥) فبين تعالى أن عدم تحقق مشيته لهداهم جميعا إنما هو لقضائه ما قضى تجاه ما أقسم عليه إبليس أنه سيغويهم أجمعين إلا عباده منهم المخلصين.

ص: ٢٩٣

وقد أسند القضاء في موضع آخر الى غوايتهم قال تعالى في قصه آدم و ابليس: قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، إِلَّا جِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخَلَصِينَ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ، إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ، وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (الحجر ٤٣) وقد نسب ذلك إليهم إبليس أيضا فيما حكى الله سبحانه من كلامه لهم يوم القيامة: وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقُّ وَ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ -الى أن قال- إني كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ (إبراهيم ٢٢).

فآيات تبين أن المعاصي و منها الشرك تنتهي الى غوايه الإنسان و الغوايه تنتهي الى نفس الإنسان، و لا ينافي ذلك ما يظهر من آيات أخر أن الإنسان ليس له أن يشاء إلا أن يشاء الله منه المشيه كقوله تعالى: إِنَّ هَذِهِ تَذْكَرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَهًا رَبًّا سَبِيلًا، وَ مَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ (الإنسان ٣٠)، و قال تعالى: إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ، لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ، وَ مَا تَشَاؤُنَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (التكوير ٢٩).

قوله تعالى: إِنَّهُمْ لَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَ الْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ الآية؛ كالبيان لقوله: «وَ إِنْ كَانَ كَذِبًا عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ» الى آخر الآية؛ فإن ملخصه انك لا تستطيع صرفهم عن هذا الإعراض، و الحصول على آيه تسوقهم الى الإيمان، فبين في هذه الآية أنهم بمنزلة الموتى لا شعور لهم و لا سمع حتى يشعروا بمعنى الدعوه الدينيه و يسمعوا دعوه الداعي و هو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ.

فهذه الهياكل المترعات من الناس صنفان: صنف منهم أحياء يسمعون، و إنما يستجيب الذين يسمعون، و صنف منهم أموات لا يسمعون و إن كانوا ظاهرا في صور الأحياء و هؤلاء يتوقف سمعهم الكلام على أن يبعثهم الله، و سوف يبعثهم فيسمعون ما لم يستطيعوا سماعه في الدنيا كما حكاه الله عنهم بقوله: وَ لَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُؤُسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَ سَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ (السجده ١٢).

وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْزِلَ آيَةً وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧) وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا
 طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُومٌ وَبُكْمٌ
 فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَأْ اللَّهُ يُضِلَّهُ وَمَنْ يَشَأْ يُجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمْ السَّاعَةُ أ
 غَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠) بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
 إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢) فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ
 لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً
 فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤) فَقُطِعَ دَابُّ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصَارَكُمْ وَ
 خَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ أَنْظِرْ كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصِدُّونَ (٤٦) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ
 بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ (٤٧) وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَ أَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ
 وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩) قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا أَعْلَمُ
 الْغَيْبَ وَ لَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا بِمَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَ النَّبْصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠) وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ
 يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَ لَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَ لَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَ الْعِشِيِّ
 يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ مَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَ كَذَلِكَ
 فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣) وَ إِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ
 سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤) وَ
 كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَ لِنَتَشَبِّهَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ (٥٥)

و روى عن ابن كثير أنه قرأ بالتخفيف.

قوله تعالى: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الدابة كل حيوان يدب على الأرض و قد كثر استعماله في الفرس، و الدب بالفتح و الدبيب هو المشى الخفيف.

و الطائر ما يسبح في الهواء بجناحيه، و جمعه الطير كالراكب و الركب، و الامة هي الجماعة من الناس يجمعهم مقصد واحد يقصدونه كدين واحد أو سنّه واحد أو زمان واحد أو مكان واحد، و الأصل في معناها، القصد يقال: أمّ يؤمّ اذا قصد، و الحشر جميع الناس بإزعاج الى الحرب أو جلاء و نحوه من الامور الاجتماعيه.

و الظاهر أن توصيف الطائر بقوله: «يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ» محاذاه لتوصيف الدابة بقوله: «فِي الْأَرْضِ» فهو بمنزله قولنا: ما من حيوان أرضى و لا- هوائى، مع ما فى هذا التوصيف من نفي شبهه التجوّز فإن الطيران كثيرا ما يستعمل بمعنى سرعه الحركة كما أن الدبيب هو الحركة الخفيفه فكان من المحتمل أن يراد بالطيران حيث ذكر مع الدبيب الحركة السريعه فدفع ذلك بقوله: «يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ» (١).

و قوله تعالى: مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ جَمْلُهُ معترضه، و ظاهرها أن المفرط فيه هو الكتاب، و لفظ «مِنْ شَيْءٍ» بيان للفرط الذى يقع التفريط به، و المعنى لا يوجد شيء تجب رعايه حاله و القيام بواجب حقه و بيان نعته فى الكتاب إلا و قد فعل من غير تفريط، فالكتاب تام كامل.

و المراد بالكتاب إن كان هو اللوح المحفوظ الذى يسميه الله سبحانه فى موارد من كلامه

ص: ٢٩٨

كتابا مكتوبا فيه كل شيء مما كان و ما يكون و ما هو كائن، كان المعنى أن هذه النظمات الامميه المماثله لنظام الانسانيه كان من الواجب فى عنايه الله سبحانه أن يبنى عليها خلقه الأنواع الحيوانيه فلا يعود خلقها عبثا و لا يذهب وجودها سدى، و لا تكون هذه الأنواع بمقدار ما لها من لياقه القبول ممنوعه من موهبه الكمال.

فآليه على هذا تفيد بنحو الخصوص ما يفيد بنحو العموم، قوله تعالى: **وَ مَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا** (الإسراء ٢٠)، وقوله: **مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** (هود ٥٢).

وقوله تعالى: **ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ** بيان لعموم الحشر لهم و أن حياتهم الموهوبه نوع حياه تستتبع الحشر الى الله كما أن الحياه الانسانيه كذلك، و لذلك أرجع الضمير المستعمل فى اولى الشعور و العقل، فقال: **«إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ»** إشاره الى أن أصل الملاك و هو الأمر الذى يدور عليه الرضا و السخط و الإثابه و المؤاخذه موجود فيهم.

وقد وقع فى الآيه التفات من الغيبه الى التكلم مع الغير ثم الى الغيبه بالنسبه إليه تعالى، و التدبر فيها يعطى أن الأصل فى السياق الغيبه و إنما تحول السياق فى قوله: **«مَا فَزَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ»** الى التكلم مع الغير لكون المعترضه خطابا خاصا بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم فلما فرغ منه رجع الى أصل السياق.

قوله تعالى: **وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُومٌ وَ بُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ** الى آخر الآيه؛ يريد تعالى أن المكذبين لآياته محرمون من نعمه السمع و التكلم و البصر لكونهم فى ظلمات لا- يعمل فيها البصر فهم لصممهم لا يقدرّون على أن يسمعوا الكلام الحق و أن يستجيبوا و لبكمتهم لا- يستطيعون أن يتكلموا بالقول الحق و يشهدوا بالتوحيد و الرساله، و لإحاطه الظلمات بهم لا يسعهم أن يبصروا طريق الحق فيتخذوه طريقا.

و فى قوله تعالى: **مَنْ يَشَأِ اللَّهُ يُضِلَّهُ** الخ؛ دلالة على أن هذا الصمم و البكم

و الوقوع فى الظلمات إنما هى رجز وقع عليهم منه تعالى جزاء لتكذيبهم بآيات الله فإن الله سبحانه جعل إضلاله المنسوب إليه من قبيل الجزاء، كما فى قوله: وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦).

فتكذيب آيات الله غير مسبب عن كونهم صما بكما فى الظلمات بل الأمر بالعكس و على هذا فالمراد بالإضلال بحسب الانطباق على المورد هو جعلهم صما بكما فى الظلمات و المراد بمن شاء الله ضلاله هم الذين كذبوا بآياته.

و بالمقابل يظهر أن المراد بالجعل على صراط مستقيم هو أن يعطيه سمعا يسمع به فيجيب داعى الله بلسانه و يتبصر بالحق ببصره، و أن هذا جزاء من لا يكذب بآيات الله سبحانه فمن يشاء الله يضلله و لا يشاء إلا إضلال من يستحقه و من يشاء يجعله على صراط مستقيم و لا يشاء ذلك إلا لمن تعرّض لرحمته.

قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ لفظ «أَرَأَيْتُمْ» بهمزه الاستفهام و صيغه المفرد المذكر الماضى من الرؤيه و ضمير الجمع المخاطب، أخذه أهل الأدب بمعنى أخبرنى، قال الراغب فى المفردات: و يجرى «أَرَأَيْتُمْ» مجرى أخبرنى فيدخل عليه الكاف و يترك التاء على حالته فى التشبيه و الجمع و التأنيث، و يسلط التغيير على الكاف دون التاء، قال تعالى: «أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي قُلُّ أَرَأَيْتُمْ»، انتهى.

و فى الآيه تجديد احتجاج على المشركين، و إقامة حجه على بطلان شركهم من وجه، و هو أنها تفرض عذابا آتيا من جانب الله أو إتيان الساعه إليهم ثم تفرض أنهم يدعون فى ذلك من يكشف العذاب عنهم على ما هو المغروز فى فطره الانسان أنه يتوجه بالمسأله اذا بلغت به الشده نحو من يقدر أن يكشفها عنه.

ثم تسألهم أنه من الذى تدعونه و تتوجهون إليه بالمسأله إن كنتم صادقين؟ أغير الله تدعون

من أصنامكم و أوثانكم التي سميتوها من عند أنفسكم آلهه أم إياه تدعون؟ و هيهات أن تدعوا غيره و أنتم تشهدون حينئذ أنها محكومها بالأحكام الكونية مثلكم لا ينفعكم دعاؤها شيئا.

بل تنسون هؤلاء الشركاء المسمين آلهه لأن الانسان اذا أحاطت به البليه و هزته الهزاهز ينسى كل شيء دون نفسه إلا أن في نفسه رجاء أن ترتفع عنه البليه، و الرافع الذى يرفعها منه هو ربه، فتسبون شركاءكم و تدعون من يرفعها من دونهم و هو الله عز اسمه فيكشف الله سبحانه ما تدعون كشفه إن شاء أن يكشفه، و ليس هو تعالى بمحكوم على الاستجابه و لا مضطرا الى الكشف اذا دعى بل هو القادر على كل شيء فى كل حال.

فإذا كان الله سبحانه هو الرب القدير الذى لا ينساه الانسان و إن نسى كل شيء إلا نفسه و يضطر الى التوجه إليه بيعث من نفسه عند الشدائد القاصمه الحاطمه دون غيره من الشركاء المسمين آلهه فهو سبحانه هو رب الناس دونها.

فمعنى الآية «قُلْ» يا محمد «أَرَأَيْتُمْ» أخبرونى «إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ» فرض إتيان عذاب من الله و لا ينكرونه، و فرض إتيان الساعه و لم يعبأ بإنكارهم لظهوره «أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ» لكشفه، و قد حكى الله فى كلامه عنهم سؤال كشف العذاب فى الدنيا و يوم القيامه جميعا لما أن ذلك من فطريات الانسان «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» و جئتم بالنصفه «بَلْ إِيَّاهُ» الله سبحانه دون غيره من أصنامكم «تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ» من العذاب «إِنْ شَاءَ» أن يكشفه كما كشف لقوم يونس، و ليس بمجبر و لا مضطرا الى القبول لقدرته الذاتيه «وَتَسْؤُونَ مَا تُشْرِكُونَ» من الأصنام و الأوثان على ما فى غريزه الانسان أن يشتغل عند إحاطه البليه به عن كل شيء بنفسه، و لا يهتم إلا بنفسه لضيق المجال به أن يتلهى بما لا ينفعه، فاشتغاله و الحال هذه بدعاء الله سبحانه و نسيانه الأصنام أصرح حجه أنه تعالى هو الله لا إله غيره و لا معبود سواه.

و أما قوله تعالى: **وَ مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ** فهو دعاؤهم في جهنم لكشف عذابها و تخفيفه عنهم، و من المعلوم أن الدعاء مع تحتم الحكم و فصل القضاء لا يتحقق بحقيقته فإن سؤال أن لا يبعث الله الخلق أو لا يعذب أهل جهنم فيها من الله سبحانه بمنزله أن يسأل الله سبحانه أن لا يكون هو الله سبحانه فإن من لوازم معنى الالوهية أن يرجع إليه الخلق على حسب أعمالهم، فلمثل هذه الأدعية صوره الدعاء فقط دون حقيقته معناها، و أما لو تحقق الدعاء بحقيقته بأن يدعى حقيقه و يتعلق ذلك الدعاء بالله حقيقه كما هو ظاهر قوله: **«أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ»** الآية؛ فإن ذلك لا يرد البتة، و الدعاء على هذا النعت لا يدع الكافر كافرا و لو حين الدعاء كما قال تعالى: **فَإِذَا رَكبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ** (العنكبوت ٦٥).

فما في قوله: **«وَ مَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ»** دعاء منهم و هم على الكفر فإن الثابت من ملكة الكفر لا يفارقهم في دار الجزاء و إن كان من الجائر أن يفارقهم في دار العمل بالتوبة و الإيمان.

فدعاؤهم لكشف العذاب عنهم يوم القيامة أو في جهنم ككذبهم على الله يوم القيامة بقولهم - كما حكى الله - و الله ربنا ما كنا مشركين، و لا ينفع اليوم كذب غير أنهم اعتادوا ذلك في الدنيا و رسخت رذيلتهم في نفوسهم فبرزت عنهم آثاره يوم تبلى السرائر، و نظير أكلهم و شربهم و خصامهم في النار، و لا غنى لهم في شيء من ذلك، كما قال تعالى: **تُشِيقِي مِن عَيْنِ آيِيهِ لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيحٍ لَا يُشْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ** (الغاشية ٧)، و قال تعالى: **ثُمَّ إِنَّكُمْ أَنتَهُمُ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ لَا يَكُونُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ فَمَّا أُلُوْنَ مِنْهَا الْبُطُونَ فَشَارَبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ فَشَارَبُونَ شَرْبَ الْهَيْمِ** (الواقعه ٥٥)، و قال تعالى: **إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ** (ص ٦٤)، فهذا كله من قبيل ظهور الملكات فيهم.

و ما قبل الآية يؤيد ما ذكرناه من أن دعاءهم ليس على حقيقته و هو قوله تعالى: **وَ قَالَ**

الَّذِينَ فِي الدَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ إِذْ دُعُوا رَبِّكُمْ يُخَفِّفُونَ عَذَابَ يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ، قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (المؤمن ٥٠)، فإن مسألتهم خزنة النار أن يدعوا الله لهم في تخفيف العذاب ظاهر في أنهم آيسون من استجابته دعائهم أنفسهم، والدعاء مع اليأس عن الاستجابته ليس دعاء و مسأله حقيقه اذ لا يتعلق الطلب بما لا يكون البته.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ البأس و البؤس و البؤس هو الشده و المكروه إلا أن البؤس يكثر استعماله في الحرب و نحوه و البأس و البأساء في غيره كالفقر و الجذب و القحط و نحوها، و الضر و الضراء هو سوء الحال فيما يرجع الى النفس كغم و جهل أو ما يرجع الى البدن كمرض و نقص بدني أو ما يرجع الى غيرهما كسقوط جاه أو ذهاب مال، و لعل المقصود من الجمع بين البأساء و الضراء الدلاله على تحقق الشدائد في الخارج كالجذب و السيل و الزلزله، و ما يعود الى الناس من قبلها من سوء الحال كالخوف و الفقر و رثائه الحال.

و الضراعه هي المذله و التضرع التذلل و المراد به التذلل الى الله سبحانه لكشف ما نزل عليهم من نوازل الشده و الرزیه.

و الله سبحانه يذكر لنبیه صلی الله علیه و آله و سلم في هذه الآیه و ما يتلوها الى تمام أربع آيات سنّته في الامم التي من قبله اذ جاءتهم رسلهم بالبينات: أنه كان يرسل إليهم الرسل فيذكرونهم بتوحيد الله سبحانه و التضرع و إخلاص الإنابه إليه ثم يبتليهم بأنواع الشده و المحن و يأخذهم بالبأساء و الضراء و لكن بمقدار لا يلجئهم الى التضرع و لا يضطرهم الى الابتهاال و الاستكانه لعلمهم يتضرعون إليه بحسن اختيارهم، و يلين قلوبهم فيعرضوا عن التزيينات الشيطانيه و عن الإخلاذ الى الأسباب الظاهريه لكنهم لم يتضرعوا إليه بل أقسى الاشتغال بأعراض الدنيا قلوبهم و زين لهم الشيطان أعمالهم، و أنساهم ذلك ذكر الله.

فلما نسوا ذكر الله سبحانه فتح الله عليهم أبواب كل شيء و صب عليهم نعمه المتنوعه صبا حتى اذا فرحوا بما عندهم من النعم و اغتروا و استقلوا بأنفسهم من دون الله أخذهم الله بغته و من حيث لا يشعرون به فإذا هم آيسون من النجاه شاهدون سقوط ما عندهم من الأسباب فقطع دابر القوم الذين ظلموا و الحمد لله رب العالمين.

و هذه السنه سنه الاستدراج و المكر الذى لخصها الله تعالى فى قوله: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (الأعراف ١٨٣).

و بالتأمل فيما تقدم من تقرير معنى الآيه و التدبر فى سياقها يظهر أن الآيه لا تنافى سائر الآيات الناطقه بأن الإنسان مفطور على التوحيد ملجأ باقتضاء من فطرته و جبلته الى الإقرار به و التوجه إليه عند الانقطاع عن الأسباب الكونيه كما قال تعالى: وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظَّلْمِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِمَّنْ يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ (لقمان ٣٢).

و ذلك ان الآيه لا تريد من البأساء و الضراء إلا ما لا يبلغ من الشده و المهابه مبلغا يذهلون به عن كل سبب و ينسون به كل وسيله عاديه، و من الدليل على ذلك قوله فى الآيه: «لَعَلَّهُمْ يَنْضَرَّعُونَ» اذ لعل كلمه رجاء و لا رجاء مع الإلجاء و الاضطرار، و كذا قوله تعالى:

«وَ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» فإن ظاهره أنهم اغتروا بذلك و توسلوا فى رفع البأساء و الضراء الى أعمالهم التى عملوها بأيديهم و دبروها بتدابيرهم للغلبه على موانع الحياه و أصداد العيش فاشتغلوا بالأسباب الطبيعيه الملهيه إياهم عن التضرع الى الله سبحانه و الاعتصام به، كقوله تعالى: فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ، فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ حَيْدَهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (المؤمن ٨٤)، فالآيه الاولى - كما ترى - تحكى عنهم نظير ما تحكيه الآيه التى نحن فيها من الإعراض عن التضرع و الاغترار بالأعمال، و الآيه الثانيه تحكى ما تحكيه الآيات الاخرى من التوحيد فى

قوله تعالى: فَلَوْ لَا إِذْ جَاءَهُمْ بِأُسَيْنَا تَضَرَّعُوا وَ لَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمُ الْخ؛ «لولا» للتخصيص أو للنفي، و على أى حال تفيد فى المقام فائده النفى بدليل قوله: «وَ لَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ» و قسوه القلب مقابل لينه، و هو كون الإنسان لا يتأثر عن مشاهدته ما يؤثر فيه عادة أو عن استماع كلام شأنه التأثير.

و المعنى: فلم يتضرعوا حين مجيء البأس و لم يرجعوا الى ربهم بالتذلل بل أبت نفوسهم أن تتأثر عنه، و تلهوا بأعمالهم الشيطانية الصارفة لهم عن ذكر الله سبحانه، و أخلدوا الى الأسباب الظاهره التى كانوا يرون استقلالها فى إصلاح شأنهم.

قوله تعالى: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ الْخ؛ المراد بفتح أبواب كل شىء إيتائهم من كل نعمه من النعم الدنيويه التى يتنافس فيها الناس للتمتع من مزايا الحياه من المال و البنين و صحه الأبدان و الرفاهيه و الخصب و الأمن و الطول و القوه، كل ذلك توفيراً من غير تقدير و منع كما أن خزانه المال اذا أعطى منها أحد بقدر و ميزان فتح بابها فاعطى ما أريد ثم سد، و أما اذا أريد الإعطاء من غير تقدير فتح بابها و لم يسد على وجه قاصده بالجملة كناية عن إيتائهم أنواع النعم من غير تقدير على ما يساعده المقام.

على أن فتح الباب إنما يناسب بحسب الطبع الحسنات و النعم و أما السيئات و النقم فإنما تتحقق بالمنع و يناسبها سد الباب كما يلح إليه قوله تعالى: مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَ مَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ (فاطر ٢).

و مبلسون من أبلس إبلاسا، قال الراغب: الإبلاس الحزن المعترض من شدة اليأس-الى أن قال- و لما كان المبلس كثيرا ما يلزم السكوت و ينسى ما يعنيه، قيل: أبلس فلان اذا سكت و اذا انقطعت حجته، انتهى. و على هذا المعنى المناسب لقوله: «فَمَا إِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ» أى خامدون منقطعون الحجه.

و معنى الآيه أنهم لما نسوا ما ذكروا به أو أعرضوا عنه آتيناهم من كل نعمه استدراجا حتى اذا تمت لهم النعم و فرحوا بما اوتوا منها أخذناهم فجأه فانخمدت أنفاسهم و لا حجه لهم لاستحقاقهم ذلك.

قوله تعالى: فَقَطَعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ دبر الشىء مقابل قبله و هما الجزءان:المقدم و المؤخر من الشىء و لذا يكنى بهما عن العضوين المخصوصين،و ربما توسع فيهما فاطلقا على ما يلى الجزء المقدم أو المؤخر فينفلان عن الشىء،و قد اشتق منهما الأفعال بحسب المناسبه نحو أقبل و أدبر و قبل و دبر و تقبل و تدبر و استقبل و استدبر،و من ذلك اشتقاق دابر بمعنى ما يقع خلف الشىء و يليه من ورائه،و يقال:

أمس الدابر أى الواقع خلف اليوم كما يقال:عام قابل،و يطلق الدابر بهذا المعنى على أثر الشىء كدابر الإنسان على أخلافه و سائر آثاره،فقوله: «فَقَطَعَ دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا» أى أن الهلاك استوعبهم فلم يبق منهم عينا و لا- أثرا أو أبادهم جميعا فلم يخلص منهم أحد كما قال تعالى: فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيهِ (الحاقه ٨/).

و وضع الظاهر موضع المضمرة فى قوله: «دَابِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا» دون أن يقال:دابرهم للدلاله على سبب الحكم و هو الظلم الذى أفنى جمعهم و قطع دابرهم،و هو مع ذلك يمهد السبيل الى إيراد قوله: «وَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» .

و من هذه الآيه بما تشتمل على وصفهم بالظلم و على حمده تعالى بربوبيته تتحصل الدلاله على أن اللوم و السوء فى جميع ما حل بهم من عذاب الاستئصال يرجع إليهم لأنهم القوم الذين ظلموا،و أنه لا- يعود إليه تعالى إلا الثناء الجميل لأنه لم يأت فى تدبير أمرهم إلا- بما تقتضيه الحكمة البالغه،و لم يسقهم فى سبيل ما انتهوا إليه إلا الى ما ارتضوه بسوء اختيارهم فقد تحقق أن الخزى و السوء على الكافرين،و أن الحمد لله رب العالمين.

قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَ أَبْصَارَكُمْ وَ أَبْصَارَكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛أخذ

السمع و الأبصار هو سلب قوتى السمع و الإبصار و هو الإصمام و الإعماء. و الختم على القلوب إغلاق بابها إغلاقاً لا يدخلها معه شىء من خارج حتى تتفكر فى أمرها، و تميز الواجب من الأعمال من غير: و الخير النافع منها من الشر الضار مع حفظ أصل الخاصية و هو صلاحية التعقل و إلا كان جنونا و خيلاً.

و إذا كان هؤلاء المشركون لا يسمعون حق القول فى الله سبحانه و لا يبصرون آياته الداله على أنه واحد لا شريك له فصارت قلوبهم لا يدخلها شىء من واردات السمع و البصر حتى تعرف بذلك الحق من الباطل أقام الحجة بذلك على إبطال مذهبهم فى أمر الإله تعالى و وحدته.

و ملخصها أن القول بثبوت شركاء لله يستلزم القول ببطلانه و ذلك أن القول بالشركاء لإثبات الشفاعة، و هى أن تشفع و تتوسط فى جلب المنافع و دفع المضار، و اذ كانت الشركاء شفعاء على الفرض كان لله سبحانه أن يفعل فى ملكه ما يشاء من غير مصادفه مانع يمانعه أو ضد يضاده فلو سلب الله عنكم سمعكم و أبصاركم و ختم على قلوبكم فعل ذلك و لم يعارضه أحد من شركائكم لأنها شفعاء متوسطة لا أضداد معارضة، و لو فعل ذلك و سلب ما سلب لم يقدر أحد منها أن يأتىكم به لأنها شفعاء و سائط لا مصادر للخلق و الإيجاد.

و اذا لم يقدر على إتياء نفع أو إذهاب ضرر فما معنى الوهيتها فليس الإله إلا من يوجد و يعدم و يتصرف فى الكون كيف شاء، و إنما اضطرت الفطره الانسانية الى الإقرار بأن للعالم إليها من جهة الحصول على مبدأ حوادث الخير و الشر التى تشاهدها فى الوجود، و إذا كان شىء لا يضر و لا ينفع فى جنب الحوادث شيئاً فليس تسميته إليها إلا لغوا من القول.

و قوله: **أَنْظُرْ كَيْفَ نُصَيِّرُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ** تصريف الآيات تحويلها الى نحو أفهامهم، و الصدوف الإعراض، يقال: صدف يصدف صدوفا اذا مال عن الشىء.

قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الجهره الظهور التام الذى لا يقبل الارتباب و لذا قابلت البغته التى هى إتيان الشئ فجأه لا يظهر على من أتاه إلا بعد إتيانه و غشيانه فلا يترك له مجال التحذر.

و هذه حجه بين فيها على وجه العموم أن الظالمين على خطر من عذاب الله عذابا لا يتخطاهم، و لا يغلط فى إصابتهم بإصابه من سواهم، ثم بين أنهم هم الظالمون لفسقهم عن الدعوه الإلهيه و تكذيبهم بآيات الله تعالى.

و ذلك أن معنى العذاب ليس إلا- إصابه المجرم بما يسوؤه و يدمره من جزاء إجرامه و لا إجرام إلا مع ظلم، فلو أتاهم من قبل الله سبحانه عذاب لم يهلك به إلا الظالمون، فهذا ما يدل عليه الآيه ثم بين الآيتين التاليتين أنهم هم الظالمون.

قوله تعالى: وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ يبين بالآيتين أنهم هم الظالمون، و لا يهلك بعذاب الله إن أتاهم إلا هم لظلمهم.

و لذا غير سياق الكلام فوجه وجه البيان الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم ليكون هو المخبر عن شأن عذابه فيكون أقطع للعدر و جىء بلفظ المتكلم ليدل به على صدوره من ساحه العظمه و الكبرياء.

فكان ملخص المضمون أمره تعالى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يقيم عليهم الحجه أن لو أتاهم عذاب الله لم يهلك إلا الضالمين منهم ثم يقول تعالى لرسوله: إنا نحن الملحقين إليك الحجه الآتين بالعذاب نخبرك أن إرسالنا الرسل إنما هو للتبشير و الإنذار فمن آمن و أصلح فلا عليه، و من كذب بآياتنا فهو الذى يمسه عذابنا لفسقه و خروجه عن طور العبوديه فليظنوا فى أمر أنفسهم من أى الفريقين هم؟.

و قد تقدم فى المباحث السابقه استيفاء البحث عن معنى الإيمان و الإصلاح و الفسق و معنى نفى الخوف و الحزن عن المؤمنين.

و قوله تعالى: قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لَا

أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ لَعَلَّ الْمَرَادَ بِخَزَائِنِ اللَّهِ مَا ذَكَرَهُ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ (الإسراء/١٠٠) وخزائن الرحمة هذه هي ما يكشف عن أثره، قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلدَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ (الآية فاطر/٢)؛ وهي فائضه الوجود التي تفيض من عنده تعالى على الأشياء من وجودها و آثار وجودها، وقد بين قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (يس/٨٢) أن مصدر هذا الأثر الفائض هو قوله، وهو كلمة «كن» الصادرة عن مقام العظمة والكبرياء، وهذا هو الذى يخبر عنه بلفظ آخر فى قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِمِقْدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ (الحجر/٢١).

فالمراد بخزائن الله هو المقام الذى يعطى بالصدور عنه ما يريد من شىء من غير أن يفند بإعطاء وجود أو يعجزه بذل و سماحه، وهذا مما يختص بالله سبحانه، وأما غيره كائنا ما كان و من كان فهو محدود و ما عنده مقدّر اذا بذل منه شيئاً نقص بمقدار ما بذل، و ما هذا شأنه لم يقدر على إغناء أى فقير، و إرضاء أى طالب، و إجابة أى سؤال.

و أما قوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ فَإِنَّمَا أُرِيدُ بِالْعِلْمِ الْإِسْتِقْلَالَ بِهِ مِنْ غَيْرِ تَعْلِيمٍ بُوْحَى وَ ذَلِكَ أَنَّهُ تَعَالَى يَثْبِتُ الْوَحَى فِي ذِيلِ الْآيَةِ بِقَوْلِهِ: «إِنْ أَتَّبَعِ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ»، و قد بين فى مواضع من كلامه أن بعض ما يوحى لرسله من الغيب، كقوله تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ (الجن/٢٦)، و كقوله بعد سرد قصه يوسف:

﴿ذَلِكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَ هُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (يوسف/١٠٢)، و قوله فى قصه مريم: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَ مَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (آل عمران/٤٤)، و قوله بعد قصه نوح: ﴿تِلْكَ مِنْ أَلْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ (هود/٤٩).

فالمراد بنفى علم الغيب نفى أن يكون مجهزا فى وجوده بحسب الطبع بما لا- يخفى عليه معه ما لا سبيل للإنسان بحسب العاده الى العلم به من خفيات الامور كائنه ما كانت.

و أما قوله: **وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ** فهو كناية عن نفى آثار الملكيه من أنهم منزهون عن حوائج الحياه الماديه من أكل و شرب و نكاح و ما يلحق بذلك، و قد عبّر عنه فى مواضع اخرى بقوله: **قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ (الكهف ١١٠)**، و إنما عبّر عن ذلك هاهنا بنفى الملكيه دون إثبات البشريه ليحاذى به ما كانوا يقترحونه عليه عليه السّلام بمثل قولهم:

مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ (الفرقان ٧).

فمعنى قوله: **«قُلْ لَا- أَقُولُ لَكُمْ»** الخ؛ قل: لم أدع فيما أدعوكم إليه و أبلغكمو أمرا وراء ما أنا عليه من متعارف حال الإنسان حتى تبكّتونى بالزامى بما تقترحونه منى فلم أدع أنى أملك خزائن الالوهيه حتى تقترحوا أن أفجّر أنهارا أو أخلق جنه أو بيتا من زخرف، و لا ادعيت أنى أعلم الغيب حتى أجيبكم عن كل ما هو مستور تحت أستار الغيوب كقيام الساعه و لا ادعيت أنى ملك حتى تعيبنى و تبطلوا قولى بأكل الطعام و المشى فى الاسواق للكسب.

قوله تعالى: **إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ** بيان لما يدعيه حقيقه بعد رد ما اتهموه به من الدعوى من جهه دعواه الرساله من الله إليهم أى ليس معنى قولى: إنى رسول الله إليكم أن عندى خزائن الله و لا- أنى أعلم الغيب و لا- أنى ملك بل أن الله يوحى الى بما يوحى.

و لم يثبتته فى صوره الدعوى بل قال **«إِنْ أَتَّبِعْ»** الخ؛ ليدل على كونه مأمورا بتبليغ ما يوحى إليه ليس له الا اتباع ذلك فكأنه لما قال: لا أقول لكم كذا و لا كذا و لا كذا قيل له: فإذا كان كذلك و كنت بشرا مثلنا و عاجزا كأحدنا لم تكن لك مزيه علينا فما ذا تريد منا؟ فقال: إن أتبع إلا ما يوحى إلى أن أبشركم و اندركم فأدعوكم إلى دين التوحيد.

قوله تعالى: **وَ أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَيَّ رَبَّهُمْ** الى آخر الآيه؛ الضمير فى «به» راجع الى القرآن و قد دل عليه قوله فى الآيه السابقه: **«إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ»**

إِلَى» و قوله: «لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ» حال و العامل فيه يخافون أو يحشرون.

و المراد بالخوف معناه المعروف دون العلم و ما فى معناه اذ لا دليل عليه بحسب ظاهر المعنى المتبادر من السياق، و الأمر بإنذار خصوص الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم لا- ينافى عموم الإنذار لهم و لغيرهم كما يدل عليه قوله فى الآيات السابقة: وَ أَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَ مَنْ بَلَغَ (آيه ١٩) بل لما كان خوف الحشر الى الله معينا لنفوسهم على القبول و مقربا للدعوه الى أفهامهم أفاد تخصيص الأمر بالإنذار بهم و وصفهم هذا الوصف تأكيدا لدعوتهم و تحريضا له أن لا يسامح فى أمرهم و لا يضعهم موضع غيرهم بل يخصهم بمزيد عنايه بدعوتهم لأن موقفهم أقرب من الحق و إيمانهم أرجى فالآيه بضميمه سائر آيات الأمر بالإنذار العام تفيد من المعنى: أن أُنذر الناس عامه و لا سيما الذين يخافون أن يحشروا الى ربهم.

و قوله: لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ نفى مطلق لولاياه غير الله و شفاعته فيقيدده الآيات الأخر المقيده كقوله: مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ (البقره ٢٥٥) و قوله: وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ (الأنبياء ٢٨) و قوله: وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (الزخرف ٨٦).

و إنما لم يستثن فى الآيه لأن الكلام يواجه به الوثنيون الذين كانوا يقولون بولايه الأوثان و شفاعتها، و لم يكونوا يقولون بذلك بالإذن و الجعل فإن الولايه و الشفاعه عن اذن يحتاج القول به الى العلم به، و العلم الى الوحي و النبوه، و هم لم يكونوا قائلين بالنبوه، و أما الذى أثبتوه من الولايه و الشفاعه فكأنه أمر متهى لأوليائهم و شركائهم بالضروره من طبعها لا بإذن من الله كأن أقوياء الوجود من الخلقه لها نوع من التصرف فى ضعفائه بالطبع و إن لم يأذن به الله سبحانه، و إن شئت قلت: لازمه أن يكون إيجادها إذنا اضطراريا فى التصرف فى ما دونها.

و بالجمله قيل «ما لهم من دونه ولى و لا شفيع» و لم يقل: إلا بإذنه لأن المشركين إنما قالوا إن الأوثان أولياء و شفعاء من غير تقييد فنفى ما ذكروه من الولى و الشفيع من دون الله محاذاه بالنفى لإثباتهم، و أما الاستثناء فهو و إن كان صحيحا كما وقع فى مواضع من كلامه تعالى لكن لا يتعلق به غرض هاهنا.

قوله تعالى: **وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ** الى آخر الآيه؛ ظاهر السياق على ما يؤيده ما فى الآيه التاليه: **«وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ»** الخ؛ أن المشركين من قوله صلى الله عليه و آله و سلم اقترحوا عليه أن يطرد عن نفسه الضعفاء المؤمنين به فهناك الله تعالى فى هذه الآيه عن ذلك.

و ذلك منهم نظير ما اقترحه المستكبرون من سائر الامم من رسلهم أن يطردوا عن أنفسهم الضعفاء و الفقراء من المؤمنين استكبارا و تعززا، و قد حكى الله تعالى ذلك عن قوم نوح فيما حكاه من محاجته عليه السلام حجاجا يشبه ما فى هذه الآيات من الحجاج قال تعالى: **فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا تَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا** و **مَا تَرَاكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِادِّى الرَّأْيِ وَ مَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْهِمْ مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ**. **قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ بَيْنِهِ مِنْ رَبِّي وَ آتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِي فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْ نُلْزِمُكُمْ هَا وَ أَنْتُمْ لَهُمْ كَارِهُونَ** -الى أن قال- **وَ مَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ** -الى أن قال- **وَ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَ لَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَ لَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ** (هود ٣١).

و التطبيق بين هذه الآيات و الآيات التى نحن فيها يقضى أن يكون المراد بالذين يدعون ربهم بالغداة و العشى و يريدون وجهه هم المؤمنين، و إنما ذكر دعائهم بالغداة و العشى و هو صلاتهم أو مطلق دعائهم ربهم للدلاله على ارتباطهم بربهم بما لا يداخله غيره تعالى و ليوضح ما سيذكره من قوله: **«أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ»**.

وقوله: يُرِيدُونَ وَجْهَهُ أَي وجه الله، قال الراغب في مفرداته: أصل الوجه الجارحه قال: فاعسلوا وجوهكم و أيدىكم، و تغشى وجوههم النار، و لما كان الوجه أول ما يستقبلك و أشرف ما في ظاهر البدن استعمل في مستقبل كل شيء و في أشرفه و مبدئه فقيل:

وجه كذا و وجه النهار، و ربما عبّر عن الذات بالوجه في قول الله: و يبقى وجه ربك ذو الجلال و الإكرام، قيل: ذاته، و قيل: أراد بالوجه هاهنا التوجه الى الله بالأعمال الصالحة.

و قال: فأينما تولوا فثم وجه الله، كل شيء هالك إلا وجهه، يريدون وجه الله، إنما نطمعكم لوجه الله، قيل: إن الوجه في كل هذا ذاته و يعنى بذلك كل شيء هالك إلا هو و كذا في أخواته، و روى أنه قيل ذلك لأبى عبد الله بن الرضا فقال: سبحان الله لقد قالوا قولاً عظيماً إنما عنى الوجه الذى يؤتى منه و معناه: كل شيء من أعمال العباد هالك و باطل إلا ما أريد به الله، و على هذا الآيات الأخر، و على هذا قوله: يريدون وجهه، يريدون وجه الله، انتهى (1).

و قوله: فَتَطْرُدُهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ الدخول في جماعه الظالمين متفرع على طردهم أى طرد الذين يدعون ربهم فنظم الكلام بحسب طبعه يقتضى أن يفرع قوله: «فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ» ، على قوله في أول الآيه: «وَأَلَّا تَطْرُدُ الَّذِينَ» السخ؛ إلا أن الكلام لما طال بتخلل جمل بين المتفرع و المتفرع عليه أعيد لفظ الطرد ثانيا في صورته الفرع ليتفرع عليه قوله:

«فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ» بنحو الاتصال و يرتفع اللبس.

فلا- يرد عليه أن الكلام مشتمل على تفریع الشيء على نفسه فإن ملخصه: و لا- تطرد الذين يدعون ربهم فتطردهم، و ذلك أن إعادة الطرد ثانيا لإيصال الفرع أعنى قوله: «فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ» ، الى أصله كما عرفت.

قوله تعالى: وَ كَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا الى آخر الآيه؛ الفتنة هى

ص: ٣١٣

الامتحان، و السياق يدل على أن الاستفهام فى قوله: «أَهُؤُلَاءِ مَنَ اللّٰهُ عَلَيهِمْ مِّنَ بَيِّنَاتٍ لِّلْهٰكِمِ وَالِاسْتِهْزَاءِ، و معلوم أنهم لا يسخرون إلا ممن يستحقرون أمره و يستهينون موقعه من المجتمع، و لم يكن ذلك إلا لفقرهم و مسكنتهم و انحطاط قدرهم عند الأقوياء و الكبرياء منهم.

فاللّٰه سبحانه يخبر نبيه أن هذا التفاوت و الاختلاف إنما هو محنه إلهيه يمتحن بها الناس ليميز به الكافرين من الشاكرين، فيقول أهل الكفران و الاستكبار فى الفقراء المؤمنين: أهُؤُلَاءِ الَّذِينَ مَنَّ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا فَإِن السِّننَ الاجتماعيه عند الناس توصف بما عند المستن بها من الشرافه و الخسه، و كذا العمل يوزن بما لعامله من الوزن الاجتماعى فالطريقه المسلوكه عند الفقراء و الأذلاء و العبيد يستذلها الأغنياء و الأعزه، و العمل الذى أتى به مسكين أو الكلام الذى تكلم به عبد أو أسير مستذلا لا يعتنى به أولو الطول و القوه.

فانتحال الفقراء و الاجراء و العبيد بالدين، و اعتناء النبى بهم و تقريبه إياهم من نفسه كالدليل عند الطغاه المستكبرين من أهل الاجتماع على هو ان أمر الدين و أنه دون أن يلتفت إليه من يعتنى بأمره من الشرفاء و الأعزه.

و قوله تعالى: أَلَيْسَ اللّٰهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ جواب عن استهزائهم المبني على الاستبعاد، بقولهم: «أهُؤُلَاءِ الَّذِينَ مَنَّ اللّٰهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا» و محصله أن هؤلاء شاكرون لله دونهم و لذلك قدّم هؤلاء لمنّه و آخرهم فكنى سبحانه عن ذلك بأن الله أعلم بالشاكرين لنعتمه أى إنهم شاكرون، و من المسلم أن المنعم إنما يمتنّ و ينعم على من يشكر نعمته و قد سمي الله تعالى توحيداً و نفى الشريك عنه شكراً فى قوله حكايه يوسف عليه السّلام: مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُنشْرِكَ بِاللّٰهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكُمْ مِنْ فَضْلِ اللّٰهِ عَلَيْنَا وَ عَلَى النَّاسِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (يوسف ٣٨).

فالآيه تبين أنهم بجهالتهم يبنون الكرامه و العزه على التقدّم فى زخارف الدنيا من مال و بنين و جاه، و لا قدر لها عند الله و لا كرامه، و إنما الأمر يدور مدار صفه الشكر و النعمه

بالحقيقه هي الولايه الإلهيه.

قوله تعالى: وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ إِلَىٰ آخِرِ آيَةٍ، قد تقدم معنى السلام، والمراد بكتابه الرحمه على نفسه إيجابها على نفسه أى استحاله انفكاك فعله عن كونه معنونا بعنوان الرحمه، والإصلاح هو التلبس بالصلاح فهو لازم وإن كان بحسب الحقيقه متعديا وأصله إصلاح النفس أو إصلاح العمل.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ تفصيل الآيات بقريته المقام شرح المعارف الإلهيه و تخليصها من الإبهام و الاندماج، وقوله:

«وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ» اللام فيه للغايه، وهو معطوف على مقدر طوى عن ذكره تعظيما و تفخيما لأمره و هو شائع فى كلامه تعالى كقوله: وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُذَوِّلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا (آل عمران ١٤٠)، وقوله: وَكَذَلِكَ نُرَىٰ إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (الآيه ٧٥).

فالمعنى: و كذلك نشرح و نميز المعارف الإلهيه بعضها من بعض و نزيل ما يطرأ عليها من الإبهام لأغراض هامه منها أن تستبين سبيل المجرمين فيتجنبها الذين يؤمنون بآياتنا، و على هذا فالمراد بسبيل المجرمين السبيل التى يسلكها المجرمون قبال الآيات الناطقه بتوحيد الله سبحانه و المعارف الحقه التى تتعلق به و هى سبيل الجحود و العناد و الإعراض عن الآيات و كفران النعمه (١).

[سوره الأنعام (٦): الآيات ٥٦ الى ٧٣]

اشاره

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُمْ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦) قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَشْتَعِجُونَ بِهِ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُضُ الْحَقَّ وَ هُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧) قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَشْتَعِجُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨) وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَ يَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَ الْبَحْرِ وَ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقِهِ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَ لَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَ لَا رَطْبٌ وَ لَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩) وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠) وَ هُوَ الْفَاحِشُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَ يُزِيلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَهُ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَ هُمْ لَا يُفْرطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ إِلَّا لَهُ الْحُكْمُ وَ هُوَ أَسْرِعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢) قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبُرِّ وَ الْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَ خُفْيَةً لَّئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلْ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْرِكُونَ (٦٤) قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شَيْعًا وَ يَذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ أَنْظُرْ كَيْفَ نَصَّرَفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) وَ كَذَّبَ بِهِنَّ قَوْمُكَ وَ هُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧) وَ إِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَ إِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَعْرِدْ بَعِيدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨) وَ مَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ لَكِنْ ذَكَرُوا لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩) وَ ذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَ لَهْوًا وَ عَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ ذَكَرَ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَ لَا شَفِيعٌ وَ إِنْ تَعَدَلَ كُلُّ قَدْلٍ لَمْ يَأْخُذْ مِنْهَا أُؤْتِيكَ الَّذِينَ

أَبْسَلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠) قُلْ أَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَىٰ إِنَّهُ قُلٌّ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأُمْرًا لِّنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١) وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢) وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)

ص: ٣١٥

١ - ١). الانعام ٣٧-٥٥: بحث روائي في القدر؛ القدرية؛ اقتراح قريش على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في طرد العبيد و الفقراء.

قوله تعالى: قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ أمر بأن خبرهم بورود النهي عليه عن عبادة شركائهم هو نهى عن عبادتهم بنوع من الكنايه ثم أشار الى ملاك النهي عنها بقوله: «قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ» و هو أن عبادتهم اتباع للهوى و قد نهى عنه ثم أشار بقول: «قَدْ ضَلَلْتُ إِذَا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ» الى سبب الاستنكاف عن اتباع الهوى و هو الضلال و الخروج عن جماعه المهتدين و هم الذين اتصفوا بصفه قبول هدايه الله سبحانه، و عرفوا بذلك، فاتباع الهوى ينافى استقرار صفه الاهتداء فى نفس الإنسان، و يمانع إشراق نور التوحيد على قلبه إشراقاً ثابتاً ينتفع به.

و قد تلخص بذلك كله بيان تام معلل للنهى أو الانتهاء عن عباده أصنامهم، و هو أن فى عبادتها اتباعاً للهوى، و فى اتباع الهوى الضلال و الخروج عن صف المهتدين بالهدايه الإلهيه.

قوله تعالى: قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ البينه هو الدلاله الواضحه من البيان و هو الوضوح، و الأصل فى معنى هذه ماده هو انزال شىء عن شىء و انفصاله عنه بحيث لا- يتصلان و لا- يختلطان، و منه البين و البون و البينونه و غير ذلك، قد سميت البينه بينه لأن الحق يبين بها عن الباطل فيتضح و يسهل الوقوف عليه من غير تعب و مؤنه.

و المراد بمرجع الضمير فى قوله: «وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ» هو القرآن و ظاهر السياق أن يكون التكذيب إنما تعلق بالبينه التى هو صلى الله عليه و آله و سلم عليها على ما هو ظاهر اتصال المعنى، و يؤيده قوله بعده: «مَا

عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ» الخ؛ فإن المحصل من الكلام مع انضمام هذا الذيل: أن الذي أيد الله به رسالتي من البيئات و هو القرآن تكذبون به، و الذي تقترحونه على و تستعجلون به من الآيات ليس في اختياري و لا مفوضا أمره إلى فليس بيننا ما نتوافق فيه لما أنى أوتيت ما لا تريدون و أنتم تريدون ما لم أوت.

فمن هنا يظهر أن الضمير المجرور في قوله: «وَ كَذَّبْتُمْ بِهِ» راجع الى السببه لكون المراد به القرآن، و أن قوله: «مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ» أريد به نفى التسلط على ما يستعجلون به بالتكنيه فإن الغالب فيما يقدر الإنسان عليه و خاصه في باب الإعطاء و الإنفاق أن يكون ما يعطيه و ينفقه حاضرا عنده أو مذكورا لديه و تحت تسلطه ثم ينفق منه ما ينفق فقد أريد بقوله: «مَا عِنْدِي» نفى التسلط و القدره من باب نفى الملزوم بنفى اللازم.

□ □
و قوله: «إِنَّ الْحُكْمَ لِلَّهِ» الخ؛ بيان لسبب النفي، و لذلك جيء فيه بالنفي و الاستثناء المفيد للحصر ليبدل بوقوع النفي على الجنس على أن ليس لغيره تعالى من سنخ الحكم شيء قط و أنه الى الله سبحانه فحسب (١)(٢).

قوله تعالى: قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقَضَيْتُ الْأَمْرَ بَيْنِي وَ بَيْنَكُمْ الى آخر الآيه؛ أي لو قدرت على ما تقترحونه على من الآيه و الحال أنها بحيث اذا نزلت على رسول لم تنفك عن الحكم الفصل بينه و بين امته لقضى الأمر بيني و بينكم، و نجى بذلك أحد المتخاصمين المختلفين و عذب الآخر و أهلكت، و لم يعذب بذلك و لا يهلك إلا أنتم لأنكم ظالمون، و العذاب الإلهي إنما يأخذ الظالمين بظلمهم، و هو سبحانه أنزه ساحه من أن يشتهبه عليه الأمر و لا يميز الظالمين من غيرهم فيعذبني دونكم.

ص: ٣١٩

١-١. الانعام ٥٦-٧٣: كلام في معنى الحكم و انه لله وحده.

٢-٢. الانعام ٥٦-٧٣: كلام في معنى حقيقه و حكمه تعالى.

ففى قوله تعالى: وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ نوع تكمينه و تعلييل أى إنكم أنتم المعذبون لأنكم ظالمون و العذاب الإلهى لا- يعدو الظالمين إلى غيرهم، و فى الجملة إشاره إلى ما تقدم من قوله تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمُونَ (آيه ٤٧).

قوله تعالى: وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ إلى آخر الآيه؛ ذكروا فى وجه اتصال الآيه بما قبلها أن الآيه السابقه لما ختمت بقوله: «وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ» زاد الله سبحانه فى بيانه فذكر أن خزائن الغيب أو مفاتيح تلك الخزائن عنده سبحانه لا يعلمها إلا هو، و يعلم كل دقيق و جليل.

و هذا الوجه لا يتضح به معنى الحصر الذى يدل عليه قوله: «لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ» فالأولى أن يوجه الاتصال بما يشتمل عليه مجموع الآيتين السابقتين أعنى قوله: «قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي» - إلى قوله - «وَ اللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ» حيث يدل المجموع على أن ما كانوا يقترحونه من الآيه و ما يستتبعه من الحكم، الفصل و القضاء بينه و بينهم إنما هو عند الله لا سبيل إليه لغيره فهو العالم بذلك الحاكم به و لا يغلط فى حكمه الفصل و تعذيب الظالمين لأنه أعلم بهم فهو عالم بالغيب لا يشاركه فيه غيره، و عالم بكل ما جل و دق لا يضل و لا ينسى، ثم زاد ذلك بيانا بقوله: «وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ» الآيه فبين به اختصاصه تعالى بعلم الغيب و شمول علمه كل شىء، ثم تمم البيان بالآيات الثلاث التى تتلوها.

و بذلك تصير الآيات جاريه مجرى ما سيقى إليه نظائرها فى مثل المورد كقوله تعالى فى قصه هود و قومه: قَالُوا أَ جِئْنَا لِنُؤْفِكَنا عَنِ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ. قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَ أُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ (الأحقاف ٢٣).

ثم نقول: المفاتيح جمع مفتاح بفتح الميم و هو الخزينه، و ربما احتمل أن يكون جمع مفتاح بكسر الميم و هو المفتاح، و يؤيده ما قرئ شاذاً: «وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ» و مآل المعنيين واحد فإن

من عنده مفاتيح الخزائن هو عالم بما فيها قادر على التصرف فيها كيف شاء عادة كمن عنده نفس الخزائن إلا أن سائر كلامه تعالى فيما يشابه هذا المورد يؤيد المعنى الأول فإنه تعالى كرر في كلامه ذكر خزائنه و خزائن رحمته -و ذلك في سبعة مواضع -و لم يذكر لها مفاتيح في شيء من كلامه قال تعالى: أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ (الطور ٣٧) وقال: لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ (الأنعام ٥٠) وقال: وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ (الحجر ٢١) وقال:

وَ لِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (المنافقون ٧) وقال: أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ (ص ٩) فالأقرب أن يكون المراد بمفاتيح الغيب خزائنه.

و كيف كان فقوله: «وَ عِنْدَهُ مَفَاتِيحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ» مسوق لبيان انحصار العلم بالغيب فيه تعالى إما لأن خزائن الغيب لا يعلمها إلا الله، وإما لأن مفاتيح الغيب لا يعلمها غيره تعالى فلا سبيل لغيره الى تلك الخزائن اذ لا علم له بمفاتيحها التي يتوصل بها الى فتحها و التصرف فيها.

و صدر الآيه و إن أنبأ عن انحصار علم الغيب فيه تعالى لكن ذيلها لا يختص بعلم الغيب بل ينبئ عن شمول علمه تعالى بكل شيء أعم من أن يكون غيباً أو شهاده فإن كل رطب و يابس لا يختص بما يكون غيباً و هو ظاهر فالآيه بمجموعها بين شمول علمه تعالى لكل غيب و شهاده، غير أن صدرها يختص ببيان علمه بالغيوب، و ذيلها ينبئ عن علمه بكل شيء أعم من الغيب و الشهاده.

و من جهة اخرى صدر الآيه يتعرض للغيوب التي هي واقع في خزائن الغيب تحت أستار الخفاء و أفعال الإبهام، و قد ذكر الله سبحانه في قوله: «وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١) أن التي في خزائن الغيب عنده من الأشياء امور لا يحيط بها الحدود المشهوده في الأشياء، و لا يحصرها الأقدار المعهوده، و لا شك انها صارت غيوباً مخزوناً لما فيها من صفة الخروج عن حكم الحد و القدر فإننا لا نحيط علماً إلا بما هو محدود

و مقدر، و أما التي في خزائن الغيب من الأشياء فهي قبل النزول في منزل الشهود و الهبوط الى مهبط الحد و القدر، و بالجمله قبل أن يوجد بوجوده المقدر له غير محدوده مقدره مع كونها ثابتة نوعا من الثبوت عنده تعالى على ما تنطق به الآية (١).

فقوله تعالى: وَ عِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ راجع الى الغيب المطلق الذي لا سبيل لغيره تعالى إليه، و قوله: «لَا يَعْلَمُهَا» الخ؛ حال و هو يدل على أن مفاتيح الغيب من قبيل العلم غير أن هذا العلم من غير سنخ العلم الذي نتعارفه فإن الذي يتبادر الى أذهاننا من معنى العلم هو الصورة المأخوذة من الأشياء بعد وجودها و تقدرها بأقذارها و مفاتيح الغيب - كما تبين - علم بالأشياء و هي غير موجوده و لا مقدره بأقذارها الكونية أي علم غير متناه من غير انفعال من معلوم.

و قوله: وَ يَعْلَمُ مَا فِي الْبُرِّ وَ الْبَحْرِ تعميم لعلمه بما يمكن أن يتعلق به علم غيره مما ربما يحضر بعضه عند بعض و ربما يغيب بعضه عن بعض، و إنما قدم ما في البر لانه أعرف عند المخاطبين من الناس.

و قوله: وَ مَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقِهِ إِلَّا يَعْلَمُهَا اختص بالذكر لانه مما يصعب الإنسان حصول العلم به لان الكثره البالغه التي في أوراق الأشجار تعجز الإنسان أن يميز معها بعضها من بعض فيراقب كلا منها فيما يطراً عليه من الاحوال، و يتنبه على انتقاصها بالساقط منها اذا سقط.

و قوله: وَ لَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَ لَا رَطْبٌ وَ لَا يَابِسٌ الخ؛ معطوفات على قوله: «مِنْ وَرَقِهِ» على ظاهر السياق، و المراد بظلمات الارض بطونها المظلمه التي تستقر فيها الحبات فينمو منها ما ينمو و يفسد ما يفسد فالمعنى: و لا تسقط من حبه في

ص: ٣٢٢

بطون الأرض المظلمه و لا يسقط من رطب و لا من يابس أيا ما كان إلا يعلمها، و على هذا فقوله «إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ» بدل من قوله: «إِلَّا يَعْلَمُهَا» سد مسده، و تقديره إلا هو واقع مكتوب في كتاب مبين.

و توصيف الكتاب بالمبين إن كان بمعنى المظهر إنما هو لكونه يظهر لقارئه كل شيء على حقيقته ما هو عليه من غير أن يطرأ عليه إبهام التغير و التبديل و ستره الخفاء في شيء من نعوته، و إن كان المبين بمعنى الظاهر فهو ذلك أيضا لان الكتاب في الحقيقة هو المكتوب، و المكتوب هو المحكى عنه، و اذا كان ظاهرا لا ستره عليه و لا خفاء فيه فالكتاب كذلك.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَ يَعْلَمُ مَا جَزَّخْتُم بِالنَّهَارِ التوفى أخذ الشيء بتمامه، و يستعمله الله سبحانه في كلامه بمعنى أخذ الروح الحيه كما في حال الموت كما في قوله في الآية التاليه: «حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا» .

قد عد الإنامه توفيا كما عد الإماته توفيا على حد قوله: اللَّهُ يَتَوَفَّى الْمَآئِئَةَ حِينَ مَوْتِهَا وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَدَامِهَا (الزمر ٤٣) لا اشتراكهما في انقطاع تصرف النفس في البدن كما أن البعث بمعنى الإيقاظ بعد النوم يشارك البعث بمعنى الإحياء بعد الموت في عود النفس الى تصرفها في البدن بعد الانقطاع، و في تقييد التوفى بالليل كالبعث بالنهار جرى على الغالب من أن الناس ينامون بالليل و يستيقظون بالنهار.

و في قوله تعالى: «يَتَوَفَّاكُم» دلالة على أن الروح تمام حقيقه الإنسان الذى يعبر عنه بأنا لا كما ربما يتخيل لنا أن الروح أحد جزئى الإنسان لاتمامه أو أنها هيئه أو صفه عارضه له، و أوضح منه دلالة قوله تعالى: وَ قَالُوا أَ إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَ أَتَانَا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ، قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (السجده / ١١) فإن استبعاد الكفار مبنى على حقيقه الإنسان هو البدن الذى يتلاشى و يفسد بانحلال التركيب بالموت فيفضل فى الارض، و الجواب مبنى على كون حقيقته هو الروح (النفس) و اذ

كان ملك الموت يتوفاه و يقبضه فلا يفوت منه شيء.

وقوله: وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ الجرح هو الفعل بالجرحه والمراد به الكسب أى يعلم ما كسبتم بالنهار، والأنسب أن يكون الواو حالیه و الجملة حالا من فاعل يتوفاكم، و يتصل حينئذ قوله: «ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ» بقوله: «وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ» الخ؛ من غير تدخل معنى أجنبي فإن الآيتين فى مقام شرح وقوع التدبير الإلهى بالإنسان فى حياته الدنيا و عند الموت و بعده حتى يرد الى ربه، و الأصل العمده من جمل الآيتين المسروده لبيان هذا المعنى قوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ - أَي فى النهار - لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَ هُمْ لَا يُفْرَطُونَ. ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ» فهذا هو الأصل فى المقصود، و ما وراء ذلك مقصود بالتبع، و المعنى و هو الذى يتوفاكم بالليل و الحال أنه يعلم ما كسبتم فى النهار، ثم يبعثكم فى النهار، الخ.

قوله تعالى: ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى الخ؛ سمي الإيقاظ و التنبيه بعثا محاذاه لتسميه الإنامه توفيا و جعل الغرض من البعث قضاء الأجل المسمى و هو الوقت المعلوم عند الله الذى لا يتخطاه حياه الإنسان الدنيويه كما قال: فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (الأعراف ٣٤).

و إنما جعل قضاء الأجل المسمى غايه لأنه تعالى أسرع الحسابين، و لو لا تحقق قضاء سابق لأخذهم بسيئات أعمالهم و وبال آثامهم، كما قال: وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغِيًّا بَيْنَهُمْ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَّا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَفُضِّبَ بَيْنَهُمْ (الشورى ١٤) و القضاء السابق هو الذى يشتمل عليه قوله تعالى فى قصه هبوط آدم عليه السلام: وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (الأعراف ٢٤).

فالمعنى أن الله يتوفاكم بالليل و الحال أنه يعلم ما كسبتم فى النهار من السيئات و غيرها لكن لا يمسك أرواحكم ليديم عليها الموت بل يبعثكم فى النهار بعد التوفى لتقضى آجالكم المسماه ثم

إليه مرجعكم بنزول الموت و الحشر فينبئكم بما كنتم تعملون.

قوله تعالى: وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ قد تقدم الكلام فيه في تفسير الآية (١٧) من السوره.

قوله تعالى: وَيُزِيلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَهُ الخ؛ اطلاق إرسال الحفظه من غير تقييد لا فى الإرسال و لا فى الحفظه ثم جعله مغنياً بمجىء الموت لا- يخلو عن دلالة على أن هؤلاء الحفظه المرسلين شأنهم حفظ الإنسان من كل بليه تتوجه إليه و مصيبه تتوخاه، و آفه تقصده فإن النشأه التى نحن فيها نشأه التفاعل و التضاحم، ما فيه من شىء إلا و هو مبتلى بمزاحمه غيره من شىء من جميع الجهات لان كلا من أجزاء هذا العالم الطبيعى بصدد الاستكمال و استزاده سهمه من الوجود، و لا يزيد فى شىء إلا و ينقص بنسبته من غيره فالاشياء دائماً فى حال التنازع و التغلب، و من أجزاء الإنسان الذى تركيب وجوده ألطف التراكيب الموجوده فيه و أدقها فيما نعلم فرقاؤه فى الوجود أكثر و أعداؤه فى الحياه أخطر فأرسل الله إليه من الملائكه حفظه تحفظه من طوارق الحدثان و عوادى البلايا و المصائب و لا يزالون يحفظونه من الهلاك حتى اذا جاء أجله خلوا بينه و بين البليه فأهلكته على ما فى الروايات.

و أما ما ذكره فى قوله: إِنَّ عَلَيْكُمْ لِحَافِظِينَ كَرَامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ (الانفطار / ١٢) فإنما يريد به الحفظه على الأعمال غير أن بعضهم أخذ الآيات مفسره لهذه الآيه، و الآيه و إن لم تأب هذا المعنى كل الإباء لكن قوله: «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ» الى آخر الآيه، كما تقدم يؤيد المعنى الأول.

و قوله: تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَ هُمْ لَا يُفْرَطُونَ الظاهر أن المراد من التفريط هو التساهل و التسامح فى إنفاذ الأمر الإلهى بالتوفى فإن الله سبحانه وصف ملائكته بأنهم يفعلون ما يؤمرون، و ذكر أن كل أمه رهن أجلهم فإذا جاء أجلهم لا- يستأخرون ساعه و لا يستقدمون فالملائكه المتصدون لأمر التوفى لا يقصرون عن الحد الواجب المحدود المكشوف

لهم من موت فلان في الساعه الفلانيه على الشرائط الكذائيه فهم لا يسامحون في توفى من أمروا بتوفيه و لا مقدار ذره فهم لا يفرطون.

و هل هذه الرسل هم الرسل المذكورون أولا حتى تكون الحفظه هم الموكلين على التوفى؟ الآيه ساكته عن ذلك إلا ما فيها من إشعار ضعيف بالوحده غير أن هؤلاء الرسل المأمورين بالتوفى كائنين من كانوا هم من أعوان ملك الموت لقوله تعالى: قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ (السجده ١١).

و نسبه التوفى الى هؤلاء الرسل ثم الى ملك الموت في الآيه المحكيه آنفا ثم الى الله سبحانه في قوله: اللَّهُ يَتَوَفَّى النَّفْسَ (الزمر ٤٢) من قبيل التفنن في مراتب النسب فالله سبحانه ينتهي إليه كل أمر و هو المالك المتصرف على الإطلاق، و لملك الموت التوسل الى ما يفعله من قبض الأرواح بأعوانه الذين هم أسباب الفعل و وسائله و أدواته كالخط الذي يخطه القلم و ورائه اليد و وراءهما الإنسان الكاتب.

قوله تعالى: ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ إشارة الى رجوعهم الى الله سبحانه بالبعث بعد الموت، و توصيفه تعالى بأنه مولاهم الحق للدلاله على عله جميع ما تقدم من تصرفاته تعالى بالإينامه و الإيقاظ و التدبير و الإماتة و البعث، و فيه تحليل لمعنى المولى ثم إثبات حق المولويه له تعالى، فالمولى هو الذى يملك الرقبه فيكون من حقه جواز التصرف فيها كيفما شاء، و اذا كان له تعالى حقيقه الملك، و كان هو المتصرف بالإيجاد و التدبير و الإرجاع فهو المولى الحق الذى يثبت له معنى المولويه ثبوتا لا زوال له بوجه البتة.

و الحق من أسماء الله الحسنى لثبوته تعالى بذاته و صفاته ثبوتا لا يقبل الزوال و يمتنع عن التغير و الانتقال و الضمير فى «رُدُّوا» راجع الى الآحاد الذى يومئ إليه سابق الكلام من قوله: «حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ» فإن حكم الموت يعم كل واحد و يجتمع به آحادهم نفس

الجماعه، و من هنا يظهر أن قوله: «ثُمَّ رُدُّوا» ليس من قبيل الالتفات من الخطاب السابق الى الغيبه.

قوله تعالى: «أَلَا لَهُ الْحُكْمُ الْخَالِقُ»؛ لما بين تعالى اختصاصه بمفتاح الغيب و علمه بالكتاب المبين الذى فيه كل شىء، و تدبيره لأمر خلقه من لدن وجدوا الى أن يرجعوا إليه تبين أن الحكم إليه لا الى غيره، و هو الذى ذكره فيما مر من قوله: «إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» أعلن نتيجته بيانه فقال «أَلَا لَهُ الْحُكْمُ» ليكون منبها لهم مما غفلوا عنه.

و كذلك قوله: «وَهُوَ أَسْرِعُ الْحَاسِبِينَ» نتيجته أخرى لسابق البيان فإنه تبين به أنه تعالى لا يؤخر حساب أعمال الناس عن الوقت الصالح له، و إنما يتأخر ما يتأخر ليدرك الأجل الذى أجل له.

قوله تعالى: «قُلْ مَن يَنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ تَدْعُونَهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ»؛ كأن المراد بالتنجيه من ظلمات البر و البحر هو التخليص من الشدائد التى يبتلى بها الإنسان فى خلال الأسفار اذا ضرب فى الأرض أو ركب البحر كالبرد الشديد و الأمطار و الثلوج و قطاع الطريق و الطوفان و نحو ذلك، و أشق ما يكون ذلك على الإنسان فى الظلمات من ليل أو سحاب أو ريح تثير عجاج الأرض فيزيد فى اضطراب الإنسان و حيرته و ضلاله طريق الاحتيال لدفعه، و لذلك علق التنجيه على الظلمات، و كان أصل المعنى الاستفهام عن من ينجى الإنسان من الشدائد التى يبتلى بها فى أسفاره فى البر و البحر فاضيفت الشدائد الى البر و البحر بعنايه الظرفيه ثم أضيفت الى ظلمات البر و البحر لأن للظلمات تأثيرا تاما فى تشديد هذه المكاره، ثم حذفت الشدائد و أقيمت الظلمات مقامها فعلمت بالتنجيه عليها فقول:

ينجيكم من ظلمات البر و البحر.

و إنما خصت الظلمات بالذكر و إن كان المنجى من كل مكروه و غم هو الله سبحانه كما يذكره فى الآيه التاليه لأن أسفار البر و البحر معروف عند الإنسان بالعناء و الوعناء و الكريهه.

والتضرع إظهار الضراعة و هو الذل و الخضوع على ما ذكره الراغب، و لذلك قوبل بالخفيه و هو الخفاء و الاستتار فالتضرع و الخفيه فى الدعاء هما الإعلان و الإسرار فيه، و الإنسان اذا نزلت به المصيبة يبتدىء فيدعو للنجاه بالإسرار و المناجاة ثم اذا اشتدت به و لاح بعض آثار اليأس و الانقطاع من الأسباب لا يبالي بمن حوله ممن يطلع على ذلته و استكاثته فيدعو بالتضرع و المناداه فى ذكر التضرع و الخفيه إشاره الى أنه تعالى هو المنجى من مصائب البر و البحر شديدها و يسيرتها.

و فى قوله: لَيْسَ أَتَجَانًا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ إشاره الى أن الإنسان يضيف فى هذه الحاله التى يدعو لكشفها الى دعائه عهدا يقدمه الى ربه و وعدا يعده به أن لو كشف الله عنه ليكونن من الشاكرين و يرجع عن سابق كفره.

و أصل هذه العده مأخوذ من العاده الجاربه بين أفراد الإنسان بعضهم مع بعض فإن الواحد منا اذا أعيته المذاهب و أحاطت به البليه من مصيبه قاصمه أو فقر أو عدو و استغاث لكشف ما به من كرب الى أحد الأقوياء القادرين على كشفه بزعمه و عده بما يطيب به نفسه و يقوى باعثة عزيمته و فتوته، و ذلك بثناء جميل أو مال أو طاعه أو وفاء كل ذلك لما أن الأعمال الاجتماعيه التى تدور بيننا كلها معاملات قائمه بطرفين يعطى فيها الإنسان شيئاً و يأخذ شيئاً لأن الحاجه محيطه بالإنسان ليس له أن يعمل عملاً أو يؤثر أثراً إلا لنفع عائد الى نفسه، و مثله سائر أجزاء الكون.

لكن الله سبحانه أكرم ساحه أن تمسه حاجه أو يطرأ عليه منقصه لا يفعل فعلاً إلا ليعود نفعه الى غيره من خليقته فوجه التوحيد فى مقابله الإنسان له بوعد الشكر و الطاعه فى دعائه الفطرى هو أن الإنسان اذا نزلت به النازله، و انقطعت عنه الأسباب و غابت عن مسرح نظره وسائل الخلاص وجد أن الله سبحانه هو السبب الوحيد الذى يقدر على كشف ما به من غم، و أنه الذى يدبر أمره منذ خلقه و يدبر أمر كل سبب فوجد نفسه ظالماً مفرطاً فى جنب الله

سبحانه لا يستحق كشف الغم و رفع الحاجه من قبله تعالى لما كسبت يداه من السيئات، و حملت نفسه من وبال الخطيئه فعندئذ يعد ربه الشكر و الطاعه ليصحح ذلك استحقاقه لاستجابته دعائه و كشف ضره.

و لذلك نجده أنه اذا نجى مما نزل به النائبه ذهب لوجهه ناسيا لما عهد به ربه و وعده من الشكر كما قال تعالى فى ذيل الآيه التاليه: «ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ» .

قوله تعالى: قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا ۗ وَ مِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ قال الراغب فى مفرداته:الكرب الغم الشديد،قال تعالى: وَ نَجِّينَاهُ ۗ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ و الكربه كالغمه،و أصل ذلك من كرب الأرض بسكون الراء و هو قلبها بالحفر فالغم يثير النفس إثارة ذلك و قيل فى مثل:الكراب على البقر و ليس ذلك من قولهم:الكلاب على البقر، فى شىء،و يجوز أن يكون الكرب من كربت الشمس اذا دنت للمغيب،و قوله:إناء كربان أى قريب نحو قربان أى قريب من الملاء،أو من الكرب(بفتحتين)و هو عقد غليظ فى رشا الدلو، و قد يوصف الغم بأنه عقد على القلب يقال:أكربت الدلو،انتهى.

و قد أضيف فى هذه الآيه كل كرب الى ظلمات البر و البحر ليعم الجميع فإن إنسانا ما لا يخلو فى مدى حياته من شىء من الكروب و الغموم فالمسأله و الدعاء عام فيهم سواء أعلنوا به أو أسرّوا.

فملخص المراد بالآيه أنكم فى الشدائد النازله بكم فى ظلمات البر و البحر و غيرها اذا انقطعتم عن الأسباب الظاهره و أعيت بكم الحيل تشاهدون بالرجوع الى فطرتكم الإنسانيه أن الله سبحانه هو ربكم لا رب سواه و تجزمون أن عبادتكم لغيره ظلم و إثم و الشاهد على ذلك أنكم تدعون حيثذ تضرعا و خفيه،و تعدونه أن تشكروه بعد ذلك و لا تكفروا به إن أنجاكم لكنكم بعد الإنجا تنقضون ميثاقكم الذى واثقتموه به و تستمرون على سابق كفركم، ففى الآيتين احتجاج على المشركين و توبيخ لهم على حنث اليمين و خلف الوعد.

قوله تعالى: قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ قال الراغب في المفردات: أصل البعث اثاره الشيء و توجيهه يقال:بعثته فانبعث، و يختلف البعث بحسب اختلاف ما علق به فبعثت البعير أثرته و سيرته، و قوله عزّ و جل:

و الْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ أَي يَخْرِجُهُمْ وَيَسِيرُهُمْ إِلَى الْقِيَامَةِ- إلى ان قال-فالبعث ضربان:بشرى كبعث البعير و بعث الانسان فى حاجه، و الهى و ذلك ضربان:أحدهما:ايجاد الاعيان و الاجناس و الانواع عن ليس و ذلك يختص به البارى تعالى و لم يقدر عليه احدا، و الثانى إحياء الموتى و قد خص بذلك بعض أوليائه كعيسى عليه السّلام و أمثاله،انتهى.

و بالجمله فى لفظه شىء من معنى الإقامه و الإنهاض، و بهذه العناية يستعمل فى التوجيه و الإرسال لأن التوجيه الى حاجه و الإرسال نحو قوم يكون بعد سكون و خمود غالباً، و على هذا فبعث العذاب لا يخلو من إشعار على أنه عذاب من شأنه أن يتوجه إليهم و يقع بهم، و إنما يمنع عن هذا الاقتضاء مانع كالإيمان و الطاعه، و للكلام تتمه سنوافيك.

و قال فى المجمع:لبست عليهم الأمر ألبسه اذا لم أبينه و خلطت بعضه ببعض و لبست الثوب ألبسه، و اللبس اختلاط الأمر و اختلاط الكلام، و لابست الأمر خالطته، و الشيع الفرق، و كل فرقه شيعه على حده، و شيعه فلان تبعته، و التشيع الاتباع على وجه التدوين و الولاء،انتهى.

و على هذا فالمراد بقوله: «أَوْ يَلْبَسِكُمْ شَيْعًا» أن يضرب البعض البعض و يخلط حال كونهم شيعا و فرقا مختلفه.

فقوله: قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ظاهره إثبات القدره لله سبحانه على بعث العذاب عليهم من فوق أو من تحت، و القدره على الشىء لا تستلزم فعله، و هو أعنى إثبات القدره على الفعل الذى هو العذاب كاف فى الإخافه و الإنذار لكن المقام يعطى أن المراد ليس هو إثبات مجرد القدره بل لهم استحقاق لمثل هذا العذاب، و فى العذاب اقتضاء أن ينبعث عليهم إن لم يجتمعوا على الإيمان بالله

و آياته كما مر من استفاده ذلك من معنى البعث، و يؤيده قوله بعد: «لِكُلِّ نَبِيٍّ مُسْتَقَرٌّ وَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ» فإنه تهديد صريح.

على أنه تعالى يهدد هذه الامه صريحا بالعذاب فى موارد مشابهه لهذه المورد من كلامه كقوله تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولَهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ - الى أن قال- وَ يَسِّرْ يَسِّرُوكَ أَحَقُّ هُوَ قَوْلُ إِي وَ رَبِّى إِنَّهُ لَحَقُّ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ الْآيَاتِ (يونس ٤٧-٥٣) و قوله: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُونِ، وَ تَقَطُّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ الى آخر الْآيَاتِ (الأنبياء ٩٣-٩٧) و قوله تعالى: فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا - الى أن قال- وَ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيْعًا الى آخر الْآيَاتِ (الروم ٣٠-٤٥).

قوله تعالى: أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ ظاهره أنه أريد به التحزبات التى نشأت بعد النبى صلى الله عليه و آله و سلم، فأدى ذلك الى حدوث مذاهب متنوعه ألبست لباس العصبية و الحمية الجاهلية و استتبعت حروبا و مقاتل يستبيح كل فريق من غيره كل حرمة و يطرده بمزعمته من حرمة الدين و بيضه الإسلام.

و على هذا فقوله: «أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيْعًا وَ يُذِيقَ» الخ؛ عذاب واحد لا عذابان و إن أمكن بوجه عد كل من إلقاء التفرق فى الكلمة و إذاقه البعض بأس بعض عذابا مستقلا برأسه فللتفرقه بين الامه أثر سوء آخر و هو طرؤ الضعف و نفاذ القوه و تبعض القدره لكن المأخوذ فى الآيه المعدود عذابا أعنى قوله: «وَ يُذِيقَ بَعْضَكُمْ» الخ؛ حينئذ بالنسبه الى مجرد إلقاء الاختلاف بمنزله المقيد بالنسبه الى المطلق، و لا يحسن مقابله المطلق بالمقيد إلا بعنايه زائده فى الكلام، على أن العطف بواو الجمع يؤيد ما ذكرناه.

فبالجملة معنى الآية: قل يا رسول الله مخاطبا لهم منذرا لهم عاقبه استنكافهم عن الاجتماع تحت لواء التوحيد و استماع دعوه الحق إن لشأنكم هذا عاقبه سيئه فى قدره الله سبحانه أن

يأخذكم بها و هو أن يبعث عليكم عذبا لا مفر لكم منه و لا ملاذ تلوذون به و هو العذاب من فوقكم أو من تحت أرجلكم، أو أن يضرب بعضكم ببعض فتكونوا شيعا و فرقا مختلفين متنازعين و متحاربين فيذيق بعضكم بأس بعض، ثم تمم البيان بقوله خطابا لنبية: انظر كيف نصرّف الآيات لعلهم يفقهون، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَ كَذَّبَ بِهٖ قَوْمُكَ وَ هُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ قوم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم هم قريش أو مضر أو عامه العرب و المستفاد من فحوى بعض كلامه تعالى في موارد آخر ان المراد بقومه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم هم العرب كقوله: وَ لَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَىٰ بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ، فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهٖ مُؤْمِنِينَ، كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ، لَا يُؤْمِنُونَ بِهٖ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ، فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (الشعراء ٢٠٢/٢) و قوله: وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِئَيَّبِنَ لَهُمْ (إبراهيم ٤/٤).

و كيف كان فقوله: «وَ كَذَّبَ بِهٖ قَوْمُكَ وَ هُوَ الْحَقُّ» بمنزله التمهيد لتحقيق النبأ الذي يتضمنه الإنذار السابق كأن قيل: يا أيها الامه اجتمعوا في توحيد ربكم و اتفقوا في اتباع كلمه الحق و إلا هلا مؤمن يؤمنكم عذابا يأتيكم من فوق أو من تحت أو من اختلاف و تحزب يستتبع سيفا و سوطا من بعضكم على بعض، ثم خوطب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم فقيل: إن قومك كذبوا بذلك فليستعدوا لعذاب بيئس أو بأس شديد يذوقونه.

قوله تعالى: وَ إِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ذِكْرُ الرَّاغِبِ فِي الْمَفْرَدَاتِ أَنَّ الْخَوْضَ هُوَ الشَّرْعُ فِي الْمَاءِ وَ الْمُرُورُ فِيهِ، وَ يَسْتَعَارُ فِي الْأُمُورِ، وَ أَكْثَرُ مَا وَرَدَ فِي الْقُرْآنِ وَرَدَ فِيهَا يَذْمُ الشَّرْعِ فِيهِ، أَنْتَهَى.

و هو الدخول في باطل الحديث و التوغل فيه كذكر الآيات الحقه و الاستهزاء بها و الإطاله في ذلك.

و المراد بالإعراض عدم مشاركتهم فيما يخوضون فيه كالقيام عنهم و الخروج من بينهم أو ما

يشابه ذلك مما يتحقق به عدم المشاركة، وتقييد النهي بقوله: «حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ» للدلالة على أن المنهى عنه ليس مطلق مجالستهم و القعود معهم، و لو كان لغرض حق، و إنما المنهى عنه مجالستهم ما داموا مشتغلين بالخوض في آيات الله سبحانه.

و من هنا يظهر أن في الكلام نوعاً من إيجاز الحذف فإن تقدير الكلام: و إذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا يخوضون فيها فأعرض عنهم، الخ؛ فحذفت الجملة المماثلة للصلة استغناء بها عنها، و المعنى -و الله أعلم- و إذا رأيت أهل الخوض و الاستهزاء بآيات الله يجرون على خوضهم و استهزائهم بالآيات الإلهية فأعرض عنهم و لا تدخل في حلقهم حتى يخوضوا في حديث غيره فإذا دخلوا في حديث غيره فلا مانع يمنعك من مجالستهم، و الكلام و إن وقع في سياق الاحتجاج على المشركين لكن ما أشير إليه من الملا-ك يعممه فيشمل غيرهم كما يشملهم، و قد وقع في آخر الآية قوله: «فَلَا تَقْعُدُوا بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ» فالخوض في آيات الله ظلم و الآية إنما نهت عن مشاركة الظالمين في ظلمهم، و قد ورد في مورد آخر من كلامه تعالى: إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ (النساء ١٤٠).

فقد تبين: أن الآية لا تأمر بالإعراض عن الخائضين في آيات الله تعالى بل إنما تأمر بالإعراض عنهم إذا كانوا يخوضون في آيات الله ما داموا مشتغلين به.

و الضمير في قوله: «غَيْرِهِ» راجع إلى الحديث الذي يخاض فيه في آيات الله باعتبار أنه خوض و قد نهى عن الخوض في الآية.

قوله تعالى: وَ إِمَّا يُنَسِّبَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ و «ما» في قوله: «إِمَّا يُنَسِّبَنَّكَ» زائد يفيد نوعاً من التأكيد أو التقليل، و النون للتأكيد. و الأصل و إن ينسك، و الكلام في مقام التأكيد و التشديد للنهي أي حتى لو غفلت عن نهينا بما أنساكه الشيطان ثم ذكرت فلا تهاون في القيام عنهم و لا تلبث دون أن تقوم عنهم فإن الذين يتقون ليس لهم أي مشاركة للخائضين اللاعبين بآيات الله المستهزئين بها.

و الخطاب فى الآيه للنبي صلى الله عليه وآله وسلم و المقصود غيره من الامه فقد تقدم فى البحث عن عصمه الأنبياء عليهم السلام ما ينفى وقوع هذا النوع من النسيان- و هو نسيان حكم إلهى و مخالفته عملاً بحيث يمكن الاحتجاج بفعله على غيره و التمسك به نفسه- عنهم عليهم السلام.

و يؤيد ذلك عطف الكلام فى الآيه التالىة الى المتقين من الامه حيث يقول: «وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» الى آخر الآيه.

و أوضح منها دلالة قوله تعالى فى سورة النساء: «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً (النساء ١٤٠)» فإن المراد فى الآيه و هى مدنيه بالحكم الذى نزل فى الكتاب هو ما فى هذه الآيه من سورة الأنعام و هى مكيه و لا آيه غيرها، و هى تذكر أن الحكم النازل سابقاً ووجه به الى المؤمنين، و لازمه أن يكون الخطاب الذى فى قوله: «وَ إِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا» الخ؛ موجهاً الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم و المقصود به غيره على حد قولهم: إياك أعنى و اسمعى يا جاره.

قوله تعالى: «وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ» الى آخر الآيه؛ يريد أن الذى يكتسبه هؤلاء الخائضون من الإثم لا يحمل الى على أنفسهم و لا يتعداهم الى غيرهم إلا أن يماثلوهم و يشاركوهم فى العمل أو يرضوا بعملهم فلا يحاسب بعمل إلا عامله و لكن نذكرهم ذكر لعلم يتقون، فإن الإنسان اذا حضر مجلسهم و إن أمكنه أن لا يجاريهم فيما يخوضون و لا يرضى بقلبه بعملهم و أمكن أن لا يعد حضوره عندهم إعانه لهم على ظلمهم تأييداً لهم فى قولهم لكن مشاهدته الخلاف و معاينه المعصيه تهون أمر المعصيه عند النفس و تصغر الخطيئه فى عين المشاهد المعاین، و اذا هان أمرها أو شك أن يقع الإنسان فيها فإن للنفس فى كل معصيه هوى و من الواجب على المتقى بما عنده من التقوى و الورع عن محارم الله أن يجتنب مخالطه أهل الهتك و الاجترار على الله كما يجب على المبتلين بذلك الخائضين فى

آيات الله لئلا تهون عليه الجراه على الله و آياته فتقربه ذلك من المعصيه فيشرف على الهلكه، و من يحم حول الحمى أوشك أن يقع فيه.

قوله تعالى: وَ ذرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَ لَهْوًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قال الراغب:

البسل ضم الشيء و منعه و لتضمنه لمعنى الضم استعير لتقطيب الوجه فقليل: هو باسل و مبتسل الوجه، و لتضمنه لمعنى المنع قيل للمحرم و المرتهن بسل، و قوله تعالى: وَ ذَكَرْ بِهِ أَنْ تُبْسِلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ، أى تحرم الثواب، و الفرق بين الحرام و البسل أن الحرام عام فيما كان ممنوعا منه بالحكم و القهر، و البسل هو الممنوع منه بالقهر قال عز و جل: «أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا» أى حرموا الثواب، انتهى.

و قال فى المجمع: يقال: أبسلته بجريرته أى أسلمته، و المستبسل المستسلم الذى يعلم أنه لا يقدر على التخلص - إلى أن قال - قال الأخفش: تبسل أى تجازى، و قيل: تبسل أى ترهن و المعانى متقاربه، انتهى.

و المعنى «و اترك الذين اتخذوا دينهم لعبا و لهوا» عد تدينهم بما يدعوهم إليه هو أنفسهم لعبا و تلهيها بدينهم، و فيه فرض دين حق لهم و هو الذى دعتهم إليه فطرتهم فكان يجب عليهم أن يأخذوا به أخذ جد و يتحرزوا به عن الخلط و التحريف و لكنه اتخذوه لعبا و لهوا يقلبونه كيف شاءوا من حال إلى حال و يحولونه حسب ما يأمرهم به هوى أنفسهم من صورته إلى صورته.

ثم عطف على اتخاذهم الدين لعبا و لهوا قوله: «وَ عَزَّ تَهُمُ الْحَيَاءُ الدُّنْيَا» لما بينهما من الملازمه لأن الاسترسال فى التمتع من لذائذ الحياه الماديه و الجد فى اقتنائها يوجب الإعراض عن الجد فى الدين الحق و الهزل و اللعب به.

ثم قال: و ذكر به أى بالقرآن حذرا من أن تبسل أى تمنع نفس بسبب ما كسبت من السيئات أو تسلم نفس مع ما كسبت للمؤاخذه و العقاب، و تلك نفس ليس لها من دون الله

ولى ولا شفيع وإن تعدل كل عدل و تفد كل فديه لا يؤخذ منها لأن اليوم يوم الجزاء بالأعمال لا يوم البيع و الشرى اولئك الذين أبلوا و منعوا من ثواب الله أو أسلموا لعقابه لهم شراب من حميم و عذاب أليم بما كانوا يكفرون.

قوله تعالى: قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَ لَا يَنْفَعُنَا وَ لَا يَضُرُّنَا احتجاج على المشركين بنحو الاستفهام الإنكارى، وإنما ذكر من أوصاف شركائهم كونها لا تنفع و لا تضر لأن اتخاذ الآلهة- كما تقدم- كان مبنيًا على أحد الأساسين: الرجاء و الخوف و اذ كانت الشركاء لا تنفع و لا تضر فلا موجب لدعائها و عبادتها و التقرب منها.

قوله تعالى: وَ نَزَدُ عَلَىٰ أَعْقَابِنَا بَعِيدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ -الى قوله- ائْتِنَا الاستهواء طلب الهوى و السقوط، و الرد على الأعقاب كناية عن الضلال و ترك الهدى فإن لازم الهداية الحقه الوقوع فى مستقيم الصراط و الشروع فى السير فيه فالارتداد على الأعقاب ترك السير فى الصراط و العود الى ما خلف من المسير و هو الضلال، و لذا قال: و نرد على أعقابنا بعد اذ هداانا الله فقيه الرد بكونه بعد الهداية الإلهيه.

و قوله: كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ الخ؛ تمثيل مثل به حال الانسان المتحير الذى لم يؤت بصيره فى أمره و عزيمه راسخه على سعادته فترك أحسن طريق و أقومه الى مقصده، و قد ركب قبله أصحاب له مهتدون به و بقى متحيرا بين شياطين يدعونه الى الردى و الهلاك، و أصحاب له مهتدين قد نزلوا فى منازلهم أو أشرفوا على الوصول يدعونه الى الهدى أن اثنتا فلا يدري ما يفعل و هو بين مهبط و مستوى؟.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ أى إن كان الأمر بين دوائر دعوه الله سبحانه و هى التى توافق الفطره و تسميه الفطره هدى الله، و بين دعوه الشياطين و هى التى فيها الهوى و اتخاذ الدين لعبا و لهوا فهدى الله هو الهدى الحقيقى دون غيره.

أما أن ما يوافق دعوه الفطره هو هدى الله فلا شك يعتريه لأن حق الهداية هو الذى ينطق

به الصنع والإيجاد الذى ليس إلا لله ولا نروم شيئا من دين أو اعتقاد إلا لابتغاء مطابقه الواقع و الواقع لله فلا يعدوه هداة، و أما أن هدى الله هو الهدى الحقيقى الذى يجب أن يؤخذ به دون الدعوه الشيطانيه فظاهر أيضا لأن الله سبحانه هو الذى إليه أمرنا كله من جهه مبدئنا و منتهانا و ما نحتاج إليه فى دنيا أو آخره.

و قوله: «وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» قال فى المجمع: تقول العرب: أمرتك لتفعل و أمرتك أن تفعل و أمرتك بان تفعل فمن قال: أمرتك بأن تفعل فالباء للإلصاق و المعنى وقع الأمر بهذا الفعل، و من قال: أمرتك أن تفعل حذف الجار، و من قال: أمرتك لتفعل فالمعنى أمرتك للفعل، و قال الزجاج: التقدير أمرنا كي نسلم.

و الجملة أعنى قوله: «وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ» الخ؛ عطف تفسير لقوله: «إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى» فالأمر بالإسلام هو مصداق لهدى الله، و المعنى: أمرنا الله لنسلم له و إنما أبهم فاعل الفعل ليكون تمهيدا لوضع قوله: «لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» موضع الضمير فيدل به على عله الأمر فالمعنى أمرنا من ناحيه الغيب أن نسلم لله لأنه رب العالمين جميعا ليس لها جميعا أو لكل بعض منها- كما تزعمه الوثنيه- رب آخر و لا أرباب آخر.

و ظاهر الآيه أن المراد بالإسلام هو تسليم عامه الامور إليه تعالى لا مجرد التشهد بالشهادتين، و هو ظاهر قوله: «إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» (آل عمران ١٩) كما مر فى تفسير الآيه.

قوله تعالى: «وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ» تفنن فى سرد الكلام بأخذ الأمر بمعنى القول و الجرى فى مجرى هذه العناية كأنه قيل: و قيل لنا: أن أسلموا لرب العالمين و أن أقيموا الصلاه و اتقوه.

و قد أجمل تفاصيل الأعمال الدينيه ثانيا فى قوله: «وَأَتَّقُوا اللَّهَ» غير أنه صرح من بينها باسم الصلاه تعظيما لأمرها و اعتناء بشأنها و اهتمام القرآن الشريف بأمر الصلاه ظاهر لا شك فيه.

قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ فَمَنْ الْوَاجِبُ أَنْ يَسْلَمَ لَهُ وَيَتَّقَى لِأَنَّ الرَّجُوعَ إِلَيْهِ، وَالْحِسَابَ وَالْجِزَاءَ بِيَدِهِ.

قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ بَضْعُهُ أَسْمَاءٌ وَأَوْصَافٌ لَهُ سَبْحَانَهُ مَذْكُورُهُ أُرِيدَ بِذِكْرِهَا بَيَانٌ مَا تَقْدِمُ مِنَ الْقَوْلِ وَتَعْلِيلُهُ فَإِنَّهُ تَعَالَى ذَكَرَ أَنَّ الْهُدَى هِدَاةٌ ثُمَّ فَسَّرَهُ نَوْعٌ تَفْسِيرًا بِالْإِسْلَامِ لَهُ وَالصَّلَاةُ وَالتَّقْوَى وَهُوَ تَمَامُ الدِّينِ ثُمَّ بَيَّنَّ السَّبَبَ فِي كَوْنِ هِدَاةِ هُوَ الْهُدَى الَّذِي لَا يَجُوزُ التَّجَافَى عَنْهُ وَهُوَ أَنَّ حَشْرَ الْجَمِيعِ إِلَيْهِ ثُمَّ بَيَّنَّهُ أَيْ بَيَانٌ بِقَوْلِهِ: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ» الخ؛ فَهَذِهِ أَسْمَاءٌ وَنَعْوَتٌ لَهُ تَعَالَى لَوْ انْتَفَى وَاحِدٌ مِنْهَا لَمْ يَتِمَّ الْبَيَانُ.

فَقَوْلُهُ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الخ؛ يُرِيدُ بِهِ أَنَّ الْخَلْقَ جَمِيعًا فَعَلَهُ وَإِنَّمَا أَتَى بِهِ بِالْحَقِّ لَا بِالْبَاطِلِ، وَالْفِعْلُ إِذَا لَمْ يَكُنْ بِاطِلًا لَمْ يَكُنْ مَنْدُوحَهُ مِنْ ثُبُوتِ الْغَايَةِ لَهُ فَلِلْخَلْقِ غَايَةٌ وَهُوَ الرَّجُوعُ إِلَيْهِ تَعَالَى وَهَذَا هُوَ إِحْدَى الْحَجْتَيْنِ اللَّتَيْنِ ذَكَرَهُمَا فِي قَوْلِهِ عَزَّ مِنْ قَائِلٍ: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ؛ (ص ٢٧) فَخَلَقَهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَلْقِهِ حَقَّهُ تَوَدَّى إِلَى أَنَّ الْخَلْقَ يَحْشَرُونَ إِلَيْهِ.

وَقَوْلُهُ: وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ السِّيَاقُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالْمَقُولِ لَهُ هُوَ يَوْمَ الْحَشْرِ وَإِنْ كَانَ كُلُّ مَوْجُودٍ مَخْلُوقٍ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (يس ٨٢) وَيَوْمَ ظَرْفٌ مَتَعَلِّقٌ بِالْقَوْلِ وَالْمَعْنَى: يَوْمَ يَقُولُ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ:

كُنْ فَيَكُونُ، وَرَبَّمَا قِيلَ: إِنَّ الْمَقُولَ لَهُ هُوَ الشَّيْءُ وَالتَّقْدِيرُ: يَوْمَ يَقُولُ لَشَيْءٍ كُنْ فَيَكُونُ، وَ مَا ذَكَرْنَاهُ أَوْفَقَ لِلْسِّيَاقِ.

وَقَوْلُهُ: فَقَوْلُهُ الْحَقُّ تَعْلِيلٌ عَمِلَتْ بِهِ الْجَمْلَةُ الَّتِي قَبْلَهُ، وَالدَّلِيلُ عَلَيْهِ فَصْلُ الْجَمْلَةِ، وَ الْحَقُّ هُوَ الثَّابِتُ بِحَقِيقَتِهِ مَعْنَى الثَّبُوتِ وَهُوَ الْوُجُودُ الْخَارِجِيُّ وَالْكُونُ الْعَيْنِيُّ وَإِذَا كَانَ قَوْلُهُ هُوَ فَعَلَهُ وَإِجَادَهُ كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: وَ يَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ فَقَوْلُهُ تَعَالَى هُوَ نَفْسُ الْحَقِّ فَلَا

مردّ له ولا مبدل لكلماته قال تعالى: وَ الْحَقُّ أَقُولُ (ص ٨٤).

قوله تعالى: وَ لَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ يريد به يوم القيامة قال تعالى:

يَوْمَ هُمْ بِبَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (المؤمن ١٦) والمراد بثبوت الملك له تعالى يوم النفخ مع أن له الملك دائما إنما هو ظهور ذلك بتقطع الأسباب و انبتات الروابط و الأنساب و قد تقدم شذور من البحث في ذلك فيما تقدم و سيجيء استيفاء البحث عنه و عن معنى الصور في الموضع المناسب لذلك إن شاء الله تعالى.

و قوله: عَالَمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ قد تقدم معناه، و هو اسم يتقوم بمعناه الحساب و الجزاء، و كذلك الاسمان: الحكيم و الخبير فهو تعالى بعلمه بالغيب و الشهاده يعلم ظاهر الأشياء و باطنها فلا يخفى عليه ظاهر لظهوره و لا باطن لبطونه، و بحكمته يتقن تدبير الخليقه و يميز الواجب من الجزاء كما ينبغى فلا يظلم و لا يجازف، و بخبرته لا يفوت عنه دقيق لدقته و لا جليل لجلالته.

فهذه الأسماء و النعوت تبين بأتم البيان أن الجميع محشورون إليه و أن هداه هو الهدى و دين الفطره الذى أمر به هو الدين الحق فإنه تعالى خلق العالم لغايه مطلوبه أرادها منه و هو الرجوع إليه، و إذا كان يريد لها فسيقول لها كن فيكون لأن قوله حق لا مرد له، و يظهر اليوم أن الملك له لا سلطنه لشيء غيره على شيء، و عند ذلك يتميز بتمييزه من أطاعه ممن عصاه لأنه يعلم كل غيب و شهاده عن حكمه و خبره (١).

[سوره الأنعام (٦): الآيات ٧٤ الى ٨٣]

إشارة

وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَضْيَانًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٧٤) وَ كَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥) فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضِ حَنِيفًا وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩) وَ حَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَ تُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَ قَدْ هَدَانِ وَ لَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَ فَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠) وَ كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَ لَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَآئِيَ الْفَرِيقِينَ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢) وَ تِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)

ص: ٣٣٩

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَرَزَّرَ الْقَرَاءَاتِ السَّبْعِ فِي آزَرَ بِالْفَتْحِ فَيَكُونُ عَطْفٌ بِيَانٍ أَوْ بَدَلًا مِنْ أَبِيهِ وَفِي بَعْضِ الْقَرَاءَاتِ «آزَرَ» بِالضَّمِّ وَظَاهِرُهُ أَنَّهُ مَنَادَى مَرْفُوعٌ بِالنِّدَاءِ، وَالتَّقْدِيرُ: يَا آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً، وَقَدْ عُدَّ مِنَ الْقَرَاءَاتِ «أُزْرًا تَتَّخِذُ» مَفْتَحًا بِهِمْزَةً الِاسْتِفْهَامِ، وَبَعْدَهُ «أُزْرًا» بِالنَّصْبِ مَصْدَرٌ أَزَرَ يَأْزُرُ بِمَعْنَى قَوَى وَالمَعْنَى: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا لِلتَّقْوَى وَالِاعْتِضَادِ.

وَقَدْ اخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى الْقَرَاءَةِ الْأُولَى الْمَشْهُورَةِ وَالثَّانِيَةِ الشَّاذِهِ فِي «آزَرَ» أَنَّهُ اسْمٌ عَلَمٌ لِأَبِيهِ أَوْ لِقَبٍّ أُرِيدَ بِمَعْنَاهِ الْمَدْحِ أَوْ الذَّمِّ بِمَعْنَى الْمُعْتَضِدِ أَوْ بِمَعْنَى الْأَعْرَجِ أَوْ الْمَعْوَجِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ وَ مَنْشَأُ ذَلِكَ مَا وَرَدَ فِي عَدَّةٍ مِنْ رَوَايَاتٍ أَنَّ اسْمَ أَبِيهِ «تَارِحٌ» بِالْحَاءِ الْمَهْمَلَةِ أَوْ الْمَعْجَمَةِ وَيُؤَيِّدُهُ مَا ضَبَطَهُ التَّارِيخُ مِنْ اسْمِ أَبِيهِ، وَمَا وَقَعَ فِي التَّوْرَةِ الْمَوْجُودَةَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ابْنُ تَارِحٍ.

كَمَا اخْتَلَفُوا أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَبِ هُوَ الْوَالِدُ أَوْ الْعَمُّ أَوْ الْجَدُّ الْأُمِّيُّ أَوْ الْكَبِيرُ الْمَطَاعُ وَ مَنْشَأُ ذَلِكَ أَيْضًا اخْتِلَافُ الرِّوَايَاتِ فَمِنْهَا مَا يَتَضَمَّنُ أَنَّهُ كَانَ وَالِدَهُ وَأَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ سَيَشْفَعُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لَكِنْ لَا يَشْفَعُ بَلْ يَمَسِّخُهُ اللَّهُ ضَبْعًا مَتَّنًا فَيَتَبَرَأُ مِنْهُ إِبْرَاهِيمُ، وَمِنْهَا مَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ وَالِدَهُ، وَأَنَّ وَالِدَهُ كَانَ مُوَحَّدًا غَيْرَ مُشْرِكٍ، وَمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ آبَاءَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كَانُوا جَمِيعًا مُوَحَّدِينَ غَيْرَ مُشْرِكِينَ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الرِّوَايَاتِ، وَقَدْ اخْتَلَفَتْ فِي سَائِرِ مَا قَصَّ مِنْ أَمْرِ إِبْرَاهِيمَ اخْتِلَافًا عَجِيبًا حَتَّى اشْتَمَلَ بَعْضُهَا عَلَى نِظَائِرٍ مَا يَنْسَبُ إِلَيْهِ الْعَهْدُ الْعَتِيقُ مِمَّا تَنْزَهَ عَنْهُ

قوله تعالى: أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ قال الراغب في المفردات: الصنم جثه متخذه من فضه أو نحاس أو خشب كانوا يعبدونها متقربين به الى الله تعالى و جمعه أصنام قال الله تعالى: أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً، لأكيدهن أصنامكم، انتهى، و ما ذكره من اتخاذه من فضه أو نحاس أو خشب إنما هو من باب المثال لا ينحصر فيه اتخاذاها بل كان يتخذ من كل ما يمكن أن يمثل به تمثال من أقسام الفلزات و الحجاره و غيرها، و قد روى أن بنى حنيفه من اليمامه كانوا قد اتخذوا صنما من أقط، و ربما كانوا يتخذونه من الطين و ربما كان صوره مصوره.

و كيف كان فقد كانت الأصنام ربما يمثل بها موضوع اعتقادي غير محسوس كإله السماء و الأرض و إله العدل، و ربما يمثل بها موضوع محسوس كصنم الشمس و صنم القمر، و قد كانت من النوعين جميعا أصنام لقوم ابراهيم عليه السلام على ما تؤيده الآثار المكشوفه منهم فى خرائب بابل و قد كانوا يعبدونها تقربا بها الى أربابها، و بأربابها الى الله سبحانه، و هذا انموذج بارز من سفه أحلام البشر أن يخضع أعلى حد الخضوع- و هو خضوع العبد للرب- لمثال مثل به موضوعا يستعظم أمره و يعظمه، و حقيقته منتهى درجه خضوع المصنوع المربوب لصانعه من صانع لمصنوع نفسه كان الواحد منهم يأخذ خشبه فينحت بيده منه صنما ثم ينصبه فيعبده و يتذلل له و يخضع و لذلك جىء بلفظه الأصنام فى قوله المحكى: «أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً» نكره ليدل على هوان أمرها و حقارتها من جهه أنها مصنوعه لهم مخلوقه بأيديهم كما يشير إليه قوله عليه السلام لقومه فيما حكى الله: أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجُونَ (الصافات ٩٥) و من جهه أنها فاقده لأظهر صفات الربوبيه و هو العلم و القدره كما فى قوله لابييه: إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا

يُنْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً (مريم ٤٢).

فقوله: «أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا» الخ؛ معناه: أ تتخذ أصناما لا خطر في أمرها آلهه و الإله هو الذى فى أمره خطر عظيم إنى أراك و قومك فى ضلال مبين، و كيف لا يظهر هذا الضلال و هو عباده و تذلل عبودى من صانع فيه آثار العلم و القدره لمصنوعه الذى يفقد العلم و القدره.

و الذى تشتمل عليه الآيه أعنى قوله: «أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً» الخ؛ من الحجاج و إن كان بمنزله التلخيص لعدده احتجاجات واجه بها ابراهيم عليه السلام أباه و قومه على ما حكى تفصيلها فى عدده مواضع من القرآن الكريم إلا أنه أول ما حاج به أباه و قومه فإن الذى حكاه الله سبحانه من محاجته هو حجاجه أباه و حجاجه قومه فى أمر الأصنام و حجاجهم فى ربوبيه الكوكب و القمر و الشمس و حجاجه الملك.

أما حجاجه فى ربوبيه الكوكب و القمر و الشمس فالآيات داله على كونه بعد الحجاج فى أمر الأصنام، و الاعتبار و التدبير يعطى أن يكون حجاجه الملك بعد ما ظهر أمره و شاع مخالفته لدين الوثنيه و الصابئه و كسر الأصنام، و أن يكون مبدأ أمره مخالفته أباه فى دينه و هو معه و عنده قبل أن يواجه الناس و يخالفهم فى نحلتهم فقد كان أول ما حاج به فى التوحيد هو ما حاج به أباه و قومه فى أمر الأصنام.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلِكًا سَمًا وَأَتٍ وَ الْمَأْرُضِ الْخ؛ ظاهر السياق أن تكون الإشاره بقوله: «كَذَلِكَ» الى ما تضمنته الآيه السابقه: «وَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزرَ أ تَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنى أراك» الخ؛ أنه عليه السلام ارى الحق فى ذلك، فالمعنى: على هذا المثل من الإراءه نرى ابراهيم ملك السماوات و الأرض.

و بمعونه هذه الإشاره و دلالة قوله فى الآيه التاليه: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ» الداله على ارتباط ما بعده بما قبله يظهر أن قوله: «نُرَى» لحكاية الحال الماضيه كقوله تعالى: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ (القصص ٥).

فالمعنى: أننا أرينا إبراهيم ملكوت السماوات والأرض فبعثه ذلك أن حاج أباه وقومه في أمر الأصنام وكشف له ضلالهم، وكنا نمدّه بهذه العناية والموهبه وهى إراءه الملكوت وكان على هذه الحال حتى جنّ عليه الليل ورأى كوكبا.

وبذلك يظهر أن ما يتراءى من بعضهم: أن قوله: «وَكَذَلِكَ نُرى» الخ؛ كالمعتزضه لا يرتبط بما قبله ولا بما بعده، وكذا قول بعضهم: إن إراءه الملكوت أول ما ظهر من أمرها فى إبراهيم عليه السلام أنه لما جنّ عليه الليل رأى كوكبا، الخ؛ فاسد لا ينبغى أن يصار إليه.

وأما ملكوت السماوات والأرض فالملكوت هو الملك مصدر كالتاغوت والجبروت وإن كان أكد من حيث المعنى بالنسبه الى الملك كالتاغوت والجبروت بالنسبه الى الطغيان والجبر أو الجبران.

قوله تعالى: «وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُؤَقِّنِينَ اللام للتعليل، والجمله معطوفه على أخرى محذوفه والتقدير: ليكون كذا وكذا وليكون من الموقنين.

و اليقين هو العلم الذى لا يشوبه شك بوجه من الوجوه، ولعل المراد به ان يكون على يقين بآيات الله على حد ما فى قوله: «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّه يُهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (السجده ٢٤)» و ينتج ذلك اليقين بأسماء الله الحسنى وصفاته العليا.

وفى معنى ذلك ما أنزله فى خصوص النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال: «سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْآيَاتِنَا (الإسراء ١)» وقال: «مِمَّا زَاغَ الْبَصِيرُ وَمِمَّا طَغَى، لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (النجم ١٨)» وأما اليقين بذاته المتعاليه فالقرآن يجعله تعالى ان يتعلق به شك أو يحيط به علم وإنما يسلمه تسليما.

وقد ذكر فى كلامه تعالى من خواص العلم اليقيني بآياته تعالى انكشاف ما وراء ستر الحس من حقائق الكون على ما يشاء الله تعالى كما فى قوله: «كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ، لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (التكاثر ٦)» وقوله: «كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي عَلِّيْنِ، وَمَا أَذْرَاكَ مَا

عَلِيُونَ، كِتَابٌ مَرْقُومٌ، يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ (المطففين ٢١).

قوله تعالى: فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قال الراغب في المفردات: أصل الجن (بفتح الجيم) ستر الشيء عن الحاسه يقال: جنه الليل و أجنه و جن عليه: فجنه ستره، و أجنه جعل له ما يجنه كقولك: قبرتة و أقبرته و سقيته و أسقيته، و جن عليه كذا ستر عليه قال عز و جل: فلما جنّ عليه الليل رأى كوكبا، انتهى.

فجن الليل إسداله الظلام لا مجرد ما يحصل بغروب الشمس.

و قوله: «فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ» تفرّج على ما تقدم من نفيه ألوهية الأصنام بما يرتبطان بقوله: «وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» و محصل المعنى على ذلك أننا كنا نريه الملكوت من الأشياء فأبطل الوهية الأصنام إذ ذاك، و دامت عليه الحال فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال كذا و كذا.

و قوله: رَأَى كَوْكَبًا كأن تنكير الكوكب إنما هو لنكته راجعه الى مرحله الإخبار و التحدث فلا غرض في الكلام يتعلق بتعيين هذا الكوكب و أنه أي كوكب كان من السيارات أو الثوابت لأن الذي أخذه في الحجاج يجري في أي كوكب من الكواكب يطلع و يغرب لا أن إبراهيم عليه السلام أشار الى كوكب ما من الكواكب من غير ان يمتاز بأى مميز مفروض: أما أولا فلأن اللفظ لا- يساعده فلا- يقال لمن أشار الى كوكب بين كواكب لا تحصى كثره فقال: هذا ربي: إنه رأى كوكبا قال هذا ربي، و أما ثانيا فلأن ظاهر الآيات أنه كان هناك قوم يعبدون الكوكب الذي أشار اليه و قال فيه ما قال، و الصابئون ما كانوا يعبدون أي كوكب و لا يحترمون إلا السيارات.

و قوله تعالى: قَالَ هَذَا رَبِّي المراد بالرب هو مالك الأشياء المربوبين، المدبّر لأمرهم لا الذي فطر السماوات و الأرض و أوجد كل شيء بعد ما لم يكن موجودا فإنه الله سبحانه الذي ليس بجسم و لا جسماني و لا يحويه مكان و لا يقع عليه إشاره، و الذي يظهر مما

حكى من كلام إبراهيم مع قومه فى أمر الأصنام ظهوراً لا- شك فيه أنه كان على بينه من ربه و له من العلم بالله و آياته ما لا يخفى عليه معه أن الله سبحانه أنزه ساحه من التجسم و التمثل و المحدوديه، قال تعالى حكاية عنه فى محاوره له مع أبيه: يَا أَبَتِ إِنَّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنى أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً الى آخر الآيات (مريم ٤٣).

قوله تعالى: فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْعَافِلِينَ الأفول الغروب و فيه إبطال ربوبيه الكوكب بعروض صفة الأفول له فإن الكوكب الغارب ينقطع بغروبه ممن طلع عليه و لا يستقيم تدبير كوني مع الانقطاع.

على ان الربوبيه و المربوبيه بارتباط حقيقى بين الرب و المربوب و هو يؤدى الى حب المربوب لربه لإنجذابه التكويني إليه و تبعيته له، و لا- معنى لحب ما يفنى و يتغير عن جماله الذى كان الحب لأجله، و ما يشاهد من ان الانسان يحب كثيرا الجمال المعجل و الزينه الدائره فإنما هو لاستغراقه فيه من غير ان يلتفت الى فئائه و زواله فمن الواجب ان يكون الرب ثابت الوجود غير متغير الأحوال كهذه الزخارف المزوّقه التى تحيا و تموت و تثبت و تزول و تطلع و تغرب و تظهر و تخفى و تشب و تشيب و تنضر و تشين، و هذا وجه برهاني و ان كان ربما يتخيل انه بيان خطابى أو شعري فافهم ذلك.

و على أى حال فهو عليه السلام أبطل ربوبيه الكوكب بعروض الأفول له إما بالتكنيه عن البطلان بأنه لا يحبه لأفوله لأن المربوبيه و العبوديه متقومه بالحب فليس يسع من لا يحب شيئاً أن يعبده و قد ورد فى المروى عن الصادق عليه السلام: «هل الدين إلا الحب»؟ و قد بينا ذلك فيما تقدم.

و إما لكون الحجه متقومه بعدم الحب و إنما ذكر الأفول ليوجه به عدم حبه له المنافى للربوبيه لان الربوبيه و الالوهيه تلازمان المحبوبيه فما لا- يتعلق به الحب الغريزى الفطرى لفقدانه الجمال الباقى الثابت لا يستحق الربوبيه، و هذا الوجه هو الظاهر يتكئ عليه سياق الاحتجاج فى الآيه.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ البزوغ هو الطلوع تقدم الكلام في دلاله قوله: «فَلَمَّا رَأَى» الخ؛ على اتصال القضية بما قبلها، وقوله:

«هذا رَبِّي» على سبيل الافتراض أو المجازاة و المماشاه و التسليم نظير ما تقدم في الآيه السابقه.

و أما قوله بعد أفول القمر: لَيْتَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فهو موضوع وضع الكنايه فهو عليه السّلام أبطل ربوبيه الكوكب بما يعم كل غارب و لما غرب القمر ظهر عندئذ رأيه في أمر ربوبيته بما كان قد قاله قبل ذلك في الكوكب «لَا أُحِبُّ الْأَفْلِينَ» فقوله: «لَيْتَ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي» الخ؛ إشاره الى ان الوضع الذى ذكره فى القمر بقوله: «هذا رَبِّي» كان ضلالا لو دام و أصرّ عليه كان أحد اولئك الضالين القائلين بربوبيته و الوجه فى كونه ضلالا ما قاله فى الكوكب حيث عبّر بوصف لا يختص به بل يصدق فى مورده و كل مورد يشابهه.

قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ الْكَلَامِ فى دلاله اللفظ على الاتصال بما قبله لمكان قوله: «فَلَمَّا» و كون قوله: «هذا رَبِّي» مسوقا للافتراض أو التسليم كما تقدم فى الآيه السابقه.

و قد كان تكرر قوله: «هذا رَبِّي» فى القمر لما رآه بازغا بعد ما رأى الكوكب، و لذلك ضم قوله: «هذا أَكْبَرُ» الى قوله: «هذا رَبِّي» فى الشمس فى المره الثالثه ليكون بمنزله الاعتذار للعود الى فرض الربويه لها مع تبين خطاء افتراضه مره بعد مره.

و قد تقدمت الإشاره الى أن إشارته الى الشمس بلفظه «هَذَا» تشعر بأنه عليه السّلام ما كان يعرف من الشمس ما يعرفه أحدنا أنه جرم سماوى يطلع و يغرب بحسب ظاهر الحس فى كل يوم و ليله، و إليها تستند النهار و الليل و الفصول الأربعة السنويه الى غير ذلك من نعوتها.

فإن الإتيان فى الإشاره بلفظ المذكور هو الذى يستريح إليه من لا يميّز المشار إليه فى نوعه كما

تقول فيمن لا يح لك شبهه و أنت لا- تدرى أرجل أم امرأه: من هذا؟ ونظيره ما يقال في شيخ لا يدرى أ من أولى العقل هو أولا- ما هذا؟ فلعله إنما كان ذلك من إبراهيم عليه السلام أول ما خرج من مخنفى أخفى فيه الى أبيه و قومه، و لم يكن عهد مشاهد الدنيا الخارجه و المجتمع البشرى فرأى جرما هو كوكب و جرما هو القمر و جرما هو الشمس، و كلما شاهد واحدا منها- و لم يكن يشاهد إلا جرما مضيئا لامعا- قال: هذا ربي، على سبيل عدم المعرفة بحاله معرفه تامه كما سمعت.

و يؤيده بعض التأييد قوله: فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَإِنْ فِيهِ إِشْعَارًا بِأَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَكَثَ بَانِيًا عَلَى كَوْنِ الْكُوكَبِ رَبًّا حَتَّى شَاهَدَ غُرُوبَهُ فَحَكَمَ بِأَنَّ الْفُرْضَ بَاطِلٌ وَ أَنَّهُ لَيْسَ بِرَبِّ، وَ لَوْ كَانَ عَالِمًا بِأَنَّهُ سَيُغْرَبُ أَبْطَلَ رُبُوبِيَّتَهُ مُقَارِنًا لِفُرْضِ رُبُوبِيَّتِهِ كَمَا فَعَلَ ذَلِكَ فِي أَمْرِ الْأَصْنَامِ عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ لِأَبِيهِ: «أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَ قَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» وَ قَوْلُهُ أَيْضًا: «يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَ لَا يُبْصِرُ وَ لَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا» .

و إن أمكن أن يقال: إنه أراد بتأخير قوله: «لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ» الى أن يأفل ان يحاجهم بما وقع عليه الحس كما أراد بما فعل بالأصنام حيث جعلهم جذاذا إلا كبيرا لهم أن يريهم عجز الأصنام و كونها أجسادا ميتة لا تدفع عن أنفسها الضر و الشر (1).

قوله تعالى: إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ ذَكَرَ الرَّاْغِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ: أَنْ أَصْلَ الْفَطْرِ الشَّقُّ طَوْلًا يُقَالُ: فَطَرَ فُلَانٌ كَذَا فَطَرًا وَ أَفْطَرَ هُوَ فَطُورًا وَ انْفَطَرَ انْفِطَارًا قَالَ: هَلْ تَرَى مِنْ فَطُورِ أَى اخْتِلَالٍ وَ وَهَى فِيهِ، وَ ذَلِكَ قَدْ يَكُونُ عَلَى سَبِيلِ الْفَسَادِ، وَ قَدْ يَكُونُ عَلَى سَبِيلِ الصَّلَاحِ قَالَ: السَّمَاءُ مَنْفَطَرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا.

ص: ٣٤٨

١ - ١). الانعام ٧٤-٨٣: بحث تفسيري في: تذكير الاشارة في قوله «هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ»؛ معنى قول ابراهيم عليه السلام «لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ»؛ احتجاج في رد عقايد المشركين.

و فطرت الشاه حلبتها بإصبعين، و فطرت العجين اذا عجنته فخيزته من وقته، و منه الفطره، و فطر الله الخلق و هو إيجاد الشىء و إبداعه على هيئته مترشحاً لفعل من الأفعال فقوله: فطره الله التى فطر الناس عليها إشاره منه تعالى الى ما فطر أى أبداع و ركز فى الناس من معرفته تعالى، و فطره الله هى ما ركز فيه من قوته على معرفه الإيمان و هو المشار إليه بقوله:

و لئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله، انتهى. و ذكر أيضاً: أن الحنف هو ميل عن الضلال الى الاستقامه و الجنف ميل عن الاستقامه الى الضلال قال: و سمّت العرب كل من حج أو اختتن حنيفاً تنبيهاً على أنه على دين إبراهيم عليه السلام و الأحنف من فى رجله ميل، قيل: سمي بذلك على التفاؤل و قيل: بل استعير للميل المجرد، انتهى.

لما تبرأ عليه السلام من شركهم و شركائهم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ﴾ الخ؛ و قد سلك إليه تدريجاً بإظهار عدم تعلق قلبه بالشريك حيث قال: لا أُحِبُّ الْآفِلِينَ ثم الإيمان الى كون عباده الشريك ضلالاً حيث قال: ﴿لَيْسَ لَكَ يَهْدِينِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ﴾ ثم التبرى الصريح من ذلك بقوله: ﴿يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ رجع الى توحيد التام فى الربوبية، و هو إثبات الربوبية و المعبودية للذى فطر السماوات و الأرض، و نفى الشرك عن نفسه فقال:

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا﴾ .

فتوجيه الوجه كناية عن الإقبال الى الله سبحانه بالعباده فإن لازلزم العبودية و الربوبية أن يتعلق العبد المربوب بربه فى قوته و إرادته، و يدعوه و يرجع إليه فى جمع أعماله، و لا يكون دعاء و لا رجوع إلا بتوجيه الوجه و الإقبال إليه فكنتى بتوجيه الوجه عن العباده التى هى دعاء و رجوع.

و ذكر ربه و هو الله سبحانه الذى وجه وجهه إليه، بنعته الذى يخصه بلا نزاع فيه و هو فطر السماوات و الأرض، و جاء بالموصول و الصله ليبدل على العهد فلا يشتبه الأمر على أحد منهم فقال: للذى فطر السماوات و الأرض أى إني أقبلت بعبادتي على من ينتهى إليه إيجاد كل شىء

و إبداعه، وهو الذى يشتهه و يشتهونه فوق الجميع.

ثم نفى غيره مما يدعونه شريكا بقوله: «حَنِيفًا» أى مائلا إليه عن غيره نافيا للشريك عنه، و أكده بقوله: «وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ» فأفاد مجموع قوله: «إِنِّي وَجَّهْتُ» الخ؛ إثبات المعبودية لله تعالى و نفى الشريك عنه قريبا مما تفيد الكلمه الطيبه: لا إله إلا الله.

و اللام فى قوله: «لِلَّذِي» للغايه و تفيد معنى الی، و كثيرا ما تستعمل فى الغايه اللام كما تستعمل «الى» قال: أَسَلِمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ (البقره ١١٢/١) وَ مَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ (لقمان ٢٢/١).

و فى تخصيص فطر السماوات و الأرض من بين صفاته تعالى الخاصه و كذا من بين الألفاظ الداله على الخلقه كالبارى و الخالق و البديع إشاره الى ما يؤثره عليه السلام من دين الفطره و قد كرر توصيف هذا الدين فى القرآن الكريم بأنه دين ابراهيم الحنيف و دين الفطره أى الدين الذى بنيت معارفه و شرائعه على خلقه الإنسان و نوع وجوده الذى لا يقبل التبدل و التغير فإن الدين هو الطريقه المسلوكة التى يقصد بها الوصول الى السعاده الحقيقه و السعاده الحقيقه هى الغايه المطلوبه التى يطلبها الشىء حسب تركيب وجوده و تجهزه بوسائل الكمال طلبا خارجيا واقعيا، و حاشا أن يسعد الإنسان أو أى شىء آخر من الخلقه بأمر و لم يتهيأ بحسب خلقته له أو هيئ لخلافه كأن يسعد بترك التغذى أو النكاح أو ترك المعاشره و الاجتماع و قد جهز بخلافها، أو يسعد بالطيران كالطير أو بالحياه فى قعر البحار كالسمك و لم يجهز بما يوافق.

فالدين الحق هو الذى يوافق بنواميسه الفطره و حاشا ساحه الربوبيه أن يهدى الإنسان أو أى مخلوق آخر مكلف بالدين -إن كان- الى غايه سعيده مسعده و لا يوافق الخلقه أو لم يجهز بما يسلك به إليها فإنما المدين عند الله الإسلام و هو الخضوع لله بحسب ما يهدى إليه و يدل عليه صنعه و إيجاده.

قوله تعالى: وَ حَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَ تُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ. قَسَمَ تَعَالَى

حججه عليهم السّلام الى قسمين: أحدهما ما بدأ به هو فحاج الناس، و ثانيهما ما بدأ به الناس فكلّموه به بعد ما تبرأ من آلهتهم، و هذا الذى تعرّض له فى الآيه و ما بعده هو القسم الثانى.

لم يذكر تعالى ما أوردوه عليه من الحججه لكنه لوّح إليه بقوله حكاية عن إبراهيم عليه السّلام:

«وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ» فهو الاحتجاج لوجوب عباده آلهتهم من جهه الخوف و قد تقدم و سيجىء أن الذى بعثهم الى اتخاذ الآلهه و عبادتها أحد أمرين: الخوف من سخطها و قهرها بما لها من السلطه على حوادث العالم الأرضى، أو رجاء البركه و السعاده منها، و أشد الأمرين تأثيراً فى نفوسهم هو الأمر الأول أعنى الخوف و ذلك أن الناس بحسب الطباع يرون ما بأيديهم من النعمه و السعاده الماديه ملك أنفسهم إما مرهون جهدهم فى سلوك سبيل المعاش فى اقتناء الأموال و اكتساب المقام و الجاه أو مما ملّكهم إياه الجد الرفيع أو البخت السعيد كمن ورث مالا من مورّثه أو صادف كنزاً فتملّكه أو ساد قومه برئاسه أبيه.

فطريق الرجاء قليل التأثير فى وجوب العبوديه حتى أن المسلمين مع ما بأيديهم من التعليم الكامل الإلهى يتأثرون من الوعد و البشاره أقل مما يتأثرون من الوعيد و الإنذار، و لذلك بعينه نرى أن القرآن يذكر الإنذار من وظائف الأنبياء أكثر من ذكر التبشير، و كلا الأمرين من وظائفهم و الطرق التى يستعملونها فى الدعوه الدينيه.

و بالجمله اختار قوم إبراهيم عليه السّلام فى محاجتهم إياه عند ما كلّموه فى أمر الآلهه سبيل الخوف فأرهبوه من قهر الآلهه و سخطها و وعظه بسلوك سبيلهم و لزوم طريقهم فى التقرب بالآلهه و رفض القول بربوبيه الله سبحانه، و إثباته فى المقام الذى أثبتوه فيه و هو أنه الذى ينتهى إليه الكل فحسب.

و لما وجد عليه السّلام كلامهم ينحل الى جزءين: الردع عن القول بربوبيه الله سبحانه و التحريض على القول بربوبيه آلهتهم احتج عليهم من الجهتين جميعاً لكن لا غنى للجهه الاولى عن الثانيه كما سيجىء.

و ما أورده فى الاحتجاج على حجاجهم فى الله سبحانه هو قوله: «أَتَحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ» أى إني واقع فى أمر مفروغ عنه و مهتد بهدايه ربي حيث آتاني العلم بما أراني من ملكوت السماوات و الأرض و ألهمني بذلك حجه أنفي بها ربوبيه غيره من الأصنام و الكواكب، و أنى لا استغنى عن رب يدبر أمرى فأنتج لى أنه هو الرب وحده لا شريك له، و اذ هداني إليه فأنا فى غنى عن الإصغاء الى حجتكم و البحث عن الربوبيه ثانيا فإن البحث إنما ينفع الطالب و لا طلب بعد الوصول الى الغايه.

هذا ما يعطيه ظاهر الآيه بالتبادر الى الذهن لكن هناك معنى أدق من ذلك يظهر بالتدبر و هو أن قوله: «وَقَدْ هَدَانِ» استدلال بنفس الهدايه لا- استغناء بالهدايه عن الاستدلال و تقريره: أن الله هداني بما علمنى من الحجه على نفي ربوبيه غيره و إثبات ربوبيته، و نفس هدايته دليل على أنه رب و لا- رب غيره فإن الهدايه الى الرب من جمله التدبير فهى شأن من هو رب، و لو لم يكن الله سبحانه هو ربي لم يكن ليهديني و لا قام بها الى الذى هو الرب لكن الله هو هداني فهو ربي.

و لم يكن لهم أن يقولوا: إن الذى علمك ما علمت و ألهمك الحجه هو بعض آلهتنا لأن الشىء لا يهدى الى ما يضره و يميت ذكره و يفسد أمره فاهتدأوه عليه السلام الى نفي ربوبيتها لا يصح أن ينسب إليها، هذا.

و لكن كان لهم أن يقولوا أو أنهم قالوا: إن ذلك من فعل بعض آلهتنا فعل بك ذلك قهرا و سخطا أبعدك عن القول بربوبيتها و لقنك هذه الحجج لما وجد من فساد رأيك و علّه نفسك نظير ما شافهت به عاد هودا عليه السلام لما دعاهم الى توحيد الله سبحانه و احتج عليهم بأن الله هو الذى يجب أن يرجى و يخاف، و أن آلهتهم لا- تنفع و لا- تضر فردوا عليه بأن بعض آلهتنا اعتراك بسوء قال تعالى فى قصتهم حكايه عن هود عليه السلام: «وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً وَ يَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَ لَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ، قَالُوا يَا هُوْدُ -الى أن

قال- إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنْ أَشْهَدُ اللَّهَ وَ أَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ، مِنْ دُونِهِ فَكَيْدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ (هود ٥٥).

فقوله عليه السلام: «وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ الْخ؛ ينفى هذه الشبهة و كما أنه ينفى هذه الشبهة فإنه حجه تامه تنفى ربوبيه شركائهم.

و محصيه: أنكم تدعونني الى القول بربوبيه شركائكم و رفض القول بربوبيه ربي بما تخافونني من ان تمسني شركاؤكم بسوء، و ترهبونني بإلقاء الشبهة فيما اهدت به، و إني لا أخاف ما تشركون به لأنها جميعا مخلوقات مدبره لا تملك نفعاً و لا ضراً و اذ لم اخفها سقطت حجتكم و ارتفعت شبهتكم.

و لو كنت خفتها لم يكن الخوف الحاصل في نفسي من صنع شركائكم لأنها لا تقدر على شيء بل كان من صنع ربي و كان هو الذي شاء ان اخاف شركاءكم ففختها فكان هذا الخوف دليلاً آخر على ربوبيته و آيه أخرى من آيات توحيده يوجب إخلاص العباد له لا دليلاً على ربوبيه شركائكم و حجه توجب عبادتها.

و الدليل على ان ذلك من ربي أنه وسع كل شيء علماً فهو يعلم كل ما يحدث و يجري من خير و شر في مملكته التي أوجدها لغايات صحيحه متقنه، و كيف يمكن ان يعلم في ملكه شيء ينفع أو يضر فيسكت و لا يستقبله بأحد امرين: إما المنع أو الإذن؟

فلو حصل في نفسي شيء من الخوف لكان بمشيئه من الله و اذن على ما يليق بساحه قدسه، و كان ذلك من التدبير الدال على ربوبيته و نفى ربوبيه غيره أ فلا تتذكرون و ترجعون الى ما تدركونه بعقولكم و تهدي إليه فطرتكم.

فهذا وجه في تقرير الحجه المودعه في قوله: «وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ» و على ذلك فقوله: «وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ» كالمتمم للحجه في قوله: «أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ» و هو مع ذلك حجه تامه في نفسه

لإبطال ربوبيه شركائهم بعدم الخوف منها، قوله: «إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا» كالكلام في الحججه على تقدير التسليم أى تحتجون على وجوب عبادتها بالخوف ولا خوف فى نفسى، و لو فرض خوف لكان دليلا على ربوبيه ربي لا على ربوبيه شركائكم فإنه عن مشيه من ربي، و قوله:

وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا بَيَانٌ وَ تَعْلِيلٌ لِكُونَ الْخَوْفِ الْمَفْرُوضِ مُسْتَنَدًا إِلَى مَشِيهِ رَبِّهِ فَإِنْ فَاطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَجْهَلُ مَا يَقَعُ فِي مَلِكِهِ فَلَا يَقَعُ إِلَّا بِإِذْنِ مَنْهُ فَهُوَ الَّذِي يَدْبُرُ أَمْرَهُ وَيَقُومُ بِرَبُوبِيَّتِهِ، وَقَوْلُهُ: «أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ» اسْتِفْهَامٌ تَوْبِيخِيٌّ وَإِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ الْحِجْجَةَ فَطْرِيَّةً، هَذَا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَ لَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مِنَ السَّمَاءِ، ثُمَّ كَرَّرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَيْهِمْ بِحِجْجَةٍ أُخْرَى تَثْبِتُ الْمُنَاقَضَةَ بَيْنَ قَوْلِهِمْ وَ فَعْلِهِمْ وَ بَعْبَارِهِ أُخْرَى: حَالِهِمْ يَكْذِبُ مَقَالَهُمْ وَ مَحْضِيْلَهُ أَنْكُمْ تَأْمُرُونَنِي أَنْ أَخَافُ مَا لَا يَجِبُ أَنْ يَخَافَ مِنْهُ، وَ أَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَخَافُونَ مِنْ يَجِبُ أَنْ يَخَافَ مِنْهُ فَأَنَا أَوْلَى بِالْأَمْنِ مِنْكُمْ إِنْ عَصَيْتُمْكُمْ وَ لَمْ آتُمْرُ بِأَمْرِكُمْ.

أَمَا كُونَ مَا تَأْمُرُونَنِي بِخَوْفِهِ لَا يَجِبُ أَنْ يَخَافَ مِنْهُ فَلَأَنَّ الْأَصْنَامَ وَ أَرْبَابَهَا لَا دَلِيلَ عَلَى كُونِهَا مُسْتَقْلَةً بِالضَّرِّ وَ النِّفْعِ حَتَّى تَوْجِبَ الْخَوْفَ مِنْهَا، وَ أَمَا كُونِكُمْ لَا تَخَافُونَ مِنْ يَجِبُ أَنْ يَخَافَ مِنْهُ فَإِنَّكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَثْبَتَ لَكُمْ سُبْحَانَ شُرَكَاءِ فِي الرَّبُوبِيَّةِ وَ لَمْ يُنَزَّلِ اللَّهُ فِي ذَلِكَ عَلَيْكُمْ بَرَهَانًا يُمْكِنُ أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَيْهِ فَإِنَّ الصَّنْعَ وَ الْإِبْجَادَ لِلَّهِ سُبْحَانَ فَلَهُ الْمُلْكُ وَ لَهُ الْحُكْمُ فَلَوْ كَانَ اتَّخَذَ بَعْضَ مَخْلُوقَاتِهِ شَرِيكًا لِنَفْسِهِ يَوْجِبُ لَنَا بِذَلِكَ عِبَادَةَ شَرِيكِهِ كَانَ إِلَيْهِ لَا إِلَى غَيْرِهِ أَنْ يَبَيِّنَ لَنَا ذَلِكَ وَ يَكْشِفَ عَنَّا وَجْهَ الْحَقِيقَةِ فِيهِ، وَ الطَّرِيقَ فِيهِ أَنْ يَقَارَنَهُ بِعَلَائِمِ وَ آيَاتِ تَدُلُّ عَلَى أَنَّ لَهُ شَرِكَهَ فِي كَذَا وَ كَذَا، وَ ذَلِكَ إِمَّا وَحِيًّا أَوْ بَرَهَانًا يَتَكَيُّ عَلَى آثَارِ خَارِجِيَّةٍ، وَ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ غَيْرٌ مَوْجُودٌ.

وَ عَلَى هَذَا التَّقْرِيرِ فَقَوْلُهُ تَعَالَى: «مَا أَشْرَكْتُمْ» مُقَيَّدٌ بِحَسَبِ مَا يَسْتَفَادُ مِنَ الْمَقَامِ بِمَا قَيَّدَ بِهِ

قوله: «أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا» و إنما ذكر هذا القيد عند ذكر عدم خوفهم من شركهم لأن الحجة الى ذكره هناك أحوج و هو ظاهر. و قوله: «فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» من تتمه الحجة، و المجموع برهان على مناقضتهم أنفسهم فى دعوته عليه السّلام الى أن يخاف آلهتهم فإنهم يأمرونه بالخوف فيما لا يجب و هم أنفسهم لا يخافون فيما يجب.

و بالبيان السابق يظهر ان وصف شركائهم بأن الله لم ينزل بها عليهم سلطانا افتراض استدعاه نوع الحجة التى وضعت فى الكلام لا- مفهوم له يثبت إمكان ان يأمر الله باتخاذ الشركاء آلهه يعبدون فهو بمنزله قولنا: لا دليل لكم على ما ادّعيتم، فى جواب من يخوفنا من وضوع خرافى يدعى أنه ربما ينفع و يضر، و لنا ان نبدل قولنا ذلك لو اردنا التكلم بلسان التوحيد بقولنا: ما أنزل الله على ذلك دليلا، و الكلام بحسب التحليل المنطقى يؤول الى قياس استثنائى استثنى فيها نقيض المقدم فى الشرطية لإنتاج نقيض التالى نحوا من قولنا: لو كان الله نزل بها عليكم سلطانا يدل على قدرتهم على الضرر لكان اتخاذكم الشركاء خوفا منها فى محله لكنه لم ينزل سلطانا فليس اتخاذكم الشركاء فى محله، و من المعلوم أن لا مفهوم فى هذا القياس فلا حاجة الى القول بأن التقييد بقوله: «لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا» للتهكم، أو للإشارة الى ان هذا وصف لازم لشركائهم على حد قوله تعالى: وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ (المؤمنون ١١٧) الى غير ذلك من التحويلات.

و الباء فى قوله: لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ للمعية أو السببيه و قد كنى عليه السّلام عنهم و عن نفسه بالفريقين و لم يقل: أنا و انتم أو ما يشابه ذلك ليكون أبعد من تحريك الحميه و تهيج العصبية كما قيل، و ليدل على تفرقهما و شقاق بينهما من جهة الاختلاف فى أصل الاصول و أم المعارف الحقيقية بحيث لا يأتلفان بعد ذلك فى شىء.

قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَ هُمْ مُهْتَدُونَ سألهم فى الآيه السابقه فى ضمن ما أقامه من الحجة عنمن هو أحق بالأمن حيث

قال: «فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ» ثم اجابهم عما سألتهم لكون الجواب واضحا لا- يختلف فيه الفريقان المتخاصمان و الجواب الذى هذا شأنه لا- بأس بأن يبادر السائل الى إيراده من غير ان ينتظر المسئول فإن المسئول لا يخالف السائل فى ذلك حتى يخاف منه الرد، وقد حكى الله تعالى اعترافهم بذلك فى قصه كسر الأصنام: قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسِئْلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ، فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ، ثُمَّ نَكِسُوا عَلَىٰ رُؤْسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (الأنبياء ٦٥).

هذا ما يقتضيه سياق الكلام ان تكون الآية من كلام إبراهيم عليه السلام و مقوله لقوله، و أما كونها من كلام قومه و جوابا محكيا عنهم، و كذا كونها من الله سبحانه من باب القضاء بين الطرفين المتخاصمين فما لا يساعد عليه السياق البتة.

و كيف كان فالكلام متضمن تأكيداً قويا من جهة اسنادات متعددة فى جمل اسميه و هى ما فى قوله: «لَهُمُ الْأَمْنُ» جملة اسميه هى خبر لقوله: «أُولَئِكَ» و المجموع جملة اسميه هى خبر لقوله: «الَّذِينَ آمَنُوا» الخ؛ و المجموعه جملة اسميه، و كذلك ما عطف على قوله: «لَهُمُ الْأَمْنُ» من قوله: «وَهُمْ مُهْتَدُونَ» فينتج أنه لا شك فى اختصاص الذين آمنوا و لم يستروا إيمانهم بظلم بالأمن و الاهتداء و لا ريب.

فقوله: «الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ» معناه اشتراط الإيمان فى إعطائه الأمن من كل ذنب و معصيه يفسد أثره بعدم الظلم غير أن هاهنا دقيقه و هى ان الذنب الاختيارى- كما استوفينا البحث عنه فى آخر الجزء السادس من الكتاب- أمر ذو مراتب مختلفه باختلاف الأفهام فمن الظلم ما هو معصيه اختياريه بالنسبه الى قوم و ليس بها عند آخرين. فالواقف فى منشعب طريقى الشرك و التوحيد مثلا و هو الذى يرى أن للعالم صانعا هو الذى فطر أجزائها و شق أرجائها و أمسك أرضها و سمائها، و يرى أنه نفسه و غيره مخلوقون مروبون مدبرون، و ان الحياه الإنسانيه الحقيقه إنما تسعد بالإيمان به و الخضوع له

فالظلم اللائح لهذا الإنسان هو الشرك بالله و الإيمان بغيره بالربوبيه كالأصنام و الكواكب و غيرها على ما يثبتة إبراهيم عليه السلام بقوله: «وَ كَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَ لَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا» فالإيمان الذى يؤثر أثره بالنسبه الى هذا الانسان انما يشترط فى إعطائه الأمن من الشقاء بأن لا يلبسه ظلم الشرك و معصيته.

و من طوى هذه المرحله فأمن بالله وحده فإنه يواجه من الظلم الكبائر من المعاصى كعقوق الوالدين و أكل مال اليتيم و قتل النفس المحترمه و الزنا و شرب الخمر فأيمانه فى تأثيره آثاره الحسنه يشترط باجتناى هذا النوع من الظلم، و قد وعده الله أن يكفر عنه السيئات و المعاصى الصغيره إن اجتنب كبائر ما ينهى عنه، قال تعالى: **إِنْ تَجْتَبِئُوا كِبَائِرَ مَا تَنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ نُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا** (النساء ٣١) و فساد أثر هذا الإيمان هو الشقاء بعذاب هذه المعاصى و إن لم يكن عذابا خالدا غير منقطع الآخر كعذاب الشرك بل منقطعا إما بحلول أجله و إما بشفاعه و نحوها.

و من تزود هذا الزاد من التقوى و حصل شيئا من المعرفة بمقام ربه كان مسئولا باصناف من الظلم تبدو له بحسب درجه معرفته بربه كإتيان المكروهات و ترك المستحبات و التوغل فى المباحات، و فوق ذلك المعاصى فى مستوى الأخلاق الكريمة و الملكات الربانيه و وراء ذلك الذنوب التى تعترض سبيل الحب، و تحف بساط القرب، فالإيمان فى كل من هذه المراتب إنما يؤمن المتلبس به و يدفع عنه الشقاء اذا عرى عن ملابسه الظلم المناسب لتلك المرتبه.

فلقوله تعالى: **«الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بُظْلًا»** إطلاق من حيث الظلم لكنه إطلاق يختلف باختلاف مراتب الإيمان و إذا كان المقام مقام محاجه المشركين انطبق الظلم المنفى على ظلم الشرك فحسب و الأمن الذى يعطيه هذا الإيمان هو الأمن مما يخاف منه من الشقاء المؤبد و العذاب المخلد، و الآيه مع ذلك آيه مستقلة من حيث البيان مع قطع النظر عن خصوصيه

المورد تفيد أن الأمن و الاهتداء إنما يترتب على الإيمان بشرط انتفاء جميع انحاء الظلم الذى يلبسه و يستر أثره بالمعنى الذى تقدم بيانه.

و أما الإيمان المذكور فى الآيه ففيه إطلاق و المراد به الإيمان بالربوبية الصالح للتقيد بما يصلحه أو يفسده ثم اذا قيد بقوله: «و لَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ» أفاد الإيمان بربوبية الله سبحانه و رفض غيره من شركائهم فإن ابراهيم عليه السلام ذكر فيما تحكى عنه الآيه السابقه أن قولهم بربوبية شركائهم و إيمانهم بها مع كونها من خلق الله قول بما لا دليل لهم عليه من جانب الله و لا سلطان و أنهم بإيمانهم بشركائهم يتوقون شرا و يستأمنون شقاء ليس لها أن تدفعها لأنها لا تضر و لا تنفع، و أما هو عليه السلام فقد خاف و آمن بمن هو فاطره و هو المتصرف بالهدايه و المدبر الذى له فى كل أمر إرادته و مشيه لسعه علمه، ثم سألهم: أى الفريقين أحق بالأمن و الناجح بالإيمان بالرب، و لكل من الفريقين إيمان بالرب، و إن اختلفا من جهة الرب، و الذى آمنوا به بين مؤمن برب على ربوبيته دليل، و مؤمن برب لا دليل على ربوبيته بل الدليل على خلافه.

قوله تعالى: «و تِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأِ الْخَيْرِ» فى الإشارة بلفظ البعيد الى الحججه تفخيم و تعظيم لأمرها لكونها حججه قاطعه جاريه على صراط الفطره مأخوذه بمقدماتها منها.

و أما قوله: «نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ» فالدرجات - كما قيل - هى مراقى السلم ثم توسع فيها فاطلق على مراتب الكمال من المعنويات كالعلم و الايمان و الكرامه و الجاه و غير ذلك فرفعه تعالى من يشاء من عباده درجات من الرفع هو تخصيصه بكمالات معنويه و فضائل حقيقه فى الخيرات الكسبيه كالعلم و التقوى و غير الكسبيه كالنبوه و الرساله و الرزق و غيرها.

و الدرجات لكونها نكره فى سياق الايجاب مهمله غير مطلقه غير أن المتيقن من معناها بالنظر الى خصوص المورد هو درجات العلم و الهدايه فقد رفع الله ابراهيم عليه السلام بهدايته و إراءته ملكوت السماوات و الأرض و إبتائه اليقين و الحججه القاطعه، و الجميع من العلم، و قد

قال تعالى فى درجات العلم: يَزِفَعِ اللّٰهُ الَّذِيْنَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِيْنَ أُوْتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ (المجادله ١١).

ثم ختم الآيه بقوله: إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ لتثبيت أن ذلك كله كان بحكمه منه تعالى و علم كما أن الحجج التى آتاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم المذكوره فى السوره قبل هذه الحججه من حكمته و علمه تعالى، و فى الكلام التفات من التكلم الى الغيبه لتطيب قلب النبى صلى الله عليه وآله وسلم و تثبيت المعارف المذكوره فيه (١)(٢).

[سوره الأنعام (٦): الآيات ٨٤ الى ٩٠]

اشاره

وَ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَ نُوْحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤) وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَى وَ عِيسَى وَ إِبْرَاهِيمَ كُلًّا مَنِ الصَّالِحِينَ (٨٥) وَ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطًا وَ كَلَّا- فَضَلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ (٨٦) وَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ ذُرِّيَّتِهِمْ وَ إِخْوَانِهِمْ وَ اجْتَبَيْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٨٧) ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَ لَوْ أَشْرَكُوا لَحِطَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٨٨) أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَ وَ التَّوْبَةَ فَإِنْ يُكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيُشْرِكُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (٨٩) أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ اِقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٩٠)

ص: ٣٥٩

- ١- ١). الانعام ٧٤-٨٣: بحث روائى فى: عصمه الانبياء؛ معنى قول ابراهيم عليه السلام «هَذَا رَبِّي»؛ التوحيد و الشرك.
- ٢- ٢). الانعام ٧٤-٨٣: كلام فى قصه ابراهيم عليه السلام و شخصيته و فيه اباحث مختلفه قرآنيه و اخرى علميه و تاريخيه و غير ذلك «قصه ابراهيم عليه السلام فى القرآن؛ منزله ابراهيم عند الله و موقفه العبودى، ما تقصه التوراه الموجوده فى ابراهيم.

قوله تعالى: وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا إِسْحَاقَ هُوَ ابْنُ إِسْحَاقَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وقوله: «كُلاًّ هَدَيْنَا» قَدَّمَ فِيهِ كُلاًّ لِلدَّلَالَةِ عَلَى أَنَّ الْهَدَايَةَ الْإِلَهِيَّةَ تَعَلَّقَتْ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ الْمَعْدُودِينَ اسْتِقْلَالاً لَا أَنَّهَا تَعَلَّقَتْ بِبَعْضِهِمْ اسْتِقْلَالاً كَأِبْرَاهِيمَ وَبَغِيرِهِ بِتَبَعِهِ، فَهُوَ بِمَنْزِلِهِ أَنْ يُقَالَ: هَدَيْنَا إِبْرَاهِيمَ وَهَدَيْنَا إِسْحَاقَ وَهَدَيْنَا يَعْقُوبَ. كَمَا قِيلَ.

قوله تعالى: وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ فِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ سِلْسِلَةَ الْهَدَايَةِ غَيْرَ مَنْقُوعَةٍ وَلَا مَبْتَدِئَةٍ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بَلْ كَانَتْ الرَّحْمَةُ قَبْلَهُ شَامِلَةً لِنُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

قوله تعالى: وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ - إِلَى قَوْلِهِ - وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ الضَّمِيرُ فِي «ذُرِّيَّتِهِ» رَاجِعٌ إِلَى نُوحٍ ظَاهِراً لِأَنَّهُ الْمَرْجِعُ الْقَرِيبُ لِفِظًا، وَلِأَنَّ فِي الْمَعْدُودِينَ مَنْ لَيْسَ هُوَ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ مِثْلَ لُوطَ وَإِلْيَاسَ، عَلَى مَا قِيلَ.

وَرَبَّمَا قِيلَ: إِنَّ الضَّمِيرَ يَعُودُ إِلَى إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَقَدْ ذَكَرَ لُوطَ وَإِلْيَاسَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ مِنَ الذَّرِيَّةِ تَغْلِيْباً قَالَ: وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ (العنكبوت ٢٧) أَوْ أَنَّ الْمُرَادَ بِالذَّرِيَّةِ هُمُ السَّبْتَةُ الْمَذْكُورُونَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ دُونَ الْبَاقِينَ، وَأَمَّا قَوْلُهُ: «وَزَكَرِيَّا» الْخ؛ وَقَوْلُهُ: «وَإِسْمَاعِيلَ» الْخ؛ فَمَعْطُوفَانِ عَلَى قَوْلِهِ: «وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ» عَلَى قَوْلِهِ: «دَاوُدَ» الْخ؛ وَهُوَ بَعِيدٌ مِنَ السِّيَاقِ.

و أما قوله: «وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ» فالظاهر أن المراد بهذا الجزاء هو الهدايه الإلهيه المذكوره، و إليها الإشاره بقوله: «كَذَلِكَ» و الإتيان بلفظ الإشاره البعيده لتفخيم أمر هذه الهدايه فهو نظير قوله: كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ (الرعد ١٧) و المعنى نجزي المحسنين على هذا المثال.

قوله تعالى: وَ زَكَرِيَّا وَ يَحْيَىٰ وَ عِيسَىٰ وَ إِلْيَاسَ كُلُّ مِّنَ الصَّالِحِينَ تقدم الكلام فى معنى الإحسان و الصلاح فيما سلف من المباحث و فى ذكر عيسى بين المذكورين من ذريه نوح عليهما السلام و هو إنما يتصل به من جهة أمه مريم دلالة واضحه على أن القرآن الكريم يعتبر أولاد البنات و ذريتهن أولادا و ذريه حقيقه، و قد تقدم استفاده نظير ذلك من آيه الإرث و آيه محرمات النكاح، و للكلام تتمه ستوافيك فى البحث الروائى الآتى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: وَ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ يُونُسَ وَ لُوطًا وَ كَلَّا فَضَّلْنَا عَلَيَّ الْعَالَمِينَ الظاهر أن المراد بإسماعيل هو ابن ابراهيم أخو إسحاق عليهم السلام و قوله: «الْيَسَعَ» بفتحتين كأسد و قرئ «اللسيسع» كالضيعم أحد أنبياء بنى إسرائيل ذكر الله اسمه مع إسماعيل عليهما السلام كما فى قوله: وَ أَذْكَرَ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَ ذَا الْكِفْلِ وَ كَلُّ مِّنَ الْأَخْيَارِ (ص ٤٨) و لم يذكر شيئاً من قصته فى كلامه.

و أما قوله: وَ كَلَّا فَضَّلْنَا عَلَيَّ الْعَالَمِينَ فالعالم هو الجماعه من الناس كعالم العرب و عالم العجم و عالم الروم، و معنى تفضيلهم على العالمين تقديمهم بحسب المنزله على عالمى زمانهم لما أن الهدايه الخاصه الإلهيه أخذتهم بلا واسطه، و أما غيرهم فإنما تشملهم رحمه الهدايه بواسطتهم، و يمكن أن يكون المراد تفضيلهم بما أنهم طائفه مهديه بالهدايه الفطريه الإلهيه من غير واسطه على جميع العالمين من الناس سواء عاصروهم أو لم يعاصروهم فإن الهدايه الإلهيه من غير واسطه نعمه يتقدم بها من تلّبس بها على من لم يتلّبس، و قد شملت المذكورين من الأنبياء و من لحق بهم من آبائهم و ذرياتهم و إخوانهم فالمجتمع الحاصل منهم

مفضل على غيرهم جميعا بتفضيل إلهى.

و بالجمله الملاك فى أمر هذا التفضيل هو التلبس بتلك الهدايه الإلهيه التى لا واسطه فيها، و الأنبياء فضلوا على غيرهم بسبب التلبس بها فلو فرض تلبس من غيرهم بهذه الهدايه كالملائكه كما ربما يظهر من كلامه تعالى كالأئمه على ما تقدم فى البحث عن قوله تعالى: وَ إِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ (البقره ١٢٤) فى الجزء الأول من الكتاب فلا يفضل عليهم الأنبياء عليهم السلام من هذه الحيشه و إن أمكن أن يفضلوا عليهم من جهه اخرى غير جهه الهدايه.

قوله تعالى: وَ مِنْ آبَائِهِمْ وَ ذُرِّيَّتِهِمْ وَ إِخْوَانِهِمْ هذا التعبير يؤيد ما قدمناه أن المراد بيان اتصال سلسله الهدايه حيث أضاف الباقين الى المذكورين بأنهم متصلون بهم بابؤه أو بنؤه أو اخؤه.

قوله تعالى: وَ اجْتَبَيْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ قال الراغب فى المفردات: يقال: جيت الماء فى الحوض جمعته و الحوض الجامع له جايه و جمعها «جواب» قال الله تعالى: و جفان كالجواب، و منه استعير جيت الخراج جبايه و منه قوله تعالى: يُجِبِي إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ، و الاجتباء الجمع على طريق الاصطفاء قال عز و جل: فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ .

قال: و اجتباء الله العبد تخصيصه إياه بفيض إلهى يتحصل له منه أنواع من النعم بلا سعى من العبد، و ذلك للأنبياء و بعض ما يقارنهم من الصديقين و الشهداء كما قال تعالى: وَ كَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ، فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَجَعَلَهُ مِنَ الصَّالِحِينَ وَ اجْتَبَيْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ و قوله تعالى: ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَىٰ، و قال عز و جل: يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ، انتهى.

قوله تعالى: ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ الى آخر الآيه؛ يبين تعالى أن الذى ذكره من صفه الهدايه التى هدى بها المذكورين من أنبيائه هو المعرف لهداه الخاص به الذى يهدى به من يشاء من عباده.

فالهدى إنما يكون هدى-حق الهدى-إذا كان من الله سبحانه، والهدى إنما يكون هدى الله إذا أورد المتلبس به صراطا مستقيما اتفق على الوجود فيه أصحاب الهدى و هم الأنبياء المكرمون عليهم السلام، و اتفق أجزاء ذلك الصراط في الدعوه الى كلمه التوحيد و إقامه دعوه الحق و الاتسام بسمه العبوديه و التقوى.

أما الطريق الذى يفرق فيه بين رسل الله فيؤمن فيه بعض و يكفر ببعض أو يفرق فيه بين أحكام الله و شرائعه فيؤخذ فيه ببعض و يترك بعض، و الطرق التى لا-تضمن سعادته حياه المجتمع الإنسانى أو يسوق الى بعض ما ليس فيه السعاده الإنسانيه فتلك هى الطرق التى لا مرضاه فيها لله سبحانه و قد انحرفت فيها عن شريعته الفطره الى مهابط الضلال و مزلق الأهواء، و الاهتداء إليها ليس اهتداء بهدى الله سبحانه.

قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا، أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا (النساء ١٥١) وقال: أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَيَّ أَشَدَّ الْعَذَابِ (البقره ٨٥) وقال:

وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (القصص / ٥٠) يريد أن الطريق الذى فيه اتباع الهوى إنما هو ضلال لا يورد سالكه سعادته الحياه و ليس بهدى الله لأن فيه ظلما و الله سبحانه لم يجعل الظلم و لن يجعله مما يتوسل به الى سعادته و لا أن السعاده تنال بظلم.

و بالجمله هدى الله سبحانه من خاصته أنه لا يشتمل على ضلال و لا يجامع ضلالا بالتأديه إليه، و إنما هو الهدى محضا تتلوه السعاده محضه عطاء غير مجذوذ لكن لا على حد العطايا المعموله فيما بيننا التى ينقطع معها ملك المعطى (بالكسر) عن عطيته و ينتقل الى المعطى (بالفتح) فيحوزه على أى حال سواء شكر أو كفر.

بل هذه العطية الإلهية إنما تقوم على شريطه التوحيد و العبودية فلا كرامه لأحد عليه تعالى و لا أمن له منه الا بالعبودية محضا، و لذلك ذيل الكلام بقوله: «وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» و إنما ذكر الإشراك لأن محط البيان إنما هو التوحيد.

قوله تعالى: «أُولَئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النُّبُوَّةَ الْإِسْهَارَهُ بِاللَّفْظِ الْمَفِيدِ لِلْبَعْدِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى عُلُوِّ شَأْنِهِمْ وَ رَفَعِهِ مَقَامَهُمْ، وَ الْمَرَادُ بِآيَاتِهِمُ الْكِتَابَ وَ غَيْرِهِ إِتْيَاءَ جَمْعِهِمْ ذَلِكَ بِوَصْفِ الْمَجْمُوعِ وَ إِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ لَمْ يَأْتُوا بِبَعْضِ الْمَذْكُورَاتِ كَمَا مَرَّ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ:

«وَ اجْتَبَيْنَاهُمْ وَ هَدَيْنَاهُمْ» فَإِنَّ الْكِتَابَ إِنَّمَا أُوتِيَهُ بَعْضُ الْأَنْبِيَاءِ كَنُوحَ وَ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ.

وَ الْكِتَابَ إِذَا نَسَبَ فِي كَلَامِهِ تَعَالَى إِلَى الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ نَوْعًا مِنَ النَّسْبِ بِإِذْنِ الصَّحْفِ الَّتِي تَشْتَمِلُ عَلَى الشَّرَائِعِ وَ يَقْضَى بِهَا بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ (البقرة ٢١٣)» وَ قَوْلِهِ: «إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ يُحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ - إِلَى أَنْ قَالَ - وَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَ مُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ (المائدة ٤٨)» إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَ الْحُكْمُ هُوَ إِقْدَاءُ النَّسْبِ التَّصَدِيقِيهِ بَيْنَ أَجْزَاءِ الْكَلَامِ كَقَوْلِنَا: فَلَانَ عَالِمًا، وَ إِذَا كَانَ ذَلِكَ فِي الْأُمُورِ الْاجْتِمَاعِيَةِ وَ الْقَضَايَا الْعَمَلِيَةِ الَّتِي تَدُورُ بَيْنَ الْمَجْتَمَعِينَ عَدَدِ نَوْعِ النَّسْبِ حَكْمًا كَمَا تَسْمَى نَفْسَ الْقَضِيَةِ حَكْمًا كَمَا يَقَالُ: يَجِبُ عَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا وَ يَحْرَمَ عَلَيْهِ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا أَوْ يَجُوزَ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ كَذَا أَوْ أَحَبُّ أَوْ أَكْرَهُ أَنْ تَفْعَلَ كَذَا فَتَسْمَى الْوَجُوبَ وَ الْحَرْمَ وَ الْجُوزَ وَ الْإِسْتِحْبَابَ وَ الْكِرَاهَةَ حَكْمًا كَمَا تَسْمَى الْقَضَايَا الْمَشْتَمَلَةَ عَلَيْهَا أَحْكَامًا، وَ لِأَهْلِ الْاجْتِمَاعِ أَحْكَامٌ أُخْرَى نَاشِئَةٌ مِنْ نَسْبٍ أُخْرَى كَالْمَلِكِ وَ الرَّئِيسِ وَ النَّيَابَةِ وَ الْكِفَالَةِ وَ الْوِلَايَةِ وَ غَيْرِ ذَلِكَ.

وَ إِذَا قَصِدَ بِهِ الْمَعْنَى الْمَصْدَرِي أُرِيدَ بِهِ إِجْدَادُ الْحُكْمِ وَ جَعْلُهُ إِذَا بِحَسَبِ التَّشْرِيحِ وَ التَّقْنِينِ كَمَا

يجعل أهل التقنين أحكاماً صالحة ليحجر عليها الناس و يعملوا بها في مسير حياتهم لحفظ نظام مجتمعهم، و إما بحسب التشخيص و النظر كتشخيص القضاء و الحكام في المنازعات و الدعاوى أن المال لفلان و الحق مع فلان و كتشخيص أهل الفتيا في فتاواهم و قد يراد به إنفاذ الحكم كحكم الوالي و الملك على الناس بما يريدان في حوزة الولاية و الملك.

و الظاهر من الحكم في الآيه بقريته ذكر الكتاب معه أن يكون المراد به معنى القضاء فيكون المراد من إيتاء الكتاب و الحكم إعطاء شرائع الدين و القضاء بحسبها بين الناس كما هو ظاهر عده من الآيات كقوله تعالى: **وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ** (البقره ٢١٣) و قوله: **إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا** (المائده ٤٤) و قوله: **لِيَتَحَكَّمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ** (النساء ١٠٥) و قوله:

وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ (الأنبياء ٧٨) و قوله: **يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَ لَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ** (ص ٢٦) الى غير ذلك من الآيات و هي كثيره، و إن كان مثل قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: **رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَ أَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ** (الشعراء ٨٣) لا يأبى بظاهره الحمل على المعنى الأعم.

و أما النبوه فقد تقدم في تفسير قوله: **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ** الآيه (البقره ٢١٣) أن المراد بها التحقق بأنباء الغيب بعنايه خاصه إلهيه و هي الأنباء المتعلقة بما وراء الحس و المحسوس كوحدايته تعالى و الملائكه و اليوم الآخر.

و عد هذه الكرامات الثلاث التي أكرم الله سبحانه بها سلسله الأنبياء عليهم السلام أعنى الكتاب و الحكم و النبوه في سياق الآيات الواصفه لهدها تعالى يدل على أنها من آثار هدايه الله و بها يتم العلم بالله تعالى و آياته فكأنه قيل: تلك الهدايه التي جمعنا عليها الأنبياء عليهم السلام و فضلناهم بها على العالمين هي التي توردهم صراطا مستقيما و تعلمهم الكتاب المشتمل على شرائعه،

و تسددهم و تنصيهم للحكم بين الناس، و تنبئهم أنباء الغيب (١)(٢).

قوله تعالى: فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ الضميران في قوله: «يَكْفُرُ بِهَا» و قوله: «وَكََلْنَا بِهَا» راجعان الى الهدى و يجوز فيه التذكير و التأنيث من جهة أنه هدايه، أو راجعان الى الكتاب و الحكم و النبوه التي هي من آثار الهدايه الالهيه، و لا يخلو أول الوجهين عن بعد، و المشار اليه بقوله: «هَؤُلَاءِ» الكافرون بالدعوه من قوم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَم وَ المتيقن منهم بحسب مورد الآيه كَقَمَارِ مَكَّة الَّذِينَ أَشَارَ اللهُ سُبْحَانَهُ إِلَيْهِمْ بقوله: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (البقره ٦).

المعنى على الوجه الأول: فإن يكفر مشركو قومك بهدايتنا و هي طريقتنا فقد وَّكَلْنَا بِهَا من عبادنا من ليس يكفر بها، و الكفر و الايمان يتعلقان بالهدايه و خاصه اذا كانت بمعنى الطريقه كما ينسبان الى الله سبحانه و آياته قال تعالى: وَ أَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ (الجن ١٣) و قال: فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا يَحْوَفْ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (البقره ٣٨).

و على الوجه الثاني: فإن يكفر بالكتاب و الحكم و النبوه- و هي التي تشتمل على الطريقه الالهيه و الدعوه الدينيه- مشركو مكه فقد وَّكَلْنَا بِهَا قَوْمًا ليسوا بها بكافرين.

و الذي ينبغى أن يقال في معنى الآيه أعنى قوله: «فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ» أن الآيات لما كانت تصف التوحيد الفطرى و الهدايه الإلهيه الطاهره من شوب الشرك بالله سبحانه، و تذكر أن الله سبحانه أكرم بهذه الهدايه سلسله متصله متحده من أنبيائه و اصطفاهم بها ذريه بعضها من بعض و اجتباهم و هداهم الى صراط مستقيم لا ضلال فيه و آتاهم الكتاب و الحكم و النبوه.

ص: ٣٦٦

١-١). الانعام ٨٤-٩٠: كلام في معنى الكتاب في القرآن.

٢-٢). الانعام ٨٤-٩٠: كلام في معنى الحكم في القرآن.

ثم فرع على ذلك قوله: «فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ» و سياقه سياق اعتزاز منه تعالى و تسليه للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و تطيب لنفسه لئلا- يوهنه الحزن و يفسخ عزيمته فى الدعوه الدينيه ما يشاهده من كفر قومه و استكبارهم و عمهم فى طغيانهم فمعناه أن لا تحزن بما تراه من كفرهم بهذه الهدايه الإلهيه و الطريقه التى تشتمل عليها الكتاب و الحكم و النبوه التى آتيناها سلسله المهديين من الأنبياء الكرام فإننا قد وكننا بها قوما ليسوا بها بكافرين فلا سبيل للضيعه و الزوال الى هذه الهدايه الإلهيه لانا وكنناهم بها و اعتمدنا عليهم فيها و أولئك غير كافرين بها البته.فهؤلاء قوم لا يتصور فى حقهم كفر و لا يدخل فى قلوبهم شرك لان الله و كلهم بها و اعتمد عليهم فيها و حفظها بهم و لو جاز عليهم الشرك و أمكن فيهم التخلف كان الاعتماد عليهم فيها خطاء و ضلالا و الله سبحانه لا يضل و لا ينسى.

فالآيه تدل-و الله أعلم-على أن لله سبحانه فى كل زمان عبدا أو عابادا موكلين بالهدايه الإلهيه و الطريقه المستقيمه التى يتضمنها ما آتاه أنبياءه من الكتاب و الحكم و النبوه يحفظ الله بهم دينه عن الزوال و هدايته عن الانقراض،و لا سبيل للشرك و الظلم إليهم لاعتصامهم بعصمه إلهيه و هم أهل العصمه من الأنبياء الكرام و أوصيائهم عليهم السلام.

فالآيه خاصه بأهل العصمه و قصارى ما يمكن أن يتوسع به أن يلحق بهم الصالحون من المؤمنين ممن اعتصم بعصمه التقوى و الصلاح و محض الإيمان عن الشرك و الظلم،و خرج بذلك عن ولايه الشيطان قال تعالى: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (النحل ٩٩/١) إن صدق عليهم أن الله و كلهم بها و اعتمد عليهم فيها.

قوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ عاد ثانيا الى تعريفهم بما فيه تعريف الهدى الإلهى فالهدى الإلهى لا يتخلف عن شأنه و أثره و هو الإيصال الى المطلوب قال تعالى: فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ (النحل ٣٧/١).

و قد أمر النبي صلى الله عليه و آله و سلم فى قوله: «فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ» بالافتداء-و هو الاتباع-بهداهم لا بهم

١ - ١). الانعام ٨٤-٩٠: بحث روائى فى: الياس و اليسع، الحسن عليه السّلام و الحسين عليه السّلام و هما ابنا رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: **وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِّنْ شَيْءٍ قَدَرَ الشَّيْءَ وَ قَدْرَهُ بِالْتَّحْرِيكِ كَمِيَّتِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ صَغُرٍ وَ نَحْوَهُمَا يُقَالُ: قَدَرْتُ الشَّيْءَ قَدْرًا وَ قَدَّرْتَهُ بِالْتَّشْدِيدِ تَقْدِيرًا إِذَا بَيَّنْتَ كَمِيَّةَ الشَّيْءِ وَ هُنْدَسْتَهُ الْمَحْسُوسَةَ ثُمَّ تَوَسَّعَ فِيهِ فَاسْتَعْمَلَ فِي الْمَعْنَى غَيْرَ الْمَحْسُوسَةِ فَقِيلَ: قَدَرَ فُلَانٌ عِنْدَ النَّاسِ وَ فِي الْمَجْتَمَعِ أَيْ عَظَمْتَهُ فِي أَعْيُنِ النَّاسِ وَ وَزَنَهُ فِي مَجْتَمَعِهِمْ وَ قِيَمْتَهُ الْاجْتِمَاعِيَّةَ.**

و إذا كان تقدير الشيء و تحديده بحدود لا ينفك غالبا عن وصفه بأوصافه المبينه لحاله المستتبعه لعرفانه أطلق القدر و التقدير على الوصف و على المعرفة بحال الشيء-على نحو الاستعاره-فيقال قدر الشيء و قدره أى وصفه، و يقال: قدر الشيء و قدره أى عرفه، فاللغه تبيح هذه الاستعمالات جميعا.

و لما كان الله سبحانه لا يحيط بذاته المتعالیه حس و لا وهم و لا عقل و إنما يعرف معرفه ما بما يليق بساحه قدسه من الأوصاف و ينال من عظمته ما دلت عليه آياته و أفعاله صح استعمال القدر فيه تعالى بكل من المعانى السابقه فيقال: ما قدروا الله حق قدره أى ما عظموه بما يليق بساحته من العظمه أو ما وصفوه حق وصفه أو ما عرفوه حق معرفته، فالآيه بحسب نفسها تحتل كلا من المعانى الثلاثه أو جميعها بطريق الالتزام لكن الأنسب بالنظر الى الآيات السابقه الواصفه لهديته تعالى أنبياءه المستعقبه لإيتائهم الكتاب و الحكم و النبوه، و عنايته الكامله بحفظ كلمه الحق و نعمه الهدايه بين الناس زمانا بعد زمان و جيلا بعد جيل أن تحمل على المعنى الأول فإن فى إنكار إنزال الوحي حطا لقدره تعالى و إخراجا له من منزله الربوبيه المعتنيه بشئون عباده و هدايتهم الى هدفهم من السعاده و الفلاح.

و يؤيد ذلك ما ورد من نظير اللفظ فى قوله تعالى: **وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَ الْأَرْضُ**

جَمِيعاً قَبَضَتْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (الزمر / ٦٧).

وقوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْفِذُوهُ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ، مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (الحج ١٧٤) أى وقوته وعزته وضعف غيره وذلكه تقتضيان أن لا يحط قدره ولا يسوى هو وما يدعون من دونه بتسميه الجميع آلهه وأربابا فالأنسب بالآيه هو المعنى الأول وإن لم يمنع المعنيان الآخران، وأما تفسير «مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» بأن المراد: ما أعطوه من القدره ما هو حقها كما فسره بعضهم فأبعد المعانى المحتمله من مساق الآيه.

ولما قيد قوله تعالى: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» بالظرف الذى فى قوله: «إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشَرًا مِنْ شَيْءٍ» أفاد ذلك أن اجترأهم على الله سبحانه وعدم تقديرهم حق قدره إنما هو من حيث إنهم نفوا إنزال الوحي والكتاب منه تعالى على بشر فدل ذلك على أن من لوازم الالوهيه وخصائص الربوبيه أن ينزل الوحي والكتاب لغرض هدايه الناس الى مستقيم الصراط والفوز بسعاده الدنيا والآخره فهى الدعوى.

وبالجملة فالآيه أعنى قوله تعالى: «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ» تدل بما لها من الضمائم على أن من لوازم الالوهيه أن تهدي الإنسان الى مستقيم الصراط ومنزل السعاده بإنزال الكتاب والوحي على بعض أفراده، وتستدل على ذلك بوجود بعض الكتب المنزله من الله فى طريق الهدايه أولاً، وبوجود ما يدل على تعاليم إلهيه بينهم لا ينالها الإنسان بما عنده من العقل الاجتماعى ثانياً.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا يَتَّبِعُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً قُرْآنَهُ الدائره تجعلونه بصيغه الخطاب والمخاطبون به اليهود لا محاله، وقرئ «يجعلونه» بصيغه الغيبه، والمخاطب المسئول

عنه بقوله: «مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ» الخ؛ حينئذ اليهود أو مشركوا العرب على ما قيل، والمراد بجعل الكتاب قرطيس و هي جمع قرطاس إما جعله في قرطيس بالكتابة فيها، وإما جعله نفس القرطيس بما فيها من الكتابه فالصحائف و القرطيس تسمى كتابا كما تسمى الألفاظ المدلول عليها بالكتابة كتابا.

وقوله: «قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ» الخ؛ جواب عن قولهم المحكى بقوله تعالى: «إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشْرًا مِنْ شَيْءٍ» و الآية و إن لم تعين القائلين بهذا القول من هم؟ إلا أن الجواب بما فيه من الخصوصيه لا يدع ريبا في أن المخاطبين بهذا الجواب هم اليهود فالقائلون: «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشْرًا مِنْ شَيْءٍ» هم اليهود أيضا، وذلك أن الآية تحتج على هؤلاء القائلين بكتاب موسى عليه السلام و المشركون لا يعترفون به و لا يقولون بنزوله من عند الله، وإنما القائلون به أهل الكتاب، و أيضا الآية تدمهم بأنهم يجعلونه قرطيس بيدونها و يخفون كثيرا، و هذا أيضا من خصائص اليهود على ما نسبه القرآن إليهم دون المشركين.

على أن قوله بعد ذلك: «وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لَا آبَاؤُكُمْ» على ظاهر معناه الساذج لا يصلح أن يخاطب به غير اليهود من المشركين أو المسلمين كما تقدم و سيجيء إن شاء الله تعالى (١).

قوله تعالى: «وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لَا آبَاؤُكُمْ» المراد بهذا العلم الذي علموه و لم يكونوا يعلمونه هم و لا آباؤهم ليس هو العلم العادى بالنافع و الضار فى الحياه مما جهز الإنسان بالوسائل المؤديه إليه من حس و خيال و عقل فإن الكلام واقع فى سياق الاحتجاج مربوط به و لا- رابطة بين حصول العلوم العاديه للإنسان من الطرق المودعه فيه و بين المدعى و هو أن من لوازم الالوهيه أن تهدى الانسان الى سعادته و تنزل على بعض

ص: ٣٧٣

(١- ١). الانعام ٩١-١٠٥: بحث حول معنى الآية «إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ بَشْرًا مِنْ شَيْءٍ» .

و ليس المراد بها أن الله أفاض عليكم العلم بأشياء ما كان لكم من أنفسكم أن تعلموا كما يفيدته قوله تعالى: وَ جَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ (النحل ٧٨) وقوله: الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (العلق ٥)، فإن السياق كما عرفت ينافي ذلك.

فالمراد بالآية تعليم ما ليس في وسع الإنسان بحسب الطرق المألوفة عنده التي جهز بها أن ينال علمه، وليس إلا ما أوحاه الله سبحانه الى أنبيائه و حمله وحيه بكتاب أو بغير كتاب من المعارف الإلهية و الأحكام و الشرائع فإنها هي التي لا تسع الوسائل العادية التي عند عامه الإنسان أن تنالها.

و من هنا يظهر أن المخاطبين بهذا الكلام أعنى قوله: «وَ عَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا» الخ؛ ليسوا هم المشركين اذا لم يكن عندهم من معارف النبوه و الشرائع الإلهية شيء بين يعرفونه و يعترفون به و الذي كانوا ورثوه من بقايا آثار النبوه من أسلاف أجيالهم ما كانوا ليعترفوا به حتى يصح الاحتجاج به عليهم من غير بيان كاف، و قد وصفهم الله بالجهل في أمثال قوله: وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ (البقره ١١٨).

فالخطاب متوجه الى غير المشركين، و ليس بموجه الى المسلمين أما أولا؛ فلأن السياق سياق الاحتجاج، و لو كان الخطاب متوجها إليهم لكان اعتراضا في سياق الاحتجاج من غير نكته ظاهره.

و أما ثانيا؛ فلما فيه من تغيير مورد الخطاب، و العدول من خطاب المخاطبين بقوله: «مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ» الخ؛ الى خطابه غيرهم بقوله: «وَ عَلَّمْتُمْ» الخ؛ من غير قرينه ظاهره مع وقوع اللبس فالخطاب لغير المشركين و المسلمين و هم اليهود المخاطبون بصدر الآية.

قوله تعالى: قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ لما كان الجواب واضحا

بيننا لا يداخله ريب، والجواب الذى هذا شأنه يسوغ للمستدل السائل أن يتكلفه و لا ينتظر المسئول المحتج عليه، أمر تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم أن يتصدى هو الجواب فقال: «قُلِ اللَّهُ» أى الذى أنزل الكتاب الذى جاء به موسى و الذى علمكم ما لم تعلموا أنتم و لا آباؤكم هو الله.

و لما كان القول بأن الله لم ينزل على بشر شيئاً من لغو القول و هزله الذى لا يتفوه به إلا خائض لاجب بالحقائق و خاصه اذا كان القائل به من اليهود المعترفين بتوراه موسى و المباهين بالعلم و الكتاب أمره بأن يدعهم و شأنهم فقال: «تَمَّ ذَرْهُمُ فِي حَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ» .

قوله تعالى: وَ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا لما نبه على أن من لوازم الالوهيه أن ينزل الوحي على جماعه من البشر هم الأنبياء عليهم السلام، و أن هناك كتاباً حقاً كالتوراه التى جاء بها موسى، و امورا اخرى علمها البشر لا تنتهى إلا الى وحي إلهى و تعليم غيبى، ذكر أن هذا القرآن أيضا كتاب إلهى منزل من عنده على حد ما نزل سائر الكتب السماويه، و من الدليل على ذلك اشتماله على ما هو شأن كتاب سماوى نازل من عند الله سبحانه.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِالْأُولَىٰ؛ كأنه تفريع لما عده الله سبحانه من أوصاف هذا الكتاب الذى أنزله أى لما كان هذا الكتاب الذى أنزلناه مباركاً و مصدقاً لما بين يديه نازلاً لغايه إنذار أهل الأرض فالمؤمنون بالآخرة يؤمنون به لأنه يدعو الى أمن أخروى دائم و يحذرهم من عذاب خالد.

ثم عرف تعالى هؤلاء المؤمنين بالآخرة بما هو من أخص صفات المؤمنين و هو أنهم على صلاتهم و هى عبادتهم التى يذكرهم فيها ربهم يحافظون، و هذه هى الصفه التى ختم الله به صفات المؤمنين التى وصفهم بها فى أول سوره المؤمنين اذ قال: الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (المؤمنون ٩/١)، كما بدأ بمعناها فى أولها فقال: الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (المؤمنون ٢/١).

و هذا هو الذى يؤيد أن المراد بالمحافظه فى هذه الآيه هو الخشوع فى الصلاه و هو نحو تذلل و تأثر باطنى عن العظمه الإلهيه عند الانتصاب فى مقام العبوديه لكن المعروف من تفسيره أن المراد بالمحافظه على الصلاه المحافظه على وقتها (1).

قوله تعالى: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا - إلى قوله - مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَدَّ اللَّهُ سبحانه موارد ثلاثه من الظلم هى من أشد مراتبه التى لا يرتاب العقل العادى فى شناعتها و فظاعتها، و لذا أوردها فى سياق السؤال.

و الغرض من ذلك الدعوه الى النزول على حكم العقل السليم و الأخذ بالنصفه و خفض الجناح لصريح الحق فكأنه يقول: قل لهم: يجب على و عليكم أن لا نستكبر عن الحق و لا نستعلى على الله تعالى بارتكاب ما هو من أشد الظلم و أشنعه و هو الظلم فى جنب الله فكيف يصح لكم أن تفتروا على الله كذبا و تدعوا له شركاء تتخذونها شفعاء؟ و كيف يسوغ لى أن أدعى النبوه و أقول: أوحى إلى إن كنت لست بنبى يوحى إليه؟ و كيف يجوز لقائل أن يقول:

سانزل مثل ما أنزل الله، فيسخر بحكم الله و يستهزئ بآياته؟

و نتيجة هذه الدعوه أن ينقادوا لحكم النبوه فإنهم اذا اجتنبوا الافتراء على الله بالشرك، و كف القائل «سَأَنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ» عن مقاله، و النبى صلى الله عليه و آله و سلم يصر على الوحى بقيت نبوته بلا معارض.

و افتراء الكذب على الله سبحانه و هو أول المظالم المعدوده و إن كان أعم بالنسبه الى دعوى الوحى اذا لم يوح إليه و هو ثانى المظالم المعدوده و لذا قيل: إن ذكر الثانى بعد الأول من باب ذكر الخاص بعد العام اعتناء بشأن الوحى و إعظاما لأمره، لكن التأمل فى سياق الكلام و وجهه الى المشركين يعطى أن المراد بالافتراء المذكور هو اتخاذ الشريك لله سبحانه، و إنما لم يصرح

ص: ٣٧٤

بذلك ليرتفع به غائله ذكر الخاص بعد العام لأن الغرض فى المقام- كما تقدم- هو الدعوه الى الأخذ بالنصفه و التجافى عن عصبية الجاهليه فلم يصرح بالمقصود و إنما أبهم إبهاما لثلا يتحرك بذلك عرق العصبية و لا يتنبه داعى النخوه.

فقوله: مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا و قوله: «أَوْ قَالَ أُوحَىٰ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ» متبائن من حيث المراد و إن كانا بحسب ظاهر ما يتراءى منهما أعم و أخص.

و يدل على ما ذكرنا ما فى ذيل الآيه من حديث التهديد بالعذاب و السؤال عن الشركاء و الشفعاء.

و أما ما قيل: إن قوله: «أَوْ قَالَ أُوحَىٰ إِلَيَّ وَ لَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ» نزل فى مسيلمه حيث ادعى النبوه فسياق الآيات كما عرفت لا يلائمه بل ظاهره أن المراد به نفسه و إن كان الكلام مع الغض عن ذلك أعم.

على أن سورة الأنعام مكيه و دعواه النبوه من الحوادث التى وقعت بعد الهجره إلا- أن هؤلاء يرون أن الآيه مدنيه غير مكيه و سيأتى الكلام فى ذلك فى البحث الروائى التالى إن شاء الله.

و أما قوله: وَ مَن قَال سَيَأْتِيكَم مِثْلُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَظَاهِرُهُ أَنَّهُ حَكَايَهُ قَوْلٍ وَقَعَ، وَ أَنَّ هُنَاكَ مِنْ قَالَ: سَأَنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ، وَ أَنَّهُ إِنَّمَا قَالَهُ اسْتِهْزَاءً بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ حَيْثُ نَسَبَهُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِالنُّزُولِ ثُمَّ وَعَدَ النَّاسَ مِثْلَهُ بِالْإِنْزَالِ، وَ لَمْ يَقُلْ: سَأَقُولُ مِثْلَ مَا قَالَهُ مُحَمَّدٌ أَوْ سَأَتِيكُمْ بِمِثْلِ مَا أَتَاكُمْ بِهِ.

قوله تعالى: وَ لَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الغمر أصله ستر الشىء و إزاله أثره و لذا يطلق الغمره على الماء الكثير الساتر لما تحته، و على الجهل المطبق، و على الشده التى تحيط بصاحبها و الغمرات الشدائد، و منه قوله تعالى: «فِي غَمْرَاتِ الْمَوْتِ»، و الهون و الهوان الذله.

و بسط اليد معناه واضح غير أن المراد به معنى كئيب، و يختلف باختلاف الموارد فبسط الغنى يده جوده بماله و إحسانه لمن يستحقه، و بسط الملك يده إدارته أمور مملكته من غير أن يزاحمه مزاحم و بسط المأمور الغليظ الشديد يده على المجرم المأخوذ به هو نكاله و إيذاؤه بضر و زجر و نحوه.

فبسط الملائكة أيديهم هو شروعهم بتعذيب الظالمين، و ظاهر السياق أن الذي تفعله الملائكة بهؤلاء الظالمين هو الذي يترجم عنه قوله: «أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ» الخ؛ فهذه الجمل محكيه عن الملائكة لا- من قول الله سبحانه، و التقدير: يقول الملائكة لهم أخرجوا أنفسكم، الخ؛ فهم يعذبونهم بقبض أرواحهم قبضا يدوقونه به أليم العذاب و هذا عذابهم حين الموت و لما ينتقلوا من الدنيا الى ما وراءها و لهم عذاب بعد ذلك و لما تقم عليهم القيامة كما يشير إليه قوله تعالى: وَ مِنْ رَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (المؤمنون/ ١٠٠).

و بذلك يظهر أن المراد باليوم فى قوله: «الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ» هو يوم الموت الذى يجزون فيه العذاب و هو البرزخ كما ظهر أن المراد بالظالمين هم المرتكبون لبعض المظالم الثلاثة التى عدها الله سبحانه من أشد الظلم أعنى افتراء الكذب على الله، و دعوى النبوه كذبا و الاستهزاء بآيات الله.

و يؤيد ذلك ما ذكره الله من أسباب عذابهم من الذنوب و هو قولهم على الله غير الحق كما هو شأن المفترى الكذب على الله بنسبه الشريك إليه أو بنسبه حكم تشريعى أو وحى كاذب إليه، و استكبارهم عن آيات الله كما هو شأن من كان يقول: «سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ» .

و كذلك قوله: «أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ» أمر تكوينى لأن الموت و الوفاه ليس فى قدره الإنسان كالحياه حتى يؤمر بذلك قال تعالى: وَ أَنَّهُ هُوَ أَمَاتٌ وَ أَحْيَا (النجم/٤٤) فالأمر تكوينى و الملائكة من أسبابه، و الكلمه مصوغه صوغ الاستعاره بالكنايه و الاستعاره

التخيليه كأن النفس الإنسانيه أمر داخل فى البدن و به حياته و بخروجه عن البدن طرو الموت و ذلك أن كلامه تعالى ظاهر فى أن النفس ليست من جنس البدن و لا من سنخ الأمور الماديه الجسمانيه و إنما لها سنخ آخر من الوجود يتحد مع البدن و يتعلق به نوعا من الاتحاد و التعلق غير مادى كما تقدم بيانه فى بحث علمى فى الجزء الأول من الكتاب و سيأتى فى مواضع تناسبه إن شاء الله. فالمراد بقوله: «أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ» قطع علقه أنفسهم من أبدانهم و هو الموت، و القول قول الملائكه على ما يعطيه السياق.

و المعنى: و ليتك ترى حين يقع هؤلاء الظالمون المذكورون فى شدائد الموت و سكراته و الملائكه آخذون فى تعذيبهم بالقبض الشديد العنيف لأرواحهم و إنبائهم بأنهم واقعون فى عالم الموت معذبون فيه بعذاب الهون و الذله جزاء لقولهم على الله غير الحق و لاستكبارهم عن آياته.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ»؛ الفرادى جمع فرد و هو الذى انفصل عن اختلاط غيره نوعا من الاختلاط و يقابله الزوج و هو الذى يختلط بغيره بنحو و يقرب منهما بحسب المعنى الوتر و الشفع فالوتر ما لم ينضم الى غيره و الشفع ما انضم الى غيره، و التحويل إعطاء الخول أى المال و نحوه الذى يقوم الإنسان به بالتدبير و التصرف.

و المراد بالشفعاء الأرباب المعبودون من دون الله ليكونوا شفعاء عند الله فعادوا بذلك شركاء لله سبحانه فى خلقه، و الآيه تنبئ عن حقيقه الحياه الإنسانيه التى ستظهر له حينما يقدم على ربه بالتوفى فى شاهد حقيقه أمر نفسه و أنه مدبر بالتدبير الإلهى لا غير كما كان كذلك فى أول مره كونته الخلقه، و أن المزاعم التى انضمت الى حياته من التكثر بالأسباب و الاعتضاد و الانتصار بالأموال و الأولاد و الأزواج و العشائر و الجموع، و كذا الاستشفاع بالأرباب من دون الله المؤدى الى الإشراك كل ذلك مزاعم و أفكار باطله لا أثر لها فى ساحه

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى إلى آخر الآيه؛ الفلق هو الشق. لما انتهى الكلام فى الآيه السابقه الى نفي استقلال الأسباب فى تأثيرها، و بطلان كون أربابهم شفعاء من دون الله المؤدى الى كونهم شركاء لله صرف الكلام الى بيان أن هذه التى يشتغل بها الإنسان عن ربه ليست الا- مخلوقات لله مدبره بتدبيره، و لا- تؤثر أثرا و لا تعمل عملا فى اصلاح حياه الانسان و سوقه الى غايات خلقته الا بتقدير من الله و تدبير يدبره هو لا غير فهو تعالى الرب دون غيره.

فالله سبحانه هو يشق الحب و النوى فينبت منهما النبات و الشجر اللذين يرتزق الناس من حبه و ثمره، و هو يخرج الحى من الميت و الميت من الحى- و قد مر تفسير ذلك فى الكلام على الآيه ٢٧ من سوره آل عمران- ذلكم الله لا- غير فأنى تؤفكون و الى متى تصرفون من الحق الى الباطل.

قوله تعالى: فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا الى آخر الآيه؛ الإصباح بكسر الهمزه هو الصبح و هو فى الاصل مصدر، و السكن ما يسكن اليه، و الحسبان جمع حساب، و قيل: هو مصدر حسب حسابا و حسبانا. و قوله: «وَ جَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا» عطف على قوله: «فَالِقُ الْإِصْبَاحِ» و لا ضمير فى عطف الجملة الفعلية على الاسميه اذا اشتملت على معنى الفعل و قرئ: «و جاعل».

و فى فلق الصبح و جعل الليل سكنا يسكن فيه المتحركات عن حركاتها لتجديد القوى و دفع ما عرض لها من التعب و العى و الكلال من جهة حركاتها طول النهار، و جعل الشمس و القمر بما يظهر من الليل و النهار و الشهور و السنين من حركاتها فى ظاهر الحس حسبانا تقدير عجيب للحركات فى هذه النشأ المتغيره المتحوله ينتظم بذلك نظام المعاش الانسانى و يستقيم به أمر حياته، و لذلك ذيلها بقوله: «ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ» فهو العزيز الذى لا

يقهره قاهر فيفسد عليه شيئا من تدبيره، والعليم الذى لا يجهل بشيء من مصالح مملكته حتى ينظمه نظما ربما يفسد من نفسه و لا يدوم بطبعه.

قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ المعنى واضح والمراد بتفصيل الآيات اما تفصيلها بحسب الجعل التكويني أو تفصيلها بحسب البيان اللفظي.

و لا تنافى بين اراده مصالح الانسان فى حياته و عيشته فى هذه النشأه مما يتراءى لظاهر الحس من حركات هذه الاجرام العظيمة العلويه و الكرات المتجاذبه السماويه، و بين كون كل من هذه الاجرام مرادا بإرادته إلهيه مستقله و مخلوقه بمشيئه تتعلق بنفسه و تخص شخصه فإن الجهات مختلفه، و تحقق بعض هذه الجهات لا يدع تحقق بعض آخر و الارتباط و الاتصال حاكم على جميع أجزاء العالم.

قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قرئ «مستقر» بفتح القاف و كسرهما و هو على القراءه الاولى اسم مكان بمعنى محل الاستقرار فيكون «مُسْتَوْدَعٌ» أيضا اسم مكان بمعنى محل الاستيداع و هو المكان الذى توضع فيه الوديعه. و قد وقع ذكر المستقر و المستودع فى قوله تعالى: وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (هود ٦٤) و فى الكلام حذف و إيجاز، و التقدير: فمنكم من هو فى مستقر و منكم من هو فى مستودع، و على القراءه الثانيه و هى الرجحى «مستقر» اسم فاعل و يكون المستودع اسم مفعول لا محاله، و التقدير فمنكم مستقر و منكم مستودع لم يستقر بعد.

و الظاهر أن المراد بقوله: «وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ» انتهاء الذريه الإنسانيه على كثرتها و انتشارها الى آدم الذى يعده القرآن الكريم مبدأ للنسل الإنسانى الموجود، و أن المراد بالمستقر هو البعض الذى تلبس بالولاده من أفراد الإنسان فاستقر فى الأرض التى هى

المستقر لهذا النوع كما قال تعالى: **وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ** (البقره ٣٦)، والمراد بالمستودع من استودع في الأصلاب والأرحام و لم يولد بعد و سيولد بعد حين، فهذا هو المناسب لمقام بيان الآيه بإنشاء جميع الأفراد النوعيه من فرد واحد و من الممكن أن يؤخذ مستقر و مستودع مصدرين ميمين.

و قد عبر بلفظ الإنشاء دون الخلق و نحوه **وَ** هو ظاهر في الدفعه و ما في حكمه دون التدريج، و يؤيد هذا المعنى أيضا ما تقدم من قوله تعالى: **«وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَ مُسْتَوْدَعَهَا»** كما لا يخفى أى يعلم ما استقر منها في الأرض بفعليه التكون «و ما هو في طريق التكون مما لم يتكون بالفعل و لم يستقر في الأرض».

فالمعنى: و هو الذى أوجدكم معشر الأناسى من نفس واحده و عمر بكم الأرض الى حين فهى مشغوله بكم ما لم تنقضوا فلا يزال بعضكم مستقرا فيها و بعضكم مستودع في الأصلاب و الأرحام أو في الأصلاب فقط في طريق الاستقرار فيها.

قوله تعالى: **وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ السَّمَاءُ هِيَ جِهَةُ الْعُلُوِّ فَكَلِمَا عِلَاكُ وَ أَظْلُكُ فَهُوَ سَمَاءٌ، وَ الْمَرَادُ بِقَوْلِهِ: «فَأَخْرَجْنَا بِهِنَّ لَبَاتٍ كُلَّ شَيْءٍ»** على ما قيل، فأخرجنا بالماء الذى أنزلناه من السماء النبات و النمو الذى فى كل شىء نام له قوه النبات من الكمون الى البروز، أى أنبتنا به كل شىء نباتى كالنجم و الشجر و الإنسان و سائر الحيوان.

و الخضر هو الأخضر و كأنه مخفف الخاضر، و تراكب الحب انعقاد بعضه فوق بعض كما فى السنبله، و الطلع أول ما يبدو من ثمر النخل، و القنوان جمع قنو و هو العذق بالكسر و هو من الثمر كالعنقود م العنب، و الدانيه أى القريبه، و المشتبه و غير المتشابهه المشاكل و غير المشاكل فى النوع و الشكل و غيرهما. و ينع الثمر نضجه.

قوله تعالى: **وَ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَ خَلَقَهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الْجِنُّ إِمَّا مَفْعُولٌ لَجَعَلُوا وَ مَفْعُولُهُ الْآخِرُ شُرَكَاءُ أَوْ بَدَلٌ مِنْ شُرَكَاءُ، وَ قَوْلُهُ: «وَ خَلَقَهُمْ»** كأنه حال و إن

منعه بعض النحاه و حجتهم غير واضحه. و كيف كان فالكلمه فى مقام ردهم، و المعنى و جعلوا له شركاء الجن و هو خلقهم و المخلوق لا يجوز أن يشارك خالقه فى مقامه.

و المراد بالجن الشياطين كما ينسب الى المجوس القول: بأهر من و يزدان. و نظيره ما عليه اليزيديه الذى يقولون بالوهيه إبليس (الملك طاوس-شاه بريان) أو الجن المعروف ببناء على ما نسب الى قريش أنهم كانوا يقولون: إن الله قد صاهر الجن فحدث بينهما الملائكه، و هذا أنسب بسياق قوله: «و جعلوا له شركاء الجن و خلفهم و خرقوا له بنين و بنات بغير علم» و على هذا فالبنون و البنات هم جميعا من الملائكه خرقوهم أى اختلقوهم و نسبوهم إليه افتراء عليه سبحانه و تعالى عما يشركون.

و لو كان المراد من هو أعم من الملائكه لم يبعد أن يكون المراد بهم ما يوجد فى سائر الملل غير الإسلام فالبرهمنيه و البوذيه يقولون بنظير ما قالته النصرارى من بنوه المسيح كما تقدم فى الجزء الثالث من الكتاب، و سائر الوثنيين القدماء كانوا يشبتون لله سبحانه بنين و بنات من الآلهه على ما يدل على الآثار المكتشفه، و مشركوا العرب كانوا يقولون: إن الملائكه بنات الله.

قوله تعالى: **يَدْعُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ**؛ جواب عن قولهم بالبنين و البنات، و محصله أن لا سبيل لتحقق حقيقه الولد إلا اتخاذ صاحبه و لم يكن له تعالى صاحبه فأنى يكون له ولد؟

و أيضا هو تعالى الخالق لكل شىء و فاطره، و الولد هو الجزء من الشىء يربيه بنوع من اللقاح و جزء الشىء و المماثل له لا يكون مخلوقا له البته، و يجمع الجميع أنه تعالى بديع السماوات و الأرض الذى لا- يماثله شىء من أجزائها بوجه من الوجوه فكيف يكون له صاحبه يتزوج بها أو بنون و بنات يماثلونه فى النوع فهذا أمر يخبر به الله الذى لا سبيل للجهل إليه فهو بكل شىء عليم، و قد تقدم فى الكلام على قوله تعالى: **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْخ**

(آل عمران ٧٩)؛ فى الجزء الثالث من الكتاب ما ينفع فى المقام.

قوله تعالى: **ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ الْجُمْلَةَ الْأُولَى** أعنى قوله: **«ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ»** نتيجه متخذة من البيان المورد فى الآيات السابقة، والمعنى: إذا كان الأمر على ما ذكر فالله الذى وصفناه هو ربكم لا غير، وقوله: **«لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»** كالتصريح بالتوحيد الضمنى الذى تشتمل عليه الجملة السابقة، وهو مع ذلك يفيد معنى التعليل أى هو الرب ليس دونه رب لأنه الله الذى ليس دونه إله و كيف يكون غيره ربا و ليس بإله.

و قوله: **«خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ تَعْلِيلٌ لِقَوْلِهِ: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»** أى إنما انحصرت الألوهية فيه لأنه خالق كل شىء من غير استثناء فلا خالق غيره لشىء من الأشياء حتى يشاركه فى الألوهية، و كل شىء مخلوق له خاضع له بالعبودية فلا يعادله فيها.

و قوله: **«فَاعْبُدُوهُ»** متفرع كالنتيجة على قوله: **«ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ»** أى إذا كان الله سبحانه هو ربكم لا غير فاعبدوه، وقوله: **«وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ»** أى هو القائم على كل شىء المدبر لأمره الناظم وجوده و حياته و إذا كان كذلك كان من الواجب أن يتقى فلا يتخذ له شريك بغير علم فالجملة كالتأكيد لقوله: **«فَاعْبُدُوهُ»** أى لا تستكفوا عن عبادته لأنه وكيل عليكم غير غافل عن نظام أعمالكم.

و أما قوله: **«لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ فَهُوَ لِدْفَعِ الدَّخْلِ الَّذِي يُوْهِمُهُ قَوْلُهُ: «وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ»** بحسب ما تتلقاه أفهام المشركين الساذجة و الخطاب معهم، و هو أنه إذا صار و كيلا عليهم كان أمرا جسمانيا كسائر الجسمانيات التى تتصدى الأعمال الجسمانية فدفعه بأنه تعالى لا تدركه الأبصار لتعالیه عن الجسميه و لوازمها، وقوله: **«وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ»** دفع لما يسبق الى أذهان هؤلاء المشركين الذين اعتادوا بالتفكر المادى، و أخلدوا الى الحس و المحسوس و هو أنه تعالى إذا ارتفع عن تعلق الأبصار به خرج عن حيطه الحس و المحسوس

و بطل نوع الاتصال الوجودى الذى هو مناط الشعور و العلم، و انقطع عن مخلوقاته فلا يعلم بشىء كما لا يعلم به شىء، و لا يبصر شيئاً كما لا يبصره شىء فأجاب تعالى عنه بقوله: «وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ» ثم علل هذه الدعوى بقوله: «وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» و اللطيف هو الرقيق النافذ فى الشىء، و الخبير من له الخبره، فإذا كان تعالى محيطاً بكل شىء بحقيقته معنى الإحاطه كان شاهداً على كل شىء لا يفقده ظاهر شىء من الأشياء و لا باطنه، و هو مع ذلك ذو علم و خبره كان عالماً بظواهر الأشياء و بواطنها من غير أن يشغله شىء عن شىء أو يحتجب عنه شىء بشىء فهو تعالى يدرك البصر المبصر معاً، و البصر لا يدرك إلا المبصر.

و قد نسب إدراكه الى نفس الأبصار دون اولى الأبصار لأن الإدراك الموجود فيه تعالى ليس من قبيل إدراكاتنا الحسيه حتى يتعلق بظواهر الأشياء من أعراضها كالبصر مثلاً الذى يتعلق بالأضواء و الألوان و يدرك به القرب و البعد و العظم و الصغر و الحرکه و السكون بنحو بل الأعراض و موضوعاتها بظواهرها و بواطنها حاضره عنده مكشوفه له غير محجوبه عنه و لا غائبه فهو تعالى يجد الأبصار بحقائقها و ما عندها و ليست تناله.

ففى الآيتين من سطح البيان و سهوله الطريق و إيجاز القول ما يحير اللب و هما مع ذلك تهديان المتدبر فيهما الى أسرار دونها أستار (١).

قوله تعالى: قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَ مَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا الْخَبْرُ؛ قال فى المجمع: البصيره البينه و الدلاله التى يبصر بها الشىء على ما هو به و البصائر جمعها انتهى. و قيل: البصيره للقلب كالبصر للعين، و الأصل فى الباب على أى حال هو الإدراك بحاسه البصر الذى يعد أقوى الإدراكات، و نيلاً من خارج الشىء المشهود، و الإصار و العمى فى الآيه هو العلم و الجهل أو الإيمان و الكفر توسعاً.

ص: ٣٨٥

و كأنه تعالى يشير بقوله: «قَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَصَائِرِ مِنْ رَبِّكُمْ» الى ما ذكره الآيات السابقة من الحجج الباهره على وحدانيته و انتفاء الشريك عنه، و المعنى أن هذه الحجج بصائر قد جاء تكلم من جانب الله بالوحي إلى، و الخطاب من قبل النبي صلى الله عليه و آله و سلم ثم ذكر للمخاطبين و هم المشركون أنهم على خيره من أمر أنفسهم إن شاءوا أبصروا بها و إن شاءوا عموا عنها غير أن الإبصار لأنفسهم و العمى عليها.

و من هنا يظهر أن المراد بالحفظ عليهم رجوع أمر نفوسهم و تدبير قلوبهم إليه فهو إنما ينفي كونه حفيظا عليهم تكويننا و إنما هو ناصح لهم. و الآيه كالمعترضه بين الآيات السابقه و الآيه اللاحقه، و هو خطاب منه تعالى عن لسان نبيه كالرسول يأتي بالرساله الى قوم فيؤديها إليهم و فى خلال ما يؤديه يكلمهم من نفسه بما يهيجهم للسمع و الطاعه و يحثهم على الانقياد بإظهار النصح و نفي الأغراض الفاسده عن نفسه.

قوله تعالى: «وَ كَذَلِكَ نُصَيِّرُكَ الْأَيَّاتِ وَ لِيَقُولُوا دَرَسْتَ الْحَقُّ» و قرئ: دارست بالخطابات و درست بالتأنيث و الغيبه، قيل: إن التصريف هو إجراء المعنى الدائر فى المعانى المتعاقبه ليجتمع فيه وجوه الفائده، و قوله: «دَرَسْتَ» من الدرس و هو التعلم و التعليم من طريق التلاوه، و على هذا المعنى قراءه دارست غير أن زياده المباني تدل على زياده المعانى و أما قراءه «دَرَسْتَ» بالتأنيث و الغيبه فهو من الدروس بمعنى تعقّى الأثر أى اندرست هذه الأقوال كقولهم: أساطير الأولين.

و المعنى: على هذا المثال نصرّف الآيات و نحولها بيانا لغايات كثيره و منها أن يستكمل هؤلاء الأشفياء شقوتهم فيتهموك يا محمد بأنك تعلمتها من بعض أهل الكتاب أو يقولوا:

اندرست هذه الأقاويل و انقرض عهداها و لا نفع فيها اليوم، و لئبنيه لقوم يعلمون بتطهير قلوبهم و شرح صدورهم به، و هذا كقوله: وَ نُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ

[سوره الأنعام (٦): الآيات ١٠٦ الى ١١٣]

إشارة

اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (١٠٧) وَلَا تَسْتَبُؤُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْتَبِؤُا اللَّهَ عَدُوًّا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٠٨) وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لِيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٩) وَنُقَلِّبُ أَفئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١٠) وَلَوْ أَنْدَأْنَا نَزْلَنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبَلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ (١١١) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُهُمْ وَمَا يُفْتَرُونَ (١١٢) وَلَتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرْضَوْهُ وَلَيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ (١١٣)

ص: ٣٨٧

١ - ١. الانعام ٩١-١٠٥: بحث روائي في: معنى الآية «وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ؛ عله تسميه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ آمِنًا؛ خلق آدم؛ الترويج بالليل؛ التوحيد.

قوله تعالى: **إِتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ** أمر باتباع ما أوحى إليه من ربه من أمر التوحيد و أصول شرائع الدين من غير أن يصدده ما يشاهده من استكبار المشركين عن الخضوع لكلمه الحق و الإعراض عن دعوه الدين.

و فى قوله: **مِنْ رَبِّكَ** المشعر بمزيد الاختصاص تلويح الى شمول العناية الخاصه الإلهيه إلا أن قوله: **«مِنْ رَبِّكَ»** لما كان ملحوقا بقوله: **«وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ»** و كان ذلك ربما يوهم أن المراد: اتبع الوحي و اعبد ربك، و اعرض عنهم يعبدوا أربابهم، و لا يخلو ذلك عن إمضاء لطريقتهم و شركهم قدم على قوله: **«وَأَعْرِضْ»** الخ؛ قوله: **«لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»** ليندفع به هذا الوهم، و يجلو معنى قوله: **«وَأَعْرِضْ»** الخ؛ و يأخذ موضعه.

فالمعنى: اتبع ما أوحى إليك من ربك الذى له العناية البالغه بك و الرحمه المشتمله عليك اذ خصك بوحيه و أيدك بروح الاتباع، و أعرض عن هؤلاء المشركين لا بأن تدعهم و ما يعبدون و تسكت راضيا بما يشركون فيكون ذلك إمضاء للوثنيه فإنما الإله واحد و هو ربك الذى يوحى إليك لا إله إلا هو بل أن تعرض عنهم فلا تجهد نفسك فى حملهم على التوحيد و لا

تتحمل شقا فوق طاقتك فإنما عليك البلاغ و لست عليهم بحفيظ و لا وكيل،إنما الحفيظ الوكيل هو الله و لم يشأ لهم التوحيد و لو شاء ما أشركوا لكنه تركهم و ضلالهم لأنهم أعرضوا عن الحق و استنكفوا عن الخضوع له.

قوله تعالى: **وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ** تطيب لقلب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أن لا يجد لشركهم و لا يحزن لخيبه المسعى فى دعوتهم فإنهم غير معجزين لله فيما أشركوا فإنما المشيه لله لو شاء ما أشركوا بل تلبسوا بالإيمان عن طوع و رغبه كما تلبس من وفق للإيمان،و ذلك أنهم استكبروا فى الأرض و استعلوا على الله و مكروا به و قد أهلكوا بذلك أنفسهم فرد الله مكرهم إليهم و حرّمهم التوفيق للإيمان و الاهتداء اذ كما أن السنه الجاريه فى التكوين هى سنه الأسباب و قانون العليه و المعلوليه العام،و المشيه الإلهيه إنما تتعلق بالأشياء و تقع على الحوادث على وفقها فما تمت فيه العلل و الشرائط و ارتفعت عن وجوده الموانع كان هو الذى تتعلق بتحقيقه المشيه الإلهيه و إن كان الله سبحانه له فيه المشيه مطلقا إن لم يشأه لم يكن و إن شاء كان،كذلك السنه فى نظام التشريع و الهدايه هى سنه الأسباب فمن استرحم الله رحمه و من أعرض عن رحمته حرمه،و الهدايه بمعنى إراءه الطريق تعم الجميع فمن تعرض لهذه النفعه الإلهيه و لم يقطع طريق وصولها إليه بالفسق و الكفر و العناد شملته و أحيته بأطيب الحياه،و من اتبع هواه و عاند الحق و استعلى على الله و أخذ يمكن الله،و يستهزئ بآياته حرمه الله السعاده و أنزل الله عليه الشقوه و أضله على علم و طبع عليه بالكفر فلا ينجو أبدا.

و لو لا جريان المشيه الإلهيه على هذه السنه بطل نظام الأسباب و قانون العليه و المعلوليه و حلت الإراده الجزافيه محله و لغت المصالح و الحكم و الغايات،و أدى فساد هذا النظام الى فساد نظام التكوين لأن التشريع ينتهى بالآخره الى التكوين بوجه و ديب الفساد إليه يؤدى الى فساد أصله.

و هذا كما أن الله سبحانه لو اضطر المشركين على الإيمان و خرج بذلك النوع الإنساني عن منشعب طريقي الإيمان و الكفر، و سقط الاختيار الموهوب له و لازم بحسب الخلقه الإيمان، و استقر في أول وجوده على أريكه الكمال، و تساوى الجميع في القرب و الكرامه كان لازم ذلك بطلان نظام الدعوه و لغو التريبه و التكميل، و ارتفع الاختلاف بين الدرجات و أدى ذلك الى بطلان اختلاف الاستعدادات و الاعمال و الاحوال و الملكات و انقلب بذلك النظام الإنساني و ما يحيط به و يعمل فيه من نظام الوجود الى نظام آخر لا خبر فيه عن إنسان أو ما يشعر به فافهم ذلك.

فالمعنى: أعرض عنهم و لا يأخذك من جهه شركهم وجد و لا حزن فإن الله قادر أن يشاء منهم الإيمان فيؤمنوا كما شاء ذلك من المؤمنين فآمنوا. على أنك لست بمسئول عن أمرهم لا تكويننا و لا غير فلتطب نفسك.

قوله تعالى: **وَ لَا تَسْتَبِئُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسْتَبِئُوا اللَّهَ عَدُوًّا بَغِيْرٍ عِلْمِ السَّبِّ** معروف، قال الراغب في المفردات: العدو التجاوز و منافاه الالتيام فتاره يعتبر بالقلب فيقال له: العداوه و المعاداه، و تاره بالمشى فيقال له العدو، و تاره في الإخلال بالعداله في المعامله فيقال له العدوان و العدو قال: فيسبوا الله عدوا بغير علم و تاره بأجزاء المقر فيقال له العدو يقال: مكان ذو عدواء أى غير متلائم الأجزاء. انتهى.

و الآيه تذكر أدبا دينيا تصان به كرامه مقدسات المجتمع الدينى و تتوقى ساحتها أن يتلوث بدرن الإهانه و الإزرء بشنيع القول و السب و الشتم و السخرية و نحوها فإن الإنسان مغرور على الدفاع عن كرامه ما يقده، و المقابله فى التعدى على ما يحسبه متعديا الى نفسه، و ربما حمله الغضب على الهجر و السب لما له عنده أعلى منزله العزه و الكرامه فلو سب المؤمنون آلهه المشركين حملتهم عصبية الجاهليه أن يعارضوا المؤمنين بسب ما له عندهم كرامه الالوهيه و هو الله عز اسمه ففى سب آلهتهم نوع تسبب الى ذكره تعالى ما لا يليق بساحه قدسه

و عموم التعليل المفهوم من قوله: «كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّهٍ عَمَلُهُمْ» يفيد عموم النهى لكل قم سيئ يؤدي الى ذكر شىء من المقدسات الدينيه بالسوء بأى وجه أدى.

قوله تعالى: كَذَلِكَ زَيْنًا لِكُلِّ أُمَّهٍ عَمَلُهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ الزينه أمر جميل محبوب يضم الى الشىء ضمما يجلب الرغبه إليه و يحبه عند طالبه فيتحرك نحو الزينه و ينتهى الى الشىء المترين بها كاللباس المزين بهيئته الحسنه الذى يلبسه الإنسان لزيئته فيصان به بدنه عن الحر و البرد.

و قد أراد الله سبحانه أن يعيش الإنسان هذه العيشه الدنيويه ذات الشعب و الفروع و يديم حياته الأرضيه الخاصه به من طريق إعمال قواه الفعاله فيدرك ما ينفعه و ما يضره بحواسه الظاهره ثم يتصرف فيها بحواسه و قواه الباطنه ثم يتغذى بأكل أشياء و شرب أشياء و يهيج الى النكاح بأعمال خاصه و يلبس و يأوى و يجلب و يدفع و هكذا.

و له فى جميع هذه الأعمال و ما يتعلق بها لذائذ يقارنها و غايات حيويه ينتهى إليها و آخر ما ينتهى اليه الحياه السعيده الحقيقه التى خلق لها أو الحياه التى يظنها الحياه السعيده الحقيقه.

و هو إنما يقصد بما يعمله من عمل ما يتصل به من اللذه الماديه كلذه الطعام و الشراب و النكاح و غير ذلك أو اللذه الفكرية كلذه الدواء و لذه التقدم و الانس و المدح و الفخر و الذكر الخالد و الانتقام و الثروه و الأمن و غير ذلك مما لا يحصى.

و هذه اللذائذ أمور زينت بها هذه الأعمال و متعلقاتها، و قد سخر الله سبحانه بها الإنسان فهو يوقع الأفعال و يتوخى الأعمال لأجلها، و بتحققها يتحقق الغايات الإلهيه و الأغراض التكوينية كبقاء الشخص، و دوام النسل، و لو لا ما فى الأكل و الشرب و النكاح من اللذه المطلوبه لم يكن الإنسان ليتعب نفسه بهذه الحركات الشاقه المتعبه لجسمه و الثقيله على روحه فاختلف بذلك نظام الحياه، و فنى الشخص، و انقطع النسل فانقرض النوع، و بطلت حكمه

وقوله تعالى: **ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** يؤيد ما تقدم أن حكم التزيين عامّ شامل لجميع الاعمال الباطنيه كالإيمان والكفر والظاهرية كأعمال الجوارح الحسنه والسيئه فإن ظاهر الآيه أن الإنسان إنما يقصد هذه الاعمال و يوقعها لاجل ما يرغب فيه من زينتة غافلا- عن الحقائق المستوره تحت هذه الزينات المضروب عليها بحجاب الغفله ثم اذا رجعوا الى ربهم نبأهم بحقيقته ما كانوا يعملونه، و عاينوا ما هم مصروفون عنه، أما أولياء الرحمن فوجدوا ما لم يكن يعلم مما أخفى لهم من قره أعين، و أما أولياء الشيطان فبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون فظهور حقائق الاعمال يوم القيامة لا يختص بأحد القبيلين من الحسنات و السيئات.

قوله تعالى: **وَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ** -الى قوله- **عِنْدَ اللَّهِ الْجَهْدَ بفتح الجيم الطاقه و الإيمان جمع يمين و هى القسم، و جهد الإيمان أى ما تبلغه قدرتها و هو الطاقه، و المراد أنهم بالغوا فى القسم و أكدوه ما استطاعوا، و المراد بكون الآيات عند الله كونها فى ملكه و تحت سلطته لا ينالها أحد إلا بإذنه.**

فالمعنى: و أقسموا بالله و بالغوا فيه لئن جاءتهم آياته تدل على صدق النبى صلى الله عليه و آله و سلم فيما يدعو إليه ليؤمنن بتلك الآيه- و هذا اقتراح منهم للآيه كناية- قل إنما الآيات عند الله و هو الذى يملكها و يحيط بها و ليس إلّى من أمرها شىء حتى أجيبكم إليها من تلقاء نفسى.

قوله تعالى: **وَ مَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ** قرئ: لا يؤمنون بياء الغيبه و تاء الخطاب جميعا، و الخطاب على القراءه الاولى للمؤمنين بنوع من الالتفات، و على القراءه الثانيه للمشركين و الكلام من تتمه قول النبى صلى الله عليه و آله و سلم و هو ظاهر.

و الظاهر أن وَ مَا فِي قَوْلِهِ: وَ مَا يُشْعِرُكُمْ لِلْاِسْتِفْهَامِ، و المعنى: و ما هو الذى يفيد لكم العلم بواقع الأمر و هو أنهم لا يؤمنون اذا جاءتهم الآيات؟ فالكلام فى معنى قولنا:

هؤلاء يحلفون بالله لئن جاءتكم الآيات ليؤمنن بها فربما آمنتم و صدقتم بحلفهم و ليس لكم علم بأنهم اذا جاءتهم الآيات لا يؤمنون بها لأن الله لم يشأن إيمانهم فالكلام من الملاحم.

قوله تعالى: وَ نُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَ أَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ الخ؛ ظاهر السياق أن الجملة عطف على قوله: «لَا يُؤْمِنُونَ» و هى بمنزلة التفسير لعدم إيمانهم، و المراد بقوله: «أَوَّلَ مَرَّةٍ» الدعوة الاولى قبل نزول الآيات قبال ما يتصور له من المره الثانيه التى هى الدعوة مع نزول الآيات.

و المعنى أنهم لا- يؤمنون لو نزلت عليهم الآيات، و ذلك أنا نقلب أفئدتهم فلا يعقلون بها كما ينبغى أن يعقلوه، و أبصارهم فلا يبصرون بها ما من حقهم أن يبصروه فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا بالقرآن أول مره من الدعوة قبل نزول هذه الآيات المفروضه و نذرهم فى طغيانهم يترددون و يتحIRON. هذا ما يقضى به ظاهر سياق الآيه.

قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَ كَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ إِلَىٰ آخِرِ آيَةٍ؛ بيان آخر لقوله: «إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ» و أن قولهم: «لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا» دعوى كاذبه أجرأهم عليها جهلهم بمقام ربهم فليس فى وسع الآيات التى يظنون أنها أسباب مستقلة فى إيجاد الإيمان فى قلوبهم و إقذارهم على التلبس به أن تودع فى نفوسهم الإيمان إلا بمشيئه الله.

فهذا السياق يدل على أن فى الكلام حذفاً و إيجازاً، و المعنى: و لو أننا أجبناهم فى مسألتهم و آتيناهم أعاجيب الآيات فنزلنا اليهم الملائكة فعابوهم، و أحيينا لهم الموتى فواجهوهم و كلموهم و أخبروهم بصدق ما يدعون اليه، و حشرنا و جمعنا عليهم كل شىء قبيلاً قبيلاً و صنفاً صنفاً، أو حشرنا عليهم كل شىء قبلاً و مواجهه فشهدوا لهم بلسان الحال أو القال، ما

كانوا ليؤمنوا و لم يؤثر شيء من ذلك في استجابتهم للايمان إلا أن يشاء الله إيمانهم.

فلا يتم لهم الإيمان بشيء من الاسباب و العلل إلا بمشيئه الله فإن النظام الكونى على عرضه العريض و إن كان يجرى على طبق حكم السببيه و قانون العليه العام غير أن العلل و الاسباب مفتقره فى أنفسها متدليه الى ربها غير مستقله فى شيء من شئونها و مقتضياتها فلا يظهر لها حكم الا بمشيئه الله و لا يحيا لهم رسم الا بإذنه.

غير أن المشركين أكثرهم-و لعلهم غير العلماء الباغين منهم-يجهلون مقام ربهم و يتعلقون بالاسباب على أنها مستقله فى نفسها مستغنيه عن ربها فيظنون أن لو أتاهم سبب الايمان -و هو الآيه المقترحه- آمنوا و اتبعوا الحق و قد اختلط عليهم الامر بجهلهم فأخذوا هذه الأسباب الناقصه المفتقره الى مشيئه الله أسبابا مستقله تامه مستغنيه عنه.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الشياطين جمع شيطان و هو فى اللغه الشيرير غلب استعماله فى إبليس الذى يصفه القرآن و ذريته، و الجن من الجن بالفتح و هو الاستتار، و هو فى عرف القرآن نوع من الموجودات ذوات الشعور و الإراده مستور عن حواسنا بحسب طبعها و هم غير الملائكه.

يذكر القرآن أن إبليس الشيطان من سنخهم. و الوحي هو القول الخفى بإشاره و نحوها، و الزخرف الزينه المزوقه أو الشىء المزوق فزخرف القول الكلام المزوق المموه الذى يشبه الحق و ليس به، و غرورا مفعول مطلق لفعل مقدر من جنسه أو مفعول له.

و المعنى: و مثل ما جعلنا لك جعلنا لكل نبي عدوا هم شياطين الإنس و الجن يشير بعضهم الى بعض-و كأن المراد وحي شياطين الجن بالوسوسه و النزغه الى شياطين الإنس و وحي بعض شياطين الإنس الى بعض آخر منهم بإسرار المكر و التسويل- بأقوال مزوقه و كلمات مموهه يغرونهم بذلك غرورا أو لعورهم و إضلالهم بذلك.

و قوله: وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ يشير بذلك الى أن حكم المشيئه عام جار نافذ

فكما أن الآيات لا تؤثر في إيمانهم شيئا إلا بمشيئه الله كذلك معاداه الشياطين الأنبياء و وحيهم زخرف القول غرورا كل ذلك بإذن الله و لو شاء الله ما فعلوه و لم يوحوا ذلك فلم يكونوا عدوا للأنبياء، و بهذا المعنى يتصل هذه الآية بما قبلها لاشتراكهما في بيان توقّف الامور على المشيه.

و قوله: فَذَرَهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ تفرّيع على نفوذ الشميه أى اذا كانت هذه المعاداه و الإفساد بالوساوس كل ذلك بإذن الله و لم يكونوا بمعجزين لله فى مشيته النافذه الغالبه فلا يحزنك ما تشاهد من إخلالهم بالأمر و إفسادهم له بل اتركهم و ما يفترونه على الله من دعوى الشريك و نحوها.

فقوله: وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ فى معنى قوله فى صدر الآيات «وَ أَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا» .

و الكلام فى قوله تعالى: «وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَ الْجِنِّ» الخ؛ حيث أسند ظاهرا جعلهم عدوا للأنبياء- و فيه التسبب الى الشر و البعث الى الشرك و المعصيه- الى الله سبحانه و هو منزّه من كل شر و سوء نظير الكلام فى إسناده تزيين الأعمال الى الله سبحانه فى قوله: «كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ» و قد تقدم الكلام فيه، و كذا الكلام فى ظاهر ما يفيد فى الآية التالىة: «وَ لَتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ» الخ؛ حيث جعل هذه المظالم و الآثام غايات إلهيه للدعوه الحقّه.

قوله تعالى: وَ لَتَصْغَىٰ إِلَيْهِ أَفئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ الى آخر الآيه؛ الاعتراف هو الاكتساب، و ضمير المفرد للوحى المذكور فى الآيه السابقه، و اللازم فى قوله «لَتَصْغَىٰ» للغايه و الجملة معطوفه على مقدر، و التقدير: فعلنا ما فعلنا و شئنا ما شئنا و لم نمنع عن و حى بعضهم لبعض زخرف القول غرورا لغايات مستوره و لتصغى و تجيب إليه أفئده الذين لا- يؤمنون بالآخيره و ليرضوه و ليكتسبوا ما هم مكتسبون لينالوا بذلك جميعا ما

يسألونه بلسان استعدادهم من شقاء الآخرة، فإن الله سبحانه يمد كلا من أهل السعادة و أهل الشقاء بما يتم به سيرهم الى منازلهم و يرزقهم ما يقترحونه بلسان استعدادهم قال تعالى:

كُلًّا نُمِدُّ هُوَآءًا وَ هُوَآءًا مِّنْ عَطَايَ رَبِّكَ وَ مَا كَانَ عَطَايَ رَبِّكَ مَحْظُورًا (الإسراء ٢٠/١).

[سوره الأنعام (٦): الآيات ١١٤ الى ١٢١]

اشاره

أَفَعَيَّرَ اللَّهُ أَتْبَغَى حَكَمًا وَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١١٤) وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَ عَدْلًا لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١١٥) وَ إِنْ تَطَّعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَصِلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (١١٦) إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١١٧) فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ (١١٨) وَ مَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ قَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُررْتُمْ إِلَيْهِ وَ إِنْ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ (١١٩) وَ ذَرُوا ظَاهِرَ الْآثِمِ وَ بَاطِنَهُ إِنْ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْآثِمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠) وَ لَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يَذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ وَ إِنْ الشَّيَاطِينِ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ (١٢١)

ص: ٣٩٦

١- ١). الانعام ١٠٦-١١٣: بحث روائي في: مشركي مكة و اقتراحهم على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم في ترك الدعوى الى التوحيد و جواب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم لهم؛ تقلب القلوب الابصار.

قوله تعالى: أَفَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنَعِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: الْحَكْمُ وَالْحَاكِمُ بِمَعْنَى وَاحِدٍ إِلَّا أَنَّ الْحَكْمَ أَمْدَحَ لِأَنَّ مَعْنَاهُ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَتَحَاكَمَ إِلَيْهِ فَهُوَ لَا يَقْضِي إِلَّا بِالْحَقِّ وَقَدْ يَحْكُمُ الْحَاكِمُ بِغَيْرِ حَقٍّ. قَالَ: وَمَعْنَى التَّفْصِيلِ تَبْيِينُ الْمَعَانِي بِمَا يَنْفِي التَّخْلِيْطَ الْمَعْمَى لِلْمَعْنَى، وَيَنْفِي أَيْضًا التَّدَاخُلَ الَّذِي يُوْجِبُ نَقْصَانَ الْبَيَانِ عَنِ الْمَرَادِ، أَنْتَهَى.

وَفِي قَوْلِهِ: أَفَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْنَعِي حَكَمًا تَفْرِيعٌ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْبَصَائِرِ الَّتِي جَاءَتْ مِنْ قَبْلِهِ تَعَالَى، وَقَدْ ذَكَرَ قَبْلَ ذَلِكَ فِي الْقُرْآنِ أَنَّهُ كِتَابٌ أَنْزَلَهُ مَبَارَكٌ مُصَدِّقٌ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، وَالْمَعْنَى: أَفَغَيَّرَ اللَّهُ مَنْ سَئَرَ مِنْ تَدْعُونَ مِنَ الْآلِهَةِ أَوْ مَنْ يَنْتَمِي إِلَيْهِمْ أَطْلَبَ حَكْمًا يَتَّبِعُ حَكْمَهُ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ هَذَا الْكِتَابَ وَهُوَ الْقُرْآنُ مَفْصَلًا مَتَمِينًا بِعَضِّ مَعَارِفِهِ مِنْ بَعْضِ غَيْرِ مُخْتَلَطٍ بِعَضِّ أَحْكَامِهِ بِبَعْضٍ، وَلَا يَسْتَحِقُّ الْحَكْمَ إِلَّا مَنْ هُوَ عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ فَالْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (المؤمن ٢٠).

وَقَوْلِهِ: أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَى (يونس / ٣٥).

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ رُجُوعٌ إِلَى خُطَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِمَا يَتَأَكَّدُ بِهِ يَقِينَهُ وَيَزِيدُ فِي ثُبُوتِ قَدَمِهِ فِيمَا أَلْقَاهُ إِلَى الْمُشْرِكِينَ مِنْ

الخطاب المشعر بأن الكتاب النازل إليه منزل من ربه بالحق ففي الكلام التفات، وهو بمنزله المعترضه ليزيد بذلك رسوخ قدمه و اطمئنان قلبه و ليعلم المشركون أنه على بصيره من أمره.

و قوله: بِإِلْحَاقٍ مُتَعَلِّقٍ بِقَوْلِهِ: «مُنزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ» و كون التنزيل بالحق هو أن لا يكون بتنزيل الشياطين بالتسويل أو بطريق الكهان كما في قوله تعالى: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيَاطِينُ، نَزَّلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (الشعراء ٢٢٢/١) أو بتخليط الشياطين بعض الباطل بالوحى الإلهي، و قد أمن الله رسوله من ذلك بمثل قوله: عَالِمِ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا، لِيُعَلِّمَ أَنْ قَدْ أبلغوا رسالاتِ رَبِّهِمْ (الجن ٢٨/١).

قوله تعالى: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَ عِدْلًا لَا مَبْدَلَ لِكَلِمَاتِهِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ الكلمه - و هي ما دل على معنى تام أو غيره - ربما استعملت في القرآن في القول الحق الذى قاله الله عز من قائل من القضاء أو الوعد كما في قوله: وَ لَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّتَ بَيْنَهُمْ (يونس ١٩/١) يشير الى قوله لا دم عند الهبوط و لكم في الأرض مسبقاً و متاعاً إلى حين (البقره ٣٦/١) و قوله تعالى: حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ (يونس ٩٦/١) يشير الى قوله تعالى لا بليس: لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَ مِمَّنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (ص ٨٥) و قد فسرها في موضع آخر بقوله: وَ تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَ النَّاسِ أَجْمَعِينَ (هود ١١٩/١) و كقوله تعالى: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسَيْنِ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا (الأعراف ١٣٧/١) يشير الى ما وعدهم أنه سينجيهم من فرعون و يورثهم الأرض كما يشير إليه قوله: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (القصص ٥/١).

و ربما استعملت الكلمه في العين الخارجى كالإنسان مثلا كقوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ

بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ (آل عمران ٤٥) والعناية فيه أنه عليه السلام خرق عادته التدريج وخلق بكلمه إلهيه موجدته قال تعالى: إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (آل عمران ٥٩).

فظاهر سياق الآيات فيما نحن فيه يعطى أن يكون المراد بقوله: «وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا» كلمه الدعوه الإسلاميه و ما يلازمها من نبوه محمد صلى الله عليه و آله و سلم و نزول القرآن المهيمن على ما تقدم عليه من الكتب السماويه المشتمل على جوامع المعارف الإلهيه و كليات الشرائع الدينيه كما أشار إليه فيما حكى من دعاء إبراهيم عليه السلام عند بناء الكعبه رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ (البقره ١٢٩).

و أشار الى تقدم ذكره فى الكتب السماويه فى قوله: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ (الأعراف ١٥٧) و بذلك يشعر قوله فى الآيه السابقه: «وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَظُنُّونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ» و قوله الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ (البقره ١٤٦) الى غير من ذلك الآيات الكثيره.

فالمراد بتمام الكلمه-و الله أعلم-بلوغ هذه الكلمه أعنى ظهور الدعوه الإسلاميه بنبوه محمد صلى الله عليه و آله و سلم و نزول الكتاب المهيمن على جميع الكتب، مرتبه الثبوت و استقرارها فى مستقر التحقق بعد ما كانت تسير دهرا طويلا- فى مدارج التدريج بنبوه بعد نبوه و شريعته بعد شريعته فإن الآيات الكريمه داله على أن الشريعه الإسلاميه تتضمن جمل ما تقدمت عليه من الشرائع و تزيد عليها بما ليس فيها كقوله تعالى: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَ الَّذِي أُوحِيَنا إِلَيْكَ وَ مَا وَصَّينا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَ مُوسَى وَ عِيسَى (الشورى ١٣).

و بذلك يظهر معنى تمام الكلمه و أن المراد به انتهاء تدرج الشرائع من مراحل النقص الى مرحله الكمال، و مصداقه الدين المحمدي قال تعالى: وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ

صوغه لها و تقلبيها فى قالب الاعتبار، و ارتباطها بشئونه الحيويه و أعماله و أحواله لا يكاد يجد مصداقا يركن الإنسان فيه الى العلم الخالص و اليقين المحض اللهم إلا بعض الكليات النظرية التى ينتهى إليها مما يضطر الى الإذعان بها و الاعتماد عليها.

إلا- أن ذلك كله فيما يقبل التقريب و التخمين من جزئيات الامور فى الحياه، و أما السعاده الإنسانيه التى فيه فوز هذا النوع و فلاحه، و الشقاء الذى يرتبط به الهلاك الأبدى و الخسران الدائم، و ما يتوقف عليه التبصر فيهما من النظر فى العالم و صانعه و الغرض من إيجاده و ما ينتهى إليه الأمر من البعث و النشور و ما يتعلق به من النبوه و الكتاب و الحكم فإن ذلك كله مما لا يقبل الركون الى الظن و التخمين و الله سبحانه لا يرتضى من عباده فى ذلك إلا العلم و اليقين، و الآيات فى ذلك كثيره جدا كقوله تعالى: **وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ (الإسراء ٣٦).**

و من أوضحها دلالة هذه الآيه التى نحن فيها بين فيها أن أكثر اهل الأرض لركونهم العام الى الظن و التخمين لا يجوز طاعتهم فيما يدعون إليه و يأمرؤن به فى سبيل الله و طريق عبوديته لأن الظن ليس مما يكشف به الحق الذى يستراح إليه فى أمر الربوبيه و العبوديه لملازمته الجهل بالواقع و عدم الاطمئنان إليه، و لا عبوديه مع الجهل بالرب و ما يريده من عبده.

فهذا هو الذى يقضى به العقل الصريح، و قد أمضاه الله سبحانه كما فى قوله فى الآيه التاليه فى معنى تعليل النهى عن الطاعة: **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** حيث علل الحكم بعلم الله دون حكم العقل، و قد جمع سبحانه بين الطريقتين جميعا فى قوله:

وَ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ الظَّنُّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً - وهذا أخذ بحكم العقل - **فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَ لَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى (النجم ٣٠)** و فى ذيل الآيه استناد الى علم الله سبحانه و حكمه.

قوله تعالى: **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ**

ذكروا أن «أَعْلَمُ» إذا لم يتم بمن ربما أفاد معنى التفضيل و ربما استعمل بمعنى الصفه خاليه عن التفضيل، و الآيه تحتمل المعنيين جميعا إن أريد حقيقه العلم بالضالين و المهتدين فهو لله سبحانه لا يشاركه فيها أحد حتى يفضل عليه، و إن أريد مطلق العلم أعم مما كان المتصف به متصفا بذاته أو كان اتصافه به يعطيه منه تعالى كان المتعين هو معنى التفضيل فإن لغيره تعالى علما بالضال و المهتدي قدر ما أفاضه الله عليه من العلم.

و تعدى أعلم بالباء فى قوله: «أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ» يدل على أن قوله: «مَنْ يَضِلُّ» منصوب بنزع الخافض و التقدير: «أعلم بمن يضل» و يؤيده ما نقلناه آنفا من آيه سوره النجم.

قوله تعالى: فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ لما تمهّد ما قدّمه من البيان الذى هو حجه على أن الله سبحانه هو أحق بأن يطاع من غيره استنتج منه وجوب الأخذ بالحكم الذى شرّعه و هو الذى يدل عليه هذه الآيه، و وجوب رفض ما يبيحه غيره بهواه من غير علم و يجادل المؤمنيين فيه بوحى الشياطين إليه، و هو الذى يدل عليه قوله:

«وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ» الى آخر الآيه.

و من هنا يظهر أن العناية الأصلية متعلقه بجملتين من بين الجمل المتسقه فى الآيه الى تمام أربع آيات، و سائر الجمل مقصوده بتبعها يبين بها ما يتوقف عليه المطلوب بجهاته فأصل الكلام: فكلوا مما ذكر اسم الله عليه و لا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه أى فرّقوا بين المذكى و الميتة فكلوا من هذه و لا تأكلوا من ذاك، و إن كان المشركون يجادلونكم فى أمر التفريق.

فقوله: فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ تفرّيع للحكم على البيان السابق، و لذا أردفه بقوله: «إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ» و المراد بما ذكر اسم الله عليه الذى يبيحه المذكاه.

قوله تعالى: وَمِمَّا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ الى آخر الآيه؛ بيان تفصيلى لإجمال التفرّيع الذى فى الآيه السابقه، و المعنى: أن الله فصل لكم ما حرّم عليكم و استثنى صوره الاضطرار و ليس فيما فصل لكم ما ذكر اسم الله عليه فلا بأس بأكله و إن كثيرا

ليضلون بأهوائهم بغير علم إن ربك هو أعلم بالمعتدين المتجاوزين عن حدوده و هؤلاء هم المشركون القائلون: لا فرق بين ما قتلتموه أنتم و ما قتل الله فكلوا الجميع أو دعوا الجميع.

و يظهر بما مر أن معنى قوله: «وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا» ما لكم من نفع في أن لا تأكلوا، و ما للاستفهام التعجيبى، و قيل: المعنى ليس لكم أن لا تأكلوا، و ما للنفي.

و يظهر من الآية أن محرّمات الأكل نزلت قبل سورة الأنعام و قد وقعت في سورة النحل من السور المكيه فهى نازله قبل الأنعام.

قوله تعالى: وَ ذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَ بَاطِنَهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ و إن كانت مطلقه بحسب المضمون تنهى عن عامه الإثم ظاهره و باطنه غير أن ارتباطها بالسياق المتصل الذى لسابقتها و لاحقتها يقضى بكونها تمهيدا للنهى الآتى فى قوله: «وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ» و لازم ذلك أن يكون الأكل مما لم يذكر اسم الله عليه من مصاديق الإثم حتى يرتبط بالتمهيد السابق عليه فهو من الإثم الظاهر أو الباطن لكن التأكيد البليغ الذى فى قوله: «وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ» يفيد أنه من الإثم الباطن و إلا لم تكن حاجه الى تأكيده ذاك التأكيد الأكيد.

و قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ تعليل للنهى و إنذار بالجزاء السيئ.

قوله تعالى: وَ لَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ نهى هو زميل قوله «فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ» كما تقدم.

و قوله: وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ الى آخر الآية؛ بيان لوجه النهى و تثبيت له أما قوله: «وَ إِنَّهُ لَفِسْقٌ» فهو تعليل و التقدير: إنه لفسق و كل فسق يجب اجتنابه فالأكل مما لم يذكر اسم الله عليه واجب الاجتناب.

و أما قوله: وَ إِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَيْكُمْ أَوْيَاثِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ففيه رد ما كان المشركون يلقونه الى المؤمنين من الشبهه، و المراد بأولياء الشياطين هم المشركون، و معناه أن

ما يجادلکم به المشركون و هو قولهم: إنکم تأکلون مما قتلتم و لا تأکلون مما قتله الله یعنون الميته، هو مما أوحاه إليهم الشياطين من باطل القول، و الفارق أن أکل الميته فسق دون أکل المذکی، و أن الله حرّم أکل الميته و لم یحرّم أکل المذکی فليس فيما حرّمه الله ذکر ما ذکر اسم الله علیه.

و أما قوله: وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ فهو تهديد و تخويف بالخروج من الإيمان، و المعنى: إن أطعتم المشركين فی أکل الميته الذى يدعونکم إليه صرتم مشركين مثلهم إما لأنکم استنتم بسنّه المشركين، أو لأنکم بطاعتهم تكونوا أولياء لهم فتكونون منهم قال تعالى: وَ مَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ (المائدة ۵۱).

و وقوع هذه الجملة أعنى قوله: «وَ إِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ» الخ؛ فى ذیل النهی عن أکل ما لم یذكر اسم الله علیه دون الأمر بأکل ما ذکر اسم الله علیه يدل على أن المشركين كانوا يريدون من المؤمنین بجدالهم أن لا یترکوا أکل الميته لا أن یترکوا أکل المذکی.

[سوره الأنعام (۶): الآيات ۱۲۲ الى ۱۲۷]

إشارة

أَوْ مَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲۲) وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمًا لِيُكْفَرُوا فِيهَا وَ مَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ (۱۲۳) وَ إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سِيبَةَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (۱۲۴) فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَ مَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعْدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (۱۲۵) وَ هَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَضَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (۱۲۶) لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (۱۲۷)

قوله تعالى: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا الْآيَةُ واضحه المعنى و هى بحسب ما يسبق الى الفهم البسيط الساذج مثل مضروب لكل من المؤمن و الكافر يظهر بالتدبر فيه حقيقه حاله فى الهدى و الضلال.

فالإنسان قبل أن يمسه الهدى الإلهى كالميت المحروم من نعمه الحياه الذى لا حس له و لا حركه فإن آمن بربه إيمانا يرتضيه كان كمن أحياه الله بعد موته، و جعل له نورا يدور معه حيث دار يبصر فى شعاعه خيريه من شره و نفعه من ضره فيأخذ ما ينفعه و يدع ما يضره و هكذا يسير فى مسير الحياه.

و أما الكافر فهو كمن وقع فى ظلمات لا- مخرج له منها لا- مناص له عنها ظلمه الموت و ما بعد ذلك من ظلمات الجهل فى مرحله تمييز الخير من الشر و النافع من الضار، و نظير هذه الآيه فى معناها بوجه قوله تعالى: إِنَّمَا يَشْتَرِي الْجَاهِلُ الَّذِينَ يَشْرُونَ و الْمُؤْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ (الأنعام ٣٦) و قال تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً (النحل / ٩٧).

ففى الكلام استعاره الموت للضلال و استعاره الحياه للإيمان أو الاهتداء و الإحياء للهدايه الى الايمان و النور للتبصر بالأعمال الصالحه،و الظلمه للجهل كل ذلك فى مستوى التفهيم و التفهيم العموميّين لما أن أهل هذا الطرف لا يرون للإنسان بما هو إنسان حياه وراء الحياه الحيوانيه التى هى المنشأ للشعور باللذائذ الماديه و الحركه الاراديه نحوها.

فهؤلاء يرون أن المؤمن و الكافر لا يختلفان فى هذه الموهبه و هى فيهما شرع سواء فلا محاله عد المؤمن حيا بحياه الايمان ذا نور يمشى به فى الناس،وعد الكافر ميتا بميته الضلال فى ظلمات لا مخرج منها ليس إلا مبتنيا على عنايه تخيليه و استعاره تمثليه يمثل بها حقيقه المعنى المقصود.

لكن التدبر فى أطراف الكلام و التأمل فيما يعرّفه القرآن الكريم يعطى لآيه معنى وراء هذا الذى يناله الفهم العامى فإن الله سبحانه ينسب للإنسان الالهى فى كلامه حياه خالده أبديه لا تنقطع بالموت الدنيوى هو فيها تحت ولايه الله محفوظ بكلاءته مصون بصيانتة لا يمسه نصب و لا لغوب،و لا مذلّه شقاء و لا تعب،مستغرب فى حب ربه مبتهج ببهجه القرب لا يرى إلا خيرا،و لا يوجه إلا سعاده و هو فى أمن و سلام لا خوف معه و لا خطر،و سعاده و بهجه و لذه لا نفاذ لها و لا نهايه لأمدها.

و من كان هذا شأنه فإنه يرى ما لا يراه الناس،و يسمع ما لا يسمعون،و يعقل ما لا يعقلونه،و يريد ما لا يريدونه و إن كانت ظواهر أعماله و صور حركاته و سكناته تحاكي أعمال غيره و حركاتهم سكناتهم و تشابها فله شعور و إراده فوق ما لغيره من الشعور و الإراده فعنده من الحياه التى هى منشأ الشعور و الإراده ما ليس عند غيره من الناس فللمؤمن مرتبه من الحياه ليست عند غيره.

فقوله: **أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ** أى ضالا- من حيث نفسه أو ضالا- كافرا قبل أن يؤمن بربه و هو نوع من الموت فأحييناه بحياه الإيمان أو الهدايه و المآل واحد-و جعلنا له

نورا أى علما متولدا من إيمانه كما قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فِيما رواه الفريقان: «من عمل بما علم رزقه الله علم ما لم يعلم أو علمه الله ما لم يعلم». فإن روح الإيمان اذا تمكنت من نفس الإنسان و استقرت فيها حوّلت الآراء و الأعمال الى صور تناسبها و لا- تخالفها و كذلك سائر الملكات أعم من الفضائل و الرذائل اذا استقرت فى باطن الانسان لم تلبث دورا تحوّل آراءه و اعماله الى أشكال تحاكيها.

قوله تعالى: **كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ظاهر سياق صدر الآيه أن يكون التشبيه فى قوله: «كَذَلِكَ» من قبيل تشبيه الفرع بالأصل بعنايه إعطاء القاعده الكليه كقوله تعالى: **كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ** و قوله: **كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ** (الرعد ١٧) أى اتخذ ما ذكرناه من المثل أصلا و قس عليه كل ما عثرت به من مثل مضروب فمعنى قوله: «كَذَلِكَ زُيِّنَ» الخ؛ على هذا المثل المذكور أن الكافر لا- مخرج له من الظلمات، زين للكافرين أعمالهم فقد زينت لهم أعمالهم زينه تجذبهم إليها و تحبسهم و لا تدعهم يخرجوا منها الى فضاء السعاده و فسحه النور أبدا و الله لا يهدى القوم الظالمين.

قوله تعالى: **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَرًا مُجْرِمِيهَا** الى آخر الآيه؛ كأن المراد بالآيه أنا أحيينا جمعا و جعلنا لهم نورا يمشون به فى الناس، و آخرين لم نحيمهم فمكثوا فى الظلمات فهم غير خارجين منها و لا- أن أعمالهم المزينه تنفعهم و تخلصهم منها كذلك جعلنا فى كل قريه أكابر مجرميها ليمكروا فيها بالدعوه الدينيه و النبى و المؤمنين لكنه لا ينفعهم فإنهم فى ظلمات لا يبصرون بل إنما يمكرون بأنفسهم و لا يشعرون.

و على هذا فقوله: «كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» مسوق لبيان أن أعمالهم المزينه لهم لا تنفعهم فى استخلاصهم من الظلمات التى هم فيها، و قوله: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ» الخ؛ مسوق لبيان أن أعمالهم و مكرهم لا يضر غيرهم إنما و يقع مكرهم على أنفسهم و ما يشعرون لمكان ما غمرهم من الظلمه.

و الجعل في قوله: «جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكْبَارَ مُجْرِمِيهَا» كالجعل في قوله: «وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا» فالأنسب أنه بمعنى الخلق، والمعنى: خلقنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها و كون مكرهم غايه للخلقه و غرضاً للجعل نظير كون دخول النار غرضاً إلهياً في قوله: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ (الأعراف ١٧٩)» وقد مر الكلام في معنى ذلك في مواضع من هذا الكتاب. و إنما خص بالذكر أكابر مجرميها لأن المطلوب بيان رجوع المكر الى ماكره، و المكر بالله و آياته إنما يصدر منهم، و أما أصاغر المجرمين و هم العامه من الناس فإنما هم أتباع و أذئاب.

و أما قوله: «وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَ مَا يَشْعُرُونَ فَذَلِكَ أَن الْمَكْرَ هُوَ الْعَمَلُ الَّذِي يَسْتَبْطِنُ شِرًا وَ ضِرًا يَعُودُ إِلَى الْمَمْكُورِ بِهِ فَيُفْسِدُ بِهِ غَرَضَهُ الْمَطْلُوبَ وَ يَضِلُّ بِهِ سَعِيهِ وَ يَبْطُلُ نَجَاحَ عَمَلِهِ، وَ لَا غَرَضَ لِلَّهِ سَبْحَانَهُ فِي دَعْوَتِهِ الدِّينِيَّةِ، وَ لَا نَفْعَ فِيهَا إِلَّا مَا يَعُودُ إِلَى نَفْسِ الْمَدْعُودِينَ فَلَوْ مَكَرَ الْإِنْسَانُ مَكَرًا بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ لَيُفْسِدُ بِذَلِكَ الْغَرَضَ مِنَ الدَّعْوَةِ وَ يَمْنَعُ عَنِ نَجَاحِ السَّعْيِ فِيهَا فَإِنَّمَا مَكَرَ بِنَفْسِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُ. وَ اسْتَضَرَّ بِذَلِكَ هُوَ نَفْسَهُ دُونَ رَبِّهِ.

قوله تعالى: «وَ إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ - إِلَى قَوْلِهِ - رِسَالَتَهُ قَوْلِهِمْ: «لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ» يريدون به أن يؤتوا نفس الرساله بما لها من مواد الدعوه الدينيه دون مجرد المعارف الدينيه من أصول و فروع و إلا كان اللفظ المناسب له أن يقال: «مثل ما أوتى أنبياء الله» أو ما يشاكل ذلك كقولهم: لَوْ لَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ (البقره ١١٨) و قولهم: لَوْ لَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةَ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا (الفرقان ٢١).

فمرادهم أنا لن نؤمن حتى نوتى الرساله كما أوتيتها الرسل، و فيه شيء من الاستهزاء فإنهم ما كانوا قائلين بالرساله فهو بوجه نظير قولهم: لَوْ لَا - نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيَّ رَجُلٍ مِّنَ الْقُرَيْشِيِّينَ عَظِيمٍ (الزخرف ٣١) كما أن جوابه نظير جوابه و هو قوله تعالى: أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» .

و مما تقدم يظهر أن الضمير في قوله: «وَ إِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا» الخ؛ عائد الى «أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا» في الآيه السابقه، اذ لو رجع الى عامه المشركين لغى قولهم: «حَتَّى نُؤْتِيَ مَثَلًا مَّا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ» اذ لا معنى لرساله جميع الناس حيث لا أحد يرسلون إليه، و لم يقع قوله: «اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ» موقعه بل كان حق الجواب أنه لغو من القول كما عرفت.

و يؤيده الوعيد الذى فى ذيل الآيه: «سَيَصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ» حيث وصفهم بالإجرام و علل الوعيد بمكرهم، و لم ينسب المكر فى الآيه السابقه إلا الى أكابر مجرميها، و الصغار الهوان و الذله.

قوله تعالى: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ الشرح هو البسط و قد ذكر الراغب فى مفرداته أن أصله بسط اللحم و نحوه، و شرح الصدر الذى يعد فى الكلام و عاء للعلم و العرفان هو التوسعه فيه بحيث يسع ما يصادفه من المعارف الحقه و لا يدفع كلمه الحق اذا ألقيت إليه كما يدل عليه ما ذكر فى وصف الإضلال بالمقابله و هو قوله:

«يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا» الخ؛ فمن شرح الله صدره للإسلام و هو التسليم لله سبحانه فقد بسط صدره و وسعه لتسليم ما يستقبله من قبله تعالى من اعتقاد حق أو عمل دينى صالح فلا يلقى إليه قول حق إلا وعاه و لا عمل صالح إلا أخذ به و ليس إلا أن لعين بصيرته نورا يقع على الاعتقاد الحق فينوره أو العمل الصالح فيشرقه خلاف من عميت عين قلبه فلا يميز حقا من باطل و لا صدقا من كذب قال تعالى: فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (الحج ٤٦).

و قد بين تعالى شرح الصدر بهذا البيان فى قوله: أَمْ مَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ فوصفه فعرفه بأن صاحبه راكب نور من الله يشرق قدامه فى مسيره ثم عرفه بالمقابله بليته فى القلب يقبل به ذكر الله و لا يدفعه لقسوه ثم قال: اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعْرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ

تَلِينَ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكُمْ هُدًى اللَّهُ يَهْدِي بِهٖ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضَلِّ اللَّهُ فَلَا لَهُ مِنْ لَدُنِّهِ (الزمر ٢٣) فذكر لين القلب الى ذكر الله و طوعه للحق و أفاد أن ذلك هو الهدى الإلهي الذي يهدي به من يشاء، و عند ذلك يرجع الآيتان أعني آيه الزمر و الآيه التي نحن فيها الى معنى واحد و هو أن الله سبحانه عند هدايته عبدا من عباده يبسط صدره فيسع كل اعتقاد حق و عمل صالح و يقبله بلين و لا يدفعه بقسوه و هو نوع من النور المعنوي الذي ينور القول الحق و العمل الصالح و ينصر صاحبه فيمسك بما نوره فهذا معرّف يعرف به الهدايه الإلهيه.

و من هنا يظهر أن الآيه أعني قوله: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ» بمزله بيان آخر لقوله: «أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ» و التفریع الذي فی قوله: «فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ» الخ؛ من قبيل تفریع أحد البیانين على الآخر بدعوى أنه نتیجته كأن التصادق بين البیانين يجعل أحدهما نتیجه مترتبه و فرعا متفرعا على الآخر، و هو عنایه لطيفه.

و المعنى: فإذا كان من أحياء ابعدا ما كان ميتا على هذه الصفه و هى أنه على نور من ربه يستضىء به له واجب الاعتقاد و العمل فيأخذ به فمن يرد الله أن يهديه يوسع صدره لأن يسلم لربه و لا يستنكف عن عبادته فالاسلام نور من الله، و المسلمون لربهم على نور من ربهم.

قوله تعالى: «وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الْإِضْلَالُ مَقَابِلُ الْهُدَايَةِ، و لذا كان أثره مقابلا لأثرها و هو التضيق المقابل للشرح و التوسعه و أثره أن لا يسع ما يتوجه إليه من الحق و الصدق، و يتخرج عن دخولهما فيه، و لذا أردف كون الصدر ضيقا بكونه حرجا.

و الحرج على ما فى المجمع أضيق الضيق، و قال فى المفردات: أصل الحرج و الحراج مجتمع الشىء و تصور منه ضيق ما بينهما فقيل للضيق حرج و للإثم حرج. انتهى.

فقوله: حَرْجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ فى محل التفسير لقوله: «ضَيِّقًا»

و إشاره الى أن ذلك نوع من الضيق يناظر بوجه التضيق و التحرج الذى يشاهد من الظروف و الأوعيه اذا أريد إدخال ما هو أعظم منها و وضعه فيها.

و قوله: **كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ** إعطاء ضابط كلى فى إضلال الذين لا يؤمنون أنهم يفقدون حال التسليم لله و الانقياد للحق، و قد أطلق عدم الإيمان و إن كان مورد الآيات عدم الإيمان بالله سبحانه و هو الشرك به لكن الذى سبق من البيان فى الآيه يشمل عدم الإيمان بالله و هو الشرك، و عدم الإيمان بآيات الله و هو رد بعض ما أنزله الله من المعارف و الأحكام فقد دل على ذلك كله بقوله: «يَشْرَحُ صِدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ» الخ؛ و بقوله سابقا: «وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ» الخ؛ و قوله: «يَجْعَلُ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا» الخ؛ و بقوله سابقا: «فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا» .

و قد سمي فى الآيه الضلال الذى يساوق عدم الإيمان رجسا و الرجس هو القدر غير أنه اعتبر فيه نوعا من الاستعلاء الدال عليه قوله: «عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ» كأن الرجس يعلوهم و يحيط بهم فيحول بينهم و بين غيرهم فيتنفر منهم الطباع كما يتنفر من الغذاء الملطخ بالقدر.

و قد استدل بالآيه على أن الهدى و الضلال من الله لا صنع فيهما لغيره تعالى و هو خطأ فإن الآيه - كما عرفت - فى مقام بيان حقيقه الهدى و الضلال اللذين من الله و نوع تعريف لهما و تحديد لا فى مقام بيان انحصارهما فيه و انتفائهما عن غيره كما هو المدعى و هو ظاهر.

قوله تعالى: **وَ هَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا** الى آخر الآيه، الاشاره الى ما تقدم بيانه فى الآيه السابقه من صنعه عن الهدايه و الاضلال و قد تقدم معنى الصراط و استقامته و قد بين تعالى فى الآيه عما ذكره من شرح الصدر للاسلام اذا اراد الهدايه و من جعل الصدر ضيقا حرجا عن اراده الاضلال هو صراطه المستقيم و سنته الجاربه التى لا تختلف و لا تتخلف فما من مؤمن إلا و هو منشرح الصدر للاسلام بالله و غير المؤمن بالعكس من ذلك.

ف قوله تعالى: وَ هَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا بيان ثان و تأكيد لكون المعرف المذكور فى الآيه السابقه معرفًا جامعًا مانعًا للهدايه و الضلاله ثم أكد سبحانه البيان بقوله «قد بينا الآيات لقوم يذكرون» أى إن القول حق بين عند من تذكر و رجع الى ما أودعه الله فى نفسه من المعارف الفطريه و العقائد الأوليه التى بتذكرها يهتدى الإنسان الى معرفه كل حق و تمييزه من الباطل، و البيان مع ذلك لله سبحانه فإنه هو الذى يهدى الإنسان الى النتيجة بعد هدايته الى الحجه.

قوله تعالى: لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ هُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ المراد بالسلام هو معناه اللغوى-على ما يعطيه ظاهر السياق- هو التعرى من الآفات الظاهره و الباطنه، و دار السلام هى المحل الذى لا آفه تهدد من حل فيه من موت و عاهه و مرض و فقر و اى عدم و فقد آخر و غم و حزن، و هذه هى الجنه الموعوده و لا سيما بالنظر الى تقييده بقوله: «عِنْدَ رَبِّهِمْ» .

نعم اولياء الله تعالى يجدون فى هذه النشأه ما وعدهم الله من إسكانهم دار السلام لأنهم يرون الملك لله فلا يملكون شيئًا حتى يخافوا فقده أو يحزنوا لفقده قال تعالى: أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (يونس ٦٢) و هم لا شغل لهم إلا بربهم خلوا به فى حياتهم فلهم دار السلام عند ربهم- و هم قاطنون فى هذه الدنيا- و هو وليهم بما كانوا يعملون و هو سيرهم فى الحياه بنور الهدايه الإلهيه الذى جعله فى قلوبهم، و نور به أبصارهم و بصائرهم.

و رما قيل: المراد بالسلام هو الله، و داره الجنه، و السياق يأباه و ضمائر الجمع فى الآيه راجعه الى القوم فى قوله: «لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ» - على ما قيل- لأنه أقرب المراجع لرجوعها إليها غير أن التدبر فى الآيات يؤيد رجوعها الى المهتدين بالهدايه المذكوره بما أن الكلام فيهم و الآيات مسوقه لبيان حسن صنع الله بهم فالوعد الحسن المذكور يجب أن يعود إليهم، و أما

القوم المتذكرون فإنما ذكروا و دخلوا في غرض الكلام بالتبع (١)(٢).

[سوره الأنعام (٦): الآيات ١٢٨ الى ١٣٥]

اشاره

و يَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ قَدِ اسْتَكْرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَ قَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْمِعْ بَعْضًا مَّا بَعْضٌ وَ بَلَّغْنَا أَجَلَنَا
الَّذِي أَجَلْت لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٢٨) وَ كَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا
كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩) يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَ الْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَ يُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا
شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَ غَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَ شَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (١٣٠) ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى
بِظُلْمٍ وَ أَهْلُهَا غَافِلُونَ (١٣١) وَ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢) وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ
يُذْهِبْكُمْ وَ يَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣) إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (١٣٤)
قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (١٣٥)

ص: ٤١٣

١- ١. الانعام ١٢٢-١٢٧: كلام في معنى الهدايه الالهيه.

٢- ٢. الانعام ١٢٢-١٢٧: بحث روائي: معنى الحياه و الموت؛ القلب؛ شرح الصدر.

قوله تعالى: وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ -الى قوله- أَجَلْتُمْ لَنَا يقال: أكثر من الشيء أو الفعل و استكثر منه اذا أتى بالكثير، و استكثر الجن من الإنس ليس من جهة أعيانهم فإن الآتى بأعيانهم فى الدنيا و المحضر لهم يوم القيامة هو الله سبحانه، و إنما للشياطين الاستكثار مما هم مسيطون عليه و هو إغواء الإنس من طريق ولايتهم عليهم و ليست بولاية إجبار و اضطرار بل من قبيل التعامل من الطرفين يتبع التابع المتبوع ابتغاء لما يرى فى اتباعه من الفائدة، و يتولى المتبوع أمر التابع ابتغاء لما يستدر من النفع فى ولايته عليه و إداره شئونه، فللجن نوع التذاذ من إغواء الإنس و الولاية عليهم، و للإنس نوع التذاذ من اتباع الوسوس و التسويلات ليستدروا بذلك اللذائذ المادية و التمتع النفسانية.

و هذا هو الذى يعترف به أولياء الجن من الإنس بقولهم: ربنا استمتع بعضنا ببعض فتمتعنا بوساوسهم و تسويلاتهم من متاع الدنيا و زخارفها، و تمتعوا منا بما كانت تشتهيه أنفسهم حتى آل أمرنا الى ما آل إليه.

و من هنا يظهر- كما يعطيه السياق- أن المراد بالأجل فى قولهم: «وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتُمْ لَنَا» الحد الذى قدر لوجودهم و الدرجة التى حصلت لهم من أعمالهم دون الوقت الذى ينتهى إليه أعمارهم و بعبارة اخرى آخر درجة نالوها من فعلية الوجود لا الساعه التى ينتهى إليها حياتهم فيرجع المعنى الى أن بعضنا استمتع ببعض بسوء اختياره و سيئ عمله فبلغنا بذلك السير الاختيارى ما قدرت لنا من الأجل، و هو أنا ظالمون كافرون.

فمعنى الآية: و يوم يحشرهم جميعا ليم أمر الحجاج عليهم فيقول للجن: يا معشر الجن قد استكثرتم من ولاية الإنس و إغوائهم، و قال أولياؤهم من الإنس فى الاعتراف بحقيقه الأمر:

ربنا استمتع بعضنا ببعض فاستمتعنا معشر الإنس من الجن بأن تمتعنا بزخارف الدنيا و ما

تهواه أنفسنا بتسويلا-تهم، و تمتع الجن منا باتباع ما كانوا يلقون إلينا من الوسوس و كنا على ذلك حتى بلغنا آخر ما بلغنا من فعلية الحياه الشقيه و درجه العمل.

فهذا اعتراف منهم بأن الأجل و إن كان بتأجيل الله سبحانه لكنهم إنما بلغوه بطيهم طريق تمتع البعض من البعض، و هو طريق سلكوه باختيارهم. و لا يبعد أن يستظهر من هنا أن المراد بالجن الشياطين الذين يوسوسون في صدور الناس من الجن.

قوله تعالى: قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ الخ؛ هذا جواب منه سبحانه و قضاء عليه، و متن ما قضى به قوله: «النَّارُ مَثْوَاكُمْ» الخ.

و المثوى اسم مكان من قولهم: ثوى يثوى ثواء أى أقام مع استقرار فقوله: النار مَثْوَاكُمْ أى مقامكم الذى تستقرون فيه من غير خروج و لذا أكده بقوله؟ «خَالِدِينَ فِيهَا» و قوله «إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ» استثناء يفيد أن قدره الإلهيه باقيه مع ذلك على ما كانت فله مع ذلك أن يخرجكم منها و إن كان لا يفعل.

ثم تمم الآيه بقوله: «إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ» و هو يفيد تعليل البيان الواقع فى الآيه و الخطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ فيه بيان أن جعله تعالى بعض الظالمين أولياء يجرى على الحقيقه المبينه فى الآيه السابقه، و هو أن التابع يستمتع المتبوع من طريق تسويله و إغوائه فيكسب بذلك الذنوب و الآثام حتى يجعل الله المتبوع وليا عليه و يدخل التابع فى ولايته.

و قوله: بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ الباء للسببيه أو المقابله، و هو يفيد أن هذه التوليه إنما هى بنحو المجازاه يجازى بها الظالمين فى قبال ما اكتسبوه من المظالم لا- توليه ابتدائيه من غير ذنب سابق نظير ما فى قوله: «يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ» (البقره ٢٦). و قد التفت فى الآيه من الغيبه الى التكلم ليختص النبي صلى الله عليه و آله و سلم ببيان هذه

الحقيقه فإنهم غير لا-ثقين بتلقيها و إنما التفت الى التكلم لأن التكلم هو المناسب للمساره هذا و فى الآيات موارد آخر من الالتفات لا يخفى وجهها على المتدبر.

قوله تعالى: يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ.

فى هذا الخطاب دفع دخل يمكن أن يتوجه الى الحججه السابقه المأخوذه من اعترافهم بأنهم إنما وقعوا فيما وقعوا فيه من ولايه الشياطين بسوء اختيارهم.

و هو أنهم و إن ابتلوا بذلك من طريق الاختيار لكنهم لم يكونوا يعلمون أن هذه المعاصى و التمتعات سوف توردهم مورد الهلكه و تسجل عليهم ولايه الظالمين و الشياطين و يخسرهم بالشقاء الذى لا سعادته بعده أبدا فهم كانوا على غفله من ذلك و إن كانوا على علم فى الجملة بمساءه أعمالهم و شناعه أفعالهم و مؤاخذه الغافل ظلم.

فدفعه الله سبحانه بهذا الخطاب الذى يسألهم فيه عن إتيان الرسل و ذكرهم آيات الله و إنذارهم بيوم الجمع و الحساب فلما شهدوا على أنفسهم بالكفر بما جاء به الرسل تمت الكلمه و لزمت الحججه.

فمعنى الآية: أنا نخاطبهم جميعا فنقول لهم: يا معشر الجن و الإنس أ لم يأتكم رسل منكم أرسلناهم إليكم يقصون عليكم آياتى التى تدل على الدين الحق، و يندرونكم لقاء يومكم هذا و هو يوم القيامة و أن الله سيوقفكم موقف المساءله فيحاسبكم على أعمالكم ثم يجازيكم بما عملتم إن خيرا فخييرا و إن شرا فشيئا فإذا سألناهم عن ذلك أجابونا و قالوا: شهدنا على أنفسنا أن الرسل أتونا و قصوا علينا آياتك، و أنذرونا لقاء يومنا هذا، و شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بما جاء به الرسل رادين عليهم عن علم و ما كانوا غافلين.

قوله تعالى: ذَلِكْ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا غَافِلُونَ الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: «ذَلِكْ» إِلَى مَضْمُونِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الْبَيَانِ - عَلَى مَا يَعْطِيهِ السِّيَاقُ - وَقَوْلِهِ: «أَنْ لَمْ يَكُنْ» بِتَقْدِيرِ لَامِ التَّعْلِيلِ فَالْمَعْنَى أَنَّ الَّذِي بَيَّنَّاهُ مِنْ إِسْرَارِ الرُّسُلِ وَ التَّذْكَيرِ بِالْآيَاتِ وَ الْإِنْذَارِ

بيوم القيامة إنما هو لأن الله سبحانه ليس من سنته أن يهلك أهل القرى و يوردهم مورد السخط و العذاب و هم غافلون عما يريد منهم من الطاعة و يفعله بهم على تقدير المخالفه، و ذلك ظلم منه تعالى.

فهم و إن نزلوا منزل الشقاء بتأجيل الله سبحانه و قضائه و جعله بعضهم أولياء بعض لكنه تعالى لم يسلبهم القدره على الطاعة و لم يبطل منهم الاختيار فاختراروا الشرك و المعصيه ثم أرسل إليهم رسلا منهم يقصون عليهم آياته و يندرونهم لقاء يوم الحساب فكفروا بهم و مكثوا على بغيهم و عتوهم فجزاهم بولايه بعضهم بعضا و قضى عليهم بأن النار مثواهم فهم أنفسهم استدعوا الهلاك عن علم و إرادته، و لم يهلكهم الله و هم غافلون حتى يكون يظلمهم فهو الحكم العدل تبارك اسمه.

قوله تعالى: **وَ لِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَ مَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ** متعلق الكلم محذوف و هو الضمير الراجع الى الطائفتين، و المعنى: و لكل طائفه من طائفتي الجن و الإنس درجات من أعمالهم فإن الأعمال مختلفه و باختلافها يختلف ما توجه من الدرجات، و ما ربك بغافل عن أعمالهم.

قوله تعالى: **وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ** الى آخر الآيه؛ بيان عام لنفي الظلم عنه تعالى فى الخلقه.

و توضيحه: أن الظلم هو وضع الشىء فى غير موضعه الذى ينبغى أن يوضع عليه و بعبارته أخرى إبطال حق إنما يتحقق من الظلم بأخذ شىء أو تركه لأحد أمرين إما لحاجه منه إليه بوجه من الوجوه كأن يعود إليه أو الى من يهواه منه نفع أو يندفع عنه أو عما يعود إليه بذلك ضرر، و إما لا لحاجه منه إليه بل لشقوه باطنيه و قسوه نفسانيه لا يعبا بها بما يقاسيه المظلوم من المصيبه و يكابده من المحنه، ليس ذلك منه لحاجه بل من آثار الملكه المشومه.

و الله سبحانه منزه من هاتين الصفتين السيئتين فهو الغنى الذى لا تمسه حاجه و لا يعرضه

فقر، و ذو الرحمه المطلقه التي ينعم بها على كل شيء بما يليق بحاله فلا يظلم سبحانه أحدا، و هذا هو الذي يدل عليه قوله: «وَ رَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ» الخ؛ و معنى الآية: و ربك هو الذي يوصف بالغنى المطلق الذي لا فقر معه و لا حاجه، و بالرحمه المطلقه التي وسعت كل شيء و مقتضى ذلك أنه قادر على أن يذهبكم و يستخلف من بعدكم ما يشاء من الخلق برحمته و الشاهد عليه أنه أنشأكم برحمته من ذريه قوم آخرين أذهبهم بغناه عنهم.

و فى قوله: مَا يَشَاءُ دُونَ أَنْ يَقَالَ: مَنْ يَشَاءُ، إِبْهَامٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَى سَعَةِ الْقَدْرَةِ.

قوله تعالى: إِنَّ مَّا تُوَعَّدُونَ لَمَاتٍ وَ مَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ أَى الأمر الإلهى من البعث و الجزاء و هو الذى توعدون من طريق الوحى لآت البته و ما أنتم بمعجزين لله حتى تمنعوا شيئا من ذلك أن يتحقق فى الكلام تأكيد للوعد و الوعيد السابقين.

قوله تعالى: قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ المكانه هى المنزله و الحاله التى يستقر عليها الشىء، و عاقبه الشىء ما ينتهى إليه، و هى فى الأصل مصدر كالعقبى على ما قيل، و قولهم: كانت له عاقبه الدار كناية عن نجاحه فى سعيه و تمكنه مما قصده، و فى الآية انعطاف الى ما بدئ به الكلام، و هو قوله تعالى قبل عده آيات:

«اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ» .

و المعنى: قل للمشركين: يا قوم اعملوا على منزلتكم و حالتكم التى أنتم عليها من الشرك و الكفر- و فيه تهديد بالأمر- و دوموا على ما أنتم عليه من الظلم إنى عامل و مقيم على ما أنا عليه من الإيمان و الدعوه الى التوحيد فسوف تعلمون من يسعد و ينجح فى عمله، و أنا الناجح دونكم فإنكم ظالمون بشرككم و الظالمون لا يفلحون فى ظلمهم.

و ربما قيل: إن قوله: «إِنِّي عَامِلٌ» إخبار عن الله سبحانه أنه يعمل بما وعد به من البعث و الجزاء، و هو فاسد يدفعه سياق قوله: «فسوق تعلمون من تكون له عاقبه الدار».

وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِرِغْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادَهُمْ شُرَكَائِهِمْ لِزُدُّوهُمْ وَ لِيَلْبِسُوا عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرُّهُمْ وَ مِمَّا يَفْتَرُونَ (١٣٧) وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَ حَرْثٌ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِرِغْمِهِمْ وَ أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهُمْ وَ أَنْعَامٌ لَا يُذَكَّرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِدُكُورِنَا وَ مُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا وَ إِنْ يَكُنْ مِنْتَهُ فَمَتَىٰ فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَ صَفَّهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ حَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَ مَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٤٠) وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جِبَاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَ النَّخْلَ وَ الزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَ الزَّيْتُونَ وَ الرِّمَانَ مُتَشَابِهًا وَ غَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَ لَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (١٤١) وَ مِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَ فَرَشٌ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (١٤٢) ثُمَّ آتَيْنَاهُ آزْوَاجَ مِنَ الضَّانِّ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ تَبْنُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٤٣) وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٤٤) قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَ لَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤٥) وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَ مِنَ الْبَقَرِ وَ الْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَ إِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَ لَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧) سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَ لَا آبَاؤُنَا وَ لَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (١٤٨) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (١٤٩) قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمْ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَ لَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَ هُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١٥٠)

قوله تعالى: وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الذرء الإيجاد على وجه الاختراع و كأن الأصل فى معناه الظهور، و الحرث الزرع، و قوله: «بزعمهم» فى قوله: «فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ» نوع من التنزيه كقوله: وَ قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ (الأنبياء ٢٦). و الزعم الاعتقاد و يستعمل غالبا فيما لا يطابق الواقع منه.

و قوله: وَ هَذَا لَشُرِّكَائِنَا أَضَافَ الشُّرَكَاءَ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ أَثْبَتُوهَا وَ اعْتَقَدُوا بِهَا نَظِيرَ أَثْمِهِ الْكُفْرِ وَ أُنْمَتَهُمْ وَ أَوْلِيَائِهِمْ، وَ قِيلَ: أَضَيَّفَتِ الشُّرَكَاءَ إِلَيْهِمْ لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَجْعَلُونَ بَعْضَ أَمْوَالِهِمْ لَهُمْ فَيَتَّخِذُونَ مِنْهُمْ شُرَكَاءَ لِأَنْفُسِهِمْ.

و كيف كان فمجموع الجملتين أعنى قوله: «فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَ هَذَا لَشُرِّكَائِنَا» من تفریع التفصیل على الإجمال يفسر به جعلهم لله نصيبا من خلقه، و فيه توطئه و تمهيد لتفریع حكم آخر عليه، و هو الذى يذكره فى قوله: «فَمَا كَانَ لَشُرِّكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَ مَا كَانَ لِلَّهِ

فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شَرِّكَائِهِمْ» .

و إذا كان هذا الحكم على بطلانه من أصله و كونه افتراء على الله لا يخلو عن إزراء بساحته تعالى بتغليب جانب الأصنام على جانبه فبحه بقوله: «سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ» و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَائِهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قرأ غير ابن عامر «زين» بفتح الزاى فعل معلوم، و «قتل» بنصب اللام مفعول «زَيْنَ» و هو مضاف إلى «أَوْلَادِهِمْ» بالجر و هو مفعول «قَتَلَ» اضيف إليه، و «شُرَكَائِهِمْ» فاعل «زَيْنَ» .

و المعنى أن الأصنام بما لها من الوقع فى قلوب المشركين و الحب الوهمى فى نفوسهم زينت لكثير من المشركين أن يقتلوا أولادهم و يجعلوهم قرابين يتقربون بذلك الى الآلهة كما يضبطه تاريخ قدماء الوثنيين و الصابئين، و هذا غير مسأله الواد الذى كانت بنو تميم من العرب يعملون به فإن المأخوذ فى سياق الآية الأولاد دون البنات خاصة.

قوله تعالى: وَ قَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَ حَرَّتْ حِجْرٌ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الحجر بكسر الحاء المنع و يفسره قوله بعده: «لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ» أى هذه الأنعام و الحرث حرام إلا على من نشاء أن نأذن لهم، و روى: أنهم كانوا يقدمونها لآلهتهم و لا يحلون أكلها إلا لمن كان يخدم آلهتهم من الرجال دون النساء بزعمهم.

و قوله: وَ أَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهُمْ أَي و قالوا: هذه أنعام حرمت ظهورها أو و لهم أنعام حرمت ظهورها، و هى السائبه و البحيره و الحامى التى نفاها الله تعالى فى قوله: مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَ لَا سَائِبَةٍ وَ لَا وَصِيلَةٍ وَ لَا حَامٍ وَ لَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (المائدة ١٠٣) و قيل: هى بعض هؤلاء على الخلاف السابق فى معناها فى تفسير آيه المائدة.

و قوله: وَ أَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَي و لهم أنعام، الخ؛ و هى الأنعام

التي كانوا يهلون عليها بأصنامهم لا باسم الله، وقيل: هي التي كانوا لا يركبونها في الحج، وقيل: أنعام كانوا لا يذكرون اسم الله عليها ولا في شأن من شئونها، ومعنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ، المراد بما في البطن أجنه البحائر والسيب، فقد كانوا يحلون بها إذا ولدت حيه للرجال دون النساء وإن ولدت ميتة أكله الرجال والنساء جميعا، وقيل: المراد بها الألبان، وقيل:

الأجنه والألبان جميعا.

و المراد بقوله: سَيَّجِزِيهِمْ وَصِيَّ فَهْمٌ سَيَّجِزِيهِمْ نفس وصفهم فإنه يعود وبالاً- وعذابا عليهم ففيه نوع من العناية، وقيل: التقدير: سيجزيهم بوصفهم، وقيل: التقدير: سيجزيهم جزاء وصفهم، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ رَدَّ لِمَا حَكَىٰ عَنْهُمْ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ مِنَ الْأَحْكَامِ الْمَفْتَرَاءِ وَ هِيَ قَتْلُ الْأَوْلَادِ وَ تَحْرِيمُ أَصْنَافٍ مِنَ الْأَنْعَامِ وَ الْحَرْثِ وَ ذَكَرَ أَنَّ ذَلِكَ مِنْهُمْ خَسْرَانِ وَ ضَلَالٍ مِنْ غَيْرِ اهْتِدَاءِ.

وقد وصف قتل الأولاد بأنه سفه بغير علم، وكذلك بدل الأنعام والحرق من قوله ما رزقهم الله و وصف تحريمها بأنه افتراء على الله ليكون في ذلك تنبيه كالتعليل على خسرانهم في ذلك كأنه قيل: خسروا في قتلهم أولادهم لأنهم سفهوا به سفها بغير علم، وخسروا في تحريمهم أصنافا من الأنعام والحرق افتراء على الله لأنها من رزق الله وحاشاه تعالى أن يرزقهم شيئا ثم يحرمه عليهم.

ثم بين ضلالهم في تحريم الحرق والأنعام مع كونها من رزق الله بيانا تفصيليا بالاحتجاج من ناحية العقل و مصلحة معاش العباد بقوله: وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ إِلَىٰ تَمَامِ أَرْبَعِ آيَاتٍ؛ ثم من ناحية السمع و نزول الوحي بقوله: «قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ» إلى تمام الآية.

فيكون محصل الآيات الخمس أن تحريمهم أصنافا من الحرث و الأنعام ضلال منهم لا يساعدهم على ذلك حجه فلا العقل و رعايه مصلحه العباد يدلهم على ذلك، و لا الوحي النازل من الله سبحانه يهديهم إليه فهم في خسران منه.

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَ غَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ -الى قوله- وَ غَيْرَ مُتَشَابِهٍ .الشجره المعروفه هي التي ترفع أغصانها بعضا على بعض بدعائم كالكرم و أصل العرش الرفع فالجنت المعروفات هي بساتين الكرم و نحوها، و الجنت غير المعروفات ما كانت أشجارها قائمه على أصولها من غير دعائم.

و قوله: وَ الزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ أَى ما يؤكل منه من الحبات كالحنطه و الشعير و العدس و الحمص.

و قوله: وَ الزَّيْتُونَ وَ الزُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَ غَيْرَ مُتَشَابِهٍ أَى متشابه كل منها و غير متشابه على ما يفيدہ السياق، و التشابه بين الثمرتين باتحادهما فى الطعم أو الشكل أو اللون أو غير ذلك.

قوله تعالى: كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ الى آخر الآيه؛ الأمر للإباحه لوروده فى رفع الحظر الذى يدل عليه إنشاء الجنت و النخل و الزرع و غيرها، و السياق يدل على أن تقدير الكلام: و هو الذى أنشأ جنت و النخل و الزرع، الخ؛ و أمركم بأكل ثمر ما ذكر و أمركم بإيتاء حقه يوم حصاده، و نهاكم عن الإسراف. فأى دليل أدل من ذلك على إباحتها؟

و قوله: وَ آتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ أَى الحق الثابت فيه المتعلق به فالضمير راجع الى الثمر و أضيف إليه الحق لتعلقه به كما يضاف الحق أيضا الى الفقراء لارتباطه بهم و ربما احتمل رجوع الضمير الى الله كالضمير الذى بعده فى قوله: «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» و إضافته إليه تعالى لانتسابه إليه بجعله.

و هذا إشاره الى جعل حق ما للفقراء فى الثمر من الحبوب و الفواكه يؤدى إليهم يوم الحصاد

يدل عليه العقل و يمضيه الشرع و ليس هو الزكاه المشرعه فى الإسلام اذ ليست فى بعض ما ذكر فى الآيه زكاه.على أن الآيه مكيه و حكم الزكاه مدنى.

نعم لا- يبعد أن يكون أصلاً لتشريعيها فإن أصول الشرائع النازله فى السور المدنيه نازله على وجه الإجمال و الإبهام فى السور المكيه كقوله تعالى بعد عده آيات عند تعداد كليات المحرمات: قُلْ لِّعَالَمٍ أَنْتُمْ حَرَّمَ رَبُّكُمْ -الى أن قال- وَ لَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ (الأنعام ١٥١/).

و قوله: وَ لَا تُشِيرُوا الْخ؛ أى لا تتجاوزوا الحد الذى يصلح به معاشكم بالتصرف فيه فلا يتصرف صاحب المال منكم بالإسراف فى أكله أو التبذير فى بذله أو وضعه فى غير موضعه من معاصى الله و هكذا،و لا يسرف الفقير الآخذ بتضييعه و نحو ذلك،ففى الكلام إطلاق،و الخطاب فيه لجميع الناس.

قوله تعالى: وَ مِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَهُ وَ فَرْشاً الى آخر الآيه؛الحموله أكبر الأنعام لإطاعتها الحمل،و الفرش أصاغرها لأنها كأنها تفتش على الأرض أو لأنها توطأ كما يوطأ الفرش،و قوله: «كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ» إباحه للأكل و إمضاء لما يدل عليه العقل نظير قوله فى الآيه السابقه: «كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ» و قوله: «لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ» أى لا تسيروا فى هذا الأمر المشروع إباحته باتباع الشيطان بوضع قدمكم موضع قدمه بأن تحرموا ما أحله،و قد تقدم أن المراد باتباع خطوات الشيطان تحريم ما أحله الله بغير علم.

قوله تعالى: تَمَائِيَهُ أَرْوَاجٍ مِنَ الصَّانِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ الى آخر الآيه؛تفصيل للأنعام بعد الإجمال و المراد به تشديد اللوم و التوبيخ عليهم ببسطه على كل صوره من الصور و الوجوه،فقوله: «تَمَائِيَهُ أَرْوَاجٍ» عطف بيان من «حَمُولَهُ وَ فَرْشاً» فى الآيه السابقه.

و الأزواج جميع زوج،و يطلق الزوج على الواحد الذى يكون معه آخر و على الاثنين،

و أنواع الأنعام أربعه: الضأن و المعز و البقر و الإبل، و اذا لوحظت ذكرا و انثى كانت ثمانية أزواج.

و المعنى: أنشأ ثمانية أزواج من الضأن زوجين اثنين هما الذكر و الانثى و من المعز زوجين اثنين كالضأن قل الذكركين من الضأن و المعز حرم الله أم الانثيين منهما أم حرم ما اشتملت عليه أرحام الانثيين من الضأن و المعز نبئوني ذلك بعلم إن كنتم صادقين.

قوله تعالى: وَ مِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَ مِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ -الى قوله- الْأُنثِيَّيْنِ معناه ظاهر مما مر، و قيل: المراد بالاثنيين فى المواضع الأربعة من الآيتين الأهلى و الوحشى.

قوله تعالى: أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْنَاكُمْ بِاللَّهِ بِهَذَا الى آخر الآيه؛ هذا شق من ترديد حذف شقه الآخر على ما يدل عليه الكلام، و تقديره: أعلمتم ذلك من طريق الفكر كعقل أو سمع أم شاهدتم تحريم الله ذلك و شافهتموه فادعيتم ذلك.

و قوله: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا الخ؛ تفریع على ما قبله باعتبار دلالة على انقطاعهم عن الجواب و على ذلك فمعناه: فمن أظلم منكم، و يكون قوله: «مِمَّنِ افْتَرَى» الخ؛ كناية عن المشركين المخاطبين وضع موضع ضمير الخطاب الراجع إليهم ليدل به على سبب الحكم المفهوم من الاستفهام الإنكارى و التقدير: لا أظلم منكم لأنكم افترتتم على الله كذبا لتضلوا الناس بغير علم، و اذ ظلمتم فإنكم لا تهتدون إن الله لا يهدى القوم الظالمين.

قوله تعالى: قُلْ لَا أَجِدُ فِي مِٔةٍ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ الخ؛ معنى الآيه ظاهر، و قد تقدم فى نظيره الآيه من سوره المائده آيه ٣، و فى سوره البقره آيه ١٧٣ ما ينفع فى المقام.

قوله تعالى: وَ عَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ الخ؛ الظفر واحد الأظفار و هو العظم النابت على رءوس الأصابع، و الحوايا المباعر قال فى المجمع: موضع

الحوايا يحتمل أن يكون رفعا عطفا على الظهور و تقديره: أو ما حملت الحوايا، و يحتمل أن يكون نصبا عطفا على ما فى قوله: «إِلَّا مَا حَمَلَتْ» فأما قوله: «أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ» فَإِنَ مَا هَذِهِ مَعطوفه على ما الاول(انتهى) و الوجه الأول أقرب.

ثم قال: ذلك فى قوله-ذلك جزيناهم-يجوز أن يكون منصوب الموضع بأنه مفعول ثان لجزيناهم التقدير: جزيناهم ذلك بغيرهم، و لا يجوز أن يرفع بالابتداء لأنه يصير التقدير: ذلك جزيناهموه فيكون كقولهم: زيد ضربت أى ضربته، و هذا إنما يجوز فى ضروره الشعر. انتهى.

و الآيه كأنها فى مقام الاستدراك و دفع الدخل ببيان أن ما حرم الله على بنى إسرائيل من طيبات ما رزقهم إنما حرمه جزاء لغيرهم فلا ينافى ذلك كونه حلالا بحسب طبعه الأولى كما يشير الى ذلك قوله: كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ (آل عمران ٩٣) و قوله: فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَ بَصَدُّهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا (النساء ١٦٠).

قوله تعالى: فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ الى آخر الآيه؛ معنى الآيه ظاهر، و فيها أمر بإنذارهم و تهديدهم إن كذبوا بالأس الإلهى الذى لا مرد له لكن لا بيان يسلط عليهم اليأس و القنوط بل بما يشوبه بعض الرجاء، و لذلك قدم عليه قوله: «رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ» .

قوله تعالى: سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَ لَا آبَاؤُنَا وَ لَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ الْآيه تذكر احتجاجهم بهذه الحجه ثم ترد عليهم بأنهم جاهلون بها و إنما يركنون فيها الى الظن و التخمين، و الكلمه كلمه حق وردت فى كثير من الآيات القرآنيه لكنها لا تنتج ما قصدوه منها.

فإنهم إنما احتجوا بها لإثبات أن شركهم و تحريمهم ما رزقهم الله بامضاء من الله سبحانه لا بأس عليهم فى ذلك فحجتهم أن الله لو شاء منا خلاف ما نحن عليه من الشرك و التحريم لكنا

مضطرين على ترك الشرك و التحريم فإذ لم يشأ كان ذلك إذنا في الشرك و التحريم فلا بأس بهذا الشرك و التحريم.

و هذه الحجة لا- تنتج هذه النتيجة و إنما تنتج أن الله سبحانه اذ لم يشأ منهم ذلك لم يوقعهم موقع الاضطرار و الإيجاب فهم مختارون في الشرك و الكف عنه و في التحريم و تركه فله تعالى أن يدعوهم الى الإيمان به و رفض الافتراض فله الحجة البالغة و لا حجة لهم في ذلك إلا اتباع الظن و التخمين.

قوله تعالى: قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ كَأَن الْفَاءِ الْاُولَى لِتَفْرِيعِ مَضْمُونِ الْجُمْلَةِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِهِمْ: «لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا» الخ؛ و الفاء الثانية للتعليل فيكون الكلام من قبيل قلب الحجة على الخصم بعد بيان مقتضاها.

و المعنى ان نتيجة الحجة قد التبت عليكم بجهلكم و اتباعكم الظن و خرصكم في المعارف الإلهية فحجتكم تدل على أن لا حجة لكم في دعوته إياكم الى رفض الشرك و ترك الافتراء عليه، و إن الحجة إنما هي لله عليكم فإنه لو شاء لهداكم أجمعين و أجبركم على الإيمان و ترك الشرك و التحريم، و اذ لم يجبركم على ذلك و أبقاكم على الاختيار فله أن يدعوكم الى ترك الشرك و التحريم.

و بعبارة أخرى: يتفرع على حجتكم أن الحجة لله عليكم لأنه لو شاء لأجبر على الإيمان فهداكم أجمعين، و لم يفعل بل جعلكم مختارين يجوز بذلك دعوتكم الى ما دعاكم إليه.

و قد بين تعالى في طائفه من الآيات السابقة أنه تعالى لم يضطر عباده على الإيمان و لم يشأ منهم ذلك بالمشيه التكوينية حتى يكونوا مجبرين عليه بل أذن لهم في خلافه و هذا الإذن الذي هو رفع المانع التكويني هو اختيار العباد و قدرتهم على جانبى الفعل و الترك، و هذا الإذن لا ينافى الأمر التشريعى بترك الشرك مثلا بل هو الأساس الذى يبتنى عليه الأمر و النهى.

قوله تعالى: قُلْ هَلَمْ شُهَدَاءُ كُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ هلّم شهداءكم أى هاتوا شهداءكم و هو اسم فعل يستوى فيه المفرد والمثنى و المجموع، و المراد بالشهادة شهاده الأداء و الإشاره بقوله: «هذا» إلى ما ذكر من المحرمات عندهم، و الخطاب خطاب تعجيزى أمر به الله سبحانه ليكشف به أنهم مفترون فى دعواهم أن الله حرم ذلك فهو كناية عن عدم التحريم.

و قوله: فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ فى معنى الترقى، و المعنى: لا شاهد فيهم يشهد بذلك فلا تحريم حتى أنهم لو شهدوا بالتحريم فلا تشهد معهم اذ لا تحريم و لا يعاب بشهادتهم فإنهم قوم يتبعون أهواءهم.

فقوله: وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا الخ؛ عطف تفسير لقوله: «فَإِنْ شَهِدُوا فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ» أى أن شهادتك اتباع لأهوائهم كما أن شهادتهم من اتباع الأهواء و كيف لا؟ و هم قوم كذبوا بآيات الله الباهره، و لا يؤمنون بالآخره و يعدلون بربهم غيره من خلقه كالأوثان، و لا يجترئ على ذلك مع كمال البيان و سطوع البرهان إلا الذين يتبعون الأهواء (١).

[سورة الأنعام (٦): الآيات ١٥١ الى ١٥٧]

إشارة

قُلْ لِمَ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا يَفْقَهُونَ فَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّكُمْ لَفِي ذَلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّكُمْ لَفِي ذَلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٢) وَآتُوا زَكَاةَ ۚ إِنَّكُمْ لَفِي ذَلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣) ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَىٰ الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (١٥٤) وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٥٥) أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسِهِمْ لَعَافِينَ (١٥٦) أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُمْ مِنَ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَاءَ الَّذِي يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سَاءَ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧)

ص: ٤٢٩

قوله تعالى: قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا قِيلَ: تعال مشتق من العلو و هو أمر بتقدير أن الأمر في مكان عال و إن لم يكن الأمر على ذلك

بحسب الحقيقة، والتلاوه قريب المعنى من القراءة و قوله: «عَلَيْكُمْ» متعلق بقوله: «أَتْلُ» أو قوله: «حَرَّمَ» على طريق التنازع في المتعلق، وربما قيل: إن: «عَلَيْكُمْ» اسم فعل بمعنى خذوا و قوله: «أَلَا- تُشْرِكُوا» معموله و النظم: عليكم أن لا- تشركوا به شيئا و بالوالدين إحسانا، الخ؛ و هو خلاف ما يسبق الى الذهن من السياق.

و لما كان قوله: «تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ» الخ؛ دعوه الى التلاوه و وضع فى الكلام عين ما جاء به الوحي فى مورد المحرمات من النهى فى بعضها و الأمر بالخلاف فى بعضها الآخر فقال: «أَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» كما قال: «وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ» و «وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ» الخ؛ و قال: «وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا» كما قال: «وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ» و «إِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا» الخ.

و قد قدم الشرك على سائر المحرمات لأنه الظلم العظيم الذى لا مطمع فى المغفرة الإلهيه معه قال: إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَ يَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (النساء ٤٨) و إليه ينتهى كل معصيه كما ينتهى الى التوحيد بوجه كل حسنه.

قوله تعالى: وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا أى أحسنوا بالوالدين إحسانا، و فى المجمع: أى و أوصى بالوالدين إحسانا و يدل على ذلك أن فى «حرم كذا» معنى أوصى بتحريمه و أمر بتجنبه. انتهى.

و قد عدّ فى مواضع من القرآن الكريم إحسان الوالدين تاليا للتوحيد و نفى الشرك فامر به بعد الأمر بالتوحيد أو النهى عن الشرك به كقوله: وَ قَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا (الإسراء ٢٣) و قوله: وَ إِذِ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَ هُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ وَ وَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ (لقمان ١٤) و غير ذلك من الآيات.

و يدل ذلك على أن عقوق الوالدين من أعظم الذنوب أو هو أعظمها بعد الشرك بالله العظيم، و الاعتبار يهدى الى ذلك فإن المجتمع الإنسانى الذى لا يتم للإنسان دونه حياه و لا

دين هو أمر وضعى اعتبارى لا يحفظه فى حدوثة و بقاءه إلا حب النسل الذى يتكى على رابطة الرحمه المتكونه فى البيت القائمه بالوالدين من جانب و بالأولاد من جانب آخر، و الأولاد إنما يحتاجون الى رحمتها و إحسانها فى زمان تتوق أنفسهما الى نحو الأولاد بحسب الطبع، و كفى به داعيا و محرضا لهما الى الإحسان إليهم بخلاف حاجتهم الى رأفه الأولاد و رحمتهم فإنها بالطبع يصادف كبرهما و يوم عجزهما عن الاستقلال بالقيام بواجب حياتهما و شباب الأولاد و قوتهم على ما يعينهم.

و جفاء الأولاد للوالدين و عقوقهم لهما يوم حاجتهما إليهم و رجائهما منهم و انتشار ذلك بين النوع يؤدى بالمقابل الى بطلان عاطفه التوليد و التربيه، و يدعو ذلك من جهه الى ترك التناسل و انقطاع النسل، و من جهه الى كراهيه تأسيس البيت و التكاهل فى تشكيل المجتمع الصغير، و الاستنكاف عن حفظ سمة الابوه و الامومه، و ينجر الى تكوّن طبقه من الذريه الإنسانيه لا قربه بينهم و لا أثر من رابطة الرحم فيهم، و يتلاشى عندئذ أجزاء المجتمع، و يتشتت شملهم، و يتفرق جمعهم، و يفسد أمرهم فسادا لا يصلحه قانون جار و لا سنه دائره، و يرتحل عنهم سعادته الدنيا و الآخرة، و سنقدم إليك بحثا ضافيا فى هذه الحقيقه الدينيه إن شاء الله.

قوله تعالى: **وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ** الإملاق الإفلاس من المال و الزاد و منه التملق، و قد كان هذا كالسنه الجاربه بين العرب فى الجاهليه لتسرع الجذب و القحط الى بلادهم فكان الرجل اذا هدده الإفلاس بادر الى قتل أولاده تأنفا من أن يراهم على ذله العدم و الجوع.

و قد علل النهى بقوله: **«نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ»** أى إنما تقتلونهم مخافه أن لا تقدرُوا على القيام بأمر رزقهم و لستم برازقين لهم بل الله يرزقكم و إياهم جميعا فلا تقتلوهم.

قوله تعالى: **وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ الْفَوَاحِشِ** جميع

فاحشه و هي الأمر الشنيع المستقيح، وقد عدَّ الله منها في كلامه الزنا و اللواط و قذف المحصنات، و الظاهر أن المراد مما ظهر و مما بطن العلانيه و السر كالزنا العلني و اتخاذ الأخدان و الأخلاء سرا.

و في استباحه الفاحشه إبطال فحشها و شناعتها، و في ذلك شيوعها لأنها من أعظم ما تتوق إليه النفس الكارهه لأن يضرب عليها بالحرمان من ألد لذائذها و تحجب عن أعجب ما تتعلق به و تعزم به شهوتها، و في شيوعها انقطاع النسل و بطلان المجتمع البيتي و في بطلانه بطلان المجتمع الكبير الإنساني، و سوف نستوفي هذا البحث إن شاء الله فيما يناسبه من المحل.

و كذلك استباحه القتل و ما في تلوه من الفحشاء إبطال للأمن العام و في بطلانه انهدام بنيه المجتمع الإنساني و تبدد أركانه.

قوله تعالى: **وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ** أي حرم الله قتلها أو حرمة بالحرمة المشرعه لها التي تقيها و تحميها من الضيعه في دم أو حق، قيل: إنه تعالى أعاد ذكر القتل و إن كان داخلا في الفواحش تفخيما لشأنه و تعظيما لأمره، و نظيره الكلام في قتل الأولاد خشيه الإملاق اختص بالذكر عناية به، و قد كانت العرب يفعل ذلك بزعمهم أن خشيه الإملاق يبيح للوالد أن يقتل أولاده، و يصاب به ماء وجهه من الابتدال، و الابوه عندهم من أسباب الملك.

و قد استثنى الله تعالى من جهه قتل النفس المحترمه التي هي نفس المسلم و المعاهد قتلها بالحق و هو القتل بالقود و الحد الشرعي.

ثم أكد تحريم المذكورات في الآيه بقوله: **«ذَلِكُمْ وَصَّأَكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»** سيجيء الوجه في تعليل هذه المناهى الخمس بقوله: **«لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»**.

قوله تعالى: **«وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ النَّهْيُ عَنِ الْقُرْبِ لِلدَّلَالَةِ عَلَى التَّعْمِيمِ فَلَا يَحِلُّ أَكْلُ مَالِهِ وَ لَا اسْتِعْمَالُهُ وَ لَا أَى تَصَرُّفٍ فِيهِ إِلَّا**

بالطريقه التي هي أحسن الطرق المتصوره لحفظه، و يمتد هذا النهى و تدوم الحرمة الى أن يبلغ أشده فإذا بلغ أشده لم يكن يتيما قاصرا عن إداره ماله و كان هو المتصرف فى مال نفسه من غير حاجه بالطبع الى تدبير الولي لماله.

و من هنا يظهر أن المراد ببلوغه أشده هو البلوغ و الرشد كما يدل عليه أيضا قوله: وَ ابْتُلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَ لَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَ بِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا (النساء/٦).

و يظهر أيضا أنه ليس المراد بتحديد حرمة التصرف فى مال اليتيم بقوله: «حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ» رفع الحرمة بعد بلوغ الأشد و إباحه التصرف حينئذ بل المراد بيان الوقت الذى يصلح للاقتراب من ماله، و ارتفاع الموضوع بعده فإن الكلام فى معنى: و أصلحو مال اليتيم الذى لا يقدر على إصلاح ماله و إنمائه حتى يكبر و يقدر.

قوله تعالى: وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْرًا إِلَّا وُسْرًا بِالْقِسْطِ هو العمل بالعدل فيهما من غير بخس، و قوله: «لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْرًا» بمنزله دفع الدخل كأنه قيل: «إن الإيفاء بالقسط و الوقوع فى العدل الحقيقى الواقعى لا يمكن للنفس الإنسانية التى لا- مناص لها عن أن تلتجئ فى أمثال هذه الامور إلى التقريب فاجيب بأننا لا نكلف نفسا إلا وسعها، و من الجائز أن يتعلق قوله: «لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْرًا» بالحكمين جميعا أعنى قوله: «وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ» الخ؛ و قوله: «وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ» .

قوله تعالى: وَ إِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ذَكَرَ ذَى الْقُرْبَى وَ هُوَ الَّذى تدعو عاطفه القرابه و الرحم الى حفظ جانبه و صيانته من وقوع الشر و الضرر فى نفسه و ماله يدل على أن المراد بالقول هو القول الذى يمكن أن يترتب عليه انتفاع الغير أو تضرره كما أن ذكر العدل فى القول يؤيد ذلك، و يدل على أن هناك ظلما، و إن القول متعلق ببعض الحقوق كالشهاده و القضاء و الفتوى و نحو ذلك.

فالمعنى: وراقبوا أقوالكم التى فيها نفع أو ضرر للناس واعدلوا فيها، ولا يحملنكم رحمه أو رأفه أو أى عاطفه على أن تراعوا جانب أحد فتحرفوا الكلام و تجاوزوا الحق فتشهدوا أو تقضوا بما فيه رعايه لجانب من تحبونه و إبطال حق من تكرهونه.

قال فى المجمع: و هذا من الأوامر البليغه التى يدخل فيها مع قله حروفها الأقرير و الشهادات، و الوصايا، و الفتاوى، و القضايا، و الأحكام، و المذاهب، و الأمر بالمعروف، و النهى عن المنكر.

قوله تعالى: وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا قال الراغب فى المفردات: العهد حفظ الشىء و مراعاته حالا- بعد حال. انتهى. و لذا يطلق على الفرامين و التكليف المشرعه و الوظائف المحوِّله و على العهد الذى هو الموثق و على النذر و اليمين.

و كثره استعماله فى القرآن الكريم فى الفرامين الإلهيه، و إضافته فى الآيه الى الله سبحانه، و مناسبه المورد و فيه بيان الأحكام و الوصايا الإلهيه العامه كل ذلك يؤيد أن يكون المراد بقوله: «وَ بِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا» التكليف الدينيه الإلهيه، و إن كان من الممكن أن يكون المراد بالعهد هو الميثاق المعقود بمثل قولنا: عاهدت الله على كذا و كذا، قال تعالى: وَ أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا (الإسراء ٣٤) فيكون إضافته الى الله نظير إضافه الشهاده إليه فى قوله:

وَ لَا نَكْتُمُ شَهَادَةَ اللَّهِ (المائد ١٠٦) للإشاره الى أن المعامله فيه معه سبحانه. ثم أكد التكليف المذكوره فى الآيه بقوله: «ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» .

قوله تعالى: وَ أَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ الى آخر الآيه، قرئ «وَ أَنْ» بفتح الهمزه و تشديد النون و تخفيفها و كأنه بالعطف على موضع قوله: «أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» و قرئ بكسر الهمزه على الاستئناف.

و الذى يعطيه سياق الآيات أن يكون مضمون هذه الآيه أحد الوصايا التى أمر النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يتلوها عليهم و يخبرهم بها حيث قيل: «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ»، و لازم ذلك

أن يكون قوله: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ» مسوقا لا- لتعلق الغرض به بنفسه لأن كليات الدين قد تمت في الآيتين السابقتين عليه بل ليكون توطئه و تمهيدا لقوله بعده: «وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ» كما أن هذه الجملة بعينها كالتوطئه لقوله: «فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ» فالمراد بالآيه ان لا تتفرقوا عن سبيله و لا تختلفوا فيه، فتكون الآيه مسوقه سوق قوله: شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ (الشورى ١٣) فالأمر في الآيه بإقامه الدين هو ما وصى من الدين المشروع كأنه أعيد ليكون تمهيدا للنهي عن التفرق بالدين.

فالمعنى: و مما حرم ربكم عليكم و وصاكم به أن لا- تتبعوا السبل التي دون هذا الصراط المستقيم الذي لا- يقبل التخلف و الاختلاف و هى غير سبيل الله فإن اتباع السبل دونه يفرقكم عن سبيله فتختلفون فيه فتخرجون من الصراط المستقيم اذ الصراط المستقيم لا اختلاف بين أجزائه و لا بين سالكيه.

و مقتضى ظاهر السياق أن يكون المراد بقوله: «صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ» صراط النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فإنه هو الذى يخاطب الناس بهذه التكاليف عن أمر من ربه اذ يقول: «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ» الخ؛ فهو المتكلم معهم المخاطب لهم، و لله سبحانه فى الآيات مقام الغيبه حتى فى ذيل هذه الآيه اذ يقول:

«فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ» و لا ضمير فى نسبه الصراط المستقيم الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فقد نسب الصراط المستقيم الى جمع من عباده الذين أنعم الله عليهم من النبيين و الصديقين و الشهداء و الصالحين فى قوله: إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ (الحمد ٧).

قوله تعالى: ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، لما كان ما ذكره و وصى به من كليات الشرائع تكاليف مشرعه عامه لجميع ما أوتى الأنبياء من الدين، و هى أمور كلييه مجمله صحح ذلك الالتفات الى بيان أنه تعالى بعد ما

شرعها للجمع إجمالاً فصلها حيث اقتضت تفصيلها لموسى عليه السلام أولاً فيما أنزل عليه من الكتاب، وللنبي صلى الله عليه وآله وسلم ثانياً فيما أنزله عليه من كتاب مبارك فقال تعالى: «ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ» الخ.

فمعنى الآية: أنا بعد ما شرعنا من إجمال الشرائع الدينية آتينا موسى الكتاب تماماً تتم به نقيصه من أحسن منهم من حيث الشرع الإجمالى و تفصيلاً يفصل به كل شىء من فروع هذه الشرائع الإجمالية مما يحتاج إليه بنو إسرائيل و هدى لعلمهم بلقاء ربهم يؤمنون. هذا هو الذى يعطيه سياق الآية المتصل بسياق الآيات الثلاث السابقه.

فقوله: «ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ» رجوع الى السياق السابق الذى قبل قوله: «قُلْ نَعْلَمُ لَوْ أَنَّا أَتَلْنَا مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ» الآيات؛ و هو خطاب الله لنبية صلى الله عليه وآله وسلم بصيغه المتكلم مع الغير، و قد افيد بالتأخير المستفاد من لفظه «ثُمَّ» أن هذا الكتاب إنما انزل ليكون تماماً و تفصيلاً للإجمال الذى فى تلك الشرائع العامه الكليه.

و قوله: «تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ يَبِينُ أَنَّ إِنْزَالَ الْكِتَابِ لَتَمَّ بِهِ نَقِيصَهُ الَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْعَمَلِ بِهَذِهِ الشَّرَائِعِ الْكَلِيهِ الْعَامِهِ، وَ قَدْ قَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ مُوسَى بَعْدَ نَزُولِ الْكِتَابِ: وَ كَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا (الأعراف ١٤٥) و قال: وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَ قُولُوا حِطَّةً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَ سَتَرِيدُ الْمُحْسِنِينَ (البقره ٥٨) و على هذا فالموصول فى قوله: «عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ» يفيد الجنس.

و قوله: «وَ تَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ» أى مما يحتاج إليه بنو إسرائيل أو ينتفع به غيرهم ممن بعدهم، و هدى يهتدى به و رحمه ينعمون بها. و قوله: «لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ» فيه إشاره الى أن بنى إسرائيل كانوا يتثاقلون أو يستنكفون عن الإيمان بلقاء الله و اليوم الآخر، و مما يؤيده أن التوراه الحاضره التى يذكر القرآن أنها محرفه لا يوجد فيها ذكر من البعث يوم

القيامة، وقد ذكر بعض المؤرخين منهم أن شعب إسرائيل ما كانت تعتقد المعاد.

قوله تعالى: وَ هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ أَى و هذا كتاب مبارك يشارك كتاب موسى فيما ذكرناه من الخصيصه فاتبعوه، الخ.

قوله تعالى: أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابُ عَلَىٰ طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا الْخ؛ «أَنْ تَقُولُوا» معناه كراهه أن تقولوا، أو لثلا تقولوا، و هو شائع فى الكلام، و هو متعلق بقوله فى الآيه السابقه: «أَنْزَلْنَاهُ» .

و قوله: «طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا» يراد به اليهود و النصرارى أنزل عليهما التوراه و الإنجيل، و أما كتب الأنبياء النازله قبلهما مما يذكره القرآن مثل كتاب نوح و كتاب إبراهيم عليهما السلام فلم يكن فيها تفصيل الشرائع و إن اشتملت على أصلها، و أما سائر ما ينسب الى الأنبياء عليهم السلام من الكتب كزبور داود عليه السلام و غيره فلم تكن فيها شرائع و لا لهم بها عهد.

و المعنى أنا أنزلناه القرآن كراهه أن تقولوا: إن الكتاب الإلهى المفصل لشرائعه إنما انزل على طائفتين من قبلنا هم اليهود و النصرارى و إنما كنا غافلين عن دراستهم و تلاوتهم، و لا بأس علينا مع الغفله.

قوله تعالى: أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ أَى من الذين أنزل إليهم الكتاب قبلنا و قوله: «فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ» تفریع لقوليه: «أَنْ تَقُولُوا» «أَوْ تَقُولُوا» جميعا، و قد بدل الكتاب من البيئه ليدل به على ظهور حجته و وضوح دلالاته بحيث لا يبقى عذر لمعتذر و لا عله لمتعلل، و الصدق الإعراض و معنى الآيه ظاهر.

[سوره الأنعام (٦): الآيات ١٥٨ الى ١٦٠]

اشاره

هَيْلٌ يُنظُرُونَ إِلَّا- أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيْمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨) إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِيْنَهُمْ وَ كَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرٌ أَمْثَالِهَا وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلُهَا وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٦٠)

قوله تعالى: هَيْلٌ يَنْظُرُونَ إِلَّا- أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ استفهام إنكارى فى مقام لا تنفع فيه عظه و لا تنجح فيه دعوه فالأمور المذكوره فى الآيه لا محاله امور لا تصحب إلا القضاء بينهم بالقسط و الحكم الفصل بإذهابهم و تطهير الأرض من رجسهم.

و لازم هذا السياق أن يكون المراد بإتيان الملائكه نزولهم بآيه العذاب كما يدل عليه قوله تعالى: وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ، لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ، مَا نُنزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ (الحجر ٨).

و يكون المراد بإتيان الرب هو يوم اللقاء و هو الانكشاف التام لآيه التوحيد بحيث لا يبقى عليه ستر كما هو شأن يوم القيامة المختص بانكشاف الغطاء، و المصحح لإطلاق الإتيان على ذلك هو الظهور بعد الخفاء و الحضور بعد الغيبه جل شأنه عن الاتصاف بصفات الأجسام.

و ربما يقال: إن المراد إتيان أمر الرب و قد مرّ نظيره فى قوله تعالى: هَيْلٌ يَنْظُرُونَ إِلَّا- أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْعَمَامِ (البقره ٢١٠) فى الجزء الثانى من الكتاب.

و يكون المراد بإتيان بعض آيات الرب إتيان آية تلازم تبدل نشأه الحياه عليهم بحيث لا سبيل الى العود الى فسحه الاختيار كآيه الموت التى تبدل نشأه العمل نشأه الجزاء البرزخى أو تلازم استقرار ملكه الكفر و الجحود فى نفوسهم استقرارا لا يمكنهم معه الإذعان بالتوحيد و الإقبال بقلوبهم الى الحق إلا ما كان بلسانهم خوفا من شمول السخط و العذاب كما ربما دل عليه قوله تعالى: وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ (النمل ٨٢).

و كذا قوله تعالى: وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (السجده ٢٩) فإن الظاهر أن المراد بالفتح هو الفتح للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بالقضاء بينه و بين أمته بالقسط كما حكاه الله تعالى عن شعيب عليه السلام فى قوله: رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (الأعراف ٨٩) و حكاه عن رسله فى قوله: وَ اسْتَفْتَحُوا وَ خَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (إبراهيم ١٥).

أو تلازم بأسا من الله تعالى لا مرد له و لا محيص عنه فيضطرهم الله الإيمان ليتقوا به أليم العذاب لكن لا ينفعهم ذلك فلا ينفع من الإيمان إلا ما كان عن اختيار كما يدل عليه قوله تعالى: فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ، فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (المؤمن ٨٥).

فهذه أعنى إتيان الملائكه أو إتيان الرب أو إتيان بعض آياته أمور تصاحب القضاء بينهم بالقسط و هم لكونهم لا تؤثر فيهم حجه و لا تنفعهم موعظه لا ينظرون إلا ذلك و إن ذهلوا عنه فإن الواقع أمامهم علموا أو جهلوا.

و ربما قيل: إن الاستفهام للتهكم، فإنهم كانوا يقترحون على النبي صلى الله عليه و آله و سلم أن ينزل عليهم الملائكه أو يروا ربهم أو يأتيهم بآيه كما أرسل الأولون فكأنه قيل: هؤلاء لا يريدون حجه

و إنما ينتظرون ما اقترحوه من الامور.

و هذا الوجه غير بعيد بالنسبه الى صدر الآيه لكن ذيلها أعنى قوله: «يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ» الخ؛ لا يلائمه تلك الملاءمه فإن التهكم لا يتعدى فيه الى بيان الحقائق و تفصيل الآثار.

قوله تعالى: يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ الى آخر الآيه؛ يشرح خاصه يوم ظهور هذه الآيات، و هى فى الحقيقه خاصه نفس الآيات و هى أن الإيمان لا ينفع نفسا لم تؤمن قبل ذلك اليوم إيمان طوع و اختيار أو آمنت قبله و لم تكن كسبت فى إيمانها خيرا و لم تعمل صالحا بل انهمكت فى السيئات و المعاصى اذ لا توبه لمثل هذا الإنسان، قال تعالى: وَ لَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ (النساء/ ١٨)، فالنفس التى لم تؤمن من قبل إيمان طوع و رضى أو آمنت بالله و كذبت بآيات الله و لم تعتن بشيء من شرائع الله و استرسلت فى المعاصى الموبقه و لم تكتسب شيئا من صالح العمل فيما كان عليها ذلك ثم شاهدت البأس الإلهى فحملها الاضطرار الى الإيمان لترد به بأس الله تعالى لم ينفعها ذلك، و لم يرد عنها بأسا و لا يرد بأسه عن القوم المجرمين.

و فى قوله: لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ الْفصل بين الموصوف و الوصف بفاعل الفعل و هو إيمانها و كأنه للاحتراز عن الفصل الطويل بين الفعل و فاعله، و اجتماع: «فِي إِيْمَانِهَا» و «إِيْمَانُهَا» فى اللفظ.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيْعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ الخ؛ وجه الكلام السابق و إن كان مع المشركين و قد ابتلوا بتفريق الدين الحنيف، و كان أيضا لأهل الكتاب نصيب من الكلام و ربما لَوَحَ إليهم بعض التلويح و لازم ذلك أن ينطبق قوله «الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شِيْعًا» على المشركين بل عليهم و على اليهود و النصارى لاشتراك الجميع فى التفرق و الاختلاف فى الدين الإلهى.

لكن اتصال الكلام بالآيات المبينه للشرائع العامه الإلهيه التي تبتدئ بالنهي عن الشرك و تنتهى الى النهى عن التفرق عن سبيل الله يستدعى أن يكون قوله: «الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَ كَانُوا شَرِيعًا» موضوعا لبيان حال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم مع من كان هذا وصفه فالإتيان بصيغه الماضى فى قوله: «فَرَّقُوا دِينَهُمْ» لبيان أصل التحقق سواء كان فى الماضى أو الحال أو المستقبل لا تحقق الفعل فى الزمان الماضى فحسب.

و من المعلوم أن تمييز النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و إخراجهم من أولئك المختلفين فى الدين المتفرقين شيعه شيعه كل شيعه يتبع إماما يقودهم ليس إلا لأنه رسول يدعو الى كلمه الحق و دين التوحيد، و مثال كامل يمثل بوجوده الإسلام و يدعو بعمله إليه فيعود معنى قوله: «لَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ» الى أنهم ليسوا على دينك الذى تدعو إليه، و لا على مستوى طريقك الذى تسلكه.

فمعنى الآيه أن الذين فرقوا دينهم بالاختلافات التى هى لا- محاله ناشئه عن العلم-و ما اختلف الذين أتوه إلا- بغيا بينهم-و الانشعابات المذهبيه ليسوا على طريقتك التى بنيت على وحده الكلمه و نفى الفرقة إنما أمرهم فى هذا التفريق الى ربهم لا يماسك منهم شيء فينبئهم يوم القيامه بما كانوا يفعلون و يكشف لهم حقيقه أعمالهم التى هم رهنأؤها.

و قد تبين بما مر أن لا وجه لتخصيص الآيه بتبرئته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم من المشركين أو منهم و من اليهود و النصارى، أو من المختلفين بالمذاهب و البدع من هذه الامه فالآيه عامه تعم الجميع.

قوله تعالى: مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَ مَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلُهَا وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ الآيه تامه فى نفسها تكشف عن منه إلهيه يمتن بها على عباده أنه يجازى الحسنه بعشر أمثالها، و لا يجازى السيئه إلا بمثلها أى يحسب الحسنه عشره و السيئه واحده و لا يظلم فى الإيفاء فلا ينقص من تلك و لا يزيد فى هذه، إن أمكن أن يزيد فى جزاء الحسنه فيزيد على العشر كما يدل عليه قوله: مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٍ وَ اللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ

(البقره ٢٦١) و أمكن أن يعفو عن السيئه فلا يحسب حتى المثل الواحد.

لكنها أعنى الآيه باتصالها بما تقدمها و انتظامها معها فى سياق واحد تفيد معنى آخر كأنه قيل بعد سرد الكلام فى الآيات السابقه فى الاتفاق و الاجتماع على الحق و التفرق فيه: فهاتان خصلتان حسنه و سيئه يجزى فيهما ما يماثلهما و لا ظلم فإن الجزاء يماثل العمل فمن جاء بالحسنه فله مثلها و يضاعف له و من جاء بالسيئه و هى الاختلاف المنهى عنه فلا يجزى إلا سيئه مثلها و لا يطمعن فى الجزاء الحسن، و عاد المعنى الى نظير ما استفيد من قوله: وَ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا (الشورى ٤٠) أن المراد به بيان مماثله جزاء السيئه لها فى كونها سيئه لا يرغب فيها لا إثبات الوحده و نفى المضاعفه.

[سوره الأنعام (٦): الآيات ١٦١ الى ١٦٥]

اشاره

قُلْ إِنِّي هِدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مَلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ مَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صِدْقَاتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيَايَ وَ مَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَ بِذَلِكَ أُمِرْتُ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) قُلْ أَعْبُدُوا اللَّهَ أَعْبُدُوا رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَ لَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَ لَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤) وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَ رَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)

ص: ٤٤٣

قوله تعالى: قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ القيم بالكسر فالفتح مخفف القيام وصف به الدين للمبالغه فى قيامه على مصالح العباد، وقيل:

وصف بمعنى القيم على الأمر.

يأمر الله سبحانه أن يخبرهم بأن ربه الذى يدعو إليه هداه بهدايه إلهيه الى صراط مستقيم و سبيل واضح قيم على سالكيه لا تخلف فيه و لا- اختلاف ديننا قائما على مصالح الدنيا و الآخره أحسن القيام- لكونه مبنيًا على الفطره-مله إبراهيم حنيفًا مائلا عن التطرف بالشرك الى اعتدال التوحيد و ما كان من المشركين، و قد تقدم توضيح هذه المعانى فى تفسير الآيات السابقه من السوره.

قوله تعالى: قُلْ إِنَّ صِيْلَاتِي وَ نُسُكِي وَ مَحْيَايَ وَ مَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ -الى قوله- أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ النسك مطلق العباده، و كثر استعماله فى الذبح أو الذبيحه تقربا الى الله سبحانه.

أمره صَلَّى الله عليه و آله و سلم ثانيا أن يخبرهم بأنه عامل بما هداه الله إليه متلبس به كما أنه مأمور بذلك ليكون أبعد من التهمه عندهم و أقرب الى تلقيهم بالقبول فإن من اماره الصدق أن يعمل الإنسان بما يندب إليه، و يطابق فعله قوله.

فقال: قل: إننى جعلت صلاتى و مطلق عبادتى -و اختصت الصلاه بالذكر استقلالًا لمزيد العناية بها منه تعالى- و محيى بجميع ما له من الشئون الراجعه إلى من أعمال و أوصاف و أفعال و تروك، و ممتى بجميع ما يعود إلى من اموره و هى الجهات التى ترجع منه الى الحياه- كما قال:

كما تعيشون تموتون- جعلتها كلها لله رب العالمين من غير أن أشرك به فيها أحدا فأنا عبد فى جميع شئونى فى حياتى و مماتى لله وحده و جهت وجهى إليه لا أقصد شيئًا و لا أتركه إلا له و لا

أسير في مسير حياتي و لا أراد مماتي إلا له فإنه رب العالمين، يملك الكل و يدبر أمرهم.

و قد أمرت بهذا النحو من العبودية، و أنا أول المسلمين لله فيما أراده من العبودية التامة في كل باب وجهه.

قوله تعالى: [□] قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَىٰ رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ الخ؛ هذه الآية و التي بعدها تشتملان على حجج ثلاث هي جوامع الحجج المذكورة في السورة للتوحيد، و هي الحجج من طريق بدء الخلق، و الحجج من طريق عودها، و الحجج من حال الإنسان و هو بينهما و بعبارة أخرى الحجج من نشأه الحياه الدنيا و النشأه التي قبلها و التي بعدها.

فالحجج من طريق البدء ما في قوله: [□] «أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغَىٰ رَبًّا وَ هُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ» و من المعلوم أنه اذا كان رب كل شيء كان كل شيء مربوبا له فلا رب غيره على الإطلاق يصلح أن يعبد.

و الحجج من طريق العود ما يشتمل عليه قوله: [□] «وَ لَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا» [□] الى آخر الآية، أي أن كل نفس لا تعمل عملا و لا تكسب شيئا إلا حمل عليها و لا تزر وازره و زر اخرى حتى يحمل ما اكتسبته نفس على غيرها ثم المرجع الى الله و إليه الجزاء بالكشف عن حقائق أعمال العباد، و اذا كان لا محيص عن الجزاء و هو المالك ليوم الدين فهو الذي تتعين عبادته لا غيره ممن لا يملك شيئا.

و الحجج من طريق النشأه الدنيا ما في قوله: [□] «وَ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ» الخ؛ و محله أن هذا النظام العجيب الذي يحكم في معاشكم في الحياه الدنيا و هو مبني على خلافتكم في الأرض و اختلاف شئونكم بالكبر و الصغر و القوه و الضعف و الذكوريه و الانوثيه و الغنى و الفقر و الرئاسه و المرءوسيه و العلم و الجهل و غيرها و إن كان نظاما اعتباريا لكنه ناش من عمل التكوين منته إليه فالله سبحانه هو ناظمه، و إنما فعل ذلك لامتحانكم و ابتلائكم فهو الرب الذي يدبر أمر سعادتكم، و يوصل من أطاعه الى سعاده المقدره له و يذر الظالمين فيها جثيا، فهو الذي يحق عبادته.

وقد تبين بما مر أن مجموع الجملتين: «وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى» سيق لإفاده معنى واحد وهو أن ما كسبته نفس يلزمها ولا يتعدها، وهو مفاد قوله:

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِيْنَةٌ (المدثر ٣٨).

قوله تعالى: وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ الْخَلَائِفَ جمع خليفه أى يستخلف بعضهم بعضا أو استخلفكم لنفسه فى الأرض وقد مر كلام فى معنى هذه الخلافه فى تفسير قوله تعالى: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً (البقره ٣٠) فى الجزء الأول من الكتاب، و معنى الآيه ظاهر بما مر من البيان، وقد ختمت السور بالمغفره و الرحمه.

اشاره

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

[سوره الاعراف (۷): الآيات ۱ الى ۹]

اشاره

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ
(۱) كِتَابٌ اُنزِلَ اِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صِدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَ ذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِیْنَ (۲)
اَتَّبِعُوا مَا اُنزِلَ اِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَ لَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ اَوْلِیَاءَ قَلِیْلًا مَّا تَذَكَّرُونَ (۳) وَ كَمْ مِنْ قَرْیَةٍ اَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَیِّنًا اَوْ هُمْ
قَائِلُونَ (۴) فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ اِذْ جَاءَهُمْ اِلَّا اَنْ قَالُوا اِنَّا كُنَّا ظَالِمِیْنَ (۵) فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِیْنَ اُرْسِلَ اِلَيْهِمْ وَ لَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِیْنَ (۶)
فَلَنَقْصِنَّ عَلَیْهِمْ بَعْلَمٌ وَ مَا كُنَّا غَائِبِیْنَ (۷) وَ الْوَزْنَ یَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِیْنُهُ فَاُولٰٓئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۸) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِیْنُهُ
فَاُولٰٓئِكَ الَّذِیْنَ خَسِرُوا اَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآیَاتِنَا یُظْلَمُونَ (۹)

السوره تشتمل من الغرض على مجموع ما تشتمل عليه السور المصدّره بالحروف المقطعه «الم» و السوره المصدّره بحرف «ص» فليكن على ذكر منك حتى نستوفى ما استيفاؤه من البحث فى أول سوره حم عسق إن شاء الله تعالى عن الحروف المقطعه القرآنيه.

و السوره كأنها تجعل العهد الإلهى المأخوذ من الإنسان على أن يعبد الله و لا يشرك به شيئاً أصلاً يبحث عما آل إليه أمره بحسب مسير الإنسانى فى الامم و الأجيال فأكثرهم نقضوه و نسوه ثم اذا جاءتهم آيات مذكّره لهم أو أنبياء يدعونهم إليه كذبوا و ظلّموا بها و لم يتذكر بها إلا الأقلون.

و ذلك أن العهد الإلهى الذى هو إجمال ما تتضمنه الدعوه الدينيه الإلهيه اذا نزل بالإنسان - و طبائع الناس مختلفه فى استعداد القبول و الرد- تحوّل لا محاله بحسب أماكن نزوله و الأوضاع و الأحوال و الشرائط الحافّه بنفوس الناس فأنّج فى بعض النفوس - و هى النفوس الطاهره الباقية على أصل الفطره- الاهتداء الى الإيمان بالله و آياته، و فى آخرين و هم الأ-كثرون ذووا النفوس المخلده الى الأرض المستغرقه فى شهوات الدنيا خلاف ذلك من الكفر و العتوّ.

و استتبع ذلك ألطافاً إلهيه خاصه بالمؤمنين من توفيق و نصر و فتح فى الدنيا، و نجاه من النار و فوز بالجنه و أنواع نعيمها الخالد فى الآ-خره، و غضباً و لعناً نازلاً على الكافرين و عذاباً واقعا يهلك جمعهم، و يقطع نسلهم، و يخمد نارهم، و يجعلهم أحاديث و يمزقهم كل ممزق،

و لعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون.

فهذه هي سنة الله التي قد خلت في عباده و على ذلك ستجري، و الله يحكم لا معقب لحكمه و هو على صراط مستقيم.

فتفاصيل هذه السنه اذا وصفت لقوم ليدعوهم ذلك الى الإيمان بالله و آياته كان ذلك إنذارا لهم، و اذا وصفت لقوم مؤمنين و لهم علم بربهم فى الجملة و معرفه بمقامه الربوبى كان ذلك تذكيرا لهم بآيات الله و تعليما بما يلزمه من المعارف و هى معرفه الله و معرفه أسمائه الحسنى و صفاته العليا و سنته الجاربه فى الآخرة و الاولى و هذا هو الذى يلوح من قوله تعالى فى الآيه الثانيه من السوره: «لِتُنذِرَ بِهِ وَ ذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ» أن غرضها هو الإنذار و الذكرى.

و السوره على أنها مكيه-إلا آيات اختلف فيها-وجه الكلام فيها بحسب الطبع الى المشركين و طائفه قليله آمنوا بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم على ما يظهر من آيات أولها و آخرها إنذار لعامة الناس بما فيها من الحجج و الموعظه و العبره، و قصه آدم عليه السلام و إبليس و قصص نوح و هود و صالح و لوط و شعيب و موسى عليهم السلام، و هى ذكرى للمؤمنين تذكركم ما يشتمل عليه إجمال إيمانهم من المعارف المتعلقة بالمبدأ و المعاد و الحقائق التى هى آيات إلهيه.

و السوره تتضمن طرفا عاليا من المعارف الإلهيه منها وصف إبليس و قبيله، و وصف الساعه و الميزان و الأعراف و عالم الذر و الميثاق و وصف الذاكرين لله، و ذكر العرش، و ذكر التجلى، و ذكر الأسماء الحسنى، و ذكر أن للقرآن تأويلا الى غير ذلك.

و هى تشتمل على ذكر إجمالى من الواجبات و المحرمات كقوله: قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالْقِسْطِ الْآيه ٢٩، و قوله: إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّى الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَ مَا بَطَّنَ (الآيه ٣٣)، و قوله قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ (الآيه ٣٢) فنزولها قبل نزول سوره الأنعام التى فيها قوله: قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ الْآيه (الأنعام ١٤٥)، فإن ظاهر الآيه أن الحكم بإباحه غير ما استثنى من المحرمات كان

نازلا قبل السوره فالإشاره بها الى ما فى هذه السوره.

على أن الأحكام و الشرائع المذكوره فى هذه السوره أوجز و أكثر إجمالاً مما ذكر فى سوره الأنعام فى قوله: «قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ» الآيات؛ و ذلك يؤيد كون هذه السوره قبل الأنعام نزولاً على ما هو المعهود من طريقه تشريع الأحكام فى الإسلام تدريجاً آخذاً من الإجمال الى التفصيل.

قوله تعالى: المص، كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَ ذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ تنكير الكتاب و توصيفه بالإنزال إليه من غير ذكر فاعل الإنزال كل ذلك للدلاله على التعظيم و يتخصص وصف الكتاب و وصف فاعله بعض التخصص بما يشتمل عليه قوله: «فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ» من التفریع كأنه قيل: هذا كتاب مبارك يقص آيات الله أنزله إليك ربك فلا يكن فى صدرك حرج منه كما أنه لو كان كتاباً غير الكتاب و ألقاه إليك ربك لكان من حقه أن يتحرج و يضيق منه صدرك لما فى تبليغه و دعوه الناس الى ما يشتمل عليه من الهدى من المشاق و المحن.

و قوله: «لِتُنذِرَ بِهِ» غايه للإنزال متعلقه به كقوله: «وَ ذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ» و تخصيص الذكرى بالمؤمنين دليل على أن الإنذار يعتمهم و غيرهم، فالمعنى: أنزل إليك الكتاب لتنذر به الناس و هو ذكرى للمؤمنين خاصه لأنهم يتذكرون بالآيات و المعارف الإلهيه المذكوره فيها مقام ربهم فيزيد بذلك إيمانهم و تقرّ بها أعينهم، و أما عامه الناس فإن هذا الكتاب يؤثر فيهم أثر الإنذار بما يشتمل عليه من ذكر سخط الله و عقابه للظالمين فى الدار الآخرة، و فى الدنيا بعذاب الاستئصال كما تشرحه قصص الأمم السالفه.

قوله تعالى: اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَ لَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ لما ذكر لنبيه صلى الله عليه و آله و سلم أنه كتاب أنزل إليه لغرض الإنذار شرع فى الإنذار و رجع من خطابه صلى الله عليه و آله و سلم الى خطابهم فإن الإنذار من شأنه أن يكون بمخاطبه المنذرين - اسم

مفعول-وقد حصل الغرض من خطاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

وخطابهم بالأمر باتباع ما أنزل إليهم من ربهم، وهو القرآن الأمر لهم بحق الاعتقاد وحق العمل أعنى الإيمان بالله وآياته و العمل الصالح الذين يأمر بهما الله سبحانه في كتابه و ينهى عن خلافهما، و الجملة أعنى قوله: «اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ» موضوعه وضع الكنايه كُنِيَ بها عن الدخول تحت ولايه الله سبحانه و الدليل عليه قوله: «وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ» حيث لم يقل في مقام المقابله: ولا تتبعوا غير ما أنزل إليكم.

و المعنى: ولا- تتبعوا غيره تعالى-و هم كثيرون-فيكونوا لكم أولياء من دون الله قليلا ما تذكرون، و لو تذكرتم لدرتتم أن الله تعالى هو ربكم لا رب لكم سواه فليس لكم من دونه أولياء.

قوله تعالى: وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا نِيْلًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ تذكير لهم بسنة الله الجارية في المشركين من الامم الماضية اذ اتخذوا من دون الله أولياء فأهلكهم الله بعذاب أنزله إليهم ليلا أو نهارا فاعترفوا بظلمهم.

و«البيات»التبيت و هو قصد العدو ليلا، و«القائلون»من القيلولة و هو النوم نصف النهار، و قوله: «بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ» و لم يقل ليلا أو نهارا كأنه للإشارة الى أخذ العذاب إياهم و هم آخذون في النوم آمنون مما كمن لهم من البأس الإلهي الشديد غافلون مغفلون.

قوله تعالى: فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ تتميم للتذكير يبين أن الإنسان بوجدانه و سرّه يشاهد الظلم من نفسه إن اتخذ من دون الله أولياء بالشرك، و أن السنة الإلهيه أن يأخذ منه الاعتراف بذلك ببأس العذاب إن لم يعترف به طوعا و لم يخضع لمقام الربوبيه فليعترف اختيارا و إلا فسيعترف اضطرارا.

قوله تعالى: فَلَنَسْئَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْئَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ دل البيان السابق على أنهم مكلفون بتوحيد الله سبحانه موظفون برفض الأولياء من دونه غير مخلين

و ما فعلوا، و لا متروكون و ما شاءوا، فإذا كان كذلك فهم مسئولون عما أمروا به من الإيمان و العمل الصالح، و ما كلفوا به من القول الحق، و الفعل الحق و هذا الأمر و التكليف قائم بطرفين:

الرسول الذى جاءهم به و القوم الذين جاءهم، و لهذا فرع على ما تقدم من حديث إهلاك القرى و أخذ الاعتراف منهم بالظلم قوله: «فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ» .

قوله تعالى: فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ دل البيان السابق على أنهم مريبون مدبرون فسيسألون عن أعمالهم ليجزوا بما عملوا، و هذا إنما يتم فيما إذا كان السائل على علم من أمر أعمالهم فإن المسئول لا يؤمن أن يكذب لجلب النفع الى نفسه و دفع الضرر عن نفسه فى مثل هذا الموقف الصعب الهائل الذى يهدده بالهلاك الخالد و الخسران المؤبد.

و لذلك فرع عليه قوله: «فَلَنَقْصُصَنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ» الخ؛ و قد نكر العلماء للاعتناء بشأنه و أنه علم لا يخطئ و لا يغلط، و لذلك أكده بعطف قوله: «وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ» عليه للدلالة على أنه كان شاهدا غير غائب، و إن وكل عليهم من الملائكة من يحفظ عليهم أعمالهم بالكتابة فإنه بكل شىء محيط.

قوله تعالى: وَ الْوِزْنَ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ الى آخر الآيتين الآيتان تخبران عن الوزن و هو توزيع الأعمال أو الناس العاملين من حيث عملهم، و الدليل عليه قوله تعالى: وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ -الى أن قال- وَ كَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ (الأنبياء ٤٧/)، حيث دل على أن هذا الوزن من شعب حساب الأعمال، و أوضح منه قوله: يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (الزلزال ٨/)، حيث ذكر العمل و أضاف الثقل اليه خيرا و شرا.

و بالجمله الوزن إنما هو للعمل دون عامله فالآيه تثبت للعمل وزنا سواء كان خيرا أو شرا غير أن قوله تعالى: أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا (الكهف ١٠٥)، يدل على أن الأعمال في صور الحبط-و قد تقدم الكلام فيه في الجزء الثاني من هذا الكتاب-لا وزن لها أصلا، ويبقى للوزن أعمال من لم تحبط أعماله (١)(٢).

[سوره الاعراف (٧): الآيات ١٠ الى ٢٥]

اشاره

وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (١٠) وَ لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَّكِبَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَمَّا تَبَيَّنَهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنْ أَيْمَانِهِمْ وَ عَنْ شَمَائِلِهِمْ وَ لَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ أَخْرُجْ مِنْهَا مَذْذُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) وَ يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَ زَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) فَوسَّسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِحِهِمَا وَ قَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَ قَاسِمَهُمَا إِنِّي لَكُلَّمَا لِمَنِ النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتِحُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَ نَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَ أَقُلَّ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسِنَا وَ إِن لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَ تَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥)

ص: ٤٥٣

١- ١). الاعراف ١-٩: كلام في وزن الاعمال يوم القيامة.

٢- ٢). الاعراف ١-٩: بحث روائي في: ميزان الاعمال يوم القيامة؛ تجسم الاعمال.

قوله تعالى: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ» التمكين في الأرض هو الإسكان و الإيطان فيها أى جعلنا مكانكم الأرض، و يمكن أن يكون من التمكين بمعنى الإقدار و التسليط، و يؤيد المعنى الثانى أن هذه الآيات تحاذى بنحو ما فى سورة البقره من قصه آدم و إبليس و قد بدئت الآيات فيها بقوله: هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا البقره ٢٩/، و هو التسليط و التسخير.

غير أن هذه الآيات التى نحن فيها لما كانت تنتهى الى قوله: «وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مَسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ» كان المعنى الأول هو الأنسب و قوله: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ» الخ؛ كالإجمال لما تفصله الآيات التالیه الى آخر قصه الجنه.

و المعایش جمع معيشه و هى ما يعاش به من مطعم أو مشرب أو نحوهما، و الآيه فى مقام الامتنان عليهم بما أنعم الله عليهم من نعمه سكنى الأرض أو التسلط و الاستيلاء عليها، و جعل لهم فيها من أنواع ما يعيشون به، و لذلك ختم الكلام بقوله: «قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ» .

قوله تعالى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ صَوْرَهُ قِصَهُ تَبْتَدِئُ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ إِلَىٰ تَمَامِ خَمْسِ عَشْرَةِ آيَةٍ يَفْصِلُ فِيهَا إِجْمَالُ الْآيَةِ السَّابِقَةِ وَ تَبِينُ فِيهَا الْعُلَلُ وَ الْأَسْبَابُ الَّتِي أَنْتَهَتْ إِلَىٰ تَمَكِينِ الْإِنْسَانِ فِي الْأَرْضِ الْمَدْلُولِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ» .

و لذلك بدئ الكلام فى قوله: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ» الخ؛ بلام القسم، و لذلك ايضا سيقى القصتان أعنى قصه الأمر بالسجده، و قصه الجنه فى صورته قصه واحده من غير أن تفصل القصة الثانية بما يدل على كونها قصه مستقلة كل ذلك ليتخلص الى قوله: «قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ» الى آخر الآيتين؛ فينطبق التفصيل على إجمال

قوله: «وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ» الآية.

و قوله: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ» الخطاب فيه لعامه الآدميين و هو خطاب امتناني كما مر نظيره في الآيه السابقه لأن المضمون هو المضمون و إنما يختلفان بالإجمال و التفصيل.

و على هذا فالانتقال في الخطاب من العموم الى الخصوص أعنى قوله: «ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ» بعد قوله: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ» يفيد بيان حقيقتين: الأولى: أن السجده كانت من الملائكه لجميع بنى آدم أى للنشأه الإنسانيه و إن كان آدم عليه السلام هو القبله المنصوبه للسجده فهو عليه السلام فى أمر السجده كان مثالا- يمثل به الإنسانيه نائبا مناب أفراد الإنسان على كثرتهم لا مسجودا له من جهه شخصه كالكعبه المفعوله قبله يتوجه إليها فى العبادات، و تمثل بها ناحيه الربوبيه.

قوله تعالى: فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ أخبر تعالى عن سجود الملائكه جميعا كما يصرح به فى قوله: فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. (الحجر / ٣٠)، و استثنى منهم إبليس و قد علل عدم ائتماره بالأمر فى موضع آخر بقوله: كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَيْنَ أَمْرِ رَبِّهِ (الكهف ٥٠)، و قد وصف الملائكه بمثل قوله: يَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَ هُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (الأنبياء ٢٧)، و هو بظاهره يدل على أنه من غير نوع الملائكه.

و لهذا وقع الخلاف بينهم فى توجيه هذا الاستثناء: أ هو استثناء متصل بتغليب الملائكه لكونهم أكثر و أشرف أو أنه استثناء منفصل و إنما أمر بأمر على حده غير الأمر المتوجه الى جمع الملائكه و إن كان ظاهر قوله: «مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ» أن الأمر لم يكن إلا واحدا و هو الذى وجهه الله الى الملائكه.

قوله تعالى: قَالَ مَا مَنَعَكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ يريد ما منعك أن تسجد كما وقع فى سوره ص من

قوله قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي (ص ٧٥)، و لذلك ربما قيل: إن «لا» زائده جيء بها للتأكيد كما في قوله: لَيْلًا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَيَّ شَيْءٌ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ (الحديد ٢٩).

و الظاهر أن «منع» مضمن نظير معنى حمل أو دعا، والمعنى: ما حملك أو ما دعاك على أن لا تسجد مانعا لك.

و قوله: «قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» يحكى عما أجاب به لعنه الله، و هو أول معصيته و أول معصيه عصى بها الله سبحانه فإن جميع المعاصي ترجع بحسب التحليل الى دعوى الإنسيه و منازعه الله سبحانه في كبريائه، و له رداء الكبرياء لا شريك له فيه، فليس لعبد مخلوق أن يعتمد على ذاته و يقول: أنا قبال الإيتيه الإلهيه التي عنت له الوجود، و خضعت له الرقاب، و خشعت له الأصوات، و ذل له كل شيء.

و لو لم تنجذب نفسه إلى نفسه، و لم يحتبس نظره في مشاهده إيتيه لم يتقيد باستقلال ذاته، و شاهد الإله القيوم فوقه فذلت له إيتيه ذله تنفى عنه كل استقلال و كبرياء فخضع للأمر الإلهي، و طاعته نفسه في الايتمار و الامتثال، و لم تنجذب نفسه إلى ما كان يتراءى من كونه خيرا منه لأنه من النار و هو من الطين بل انجذبت نفسه إلى الأمر الصادر عن مصدر العظمه و الكبرياء و منبع كل جمال و جلال.

و كان من الحرى إذا سمع قوله: «مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ» أن يأتي بما يطابقه من الجواب كأن يقول: منعى أنى خير منه لكنه أتى بقوله: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» ليظهر به الإيتيه، و يفيد الثبات و الاستمرار، و يستفاد منه أيضا أن المانع له من السجده ما يرى لنفسه من الخيره فقوله: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ» أظهر و أكد في إفاده التكبر.

و من هنا يظهر أن هذا التكبر هو التكبر على الله سبحانه دون التكبر على آدم.

ثم إنه في قوله: «أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ» استدل على كونه خيرا من

آدم بمبدأ خلقته و هو النار و أنها خير من الطين الذى خلق منه آدم، و قد صدق الله سبحانه ما ذكره من مبدأ خلقته حيث ذكر أنه كان من الجن، و أن الجن مخلوق من النار قال تعالى: **كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ** (الكهف ٥٠) و قال: **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صِلَابٍ مِنْ حَمِيمٍ مَسْنُونٍ وَ الْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ** (الحجر ٢٧)، و قال أيضا: **خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ وَ خَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ** (الرحمن ١٥).

لكنه تعالى لم يصدقه فيما ذكره من خيريته منه فإنه تعالى و إن لم يرد عليه قوله: **«أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ»** الخ؛ فى هذه السورة إلا أنه بين فضل آدم عليه و على الملائكة فى حديث الخلافه الذى ذكره فى سورة البقره للملائكة (١).

قوله تعالى: **قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ** التكبر هو أخذ الإنسان مثلا الكبر لنفسه و ظهوره به على غيره فإن الكبر و الصغر من الامور الإضافيه، و يستعمل فى المعانى غالبا فإذا أظهر الإنسان بقول أو فعل أنه أكبر من غيره شرفا أو جاها أو نحو ذلك فقد تكبر عليه و عده صغيرا، و إذا كان لا شرف و لا كرامه لشيء على شيء إلا ما شرفه الله و كرمه كان التكبر صفه مذمومه فى غيره تعالى على الإطلاق اذ ليس لما سواه تعالى إلا الفقر و المذله فى أنفسهم من غير فرق بين شيء و شيء و لا كرامه إلا بالله من قبله، فليس لأحد من دون الله أن يتكبر على أحد، و إنما هو صفه خاصه بالله سبحانه فهو الكبير المتعال على الإطلاق فمن التكبر ما هو حق محمود و هو الذى لله عز اسمه أو ينتهى اليه بوجه كالتكبر على أعداء الله الذى هو فى الحقيقه اعتزاز بالله، و منه ما هو باطل مذموم و هو الذى يوجد عند غيره بدعوى الكبر لنفسه لا بالحق.

و «الصَّاغِرِينَ» جمع صاغر من الصغار و هو الهوان و الذله، و الصغار فى المعانى كالصغر فى

ص: ٤٥٨

الصور، وقوله: «فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ» تفسير و تأكيد لقوله: «فَاهْبِطْ مِنْهَا» لأن الهبوط خروج الشيء من مستقره نازلا فيدل ذلك على أن الهبوط المذكور إنما كان هبوطا معنويا لا نزولا من مكان جسماني الى مكان آخر، ويتأيد به ما تقدم أن مرجع الضمير في قوله: «منها» وقوله: «فيها» هو المنزلة دون السماء أو الجنة إلا أن يرجعا الى المنزلة بوجه.

و المعنى: قال الله تعالى: فتنزل عن منزلتك حيث لم تسجد لما أمرتك فإن هذه المنزلة منزلة التذلل و الانقياد لي فما يحق لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين أهل الهوان، وإنما أخذ بالصغار ليقابل به التكبر.

قوله تعالى: «قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»، قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ استمهال و إمهال، وقد فصل الله تعالى ذلك في موضع آخر بقوله: «قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (الحجر ٣٨)، (ص ٨١)، و منه يعلم أنه أمهل بالتهيؤ لا بالإطلاق الذي ذكره فلم يمهل الى يوم البعث بل ضرب الله لمهله أجالا دون ذلك و هو يوم الوقت المعلوم، و سيحيى الكلام فيه في سورة الحجر إنشاء الله تعالى.

فقوله تعالى: «إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ» إنما يدل على إجمال ما أمهل به، و فيه دلالة على أن هناك منظرين غيره.

و استمهاله الى يوم البعث يدل على أنه كان من همه أن يديم على إغواء هذا النوع في الدنيا و في البرزخ جميعا حتى تقوم القيامة فلم يجبه الله سبحانه الى ما استدعاه بل لعله أجابه الى ذلك الى آخر الدنيا دون البرزخ فلا سلطان له في البرزخ سلطان الإغواء و الوسوسة و إن كان ربما صحب الإنسان بعد موته في البرزخ مصاحبه الزوج و القرين كما يدل عليه ظاهر قوله تعالى: «وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ وَ إِنَّهُمْ لَيَصِيدُونَ النَّاسَ مِنَ الشَّيْبِ وَ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ حَتَّى إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَا لَيْتَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبُئْسَ

الْقَرِيبُ وَ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْكُم فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (الزخرف ٣٩)، و ظاهر قوله: أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَ أَزْوَاجَهُمْ (الصافات ٢٢).

قوله تعالى: قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ لَأَنْتَبِهَنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ الإغواء هو الإلقاء في الغي و الغوى هو الضلال بوجه و الهلاك و الخيبة، و الجملة أعنى قوله: «أَغْوَيْتَنِي» و إن فسر بكل من هذه المعانى على اختلاف أنظار المفسرين غير أن قوله تعالى فى سورة الحجر فيما حكاه عنه: «قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْمَآرِضِ وَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» يؤيد أن مراده هو المعنى الأول، و الباء فى قوله: «فبما» للسببية أو المقابلة، و المعنى: فسبب إغوائك إياى أو فى مقابلة إغوائك إياى لأقعدن لهم، الخ؛ و قد أخطأ من قال: إنها للقسم و كأن القائل أراد أن يطبقه على قوله تعالى فى موضع آخر حكايه عنه: «قَالَ فِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (ص / ٨٢).

و قوله: «لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ» أى لأجلسن لأجلهم على صراطك المستقيم و سبيلك السوى الذى يوصلهم إليك و ينتهى بهم الى سعادتهم لما أن الجميع سائرون إليك سالكون لا محاله مستقيم صراطك فالقعود على الصراط فالقعود على الصراط المستقيم كناية عن التزامه و الترصد لعابريه ليخرجهم منه.

و قوله: «ثُمَّ لَأَنْتَبِهَنَّ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ وَ عَنَ أَيْمَانِهِمْ وَ عَنَ شَمَائِلِهِمْ» بيان لما يصنعه بهم و قد كمن لهم قاعدا على الصراط المستقيم، و هو أنه يأتيهم من كل جانب من جوانبهم الأربعة.

و إذ كان الصراط المستقيم الذى كمن لهم قاعدا عليه أمرا معنويا كانت الجهات التى يأتيهم منها معنوية لا حسيه و الذى يستأنس من كلامه تعالى لتشخيص المراد بهذه الجهاد كقوله تعالى: يَعِدُّهُمْ وَ يُمَنِّيهِمْ وَ مَا يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (النساء ١٢٠)، و قوله إِنَّمَا

ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ (آل عمران ١٧٥) وقوله: وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ (البقره ١٦٨)، وقوله: الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَ يَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ (البقره ٢٦٨) الى غير ذلك من الآيات الكثيره هو أن المراد مما بين أيديهم ما يستقبلهم من الحوادث أيام حياتهم مما يتعلق به الآمال و الأمانى من الامور التى تهواه النفوس و تستلذه الطباع، و مما يكرهه الإنسان و يخاف نزوله به كالفقر يخاف منه لو أنفق المال فى سبيل الله أو ذم الناس و لومهم لو ورد سبيلا من سبل الخير و الثواب.

و المراد بخلفهم ناحيه الأولاد و الأعقاب فلإنسان فيمن يخلفه بعده من الأولاد آمال و أمانى و مخاوف و مكاره فإنه يخيل إليه أنه يبقى ببقائهم فيسره ما يسرهم و يسوءه ما يسوؤهم فيجمع المال من حلاله و حرامه لأجلهم، و يعد لهم ما استطاع من قوه فيهلك نفسه فى سبيل حياتهم.

و المراد باليمين و هو الجانب القوى الميمون من الإنسان ناحيه سعادتهم و هو الدين و إتيانه من جانب اليمين أن يزين لهم المبالغه فى بعض الامور الدينيه، و التكلف بما لم يأمرهم به الله و هو الذى يسميه الله تعالى باتباع خطوات الشيطان.

و المراد بالشمال خلاف اليمين، و إتيانه منه أن يزين لهم الفحشاء و المنكر و يدعوهم إلى ارتكاب المعاصى و اقتراف الذنوب و اتباع الأهواء.

قوله تعالى: قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَيْدُومًا مَّيْدُحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ الْخ؛ المذموم من ذامه يذامه و يذيمه اذا عابه و ذمه، و المذحور من دحره اذا طرده و دفعه بهوان.

و قوله: «لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ» الخ؛ اللام للقسمة و جوابه هو قوله: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ» الخ؛ لما كان مورد كلام إبليس -و هو فى صورته التهديد بالانتقام- هو بنى آدم و أنه سيبتل غرض الخلقه فيهم و هو كونهم شاكرين أجابه تعالى بما يفعل بهم و به فقال: «لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ» محاذاه لكلامه ثم قال: «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ» أى منك و منهم فأشركه فى الجزاء معهم.

وقد امتن تعالى في كلمته هذه التي لا بد أن تتم فلم يذكر جميع من تبعه بل أتى بقوله «مِنْكُمْ» وهو يفيد التبعض.

قوله تعالى: وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ خص بالخطاب آدم عليه السَّلام و ألحق به في الحكم زوجته، وقوله: «فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا» توسعه في إباحه التصرف إلا ما استثناء بقوله: «وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ» والظلم هو الظلم على النفس دون معصية الأمر المولوى فإن الأمر إرشادى.

قوله تعالى: فَوَسَّوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الوسوسة هي الدعاء الى أمر بصوت خفى، و الموارد ستر الشيء بجعله وراء ما يستتره، و السوات جمع السوءه و هي العضو الذى يسوء الإنسان إظهاره و الكشف عنه، و قوله: «مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ» الخ؛ أى إلا كراهه أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين.

و الملك و إن قرئ بفتح اللام إلا- أن فيه معنى الملك-بالضم فالسكون-و الدليل عليه قوله في موضع آخر: قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مَلِكٍ لَا يَبْلَىٰ (طه / ١٢٠).

و نقل في المجمع عن السيد المرتضى رحمه الله احتمال أن يكون المراد بقوله: «إِلَّا- أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ» الخ؛ أنه أوهمهما أن المنهى عن تناول الشجرة الملائكة خاصه و الخالدون دونهما فيكون كما يقول أحدنا لغيره: ما نهيت عن كذا إلا أن تكون فلانا، و إنما يريد أن المنهى إنما هو فلان دونك، و هذا أوكد فى الشبهه و اللبس عليهما(انتهى). لكن آيه سوره طه المنقوله آنفا تدفعه.

قوله تعالى: وَقَالِيْمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِيْنَ المقاسمه المبالغه فى القسم أى حلف لهما و أغلظ فى حلفه أنه لهما لمن الناصحين، و النصيح خلاف الغش.

قوله تعالى: فَذَلَّلَاهُمَا بِغُرُورٍ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ التذليله التقريب و الإيصال كما أن

التدلى الدنو والاسترسال، وكأنه من الاستعاره من دلوت الدلو أى أرسلتها، والغرور إظهار النصح مع إبطان الغش، والخصف الضم والجمع، ومنه خصف النعل.

و فى قوله: «وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَن تِلْكَ الشَّجَرَةِ» دلالة على أنهما عند توجه هذا الخطاب كانا فى مقام البعد من ربهما لأن النداء هو الدعاء من بعد، وكذا من الشجره بدليل قوله: «تِلْكَ الشَّجَرَةُ» بخلاف قول عند أول ورودهما الجنة: «وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ».

قوله تعالى: «قَالَ رَبُّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» هذا منهما نهايه التذلل والابتهاال، ولذلك لم يسألا شيئاً وإنما ذكرا حاجتهما الى المغفره والرحمه و تهديد الخسران الدائم المطلق لهما حتى يشاء الله ما يشاء.

قوله تعالى: «قَالَ اهْبُطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ» كأن الخطاب لآدم وزوجه و إبليس، وعداوه بعضهم لبعض هو ما يشاهد من اختلاف طبائعهم، وهذا قضاء منه تعالى والقضاء الآخر قوله: «وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» أى الى آخر الحياه الدنيويه، و ظاهر السياق أن الخطاب الثانى أيضا يشترك فيه الثلاثة.

قوله تعالى: «قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ» قضاء آخر يوجب تعلقهم بالأرض الى حين البعث، وليس من البعيد أن يختص هذا الخطاب بآدم وزوجه و بنيهما، لما فيه من الفصل بلفظه «قال» وقد مر تفصيل الكلام فى قصه الجنة فى سوره البقره فليراجعها من شاء (١)(٢)(٣).

ص: ٤٦٣

-
- ١-١. الاعراف ١٠-٢٥: كلام فى ابليس وعمله.
 - ٢-٢. الاعراف ١٠-٢٥: بحث عقلى و قرآنى فى: صورته مناظره جرت بين الملائكه و ابليس؛ الحكمه فى الخلق؛ الفائده فى التكليف؛ التكليف بالسجود لآدم؛ ما الفائده فى عقاب ابليس؛ لم سلط ابليس على اولاد آدم.
 - ٣-٣. الاعراف ١٠-٢٥: بحث روائى فى الشيطان وعمله.

يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَ لِبَاسٌ أَلْتَقْوَى ذَلِك خَيْرٌ ذَلِك مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَكَّرُونَ (٢٦) يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِذَا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٧) وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَحَدَّثْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرْنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨) قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقًا هَدَىٰ وَ فَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (٣٠) يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١) قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَ أَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَ لَا يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمُ آيَاتِي وَ مَن اتَّقَى وَ أَصْلَحَ فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَ لَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٣٦)

قوله تعالى: يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سُوآتِكُمْ وَرِيشًا اللباس كل ما يصلح للبس و ستر البدن و غيره، و أصله مصدر يقال: لبس يلبس لبسا - بالكسر و الفتح - و لباسا، و الريش ما فيه الجمال مأخوذ من ريش الطائر لما فيه من أنواع الجمال و الزينه، و ربما يطلق على أثاث البيت و متاعه.

و كأن المراد من انزال اللباس و الريش عليهم خلقه لهم كما فى قوله تعالى: وَ أَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ (الحديد ٢٥)، و قوله: وَ أَنْزَلْ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ (الزمر ٦)، و قد قال تعالى: وَ إِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَ مَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (الحجر ٢١)، فقد أنزل الله اللباس و الريش بالخلق من غيب ما عنده الى عالم الشهاده و هو

و اللباس هو الذى يعمله الإنسان صالحا لأن يستعمله بالفعل دون المواد الأصلية من قطن أو صوف أو حرير أو غير ذلك مما يأخذه الإنسان فيضيف إليه أعمالا-صناعية من تصفيه و غزل و نسج و قطع و خياطه فيصير لباسا صالحا للباس فعد اللباس و الريش من خلق الله و هما من عمل الإنسان نظير ما فى قوله تعالى: **وَ اللَّهُ خَلَقَكُمْ وَ مَا تَعْمَلُونَ** (الصافات / ٩٦)، من النسبه.

و لا فرق من جهه النظر فى التكوين بين نسبه ما عمله الإنسان الى الله سبحانه و ما عمله منته الى أسباب جمه أحدها الإنسان، و نسبه سائر ما عملته الطبائع و لها أسباب كثيره أحدها الفاعل كنبات الأرض و صفره الذهب و حلاوه العسل فإن جميع الأسباب بجمع ما فيها من قدره منتهيه إليه سبحانه و هو محيط بها.

و ليست الخلقه منتسبه الى الأشياء على وتيره واحده و إن كانت جميع مواردنا متفقه فى معنى الانتهاء إليه إلا- ما فيه معنى النقص و القبح و الشناعة من المعاصى و نحوها فحقيقتها فقدان الخلقه الحسنه أو مخالفه الأمر الإلهي، و ليست بمخلوقه له و إنما هى أوصاف نقص فى أعمال الإنسان مثلا- فى باطنه أو ظاهره، و قد تكررت الإشارة الى هذه الحقيقه فيما مر من أجزاء هذا الكتاب.

و توصيف اللباس بقوله: **«يُؤَارِي سَوْآتِكُمْ»** للدلاله على أن المراد باللباس ما ترفع به حاجه الإنسان التى اضطرتة الى اتخاذ اللباس و هى موارد سوائه التى يسوؤه انكشافها و أما الريش فإنما يتخذة لجمال زائد على أصل الحاجه.

و فى الآيه امتنان بهدايه الإنسان الى اللباس و الريش و فيها- كما قيل- دلالة على إباحه لباس الزينه.

قوله تعالى: **وَ لِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكُ خَيْرٌ لِّى آخِرَ الْآيَةِ؛** انتقل سبحانه من ذكر

لباس الظاهر الذى يوارى سوات الإنسان فيتقى به أن يظهر منه ما يسوؤه ظهوره، الى لباس الباطن الذى يوارى السوات الباطنيه التى يسوء الإنسان ظهورها و هى رذائل المعاصى من الشرك و غيره، و هذا اللباس هو التقوى الذى أمر الله به.

و ذلك أن الذى يصيب الإنسان من ألم المساء و ذله الهوان من ظهور سواته روحى من سنخ واحد فى السواتين إلا أن ألم ظهور السوات الباطنيه أشد و أمر و أبقى فالمحاسب هو الله، و التبعة شقوه لازمه، و نار تطلع على الأفئده، و لذلك كان لباس التقوى خيرا من لباس الظاهر.

و للإشاره الى هذا المعنى و تتميم الفائدة عقب الكلام بقوله: «ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» فاللباس الذى اهتدى إليه الإنسان ليرفع به حاجته الى مواره سواته التى يسوؤه ظهورها آيه إلهيه إن تأمله الإنسان و تبصر به تذكر أن له سوات باطنيه تسوؤه إن ظهرت و هى رذائل النفس، و سترها عليه أوجب و ألزم من ستر السوات الظاهريه بلباس الظاهر و اللباس الذى يسترها و يرفع حاجه الإنسان الضروريه هو لباس التقوى الذى أمر الله به و بينه بلسان أنبيائه.

قوله تعالى: «يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. الْكَلَامِ و إن كان مفصولا- عما قبله بتصديره بخطاب: «يَا بَنِي آدَمَ» إلا أنه بحسب المعنى من تتمه المفاد السابق، و لذا أعاد ذكر السوات ثانيا فيرجع المعنى الى أن لكم معاشر الأدميين سوات لا- يسترها إلا لباس التقوى الذى ألبسناكموه بحسب الفطره التى فطرناكم عليها فإياكم أن يفتنكم الشيطان فينزع عنكم ذلك كما نزع لباس أبويكم فى الجنه ليريهما سواتهما فإنا جعلنا الشياطين أولياء لمن تبعهم و لم يؤمن بآياتنا.

و من هنا يظهر أن ما صنعه إبليس بهما فى الجنه من نزع لباسهما ليريهما سواتهما كان مثالا لنزع لباس التقوى عن الأدميين بالفتنه و أن الإنسان فى جنه السعاده ما لم يفتن به فإذا افتتن

أخرجه الله منها.

وقوله: «إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ» تأكيد للنهي و بيان لدقه مسلكه و خفاء سر به دقه لا يميزه حس الإنسان و خفاء لا يقع عليه شعوره فإنه لا يرى إلا نفسه من غير أن يشعر أن وراءه من يأمر بالشر و يهديه الى الشقوه.

وقوله: «إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ» تأكيداً آخر للنهي، و ليست ولايتهم و تصرفهم فى الإنسان إلا و لايه الفتنة و الغرور فإذا افتتن و اغتر بهم تصرفوا بما شاءوا و كما أرادوا كما قال تعالى مخاطباً لإبليس: «وَاسْتَفْزِنِي مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَ أَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَ رَجُلِكَ وَ شَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَ الْأَوْلَادِ وَ عَدْتِهِمْ وَ مَا يَعْزُبُ عَنْهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَ كَفَىٰ بِرَبِّكَ وَ كَيْلًا (الاسراء ٦٥)»، و قال: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (النحل ٩٩)، و قال: إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (الحجر ٤٢).

و من الآيات بانضمامها الى آيتنا المبحوث عنها يظهر أن لا- و لايه لهم على المؤمنين و إن مسهم طائف منهم أحياناً، و أن لا سلطان له على المتوكلين من المؤمنين و هم الذين عدّهم الله عباداً له بقوله: «عِبَادِي» فلا و لايه له إلا على الذين لا يؤمنون.

و الظاهر أن المراد به عدم الإيمان بآيات الله بتكذيبها و هو أخص من وجه من عدم الإيمان بالله الذى هو الكفر بالله بشرك أو نفى، و ذلك لأن هذا الكفر هو المذكور فى الخطاب العام الذى فى ذيل القصة من سورة البقره حيث قال تعالى: قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى -الى أن قال- وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (البقره ٣٩)، و فى ذيل هذه الآيات من هذه السوره حيث قال: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (الأعراف ٣٦).

قوله تعالى: وَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَ اللَّهُ آمَرَنَا بِهَا

الى آخر الآيه؛ رجوع من الخطاب العام لبني آدم الى خطاب النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خاصة ليتوسل به الى انتزاع خطابات خاصة يوجهها الى أمته كما جرى نظيره من الالتفات في الخطاب المتقدم يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباسا حيث قال: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ لنظير الغرض.

قوله تعالى: قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لما نفت الآيه السابقه أن يأمر الله سبحانه بالفحشاء و ذكرت أن ذلك افتراء عليه و قول بغير علم لعدم انتهائه الى وحى ما أوحى به الله بادرت هذه الآيه إلى ذكر ما أمر به و هو لا محاله أمر يقابل ما استشنعته الآيه السابقه وعدته فحشاء لما فيه من بلوغ القبح و الإفراط و التفريط فقال: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ الخ.

و القسط على ما ذكره الراغب هو النصيب بالعدل كالنصف و النصفه قال: ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ﴾ و ﴿أَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ و القسط هو أن يأخذ قسط غيره، و ذلك جور و الإقساط أن يعطى قسط غيره، و ذلك إنصاف و لذلك قيل: قسط الرجل اذا جار و أقسط اذا عدل قال: ﴿وَأَمَّا الْقَائِمَةُ فَكَانُوا لِحُبِّهَا كَاطِبَاتٍ﴾ و قال ﴿وَأَقْبَبُوا طُورًا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِبِينَ﴾ انتهى كلامه.

فالمراد: قل أمر ربي بالنصيب العدل و لزوم وسط الاعتدال في الامور كلها و أن تجتنبوا جانبي الإفراط و التفريط فأقسطوا و أنبوا و أقرؤا نفوسكم عند كل معبد تعبدون الله فيه و ادعوه بإخلاص الدين له من غير أن تشرکوا بعبادته صنما أو أحدا من آباءكم و كبرائكم بالتقليد لهم و هذا هو القسط في العباده.

فقوله: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ معطوف ظاهرا على مقول القول لأن معنى أمر ربي بالقسط: أقسطوا، فيكون التقدير: أقسطوا و أقيموا، الخ؛ و الوجه هو ما يتوجه به الى الشىء، و هو فى حال تمام النفس الإنسانية، و إقامتها عندها إيجاد القيام بالأمر لها أى إيفاؤه

و الإتيان به كما ينبغي تاما غير ناقص فيؤول معنى إقامه الوجه عند العباده الى الاشتغال بالعباده و الانقطاع عن غيرها.

فيفيد قوله: «وَ أَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» اذا انضم إليه قوله: «وَ ادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ» وجوب الانقطاع للعباده عن غيرها و لله سبحانه عن غيره كما عرفت و من الغير الذى يجب الانقطاع عنه الى الله سبحانه نفس العباده، و إنما العباده توجه لا متوجه إليها، و التوجه إليها يبطل معنى كونها عباده و توجهها الى الله فيجب أن لا يذكر الناسك فى نسكه إلا ربه و ينسى غيره.

قوله تعالى: كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ، فَرِيقًا هَدَىٰ وَ فَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ الى آخر الآيه. ظاهر السياق أن يكون قوله: «فَرِيقًا هَدَىٰ وَ فَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ» حالا- من فاعل «تَعُودُونَ» و يكون هو الوجه المشترك الذى شبه فيه العود بالبدء، و المعنى تعودون فريقين كما بدأكم فريقين نظير قوله تعالى: وَ لَقَدْ جِئْتُمُونَا فَرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ (الأنعام ٩٤)، و المعنى لقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مره فرادى.

فهذا هو الظاهر المستفاد من الكلام، و أما كون «فَرِيقًا هَدَىٰ» الخ؛ حالا لا يعدو عالمه، و وجه الشبه بين البدء و العود أمرا آخر غير المذكور ككونهم فرادى بدءا و عودا أو كون الخلق الأول و الثانى جميعا من تراب أو كون البعث مثل الإنشاء فى قدره الله الى غير ذلك مما احتملوه فوجوه بعيده عن دلالة الآيه، و أى فائده فى حذف وجه الشبه من الذكر و ذكر ما لا حاجه إليه مع وقوع اللبس، و سيجىء إن شاء الله توضيح ذلك.

و ظاهر البدء فى قوله: «بَدَأَكُمْ» أول خلقه الإنسان الدنيويه لا مجموع الحياه الدنيويه قبال الحياه الاخرويه فيكون البدء هو الحياه الدنيا و العود هو الحياه الاخرى فيكون المعنى كنتم فى الدنيا مخلوقين له هدى فريقا منكم و حقت الضلاله على فريق آخر كذلك تعودون كما

يؤول إليه قول من قال: «إن معنى الآيه: تبعثون على ما متم عليه: المؤمن على إيمانه، والكافر على كفره».

و ذلك أن ظاهر البدء اذا نسب الى شىء ذى امتداد و استمرار بوجه أن يقع على أقدم أجزاء وجوده الممتد المستمر لا على الجميع، و الخطاب للناس فبدءهم أول خلقه النوع الإنسانى و بدء ظهوره. على أن الآيه من تتمه الآيات التى بين الله سبحانه فيها بدء إيجاده الإنسان بمثل قوله: «وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ» الخ؛ فالمراد به كيفية البدء التى قصها فى أول كلامه، و قد كان من القصة أن الله قال لإبليس لما رجمه:

أُخْرِجْ مِنْهَا مَيْدُومًا مِيدُحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ و فيه قضاء أن ينقسم بنو آدم فريقين فريقا مهتدين على الصراط المستقيم، و فريقا ضالين حقا فهذا هو الذى بدأهم به و كذلك يعودون.

و أما قوله: «إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ» فهو تعليل لثبوت الضلاله و لزومها لهم فى قوله: «حققت عليهم الضلاله» كأن كلمه الضلال و الخسران صدرت من مصدر القضاء فى حقهم مشروطا بولايه الشيطان كما يذكره فى قوله: كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ (الحج ١٤).

فلما تولوا الشياطين فى الدنيا حقت عليهم الضلاله و لزمهم لزوما لا انفكاك بعده أبدا و هذا نظير ما يستفاد من قوله: وَ قَبَضْنَا لَهُمْ قُرْآنًا فَزَيَّنَّا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِى أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (حم السجده ٢٥).

و أما قوله: «وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ» فهو كعطف التفسير بالنسبه الى الجملة السابقه يفسر به معنى تحقق الضلاله و لزومها فإن الإنسان مهما ركب غير طريق الحق و اعتنق الباطل و هو يعترف بأنه من الباطل و لما ينس الحق أوشك أن يعود الى الحق الذى فارقه و كان مرجوا

أن ينتزع عن ضلاله الى الهدى أما اذا اعتقد حقيه الباطل الذى هو عليه، وحسب أنه على الهدى و هو فى ضلال فقد استقر فيه شيمه الغى و حقت عليه الضلاله و لا يرجى معه فلاح أبدا.

فقوله: «وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ» كالتفسير لتحقق الضلاله لكونه من لوازمه، وقد قال تعالى فى موضع آخر: قُلْ هَيْلٌ تُنْبِئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا (الكهف ١٠٤/١)، وقال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَ عَلَى سَمْعِهِمْ وَ عَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً (البقره ٧/٧).

فقوله: «كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ» معناه فليس بعثكم بأشد من ابتداءكم.

و فيه: ما فى الوجه السابق على أنه تحكم من غير دليل.

و من قائل: إنه كلام مستأنف. و قد تقدم ذكره.

و من قائل: إنه متصل بما سبقه، والمعنى: أخلصوا لله فى حياتكم فإنكم تبعثون على متم عليه: المؤمن على إيمانه، و الكافر على كفره.

و فيه: أنه مبنى على كون المراد بالبده هو مجموع الحياه الدنيا فى قبال الحياه الآخرة ثم تشبيه بالعود و هو الحياه الآخرة بآخر الحياه الاولى المسماه بعثا، و الآية- كما تقدم- بمعزل عن الدلاله على هذا المعنى.

قوله تعالى: يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ الى آخر الآية؛ قال الراغب: السرف تجاوز الحد فى كل فعل يفعله الإنسان، و إن كان ذلك فى الإنفاق اشهر، انتهى.

أخذ الزينه عند كل مسجد هو التزين الجميل عند الحضور فى المسجد، و هو إنما يكون بالطبع للصلاه و الطواف و سائر ذكر الله فيرجع المعنى الى الأمر بالتزين الجميل للصلاه

و نحوها، و يشمل باطلاقه صلوات الأعياد و الجماعات اليومية و سائر وجوه العباده و الذكر.

و قوله: «و كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لَا تُسْرِفُوا» الخ؛ أمران إباحيان و نهى تحريمى معلل بقوله: «إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ» و الجميع مأخوذه من قصه الجنة كما مرت الإشارة إليه، و هى كما تقدم خطابات عامه لا تختص بشرع دون شرع و لا بصنف من أصناف الناس دون صنف.

قوله تعالى: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ هذا من استخراج حكم خاص -بهذه الامه- من الحكم العام السابق عليه بنوع من الالتفات نظير ما تقدم فى قوله: «ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ» و قوله وَ إِذَا فَعَلُوا فَاحْشَهُ» الآية.

و الاستفهام إنكارى، و الزين يقابل الشين و هو ما يعاب به الإنسان فالزينة ما يرتفع به العيب و يذهب بنفوس النفوس، و الإخراج كناية عن الإظهار و استعاره تخيليه كأن الله سبحانه يالهامه و هدايته الإنسان من طريق الفطره الى إيجاد أنواع الزينه التى يستحسنها مجتمعه و يستدعى انجذاب نفوسهم إليه و ارتفاع نفرتهم و اشمئزازهم عنه يخرج لهم الزينه و قد كانت مخفيه خفيه فأظهرها لحواسهم (١)(٢).

قوله تعالى: قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ لا ريب أن الخطاب فى صدر الآية إما لخصوص الكفار أو يعمهم و المؤمنين جميعا كما يعمهم جميعا ما فى الآية السابقه من الخطاب بقوله: «يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَ كُلُوا وَ اشْرَبُوا وَ لَا تُسْرِفُوا» و لازمه أن تكون الزينه و طيبات الرزق موضوعه على الشركه بين الناس جميعا، مؤمنهم و كافرهم.

ص: ٤٧٣

١- ١). الاعراف ٢٦-٣٦: كلام فى معنى اخراج زينه الله لعباده و الطيبات من الرزق.

٢- ٢). الاعراف ٢٦-٣٦: كلام فى جواب بعض المنصفين من النصارى الى دعاه النصارى الى دعاه النصرانية فى الطعن فى الإسلام.

فقوله: «قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا» الخ؛ مسوق لبيان ما خص الله سبحانه به المؤمنين من عباده من الكرامه و المزيه، و اذ قد اشتركوا في نعمه في الدنيا فهي خالصه لهم في الآخره، و لازم ذلك أن يكون قوله: «فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» متعلقا بقوله: «آمَنُوا» و قوله: «يَوْمَ الْقِيَامَةِ» متعلقا بما تعلق به قوله: «لِلَّذِينَ آمَنُوا» و هو قولنا كائنه أو ما يقرب منه، «و خالصه» حال عن الضمير المؤنث و قدمت على قوله: «يَوْمَ الْقِيَامَةِ» لتكون فاصله بين قوله: «فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا» و «يَوْمَ الْقِيَامَةِ» و المعنى: قل هي للمؤمنين يوم القيامة و هي خالصه لهم لا يشاركهم فيها غيرهم كما شاركوهم في الدنيا فمن آمن في الدنيا ملك نعمها يوم القيامة.

و قد امتن الله تعالى في ذيل الآيه على أهل العلم بتفصيل البيان اذ قال: «كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ» .

قوله تعالى: قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ، قد تقدم البحث المستوفى عن مفردات الآيه فيما مر، و أن الفواحش هي المعاصي البالغه قبحا و شناعه كالزنا و اللواط و نحوهما، و الإثم هو الذنب الذي يستعقب انحطاط الإنسان في حياته و ذله و هوانا و سقوطا كشرب الخمر الذي يستعقب للإنسان تهلكه في جاهه و ماله و عرضه و نفسه و نحو ذلك، و البغى هو طلب الإنسان ما ليس له بحق كأنواع الظلم و التعدى على الناس و الاستيلاء غير المشروع عليهم، و وصفه بغير الحق من قبيل التوصيف باللازم نظير التقييد الذي في قوله: «مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا» .

و كان إلقاء الخطاب بإباحه الزينه و طيبات الرزق داعيا لنفس السامع الى أن يحصل على ما حرمه الله فألقى الله سبحانه في هذه الآيه جماع القول في ذلك، و لا يشذ عما ذكره شيء من المحرمات الدينيه، و هي تنقسم بوجه الى قسمين: ما يرجع الى الأفعال و هي الثلاثه الاول، و ما يرجع الى الأقوال و الاعتقادات و هو الأخيران، و القسم الأول منه ما يرجع الى الناس و هو البغى بغير الحق، و منه غيره و هو إما ذوق قبح و شناعه فالفاحشه، و إما غيره فالإثم،

و القسم الثانى إما شرك بالله أو افتراء على الله سبحانه.

قوله تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ هى حقيقه مستخرجه من قوله تعالى فى ذيل القصة: «قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَ فِيهَا تَمُوتُونَ وَ مِنْهَا تُخْرَجُونَ» نظير الأحكام الأخر المستخرجه منها المذكوره سابقا، و مفاده أن الامم و المجتمعات لها أعمال و آجال نظير ما للأفراد من الأعمار و الآجال.

و ربما استفيد من هذا التفریع و الاستخراج أن قوله تعالى فى ذيل القصة سابقا: «قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ» الخ؛ راجع الى حياه كل فرد و كل أمه أمه، و هى بعض عمر الإنسانيه العامه، و أن قوله قبله: «وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَى حِينٍ» راجع الى حياه النوع الى حين و هو حين الانقراض أو البعث، و هذا هو عمر الإنسانيه العامه فى الدنيا.

قوله تعالى: يَا بَنِي آدَمَ إِذَا يَأْتَيْنِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتَّبِعُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ. «إِذَا» أصله إن الشرطيه دخلت على ما، و فى شرطها النون الثقيله، و كأن ذلك يفيد أن الشرط محقق لا- محاله، و المراد بقص الآيات بيانها و تفصيلها لما فيه من معنى القطع و الإبانه عن مكن الخفاء.

و الآيه احدى الخطابات العامه المستخرجه من قصه الجنه المذكوره هاهنا و هى رابعها و آخرها يبين للناس التشريع الإلهى العام للدين باتباع الرساله و طريق الوحي، و الأصل المستخرج عنه هو مثل قوله فى سوره طه: قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَأَمَّا يَا تَيْنِكُمْ مِّنِّي هُدًى الخ؛ فبين أن اتيان الهدى منه انما يكون بطريق الرساله (١)(٢).

ص: ٤٧٥

١ - ١). الاعراف ٢٦-٣٦: بحث روائى فى: سنن الجاهليه فى الطواف؛ تحريم ما احل الله؛ ان الله لا- يأمر بالفحشاء؛ ان الله جميل يحب الجمال.

٢ - ٢). الاعراف ٢٦-٣٦: بحث روائى مختلط بغيره فى كيفيه خلق الانسان؛ سعادته الانسان و شقاوته؛ معنى كون الطينه من الجنه أو النار؛ الماء العذب الفرات و الملح الاجاج؛ النور و الظلمه؛ فعل الله.

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَهُمْ مَا يَفْعَلُونَ قَالُوا إِنَّا كُنْتُمْ تَدْعُونَنَا إِلَى اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا أَنفُسُهُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) قَالَ أَدْخُلُوا فِي أُمَّمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي الدَّارِ كُلِّمَاتٍ دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ (٣٨) وَقَالَتْ أَوْلَادُهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تُلْكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مِمَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ أَدْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا يَخُوفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَعْزُبُونَ (٤٩) وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١) وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَضَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمِ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رَسُولٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفْعَاءٍ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣)

قوله تعالى: **فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ** تفريع على ما تتضمنه الآيه السابقه من أعلام الشريعة العامه المبلغه بواسطه الرسل أى اذا كان الأمر على ذلك و قد أبلغ الله دينه العام جميع أولاد آدم و أخبر بما أعده من الجزاء للأخذ به و تركه فمن أظلم ممن استنكف عن ذلك إما بافتراء الكذب على الله، و نسبه دين إليه، و وضعه موضع ما أتى به الرسل من دين التوحيد، و قد أخبر الله أنهم وسائط بينه و بين خلقه فى تبليغهم دينه، و إما بالتكذيب لآياته الداله على وحدانيته و ما يتبعه من الشرائع.

و من هنا يظهر أن افتراء الكذب على الله و إن كان يعم كل بدعه فى الدين أصوله و فروعها غير أن المورد هو الشرك بالله باتخاذ آلهه دون الله، و يدل عليه ما سيأتى من قوله **«قَالُوا أَيَّنَ مَا**

كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ .

قوله تعالى: **أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ الْمُرَادِ بِالْكِتَابِ مَا قَضَى وَ كَتَبَ أَنْ يَصِيبَ**
الإنسان من مقدرات الحياه من عمر و معيشه و غنى و صحه و مال و ولد و غير ذلك، و الدليل عليه تقييده بقوله: «حَتَّى إِذَا
جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا» الخ؛ و المراد به أجل الموت، و من المعلوم أنه غايه للحياه الدنيا بجميع شئونها و مقارناتها.

و المراد بالنصيب من الكتاب السهم الذى يختص كل واحد منهم من مطلق ما كتب له و لغيره، و فى جعل النصيب من الكتاب هو الذى ينالهم، و الأمر منعكس بحسب الظاهر دلالة على أن النصيب الذى فرض للإنسان و قضى له من الله سبحانه لم يكن ليخطئه البتة و ما لم يفرض له لم يكن ليصيبه البتة.

و المعنى: أولئك الذين كذبوا على الله بالشرك أو كذبوا بآياته بالرد لجميع الدين أو شطر منه ينالهم نصيبهم من الكتاب، و نصيبهم ما قضى فى حقهم من الخير و الشر فى الحياه الدنيا حتى اذا قضوا أجلهم و جاءتهم رسلنا من الملائكه و هم ملك الموت و أعوانه نزلوا عليهم و هم يتوفونهم و يأخذون أرواحهم و نفوسهم من أبدانهم سألوهم و قالوا: أين ما كنتم تدعون من دون الله من الشركاء الذين كنتم تدعون أنهم شركاء الله فيكم و شفعاؤكم عنده؟ قالوا ضلوا عنا و إنما ضلت أوصافهم و نعوتهم، و شهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بمعانيه حقيقه الأمر أن غير الله سبحانه لا ينفع و لا يضر شيئا، و قد أخطأوا فى نسبة ذلك الى أوليائهم.

و فى مضمون الآيه جهات من البحث تقدمت فى نظيره الآيه من سوره الأنعام و غيرها.

والمخاطبون بحسب سياق اللفظ هم بعض الكفار و هم الذين توفيت قبلهم أمم من الجن و الإنس إلا- أن الخطاب فى معنى: ادخلوا فيما دخل فيه سابقوكم و لا-حقوكم و إنما نظم الكلام هذا النظم ليتخلص به الى ذكر التخاصم الذى يقع بين متقدميهم و متأخريهم، و قد قال تعالى:

إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ النَّارِ (ص ٦٤).

و فى الآيه دلالة على أن من الجن أمما يموتون بآجال خاصه قبل انتهاء أمد الدنيا على خلاف إبليس الباقى الى يوم الوقت المعلوم.

قوله تعالى: كَلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّهُ لَعَنَتْ أُخْتَهَا هذا من جملة خصامهم فى النار و هو لعن كل داخل من تقدم عليه فى الدخول، و اللعن هو الإبعاد من الرحمه و من كل خير و الاخت المثل.

قوله تعالى: حَتَّى إِذَا آذَرُكُوا فِيهَا جَمِيعاً الى آخر الآيتين؛ اذاركوا أى تداركوا أى أدرك بعضهم بعضا اللاحقون السابقين أى اجتمعوا فى النار جميعا.

و المراد بالاولى و الاخرى اللتين تتخاصمان ما هو كذلك بحسب الرتبة أو بحسب الزمان فإن الاولى منهم مقاما و هم رؤساء الضلال، و أئمة الكفر المتبوعون أعانوا تابعيهم بإضلالهم على الضلال، و كذا الاولى منهم زمانا و هم الأسلاف المتقدمون أعانوا متأخريهم على ضلالتهم لأنهم هم الذين جروهم بفتح الباب لهم و تمهيد الطريق لسلوكهم.

و الضعف بالكسر فالسكون ما يكرر الشىء فضعف الواحد اثنان و ضعف الاثنین أربعة غير أنه ربما أريد به ما يوجب تكرار شىء آخر فقط كالاثنين يوجب بنفسه تكرار الواحد فضعف الواحد اثنان و ضعفه أربعة، و ربما أريد به ما يوجب التكرار بانضمامه الى شىء كالواحد يوجب تكرار واحد آخر بانضمامه إليه لأنهما يصيران بذلك اثنين فكل واحد من جزئى الاثنين ضعف و هما جميعا ضعفان نظير الزوج فالاثنتان زوج و هما زوجان و على كلا الاعتبارين ورد استعماله فى كلامه تعالى، قال تعالى كما فى هذه الآيه: «فَأَتَيْهِمْ عَذَاباً ضِعْفًا»

و قال تعالى: «ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ» .

و قوله: «قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا» الخ؛ نوع من الالتفات لطيف فى بابه فيه رجوع من مخاطبتهم بالمخاصمه الى مخاطبه الله سبحانه بالدعاء عليهم معللا بظلمهم فيفيد فائده التكنيه بالإشاره الى الملزوم و إفاده الملازمه، و فيه مع ذلك نوع من الإيجاز فإن فيه اكتفاء بمحاوره واحده عن محاورتين، و التقدير قالت أخراهم لاولاهم أنتم أشد ظلما منا لأنكم ضالون فى أنفسكم و قد أضللتونا فليعذبكم الله عذابا ضعفا من النار، ثم رجعوا الى ربهم بالدعاء عليهم و قالوا ربنا هؤلاء أضلونا فآتتهم عذابا، الخ؛ فأجابهم الله و قال لكل ضعف و لكن لا تعلمون، ثم أجابتهم أولاهم و قالوا: فما كان لكم علينا من فضل، الخ.

فمعنى الآية: حَتَّى إِذَا آذَرُكُوا و اجتمعوا بلحوق أخراهم لأولاهم «فِيهَا» أى فى النار تخاصموا «قَالَتْ أُخْرَاهُمْ» و هم اللاحقون مرتبه أو زمانا من التابعين «لِأَوْلَاهُمْ» و هم الملحقون المتبوعون من رؤسائهم و أئمتهم، و من آبائهم و الأجيال السابقه عليهم زمانا الممهدين لهم الطريق الى الضلال أنتم أضللتونا بإعانتكم عليه فلتعذبوا بأشد من عذابنا فسألوا ربهم ذلك و قالوا: «رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ» يكون ضعف عذابنا لأنهم ضلوا فى أنفسهم و أضلوا غيرهم بالإعانه «قال» الله سبحانه «لكل» من الاولى و الاخرى «ضعف من العذاب» أما أولاكم فإنهم ضلوا و أعانوكم على الضلال، و أما أنتم فإنكم ضلتم و أعنتموهم على الإضلال باتباع أمرهم و إجابته دعوه الرؤساء منهم، و تكثير سواد السابقين منهم باللحوق بهم «وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ» فإن العذاب إنما يتحقق أو يتم فى مرحله الإدراك و العلم. و أنتم تشاهدونهم أمثال أنفسكم فى شمول العذاب و إحاطه النار فتتوهمون أن عذابهم مثل عذابكم و ليس كذلك بل لهم من العذاب ما لا طريق لكم الى إدراكه و الشعور به كما أنهم بالنسبه إليكم كذلك فما عندكم و عندهم من العذاب ضعف و لكن إحاطه العذاب شغلكم عن العلم بذلك.

و هذا خطاب إلهى مبنى على القهر و الإذلال فيه تعذيب لهم يسمعه أولاهم و أخراهم جميعا فتعود به أولاهم لأخراهم بالتهكم و تقول كما حكى الله: «قَالَتْ أُولَاهُمْ لِأَخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ» بخفه العذاب «فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ» فى الدنيا من الذنوب و الآثام.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَ اسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفْتَحُ لَهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ السَّمُّ هُوَ الثَّقَبُ وَ جمعه السموم، و الخياط و المخيط الإبره.

و الذى نفاه الله تعالى من تفتيح أبواب السماء مطلق فى نفسه الفتح لولوج أديعتهم و صعود أعمالهم و دخول أرواحهم غير أن تعقيبه بقوله: «وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ» الخ؛ كالقربنه على أن المراد نفى أن يفتح بابها لدخولهم الجنة فإن ظاهر كلامه سبحانه أن الجنة فى السماء كما هو فى قوله: وَ فِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَ مَا تُوَعَّدُونَ (الذاريات ٢٢/).

و قوله: حَتَّى يَلْبِغَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ من التعليق بالمحال و إنما يعلق الأمر بالمحال كناية عن عدم تحققه و إياسا من وجوده كما يقال: لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب و يبيض الفار، و قد قال تعالى فى موضع آخر فى هذا المعنى: وَ مَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ (البقره ١٦٧/)، و الآيه فى معنى تعليل مضمون الآيه السابقه، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ الخ؛ جهنم اسم من أسماء نار الآخرة التى بها التعذيب، و قد قيل: إنه مأخوذ من قولهم: «بئر جهنم» أى بعيدة القعر و قيل: فارسي معرب، و «المهاد» الوطاء الذى يتفرش، و منه مهد الصبى و الغواشى جمع غاشيه و هى ما يغشى الشئ و يستره و منه غاشيه السرج.

و قد أفيد بقوله: «لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَ مِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ» أنهم محاطون بالعذاب من تحتهم و من فوقهم، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا

الخ؛ الآيه و ما يتلوها لتتميم بيان حال الطائفتين الكفار و المؤمنين، و لتكون كالتوطئه لقوله الآتى «وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ الخ.

و قوله: «لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» مسوق للتخفيف و تقويه الرجاء فى قلوب المؤمنين فإن تقييد الإيمان بعمل الصالحات-و الصالحات جمع محلى باللام و هو يفيد الاستغراق-يفيد بظاهره لزوم العمل بجميع الصالحات حتى لا يشذ عنها شاذ، و ما أقل من وفق لذلك من طبقه أهل الإيمان و يسد ذلك باب الرجاء على أكثر المؤمنين فذكر الله سبحانه أن التكليف على قدر الوسع فمن عمل من الصالحات ما وسعه أن يعمله من غير أن يشق على نفسه و يتحمل ما لا طاقه له به بعد الإيمان بالله فهو من أهل هذه الآيه، و من أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

قوله تعالى: «وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ» الغل هو الحقد و ضغن القلوب و عداوتها، و فى مادتها معنى التوسط باللطف و الحيله و منه الغلاله و هى الثوب المتوسطة بين الدثار و الشعار، و غل الصدور من أعظم ما ينغص عيش الإنسان، و ما من إنسان يعاشر إنسانا و يأترف به إلا و ائتلافه مشروط بأن يوافقه فيما يراه و يريده فإذا شاهد من حاله ما لا يرضيه جأش صدره بالغل و راحت الألفه و نغصت العيشه فإذا ذهب الله سبحانه بغل الصدور لم يسؤ الإنسان ما يشاهده من أليفه على الإطلاق و هى اللذه الكبرى و فى قوله: «تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ» إشاره الى أنهم ساكنون فى قصورها العالیه.

قوله تعالى: «وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا» -إلى قوله- بِالْحَقِّ فى نسبه التحميد إليهم دلالة على أن الله سبحانه يخلصهم لنفسه فلا يوجد عندهم اعتقاد باطل و لا- عمل سيئ كما قال تعالى: «لَا يَسْتَمِعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَ لَا تَأْتِيهِمْ إِلَّا قِيلاً سَلَامًا سَلَامًا» الواقعة ٢٦، فيصح منهم تحميد الله سبحانه و يقع توصيفهم موقعه فليس توصيفه تعالى بحيث يصيب غرضه و يقع موقعه بذلك المبتذل حتى يناله كل نائل، قال تعالى: «سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ

إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ (الصفات ١٦٠)، وقد تقدم القول فى معنى الحمد و خصوصيه حمده تعالى فى تفسير سورة الحمد.

و فى قولهم: هِدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هِدَانَا اللَّهُ إِشَارَهُ إِلَى اخْتِصَاصِ الْهُدَايَةِ بِهِ تَعَالَى فَلَيْسَ إِلَى الْإِنْسَانِ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ.

و فى قولهم: لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلٌ رَبَّنَا بِالْحَقِّ اعْتِرَافٍ بِحَقِيهِ مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِلِسَانِ أَنْبِيَائِهِ، وَهُوَ الَّذِي يَأْخُذُونَ الْاعْتِرَافَ بِهِ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ عَلَى مَا تَقْصُهُ الْآيَةُ التَّالِيَةُ، وَفِي هَذَا الْاعْتِرَافِ وَ سَائِرِ الْاعْتِرَافَاتِ الْمَأْخُذَةِ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ قَبْلِ مَصْدَرِ الْعِظَمَةِ وَ الْكِبْرِيَاءِ ظُهُورُ مِنْهُ تَعَالَى بِالْقَهْرِ وَ تَمَامُ الرَّبُوبِيَّةِ، وَ يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ شُكْرًا، وَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ تَمَامًا لِلْحُجَّةِ.

وَ اعْتِرَافِ أَهْلِ الْمَجْمَعِ بِحَقِيهِ مَا وَعَدَهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ بِوَسْطِهِ رَسَلُهُ هُوَ مِنَ الْحَقَائِقِ الْعَالِيَةِ الْقُرْآنِيَّةِ وَ إِنْ كَانَ بِحَسَبِ سَادِجِ النَّظَرِ مَعْنَى بَسِيطًا مُبْتَدَلًا، وَ لَعَلْنَا نَوْفِقُ لَشَطْرٍ مِنَ الْبَحْثِ فِيهِ فِى ذَيْلِ الْكَلَامِ عَلَى هَذِهِ الْآيَاتِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ نُودُوا أَنْ تَتَّكُمُ الْجَنَّةُ أَوْ رِثْمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فِى الْإِشَارَةِ بِلَفْظِ الْبَعِيدِ -تَلَكُمُ- إِشَارَةٌ إِلَى رَفْعِهِ قَدْرَ الْجَنَّةِ وَ عُلُوِّ مَكَانِهَا فَإِنَّ ظَاهِرَ السِّيَاقِ -كَمَا قِيلَ- أَنْ النَّدَاءَ إِنَّمَا هُوَ حِينَ كُونِهِمْ فِى الْجَنَّةِ، وَ قَدْ جَعَلَتِ الْجَنَّةُ إِرْثًا لَهُمْ فِى قَبَالِ عَمَلِهِمْ وَ إِنَّمَا يَتَحَقَّقُ الْإِثْرُ فِيمَا إِذَا كَانَ هُنَاكَ مَالٌ أَوْ نَحْوُهُ مِمَّا يَنْتَفِعُ بِهِ وَ هُوَ فِى مَعْرُضِ انْتِفَاعِ شَخْصٍ ثُمَّ زَالَ عَنْهُ الشَّخْصُ فَبَقِيَ لغيره يُقَالُ: وَرِثَ فُلَانٌ أَبَاهُ أَيْ مَاتَ وَ تَرَكَ مَا لَبَقِيَ لَهُ، وَ الْعُلَمَاءُ وَرِثَةُ الْأَنْبِيَاءِ أَيْ مَخْتَصُونَ بِمَا تَرَكَوا لَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ، وَ يَرِثُ اللَّهُ الْأَرْضَ أَيْ إِنَّهُ كَانَ خَوْلَهُمْ مَا بَهَا مِنْ مَالٍ وَ نَحْوِهِ وَ سَوْفَ يَمُوتُونَ فَيَبْقَى لَهُ مَا خَوْلَهُمْ.

وَ عَلَى هَذَا فَكُونُ الْجَنَّةِ إِرْثًا لَهُمْ أَوْرُثُوهَا مَعْنَاهُ كُونُهَا خَلَقَتْ مَعْرُوضَهُ لِأَنَّ يَكْسِبُهَا بِالْعَمَلِ الْمُؤْمِنِ وَ الْكَافِرِ جَمِيعًا غَيْرَ أَنَّ الْكَافِرَ زَالَ عَنْهَا بِشْرِكِهِ وَ مَعَاصِيهِ فَتَرَكَهَا فَبَقِيَتْ لِلْمُؤْمِنِ فَهُوَ

الوارث لها بعمله، و لو لا عمله لم يرثها، قال تعالى: أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ (المؤمنون ١١).

وقال تعالى: حكاية عن أهل الجنة: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَ أَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ (الزمر ٧٤).

قوله تعالى: وَ نَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ هذا في نفسه أخذ اعتراف من أصحاب النار بتوسط أصحاب الجنة و واقع موقع التهكم و السخرية يتهكم و يسخر به أصحاب الجنة من أصحاب النار. و الاستهزاء و السخرية إنما يكون من اللغو الباطل اذا لم يتعلق به غرض حق كالاستهزاء بالحق و أهله أما اذا كان لغرض المقابلة و المجاراة أو لغرض آخر حق من غير محذور فليس من قبيل اللغو الذي لا يصدر عن أهل الجنة قال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كَلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَيِّئُونَ مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسِيحُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسِيحُونَ مِنْكُمْ كَلَّمَا تَسِيحُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسِيحُونَ مِنْكُمْ (هود ٣٨)، و قال: إِنْ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ وَ إِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ - إلى أن قال - فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ (المطففين ٣٤).

و أما الفرق بين قولهم: «مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا» و قولهم: «مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ» حيث ذكر المفعول في الوعد الأول دون الثاني فلعل ذلك للدلالة على نوع من التشريف فإن الظاهر أن المراد بما وعد الله جميع ما وعده من الثواب و العقاب لعامة الناس.

و هناك وجه آخر و هو أن متعلق اعتراف المؤمنين و إنكار الكفار من أمر المعاد مختلف في الدنيا فإن المؤمنين يثبتون البعث بجميع خصوصياته التي بينها الله لهم و وعدها إياهم، و أما الكفار المنكرون فإنهم ينكرون أصل البعث الذي اشترك في الوعد به المؤمنون و الكفار جميعاً، و لذلك احتج الله سبحانه و يتم الحجج عليهم بأصله دون خصوصياته كقوله تعالى:

وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَ رَبَّنَا (الأنعام ٣٠)،

وقوله: وَ يَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَ رَبِّنَا (الأحقاف / ٣٤).

و على هذا فقولهُ: «أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا» اعتراف منهم بحقيه ما وعدهم الله و كانوا يدعونون به و يشهدون من جميع خصوصيات البعث بما قصههم الله فى الدنيا بلسان أنبيائه، و أما الكفار فقد كانوا ينكرون أصل البعث و العذاب، و هو مما يشتركون فيه هم و المؤمنون فلذا قيل: «فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا» و لم يقل ما وعدهم ربكم لأن الوعد بأصل البعث و العذاب لم يكن مختصا بهم.

و بذلك يظهر الجواب عما قيل: إن الوفاء بالوعد واجب دون الوفاء بالوعد على ما ذكره المتكلمون فما معنى أخذ الاعتراف بحقيه ما ذكره الله من عقاب الكفار و المجرمين و أذرهم به فى الدنيا، و ليس تحققه بلازم.

و ذلك أن الملاك فيما ذكره من الفرق أن الثواب حق العامل على ولى الثواب الذى بيده الأمر، و العقاب حق الولى الميثب على العامل، و من الجائز أن يصرف الشخص نظره عن إعمال حق نفسه لكن لا يجوز إبطال حق الغير فإنجاز الوعد واجب دون إنجاز الوعد، و هذا إنما يتم فى موارد الوعد الخاصه و مصاديقه فى الجملة، و أما عدم إنجاز أصل العقاب على الذنب و إبطال أساس المجازاه على التخلف فليس كذلك اذ فيه إبطال التشريع من أصله و إخلال النظام العام.

و ربما وجه الفرق فى قوله: «وَعَدْنَا رَبَّنَا» «وَعَدَ رَبُّكُمْ» بأن المراد بقوله: «وَعَدْنَا» ما وعد الله المتقين من خصوصيات ما يعاملهم به يوم القيامة، و بقوله: «وَعَدَ رَبُّكُمْ» عموم ما وعد به المؤمنين و الكفار من الثواب و العقاب يوم القيامة كالذى فى قوله: «يا بنى آدم فَإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ» الى آخر الآيتين؛ و من المعلوم أن هذا الوعد لا يختص بالكفار حتى يقال: وعدكم ربكم بل التعبير الحق وعد ربكم.

وفيه: أن أصل الفرق لا- بأس به لكنه لا- يقطع السؤال فللسائل أن يعود فيقول ما هو السبب الفارق في أن أصحاب الجنة لما أوردوا اعتراف أنفسهم اقتصروا بذكر ما يخصهم من أمور يوم القيامة، وأما إذا سألوا أصحاب النار سألوهم عن جميع ما وعد الله به المؤمنين والكفار؟ وبعبارة أخرى هناك ما يشترك فيه الطائفتان و ما يختص به كل منهما فما بالهم إذا اعترفوا هم أنفسهم اعترفوا بما يختص بأنفسهم و يسألون أصحاب النار الاعتراف بما يشترك فيه الجميع؟.

وربما وجه الفرق بأن المراد بقوله: «مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ» الذي وعده أصحاب الجنة من أنواع الثواب الجزيل فإن أصحاب النار يشاهدون ذلك كما يجدون ما بهم من أليم العقاب. و هو وجه سخييف على سخافته لا يعنى طائلا.

وقوله: «فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» تفریع على تحقق الاعتراف من الطائفتين جميعا على حقيه ما وعده الله سبحانه، والأذان هو قوله: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ» و هو إعلام عام للفريقين -والدليل عليه ظاهر قوله: «بينهم» بقضاء اللعنه و هى الإبعاد و الطرد من الرحمه الإلهيه على الظالمين و قد فسر الظالمين الذين ضربت عليهم باللعنه بقوله

«الَّذِينَ يَصِفُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَتَّبِعُونَهَا عِوَجًا وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ» فهم الكافرون المنكرون للآخرة الذين يصدون عن سبيل الله محرفه منحرفه، و يصرفون غيرهم عن سلوك الصراط المستقيم فهؤلاء هم المعاندون للحق المنكرون للمعاد.

و هذا الوصف يشمل جميع المعاندين للحق الكافرين بالجزاء حتى المنكرين للصانع الذين لا يدينون بدين فإن الله سبحانه يذكر في كتابه أن دينه و سبيله الذى يهدى إليه و به هو سبيل الإنسانيه الذى تدعو إليه الفطره الإنسانيه و الخلقه خص بها الإنسان ليس وراءه إسلام و لا دين.

فالسبيل الذى يسلكه الإنسان فى حياته هو سبيل الله و صراطه و هو الدين الإلهى فإن

سلكه على استقامه ما تدعو إليه الفطره و هو الذى يسوقه الى سعادته كان هو الصراط المستقيم و الإسلام الذى هو الدين عند الله و سبيل الله الذى لا عوج فيه، و إن سلك غير ذلك سواء كان فيه إذعان بالوهيه و عبادته لمعبود كالممل و الأديان الباطله أو لم يكن فيه خضوع لشيء و عبادته لمعبود كالماديه المحضه فهو سلوكك يبعثون فيه سبيل الله عوجا و هو الإسلام محرفا عن وجهه، و نعمه الله التى بدلت كفرا، فافهم ذلك.

و قد أبهم الله هذا الذى يخبر عنه بقوله: «فَأَذِّنْ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ» و لم يعرفه من هو؟ أ من الإنس أم من الجن أم من الملائكه؟ لكن الذى يقتضيه التدبر فى كلامه تعالى أن يكون هذا المؤذن من البشر لا من الجن و لا من الملائكه: أما الجن فلم يذكر فى شيء من تضاعيف كلامه تعالى أن يتصدى الجن شيئا من التوسط فى أمر الإنسان من لدن وروده فى عالم الآخره و هو حين نزول الموت الى أن يستقر فى جنه أو نار فيختم أمره فلا موجب لاحتمال كونه من الجن.

و أما الملائكه فإنهم وسائط لأمر الله و حملته لإرادته بأيديهم إنفاذ الأوامر الإلهيه، و بوساطتهم يجرى ما قضى به فى خلقه، و قد ذكر الله سبحانه أشياء من أمرهم و حكمهم فى عالم الموت و فى جنه الآخره و نارها كقولهم للظالمين حين القبض «أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ» الخ (الأنعام ٩٣)؛ و قولهم لأهل الجنه الجنه: سَيَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ الخ (النحل ٣٢)؛ و قول مالك لأهل النار: إِنَّكُمْ مَا كَثُرَ الخ (الزخرف ٧٧)؛ و نظائر ذلك.

و أما المحشر و هو حظيره البعث و السؤال و الشهاده و تطاير الكتب و الوزن و الحساب و الظرف الذى فيه الحكم الفصل فلم يذكر للملائكه فيه شيء من الحكم أو الأمر و النهى و لا لغيرهم صريحا إلا ما صرح تعالى به فى حق الإنسان.

كقوله تعالى فى أصحاب الأعراف فى ذيل هذه الآيات حكاية عنهم: «و نَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» و قولهم لجمع من المؤمنين هناك: «ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَ لَا

أَنْتُمْ تَخْزَنُونَ» و هذا حكم و أمر و تأمين بإذن الله، و قوله تعالى فيما يصف يوم القيامة: قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَ الشُّوَاءَ عَلَى الْكَافِرِينَ (النحل ٢٧) و قوله تعالى بعد ذكر سؤاله أهل الجمع عن مده لبثهم فى الأرض: وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبُعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبُعْثِ وَ لَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (الروم ٥٦).

فهذه جهات من تصدى الشئون، و القيام بالأمر يوم القيامة حبا لله الإنسان به دون الملائكة مضافا الى أمثال الشهادة و الشفاعة اللتين له.

فهذا كله يقرب إلى الذهن أن يكون هذا المؤذن من الإنسان دون الملائكة، و يأتي فى البحث الروائى ما له تعلق بالمقام.

قوله تعالى: وَ بَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَ عَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ الْحِجَابُ معروف و هو الستر المتخلل بين شيئين يستر أحدهما من الآخر.

و الأعراف أعالي الحجاب، و التلال من الرمل و العرف للديك و للفرس و هو الشعر فوق رقبتة و أعلى كل شىء فيه معنى العلو على أى حال، و ذكر الحجاب قبل الأعراف، و ما ذكر بعده من إشرافهم على الجميع و ندائهم أهل الجنة و النار جميعا كل ذلك يؤيد أن يكون المراد بالأعراف أعالي الحجاب الذى بين الجنة و النار و هو المحل المشرف على الفريقين أهل الجنة و أهل النار جميعا.

و السيماء العلامة قال الراغب: السيماء و السيمياء العلامة، قال الشاعر:

له سيماء لا تشق على البصر

و قال تعالى: «سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ» و قد سومته أى أعلمته، و مسومين أى معلمين (انتهى).

و الذى يعطيه التدبر فى معنى هذه الآية و ما يلحق بها من الآيات أن هذا الحجاب الذى ذكره الله تعالى إنما هو بين اصحاب الجنة و أصحاب النار فهما مرجع الضمير فى قوله «وَ بَيْنَهُمَا»

وقد أنبأنا الله سبحانه بمثل هذا المعنى عند ذكر محاوره بين المنافقين و المؤمنين يوم القيامة بقوله: يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِمَ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ (الحديد ١٣)، وإنما هو حجاب لكونه يفرق بين الطائفتين و يحجب إحداهما عن الأخرى لا أنه ثوب منسوج مخيط على هيئه خاصه معلق بين الجنة و النار.

ثم أخبر الله سبحانه أن على أعراف الحجاب و أعاليه رجالا مشرفين على الجانبين لارتفاع موضعهم يعرفون كلا من الطائفتين أصحاب الجنة و أصحاب النار بسيماهم و علامتهم التي تختص بهم.

و لا ريب فى أن السياق يفيد أن هؤلاء الرجال منحازون على الطائفتين متميزون من جماعتهم فهل ذلك لكونهم خارجين عن نوع الإنسان كالملائكة أو الجن مثلا، أو لكونهم خارجين عن أهل الجمع من حيث ما يتعلق بهم من السؤال و الحساب و سائر الشؤون الشبيهه بهما فيكون بذلك أهل الجمع منقسمين الى طوائف ثلاث: أصحاب الجنة، و أصحاب النار، و أصحاب الأعراف كما قسمهم الله فى الدنيا الى طوائف ثلاث: المؤمنين و الكفار و المستضعفين الذين لم تتم عليهم الحجة و قصرُوا عن بلوغ التكليف كضعفاء العقول من النساء و الأطفال غير البالغين و الشيخ الهرم الخرف و المجنون و السفیه و أضرابهم، أو لكونهم مرتفعين عن موقف أهل الجمع بمكانتهم؟

لا- ريب أن إطلاق لفظ «رجال» لا- يشمل الملائكة فإنهم لا- يتصفون بالرجولية و الانوثه كما يتصف به جنس الحيوان و إن قيل: إنهم ربما يظهرون فى شكل الرجال فإن ذلك لا يصحح الانتصاف و التسميه، على أنه لا دليل يدل عليه.

ثم إن التعبير بمثل قوله: «رِجَالٌ يَعْرِفُونَ» الخ؛ و خاصه بالتنكير يدل بحسب عرف اللغه على اعتناء تام بشأن الأفراد المقصودين باللفظ نظرا الى دلالة الرجل بحسب العاده على

الإنسان القوى في تعلقه وإرادته الشديد في قوامه.

و على ذلك يجرى ما يوجد في كلامه تعالى من مثل هذا التعبير كقوله تعالى: رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ (النور ٣٧)، وقوله: فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهُرُوا (التوبة ١٠٨)، وقوله: رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ (الأحزاب ٢٣)، وقوله:

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ (يوسف ١٠٩) حتى في مثل قوله: مَا لَنَا لَا نَرَى رَجَالًا كُنَّا نَعِدُّهُمْ مِنَ الْأَشْرَارِ (ص ٦٢)، وقوله: وَ أَنَّهُ كَانَ رَجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ (الجن ٦).

فالمراد برجال في الآية أفراد تامون في إنسانيتهم لا محاله، وإن فرض أن فيهم أفرادا من النساء كان من التغليب (١).

قوله تعالى: وَ نَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا لَمْ يَدْخُلُوهَا وَ هُمْ يَطْمَعُونَ المنادون هم الرجال الذين على الأعراف-على ما يعطيه السياق-وقوله «أَنْ سَلِّمُوا عَلَيْنَا» يفسر ما نادوا به، وقوله: «لَمْ يَدْخُلُوهَا وَ هُمْ يَطْمَعُونَ» جملتان حالتان فجمله «لَمْ يَدْخُلُوهَا» من أصحاب الجنة، وجمله «وَ هُمْ يَطْمَعُونَ» حال آخر من أصحاب الجنة والمعنى: أن أصحاب الجنة نودوا و هم في حال لم يدخلوا الجنة بعدوهم يطمعون في أن يدخلوها؛ أو حال من ضمير الجمع في «لَمْ يَدْخُلُوهَا» و هو العامل فيه، والمعنى أن أصحاب الجنة نودوا بذلك و هم في الجنة لكنهم لم يدخلوا الجنة على طمع في دخولها لأن ما شاهدوه من أهوال الموقف و دقه الحساب كان أيأسهم من أن يفوزوا بدخول الجنة لكن قوله بعد «أَهْلَاءِ الَّذِينَ» إلى آخر الآية يؤيد أول الاحتمالين و أنهم إنما سلموا عليهم قبل دخولهم

ص: ٤٩١

١- ١). الاعراف ٣٧-٥٣: كلام في اصحاب الاعراف. الاعراف ٣٧-٥٣: بحث روائي في: سنن الجاهلية في الطواف، تحريم ما احل الله، ان الله لا يأمر بالفحشاء، ان الله جميل و يحب الجمال.

و أما احتمال أن تكون الجملتان حالين من ضمير الجمع في «نَادَوْا» فيوجب سقوط الجملة عن الإفاده كما هو ظاهر، و ذلك لرجوع المعنى الى أن هؤلاء الرجال الذين هم على أعراف الحجاب بين الجنة و النار نادوا و هم لم يدخلوا.

و على من يميل إلى أن يجعل قوله: «لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ يَطْمَعُونَ» بيانا لحال أصحاب الأعراف أن يجعل قوله: «لَمْ يَدْخُلُوها» استثناء يخبّر عن حال أصحاب الأعراف أو صفه لرجال و التقدير: و على الأعراف رجال لم يدخلوها و هم يطمعون و اذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا... الخ؛ كما نقل عن الزمخشري في الكشف.

لكن يبعد الاستئناف أن اللازم حينئذ إظهار الفاعل في قوله: «لَمْ يَدْخُلُوها» دون إضماره لمكان اللبس كما فعل ذلك في قوله: «وَ نَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا» الخ؛ و يبعد الوصفية الفصل بين الموصوف و الصفه بقوله: «وَ نَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ» من غير ضروره موجه.

و هذا التقدير الذى تقدم أعنى رجوع معنى قوله: «لَمْ يَدْخُلُوها وَ هُمْ يَطْمَعُونَ وَ إِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ» الى آخر الآيه؛ الى قولنا: و على الأعراف رجال يطمعون فى دخول الجنة و يتعوذون من دخول النار—على ما زعموا—هو الذى مهد لهم الطريق و سواه للقول بأن أصحاب الأعراف رجال استوت حسناتهم و سيئاتهم فلم يترجح لهم أن يدخلوا الجنة أو النار فوقفوا على الأعراف!.

لكنك عرفت أن قوله: «لَمْ يَدْخُلُوها» الخ؛ حال أصحاب الجنة لا وصف أصحاب الأعراف، و أما قوله: «وَ إِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ» الخ؛ فسيأتى ما فى كونه بيانا أصحاب الأعراف من الكلام.

قوله تعالى: وَ إِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تَلَقَّاءُ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا

تَجْعَلُنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ التلقاء كالبيان مصدر لقى يلقى ثم استعمل بمعنى جهه اللقاء، و ضمير الجمع فى قوله: «أَبْصَارُهُمْ» و قوله: «قَالُوا» عائد الى «رجال» والتعبير عن النظر الى أصحاب النار بصرف أبصارهم إليه كأن الوجه فيه أن الإنسان لا يحب إلقاء النظر الى ما يؤلمه النظر إليه و خاصة فى مثل المورد الذى يشاهد الناظر فيه أفضع الحال و أمر العذاب و أشقه الذى لا يطاق النظر إليه غير أن اضطراب النفس و قلق القلب ربما يفتح العين نحوه للنظر إليه كأن غيره هو الذى صرف نظره إليه و إن كان الإنسان لو خلى و طبعه لم يرغب فى النظر و لو بوجه نحوه، و لذا قيل: «وَ إِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ» الخ؛ و لم يقل و اذا نظروا إليه أو ما يفيد مفاده.

و معنى الآية: و اذا نظر أصحاب الأعراف أحيانا الى أصحاب النار تعوذوا بالله من أن يجعلهم مع أصحاب النار فيدخلهم النار، و قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين.

و ليس دعاؤهم هذا الدعاء دالا على سقوط منزلتهم، و خوفهم من دخول النار كما يدل على رجائهم دخول الجنة قوله: «وَ هُمْ يَطْمَعُونَ» و ذلك أن ذلك مما دعا به أولو العزم من الرسل و الأنبياء المكرمون و العباد الصالحون و كذا الملائكة المقربون فلا دلالة فيه و لو بالإشعار الضعيف على كون الداعى ذا سقوط فى حاله و حيره من أمره. هذا ما فسروا به الآية بإرجاع ضميرى الجمع الى «رجال».

لكنك خير بأن ذلك لا- يلائم الإظهار الذى فى مفتتح الآية التالیه فى قوله: «وَ نَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ» اذ الكلام فى هذه الآيات الأربيع حال جار فى أوصاف أصحاب الأعراف و أخبارهم كقوله: «يَعْرِفُونَ كُلًّا» الخ؛ و قوله: «وَ نَادُوا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ» الخ؛ و قوله «لَمْ يَدْخُلُوهَا» الخ؛ على احتمال، و قوله: «وَ إِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ» الخ؛ و ليس فى الكلام أى لبس و لا نكته ظاهره توجب العدول من الإضمار الذى هو الأصل فى المقام الى الإظهار بمثل قوله:

«وَ نَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ» .

فالظاهر أن ضميرى الجمع أعنى ما فى قوله: «أَبْصَارُهُمْ» وقوله: «قَالُوا» راجعان الى أصحاب الجنة، والجمله إخبار عن دعائهم اذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار كما أن الجمله السابقه بيان لطمعهم فى دخول الجنة، و كل ذلك قبل دخولهم الجنة.

قوله تعالى: وَ نَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ الى آخر الآيه؛ فى توصيف الرجال بقوله: «يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ» دلالة على أن سيماءهم كما يدلهم على أصل كونهم من أصحاب الجنة يدلهم على أمور آخر من خصوصيات أحوالهم، وقد مرت الإشارة إليه.

وقوله: «قَالُوا مَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ» تقريع لهم و شماته، و كشف عن تقطع الأسباب الدنيويه عنهم فقد كانوا يستكبرون عن الحق و يستدلونه و يغترون بجمعهم.

قوله تعالى: أَمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ الى آخر الآيه.

الإشارة الى أصحاب الجنة، والاستفهام للتقرير أى هؤلاء هم الذين كنتم تجزمون قولاً أنهم لا يصيبهم فيما يسلكونه من طريق العبوديه خير، وإصابه الخير هى نيله تعالى إياهم برحمه و وقوع النكره-برحمه- فى حيز النفس يفيد استغراق الشىء للجنس، و قد كانوا ينفون عن المؤمنين كل خير.

وقوله: أدخلوا الجنة لا- خوف عليكم و لا- أنتم تحزنون، أمر من أصحاب الأعراف للمؤمنين أن يدخلوا الجنة بعد تقرير حالهم بالاستفهام، و هذا هو الذى يفيد السيق (1).

قوله تعالى: وَ نَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا النِّحْلَ؛ الإفاضه من الفيض و هو سيلان الماء منصبا، قال تعالى: تَرَىٰ أَغْيَنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ أى يسيل دمعها منصبا، و عطف سائر ما رزقهم الله من النعم على الماء يدل على أن المراد بالإفاضه صب

ص: ٤٩٤

مطلق النعم أعم من المانع وغيره على نحو عموم المجاز، وربما قيل: إن الإفاضه حقيقه فى إعطاء النعمه الكثيره فيكون تعليقه على الماء وغيره حقيقه حينئذ.

و كيف كان ففى الآيه إشعار بعلو مكانه أهل الجنه بالنسبه الى مكان أهل النار.

و إنما أفرز الماء و هو من جمله ما رزقهم الله ثم قدم فى الذكر على سائر ما رزقهم الله لأن الحاجه الى بارد الماء أسبق الى الذهن طبعا بالنسبه الى غيره عند ما تحيط الحراره بالإنسان، و معنى الآيه ظاهر.

قوله تعالى: الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَ لَعِبًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ اللهو ما يشغلك عما يهملك، و اللعب الفعل المأتى به لغايه خياليه غير حقيقه، و الغرور إظهار النصح و استبطان الغش، و النسيان يقابل الذكر، و ربما يستعار لترك الشىء و عدم الاعتناء بشأنه كالشىء المنسى، و على ذلك يجرى فى الآيه، و الجحد النفسى و الإنكار، و الآيه مسوقه لتفسير الكافرين، و يستفاد منها تفسيرات ثلاثه للكفر: أولها: أنه اتخاذا الإنسان دينه لهوا و لعبا و غرور الحياه الدنيا له، و الثانى: نسيان يوم اللقاء، و الثالث: الجحد بآيات الله، و لكل من التفاسير وجه.

و فى قوله تعالى: «الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَ لَعِبًا» دلالة على أن الإنسان لا- غنى له عن الدين على أى حال حتى من اشتغل باللهو و اللعب و محض حياته فيها محضا فإن الدين - كما تقدمت الإشارة إليه فى تفسير قوله: «الَّذِينَ يَصِفُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ يَبْغُونَهَا عِوَجًا» الآيه - هو طريق الحياه الذى يسلكه الإنسان فى الدنيا، و لا محيص له عن سلوكه، و قد نظم الله سبحانه بحسب ما تهدى إليه الفطره الإنسانيه و دعت إليه، و هو دين الإنسان الذى يخصه و ينسب إليه، و هو الذى يهمل الإنسان و يسوقه الى غايه حقيقه هى سعادته حياته.

فحيث جرى عليه الإنسان و سلكه كان على دينه الذى هو دين الله الفطرى، و حيث اشتغل عنه الى غيره الذى يلهو عنه و لا يهديه إلا الى غايات خياليه و هى اللذائذ الماديه التى لا بقاء لها و لا نفع فيها يعود الى سعادته فقد اتخذا دينه لهوا و لعبا و غرته الحياه الدنيا بسراب

وقوله تعالى: فَالْيَوْمَ نَسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا أَيُّ الْيَوْمِ نتركهم و لا نقوم بلوازم حياتهم السعيده كما تركوا يومهم هذا فلم يقوموا بما يجب أن يعملوا له و بما كانوا بآياتنا يجحدون و نظير الآية في جعل تكذيب الآيات سببا لنسيان الله له يوم القيامة قوله قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (طه ١٢٦)، و قد بدل هناك الجحد نسيانا.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ الْآيَةِ؛ عود على بدء الكلام أعنى قوله في أول الآيات: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ» أى من أعظم من هؤلاء ظلما و لقد أتممنا عليهم الحججه و أقمنا لهم البيان فجئناهم بكتاب فصلناه و أنزلناه إليهم على علم منا بنزوله؟.

فقوله: «عَلَىٰ عِلْمٍ» متعلق بقوله: «لَقَدْ جِئْتَهُمْ» و الكلمه تتضمن احتجاجا على حقيه الكتاب و التقدير: و لقد جئناهم بكتاب حق: و كيف لا يكون حقا؟ و قد نزل على علم منا بما يشتمل عليه من المطالب.

وقوله: «هُدًى وَ رَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» أى هدى و إراءه طريق للجميع و رحمه للمؤمنين به خاصه؛ أو هدى و إيصالا- بالمطلوب للمؤمنين و رحمه لهم، و الأول أنسب بالمقام و هو مقام الاحتجاج.

قوله تعالى: هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الضمير فى تأويله راجع الى الكتاب، و قد تقدم فى تفسير قوله: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ الْآيَةِ (آل عمران ٧)؛ أن التأويل فى عرف القرآن هو الحقيقه التى يعتمد عليها حكم أو خبر أو أى أمر ظاهر آخر اعتماد الظاهر على الباطن و المثل على المثل.

فقوله: «هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ» معناه هل ينتظر هؤلاء الذين يفترون على الله كذبا أو

يكذبون بآياته وقد تمت عليهم الحجة بالقرآن النازل عليهم، إلا حقيقه الأمر التي كانت هي الباعثه على سوق بياناته و تشريع أحكامه و الإنذار و التبشير الذين فيه؟ فلو لم ينتظروه لم يتركوا الأخذ بما فيه.

ثم يخبر تعالى عن حالهم في يوم إتيان التأويل بقوله: يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه، الخ؛ أى اذا انكشفت حقيقه الأمر يوم القيامة يعترف التاركون له بحقيقه ما جاءت به الرسل من الشرائع التي أوجبوا العمل بها، و أخبروا أن الله سيبيعتهم و يجازيهم عليها.

و اذ شاهدوا عند ذلك أنهم صفر الأيدي من الخير، هالكون بفساد أعمالهم سألوا أحد أمرين يصلح به ما فسد من أمرهم إما شفعاء ينجونهم من الهلاك الذى أطل عليهم أو أنفسهم، بأن يردوا الى الدنيا فيعملوا صالحا غير الذى كانوا يعملونه من السيئات و ذلك قوله حكاية عنهم: «فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ»؟.

و قوله تعالى: «قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ» فصل فى معنى التعليل لما حكى عنهم من سؤال أحد أمرين: إما الشفعاء و إما الرد الى الدنيا كأنه قيل: لما ذا يسألون هذا الذى يسألون؟ فقيل: «قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ» فيما بدلوا دينهم لهوا و لعبا، و اختاروا الجحود على التسليم و قد زال عنهم الافتراءات المضله التي كانت تحجبهم عن ذلك فى الدنيا فبان لهم أنهم فى حاجه الى من يصلح لهم أعمالهم إما أنفسهم أو غيرهم ممن يشفع لهم.

و قد تقدم فى مبحث الشفاعة فى الجزء الأول من الكتاب أن فى قوله: «فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا» دلالة على أن هناك شفعاء يشفعون للناس اذ قال: من شفعاء، و لم يقل: من شفيع فيشفع لنا (١).

ص: ٤٩٧

١ - ١). الاعراف ٣٧-٥٣: بحث روائى فى: عذاب القبر؛ كيفية قبض روح المؤمن و الكافر؛ كيفية الورود الى عالم البرزخ؛ اصحاب الاعراف.

اشاره

إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلَ اللَّيْلَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَجِّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْإِخْلَاقُ وَ الْمَأْمُرُ لِبَارِكِ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٥٤) اُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِيَلْدَ مَيْتًا فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ لِبَاتِهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨)

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ سياتى البحث فى معنى السماء و الأيام الستة التى خلقتا فيها فى تفسير سوره حم السجده إن شاء الله.

قوله تعالى: ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ -الى قوله- بِأَمْرِهِ الاستواء الاعتدال

على الشيء و الاستقرار عليه، و ربما استعمل بمعنى التساوى، يقال: استوى زيد و عمرو أى تساوىا قال تعالى: «لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ»

و العرش ما يجلس عليه الملك و ربما كنى به عن مقام السلطنة، قال الراغب فى المفردات:

العرش فى الأصل شىء مسقف، و جمعه عروش قال: «و هِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا» و منه قيل:

عرش الكرم و عرشها إذا جعلت له كهيته سقف. قال: و العرش شبه هودج للمرأه تشبيها فى الهيئه بعرش الكرم، و عرشت البئر جعلت له عريشا، و سمي مجلس السلطان عرشا اعتبارا بعلوه. قال: و عرش الله ما لا يعلمه البشر على الحقيقه إلا بالاسم، و ليس كما يذهب إليه أوهام العامه فإنه لو كان كذلك لكان حاملا له -تعالى عن ذلك- لا محمولا و الله تعالى يقول: إِنَّ اللَّهَ يُمَسِّكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَ لَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ، و قال قوم:

هو الفلك الأعلى و الكرسي فلك الكواكب، و استدل بما روى عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: ما السماوات السبع و الأرضون السبع فى جنب الكرسي إلا كحلقة ملقاه فى أرض فلاه و الكرسي عند العرش كذلك (انتهى).

قوله تعالى: أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَ الْأَمْرُ بَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ الخلق هو التقدير بضم شىء الى شىء و إن استقر ثانيا فى عرف الدين و أهله فى معنى الإيجاد أو الإبداع على غير مثال سابق، و أما الأمر فيستعمل فى معنى الشأن و جمعه أمور، و مصدرا بمعنى يقرب من بعث الإنسان غيره نحو ما يريده يقال أمرته بكذا أمرا، و ليس من البعيد أن يكون هذا هو الأصل فى معنى اللفظ ثم يستعمل الأمر اسم مصدر بمعنى نتيجة الأمر و هو النظم المستقر فى جميع أفعال الأمور المنبسط على مظاهر حياته، فينطبق فى الإنسان على شأنه فى الحياه ثم يتوسع فيه فيستعمل بمعنى الشأن فى كل شىء فأمر كل شىء هو الشأن الذى يصلح له وجوده، و ينظم له تفاريق حركاته و سكناته و شتى أعماله و إراداته، يقال: أمر العبد الى مولاه، أى هو يدبر حياته و معاشه، و أمر المال الى مالكه، و أمر الإنسان الى ربه أى بيده تدبيره فى

ولا- يرد عليه أن الأمر بمعنى الشأن يجمع على «أمور» و بمعنى يقابل النهى على «أوامر» و هو ينافى رجوع أحدهما الى الآخر معنى!، فإن أمثال هذه التفننات كثيره فى اللغه يعثر عليها المتتبع الناقد فالأمر كالمتوسط بين من يملكه و بين من يملك منه كالمولى و العبد و يضاف الى كل منهما يقال: أمر العبد و أمر المولى، قال تعالى: وَ أَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ (البقره ٢٧٥)، و قال: أَتَى أَمْرُ اللَّهِ (النحل ١).

و قد فسر سبحانه أمره الذى يملكه من الأشياء بقوله: إِئِمَّا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (يس ٨٣)، فبين أن أمره الذى يملكه من كل شىء سواء كان ذاتا أو صفه أو فعلا و أثرا هو قول كن و كلمه الإيجاد هو الوجود الذى يفيضه عليه فيوجد هو به، فإذا قال لشىء: كن فكان، فقد أفاض عليه ما وجد به من الوجود، و هذا الوجود الموهوب له نسبه الى الله سبحانه و هو بذاك الاعتبار أمره تعالى و كلمه «كن» الإلهيه، و له نسبه الى الشىء الموجود، و هو بذاك الاعتبار أمره الراجع الى ربه، و قد عبر عنه فى الآيه بقوله: «فَيَكُونُ» .

و قد ذكر تعالى لكل من النسبتين- و إن شئت فقل: للإيجاد المنسوب إليه تعالى و للوجود المنسوب الى الشىء- نعوتا و أحكاما مختلفه سنبحث عنها إن شاء الله فى محل يناسبه.

و الحاصل: أن الأمر هو الإيجاد سواء تعلق بذات الشىء أو بنظام صفاته و أفعاله فأمر ذوات الأشياء الى الله و أمر نظام وجودها الى الله لأنها لا تملك لنفسها شيئا البتة، و الخلق هو الإيجاد عن تقدير و تأليف سواء كان ذلك بنحو ضم شىء الى شىء كضم أجزاء النطفه بعضها الى بعض و ضم نطفه الذكور الى نطفه الإناث ثم ضم الأجزاء الغذائيه إليها فى شرائط خاصه حتى يخلق بدن انسان مثلا، أم من غير أجزاء مؤلفه كتقدير ذات الشىء البسيط و ضم ماله من درجه الوجود وحده و ما له من الآثار و الروابط التى له مع غيره، فالاصول الأوليه مقدره

مخلوقه كما أن المركبات مقدره مخلوقه. قال الله تعالى: وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا (الفرقان ٢)، وقال: الَّذِي أُعْطِيَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (طه ٥٠)، وقال: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ (الزمر ٦٢)، فعمم خلقه كل شيء.

فقد اعتبر في معنى الخلق تقدير جهات وجود الشيء و تنظيمها سواء كانت متميزه منفصلا بعضها عن بعض أم لا بخلاف الأمر.

ولذا كان الخلق يقبل التدرج كما قال: «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ» بخلاف الأمر قال تعالى: وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (القمر ٥٠)، ولذلك أيضا نسب في كلامه الى غيره الخلق كقوله: وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا (المائدة / ١١٠)، وقال فَبَارَكْ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (المؤمنون / ١٤).

و أما الأمر بهذا المعنى فلم ينسبه الى غيره بل خصه بنفسه، وجعله بينه وبين ما يريد حدوثه و كينونته كالروح الذي يحيى به الجسد.

انظر الى قوله تعالى: وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مَسِيرَاتٍ بِأَمْرِهِ وَقوله: وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ (الروم / ٤٦)، وقوله: يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ (النحل ٢) وقوله:

وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (الأنبياء ٢٧)، الى غير ذلك من الآيات تجد أنه تعالى يجعل ظهور هذه الأشياء بسببه أمره أو بمصاحبه أمره، فلخص أن الخلق و الأمر يرجعان بالأخره الى معنى واحد و إن كانا مختلفين بحسب الاعتبار.

فإذا انفرد كل من الخلق و الأمر صح أن يتعلق بكل شيء، كل بالعنايه الخاصه به، و إذا اجتمعا كان الخلق أحرى بأن يتعلق بالذوات لما أنها أوجدت بعد تقدير ذواتها و آثارها، و يتعلق الأمر بآثارها و النظام الجارى فيها بالتفاعل العام بينها لما أن الآثار هى التى قدرت للذوات و لا وجه لتقدير المقدر فافهم ذلك.

ولذلك قال تعالى: «أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ» فأتى بالعطف المشعر بالمغايره بوجهه و كأن

المراد بالخلق ما يتعلق من الإيجاد بذوات الأشياء، وبالامر ما يتعلق بآثارها والأوضاع الحاصله فيها والنظام الجارى بينها كما ميز بين الجهتين فى أول الآيه حيث قال: «خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ» وهذا هو إيجاد الذوات: ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ وهو إيجاد النظام الاحسن بينها بإيقاع الامر تلو الامر و الإتيان بالواحد منه بعد الواحد.

و ما ربما يقال: إن العطف لا يقتضى المغايره، و لو اقتضى ذلك لدل فى قوله: مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ (البقره ٩٨) على كون جبريل من غير جنس الملائكه! مدفوع بأن المراد مغايره ما و لو اعتبارا لقبح قولنا جاءنى زيد و زيد و رأيت عمرا و عمرا فلا- محيص عن مغايره ما و لو بحسب الاعتبار، و جبريل مع كونه من جنس الملائكه يغايره غيره بما له من المقام المعلوم و القوه و المكانه عند ذى العرش.

و قوله تعالى: «فَبَارَكْ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ» أى كان ذا بركات ينزلها على مربوبيه من جميع من فى العالمين فهو ربهم (١).

قوله تعالى: أَدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ التضرع هو التذلل من الضراعه و هى الضعف و الذله. و الخفيه هى الاستتار، و ليس من البعيد أن يكون كناية عن التذلل جىء به لتأكيد التضرع فإن المتذلل يكاد يخفى من الصغار و الهوان.

الآيه السابقه: «إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ» الآيه تذكر ربوبيته وحده لا شريك له من جهه أنه هو الخالق وحده، و إليه تدبير خلقه وحده؛ فتعقيبها بهاتين الآيتين بمنزله أخذ النتيجة من البيان، و هى الدعوه الى دعائه و عبوديته، و الحكم بأخذ دين يوافق ربوبيته تعالى و هى الربوبيه من غير شريك فى الخلق و لا فى التدبير.

ص: ٥٠٢

و لذلك عاد أولا الى دين العبوديه فقال: اُدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَ خُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا
فأمر أن يدعوه بالتضرع و التذلل و أن يكون ذلك خفيه من غير المجاهره البعيده عن أدب العبوديه الخارجه عن زيها-بناء على
أن تكون الواو في «تَضَرُّعًا وَ خُفْيَةً» للجمع-أو أن يدعوه بالتضرع و الابتهاال الملازم عاده للجهر بوجه أو بالخفيه إخفاتا فإن
ذلك هو لازم العبوديه و من عدا ذلك فقد اعتدى عن طور العبوديه و إن الله لا يحب المعتدين.

و من الممكن أن يكون المراد بالتضرع و الخفيه:الجهر و السر و إنما وضع التضرع موضع الجهر لكون الجهر في الدعاء منافيا
لأدب العبوديه إلا أن يصاحب التضرع.

هذا فيما بينهم و بين الله،و أما فيما بينهم و بين الناس فإن لا يفسدوا في الأرض بعد إصلاحها فليس حقيقه الدين فيما يرجع الى
حقوق الناس إلا- أن يصلح شأنهم بارتفاع المظالم من بينهم و معاملتهم بما يعينهم على التقوى،و يقربهم من سعادته الحياه في
الدنيا و الآخره.

ثم كرر الدعوه إليه و أعاد البعث الى دعائه بالجمع بين الطريقتين الذين لم يزل البشر يعبد الرب أو الأرباب من أحدهما و هما
طريق الخوف و طريق الرجاء فإن قوما كانوا يتخذون الأرباب خوفا فيعبدونهم ليسلموا من شرورهم،و كان قوما يتخذون الأرباب
طمعا فيعبدونهم لينالوا خيرهم و بركتهم لكن العباده عن محض الخوف ربما ساق الإنسان الى اليأس و القنوط فدعاه الى ترك
العباده،و قد شوهد ذلك كثيرا،و العباده عن محض الطمع ربما قاد الى استرسال الوقاحه و زوال زى العبوديه فدعاه الى ترك
العباده،و قد شوهد أيضا كثيرا فجمع سبحانه بينهما و دعا الى الدعاء باستعمالهما معا فقال: «وَ ادْعُوهُ خَوْفًا وَ طَمَعًا» ليصلح كل
من الصفتين ما يمكن أن تفسده الاخرى،و في ذلك وقوع في مجرى الناموس العام الجارى في العالم أعنى ناموس الجذب و
الدفع.

و قد سمي الله سبحانه هذا الاعتدال في العباده و التجنب عن إفساد الأرض بعد إصلاحها

إحسانا و بشر المجيبين لدعوته بأنهم يكونون حينئذ محسنين فتقرب منهم رحمته إن رحمه الله قريب من المحسنين.

و لم يقل: «رحمه الله قريبه»، قيل: لأن الرحمه مصدر يستوى فيه الوجهان، وقيل: لأن المراد بالرحمه الإحسان، وقيل: لأن قريب فعيل بمعنى المفعول فيستوى فيه المذكر و المؤنث و نظيره قوله تعالى: لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ (الشورى ١٧).

قوله تعالى: وَ هُوَ الَّذِي يُزِيلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِلَى آخِرِ الآيَةِ؛ و فى الآيه بيان لربوبيته تعالى من جهة العود كما أن فى قوله: «إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ» الآيه بيانا لها من جهة البدء.

و قوله: «بُشْرًا» و أصله البشر بضمين جمع بشير كالنذر جمع نذير، و المراد بالرحمه المطر، و قوله: «بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ» أى قدام المطر، و فيه استعاره تخيليه بتشبيه المطر بالإنسان الغائب الذى ينتظره أهله فيقدم و بين يديه بشير يبشر بقدومه.

و الإقلال الحمل، و السحاب و السحابه الغمام و الغمامه كتمر و تمره و كون السحاب ثقلا باعتبار حملة ثقل الماء، و قوله: «لِبَلَدٍ مَيِّتٍ» أى لأجل بلد ميت أو الى بلد ميت و الباقي ظاهر.

و الآيه تحتج بإحياء الأرض على جواز إحياء الموتى لأنهما من نوع واحد، و حكم الأمثال فيما يجوز و فيما لا يجوز واحد و ليس الأحياء الذين عرض لهم عارض الموت بمنعدين من أصلهم فإن أنفسهم و أرواحهم باقيه محفوظه و إن تغيرت أبدانهم، كما أن النبات يتغير ما على وجه الأرض منها و يبقى ما فى أصله من الروح الحيه على انعزال من النشوء و النماء ثم تعود إليه حياته الفعاله كذلك يخرج الله الموتى فما إحياء الموتى فى الحشر الكلى يوم البعث إلا كإحياء الأرض الميتة فى بعثه الجزئى العائد كل سنه، و للكلام ذيل سيوافيك فى محل آخر إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: وَ الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ إِلَى آخِرِ الآيَةِ؛ النكد

القليل. و الآيه بالنظر الى نفسها كالمثل العام المضروب لترتب الأعمال الصالحه و الآثار الحسنه على الذوات الطيبه الكريمه كخلافها على خلافها كما تقدم فى قوله: كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ لكنها بانضمامها الى الآيه السابقه تفيد أن الناس و إن اختلفوا فى قبول الرحمه فالاختلاف من قبلهم و الرحمه الإلهيه عامه مطلقه (١).

[سوره الأعراف (٧): الآيات ٥٩ الى ٦٤]

اشاره

لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالَةٌ وَ لَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ أَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤)

ص: ٥٠٥

قوله تعالى: لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ بدأ الله سبحانه بقصته و هو أول رسول يذكر الله سبحانه تفصيل قصته في القرآن كما سيأتي تفصيل القول في قصته في سورة هود إن شاء الله تعالى.

و اللام في قوله: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا» للقسم جيء بها للتأكيد لأن وجه الكلام الى المشركين و هم ينكرون النبوه، و قوله: «فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» ناداهم بقوله: «يَا قَوْمِ» فأضافهم الى نفسه ليكون جريا على مقتضى النصح الذي سيخبرهم به عن نفسه، و دعاهم اول ما دعاهم الى توحيد الله تعالى فإن دعاهم الى عبادته، و أخبرهم بانتفاء كل إله غيره فيكون دعوه الى عباده الله وحده من غير أن يشرك به في عبادته غيره، و هو التوحيد.

ثم أنذرهم بقوله: «إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ» و ظاهره يوم القيامة فيكون في ذلك دعوه الى أصلين من أصول الدين و هما التوحيد و المعاد، و أما الأصل الثالث و هو النبوه فيصرح به في قوله: «يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَالَّةٌ وَ لَكِنِّي رَسُولٌ» الآية.

على أن في نفس الدعوه و هى دعوه الى نوع من العباده لا- يعرفونها و كذا الإنذار بما لم يكونوا يعلمونه و هو عذاب القيامة إشعارا بالرساله من قبل من يدعو إليه، و من الشاهد على ذلك قوله في جوابهم: «أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ» فإنه يدل على تعجبهم من رسالته باستماع أول ما خاطبهم به من الدعوه و هو قوله: «يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» .

قوله تعالى: قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ الملاء هم أشرف القوم و خواصهم سماوا به لأنهم يملئون القلوب هيبه و العيون جمالا و زينه، و إنما رموا

بالضلال المبين و أكدوه تأكيداً شديداً لأنهم لم يكونوا ليتوقعوا أن معترضا يعترض عليهم بالدعوه الى رفض آلهتهم و توجيه العباده الى الله سبحانه بالرساله و الإنذار فتعجبوا من ذلك فأكدوا ضلاله مدعين أن ذلك من بين الضلال تحقيقاً. و الرؤيه هي الرؤيه بحسب الفكر أعنى الحكم.

قوله تعالى: قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ الْآيَةُ؛ أجابهم بنفى الضلال عن نفسه و الاستدراك بكونه رسولا من الله سبحانه، و ذكره بوصفه: «رَبِّ الْعَالَمِينَ» ليجمع له الربوبيه كلها قبال تقسيمهم إياها بين آلهتهم بتخصيص كل منها بشيء من شئونها و أبوابها كربوبيه البحر و ربوبيه البر و ربوبيه الأرض و ربوبيه السماء و غير ذلك.

و قد جرد عليه السلام جوابه عن التأكيد للإشاره الى ظهور رسالته و عدم ضلالته تجاه إصرارهم بذلك و تأكيد دعواهم.

قوله تعالى: أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأُنصِّحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ أخبرهم بأوصاف نفسه فيبين أنه يبلغهم رسالات ربه، و هذا شأن الرساله و مقتضاها القريب الضرورى، و فى جمع الرساله دلالة على كونها كثيره و أن له مقاصد أمره ربه أن يبلغها إياهم وراء التوحيد و المعاد فإنه نبي رسول من أولى العزم صاحب كتاب و شريعته.

ثم ذكر أنه ينصح لهم و هو عظاته بالإنذار و التبشير ليقربهم من طاعه ربههم و يبعدهم عن الاستكبار و الاستنكاف عن عبوديته كل ذلك بذكر ما عرف الله من بدء الخلقه و عودها و سننه تعالى الجاريه فيها، و لذا ذكر ثالثاً أنه يعلم من الله ما لا يعلمون كوقائع يوم القيامة من الثواب و العقاب و غير ذلك، و ما يستتبع الطاعه و المعصيه من رضاه تعالى و سخطه و وجوه نعمه و نقمه.

و من هنا يظهر أن الجمل الثلاث كل مسوق لغرض خاص أعنى قوله: «أُبَلِّغُكُمْ» الآية

و «أَنْصَحُ لَكُمْ» و «أَعْلَمُ» الآيه و هي ثلاثه أوصاف متواليه لا كما قيل: إن الاوليان صفتان، و الثالثه جمله حالیه عن فاعل «و أَنْصَحُ لَكُمْ» .

قوله تعالى: أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ استفهام إنكارى ينكر تعجبهم من دعواه الرساله و دعوته إياهم الى الدين الحق و المراد بالذكر ما يذكر به الله و هو المعارف الحقه التى أوحيت إليه، و قوله: «مِنْ رَبِّكُمْ» متعلق بمقدر أى ذكر كائن من ربكم.

و قوله: «لِيُنذِرَكُمْ» و «لِتَتَّقُوا» و «لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» متعلقات بقوله: «جَاءَكُمْ» و المعنى لغرض أن ينذركم الرسول، و لتتقوا أنتم، و يؤدى ذلك الى رجاء أن تشملكم الرحمه الإلهيه فإن التقوى و إن كان يؤدى الى النجاه لكنها ليست بعلة تامه، و قد اشتمل ما حكى من إجمال كلامه عليه السلام من معارف عاليه إلهيه.

قوله تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلِكِ الْفَلِكِ السَّفِينَةِ يَسْتَعْمَلُ وَاحِدًا وَ جَمْعًا عَلَى مَا ذَكَرَهُ الرَّاعِبُ وَ يَذَكَرُ وَ يُؤْنِثُ كَمَا فِي الصَّحَاحِ وَ قَوْلُهُ: «قَوْمًا عَمِينَ» موصوف و صفه. و عمين جمع عمى كخشن صفه مشبهه من عمى يعمى، عمى كالأعمى إلا أن العمى يختص بعمى البصيره و الأعمى بعمى البصر، كما قيل، و معنى الآيه ظاهر.

[سوره الأعراف (٧): الآيات ٦٥ الى ٧٢]

إشارة

وَ إِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٦٥) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَ إِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٦٦) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَ لَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٧) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَ أَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ (٦٨) أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَ أَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَ زَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضِيطَةً فَادْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَ نَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَ غَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءِ سِمَئِئِمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانظُرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَضِرِينَ (٧١) فَأَنْجَيْنَاهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَ قَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآيَاتِنَا وَ مَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٧٢)

قوله تعالى: **وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ إِلَىٰ آخِرِ آيَةٍ؛** الأخ و أصله أخو هو المشارك غيره في الولاده تكويننا لمن ولده و غيره أب أو أم أو هما معا أو بحسب شرع إلهى كالأخ الرضاعى أو سنه اجتماعيه كالأخ بالدعاء على ما كان يراه أقوام فهذا أصله، ثم استعير لكل من ينتسب الى قوم أو بلده أو صنعه أو سجيته و نحو ذلك يقال: أخو بنى تميم و أخو يشرب و أخو الحياكه و أخو الكرم، و من هذا الباب قوله: **«وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ**

و الكلام فى قوله: «فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» كالكلام فى نظير الخطاب من القصة السابقه.فإن قلت:لم حذف العاطف من قوله: «قَالَ يَا قَوْمِ» و لم يقل:فقال كما فى قصة نوح؟قلت:هو على تقدير سؤال كأنه لما قال: «وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا» قيل:فما قال هود؟فاجيب و قيل:قال يا قوم اعبدوا الله الآيه.كذا قاله الزمخشري فى الكشف.

و لا يجرى هذا الكلام فى قصة نوح لأنه أول قصه أوردت،و هذه القصة قصه بعد قصه يهياً فيها ذهن المخاطب للسؤال بعد ما وعى إجمال القصة و علم أن قصه الإرسال تتضمن دعوه وردا و قبولاً فكان بالحرى إذا سمع المخاطب قوله: «وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا» أن يسأل فيقول:

ما قال هود لقومه؟و جوابه قال لهم؛الخ.

قوله تعالى: قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛لما كان فى هذا الملاء من يؤمن بالله و يستر إيمانه كما سيأتى فى القصة بخلاف الملاء- من قوم نوح قال هاهنا فى قصة هود: قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ و قال فى قصة نوح: قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ كذا ذكره الزمخشري.و قوله تعالى حكاية عن قولهم: «إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَ إِنَّا لَنُظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ» أكدوا كلامهم مره بعد مره لأنهم سمعوا منه مقالا ما كانوا ليتوقعوا صدوره من أحد، و قد أخذت آلهتهم موضعها من قلوبهم،و استقرت سنه الوثنيه بينهم استقرارا لا يجترئ معه أحد على أن يعترض عليها فتعجبوا من مقاله فردوه ردا عن تعجب،فجبهوه أولا بأن فيه سفاهه و هو خفه العقل التى تؤدى الى الخطأ فى الآراء،و ثانيا بأنهم يظنون بظن قوى جدا أنه من الكاذبين،و كأنهم يشيرون بالكاذبين الى أنبيائهم لأن الوثنيين ما كانوا ليدعنوا بالنبوه و قد جاءهم أنبياء قبل هود كما يذكره تعالى بقوله: وَ تِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَ عَصَوْا رُسُلَهُ (هود٥٩/).

قوله تعالى: قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ كالكلام فى الآيه نظير الكلام فى نظيره

من قصه نوح غير أن عادا زادوا وقاحه على قوم نوح حيث إن أولئك رموا نوحا بالضلال فى الرأى و هؤلاء رموا هودا بالسفاهه لكن هودا لم يترك ما به من وقار النبوه، و لم ينس ما هو الواجب من أدب الدعوه الإلهيه فأجابهم بقوله: «يَا قَوْمِ» فأظهر عطوفته عليهم و حرصه على إنجائهم «لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَ لَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ» فجرى على تجريد الكلام من كل تأكيد و اكتفى بمجرد رد تهمتهم و إثبات ما كان يدعيه من الرساله للدلاله على ظهوره.

قوله تعالى: «أَبْلَغُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي وَ أَنَا لَكُمْ ناصِحٌ أَمِينٌ» أى لا شأن لى بما أنى رسول إلا تبليغ رسالات ربي خالصا من شوب ما تظنون بى من كونى كاذبا فلست بغاش لكم فيما أريد أن أحملكم عليه، و لا خائن لما عندى من الحق بالتغيير و لا لما عندى من حقوقكم بالإضاعه، فما أريده منكم من التدين بدين التوحيد هو الذى أراه حقا، و هو الذى فيه نفعكم و خيركم، فإنما وصف نفسه بالأمين محاذاه لقولهم: «وَ إِنَّا لَنظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ» .

قوله تعالى: «أَوْ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ البصطه هى البسطه قلبت السين صادًا لمجاورتها الطاء و هو من حروف الإطباق كالصرط و السراط و الآلاء جمع ألى بفتح الهمزه و كسرهما بمعنى النعمه كأناء جمع أنى و إنى.

ثم أنكر عليه السّلام تعجبهم من رسالته إليهم نظير ما تقدم من نوح عليه السّلام و ذكّرهم نعم الله عليهم، و خص من بينها نعمتين ظاهرتين هما أن الله جعلهم خلفاء فى الأرض بعد نوح، و أن الله خصهم من بين الأقوام ببسطه الخلق و عظم الهيكل البدنى المستلزم لزياده الشده و القوه، و من هنا يظهر أنهم كانوا ذوى حضاره و تقدم، و صيت فى البأس و القوه و القدره. ثم أتبعهما بالإشاره الى سائر النعم بقوله تعالى: «فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ» .

قوله تعالى: «قَالُوا أَجِئْنَا لِنُعْجِبَ اللَّهَ وَ حَيْدَهُ وَ نَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا الْآيَةِ؛ فيه تعلق منهم بتقليد الآباء، و تعجيز هود مشوبا بنوع من الاستهزاء بما أنذرهم به من العذاب.

قوله تعالى: **قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ الرّجس و الرّجز هو الأمر الذى إذا وقع على الشىء أوجب ابتعاده أو الابتعاد عنه، ولذا يطلق على القاذوره لأن الإنسان يتنفر و يتبعد عنه، و على العذاب لأن المعذب -اسم مفعول- يتبعد عن يعذبه أو من الناس الآمنين من العذاب.**

أجابهم بأن إصرارهم على عباده الأوثان بتقليد آباءهم أوجب أن يحق عليهم البعد عن الله بالرجس و الغضب؛ ثم فرع عليه أن هددهم بما يستعجلون من العذاب، و أخبرهم بنزوله عليهم لا محاله، و كنى عن ذلك بأمرهم بالانتظار و اخبارهم بأنه مثلهم فى انتظار نزول العذاب فقال: **«فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ»** .

و أما قوله: **«أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ»** فهو رد لما استندوا إليه فى أولهيه آلهتهم و هو أنهم وجدوا آباءهم على عبادتها-و هم أكمل منهم و ممن فى طبقتهم كهود و أعقل فيجب عليهم أن يقلدوهم.

و محصله أنكم و آباءكم سواء فى أنكم جميعا أتيتم بأشياء ليس لكم على ما ادعيتم من صفتها و هى الألوهيه من سلطان و هو البرهان و الحجج القاطعه فلا يبقى لها من الألوهيه إلا الأسماء التى سميتوها بها إذ قلتم: **إله الخصب و إله الحرب و إله البحر و إله البر،** و ليس لهذه الأسماء مصاديق إلا فى أوهاكم، فهل تجادلوننى فى الأسماء، و للإنسان أن يسمى كل ما شاء بما شاء إذا لم يعتبر تحقق المعنى فى الخارج.

و قد تكرر فى القرآن الاستدلال على بطلان الوثنيه بهذا البيان: **«أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ»** و هو من أطف البيان و أرقه، و أبلغ الحجج و أقطعها إذ لو لم يأت الإنسان لما يدعيه من دعوى بحجه برهانيه لم يبق لما يدعيه من النعت إلا التسميه و التعبير، و من أبده الجهل أن يعتمد الإنسان على مثل هذا النعت الموهوم.

و هذا البيان يطرد و يجرى بالتحليل فى جميع الموارد التى يثق فيها الإنسان على غير الله

سبحانه من الأسباب، ويعطيها من الاستقلال ما يوجب تعلق قلبه بها و طاعته لها و تقربه منها فإن الله سبحانه عد في موارد من كلامه طاعه غيره و الركون الى من سواه عباده له قال أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي (يس / ٤١).

قوله تعالى: فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمِهِ مِنَّا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تنكير الرحمه للدلاله على النوع أى بنوع من الرحمه و هى الرحمه التى تختص بالمؤمنين من النصره الموعوده لهم قال تعالى: إِذْ أَنْصَرْنَا رَسُولَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (المؤمن ٥١/)، و قال: وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (الروم ٤٧/).

و قوله: «وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا» الآية كناية عن إهلاكهم و قطع نسلهم فإن الدابر هو الذى يلى الشىء من خلفه فربما وصف به الأمر السابق على الشىء كأمس الدابر، و ربما وصف به اللاحق كدابر القوم و هو الذى فى آخرهم فنسبه القطع الى الدابر بعنايه أن النسل اللاحق دابر متصل بالإنسان فى سبب ممتد، و إهلاك الإنسان كذلك كأنه قطع هذا السبب الموصول فيما بينه و بين نسله.

و سيأتى تفصيل البحث عن قصه هود عليه السلام فى تفسيره سورة هود إن شاء الله.

[سوره الأعراف (٧): الآيات ٧٣ الى ٧٩]

اشاره

وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ (٧٣) وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَادْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسِلٌ مِنْ رَبِّي قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ (٧٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَتُّمْ بِهِ كَافِرُونَ (٧٦) فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧٧) فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٧٨) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَهُ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُجِبُونَ الْنَاصِحِينَ (٧٩)

قوله تعالى: وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ ثمود أمه قديمه من العرب سكنوا أرض اليمن بالأحقاف بعث الله إليهم «أَخَاهُمْ صَالِحًا» و هو منهم «قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ» دعاهم الى التوحيد و قد كانوا مشركين يعبدون الأصنام على النحو الذى دعا نوح و هود عليهما السلام قومهما المشركين.

و قوله: قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ أَى شاهد قاطع فى شهادته و بينه قوله بالإشارة الى نفس البينه «هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ» و هى الناقه التى أخرجها الله لهم من الجبل آيه لنبوته بدعائه عليه السلام، و هى العنايه فى إضافه الناقه الى الله سبحانه.

وقوله: فَذَرَوْهَا تَأْكُلُ فِي أَرْضِ اللَّهِ الْآيَةَ؛ تفرّيع على كون الناقه آية لله، و حكم لا يخلو عن تشديد عليهم يستتبع كلمه العذاب التي تفصل بين كل رسول و أمته قال تعالى: وَ لِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (يونس/ ٤٧)، و في الآيه تلويح الى أنّ تخليتهم الناقه و شأنها في الأكل و السير في الأرض كانت مما يشق عليهم فكانوا يتخرجون من ذلك، و في قوله: «فِي أَرْضِ اللَّهِ» إيماء إليه فوصاهم و حذرهم أن يمنعوها من إطلاقها و يمسوها بسوء كالعقر و النحر فإن وبال ذلك عذاب أليم يأخذهم.

قوله تعالى: وَ اذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ دعاهم الى أن يذكروا نعم الله عليهم كما دعا هود عادا الى ذلك، و ذكرهم أن الله جعلهم خلفاء يخلفون أمما من قبلهم كعاد، و بوأهم من الأرض أى مكنهم فى منازلهم منها، يتخذون من سهولها - و السهل خلاف الجبل سمي به لسهوله قطعه - قصورا و هى الدور التي لها سور على ما قيل، و ينحتون الجبال بيوتا يأوون إليها و يسكنونها.

ثم جمع الجميع و لخصها فى قوله: «فَاذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ» و أوردته فى صوره التفرّيع مع أنه إجمال للتفصيل الذى قبله بإيهام المغايره كأنه لما أمر بذكر النعم و عد من تفاصيل النعم أشياء كأنهم لا يعلمون بها قيل ثانيا: فإذا كان لله فيكم آلاء و نعم عظيمه أمثال التي ذكرت فاذكروا آلاء الله.

و أما قوله وَ لَا تَعْتُوا فِي الْمَآرِضِ مُفْسِدِينَ فمعطوف على قوله: «فَاذْكُرُوا» عطف اللازم على ملزومه، و فسر العثى بالفساد و فسر بالاضطراب و المبالغه. قال الراغب فى المفردات: العيث و العثى يتقاربان نحو جذب و جبد إلا أن العيث أكثر ما يقال فى الفساد الذى يدرك حسا، و العثى فيما يدرك حكما يقال: عثى يعثى عثيا، و على هذا «وَ لَا تَعْتُوا فِي الْمَآرِضِ مُفْسِدِينَ». انتهى.

قوله تعالى: قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتَضَعُّوا لِمَنْ

آمَنَ مِنْهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَتِينَ؛ دل سبحانه بيان قوله: «الَّذِينَ اسْتُضِعُوا» بقوله: «لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ» على أن المستضعفين هم المؤمنون و أن المؤمنين إنما كانوا من المستضعفين و لم يكن ليؤمن به أحد من المستكبرين، و الباقي ظاهر.

قوله: فَعَقَرُوا الذَّاقَةَ وَ عَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ عقر النخلة قطعها من أصلها، و عقر الناقة نحرها، و عقر الناقة أيضا قطع قوائمها، و العتو هو التمرد و الامتناع و ضمن في الآية معنى الاستكبار بدليل تعديته بعن، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ إِلَى آخِرِ الْآيَتِينَ؛ الرجفة هي الاضطراب و الاهتزاز الشديد كما في زلزاله الأرض و تلاطم البحر، و الجثوم في الإنسان و الطير كالبروك في البعير.

و قد ذكر الله هنا في سبب هلاكهم أنه أخذتهم الرجفة، و قال في موضع آخر: وَ أَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ (هود ٦٧)، و في موضع آخر: فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ (حم السجده ١٧)، و الصواعق السماوية لا تخلو عن صيحه هائله تقارنها، و لا ينفك ذلك غالبا عن رجفه الأرض هي نتيجة الاهتزاز الجوى الشديد الى الأرض، و توجف من جهه أخرى القلوب و ترتعد الأركان، فالظاهر أن عذابهم إنما كان بصاعقه سماوية اقترنت صيحه هائله و رجفه في الأرض أو في قلوبهم فأصبحوا في دارهم أى في بلدهم جاثمين ساقطين على وجوههم و ركبهم.

و الآية تدل على أن ذلك كان مرتبطا بما كفروا و ظلموا آية من آيات الله مقصودا بها عذابهم عذاب الاستئصال، و لا نظر في الآية الى كيفية حدوثها، و الباقي ظاهر.

[سوره الاعراف (٧): الآيات ٨٠ الى ٨٤]

اشاره

وَ لُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (٨٠) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِفُونَ (٨١) وَ مَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فَأَنْجَيْنَاهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ (٨٣) وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٨٤)

قوله تعالى: «وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ ظاهره أنه من عطف القصة على القصة أى عطف قوله: «لُوطًا» على «نُوحًا» فى قوله فى القصة الاولى «لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا» فىكون التقدير و لقد أرسلنا لوطا إذ قال لقومه، الخ؛ لكن المعهود من نظائر هذا النظم فى القرآن أن يكون بتقدير «اذكر» بدلاله السياق، و على ذلك فالتقدير:

و اذكر لوطا الذى أرسلناه إذ قال لقومه، الخ؛ و الظاهر أن تغيير السياق من جهة أن لوطا من الأنبياء التابعين لشريعة إبراهيم عليهما السلام لا لشريعة نوح عليه السلام، و لذلك غير السياق فى بدء قصته عن السياق السابق فى قصص نوح و هود و صالح فغير السياق فى بدء قصته ثم رجع الى السياق فى قصة شعيب عليه السلام.

و قد كان لوط-على ما سيأتى إن شاء الله من تفصيل قصته فى سورة هود-مرسلا الى أهل سدوم و غيره يدعوهم الى دين التوحيد و كانوا مشركين عبده أصنام.

و قوله: «أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ يَرِيدُ بِالْفَاحِشَةِ اللَّوَاطِ بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: «إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً» و فى قوله: «مَا سَاءَ بَقُوكُمْ بِهَا مِنْ أَحْيِدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ» أى أحد من الامم و الجماعات

دلاله على أن تاريخ ظهور هذه الفاحشه الشنيعه تنتهى الى قوم لوط، و سياتى جل ما يتعلق به من الكلام فى تفصيل قصته فى سورة هود.

قوله تعالى: **إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ** الآية؛ إتيان الرجال كناية عن العمل بهم بذلك، وقوله: «شَهْوَةً» قرينه عليه، وقوله: «مِنْ دُونِ النِّسَاءِ» قرينه أخرى على ذلك، ويفيد مضافا الى ذلك أنهم كانوا قد تركوا سبيل النساء و اكتفوا بالرجال، و لتعديهم سبيل الفطره و الخلقه الى غيره عددهم متجاوزين مسرفين فقال: «بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُشْرِفُونَ» .

و لكون عملهم فاحشه مبتدعه لم يسبقهم إليها أحد من العالمين استفهم عن ذلك مقارنا ب«إن»المفيدة للتحقيق فافاد التعجب و الاستغراب، و التقدير: «إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ» الآية.

قوله تعالى: **وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛** أى لم يكن عندهم جواب فهددوه بالإخراج من البلد فإن قولهم: «أَخْرَجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ» الآية؛ ليس جوابا عن قول لوط لهم: «أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ» الآية؛فجواب الكلام فى ظرف المناظره إما إمضاؤه و الاعتراف بحقيقته و إما بيان وجه فساده، و ليس فى قولهم:

«أَخْرَجُوهُمْ» الى آخر شىء من ذلك فوضع ما ليس بجواب فى موضع الجواب كناية عن عدم الجواب و دلاله على سفههم.

و قد استهانوا أمر لوط إذ قالوا: «أَخْرَجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ» الآية؛ أى أن القرية أى البلده لكم و هم نزلاء ليسوا منها و هم يتنزهون عما تأتونه و يتطهرون، و لا يهمنكم أمرهم فليسوا إلا أناسا لا عده لهم و لا شده.

قوله تعالى: **فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ** فيه دلالة على أنه لم يكن آمن به إلا أهله، و قد قال تعالى فى موضع آخر: **فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** (الذاريات ٣٦).

وقوله: كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ أى الماضين من القوم، وهو استعاره بالكناية عن الهلاك و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ذكر الإمطار فى مورد ترقب ذكر العذاب يدل على أن العذاب كان به و قد نكر المطر للدلالة على غرابه أمره و غزاره أثره، وقد فسره الله تعالى فى موضع آخر بقوله: وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِنْ سَجِيلٍ مُنْضُودٍ مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ مَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بَبَعْدٍ (هود ٨٣).

وقوله: «فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ» توجيه خطاب الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم ليعتبر به هو و أمته.

[سورة الأعراف (٧): الآيات ٨٥ الى ٩٣]

إشارة

وَ إِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ وَ لَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْرِ الْإِحْثَابِ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) وَ لَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَ أذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ وَ أَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (٨٦) وَ إِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَ طَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (٨٧) قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ (٨٨) قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩) وَ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ (٩٠) فَأَخَذْتَهُمُ الرِّجْفَ فَأَضْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ (٩١) الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَأَنْ لَمْ يَغْنُوا فِيهَا الَّذِينَ كَذَبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ (٩٢) فَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَ قَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَ نَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَى عَلَى قَوْمٍ كَافِرِينَ (٩٣)

قوله تعالى: وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا الْآيَةَ معطوف على القصة الاولى و هي قصة نوح عليه السّلام، و قد بنى عليه السّلام دعوته على أساس التوحيد كما بناها عليه من قبله من الرسل المذكورين فى القصص المتقدمه.

و قوله: قَدْ جَاءَكُمْ بَيْنَهُ مِنْ رَبِّكُمْ يَدْلُ عَلَىٰ مَجِيئِهِ بِآيَةٍ تَدُلُّ عَلَىٰ رِسَالَتِهِ و لكن الله سبحانه لم يذكر ذلك فى كتابه و ليست هذه الآيه هى آيه العذاب التى يذكرها الله تعالى فى آخر قصته فإن عامه قومه من الكفار لم ينتفعوا بها بل كان فيها هلاكهم و لا معنى لكون آيه

العذاب آيه للرساله مبينه للدعوه.

على أنه يفرع قوله: «فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ» الآيه؛ على مجيء الآيه ظاهرا، وإنما يستقيم الدعوه الى العمل بالدين قبل نزول العذاب و تحقق الهلاك. و هو ظاهر.

و قد دعاهم أولا بعد التوحيد الذى هو أصل الدين الى إيفاء الكيل و الميزان و أن لا يبخسوا الناس أشياءهم فقد كان الإفساد فى المعاملات رائجا فيهم شائعا بينهم.

ثم دعاهم ثانيا بقوله: «وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا» الى الكف عن الإفساد فى الأرض بعد ما أصلحها الله بحسب طبعها، و الفطره الإنسانيه الداعيه الى اصلاحها كى ينتظم بذلك أمر الحياه السعيده، و الإفساد فى الأرض و ان كان بحسب اطلاق معناه يشمل جميع المعاصى و الذنوب مما يتعلق بحقوق الله أو بحقوق الناس كائنه ما كانت لكن مقابلته لما قبله و ما بعده يخصه-تقريبا-بالإفساد الذى يسلب الأمن العام فى الأموال و الأعراض و النفوس كقطع الطرق و نهب الأموال و هتك الأعراض و قتل النفوس المحترمه.

ثم علل دعوته الى الأمرين بقوله: «ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ» أما كون إيفاء الكيل و الميزان و عدم بخس الناس أشياءهم خيرا فلأن حياه الإنسان الاجتماعيه فى استقامتها مبنيه على المبادله بين الأفراد بإعطاء كل منهم ما يفضل من حاجته، و أخذ ما يعادله مما يتم به نقصه فى ضروريات الحياه و ما يتبعها، و هذا يحتاج الى أمن عام فى المعاملات تحفظ به أوصاف الأشياء و مقاديرها على ما هى عليه فمن يجوز لنفسه البخس فى أشياء الناس فهو يجوز ذلك لكل من هو مثله، و هو شيوعه، و إذا شاع البخس و الغش و الغرر من غير أن يؤمن حلول السم محل الشفاء و الردى مكان الجيد، و الخليط مكان الخالص، و بالأخره كل شىء محل كل شىء بأنواع الحيل و العلاجات كان فيه هلاك الأموال و النفوس جميعا.

و أما كون الكف عن إفساد الأرض خيرا لهم فلأن سلب الأمن العام يوقف رحي المجتمع الإنسانى عن حركتها من جميع الجهات و فى ذلك هلاك الحرث و النسل و فناء الإنسانيه.

فالمعنى: إيفاء الكيل و الميزان و عدم البخس و الكف عن الفساد فى الأرض خير لكم يظهر لكم خيريته إن كنتم مصدقين لقولى مؤمنين بى، أو المعنى: ذلكم خير لكم تعلمون أنه خير إن كنتم ذوى إيمان بالحق.

و ربما قيل: إن المعنى ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين بدعوتى فإن غير المؤمن لا ينتفع بسبب ما عنده من الكفر القاضى بشقائه و خسارته و ضلال سعيه بهذه الخيرات الدنيويه بحسب الحقيقه لأن انتفاعه إنما هو انتفاع فى موطن خيالى و هو الحياه الدنيا التى هى لعب، و إن الدار الآخره لهى الحيوان لو كانوا يعلمون.

هذا كله على تقدير كون المشار إليه بقوله: «ذَلِكُمْ» هو إيفاء الكيل و ما بعده كما هو ظاهر السياق، و أما اخذ الإشاره الى جميع ما تقدم و جعل المراد بالإيمان هو الإيمان المصطلح دون الإيمان اللغوى كما احتمله بعضهم فهو أشبه باشتراط الشىء بنفسه لرجوع المعنى الى نحو قولنا إن كنتم مؤمنين فالعباده لله وحده بالإيمان به و إيفاء الكيل و الميزان و عدم الفساد فى الأرض خير لكم.

و يرد على الوجهين الأخيرين جميعاً أن ظاهر قوله: «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» ثبوت اتصافهم بالإيمان قبل حال الخطاب فإنه مقتضى تعليق الحكم بقوله: «كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» المؤلف من ماضى الكون الناقص و اسم الفاعل من الإيمان، المقتضى لاستقرار الصفه فيهم زماناً، و لا يخاطب بمثل هذا المعنى القوم الذين فيهم الكافر و المؤمن و المستكبر و المنقاد و لو كان كما يقولون لكان من حق الكلام أن يقال: ذلكم خير لكم إن آمنتم أو إن تؤمنوا فالظاهر أنه لا محيص من كون المراد بالإيمان غير الإيمان المصطلح.

قوله تعالى: «وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا أَلَا يَعْلَمُ السَّيِّئَاتِ أَنَّ «تُوعِدُونَ وَ تَصَدُّونَ» حالان من فاعل «لَا تَقْعُدُوا» و قوله: «وَ تَبْغُونَهَا» حال من فاعل «تَصَدُّونَ» .

ثم دعاهم ثالثا الى ترك التعرض لصراط الله المستقيم الذى هو الدين فإن فى الكلام تلويحا الى أنهم كانوا يقعدون على طريق المؤمنين بشعيب عليه السلام و يوعدونهم على إيمانهم به و الحضور عنده و الاستماع منه و إجراء العبادات الدينيه معه، و يصرفونهم عن التدين بدين الحق و السلوك فى طريقه التوحيد و هم يسلكون طريق الشرك، و يطلبون سبيل الله الذى هو دين الفطره عوجا.

و بالجمله كانوا يقطعون الطريق على الإيمان بكل ما يستطيعون من قوه و احتيال فنهاهم عن ذلك، و وصاهم أن يذكروا نعمه الله عليهم و يعتبروا بالنظر الى ما يعلمونه من تاريخ الامم الغابره، و ما آل إليه أمر المفسدين من عاقبه السوء.

فقوله: «وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ»، و انظروا كيف كان عاقبه المفسدين كلام مسوق سوق العظه و التوصيه و هو يقبل التعلق بجميع ما تقدم من الأوامر و النواهي فقوله: «وَ اذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ» أمر بتذكر تدرجهم من القله الى الكثره بازدياد النسل فإن ذلك من نعم الله العظيمه على هذا النوع الإنسانى لأن الإنسان لا يقدر على أن يعيش وحده من غير اجتماع إذ الغايه الشريفه و السعاده العاليه الإنسانيه التى يمتاز بها عن سائر الأنواع الحيوانيه و غيرها اقتضت أن تهب العناية الإلهيه له أدوات و قوى مختلفه و تركيبا وجوديا خاصا لا يستطيع أن يقوم بضروريات حوائجها العجيبه المتفننه وحده بل بالتعااضد مع غيره فى تحصيل المأكل و المشرب و الملبس و المسكن و المنكح و غيرها تعاظدا فى الفكر و الإراده و العمل.

قوله تعالى: «وَ إِنْ كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ ثُمَّ دَعَاهُمْ رَابِعًا إِلَى الصَّبْرِ عَلَى تَقْدِيرِ وَقُوعِ الْاِخْتِلَافِ بَيْنَهُمْ بِالْإِيمَانِ وَ الْكُفْرِ فَإِنَّهُ كَانَ يُوصِيهِمْ جَمِيعًا قَبْلَ هَذِهِ الْوَصِيَّةِ بِالْاجْتِمَاعِ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَ الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَ كَأَنَّهُ أَحْسَنَ مِنْهُمْ أَنْ ذَلِكَ مِمَّا لَا يَكُونُ الْبَتَّةَ، وَ أَنَّ الْاِخْتِلَافَ كَائِنًا لَا مَحَالَةَ، وَ أَنَّ الْمَلَأَ الْمُسْتَكْبِرِينَ مِنْ قَوْمِهِ وَ هُمُ الَّذِينَ

كانوا يوعدون و يصدون عن سبيل الله سيأخذون في افساد الأرض و اىذاء المؤمنين و يوجب ذلك فى المؤمنين و هن عزيمتهم، و تسلط الناس على قلوبهم فأمرهم جميعا بالصبر و انتظار أمر الله فيهم ليحكم بينهم و هو خير الحاكمين.

فإن فى ذلك صلاح المجتمع، أما المؤمنون فلا يقعون فى الباس من الحياه الآمنه، و الاضطراب و الحيره من جهه دينهم، و أما الكفار فلا- يقعون فى ندامه الإقدام من غير رؤيه و مفسده المظلمه على جهاله فحكم الله خير فاصل بين الطائفتين فهو خير الحاكمين لا يساهل فى حكم اذا حان حينه، و لا يجور فى حكم اذا ما حكم.

فقوله: «فَاصْبِرُوا» بالنسبه الى الكفار أمر ارشادى، و بالنسبه الى المؤمنين أمر مولوى أو ارشادى، و هو ارشاد الجميع الى ما يصلح حالهم.

قوله تعالى: **قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ الْآيَةَ.** لم يسترشد الملاء المستكبرون من قومه بما أرشدهم اليه من الصبر و انتظار الحكم الفصل فى ذلك من الله سبحانه بل بادروه بتهديده و تهديد المؤمنين بإخراجهم من أرضهم الا أن يرجعوا الى ملتهم بالارتداد عن دين التوحيد.

و فى تأكيدهم القول: «لَنُخْرِجَنَّكَ» و «لَتَعُوذَنَّ» بالقسم و نون التأكيد دلالة على قطعهم العزم على ذلك، و لذا بادر عليه السلام بعد استماع هذا القول منهم الى الاستفتاح من الله سبحانه.

قوله تعالى: **قَالَ أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ، قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمُ الْآيَةَ؛** أجاب عليه السلام بكراهه العود فى ملتهم بدليل ما بعده من الجمل، و لازم ذلك اختيار الشق الآخر على تقدير الاضطرار الى أحدهما كما أخبروه.

و قد أجاب عليه السلام عن نفسه و عن المؤمنين به من قومه، و ذكر أنه و المؤمنين به جميعا كارهون للعود الى ملتهم فإن فى ذلك افتراء للكذب على الله سبحانه بنسبه الشركاء إليه، و ما يتبعها من الأحكام المفتراه فى دين الوثنيه فقوله: «قَدْ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا» الآية؛ بمنزله التعليل لقوله:

«أَوْ لَوْ كُنَّا كَارِهِينَ» .

و من أسخف الاستدلال الاحتجاج بقوله: «إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا» على أن شعيبا عليه السلام كان قبل نبوته مشركا وثنيا-حاشاه-وقد تقدم آنفا أنه يتكلم عن نفسه وعن المؤمنين به من قومه وقد كانوا كفارا مشركين قبل الإيمان به فأجابه الله من مله الشرك و هداهم بشعيب الى التوحيد فقول شعيب: «نَجَّانَا اللَّهُ» تكلم عن المجموع بنسبه وصف الجبل الى الكل،هذا لو كان المراد بالتنجيه الظاهريه من الشرك الفعلى و أما لو أريد بها التنجيه الحقيقه و هى الإخراج من كل ضلال محقق موجود أو مقدر مترقب كان شعيب-و هو لم يشرك بالله طرفه عين-و قومه-و هم كانوا مشركين قبل زمان إيمانهم بشعيب-جميعا من نجاهم الله من الشرك إذ لا يملك الإنسان لنفسه الهالكه ضرا و لا نفعا و ما أصابه من خير فهو من الله سبحانه.

و قوله: «وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا كَالْإِضْرَابِ وَ التَّرْقَى بِالْجَوَابِ الْقَاطِعِ كَأَنَّهُ قَالَ:نحن كارهون العود الى ملتكم لأن فيه افتراء على الله بل إن ذلك مما لا يكون البتة،و ذلك أن كراهه شىء إنما توجب تعسر التلبس به دون تعذره فأجاب عليه السلام ثانيا بتعذر العود بعد جوابه أولا بتعسره،و هو ما ذكرناه من الإضراب و الترقى.

و لما كان قوله: «وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا» فى معنى أن يقال:«لن نعود إليها أبدا»و القطع فى مثل هذه العزمات مما هو بعيد عن أدب النبوه فإنه فى معنى:لن نعود على أى تقدير فرض حتى لو شاء الله،و هو من الجهل بمقامه تعالى،استثنى مشيه الله سبحانه فقال «إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا» فإن الإنسان كيفما كان جائز الخطأ فمن الجائز أن يخطئ بذنب فيعاقبه الله بسلب عنايته به فيطرده من دينه فيهلك على الضلال.

و فى الجمع بين الاسمين فى قوله: «اللَّهُ رَبُّنَا» إشاره الى أن الله الذى يحكم ما يشاء هو الذى يدبر أمرنا و هو إله و رب،على ما يقتضيه دين التوحيد لا كما يعلمه دين الوثنيه فإنه يسلم

الالوهيه لله ثم يفرز الربويه بمختلف شئونها بين الأوثان و يسميها رب البحر و رب البر و هكذا.

و قوله: وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا كالتعليل لتعقيب الكلام بالاستثناء كأنه قيل لما استثنيت بعد ما أطلقت الكلام و قطعت في العزم؟ فقال: لأنه وسع ربي كل شيء علما و لا- أحيط من علمه إلا بما شاء فمن الجائز أن يتعلق مشيئه بشيء غائب عن علمي سواء نرى أو سرنى كأن يتعلق علمه بأنا سنخالفه في بعض أوامره فيشاء عودنا الى ملتكم، و إن كنا اليوم كارهين له، و لعل هذا المعنى هو السبب في تعقيب هذا القول بمثل قوله: «عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا» فإن من يتوكل على الله كان حسبه و صانه من شر ما يخاف.

و لما بلغ الكلام هذا المبلغ و قد أخبروهم بعزمهم على أحد الأمرين: الإخراج أو العود، و أخبرهم شعيب عليه السلام بالعزم القاطع على عدم العود الى ملتهم البتة التجأ عليه السلام الى ربه و استفتح بقوله عن نفسه و عن المؤمنين «رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ» يسأل ربه أن يفتح بينهم أى بين شعيب و المؤمنين به، و بين المشركين من قومه، و هو الحكم الفصل فإن الفتح بين شيئين يستلزم إبعاد كل منهما عن صاحبه حتى لا يماس هذا ذاك و لا ذاك هذا دعا عليه السلام بالفتح و كنى به عن الحكم الفصل و هو الهلاك أو هو بمنزله و أبهم الخاسر من الراجح و الهالك من الناجى و هو يعلم أن الله سينصره و أن الخزي اليوم و السوء على الكافرين لكنه عليه السلام أخذ بالنصفه للحق و تأدب بإرجاع الأمر فى ذلك الى الله كما أتى بنظير ذلك فى قوله السابق: «فَاصْبِرُوا حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَ هُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ» .

و خير الحاكمين و خير الفاتحين اسمان من أسماء الله الحسنى، و قد تقدم البحث عن معنى الحكم فيما مر، و عن معنى الفتح آنفا، و سيجىء الكلام المستوفى فى الأسماء الحسنى فى تفسير قوله تعالى: وَ لِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا (الآيه ١٨٠) من السوره إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِلَى آخِرِ آيَةٍ: هَذَا تَهْدِيدٌ

منهم لمن آمن بشعيب أو أراد أن يؤمن به و يكون من جملة الإيعاد و الصد اللذين كان شعيب ينهى عنهما بقوله: «وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَ تَصِدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ» و يكون أفراد هذا بالذكر هاهنا من بين سائر أقوالهم ليكون كالتوطئه و التمهيد لما سيأتى من قولهم بعد ذكر هلاكهم: «الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ» .

و يحتمل أن يكون الاتباع بمعناه الظاهر العرفى و هو اقتفاء أثر الماشى على الطريق و السالك السبيل بأن يكون الملاحق المستكبرون لما اضطروه و من معه الى أحد الأمرين: الخروج من أرضهم أو العود فى ملتهم ثم سمعوه يرد عليهم العود الى ملتهم ردا قاطعا ثم يدعو بمثل قوله:

«رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَ أَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ» لم يشكوا أنه سياتركهم و يهاجر الى أرض غير أرضهم، و يتبعه فى هذه المهاجرة المؤمنون به من القوم خاطبوا عند ذلك طائفه المؤمنين بقولهم: «لَيْسَ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ» فهددوهم و خوفوهم بالخسران إن تبعوه فى الخروج من أرضهم ليخرج شعيب وحده فإنهم إنما كانوا يعادونه إياه بالأصالة، و أما المؤمنون فإنما كانوا يبغضون من جهته و لأجله.

و على أى الوجهين كان فالآيه كالتوطئه و التمهيد للآيه الآتية: «الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ» كما تقدم الإشارة إليه.

قوله تعالى: فَأَخَذْتَهُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ أَصْبَحُوا أى صاروا أو دخلوا فى الصباح، و قد تقدم معنى الآيه فى نظيرتها من قصه صالح.

قوله تعالى: الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا -الى قوله- الْخَاسِرِينَ قال الراغب فى المفردات: و غنى فى مكان كذا إذا طال مقامه فيه مستغنيا به عن غيره بغنى قال: كأن لم يغنوا فيها(انتهى). و«كأن» مخفف كأن خفف لدخوله الجملة الفعلية.

فقوله: «الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا» فيه تشبيه حال المكذبين من قومه بمن لم يطيخوا الإقامة فى أرضهم فإن أمثال هؤلاء يسهل زوالهم لعدم تعلقهم بها فى عشيره أو أهل أو

دار أو ضياع و عقار، و أما من تمكن فى أرض و استوطنها و أطال المقام بها و تعلق بها بكل ما يقع به التعلق فى الحياه الماديه فإن تركها له متعسر كالمتعذر و خاصه ترك الامه القاطنه فى أرض أرضها و ما اقتنته فيها طل مقامها. و قد ترك هؤلاء و هم أمه عريقه فى الأرض دارهم و ما فيها، فى أيسر زمان أخذتهم الرجفه فأصبحوا فى دارهم جاثمين.

و قد كانوا يزعمون أن شعيبا و من تبعه منهم سيحشرون فخاب ظنهم و انقلبت الدائره عليهم فكانوا هم الخاسرين فمكروا و مكر الله و الله خير الماكرين.

و الى هذا يشير تعالى حيث ذكر أولا قولهم: إن متبعى شعيب خاسرون، ثم ذكر نزول العذاب و أبهم الذين أخذتهم الرجفه فقال: «فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ» و لم يقل: فأخذت الذين كفروا الرجفه، ثم صرح فى قوله: «الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا» الآيه أن الحكم الإلهى و الهلاك و الخسران كان لشعيب و من تبعه على الذين كذبوه من قومه فكانوا هم الخاسرين الممكور بهم، و هم يزعمون خلافه.

قوله تعالى: فَتَوَلَّى عَنْهُمْ إِلَى آخِرِ آيَةِ. ظاهر السياق أنه إنما تولى بعد نزول العذاب عليهم و هلاكهم، و أن الخطاب خطاب اعتبار، و قوله: «فَكَيْفَ آسَى» الخ؛ هو من الأسى أى كيف أحزن، و الباقي ظاهر (١).

[سوره الأعراف (٧): الآيات ٩٤ الى ١٠٢]

اشاره

وَ مَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَ الضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ (٩٤) ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَ السَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَعْتَهُ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩٥) وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ لَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَ هُمْ نَائِمُونَ (٩٧) أَوْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَ هُمْ يَلْعَبُونَ (٩٨) أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (٩٩) أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصِيبْنَاهُمْ بِمُذُنُوبِهِمْ وَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٠) تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَبْنَائِهَا وَ لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ (١٠١) وَ مَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ (١٠٢)

ص: ٥٢٨

(١ - ١). الاعراف ٩٤-١٠٢: كلام فى سنه الامتحان و اختبار الامم بالبأساء و الضراء؛ ان الله عز اسمه ليس سببا فى عرض الاسباب.

قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا فِي قَوْمِهِ مِنْ نَبِيِّ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ﴾ قيل: البأساء في المال كالفقير، والضراء في النفس كالمرض، وقيل: يعنى بالبأساء ما نالهم من الشده في أنفسهم و بالضراء ما نالهم في أموالهم، وقيل: غير ذلك. وقيل: إن البأس و البأساء يكثر استعمالهما في الشده التي هي بالنكايه و التنكيل كما في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾.

و لعل قوله بعد: «الضَّرَاءُ وَالسَّرَاءُ» حيث أريد بهما ما يسوء الإنسان و ما يسره يكون قرينه على إرادته مطلق ما يسوء الإنسان من الشدائد من الضراء، و يكون قوله: «بِالْبَأْسَاءِ»

وَ الضَّرَاءِ» من ذكر العام بعد الخاص.

يذكر سبحانه أن السنه الإلهيه جرت على أنه كلما أرسل نبيا من الأنبياء الى قريه من القرى -و ما يرسلهم إليهم إلا ليهديهم سبيل الرشاد- ابتلاهم بشيء من الشدائد فى النفوس و الأموال رجاء أن يعثهم ذلك الى التضرع إليه سبحانه لئتم بذلك أمر دعوتهم الى الإيمان بالله و العمل الصالح.

فالاتلاءات و المحن نعم العون لدعوه الأنبياء فإن الإنسان ما دام على النعمه شغله ذلك عن التوجه الى من أنعمها عليه و استغنى بها، و إذا سلب النعمه أحس بالحاجه، و نزلت عليه الذله و المسكنه، و علاه الجزع، و هدده الفناء فيبعثه ذلك بحسب الفطره الى اللتجاء و التضرع الى من بيده سد خلته و دفع ذلته، و هو الله سبحانه و إن كان لا يشعر به و إذا نبه عليه كان من المرجو اهتداؤه الى الحق، قال تعالى: وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ (حم السجده ٥١/).

قوله تعالى: ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ تبديل الشيء شيئا وضع الشيء الثانى مكان الشيء الأول و السيئه و الحسنه معناهما ظاهر، و المراد بهما ما هما كالشده و الرخاء، و الخوف و الأمن، و الضراء و السراء كما يدل عليه قوله بعد: «قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَ السَّرَاءُ».

و قوله: حَتَّى عَفَوْا من العفو و فسر بالكثرة أى حتى كثروا أموالا- و نفوسا بعد ما كان الله قللهم بالاتلاءات و المحن، و ليس- ببعيد و إن لم يذكروه- أن يكون من العفو بمعنى إمحاء الأثر كقوله:

ربع عفاه الدهر طولا فانمحي

قد كان من طول البلى أن يمسحا

فيكون المراد أنهم محوا بالحسنه التى أوتوها آثار السيئه السابقه و قالوا: «قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَاءُ وَ السَّرَاءُ» أى أن الإنسان و هو فى عالم الطبيعه المتحوله المتغيره من حكم موقفه أن

يمسه الضراء و السراء، و تتعاقب عليه الحدثان مما يسوؤه أو يسره من غير أن يكون لذلك انتساب الى امتحان إلهي و نغمه ربانيه.

و من الممكن بالنظر الى هذا المعنى الثانى أن يكون قوله: «وَقَالُوا» الخ؛ عطف تفسير لقوله: «عَفْوًا» و المراد أنهم محوا رسم الامتحان الإلهي بقولهم: إن الضراء و السراء إنما هما من عادات الدهر المتبادله المتداوله يداولنا بذلك كما كان يداول آباءنا كما قال تعالى وَ لَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَسَّتَهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً (حم السجده ٥٠/).

و«حتى» فى قوله: «حَتَّىٰ عَفَّوْا وَقَالُوا» الآيه؛ للغايه، و المعنى: ثم آتيناهم النعم مكان النقم فاستغرقوا فيها الى أن نسوا ما كانوا عليه فى حال الشده و قالوا: إن هذه الحسنات و تلك السيئات من عاده الدهر فانتهى بهم إرسال الشده ثم الرخاء الى هذه الغايه، و كان ينبغى لهم أن يتذكروا عند ذلك و يهتدوا الى مزيد الشكر بعد التضرع لكنهم غيروا الأمر فوضعوا هذه الغايه مكان تلك الغايه التى رضىها لهم ربهم فطبع الله بذلك على قلوبهم فلا يسمعون كلمه الحق.

و لعل قوله: الضَّرَاءُ وَ السَّرَاءُ قدم فيه الضراء على السراء ليحاذى ما فى قوله تعالى: «ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ» من الترتيب.

و فى قوله: فَأَخَذْنَا هُمْ بِعُنُقِهِمْ وَ هُمْ لَا يَشْعُرُونَ تلويح الى جهل الأنساب بجريان الأمر الإلهي، و لذا كان الأخذ بعنقه و فجأه من غير أن يشعروا به، و هم يظنون أنهم عالمون بمجارى الامور، و خصوصيات الأسباب، لهم أن يتقوا ما يهددهم من أسباب الهلاك بوسائل دافعه يهديهم إليها العلم، قال تعالى: فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالنَّبِيِّاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ (المؤمن ٨٣/).

قوله تعالى: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ إِلَىٰ

آخر الآيه؛ البركات أنواع الخير الكثير ربما يتلى الإنسان بفقده كالأمن و الرخاء و الصحة و المال و الأولاد و غير ذلك.

و قوله: لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ فِيهِ اسْتِعَارَهُ بِالْكِنَايَةِ بِالْكِنَايَةِ فَقَدْ شَبِهَتْ الْبَرَكَاتُ بِمَجَارَى تَجْرِي مِنْهَا عَلَيْهِمْ كُلُّ مَا يَتَنَعَمُونَ بِهِ مِنْ نِعْمِ اللَّهِ لَكِنَّمَا سَدَّتْ دُونَهُمْ فَلَا يَجْرِي عَلَيْهِمْ مِنْهَا شَيْءٌ لَكِنَّمَا لَوْ آمَنُوا وَ اتَّقَوْا لَفَتَحْنَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ فَجَرَى عَلَيْهِمْ مِنْهَا بَرَكَاتُ السَّمَاءِ مِنَ الْأَمْطَارِ وَ الثَّلُوجِ وَ الْحَرِّ وَ الْبَرْدِ وَ غَيْرِ ذَلِكَ كُلِّ فِي مَوْقِعِهِ وَ بِالْمَقْدَارِ النَّافِعِ مِنْهُ، وَ بَرَكَاتُ الْأَرْضِ مِنَ النَّبَاتِ وَ الْفَوَاكِهِ وَ الْأَمْنِ وَ غَيْرِهَا فِي الْكَلَامِ اسْتِعَارَهُ الْمَجَارَى لِلْبَرَكَاتِ ثُمَّ ذَكَرَ بَعْضَ لَوَازِمِهِ وَ آثَارِهِ وَ هُوَ الْفَتْحُ لِلْمُسْتَعَارِ لَهُ.

و فى قوله: وَ لَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَ اتَّقَوْا الْآيَةَ دَلَالَهُ عَلَى أَنَّ افْتِتَاحَ ابْوَابِ الْبَرَكَاتِ مَسْبَبٌ لِإِيمَانِ أَهْلِ الْقُرَى جَمِيعًا وَ تَقْوَاهُمْ أَى أَنَّ ذَلِكَ مِنْ آثَارِ إِيمَانِ النَّوْعِ الْإِنْسَانِيِّ وَ تَقْوَاهُ لَا إِيمَانَ الْبَعْضِ وَ تَقْوَاهُ فَإِنَّ إِيمَانَ الْبَعْضِ وَ تَقْوَاهُ لَا يَنْفَكُ عَنِ كُفْرِ الْبَعْضِ الْآخَرِ وَ فَسَقِهِ، وَ مَعَ ذَلِكَ لَا يَرْتَفِعُ سَبَبُ الْفَسَادِ وَ هُوَ ظَاهِرٌ.

و فى قوله: وَ لَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ دَلَالَهُ عَلَى أَنَّ الْأَخْذَ بِعِنْوَانِ الْمَجَازَاهِ وَ قَدْ تَقَدَّمَ فِي الْبَيَانِ الْمَذْكُورِ آخِرًا مَا يَتَبَيَّنُ بِهِ كَيْفِيَّةُ ذَلِكَ، وَ أَنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ أَعْمَالُ الْإِنْسَانِ تَرُدُّ إِلَى اللَّهِ.

قوله تعالى: أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَ هُمْ نَائِمُونَ الْبِيَاتُ وَ التَّيْبِيتُ قَصْدُ الْعَدُوِّ لَيْلًا، وَ هُوَ مِنَ الْمَكْرِ لِأَنَّ اللَّيْلَ سَكَنٌ يَسْكُنُ فِيهِ الْإِنْسَانُ وَ يَمِيلُ بِالطَّبَعِ إِلَى أَنْ يَسْتَرِيحَ وَ يَنْقَطِعَ عَنِ غَيْرِهِ بِالنَّوْمِ وَ السَّكُونِ.

و قد فرع مضمون الآيه على ما قبله أى إذا كان هذا حال أهل القرى أنهم يغترون بما تحت حسهم عما وراءه فيفجئون و يأخذهم العذاب بغتته و هم لا يشعرون فهل آمنوا أن يأتيهم عذاب الله ليلا و هم فى حال النوم، و قد عمدتهم الغفلة؟.

قوله تعالى: أَوْ أَمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ الضحى صدر النهار حين تنبسط الشمس، والمراد باللعب الأعمال التي يشتغلون بها لرفع حوائج الحياة الدنيا و التمتع من مزايا الشهوات، وهي إذا لم تكن فى سبيل السعادة الحقيقية، و طلب الحق كانت لعبا، فقوله: «وَهُمْ يَلْعَبُونَ» كناية عن العمل للدنيا وربما قيل: إنه استعاره أى يشتغلون بما لا نفع فيه كأنهم يلعبون، وليس ببعيد أن يكون قوله فى الآية السابقة: «وَهُمْ نَائِمُونَ» كناية عن الغفلة. و معنى الآية ظاهر.

قوله تعالى: أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يُأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ مكر به مكرأ أى مسه بالضرر أو بما ينتهى الى الضرر و هو لا يشعر و هو إنما يصح منه تعالى إذا كان على نحو المجازاه كأن يأتى الإنسان بالمعصية فيؤاخذة الله بالعذاب من حيث لا يشعر أو يفعل به ما يسوقه الى العذاب و هو لا- يشعر، و أما المكر الابتدائى من غير تحقق معصية سابقه فمما يمتنع عليه تعالى و قد مرت الإشارة إليه كرارا.

و ما أطف قوله تعالى: «أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ» و«أَوْ أَمِنَ أَهْلَ الْقُرَىٰ» ثم قوله: «أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ»، و الثالث- و هو الذى فى هذه الآية- جمع و تلخيص للإنكارين السابقين فى الآيتين، و قد أظهر فى الآيتين جميعا من غير أن يقول فى الثانية: أو أمنوا، الخ؛ ليعود الضمير فى الآية الثالثة الى من فى الآيتين جميعا كأنه أخذ أهل القرى و هم نائمون غير أهل القرى و هم يلعبون.

و قوله: فَلَا- يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا- الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ و ذلك لأنه تعالى بين فى الآيتين الاوليين أن الأمن من مكر الله نفسه مكر إلهى يتعقبه العذاب الإلهى فالآمنون من مكر الله خاسرون لأنهم ممكور بهم بهذا الأمن بعينه.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الظاهر أن فاعل قوله: «يهد» ضمير راجع الى ما أجمله من قصص أهل القرى، و قوله «لِلَّذِينَ يَرِثُونَ» مفعوله عدى إليه باللام لتضمينه معنى التبيين، و المعنى: أو لم يبين ما تلوناه من قصص

أهل القرى للذين يرثون الأرض من بعد أهلها هاديا لهم، وقوله: «أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَيِّبُنَاهُمْ» الآية مفعول «يهد» والمراد بالذين يرثون الأرض من بعد أهلها الأخلاف الذين ورثوا الأرض من أسلافهم.

و محصل المعنى: أو لم يتبين أخلاف هؤلاء الذين ذكرنا أنا آخذناهم بمعاصيهم بعد ما امتحناهم ثم طبعنا على قلوبهم فلم يستطيعوا أن يسمعوا مواعد أنبيائهم أنا لو نشاء لأصنأهم بذنوبهم من غير أن يمنعا منهم مانع أو يتقوا بأسنا بشيء.

و ربما قيل: إن قوله: «يهد» منزل منزله اللازم و المعنى: أو لم يفعل بهم الهدايه أن لو نشاء أصنأهم بذنوبهم، و نظيره قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ (الم السجده ٢٦).

و أما قوله: «وَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ» فمعطوف على قوله: «أَصَيِّبُنَاهُمْ» لأن الماضي هاهنا فى معنى المستقبل، و المعنى أو لم يهد لهم أو لو نشاء نطبع، الخ؛ و قيل جمله معترضه تذييليه، و فى الآية وجوه و أقوال آخر خاليه عن الجدوى.

قوله تعالى: تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَبْنَائِهَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تلخيص ثان لقصصهم المقصوده سابقا بعد التلخيص الذى مر فى قوله: «وَ مَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ» الى آخر الآيتين أو الآيات الثلاث.

و الفرق بين التلخيصين أن الأول تلخيص من جهه صنم الله من أخذهم بالبأساء و الضراء ثم تبديل السيئه حسنه ثم الأخذ بغته و هم لا يشعرون، و الثانى تلخيص من جهه حالهم فى أنفسهم قبال الدعوه الإلهيه، و هو أنهم و إن جاءتهم رسلهم بالبينات لكنهم لم يؤمنوا لتكذيبهم من قبل و ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل، و هذا من طبع الله على قلوبهم.

و قوله: «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ ظَاهِرِ الْآيَةِ أَنْ قَوْلَهُ: «بِمَا» متعلق بقوله: «لِيُؤْمِنُوا» و لازم ذلك أن تكون «ما» موصوله و يؤيده قوله تعالى فى موضع

آخر: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ﴾ (يونس ٧٤) فإنه أظهر في كون «ما» موصوله لمكان ضمير «به» و يؤول المعنى الى أنهم كذبوا بما دعوا إليه أولا ثم لم يؤمنوا به عند الدعوه النبويه ثانيا.

و يؤيده ظاهر قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ فإن هذا التركيب يدل على نفى التهيؤ القبلي يقال:

ما كنت لآتى فلانا، و ما كنت لا كرم فلانا و قد فعل كذا أى لم يكن من شأنى كذا و لم أكن بمتهيئ لكذا، و فى التنزيل: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ (آل عمران ١٧٩)، أى كان فى إرادته التمييز من قبل. و قال تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيُهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ (النساء ١٣٧).

و يؤيده أيضا قوله فى الآيه التاليه: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ﴾ فإن ظاهر السياق أن هذه الآيه معطوفه عطف تفسير على قوله: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ فيتبين بها أنهم كانوا عهد إليهم بعهد ففسقوا عنه و كذبوا به حين عهد إليهم ثم إذا جاءتهم الرسل بالبينات كذبوهم و لم يؤمنوا بهم، و ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل.

و الآيه أعنى قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ﴾ مذيله بقوله: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ فدل ذلك على أن ما وصفه من مجيء الرسل بالبينات و عدم إيمانهم لتكذيبهم بذلك قبلا هو من مصاديق الطبع المذكور، و حقيقته أن الله ثبت التكذيب فى قلوبهم و مكنه من نفوسهم حتى إذا جاءتهم الرسل بالبينات لم يكن محل لقبول دعوتهم لكون المحل مشغولا بضده.

فتنطبق هاتان الآيتان بحسب المعنى على الآيتين الاوليين أعنى قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا﴾ الى آخر الآيتين؛ حيث تصفان سنه الله أنه يرسل آيات داله على حقيه أصول الدعوه من التوحيد و غيره بأخذهم بالبأساء و الضراء ثم تبديل السيئه حسنه ثم يطبع على قلوبهم جزاء لجرمهم.

و على هذا فالمعنى فى الآيه: لقد جاءتهم رسالهم بالبينات لكنهم لما لم يؤمنوا بالآيات المرسله إليهم الداعيه لهم الى التضرع الى الله و الشكر لإحسانه بل شكوا فيها بل حملوها على عاده الدهر و تصريف الأيام و تقليبها الإنسان من حال الى حال فكذبوا بهذه الآيات، و استقر التكذيب فى قلوبهم فلما دعاهم الأنبياء الى الدين الحق لم يؤمنوا بما كانوا يدعون إليه من الحق و بما كانوا يذكرونهم بها من الآيات لأنهم كذبوا بها من قبل و ما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل فإن الله عز و جل طبع على قلوبهم فهم لا يسمعون.

فعدم إيمانهم أثر الطبع الإلهى، و الطبع أثر تكذيبهم بدلاله الابتلاء بالبأساء و الضراء ثم تبديل السيئه حسنه ثانيا، و من الدليل عليه قوله: «و لَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (يونس ١٣)»، و قوله: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ -يعنى نوحا- رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُعْتَدِينَ (يونس ٧٤)»، و على هذا فقوله: «فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ» تفریع على قوله: «و لَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ»، و المراد بما كذبوا به الآيات البينات التى ذكرتهم بها الأنبياء من آيات الآفاق و الانفس و ما جاءوا به من الآيات المعجزه فالجميع آياته، و المراد بتكذيبهم بها من قبل، تكذيبهم بها من حيث دلالة عقولهم بمشاهدتها أنهم مربوبون لله لا رب سواه، و بعدم إيمانهم ثانيا عدم إيمانهم بها حين يذكروهم بها الانبياء.

فالمعنى فما كانوا ليؤمنوا بما يذكروهم به و يأتى به الأنبياء من الآيات التى كذبوا بها حين ذكرتهم بها عقولهم، و أرسلها الله إليهم ليذكروا و يتضرعوا إليه و يشكروا له.

و على هذا فالمراد بالعهد فى قوله فى الآيه التاليه: «وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ لَفَاسِقِينَ» هو العهد الذى عهده الله سبحانه إليهم من طريق العقل بلسان الآيات: أن لا يعبدوا إلا إياه، و المراد بالفسق خروجهم عن ذلك العهد بعدم الوفاء به.

ولهذا العهد تحقق سابق على هذا التحقق وهو أن الله سبحانه أخذه بعينه منهم حين خلقهم و سواهم بخلق أبيهم آدم و تسويته ثم جعله مثالا للإنسانية العامة فاسجد له الملائكة و أدخله الجنة ثم عهد إليه حين أمر بهبوطه الأرض أن يعبده هو و ذريته و لا يشركوا به شيئا.

و قد قدر الله سبحانه هنالك ما قدر فهدى بحسب تقديره قوما و لم يهد آخرين ثم اذا وردوا الدنيا و أخذوا فى سيرهم فى مسير الحياة اهتدى الأولون، و فسق عن عهده الآخرون حتى طبع الله على قلوبهم و حقت عليهم الضلالة فى الدنيا بعد أعمالهم السيئة كما تقدم بيانه فى تفسير قوله: **كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ فَرِيقًا هَدَىٰ وَ فَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ** (الآية ٣٠ من السورة).

فمعنى الآية على هذا: فما كانوا ليؤمنوا عند دعوه الأنبياء بما كذبوا به و لم يقبلوه عند أخذ العهد الأول، و ما وجدنا لأكثرهم من وفاء فى الدنيا بالعهد الذى عهدناه هناك و إن وجدنا أكثرهم لفاسقين خارجين عن حكم ذلك العهد.

فهذا معنى لكنه غير مناف للمعنى السابق فإن أحد المعنيين فى طول الآخر و ليسا بمتعارضين فإن تعيين طريق الإنسان و غايته من سعاده و شقاوه بحسب القدر لا ينافى إمكان سعاده و شقاوته فى الدنيا، و إناطه تحقق كل منهما باختياره ذلك و انتخابه.

و فيه: أنه معنى صحيح فى نفسه غير أنه من البطن دون الظهر الذى عليه يدور التفسير، و الدليل عليه قوله بعده: **« كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ »** فإنه يصرح بأن عدم إيمانهم كذلك إنما كان بالطبع على قلوبهم، و إن الله طبع على قلوبهم بتكذيبهم السابق فلم يؤمنوا به عند الدعوه اللاحقه، و الطبع لا يكون ابتدائيا فى الدنيا بل لجرم سابق فيها، و هذا أحسن شاهد على أن هذا التكذيب الذى أورث لهم الطبع على قلوبهم كان فى الدنيا ثم الطبع أوجب لهم أن لا يؤمنوا بما كذبوا به من قبل.

و فى هذا المعنى آيات أخر تدل على أن الطبع و الختم الإلهى إنما هو عن جرم سابق

دنيوى، و ليس مجرد سبق التّكذيب فى الميثاق ينتج الطبع الابتدائى فى الدنيا فإنه مما لا يليق به سبحانه البتة، و قد قال: يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَ مَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦).

قوله تعالى: «وَ مَا وَحَدَّثْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ» الى آخر الآيه، قال فى المجمع: من عهد أى من وفاء بعهد كما يقال: فلان لا عهد له أى لا- وفاء له بالعهد، و ليس يحافظ للعهد (انتهى). و من الجائز أن يراد بالعهد عهد الله الذى عهده إليهم من ناحيه آياته أو عهدهم الذى عاهدوا الله عليه أن يعبدوه و لا يشركوا به شيئاً و من ناحيه حاجه أنفسهم و دلالة عقولهم، و قد ظهر معنى الآيه مما تقدم.

[سوره الاعراف (٧): الآيات ١٠٣ الى ١٢٦]

اشاره

ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَ قَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَيَّ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَىٰ اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْفَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَا ذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَ أَخَاهُ وَ أَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَا تُتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَ جَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ لِمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْفَىٰ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جَاءُوا بِسِحْرِ عَزِيمٍ (١١٦) وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَ انْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَ أَلْقَى السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَ هَارُونَ (١٢٢) قَالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرُومٌ فِيهِ الَّذِينَ لَمْ يُدِينُوا بِحُكْمِ رَبِّهِمْ أَهْلًا فَسَوْفَ نَعْلَمُونَ (١٢٣) لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأُصِيبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ (١٢٥) وَ مَا نَنْفَعُ مَنَا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦)

قوله تعالى: **ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ**؛ في تغيير السياق في أول القصة دلالة على تجديد الاهتمام بأمر موسى عليه السلام فإنه من أولى العزم صاحب كتاب و شريعته، وقد ورد الدين ببعثته في مرحلة جديدة من التفصيل بعد المرحلتين اللتين قطعتهما ببعثه نوح و إبراهيم عليهما السلام، و في لفظ الآيات شىء من الإشارة الى تبدل المراحل فقد قال تعالى أولاً: **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا فَجَرَىٰ عَلَىٰ سَبِيلِ اللَّهِ** و هو واحد لأن هودا و صالحا كانا على شريعته نوح؛ ثم غير السياق فقال: **وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّ لَكُمْ لَأَهْلًا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا فَجَرَىٰ عَلَىٰ سَبِيلِ اللَّهِ** و هو واحد لأن هودا و صالحا كانا على شريعته إبراهيم، و كان لوط على شريعته ثم عاد الى السياق السابق في بدء قصة شعيب، ثم غير السياق في بدء قصة موسى بقوله: **«ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ»** لأنه ثالث أولى العزم صاحب كتاب جديد و شريعته جديدة، و دين الله و شرائعه و إن كان واحدا لا- تناقض فيه و لا- تنافى غير أنه مختلف بالإجمال و التفصيل و الكمال و زيادته بحسب تقدم البشر تدريجيا من النقص الى الكمال، و اشتداد استعداده لقبول المعارف الإلهية عصرا بعد عصر الى أن ينتهي الى موقف علمي هي أعلى المواقف فيختتم عند ذلك الرسالة و النبوه، و يستقر الكتاب و الشريعة استقرارا لا مطمع بعده في كتاب جديد أو شريعته جديدة و لا يبقى للبشر بعد ذلك إلا التدرج في الكمال من حيث انتشار الدين و انبساطه على المجتمع البشرى و استيعابه لهم، و إلا التقدم من جهة التحقق بحقائق المعارف، و الترقى في مراقى العلم و العمل التي يدعو إليها الكتاب، و يحرض عليها الشريعة و الأرض لله يورثها من يشاء

من عباده و العاقبه للمتقين.

فقوله تعالى: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا» الى آخر الآيه؛ إجمال لقصه موسى عليه السلام ثم يؤخذ في التفصيل من قوله: «وَ قَالَ مُوسَىٰ يَا فِرْعَوْنُ الْآيَةُ وَ إِنَا وَ إِن كُنَا نَسْمَىٰ هَذِهِ الْقِصَصَ بِقِصَّةِ مُوسَىٰ وَ قِصَّةِ نُوحٍ وَ قِصَّةِ هُودٍ وَ هَكَذَا فَإِنَّهَا بِحَسَبِ مَا سَرَدَتْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ قِصَصَ الْأُمَّمِ وَ الْأَقْوَامِ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ هَؤُلَاءِ الرُّسُلَ الْكِرَامِ يَذَكِّرُ فِيهَا حَالَهُمْ فِيمَا وَاجَهُوا بِهِ رِسْلَ اللَّهِ مِنَ الْإِنكَارِ وَ الرَّدِّ، وَ مَا آلَ إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ مِنْ نَزْوِلِ الْعَذَابِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي أَفْنَىٰ جَمْعَهُمْ، وَ قَطَعَ دَابْرَهُمْ وَ لَذَلِكَ تَرَىٰ أَنَّ عَامَةَ الْقِصَصِ الْمَذْكُورَةِ مَخْتُومَةٌ بِذِكْرِ نَزْوِلِ الْعَذَابِ وَ هَلَاكِ الْقَوْمِ.

و لا تنس ما قدمناه في مفتتح الكلام أن الغرض منها بيان حال الناس في قبول العهد الإلهي المأخوذ منهم جميعا ليكون إنذارا للناس عامه و ذكرى للمؤمنين خاصة، و أنه الغرض الجامع بين ما في سور «الم» و ما في سورة «ص» من الغرض و هو الإنذار و الذكرى.

فقوله: «ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ» أى من بعد من ذكروا من الأنبياء و هم نوح و هود و صالح و لوط و شعيب عليهم السلام «مُوسَىٰ وَ هَارُونَ إِلَيَّ فِرْعَوْنُ وَ مَلَائِهِ» أى الى ملك مصر و الأشراف الذين حولته، و «فِرْعَوْنُ» لقب كان يطلق على ملوك مصر كالخديو كما كان يلقب بقيصر و كسرى و فغفور ملوك الروم و إيران و الصين، و لم يصرح القرآن الكريم باسم هذا الفرعون الذى أرسل إليه موسى فأغرقه الله بيده.

و قوله: «بِآيَاتِنَا» الظاهر أن المراد بها ما أتى به فى أول الدعوه من إلقاء العصا فإذا هى ثعبان، و إخراج يده من جيبه فإذا هى بيضاء، و الآيات التى أرسلها الله إليهم بعد ذلك من الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم آيات مفصلات، و لم ينقل القرآن الكريم لنبي من الأنبياء من الآيات الكثيره ما نقله عن موسى عليه السلام.

و قوله: «فَظَلَمُوا بِهَا» أى بالآيات التى أرسل بها على ما سيذكره الله سبحانه فى خلال

القصة، و ظلم كل شىء بحسبه، و ظلم الآيات إنما هو التكذيب بها و الإنكار لها.

و قوله: «فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ» ذكر عاقبه الإفساد فى الاعتبار بأمرهم لأنهم كانوا يفسدون فى الأرض و يستضعفون بنى إسرائيل، و قد كان فى متن دعوه موسى حين ألقاها الى فرعون «فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ» و فى سورة طه: فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَا تَعَذِّبْهُمْ (طه ٤٧).

قوله تعالى: وَ قَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ شروع فى تفصيل قصه الدعوه كما تقدمت الإشارة إليه، و قد عرف نفسه بالرساله ليكون تمهيدا لذكر ما أرسل لأجله، و ذكره تعالى باسمه رب العالمين أنسب ما يتصور فى مقابله الوثنيين الذين لا يرون إلا أن لكل قوم أو لكل شأن من شئون العالم و طرف من أطرافه ربا على حده.

قوله تعالى: حَقِيقٌ عَلَىٰ أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ الى آخر الآيه؛ تأكيد لصدقه فى رسالته أى أنا حرى بأن أقول قول الحق و لا- أنسب الى الله فى رسالتي منه إليك شيئا من الباطل لم يأمرنى به الله سبحانه، و قوله: «قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ» فى موضع التعليل بالنسبه الى جميع ما تقدم أو بالنسبه الى قوله: «إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ» لأنه هو الأصل الذى يتفرع عليه غيره.

و لعل تعديده «حقيق» بعلى من جهه تضمينه معنى حريص أى حريص على كذا حقيقا به، و المعروف فى اللغه تعديده حقيق بمعنى حرى بالباء يقال: فلان حقيق بالإكرام أى حرى به لائق.

و قرئ «حَقِيقٌ عَلَىٰ» بتشديد الباء و الحقيق على هذا مأخوذ من حق عليه كذا أى وجب، و المعنى واجب على أن لا أقول على الله إلا الحق فالحقيق خبر و مبتداه قوله: أن لا أقول، الآيه و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ

الشرط في صدر الآية أعنى قوله: «إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ» يتضمن صدقه عليه السّلام فإنه إذا كان جائيا بآيه واقعه فقد صدق في إخباره بأنه قد جاء بآيه لكن الشرط في ذيل الآية تعريض يومئ به الى أنه ما يعتقد بصدقه في إخباره بوجود آيه معه، فكأنه قال: إن كنت جئت بآيه فأت بها و ما أظنك تصدق في قولك، فلا تكرر في الشرط.

قوله تعالى: فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ الفاء جوابيه كما قيل أى فأجابه بإلقاء عصاه، وهذه هي فاء التفریع و الجواب مستفاد من خصوصيه المورد. و الثعبان الحيه العظيمة و لا تنافى بين وصفه ها هنا بالثعبان المبین و بين ما فى موضع آخر من قوله تعالى:

فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَّتْ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَى مُدَبِّرًا لَمْ يَعْقِبْ (القصص ٣١)، و الجان هي الحيه الصغيره لاختلاف القصتين كما قيل فإن ذكر الجان إنما جاء فى قصه ليله الطور و قد قال تعالى فيها فى موضع آخر: فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسِيْعٌ (طه ٢٠)، و أما ذكر الثعبان فقد جاء فى قصه إتيانه لفرعون بالآيات حين سأله ذلك.

قوله تعالى: وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءٌ لِلنَّاطِرِينَ أى نزع يده من جيبيه على ما يدل عليه قوله تعالى: وَ اضْمُمُّم يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءً مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ (طه ٢٢)، و قوله: أَسْلُوكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَيْضَاءً مِّنْ غَيْرِ سُوءٍ (القصص ٣٢).

و الأخبار و إن وردت فيها أن يده عليه السّلام كانت تضيء كالشمس الطالعه عند إرادته الإعجاز بها لكن الآيات لا نقص أزيد من أنها كانت تخرج بيضاء للناظرين إلا- أن كونها آيه معجزه تدل على أنها كانت تبيض ابيضاضا لا يشك الناظرون فى أنها حاله خارقه للعادة.

قوله تعالى: قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ لم يذكر تعالى ما قاله فرعون عند ذلك، و إنما الذى ذكر محاوره الملا بعضهم بعضا كأنهم فى مجلس مشاوره يذاكر بعضهم بعضا و يشير بعضهم الى ما يراه و يصوبه آخرون فيقدمون ما صوبوه من رأى الى فرعون ليعمل به فهم لما تشاوروا فى أمر موسى و ما شاهدوه من آياته المعجزه قالوا: إن

هذا لساحر عليم، وإذا كان ساحرا غير صادق فيما يذكره من رساله الله سبحانه فإنما يتوسل بهذه الوسيله الى نجاه بنى إسرائيل و استقلالهم فى أمرهم ليتأيّد بهم ثم يخرجكم من أرضكم و يذهب بطريقتكم المثلى فما ذا تأمرون به فى إبطال كيده، و إخماد ناره التى أوقدها؟ أ من الواجب مثلا أن يقتل أو يصلب أو يسجن أو يعارض بساحر مثله؟.

فاستصوبوا آخر الآراء، و قدموه الى فرعون أن أرجه و أخاه و ابعث فى المدائن حاشرين يأتوك بكل ساحر عليم.

و من ذلك يظهر أن قوله تعالى: ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ حكاية ما قاله بعض الملائكة لبعض و قوله ﴿قَالُوا أَرْجِه﴾، السخ، حكاية ما قدموه من رأى الجميع الى فرعون و قد اتفقوا عليه، و قد حكى الله سبحانه فى موضع آخر من كلامه هذا القول بعينه من فرعون يخاطب به ملاه قال تعالى:

﴿قَالَ لِلْمَلَائِكَةِ إِن هَذَا لِسَاحِرٌ عَدِيمٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ يَا تُوَكُّ بِكُلِّ سَحَابٍ عَالِمٌ﴾ (الشعراء ٣٧).

و يظهر مما فى الموضعين أنهم إنما شاوروا حول ما قاله فرعون ثم صوبوه و رأوا أن يجيبه بسحر مثل سحره، و قد حكى الله أيضا هذا القول عن فرعون يخاطب به موسى حتى بالذى أشار إليه الملائكة من معارضة سحره بسحر آخر مثله إذ قال: ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِنُخْرِجَنَّكَ مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ﴾ (طه ٥٨)، و لعل ذلك محصل ما خرج من مشاورتهم حول ما قاله فرعون بعد ما قدم الى فرعون مخاطب به موسى من قبل نفسه.

و للملائكة جلسه مشاوره أخرى أيضا بعد قدوم السحره الى فرعون ناجى فيها بعضهم بعضا بمثل ما فى هذه الآيات قال تعالى: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَاسْتَرَوْا النَّجْوَى قَالُوا إِنَّ هَذَا لِسَاحِرٌ إِنْ يُرِيدَ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَ يَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَى﴾ (طه ٦٣).

فتبين أن أصل الكلام لفرعون ألقاه إليهم ليتشاوروا فيه و يروا رأيهم فيما يفعل به فرعون فتشاوروا و صدقوا قوله و أشاروا بالإرجاء و جمع السحره للمعارضه فقبله ثم ذكره لموسى ثم

اجتمعوا للمشاوره و المناجاه ثانيا بعد مجيء السحره و اتفقوا أن يجتمعوا عليه و يعارضوه بكل ما يقدرون عليه من السحر صفا واحدا.

قوله: يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ أَى يريد أن يتأيد بنى إسرائيل فيتملك مصر، و يبطل استقلالكم و يخرجكم من أرضكم، و كثيرا ما كان يتفق فى الأعصار السابقه أن يهجم قوم على قوم فيتغلبوا عليهم فيشغلوا أرضهم و يملكوا ديارهم فيخرجوهم منها و يشردوهم فى الأرض.

قوله تعالى: قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ الى آخر الآيه التاليه؛ أوجه بسكون الهاء أمر من الإرجاء بمعنى التأخير و الهاء للسكت أى أخره و أخاه و لا- تعجل لهما بشر كالقتل و نحوه حتى ترمى بظلم أو قسوه و نحوهما بل ابعث فى المدائن من جنودك حاشرين يجمعون السحره فيأتوك بهم ثم عارض سحر موسى بسحر السحره.

و قرئ: أوجه بكسر الجيم و الهاء و أصله أوجه قلبت الهمزه ياء ثم حذفت، و الهاء ضمير راجع الى موسى، و أخوه هو هارون عليهما السلام.

قوله تعالى: وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِلَىٰ آخِرِ آيَةِ التَّالِيَةِ أَى فأرسل حاشرين فحشروهم و جاء السحره كل ذلك محذوف للإيجاز.

و قولهم: «إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا» سؤال للأجر جىء به فى صورته الخبر للتأكيد، و إفاده الطلب الانشائي فى صورته الإخبار شائع، و يمكن أن يكون استفهاما بحذف أدواته، و يؤيده قراءه ابن عامر «إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا»

و قوله: «قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ» إجابته لمسئولهم مع زياده وعدهم بالتقريب.

قوله تعالى: قَالُوا يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَنْ تُلْقَىٰ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ خيروه بين أن يكون هو الملقى بعصاه، و بين أن يكونوا هم الملقيين لما أعدوه من الحبال و العصى

و هذا التخيير في مقام استعدادوا لمقابلته، و لا محاله يفيد التخيير في الابتداء بالإلقاء فمعناه إن شئت ألق عصاك أولا و إن شئت ألقينا حبالنا و عصينا أولا.

و فيه نوع من التجلد لدلالته على أنهم لا- يبالون بأمره سواء ألقى قبلهم أو بعدهم فلا- يهابونه على أى حال لو ثوقهم بأنهم هم الغالبون، و لا يخلو التخيير مع ذلك مع نوع من التأدب.

قوله تعالى: **قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، السحر هاهنا نوع تصرف في حاسه الإنسان بإدراك أشياء لا حقيقه لها في الخارج، و قد تقدم الكلام فيه في تفسير قوله: وَ اتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَانَ (البقره ١٠٢//) في الجزء الأول من الكتاب، و الاسترهاب بالإخافه، و معنى الآية ظاهر، و قد عد الله فيها سحرهم عظيما.**

قوله تعالى: **وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ،** أن تفسيريته و اللقف و اللقفان تناول الشىء بسرعته، و الإفك هو صرف الشىء عن وجهه و لذا يطلق على الكذب، و فى الآية وجوه من الإيجاز ظاهره، و التقدير: و أوحينا الى موسى بعد ما ألقوا أن ألق عصاك فألقاها فإذا هي حيه و إذا هي تلقف ما يأفكون.

و قوله: **فَوَقَعَ الْحَقُّ فِيهِ اسْتِعَارَهُ بِالْكُنَايَةِ بِتَشْبِيهِ الْحَقِّ بِشَيْءٍ كَأَنَّهُ مَعْلُوقٌ لَا يَعْلَمُ عَاقِبَةَ حَالِهِ أَيْ يَسْتَقِرُّ فِي الْأَرْضِ بِالْوُقُوعِ عَلَيْهَا وَ التمكن فيها أم لا؟ فوق و استقر «وَ بَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» من السحر.**

قوله تعالى: **فَعُلِبُوا هُنَالِكَ وَ انْقَلَبُوا صَاغِرِينَ أَيْ غَلِبَ فِرْعَوْنُ وَ اصْحَابَهُ «هُنَالِكَ» أَيْ فِي ذَلِكَ الْمَجْمَعِ الْعَظِيمِ الَّذِي تَهَاجَمَ عَلَيْهِمْ فِيهِ النَّاسُ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ فَفِي لَفْظِ «هُنَالِكَ» إِشَارَةٌ إِلَى ذَلِكَ وَ هُوَ لِلْبَعِيدِ، «وَ انْقَلَبُوا صَاغِرِينَ» أَيْ عَادُوا وَ صَارُوا أَذْلَاءَ مَهَانِينَ.**

قوله تعالى: **وَ أَلْقَى السَّحْرَهُ سَاجِدِينَ، قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ، رَبِّ**

مُوسَىٰ وَ هَارُونَ أَبَهُم فَاعْلَ الْإِلْقَاءِ فِي قَوْلِهِ: «وَأَلْقَى السَّحْرَةَ سَاجِدِينَ» وَ هُوَ مَعْلُومٌ فَإِنَّ السَّحْرَةَ هُمُ الَّذِينَ أَلْقَوْا بِأَنْفُسِهِمْ إِلَى الْأَرْضِ سَاجِدِينَ، وَ ذَلِكَ لِلإِشَارَةِ إِلَى كَمَا تَأْثِيرُ آيَةُ مُوسَى فِيهِمْ وَ إِدْهَاشِهَا إِيَّاهُمْ فَلَمْ يَشْعُرُوا بِأَنْفُسِهِمْ حِينَ مَا شَاهَدُوا عَظَمَةَ الْآيَةِ وَ ظَهُورَهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا وَ هُمْ مَلْقُونُ سَاجِدُونَ فَلَمْ يَدْرُوا مِنَ الَّذِي أَوْقَعَ بِهِمْ ذَلِكَ.

فَاضْطَرَّتْهُمُ الْآيَةُ إِلَى الْخُرُورِ عَلَى الْأَرْضِ سَاجِدِينَ، وَ الْإِيمَانَ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ الَّذِي اتَّخَذَهُ مُوسَى وَ هَارُونَ، وَ فِي ذِكْرِ مُوسَى وَ هَارُونَ دَلَالَةٌ عَلَى الْإِيمَانِ بِهِمَا مَعَ الْإِيمَانِ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَ رُبَّمَا قِيلَ: إِنْ بَيَّانَهُمُ رَبِّ الْعَالَمِينَ بِرَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ لِدَفْعِ تَوَهُمِ أَنْ يَكُونَ إِيْمَانُهُمْ لِفِرْعَوْنَ فَإِنَّهُ كَانَ يَدْعَى أَنَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ فَلَمَّا بَيَّنَّاهُ بِقَوْلِهِ: «رَبِّ مُوسَى وَ هَارُونَ» وَ لَمْ يَأْخُذَا فِرْعَوْنَ رَبًّا أُنْذِعَ ذَلِكَ التَّوَهُمَ، وَ لَا يَخْلُو عَنْ خَفَاءِ فَإِنَّ الْوَثْنِيَّةَ مَا كَانَتْ تَقُولُ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ بِحَقِيقَتِهِ مَعْنَى مَنْ يَمْلِكُ الْعَالَمِينَ وَ يَدْبِرُ أَمْرَ جَمِيعِ أَجْزَائِهَا بِالِاسْتِقَامَةِ بَلْ قَسَمُوا أَجْزَاءَ الْعَالَمِ وَ شَأْنَهَا بَيْنَ أَرْبَابِ شَتَّى، وَ إِنَّمَا أَعْطَا اللَّهُ سَبْحَانَهُ مَقَامَ إِلَهِ الْآلِهَةِ وَ رَبِّ الْأَرْبَابِ لَا رَبَّ الْأَرْبَابِ وَ مَرْبُوبِيهَا.

وَ الَّذِي ادَّعَاهُ فِرْعَوْنَ لِنَفْسِهِ عَلَى مَا حَكَاهُ اللَّهُ مِنْ قَوْلِهِ: «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» (النَّازِعَاتُ ٢٤/١)، إِنَّمَا هُوَ الْعُلُوُّ مِنْ جِهَةِ الْقِيَامِ بِحَاجَةِ النَّاسِ - وَ هُمْ أَهْلُ مِصْرٍ خَاصَّةً - عَنْ قَرْبٍ وَ اتِّصَالٍ لَا مِنْ جِهَةِ الْقِيَامِ بِرَبُوبِيَّةِ جَمِيعِ الْعَالَمِينَ، وَ مَعَ ذَلِكَ كَلَهُ قَدْ أَحَاطَتْ الْخِرَافَاتُ عَلَى الْوَثْنِيَّةِ بِحَيْثُ لَا يَسْتَبْعَدُ أَنْ يَتَفَوَّهُوا بِكَوْنِ فِرْعَوْنَ رَبِّ الْعَالَمِينَ وَ إِنْ خَالَفَ أَصُولَ مَذَاهِبِهِمْ قَطْعًا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: «قَالَ فِرْعَوْنُ أَمَنْتُمْ بِهِ قَبِيلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ خَاطَبَهُمْ فِرْعَوْنَ بِقَوْلِهِ: «أَمَنْتُمْ بِهِ قَبِيلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ» تَأْنِيفًا وَ اسْتِكْبَارًا، وَ هُوَ إِخْبَارٌ يَفِيدُ بِحَسَبِ الْمَقَامِ وَ الْإِنْكَارِ وَ التَّوْبِيخِ، وَ مِنْ الْجَائِزِ أَنْ يَكُونَ اسْتِفْهَامًا انْكَارِيًّا أَوْ تَوْبِيخِيًّا مَحْذُوفٍ الْأَدَاءَ.

و قوله: إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ مَكْرٌ تَمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ الْآيَةَ؛ يتهمهم بالمواطأه و المواضعه فى المدينه يريد أنهم لما اجتمعوا فى مدينته بعد ما حشرهم الحاشرون من مدائن مختلفه شتى فجاءوا بهم اليه و لقوا موسى أجمعوا على أن يمكروا بفرعون و أصحابه فيتسلطوا على المدينه فيخرجوا منها أهلها، و ذلك لأنهم لم يشاهدوا موسى قبل ذلك فلو كانوا تواطئوا على شىء فقد كان ذلك بعد اجتماعهم فى مدينته.

أنكر عليهم إيمانهم بقوله: «آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ» ثم اتهمهم بأنهم تواطئوا جميعا على المكر ليخرجوا أهل المدينه منها بقوله: «إِنَّ هَذَا لَمَكْرٌ» الخ؛ ليثبت لهم جرم الإفساد فى الأرض المبيح له سياستهم و تنكيلهم بأشد العقوبات.

ثم هددهم بقوله: «فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ» ثم بينه و فصله بقوله:

«لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ ثُمَّ لَأَصْلَبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ» فهددهم تهديدا أكيدا أولا بقطع الأيدي الأرجل من خلاف و هو أن يقطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو اليد اليسرى مع الرجل اليمنى و بالجمله قطع كل من اليد و الرجل من خلاف الجهه التى قطعت منها الاخرى.

و ثانيا بالصلب و هو شد المجرم بعد تعذيبه على خشبه و رفع الخشبه بإثبات جانبه على الأرض ليشاهده الناس فيكون لهم عبره، و قد تقدم تفصيل بيانه فى قصص المسيح عليه السلام فى تفسير سوره آل عمران.

قوله تعالى: قَالُوا إِنَّا إِلَهِي رَبَّنَا مُتَقَلِّبُونَ الى آخر الآيات؛ جواب السحره و هم القائلون هذا المقال و قد قابلوه بما يبطل به كيدهم، و تنقطع به حجته، و هو أنك تهددنا بالعذاب قبال ما تنقم منا من الإيمان بربنا ظنا منك أن ذلك شر لنا من جهه انقطاع حياتنا به و ما نقاسيه من ألم العذاب، و ليس ذلك شرا فإننا نرجع الى ربنا، و نحيا عنده بحياء القرب السعيده، و لم نجترم إلا ما تعده أنت لنا جرما و هو إيماننا بربنا فما دوننا إلا الخير.

و هذا معنى قوله: قَالُوا إِنَّا إِلَهِي رَبَّنَا مُتَقَلِّبُونَ و هو إيمان منهم بالمعاد «وَمَا تَنْقِمُ

مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَنَا» و عدوا أمر العصا-على الظاهر-آيات كثيرة لاشتماله على جهات كل منها آية كصيرورتها ثعبانا، و لقفها حبالهم و عصيهم واحدا بعد واحد، و رجوعها الى حالتها الاولى.

و النقم هو الكراهه و البغض يقال:نقم منه كذا ينقم من باب ضرب و علم:إذا كرهه و أبغض.

ثم أخذتهم الجذبه الإلهيه من غير أن يذعروا مما هددهم به،و استغاثوا بربهم على ما عزم به من تعذيبهم و قتلهم فسألوه تعالى قائلين: «رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا -على ما يريد أن يوقع بنا من العذاب الشديد- وَ تَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ» إن قتلنا.

و فى إطلاق الإفراغ على إعطاء الصبر استعاره بالكنايه فشبهوا نفوسهم بالآنيه،و الصبر بالماء،و إعطاءه بإفراغ الإناء بالماء و هو صبه فيه حتى يغمره،و إنما سألوا ذلك ليفيض الله عليهم من الصبر ما لا يجزعون به عند نزول أى عذاب و ألم ينزل بهم.

و قد جاءوا بالعجب العجاب فى مشافهتهم هذه مع فرعون و هو الجبار العنيد الذى ينادى «أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى» و يعبده ملك مصر فلم يذعروهم ما شاهدوا من قدرته و سطوته فأعربوا عن حجتهم بقلوب مطمئنه،و نفوس كريمه،و عزم راسخ،و إيمان ثابت،و علم عزيز،و قول بليغ؛و إن تدبرت ما حكاه الله سبحانه من مشافهتهم و محاورتهم فرعون فى موقفهم هذا فى هذه السوره و فى سورتي طه و الشعراء أُرشدك ما فى خلال كلامهم من الحجج البالغه الى علوم جمه،و حالات روحيه شريفه،و أخلاق كريمه،و لولا محذور الخروج عن طور هذا الكتاب لأوردنا شذره منها فى هذا المقام فليتنظر الى حين (1).

ص: ٥٤٩

وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتِكَ قَالَ سَيُنْفِثُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسِيحِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْمِعُوا بِلِلَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عِدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَنَقَصْنَا مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنَّا تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ أَلَا إِنَّهُمْ طَائِفَةٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣١) وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالْدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِالْعُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ (١٣٥) فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسَيْنِ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَ دَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧)

قوله تعالى: وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ هذا إغراء منهم لفرعون و تحريض له أن يقتل موسى و قومه، و لذلك رد فرعون قولهم بأنه لا يهمننا قتلهم فإننا فوقهم قاهرون على أي حال بل سنعيد عليهم سابق عذابنا فنقتل أبناءهم و نستحيى نساءهم، و لو كان ما سألوا مطلق تعذيبهم غير القتل لم يقع قوله: «وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ» موقعه ذلك الوقوع.

و قوله: وَيَذْرَكُ وَآلِهَتِكَ تأكيد لتحريضهم إياه على قتلهم، و المعنى أن موسى يتركك و آلهتك فلا يعبدكم مع ما يفسد هو و قومه في الأرض، و فيه دلالة على أن فرعون كما كان يدعى الألوهية، و يستعبد الناس لنفسه كان يعبد آلهة أخرى، و هو كذلك و التاريخ يثبت نظائر لذلك في الامم السالفة، و قد نقل: أن عظماء البيوت و سادات القوم في الروم و ممالك

أخرى غيرها كان يعبدهم مرءوسوهم من بيتهم وعشائرههم وهم أنفسهم كانوا يعبدون آباءهم الأولين و أصناما أخرى غيرهم كما يعبدهم ضعفاؤهم، و أيضا بين الأرباب التي تعبدها الوثنيه ما هو رب لغيره من الأرباب أو رب لرب آخر كربييه الأب و الام للابن و غير ذلك.

إلا أن قوله لقومه فيما حكاه الله سبحانه: أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى (النازعات ٢٤)، وقوله:

مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي (القصص ٣٨)، ظاهر في أنه كان لا يتخذ لنفسه ربا، و كان يأمر قومه أن لا يعبدوا إلا إياه، و لذلك قال بعضهم: إنه كان دهريا لا يعترف بصانع، و يأمر قومه بترك عباده الآلهه مطلقا، و قصر العباده فيه، و لذلك قرأ بعضهم -على ما قيل - «و إلهتك» بكسر الهمزه و فتح اللام و إثبات الألف بعدها كالعباده وزنا و معنى.

لكن الأوجه أنه كان يريد بقوله: مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي نفى إله يخص قومه القبطيين يملكهم و يدبر أمورهم غير نفسه كما هو المعهود من عقائد الوثنيين أن لكل صنف من أصناف الخلائق كالسماء و الأرض و البر و البحر و قوم كذا، أو من أصناف الحوادث و الامور كالسلم و الحرب و الحب و الجمال ربا على حده، و إنما كانوا يعبدون من بينها ما يهتمهم عبادته كعباده سكان سواحل البحار رب البحر و الطوفان.

فمعنى كلامه أنى أنا ربكم معاشر القبطيين لا ما اتخذه موسى و هو يدعى أنه ربكم أرسله إليكم، و يؤيده ما ذكرناه ما احتف به من القرينه بقوله: مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي، فإنه تعالى يقول: وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانَ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ (القصص ٣٨)، فظاهرها أنه كان يشك في كونه إلهها لموسى، و أن معنى قوله: مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي نفى العلم بوجود إله غيره لا العلم بعدم وجود إله غيره، و بالجمله فكلامه لا ينفى إلهها غيره.

وقوله تعالى: **قَالَ سَيَنْقُتُلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسِيَتَحِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ** وعد منه للملا من قومه أن يعيد الى بنى إسرائيل تعذيبه السابق و هو قتل أبنائهم و استحياء نساءهم و استبقاؤهن للخدمه، و عقبه بقوله: **«وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ»** و هو تطيب قلوبهم و إسكان ما فى نفوسهم من الاضطراب و الطيش.

قوله تعالى: **قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْبِتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا** الى آخر الآيه؛ و هذا من موسى عليه السلام بعث لبنى إسرائيل و استنهاض لهم على الاستعانه بالله على مقصدهم و هو التخلص من إساره آل فرعون و استعبادهم ثم بعث على الصبر على شدائد يهددهم بها فرعون من ألوان العذاب، و الصبر هو رائد الخير و فرط كل فرج؛ ثم علل ذلك بقوله: **«إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ»**.

و محصله أن فرعون لا يملك الأرض حتى يمنحها من يشاء، و يمنع من التمتع بها من يشاء بل هى لله يورثها من يشاء، و قد جرت السنه الإلهيه أن يخص بحسن العقابه من يتقيه من عباده فإن استعنتم بالله و صبرتم فى ذات الله على ما يهددكم من الشدائد- و هو التقوى- أورثكم الأرض التى ترونها فى أيدي آل فرعون.

و لذلك عقب قوله: **«إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ»** الآيه بقوله: **«وَ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»** العاقبه ما يعقب الشىء كالبادئه لما يبدأ بالشىء، و كون العاقبه مطلقا للمتقين من جهه أن السنه الإلهيه تقضى بذلك و ذلك أنه تعالى نظم الكون نظما يؤدى كل نوع الى غايه وجوده و سعاده التى خلق لأجلها فإن جرى على صراطه الذى ركب عليه، و لم يخرج عن خط مسيره الذى خط له بلغ غايه سعاده لا محاله، و الإنسان الذى هو أحد هذه الأنواع أيضا حاله هذا الحال إن جرى على صراطه الذى رسمته له الفطره و اتقى الخروج عنه و التعدى منه الى غير سبيل الله بالكفر بآياته و الإفساد فى أرضه هداه الله الى عاقبه الحسنه، و أحياء الحياه الطيبه، و أرشده الى كل خير يبتغيه.

قوله تعالى: قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا الإتيان والمجىء فى الآيه بمعنى واحد، والاختلاف فى التعبير للفتن، وما قيل إن المعنى من قبل أن تأتينا بالآيات و من بعد ما جئتنا لا دليل على ما فيه من التقدير. على أن غرضهم إظهار أن مجىء موسى وقد وعدوا أن الله ينجيهم بيده من مصيبه الإيساره و هاويه المذله لم يؤثر أثره فإن الأذى الذى كانوا يحملونه و يؤذون به على حاله، و لا تعلق لغرضهم بأنه آتاهم بالآيات البته.

و هذا الكلام شكوى منهم يثونها الى موسى عليه السلام.

قوله تعالى: قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ و هذا جواب من موسى عن قولهم: «أَوْذَيْنَا» الخ؛ يسليهم به و يعزيهم بالرجاء، و هو فى الحقيقه تكرار لقوله السابق: «اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ» الآيه؛ كأنه يقول: ما أمرتكم به أن اتقوا الله فى سبيل مقصدكم كلمه حيه ثابتة فإن عملتم بها كان من المرجو أن يهلك الله عدوكم، و يستخلفكم فى الأرض بإيراثكم إياها و لا يصطفيكم بالاستخلاف اصطفاء جزافا، و لا يكرمكم إكراما مطلقا من غير شرط و لا قيد بل ليمتحنكم بهذا الملك و يتليكم بهذا التسليط و الاستخلاف فينظر كيف تعملون، قال تعالى:

و تِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَ لِيُعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ يَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ (آل عمران ١٤٠).

و هذا مما يخطئ به القرآن ما يعتقده اليهود من كرامتهم على الله كرامه لا تقبل عزلا، و لا تحتل شرطا و لا قيادا، و التوراه تعد شعب إسرائيل شعب الله الذى لهم الأرض المقدسه كأنهم ملكوها من الله سبحانه ملكا لا يقبل نقلا و لا إقاله.

قوله تعالى: وَ لَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَرَاتِ السَّنُونَ جمع سنه و هى القحط و الجذب، و كأن أصله سنه القحط ثم قيل: السنه إشاره إليها ثم كثر الاستعمال حتى تعينت السنه لمعنى القحط و الجذب.

و الله سبحانه يذكر في الآيه -و يقسم- أنه أخذ آل فرعون و هم قومه المختصون به من القبطين بالقحوط المعدده و نقص من الثمرات لعلمهم يذكرون.

و هما نوعان من الآيات التي أرسلها الله الى آل فرعون، و ظاهر السياق أنه أرسل ما أرسل منهما فصلا فصلا، و لذا جمع السنين و لا يصدق الجمع إلا مع الفصل بين سنه و سنه. على

أنه يقول: «فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ» الآيه؛ و ظاهره الحسنه التي بعد السيئه ثم السيئه التي بعد هذه الحسنه.

قوله تعالى: «فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ» الآيه؛ كانوا اذا جاءهم الخصب و وفور النعمه وسعه الرزق بعد ارتفاع السنه و نقص الثمرات قالوا: «لَنَا هَذِهِ» يريدون به الاختصاص و إنما قلنا: إنهم كانوا يقولون ذلك بعد ارتفاع السنه و نقص الثمرات لأن الإنسان بحسب الطبع لا ينتقل الى ذكر النعمه بما هي نعمه، و لا يتنبه لقدرها إلا بعد مشاهدته النقمه التي هي خلافها، و لا داعي يدعو آل فرعون الى ذكر النعمه الحسنه و تخصيصها بأنفسهم لو لا أنهم رأوا خلافها وعدوه أمرا بدعا لم يكونوا رأوه قبل ذلك فاطيروا بموسى و من معه ثم اذا بدلت السيئه حسنه عدوها لأنفسهم فالتطير عند السيئه بحسب الوقوع قبل قولهم فى الحسنه: لنا هذه و إن كان الأمر بحسب الطبع على خلاف ذلك بمعنى أنهم لو لم يزعموا و لم يركز فى نفوسهم من اعتيادهم بالرفاهيه و وفور النعمه و الخصب أنهم مخصوصون بذلك يملكونه لم يتطيروا بموسى عند نزول المصيبه عليهم فإن من لم تروحه الراحه و العافيه لا يتخرج عن خلافهما.

و لعل هذا هو الوجه فى تقديمه تعالى اغترارهم بالنعمه قبل تطيرهم عند النقمه ثم ذكر الحسنه بكلمه «اذا» و السيئه بلفظه «إن» حيث قال: «فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَ إِن تَصَبَّ بِهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَ مَنْ مَعَهُ» فقد جعل مجيء الحسنه كالأصل الثابت فذكره بإذا و التعريف بلام الجنس، ثم ذكر إصابه السيئه بطريق الشرط، و نكر السيئه ليدل على ندرتها

و كونها اتفقيه.

و التطير مشتق من الطير باعتبار اشتماله على نسبه من النسب، و هى نسبه التشؤم فإنهم كانوا يتشأمون ببعض الطيور كالغراب فاشتق منه ما يفيد معنى التشؤم و هو التطير و معناه التشؤم بالطير حتى سمي مطلق النصيب أو النصيب من الشر و الشأمه طائرا.

فقوله تعالى: «أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» معناه أن نصيبهم من الشر و الشؤم الذى يحق به أن يسمى نصيب الشر و هو العذاب، هو عند الله، و لكن أكثرهم لا يعلمون لظنهم أن ما تجنيه أيديهم يفوت و يزول و لا يحفظ عليهم.

قوله تعالى: «وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِنَسِيَ حَرْنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ مَهْمَا مِنْ أَسْمَاءِ الشَّرْطِ مَعْنَاهُ أَى شَىءٍ، و قولهم هذا إياس منهم لموسى من أن يؤمنوا به و إن أتى بأى آيه و فى قولهم: «مِنْ آيَةٍ لِنَسِيَ حَرْنَا بِهَا» استهزاء به حيث سموها آيه و جعلوا غرضه منها أن يسحرهم أى إنك تأتينا بالسحر و تسميها آيه.

قوله تعالى: «فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَ الْجُرَادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفَادِعَ وَ الدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ الْآيَةُ: الطوفان على ما قاله الراغب - كل حادثه تحيط بالإنسان، و صار متعارفا فى الماء المتناهى فى الكثره، و فى المجمع: أنه السيل الذى يعم بتغريقه الأرض و هو مأخوذ من الطوف فيها(انتهى).

و القمل بالضم و التشديد قيل: كبار القردان، و قيل: صغار الذباب و بالفتح فالسكون معروف، و الجراد و الضفادع و الدم معروفه.

و التفصيل تفريق الشىء الى أجزاء مفصوله منفصله بعضها عن بعض، و لازم ذلك تميز كل بعض و ظهوره فى نفسه فقوله: «آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ» يدل على أنها أرسلت إليهم لا مجتمعها و دفعه بل متفرقه منفصله بعضها عن بعض ظاهره فى أنها آيات إلهيه مقصوده غير اتفقيه و لا جزافيه.

ص: ٥٥٦

و من الدليل على كون المفصلات بهذا المعنى قوله فى الآيه التاليه: «وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا» الآيه؛ الظاهر أن الآيه كانت تأتيهم عن إخبار من موسى و إنذار ثم اذا نزلت بهم و دهمتهم التجئوا إليه فسألوه أن يدعو لهم لتكشف عنهم، و أعطوه عهدا إن كشفت عنهم آمنوا به و أرسلوا معه بنى إسرائيل فلما كشفت نكثوا و نقضوا و على هذا القياس.

قوله تعالى: «وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ إِلَى آخِرِ الآيه؛ الرجز هو العذاب و يعنى به العذاب الذى كانت تشتمل عليه كل واحده من الآيات المفصلات فإنها آيات عذاب و نكال و قوله: «بِمَا عَاهَدَ عِنْدَكَ» على ما يؤيده المقام أى بما التزم عندك أن لا يرد دعاءك فيما تسأله، و اللام عندئذ للقسم، و المعنى ادع لنا ربك بالعهد الذى له عندك.

و قوله: لَيْسَ كَشَفَتْ عَنَّا الرِّجْزَ لِنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ هو ما عاهدوا به موسى لكشف الرجز عنهم.

قوله تعالى: فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ النكث نقض العهد، و قوله: «إِلَى أَجَلٍ هُمْ بِالْغُوهِ» متعلق بقوله: «كَشَفْنَا» و هو يدل على أنه كان يضم الى معاهده أجل مضروب كأن يقول موسى عليه السلام إن الله سيرفع العذاب عنكم بشرط أن تؤمنوا و ترسلوا معى بنى اسرائيل الى أجل كذا، أو يقول آل فرعون ما يشابه هذا المعنى فلما كشف العذاب عنهم و حل الأجل المضروب نكثوا و نقضوا عهدهم الذى عاهدوا الله و عاهدوا موسى عليه. و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ الْبَحْرِ، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: وَ أَوْزَنَّا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا إِلَى آخِرِ الآيه. الظاهر أن المراد بالأرض أرض الشام و فلسطين و يؤيده أو يدل عليه قوله بعد: «الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا» فإن الله سبحانه لم يذكر بالبركه غير الأرض

المقدسه التي هي نواحي فلسطين إلا- ما وصف به الكعبه المباركه، والمعنى: أورثنا بنى إسرائيل و هم المستضعفون الأرض المقدسه بمشارقتها و مغاربيها، و انما ذكرهم بوصفهم فقال: القوم الذين كانوا يستضعفون ليدل على عجب صنعه تعالى في رفع الوضع، و تقويه المستضعف، و تملكه من الأرض ما لا يقدر على مثله عادة الا كل قوى ذو أعضاد و أنصار.

و قوله: وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسَيْنِ الْآيَه؛ يريد به ما قضاه في حقهم أنه سيورثهم الأرض و يهلك عدوهم، و اليه اشاره موسى عليه السلام في قوله لهم و هو يسليهم و يؤكد رجاءهم: «عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ» و يشير سبحانه اليه في قوله: وَ تُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (القصص ٥/)، و تمام الكلمه خروجها من مرحله القوه الى مرحله الفعلية، و علل ذلك بصبرهم.

و قوله: وَ دَمَرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ الْآيَه؛ أى أهلكنما ما كانوا يصنعونه و ما كانوا يسقفونه من القصور و الأبنيه و ما كانوا يعرشونه من الكرم و غيره (١).

[سوره الاعراف (٧): الآيات ١٣٨ الى ١٥٤]

اشاره

وَ جَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَىٰ اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُمْتَرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَ بَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَنْعِيكُمْ إِلَهًا وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ (١٤٠) وَ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقْتُلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَ فِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) وَ وَاَعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَ أَنْتَمْنَا بِهَا بِعَشْرِ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلِفْنِي فِي قَوْمِي وَ اضْلِعْ وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَ لَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي إِلَهَكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَ لَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاكَ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسَىٰ صَاحِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣) قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَ بَكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَ كَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ (١٤٥) سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ إِنَّ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَ إِنَّ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَ إِنَّ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ كَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) وَ اتَّخَذَ قَوْمٌ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَ لَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَ كَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَ لَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَ يُغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْجَلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضَعُّوا نَفْسِي وَ كَادُوا يَفْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَ لَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ ادْخُلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيبَأَهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذَلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣) وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبَ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَ فِي نُسخِهَا هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤)

١-١). الاعراف ١٢٧-١٣٧: بحث روائي في ما ارسل الله على قوم فرعون.

قوله تعالى: وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ آتَيْنَاهُمُ الْعِكْفُفَ الْإِيقَالِ عَلَى الشَّيْءِ وَ مَلَازِمَتَهُ عَلَى سَبِيلِ التَّعْظِيمِ. ذكره الراغب في المفردات، وقولهم «اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ» أى كما لهم آلهه مجعوله.

كان بنو إسرائيل على شريعته جدهم إبراهيم عليه السّلام، وقد خلا فيهم من الأنبياء إسحاق و يعقوب و يوسف، وهم على دين التوحيد الذى لا يعبد فيه إلا الله سبحانه وحده لا شريك له المتعالى عن أن يكون جسما أو جسمانيا يعرض له شكل أو قدر غير أن بنى إسرائيل كما يستفاد من قصصهم كانوا قوما ماديين حسيين يجرون فى حياتهم على أصاله الحس و لا يعتنون بما وراء الحس إلا اعتناء تشريفيا من غير أصاله و لا حقيقه، وقد مكثوا تحت إساره القبط سنين متطاولة، وهم يعبدون الأوثان فتأثرت من ذلك أرواحهم و إن كانت العصبية القوميّه تحفظ لهم دين آبائهم بوجه.

و لذلك كان جلهم لا- يتصورون من الله سبحانه إلا- أنه جسم من الأجسام بل جوهر ألوهى يشاكل الإنسان كما هو الظاهر المستفاد من التوراه الدائره اليوم، و كلما كان موسى يقرب الحق من أذهانهم حولوه الى أشكال و تماثيل يتوهمون له تعالى، لهذه العله لما شاهدوا فى مسيرهم قوما يعكفون على أصنام لهم استحسنا مثل ذلك لأنفسهم فسألوا موسى عليه السّلام أن يجعل لهم إلها كما لهم آلهه يعكفون عليها.

فلم يجد موسى عليه السّلام بدا من أن يتنزل فى بيان توحيد الله سبحانه الى ما يقارب أفهامهم على قصورها فلامهم أولا على جهلهم بمقام ربهم مع وضوح أن طريق الوثنيه طريق باطل هالك

ثم عرف لهم ربهم بالصفه، و أنه لا يقبل صنما و لا يحد بمثال كما سيجيء.

قوله تعالى: **إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هُم فِيهِ وَ بَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** المتبر من التبار و هو الهلاك، و المراد بقوله: **«مَا هُمْ فِيهِ»** سبيلهم الذى يسلكونه و هو عباده الأصنام و المراد بقوله: **«مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ»** أعمالهم العباديه، و المعنى أن هؤلاء الوثنيه طريقتهم هالكه و أعمالهم باطله فلا يحق أن يميل إليه إنسان عاقل لأن الغرض من عباده الله سبحانه أن يهتدى به الإنسان الى سعادته دائمه و خير باق.

قوله تعالى: **قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ «أَبْغِيكُمْ»** أى أطلب لكم و أتمس، يعرف ربهم و يصفه لهم، و قوله: **«أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا»** فيه تأسيس أن كل إله أبغيه لكم بجعل أو صنع فإنما هو غير الله سبحانه، و الذى يجب عليكم أن تعبدوا الله ربكم بصفه الربويه التى هى تفضيله إياكم على العالمين.

فكأنهم قالوا: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهه فقال: كيف أتمس لكم ربا مصنوعا و هو غير الله ربكم، و إذا كان غيره فعبادته متبره باطله؟ فقالوا: فكيف نعبده و لا نراه و لا سبيل لنا إلى ما لا نشاهده؟ كما يقوله عبده الأصنام. فقال: اعبدوه بما تعرفونه من صفته فإنه فضلكم على سائر الامم بآياته الباهره و دينه الحق و إنجائكم من فرعون و عمله، فالآيه- كما ترى- ألطف بيان و أوجز برهان يجلى عن الحق الصريح للأذهان الضعيفه التعقل.

قوله تعالى: **وَ إِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ سَامَهُ الْعَذَابِ يَسُومُهُ** أى حملة ذلك على طريق الإذلال، و الثقيل الإكثار فى القتل و الاستحياء الاستبقاء للخدمه و قد تقدم، و الظاهر أن قوله: **«وَ فِي ذَلِكُمْ»** إشاره إلى ما ذكر من سوء تعذيب آل فرعون لهم.

و الآيه خطاب امتنانى للموجودين من أخلافهم حين النزول يمتن الله فيها عليهم بما من به على آبائهم فى زمن فرعون كما قيل، و الأنسب بالسياق أن يكون خطابا لأصحاب موسى

بعينهم مسوقا سوق التعجب إذا نسوا عظيم نعمه الله عليهم إذ أنجاهم من تلك البليه العظيمه، و نظيره في الغيبه قوله تعالى فيما سيأتى: «أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا» .

قوله تعالى: «وَإِعِدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَّمْنَا فِيهَا بِعَشْرِ فَنَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ المِيقَاتُ قَرِيبُ الْمَعْنَى مِنَ الْوَقْتِ، قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: الْفَرْقُ بَيْنَ الْمِيقَاتِ وَالْوَقْتِ أَنَّ الْمِيقَاتِ مَا قَدَرَ لِيَعْمَلَ فِيهِ عَمَلٌ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَالْوَقْتُ وَقْتُ الشَّيْءِ وَ قَدْرُهُ، وَ لِذَلِكَ قِيلَ: مَوَاقِيتُ الْحَجِّ وَ هِيَ الْمَوَاضِعُ الَّتِي قَدَرْتَ لِلْإِحْرَامِ فِيهَا(انتهى).

و قد ذكر الله سبحانه المواعده و أخذ أصلها ثلاثين ليله ثم أتمها بعشر ليال آخر ثم ذكر الفذلکه و هي أربعون، و أما الذى ذكره فى موضع آخر إذ قال: «وَإِعِدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً (البقره ٥١)» فهو المجموع المتحصل من المواعدين أعنى أن آيه البقره تدل على أن مجموع الأربعين كان عن مواعده، و آيه الأعراف على أن ما فى آيه البقره مجموع المواعدين.

و بالجملة يعود المعنى إلى أنه تعالى وعده ثلاثين ليله للتقريب و التكليم ثم وعده عشرا آخر لإتمام ذلك فتم مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، و لعله ذكر الليالى دون الأيام-مع أن موسى مكث فى الطور الأربعين بأيامها و لياليها، و المتعارف فى ذكر المواقيت و الأزمنه ذكر الأيام دون الليالى-لأن المِيقَاتِ كان للتقرب الى الله سبحانه و مناجاته و ذكره، و ذلك أخص بالليل و أنسب لما فيه من اجتماع الحواس عن التفرق و زياده تهيؤ النفس للانس و قد كان من بركات هذا المِيقَاتِ نزول التوراه.

و هذا كما يشير إلى مثله قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا -إلى أن قال- إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَ أَقْوَمُ قِيلًا إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا (المزمل ٧)»، و قوله تعالى: «وَ قَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي» إنما قاله حين ما كان يفارقهم للمِيقَاتِ، و الدليل على ذلك قوله: «اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي» فإن الاستخلاف لا يكون إلا فى غيبه. و إنما عبر بلفظ «قَوْمِي» دون بنى إسرائيل لتجرى القصة على سياق

سائر القصص المذكوره فى هذه السوره فقد حكى فيها عن لفظ نوح و هود و صالح و غيرهم: يا قوم يا قوم، و على ذلك أجريت هذه القصة فعبر فيها عن بنى إسرائيل فى بضعه مواضع بلفظ القوم، و قد عبر عنهم فى سوره طه بنى إسرائيل.

و أما قوله لأخيه ثانيا: «وَ أَصِيحْ وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» فهو أمر له بالإصلاح و أن لا يتبع سبيل أهل الفساد، و هارون نبى مرسل معصوم لا تصدر عنه المعصيه، و لا يتأتى منه اتباع أهل الفساد فى دينهم، و موسى عليه السلام أعلم بحال أخيه فليس مراده نهيه عن الكفر و المعصيه بل أن لا يتبع فى إداره أمور قومه ما يشير إليه و يستصوبه المفسدون من القوم أيام خلافته ما دام موسى غائبا.

و من الدليل عليه قوله: «وَ أَصِيحْ» فإنه يدل على أن المراد بقوله: «وَ لَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ» أن يصلح أمرهم و لا يسير فيهم سيره هى سبيل المفسدين الذى يستحسنونه و يشيرون إليه بذلك.

و من هنا يتأيد أنه كان فى قومه يومئذ جمع من المفسدين يفسدون و يقلبون عليه الامور و يتربصون به الدوائر فنهى موسى أخاه أن يتبع سبيلهم فيشوشوا عليه الأمر و يكيدوا و يمكروا به فيتفرق جمع بنى إسرائيل و يتشتت شملهم بعد تلك المحن و الأذى التى كابدها فى إحياء كلمه الاتحاد بينهم.

قوله تعالى: وَ لَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ نَرَاكَ وَ لَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاكَ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاكَ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ نَرَاكَ؛ التجلى مطاوعه التجليه من الجلاء بمعنى الظهور، والدك هو أشد الدق، و جعله دكا أى مدكوكا و الخرور هو السقوط، و الصعقه هى الموت أو الغشيه بجمود الحواس و بطلان إدراكها، و الإفاقه الرجوع إلى حال سلامه العقل و الحواس يقال: أفاق من غشيته أى رجع إلى حال استقامه الشعور و الإدراك.

و معنى الآيه على ما استفاد من ظاهر نظمها أنه «لَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا» الذى وقتناه له «وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ» بكلامه «قَالَ» أى موسى «رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ» أى أرني نفسك انظر إليك أى مكنى من النظر إليك حتى انظر إليك و أراك فإن الرؤيه فرع النظر، و النظر فرع التمكين من الرؤيه و التمكين منها، «قَالَ» الله تعالى لموسى: «لَنْ نَرَاكَ أَبَدًا» وَ لَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ» و كان جبلا بحياله مشهودا له أشبه بلام العهد الحضورى: «وَ لَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ وَ أَطَاقَ رُؤْيِي فَاعْلَمْ أَنَّكَ تَطِيقُ النَّظَرَ إِلَى وَ رُؤْيِي «فَلَمَّا تَجَلَّى» وَ ظَهَرَ «رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ» بتجليه «دَكًّا» مذكوكا متلاشيا فى الجو أو سائحا «وَ خَرَّ مُوسَى صِعْقًا» ميتا أو مغشيا عليه من هول ما رأى «فَلَمَّا أَفَاقَ» قَالَ «سَيِّحَانُكَ تُبَّتْ إِلَيْكَ» رجعت إليك مما اقترحتة عليك «وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ» بأنك لا ترى. هذا ظاهر ألفاظ الآيه.

و الذى يعطيه التدبر فيها أن حديث الرؤيه و النظر الذى وقع فى الآيه اذا عرضناه على الفهم العامى المتعارف حملة على رؤيه العين و نظر الإبصار، و لا- نشك و لن نشك أن الرؤيه و الإبصار يحتاج الى عمل طبيعى فى جهاز الإبصار يهيبى للباصر صورته مماثلة لصوره الجسم المبصر فى شكله و لونه.

و بالجمله هذا الذى نسميه الإبصار الطبيعى يحتاج الى ماده جسميه فى المبصر و الباصر جميعا، و هذا لا شك فيه.

قوله تعالى: «قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَ بِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ» المراد باصطفاء الاختيار على وجه التصفيه، و لذلك عدى الى الناس بعلى، و المراد بالرسالات هو ما حمل من الأوامر و النواهي الإلهيه من المعارف و الحكم و الشرائع ليبلغه الناس سواء كان التحميل بواسطه ملك أو بتكليم بلا واسطه ملك فهى غير الكلام و إن حملت بكلام فإن الكلام أمر، و المعانى التى يتلقاها السامع منه أمر آخر.

و المراد بالكلام هو ما شافه به الله سبحانه من غير واسطه ملك و بعباره أخرى هو ما يكشف به عن مكنون الغيب، و اما أن يكون من نوع الكلام الدائر بيننا معاشر الإنسان فلا فإن الكلام عندنا هو أنا نصطليح و نتعهد فيما بيننا على تخصيص صوت مخصوص من الأصوات لمعنى من المعانى لينتقل ذهن السامع الى ذلك المعنى ثم نتوسل عند إرادته تفهيمه الى إيجاد تموج خاص فى الهواء يتسدى منا و ينتهى الى السامع لننقل به ما فى ضميرنا الى ضمير السامع المخاطب و التكلم بهذا الوجه يستلزم التجسم فى المتكلم و الله سبحانه منزه عنه، و مجرد إيجاد الصوت و تمويج الهواء بإيجاد أسباب الصوت فى مكان لا يدل على كون المعانى التى ينتقل إليها الذهن مقصوده لله سبحانه ما لم تكشف الإرادة بأمر آخر وراء نفس الصوت كما أن من أوجد منا بدق أو ضرب أو نحوهما صوتا يدل على معنى لم نحكم بإرادته ذلك ما لم يكشف من حاله أو مقاله قبلا أنه قاصد لمعنى ما يوجد من الأصوات.

و ما كلم به الله سبحانه موسى عليه السلام مما حكاه القرآن الشريف خال عن سؤال الدليل عن كونه كلامه، و على كونه تعالى مريدا لمعناه فلم يسأل موسى ربه حين سمع النداء من جانب الطور الأيمن من الشجرة: هل هذا منك يا رب؟ و هل أنت مرید معناه؟ بل أيقن بذلك إيقانا، و نظير الكلام جار فى سائر أقسام الوحي غير الكلام.

و هذا يكشف كشافا قطعيا عن ارتباط خاص من السامع بإرادته مصدر الكلام و الوحي يوجب الانتقال الى المعنى المقصود و إلا فمجرد صدور صوت له معنى مفهوم فى اللغة منه تعالى لا يستلزم صحه الانتساب إليه تعالى و لا كونه كلامه كيف؟ و جميع الألفاظ الصادره من المتكلمين بما أنها أصوات تنتهى إليه تعالى و ليست كلاما له تعالى بل المتكلم بها غيره، و كثيرا ما يحدث من تصادم الأجسام المختلفه أصوات ذوات معان فى اللغة و لا نعهده كلاما له تعالى.

و بالجمله تكليمه تعالى هو إيجاد اتصالا و ارتباطا خاصا بين مخاطبه و بين الغيب ينتقل به

بمشاهده بعض مخلوقاته الى معنى مراد، و لا نمنع مقارنة ذلك بأصوات يوجدتها الله تعالى فى خارج أو سمع أو غير ذلك، و قد تقدم بعض الكلام فى الكلام فيما تقدم. و سيأتى منه تتمه فى تفسير سورة الشورى إن شاء الله تعالى.

و كيف كان فقوله تعالى: «قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ» الآية. و ارد فى مورد الامتان و موعظه لموسى عليه السلام أن يكتفى بما اصطفاه الله به من رسالاته و كلامه و يشكره و لا يستزيد.

قوله تعالى: «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ» الآية؛ اللوح صحيفه معده للكتابة فيه لأنه يلوح و يظهر بما فيه من الخط و أصله من لاح البرق اذا لمع.

و قوله: «مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» من فيه للتبويض كما يؤيده السياق اللاحق، و قوله «مَوْعِظَةً» الظاهر أنه بيان لكل شىء، و يعطف عليه قوله: «و تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ» و تنكير قوله: «تَفْصِيلًا» لإفاده الإبهام و التبويض، و يؤول المعنى الى مثل قولنا: و كتبنا لموسى فى الألواح و هى التوراه النازله مختارات من كل شىء و نعى بذلك أنا كتبنا له موعظه و تفصيلا ما و تشريحا ما لكل شىء حسب ما يحتاج إليها قومه فى الاعتقاد و العمل.

ففى الكلام دلالة على أن التوراه لم تستكمل جميع ما تمس به حاجه البشر من المعارف و الشرائع، و هو كذلك كما يدل عليه أيضا قوله تعالى بعد ذكر التوراه و الإنجيل: «وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَ مُهَيِّمًا عَلَيْهِ» (المائدة ٤٨)، و قد تقدم تفسيره.

قوله: «فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا عَطْفٌ تَفْرِيعٌ عَلَى قَوْلِهِ «وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَابِ» الآية؛ لأنه مشعر بمعنى القول، و التقدير: و قلنا إنا كتبنا لك فى الألواح من كل شىء فخذها بقوه.

و الأخذ بالقوه كناية عن الأخذ بالجد و الحزم فإن من يجد و يحزم فى أمر يستعمل ما عنده

من القوه فيه حذرا أن يفوته فالأخذ بالقوه لازم الأخذ بالجد و الحزم كنى به عنه.

وقوله: «وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا أُخْدُوا بِأَحْسَنِهَا الظاهر أن الضمير في «بِأَحْسَنِهَا» راجع الى الأشياء المدلول عليها بقوله قبلا: «مِنْ كُلِّ شَيْءٍ» من المواعظ و تفاصيل الآداب و الشرائع و الأخذ بالأحسن كناية عن ملازمه الحسن فى الامور و اتباعه و اختياره فإن من يهتم بأمر الحسن فى الامور اذا وجد سيئا و حسنا اختار الحسن الجميل، و اذا وجد حسنا و أحسن منه اضطره حب الجمال الى اختيار الأ-حسن و تقديمه عن الحسن فالأخذ بأحسن الامور لانزم حب الجمال و ملازمه الحسن فكنى به عنه، و المعنى: و أمر قومك يجتنبوا السيئات و يلازموا ما تهدى إليه التوراه من الحسنات، و نظير الآيه فى التكنيه قوله تعالى: الَّذِينَ يَشْتَرُونَ الْقَوْلَ فَيتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَ أُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ (الزمر ١٨).

وقوله: «سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ظاهر السياق أن المراد بهؤلاء الفاسقين هم الذين يفسقون بعدم ائتمار قوله: «وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَا أُخْدُوا بِأَحْسَنِهَا» على ما تقدم من معناه من ملازمه طريق الإحسان فى الامور و اتباع الحق و الرشده فإن من فسق عن الطريق صرفه الله عن الصراط المستقيم الى تتبع السيئات و الميل عن الرشده الى الغى كما يفصله فى الآيه التاليه فكانت عاقبه أمره خسرانا و آل أمره الى الهلاك.

و على هذا فما فى الآيه التاليه: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ» الآيه؛ تفسير أو كالتفسير لقوله «سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ» و قيل المراد بدار الفاسقين جهنم، و فى الكلام تهديد و تحذير، و قيل المراد بها منازل فرعون و قومه بمصر، و قيل: منازل عاد و ثمود، و قيل المراد دار العمالقه و غيرهم بالشام و أن الله سيدخلهم فيها فيرونها، و قيل: المراد سيجيئكم قوم فساق تكون الدوله لهم عليكم.

قوله تعالى: سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ

وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا الْآيَةَ؛ تقييد التكبر فى الأرض بغير الحق مع أن التكبر فيها لا يكون إلا بغير الحق كتقييد البغى فى الأرض بغير الحق للتوضيح لا للاحتراز و يراد به الدلالة على وجه الذم فى العمل و أن التكبر كالبغى مذموم لكونه بغير الحق.

و أما ما قيل: إن القيد احترازى للدلالة على أن المراد هو التكبر المذموم دون التكبر الممدوح كالتكبر على أعداء الله و التكبر على المتكبر، و هو تكبر بالحق فيه أن المذكور فى الآية ليس مطلق التكبر بل التكبر فى الأرض، و هو الاستعلاء على عباد الله و استدلالهم و التغلب عليهم، و هذا لا يكون إلا بغير الحق.

و قوله: وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا عطف على قوله: «يَتَكَبَّرُونَ» و بيان لأحد أوصافهم و هو الإصرار على الكفر و التكذيب.

و كذا قوله: وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا الْآيَةَ؛ و تكرار الجملتين المثبتة و المنفية بجميع خصوصياتهما للدلالة على اعتنائهم الشديد و مراقبتهم الدقيقه على مخالفه سبيل الرشد و اتباع سبيل الغى بحيث لا يعذرون بخطأ و لا يحتمل فى حقهم جهل أو اشتباه.

و قوله: ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ تعليل لما تحقق فيهم من رذائل الصفات أى إنما جروا على ما جروا بسبب تكذيبهم لآياتنا و غفلتهم عنها، و من المحتمل أن يكون تعليلا لقوله تعالى: «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِنَا» .

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ لِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ معنى الآية ظاهر و يتحصل منها:

أولاً: أن الجزاء هو نفس العمل و قد تقدم توضيحه كرارا فى أبحاثنا السابقة.

و ثانياً: أن الحبط من الجزاء فإن الجزاء بالعمل و اذا كان العمل حابطاً فإحباطه هو الجزاء، و الحبط إنما يتعلق بالأعمال التى فيها جهه حسن فتكون نتيجة إحباط الحسنات ممن له

حسنت و سيئات أن يجزى بسيئاته جزء سيئا و يجزى بحسناته بإحباطها فيتمحض له الجزء السيئ.

و يمكن أن تنزل الآية على معنى آخر و هو أن يكون المراد بالجزاء،الجزاء الحسن و قوله «هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» كناية عن أنهم لا يثابون بشيء اذ لا عمل من الأعمال الصالحة عندهم لمكان الحبط قال تعالى: وَ قَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنْثُورًا (الفرقان ٢٣/)،و الدليل على كون المراد بالجزاء هو الثواب أن هذا الجزء هو جزء الأعمال المذكوره فى الآية قبلا،و المراد بها بقرينه ذكر الحبط هى الأعمال الصالحة.

قوله تعالى: وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ،الحلى على فعول جمع حلى كالثدى جمع ثدى،و هو ما يتحلى و يتزين به من ذهب أو فضه أو نحوهما،و العجل ولد البقره،و الخوار صوت البقره خاصه،و فى قوله تعالى: «جَسَدًا لَهُ خُورٌ» -و هو بيان للعجل-دلاله على أنه كان غير ذى حياه و إنما وجدوا عنده خوارا كخوار البقر.

و الآية و ما بعده تذكر قصه عباده بنى إسرائيل العجل بعد ما ذهب موسى الى ميقات ربه و استبطنوا رجوعه إليهم،فكادهم السامرى و أخذ من حليهم فصاغ لهم عجلا- من ذهب له خوار كخوار العجل و ذكر لهم أنه إليهم و إله موسى فسجدوا له و اتخذوه إلهاء،و قد فصل الله سبحانه القصة فى سوره طه تفصيلا،و الذى ذكره فى هذه الآيات من هذه السوره لا يستغنى عما هناك،و هو يؤيد نزول سوره طه قبل سوره الأعراف.

و كيف كان فقوله: «وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا» معناه اتخذ قوم موسى من بعد ذهابه لميقات ربه قبل أن يرجع فإنه سيدكر رجوعه إليهم غضبان-عجلا فعبدوه، و كان هذا العجل الذى اتخذوه «جَسَدًا لَهُ خُورٌ» ثم ذمهم الله سبحانه بأنهم لم يعبتوا بما هو ظاهر جلى بين عند العقل فى أول نظرته أنه لو كان هو الله سبحانه لكلمهم و لهداهم السبيل

فقال تعالى: «أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا» .

و إنما ذكر من صفاته المنافية للالوهيه عدم تكليمه إياهم و عدم هدايته لهم و سكت عن سائر ما فيه كالجسميه و كونه مصنوعا و محدودا ذا مكان و زمان و شكل الى غير ذلك مع أن الجميع ينافى الالوهيه لأن هاتين الصفتين أعنى التكليم و الهدايه من أوضح ما تستلزمه الالوهيه من الصفات عند من يتخذ شيئا إلها اذ من الواجب أن يعبد به بما يرتضيه و يسلك إليه من طريق يوصل إليه، و لا- يعلم ذلك إلا- من قبل الإله بوجه فهو الذى يجب أن يهديه الى طريق عبادته بنوع من التكليم و التفهيم، و قد رأوا أنه لا يكلمهم و لا يهديهم سبيلا.

على أنهم عهدوا من موسى أن الله سبحانه يكلمه و يهديه، و يكلمهم و يهديهم بواسطته، و قد قالوا حين أخرج السامرى لهم العجل: هَذَا إِلَهُكُمْ وَ إِلَهُ مُوسَى (طه ٨٨)، فلو كان العجل هو الذى أوما إليه السامرى لكلمهم و هداهم سبيلا.

و بالجمله فقد كان من الواضح البين عند عقولهم لو عقلوا أنه ليس هو، و لذلك أردفه بقوله: «اتَّخَذُوهُ وَ كَانُوا ظَالِمِينَ» . كأنه قيل: فلم اتخذه و أمره بذاك الوضوح، فقيل: «اتَّخَذُوهُ وَ كَانُوا ظَالِمِينَ» .

قوله تعالى: وَ لَمَّا سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ قال فى المجمع: معنى «سَقَطَ فِي أَيْدِيهِمْ» وقع البلاء فى أيديهم أى وجدوه وجدان من يده فيه يقال ذلك للنادم عند ما يجده مما كان خفى عليه، و يقال: سقط فى يده، و أسقط فى يده و بغير ألف أفصح، و قيل: معناه صار الذى يضر به ملقى فى يده انتهى.

قوله تعالى: وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضًّا بِأَن أَسَفًا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ الأسف بكسر السين صفه مشبهه من الأسف و هو شدة الغضب و الحزن و الخلافه القيام بالأمر بعد غيره، و العجله طلب الشىء و تحريره قبل أوانه على ما ذكره الراغب يقال: عجلت أمرا كذا أى طلبته قبل أوانه الذى له بحسب الطبع فمعنى الآية: و لما رجع موسى الى قومه و هو فى حال

غضب و أسف لما أخبره الله تعالى لدى الرجوع بأن قومه ضلوا بعباده العجل بعده فوبخهم و ذمهم بما صنعوا و قال:بئسما خلفتموني من بعدى أعجلتم أمر ربكم و طلبتموه قبل بلوغ أجله،و هو أمر من بيده خيركم و صلاحكم و لا يجرى أمرا إلا على ما يقتضيه حكمته البالغه، و لا يؤثر فيه عجله غيره و لا طلبه و لا رضاه إلا بما شاء،و الظاهر أن المراد بأمر ربهم أمره الذى لأجله واعد موسى لميقاته،و هو نزول التوراه.

قوله تعالى: **قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَ لِأَخِي وَ أَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ الْآيَةَ**؛دعاء منه عليه السّلام و قد تقدم فى الكلام على المغفره فى آخر الجزء السادس من الكتاب أن المغفره أعم موردا من المعصيه.

قوله تعالى: **إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ الْآيَةَ**؛ تنكير الغضب و كذا الذله للإشعار بعظمتها و قد أبهم الله سبحانه ما سينالهم من غضبه و ذله الحياه فلم يبين ما هما فمن المحتمل أن تكون الإشاره بذلك الى ما جرى عليهم بعد ذلك من تحريق العجل المعبود و نسفه فى اليم نسفا و طرد السامرى و قتل جمع منهم،أو أن يكون المراد به ما ضرب الله على قومهم من الذله و المسكنه و القتل و الإباده و الإساره،و يمكن أن يكون المراد بالغضب هو عذاب الآخره فيجمع لهم بذلك هوان الآخره و ذله الدنيا.

و كيف كان فذيل الآيه: **«وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ»** بظاهره يدل على أن ذلك أعنى نيل غضب الرب سبحانه و ذله الحياه الدنيا سنه جاريه إلهيه فى المفتريين على الله و هذا الذى يدل عليه الآيه يهدى إليه الأبحاث العقليه أيضا كما مر مرارا.

قوله تعالى: **وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** ضمير «مِنْ بَعْدِهَا» الأول راجع الى السيئات،و الثانى الى التوبه،و معنى الآيه ظاهر.

و الآيه و إن كانت فى نفسها عامه لكنها بالنظر الى المورد بمنزله الاستثناء من الذين اتخذوا

العجل المذكورين في الآيه السابقه فالتوبه اذا تحققت بحقيقه معناها في آيه سيئا كانت لم يمنع من قبولها مانع كما تقدم في تفسير قوله تعالى: إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ الْآيَةَ (النساء/١٧).

و هذه الآيه و التي قبلها معترضتان في القصة، و وجه الخطاب فيهما الى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَمٍ وَ الدليل على ذلك قوله في الآيه الاولى: «وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ» و في الآيه الثانيه: «إِنَّ رَبَّكَ» الآيه و ظاهر السياق أن الكلام فيهما جار على حكاية الحال الماضيه بدليل قوله «سَيُنَالُهُمْ غَضَبٌ» .

قوله تعالى: وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبَ أَخَذَ الْأَلْوَابَ الْآيَةَ؛ الرهبه هي خوف مع تحرز: و الباقي ظاهر (١)(٢).

[سوره الاعراف (٧): الآيات ١٥٥ الى ١٦٠]

اشاره

وَ اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَ إِيَّايَ أَ تَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الشُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنِ شَاءَ وَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَ أُكْتُبْنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُنَا إِلَيْكَ قَالَ عَدَايُ أُصَيْبُ بِهِ مِنْ أَشَاءَ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَا أُمَّرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَ يَحْرِمُ عَلَيْهِمُ الْحَبَائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِضْرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ كَلِمَاتِهِ وَ اتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) وَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعدِلُونَ (١٥٩) وَ قَطَعْنَا هُمْ إِثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ إِثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ وَ ظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَ السَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ مَا ظَلَمُونَا وَ لَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠)

ص: ٥٧٣

١- ١). الاعراف ١٣٨-١٥٤: بحث روائي في: ميقات موسى عليه السلام؛ مسأله رويه الله؛ تجلي سبحانه للجبل.

٢- ٢). الاعراف ١٣٨-١٥٤: بحث روائي في: الرؤيا القلبية؛ معرفه الله سبحانه.

بیان:

قوله تعالى: وَ اخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا اٰی اختار من قومه

ص: ۵۷۴

و الآية تدل على أن الله سبحانه عين لهم ميقاتا فحضره منهم سبعون رجلا اختارهم موسى من القوم، و لا يكون ذلك إلا لأمر ما عظيم لكن الله سبحانه لم يبين هاهنا ما هو الغايه المقصوده من حضورهم غير أنه ذكر أنهم أخذتهم الرجفه و لم تأخذهم إلا لظلم عظيم ارتكبوه حتى أدى بهم الى الهلاك بدليل قول موسى عليه السلام: «رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَ إِيَّايَ أَ تَهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا» فيظهر من هنا أن الرجفه أهلكتهم.

و يتأيد بذلك أن هذه القصة هي التي يشير سبحانه إليها بقوله: وَ إِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (البقره ١٥٦)، و بقوله: يَسْئَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ (النساء ١٥٣).

و من ذلك يظهر أن المراد بالرجفه التي أخذتهم في الميقات رجفه الصاعقه لا رجفه في أبدانهم كما احتمله بعض المفسرين و لا- ضير في ذلك فقد تقدم نظير التعبير في قصه قوم صالح حيث قال تعالى: فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ (الأعراف ٧٨)، و قال فيهم: فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ (حم السجده ١٧).

و في آيه النساء المنقوله آنفا إشعار بأن سؤالهم الرؤيه كان مربوطا بنزول الكتاب و أن اتخاذ العجل كان بعد ذلك فكأنهم حضروا الميقات لنزول التوراه، و أنهم إنما سألوا الرؤيه ليكونوا على يقين من كونها كتابا سماويا نازلا من عند الله، و يؤيد ذلك ان الظاهر أن هؤلاء المختارين كانوا مؤمنين بأصل دعوه موسى، و إنما أرادوا بقولهم: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً تعليق إيمانهم به من جهه نزول التوراه عليه على الرؤيه.

و بهذا كله يتأيد أن هذه القصة جزء من قصه الميقات و نزول التوراه، و أن موسى عليه السلام لما

أراد الحضور لميقات ربه و نزول التوراه اختار هؤلاء السبعين فذهبوا معه الى الطور و لم يقنعوا بتكليم الله كليمه، و سألوا الرؤيه فأخذتهم الصاعقه فماتوا ثم أحياهم الله بدعوه موسى، ثم كلم الله موسى و سأل الرؤيه و كان ما كان، و مما كان اتخاذ بنى إسرائيل العجل بعد غيبتهم و ذهابهم لميقات الله، و قد وقع هذا المعنى فى بعض الأخبار المأثوره عن أئمه أهل البيت عليهم السلام كما سيجىء إن شاء الله.

و على أى حال العنايه فى هذه القصة ببيان ظلمهم و نزول العذاب عليهم و دعاء موسى لهم لا بيان كون هذه القصة جزءا من القصة السابقه لو كان جزءا، و لا مغايرتها لها لو كانت مغايره فلا دلالة فى اللفظ تنبه على شىء من ذلك.

و أما قوله: بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ و قد كان الصادر منهم قولاً لا فعلاً فالوجه فى ذلك أن المؤاخذه إنما هو على المعصيه، و المعصيه تعد عملاً و فعلاً. و إن كانت من قبيل الأقوال كما قال تعالى: إِنَّهَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (التحریم ٧)، فإنه شامل لقول كلمه الكفر و الكذب و الافتراء و نحو ذلك بلا ريب، و الظاهر أنهم عذبوا بما كان يستلزمه قولهم من سوء الأدب و العناد و الاستهانه بمقام ربهم.

على أن ظاهر تلك الأقوال جميعاً أنهم إنما عذبوا بالرجفه قبال ما قالوه دون ما فعلوه فالإشكال على تقدير وروده مشترك بين جميع الأقوال فالأقرب كون القصة جزءاً من سابقتها كما تقدم.

قوله تعالى: قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلِ وَ إِيَّائِي - الى قوله - مَنْ تَشَاءُ يريد عليه السلام بذلك أن يسأل ربه أن يحييهم خوفاً من أن يتهمه بنو إسرائيل فيخرجوا به عن الدين، و يبطل بذلك دعوته من أصلها فهذا هو الذى يبتغيه غير أن المقام و الحال يمنعانه من ذلك فهذا هو عليه السلام واقع أمام معصيه موبقه من قومه صرعتهم و غضب إلهى شديد أحاط بهم حتى أهلكتهم.

و لذلك أخذ يمهد الكلام رويدا و يسترحم ربه بجمل من الشاء حتى يهيج الرحمه على الغضب، و يثير الحنان و الرأفه الإلهيه ثم يتخلص الى مسألته و ذكر حاجته فى جو خال من موانع الإجابة.

«قَالَ» مبتدئا باسم الربوبيه المهيجه للرحمه: «رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ» فالأمر الى مشيتك، و لو أهلكتهم من قبل «وَ إِيَّايَ» لم يتجه من قومى الى تهمة فى هلا-كهم، ثم ذكر أنه ليس من شأن رحمته و سنه ربوبيته أن يؤاخذ قوما بفعل سفهائهم فقال فى صورته الاستفهام تأدبا «أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الشُّفَهَاءُ مِنَّا»؟ ثم أكد القول بقوله: «إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ» و امتحانك «تُضِلُّ بِهَا» أى بالفتنه «مَنْ تَشَاءُ وَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ» أى أن هذا المورد أحد موارد امتحانك و ابتلائك العام الذى تبتلى به عبادك و تجريه عليهم ليضل من ضل و يهتدى من اهتدى، و ليس من سنتك أن تهلك كل من افتتن بفتنتك فانحرف عن سوى صراطك.

و بالجمله أنت الذى سبقت رحمتك غضبك ليس من دأبك أن تستعجل المسيئين من عبادك بالعقوبه أو تعاقبهم بما فعل سفاؤهم، و أنت الذى أرسلتنى الى قومى و وعدتنى أن تنصرنى فى نجاح دعوتى، و هلاك هؤلاء المصعوقين يجلب على التهمه من قومى.

قوله تعالى: أَنْتَ وَلِيْنَا فَاعْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ شروع منه عليه السلام فى الدعاء بعد ما قدمه من الشاء، و بدأه بقوله: «أَنْتَ وَلِيْنَا» و ختمه بقوله: «وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ» ليقع ما يسأله بين صفتى ولايه الله الخاصه به، و مغفرته التى هى خير مغفره ثم سأل حاجته بقوله: «فَاعْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا» لأنه خير حاجه يرتضى الله من عباده أن يسألوها عنه، و لم يصرح بخصوص حاجته التى بعثته الى الدعاء، و هى إحياء السبعين الذين أهلكهم الله تذلا و استحياء.

و حاجه هذه مندرجه فى قوله: «فَاعْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا» لا محاله فإن الله سبحانه يذكر فى آيه سوره البقره أنه بعثهم بعد موتهم، و لم يكن ليحييهم بعد ما أهلكهم إلا بشفاعه موسى عليه السلام و لم

يذكر من دعائه المرتبط بحالهم إلا هذا الدعاء فهو إنما سأله ذلك تلويحاً بقوله «فَاغْفِرْ لَنَا» الخ؛ كما تقدم لا تصريحاً.

قوله تعالى: «وَ اكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدُّنَا إِلَيْكَ أَي رَجَعْنَا إِلَيْكَ مِنْ هَادٍ يَهُودٍ إِذَا رَجَعُ، وَ هُوَ أَعْنَى قَوْلِهِ: «إِنَّا هُدُّنَا إِلَيْكَ» تعليل لهذا الفصل من الدعاء سأل فيه أن يكتب الله أى يقضى لهم بحسنه فى الدنيا و حسنه فى الآخرة و المراد بالحسنه لا محاله الحياه و العيشه الحسنه فإن الرجوع إلى الله أى سلوك طريقته و التزام سبيل فطرته يهدى الإنسان الى حياه طيبه و عيشه حسنه فى الدنيا و الآخرة جميعاً، و هذا هو الوجه فيما ذكرنا أن قوله: «إِنَّا هُدُّنَا إِلَيْكَ» تعليل لهذا الفصل من دعائه فإن الحياه الطيبه من آثار الرجوع إلى الله، و هى شىء من شأنه أن يرزقوه-لو رزقوا- فى مستقبل أمرهم، و هو المناسب للكتابه و القضاء، و أما الفصل الأول من الدعاء أعنى قوله: «فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا» الخ؛ فتكفى فى تعليقه الجمل السابقه عليه، و ما احتف به من قوله: «أَنْتَ وَ لِيْنَا» و قوله: «وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ» و لا يتعلق بقوله: «إِنَّا هُدُّنَا إِلَيْكَ» فافهم ذلك.

قوله تعالى: «قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ هَذَا جَوَابٌ مِنْهُ سَبْحَانَهُ لِمُوسَى، وَ فِيهِ مُحَاذَاهُ لِمَا قَدَّمَهُ مُوسَى قَبْلَ مَسْأَلَتِهِ مِنْ قَوْلِهِ: «رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِنِّي أَى»، وَ قَدْ قَيَّدَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ إِصَابَهُ عَذَابِهِ بِقَوْلِهِ: «مَنْ أَشَاءُ» دُونَ سَعَةِ رَحْمَتِهِ لِأَنَّ الْعَذَابَ إِنَّمَا يَنْشَأُ مِنْ اقْتِضَاءِ مَنْ قَبْلَ الْمَعْذِينَ لَا مِنْ قَبْلِهِ سَبْحَانَهُ، قَالَ تَعَالَى مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَ آمَنْتُمْ (النساء ١٤٧) وَ قَالَ: لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَ لَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (إبراهيم ٧) فَلَا يَعْدَبُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِاقْتِضَاءِ مَنْ رَبُّوِيَّتِهِ وَ لَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَعَدَّبَ كُلَّ أَحَدٍ بَلْ إِنَّمَا يَعْدَبُ بَعْضُ مَنْ تَعَلَّقَتْ بِهِ مَشِيَّتُهُ فَلَا تَتَعَلَّقُ مَشِيَّتُهُ إِلَّا بِعَذَابٍ مِنْ كَفَرُوا نَعْمَهُ فَالْعَذَابُ إِنَّمَا هُوَ بِاقْتِضَاءِ مَنْ قَبْلَ الْمَعْذِينَ لِكُفْرِهِمْ لَا مِنْ قَبْلِهِ.

على أن كلامه سبحانه يعطى أن العذاب إنما حقيقته فقدان الرحمه، و النقمه عدم بذل

النعمه، و لا- يتحقق ذلك إلا- لعدم استعداد المعذب بواسطه الكفران و الذنب لإفاضه النعمه عليه و شمول الرحمه له، فسبب العذاب فى الحقيقه عدم وجود سبب الرحمه.

و أما سعه الرحمه و إفاضه النعمه فمن المعلوم أنه من مقتضيات الالهيه و لوازم صفه الربوبيه فما من موجود مخلوق إلا و وجود نعمه لنفسه و لكثير ممن دونه لارتباط أجزاء الخلقه، و كل ما عنده من خير أو شر نعمه إما لنفسه و لغيره كالكفه و الثروه و غيرهما التى يستفيد منها الإنسان و غيره، و إما لغيره اذا كان نغمه بالنسبه إليه كالعاهات و الآفات و البلايا يستضر بها شىء و ينتفع أشياء و على هذا فالرحمه الإلهيه واسعه كل شىء فعلا لا شأنًا، و لا يختص بمؤمن و لا كافر و لا ذى شعور و لا غيره و لا دنيا و لا آخره، و المشيئه لازمه لها.

نعم تحقق العذاب و النغمه فى بعض الموارد- و هو معنى قياسى- يوجب أن يتحقق هناك رحمه تقابلها و تقاس إليها فإن حرمان البعض من النعمه التى أنعم الله بها على بعض آخر اذا كان عذابا كان ما يجده البعض الآخر رحمه تقابل هذا العذاب، و كذا نزول ما يتألم به و يؤذى على بعض كالعقوبات الدنيويه و الأخرويه اذا كان عذابا كان الأمن و السلامه التى يجدها البعض الآخر رحمه بالنسبه إليه و تقابله، و إن كانت الرحمه المطلقه بالمعنى الذى تقدم بيانه بشملها جميعا.

فهناك رحمه إلهيه عامه يتنعم بها المؤمن و الكافر و البرّ و الفاجر و ذو الشعور و غير ذى الشعور فيوجدون بها و يرزقون بها فى أول وجودهم ثم فى مسيره الوجود ما داموا سالكين سبيل البقاء، و رحمه إلهيه خاصه و هى العطيئه الهنيئه التى وجود بها الله سبحانه فى مقابل الإيمان و العبوديه، و تختص لا محاله بالمؤمنين الصالحين من عباده من حياه طيبه نورانيه فى الدنيا، و جنه و رضوان فى الآخره و لا نصيب فيها للكافرين و المجرمين، و يقابل الرحمه الخاصه عذاب و هو اللاملثم الذى يصيب الكافرين و المجرمين من جهه كفرهم و جرمهم فى الدنيا كعذاب الاستئصال و المعيشه الضنك و فى الآخره من النار و آلامها، و لا يقابل الرحمه العامه شىء من

العذاب اذ كل ما يصدق عليه اسم شىء فهو من مصاديق الرحمة العامه لنفسه أو لغيره، وكونه رحمه هي المقصوده فى الخلقه، و ليس وراء الشىء شىء.

إذا تحقق هذا تبين أن قوله تعالى: «عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ» بيان لخصوص العذاب و عموم الرحمة، و إنما قابل بين العذاب و الرحمة العامه مع عدم تقابلهما لأن ذكر الرحمة العامه توطئه و تمهيد لما سيذكره من صيرورتها رحمه خاصه فى حق المتقين من المؤمنين.

و قد اتضح بما تقدم أن سعه الرحمة ليست سعه شأئيه و أن قوله: «و رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ» ليس مقيدا بالمشيئه المقدره بل من لوازم سعه الرحمة الفعلية كما تقدم، و ذلك لأن الظاهر من الآيه أن المراد بالرحمة العامه و هي تسع كل شىء بالفعل و قد شاء الله ذلك فلزمتها فلا محل لتقدير «إن شئت» خلافا لظاهر كلام جمع من المفسرين.

قوله تعالى: «فَسَأَلْتُكَ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» تفريع على قوله: «عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَ رَحْمَتِي» الآيه؛ أى لازم و جوب إصابه العذاب بعض الناس و سعه الرحمة لكل شىء أن أوجب الرحمة على البعض الباقي، و هم الذين يتقون و يؤتون الزكاه الآيه.

و قد ذكر سبحانه الذين تنالهم الرحمة بأوصاف عامه و هي التقوى و إيتاء الزكاه و الإيمان بآيات الله من غير أن يقتديهم بما يخص قومه كقولنا: للذين يتقون منكم و نحو ذلك لأن ذلك مقتضى عموم البيان فى قوله: «عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ» الآيه و البيان العام ينتج نتيجة عامه.

و اذا قوبلت مسأله موسى بالآيه كانت الآيه بمنزله المقيده لها فإنه عليه السلام سأل الحسنه و الرحمة لقومه ثم عللها بقوله: «إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ» فكان معنى ذلك مسأله الرحمة لكل من هاد و رجع منهم بأن يكتب الله حسنه الدنيا و الآخره لمجرد هودهم و عودهم إليه فكان فيما أجابه

اللّٰه به أنه سيكتب رحمته للذين آمنوا و اتقوا فكانه قال: اكتب رحمتك لمن هاد إليك منا، فأجابه الله أن سأكتب رحمتي لمن هاد و اتقى و آمن بآياتي فكان في ذلك تقييد لمسأله.

و لا ضير في ذلك فإنه سبحانه هو الهادي لأنبيائه و رسله المعلم لهم يعلم كلمه أن يقيد مسأله بالتقوى و هو الورع عن محارمه و بالإيمان بآياته و هو التسليم لأنبيائه و للأحكام النازله إليهم، و لا يطلق اليهود و هو الرجوع الى الله بالإيمان به، فهذا تصرف في دعاء موسى بتقييده كما تصرف تعالى في دعاء إبراهيم بالتقييد في قوله: قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (البقره ١٢٤/)، و بالتعميم و الإطلاق في قوله فيما يحكى من دعائه لأهل مكه: وَ ارزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَ بئسَ المصيرُ (البقره ١٢٦/)، فقد تبين أولا أن الآيه تتضمن استجابته تعالى لدعاء موسى: «وَ اكتب لنا في هذه الدنيا حسنة و في الآخرة» بتقييد ما له فمن العجيب ما ذكره بعضهم: أن الآيه بسياقها تدل على أن الله سبحانه رد دعوه موسى و لم يستجبها، و كذا قول بعضهم: إن موسى عليه السلام دعا لقومه فاستجاب الله في حق أمه محمد صلى الله عليه و آله و سلم بناء على بيانيه قوله: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ» الآيه؛ لقوله: «الَّذِينَ يَتَّقُونَ» الآيه و سيجىء.

و ثانيا: أنه تعالى استجاب ما اشتمل عليه الفصل الأول من دعائه فإنه تعالى لم يرده، و حاشا أن يحكى الله في كلامه دعاء لاغيا غير مستجاب، و قوله: «فَسَأَلْتُهَا لِلَّذِينَ» الآيه فإنه يحاذى ما سأله عليه السلام من الحسنه المستمره الباقية في الدنيا و الآخرة لقومه، و أما طلب المغفره لذنب دفعى صدر عنهم بقولهم: «أَرِنَا اللَّهَ جَهْرَةً» فلا يحاذيه قوله: «فَسَأَلْتُهَا» الآيه؛ بوجه، فسكوته تعالى عن رد دعوته دليل إجابتها كما في سائر الموارد التي تشابهه في القرآن.

و يلوح الى استجاب دعوته لهم بالمغفره قوله في القصة في موضع آخر: ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ

بَعْدَ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (البقره ٥٦) فمن البعيد المستبعد أن يحييهم الله بعد إهلاكهم و لم يغفر لهم ذنبهم الذى أهلكوا به.

و على أى حال معنى الآيه «فَسَأَكْتُبُهَا» أى سأكتب رحمتى و أقضيها و أوجبها استعيرت الكتابه للإيجاب لأن الكتابه أثبت و أحكم «لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ» و يجتنبون المعاصى و ترك الواجبات «وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» و هى الحق المالى أو مطلق الإنفاق فى سبيل الله الذى ينمو به المال، و يصلح به مفسد الاجتماع، و يتم به نواقصه، و ربما قيل: إن المراد بها زكاه النفس و طهارتها، و إيتاء الزكاه إصلاح أخلاق النفس. و ليس بشىء.

«وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» أى يسلمون لما جاءتهم من عند الله من الآيات و العلامات سواء كانت آيات معجزه كمعجزات موسى و عيسى و محمد عليه السلام، أو أحكاما سماويه كشرائع موسى و أوامره و شرائع غيره من الأنبياء، أو الأنبياء أنفسهم أو علامات صدق الأنبياء كعلائم محمد صلى الله عليه و آله و سلم التى ذكرها الله تعالى لهم فى كتاب موسى و عيسى عليهما السلام فكل ذلك آيات له تعالى يجب عليهم و على غيرهم أن يؤمنوا بها و يسلموا لها، و لا يكذبوا بها.

و فى الآيه التفات من سياق التكلم مع الغير الى الغيبه فإنه قال أولا: «وَ اخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِمِيقَاتِنَا». ثم قال: «قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ» الآيه و كأن النكته فيه إظهار ماله سبحانه من العناية الخاصه باستجابته دعاء الداعين من عباده فيقبل عليهم هو تعالى من غير أن يشاركه فيه غيره و لو بالتوسط فإن التكلم بلفظ المتكلم مع الغير لإظهار العظمه لمكان أن العظماء يتكلمون عنهم و عن أتباعهم فإذا أريد إظهار عناية خاصه بالمخاطب أو بالخطاب تكلم بلفظ المتكلم وحده.

و على هذا جرى كلامه تعالى فاختار سياق المتكلم وحده المناسب المناجاه و المسارّه فيما حكى من أدعيه أنبيائه و أوليائه و استجابته لهم فى كلامه كأدعيه نوح و إبراهيم و دعاء موسى ليله الطور، و أدعيه سائر الصالحين و استجابته لهم، و لم يعدل عن سياق المتكلم وحده إلا

و أما قوله: «وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» و ما فيه من العدول من التكلم وحده-السياق السابق-الى التكلم مع الغير فالظاهر أن النكته فيه إيجاد الاتصال بين هذه الآيه و الآيه التاليه التى هى نوع من البيان لهذه الجملة أعنى قوله: «وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» فإن الآيه التاليه -كما سيجىء-بمنزله المعترضه من النتيجة المأخوذه فى ضمن الكلام الجارى،و سياقها سياق خارج عن سياق هذه القطعه المتعرضه للمشافهه و المناجاه بين موسى و بينه تعالى راجع الى السياق الأصيل السابق الذى هو سياق المتكلم مع الغير.

فبتبديل «و الذين هم بآياتى يؤمنون» الى قوله: «وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» يتصل الآيه التاليه بسابقتها فى السياق بنحو لطيف فافهم ذلك و تدبر فيه فإنه من عجب السياقات القرآنيه.

قوله تعالى: الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ -الى قوله- كَانَتْ عَلَيْهِمْ. قال الراغب فى المفردات:

الإصر عقد الشىء و حبسه بقهره يقال:أصرته فهو مأصور،و المأصر و المأصر-بفتح الصاد و كسرهما-محبس السفينه،قال تعالى:و يضع عنهم إصرهم أى الأمور التى تثبطهم و تقيدهم عن الخيرات،و عن الوصول الى الثوابات،و على ذلك:و لا- تحمل علينا إصرًا،و قيل ثقلاً و تحقيقه ما ذكرت.(انتهى)و الأغلال جمع غل و هو ما يقيد به.

و قوله: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ» الآيه بحسب ظاهر السياق بيان لقوله «وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» و يؤيده ما هو ظاهر الآيه أن كونه صلى الله عليه و آله و سلم رسولا نبيا أميا و يأمر بالمعروف و ينهى عن المنكر،و يحل لهم الطيبات و يحرم عليهم الخبائث،و يضع عنهم إصرهم و الأغلال التى كانت عليهم كل ذلك من أمارات النبوه الخاتمية و آياتها المذكوره لهم فى التوراه و الإنجيل فمن الإيمان بآيات الله الذى شرطه الله تعالى لهم فى كلامه:أن يؤمنوا بالآيات المذكوره لهم أمارات لنبوه محمد صلى الله عليه و آله و سلم.

غير أن من المسلم الذي لا- مريه فيه أن الرحمه التي وعد الله كتابته لليهود بشرط التقوى و الإيمان بآيات الله ليست بحيث تختص بالذين آمنوا منهم بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و يحرم عنها صالحو بنى إسرائيل من لدن أجاب الله دعوه موسى عليه السّلام الى أن بعث الله محمدا صلى الله عليه و آله و سلم فآمن به شرذمه قليله من اليهود، فإن ذلك مما لا ينبغي توهمه أصلا. فبين موسى و عيسى عليهما السّلام، و كذا بعد عيسى عليه السّلام ممن آمن به من بنى إسرائيل جم غفير من المؤمنين الذين آمنوا بالدعوه الإلهيه فقبل الله منهم إيمانهم و وعدهم بالخير، و الكلام الإلهي بذلك ناطق فكيف يمكن أن تقصر الرحمه الإلهيه المبسوطه على بنى إسرائيل فى جماعه قليله منهم آمنوا بالنبي صلى الله عليه و آله و سلم.

فقوله: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ» الآية؛ و إن كان بيانا لقوله: «وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» إلا- أنه ليس بيانا مساويا فى السعه و الضيق لمبيته بل بيان مستخرج من مبيته انترع منه، و خص بالذكر ليستفاد منه فيما هو الغرض من سوق الكلام، و هو بيان حقيقه الدعوه المحمديه، و لزوم إجابتهم لها و تلبيتهم لداعيها.

و لذلك فى القرآن الكريم نظائر من حيث التضييق و التوسعه فى البيان كما قال تعالى حاكيا عن إبليس: «فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ» الآية؛ ثم قال فى موضع آخر حاكيا عنه لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا وَ لَأُضِلَّنَّهُمْ وَ لَأَمْلِيَنَّهُمْ وَ لَأَمُرَّنَّهُمْ فَأَيُّتِيكُنَّ أَذَانَ الْأَنْعَامِ وَ لَأَمُرَّنَّهُمْ فَلْيَغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ (النساء ١١٩/) فإن القول الثانى المحكى عن إبليس مستخرج من عموم قوله المحكى أولا: لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ .

و قال تعالى فى أول هذه السوره: وَ لَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ - الى أن قال- يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ الْآيَه؛ و قد تقدم أن ذلك من قبيل استخراج الخطاب من الخطاب لغرض التعميم الى غير ذلك من النظائر.

فيؤول معنى بيانيه قوله: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ» الى استخراج بيان من بيان للتطبيق على مورد الحاجه كأنه قيل: فإذا كان المكتوب من رحمه الله لبنى إسرائيل قد كتب للذين

يتقون و يؤتون الزكاه و الذين هم بآياتنا يؤمنون فمصداقه اليوم-يوم بعث محمد صَلَّى الله عليه و آله و سلم-هم الذين يتبعونه من بنى إسرائيل لأنهم الذين اتقوا و أتوا الزكاه و هم الذين آمنوا بآياتنا فإنهم آمنوا بموسى و عيسى و محمد صَلَّى الله عليه و آله و سلم و هم آياتنا، و آمنوا بمعجزات هؤلاء الرسل و ما نزل عليهم من الشرائع و الأحكام و هى آياتنا، و آمنوا بما ذكرنا لهم فى التوراه و الإنجيل من أمارات نبوه محمد صَلَّى الله عليه و آله و سلم و علامات ظهوره و دعوته، و هى آياتنا.

ثم قوله: «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ» الآية أخذ فيه «يَتَّبِعُونَ» موضع يؤمنون، و هو من أحسن التعبير لأن الإيمان بآيات الله سبحانه كأنيائه و شرائعهم إنما هو بالتسليم و الطاعه فاختر لفظ الاتباع للدلاله على أن الإيمان بمعنى الاعتقاد المجرد لا يغنى شيئاً فإن ترك التسليم و الطاعه عملاً تكذيب بآيات الله و إن كان هناك اعتقاد بأنه حق.

و ذكره صَلَّى الله عليه و آله و سلم بهذه الأوصاف الثلاث: الرسول النبى الامى، و لم يجتمع له فى موضع من كلامه تعالى إلا فى هذه الآية و الآية التاليه، مع قوله تعالى بعده: «الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ» تدل على أنه صَلَّى الله عليه و آله و سلم كان مذكوراً فيهما معرّفًا بهذه الأوصاف الثلاث.

و لو لا أن الغرض من توصيفه بهذه الثلاث هو تعريفه بما كانوا يعرفونه به من النعوت المذكوره له فى كتابيهم لما كانت لذكر الثلاث «الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ» و خاصه الصفه الثالثه نكته ظاهره.

و كذلك ظاهر الآية يدل أو يشعر بأن قوله: يأمرهم بالمعروف و ينهاهم عن المنكر الى آخر الامور الخمسه التى وصفه صَلَّى الله عليه و آله و سلم بها فى الآية من علائمه المذكوره فى الكتابين، و هى مع ذلك من مختصات النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و سلم بها فى الآية من علائمه المذكوره فى الكتابين، و هى مع ذلك من مختصات النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و ملته البيضاء فإن الأمم الصالحه و إن كانوا يقومون بوظيفه الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر كما ذكره تعالى من أهل الكتاب فى قوله: لَيْسُوا سِوَاءٍ مِنْ أَهْلِ

الْكِتَابِ أُمَّهُ قَائِمَةٌ - إِلَى أَنْ قَالَ - وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (آل عمران ١١٤).

و كذلك تحليل الطيبات و تحريم الخبائث فى الجملة من جملة الفطريات التى أجمع عليها الأديان الإلهيه، و قد قال تعالى: قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَ الطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ (الأعراف ٣٢).

و كذلك وضع الإصر و الأغلال و إن كان مما يوجد فى الجملة فى شريعته عيسى عليه السلام كما يدل عليه قوله فيما حكى الله عنه فى القرآن الكريم: وَ مَصِّدَقًا لِلَّهِ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَ لِأَحْلِلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ (آل عمران ٥٠) و يشعر به قوله خطابا لبني إسرائيل: قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَ لِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ (الزخرف ٦٣).

إلا أنه لا يرتاب ذو ريب فى أن الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه و آله و سلم بكتاب من عند الله مصدق لما بين يديه من الكتب السماويه - هو دين الإسلام - هو الدين الوحيد الذى نفخ فى جثمان الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر كل ما يسعه من روح الحياه، و بلغ به من حد الدعوه الخاليه الى درجه الجهاد فى سبيل الله بالأموال و النفوس، و هو الدين الوحيد الذى أحصى جميع ما يتعلق به حياه الإنسان من الشئون و الأعمال ثم قسمها الى طيبات فأحلها، و الى خبائث فحرمها، و لا يعادله فى تفصيل القوانين المشرعه أى شريعته دينيه و قانون اجتماعى، و هو الدين الذى نسخ جميع الأحكام الشاقه الموضوعه على أهل الكتاب و اليهود خاصة، و ما تكلفها علماؤهم، و ابتدعها أبحارهم و رهبانهم من الأحكام المبتدعه.

فقد اختص الإسلام بكمال هذه الامور الخمسه و إن كانت توجد فى غير نماذج من ذلك.

على أن كمال هذه الامور الخمسه فى هذه المله البيضاء أصدق شاهد و أبين بينه على صدق الناهض بدعوتها صلى الله عليه و آله و سلم، و لو لم تكن تذكر أمارات له فى الكتابين فإن شريعته كمال شريعته الكليم و المسيح عليه السلام و هل يطلب من شريعته حقّه إلا عرفانها المعروف و إنكارها المنكر،

و تحليلها الطبيات، و تحريمها الخبائث، و إلغاؤها كل إصر و غل؟ و هى تفاصيل الحق الذى يدعو إليه الشرائع الإلهيه فليعترف أهل التوراه و الإنجيل أن الشريعه التى تتضمن كمال هذه الأمور بتفاصيلها هى عين شريعتهم فى مرحله كامله.

و بهذا البيان يظهر أن قوله تعالى: «يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ» الآيه يفيد بمجموعه معنى تصديقه لما فى كتابيهم من شرائع الله تعالى كانه قيل مصدقا لما بين يديه كما فى قوله تعالى: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ» (البقره ١٠١/١) و قوله: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ» (البقره ٨٩/١) يريد مجيء النبى صلى الله عليه و آله و سلم بكمال ما فى كتابهم من الشريعه مصدقا له ثم كفرهم به و هم يعلمون أنه المذكور فى كتبهم المبشر به بلسان أنبيائهم كما حكى سبحانه عن المسيح فى قوله: «يَا بَنَى إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ» (الصف ٦/١).

و سنبحث عن بشاراته عليه السلام الواقعه فى كتبهم المقدسه بما تيسر من البحث إن شاء الله العزيز.

غير أنه تعالى لم يقل: مصدقا لما بين يديه بدل قوله: «يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ» الآيه لأن وجه الكلام الى جميع الناس دون أهل الكتاب خاصه، و لذا أمر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم فى الآيه التاليه بقوله:

«قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا» و لم يقتيد الكلام فى قوله: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ» الخ؛ بما يختص به بأهل الكتاب.

قوله تعالى: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّوهُ وَ نَصَّيْرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الى آخر الآيه؛ التعزير النصره مع التعظيم، و المراد بالنور النازل معه القرآن الكريم ذكر نعت النوريه ليدل به على أنه ينير طريق لا حياه، و يضىء الصراط الذى يسلكه الإنسان الى موقف

و فى قوله: «أُنزِلَ مَعَهُ» و لم يقل: أنزل عليه أو أنزل إليه و«مع» تدل على المصاحبه و المقارنه تلويح الى معنى الإمارة و الشهادة التى ذكرناها كأنه قيل: و اتبعوا النور الذى أنزل عليه و هو بما يحتوى عليه من كمال الشرائع السابقه، و يظهره بالإضاءة شاهد على صدقه، و أماره أنه هو الذى وعد به أنبياءهم، و ذكر لهم فى كتبهم فقوله: «مَعَهُ» حال من نائب فاعل «أُنزِلَ». و قد وقع نظيره فى قوله تعالى: فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ (البقره ٢١٣).

و قوله: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّوهُ وَ نَصَّوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ» الآية؛ بمنزله التفسير لقوله فى صدر الآية «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ» و أن المراد باتباعه حقيقه اتباع كتاب الله المشتمل على شرائعه، و أن الذى له عليه السلام من معنى الاتباع هو الإيمان بنبوته و رسالته من غير تكذيب به، و احترامه بالتسليم له و نصرته فيما عزم عليه من سيرته.

و الكلام أعنى قوله: «فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ» الآية نتيجة متفرعه على قوله فى صدر الآية «الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ» الآية؛ بناء على ما قدمناه من أنه بيان خاص مستخرج من قوله «وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ» الذى هو بيان عام، و المعنى اذا كان اتباع الرسول بهذه الأوصاف و النعوت هو من الإيمان بآياتنا الذى شرطناه على بنى إسرائيل فى قبول دعوه موسى لهم ببسط الرحمه فى الدنيا و الآخرة و فيه الفلاح بكتابه الحسنه فى الدنيا و الآخرة فالذين آمنوا به-الى آخر ما شرط الله-أولئك هم المفلحون.

قوله تعالى: قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً -إلى قوله- وَ يُمِيتُ لِمَا لَاحَ مِنَ الْأَوْصَافِ التى وصف بها نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن عنده كمال الدين الذى به حياه الناس الطيبه فى أى مكان فرضوا و فى أى زمان قدّر وجودهم، و لا حاجه للناس فى طيب حياتهم الى أزيد من أن يؤمروا بالمعروف، و ينهوا عن المنكر، و تحلل لهم الطيبات، و تحرّم

عليهم الخبائث، و يوضع عنهم إصرهم و الأغلال التي عليهم أمر نبيهم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أن يعلن بنوته الناس جميعا من غير أن تختص بقوم دون قوم فقال: «قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً» .

و قوله: الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَ يُمِيتُ صفات وصف الله بها، و هي بمجموعها بمنزله تعليل يبين بها إمكان الرسالة من الله في نفسها أولا و إمكان عمومها لجميع الناس ثانيا فيرتفع به استيحاش بنى إسرائيل أن يرسل إليهم من غير شعبيهم و خاصة من الاميين و هم شعب الله و من مزاعمهم أنه ليس عليهم فى الاميين سبيل، و هم خاصة الله و أبناؤه و أحباؤه، و به يزول استبعاد غير العرب من جهة العصبية القومية أن يرسل إليهم رسول عربى .

و ذلك أن الله الذى اتخذه رسولا هو الذى له ملك السماوات و الأرض و السلطنة العامه عليها، و لا إله غيره حتى يملك شيئا منها فله أن يحكم بما يشاء من غير أن يمنع عن حكمه مانع يزاحمه أو تعوق إرادته إرادته غيره فله أن يتخذ رسولا الى عباده و أن يرسل رسوله الى بعض عباده أو الى جميعهم كيف شاء .

و هو الذى له الإحياء و الإماتة فله أن يحيى قوما أو الناس جميعا بحياه طيبه سعيده و السعاده و الهدى من الحياه كما أن الشقاوه و الضلاله موت، قال تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ (الأنفال ٢٤)، و قال: أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ (الأنعام ١٢٢)، و قال: إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ، وَ الْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ (الأنعام ٣٤) .

قوله تعالى: فَأَمَّنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الى آخر الآيه تفريع على ما تقدم أى اذا كان الحال هذا الحال فآمنوا بى فإنى ذاك الرسول النبى الامى الذى بشر به فى التوراه و الإنجيل، و أنا أو من بالله و لا أكفر به و أو من بكلماته و هى ما قضى به من الشرائع

النازله على و على الأنبياء السالفين، و اتبعونى لعلكم تفلحون.

هذا ما يقتضيه السياق، و منه يعلم وجه الالتفات من التكلم الى الغيبه فى قوله «و رَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي» الآية فإن الظاهر من السياق أن هذه الآية ذيل الآية السابقه، و هما جميعا من كلام النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

و وجه الالتفات - كما ظهر مما تقدم - أن يدل بالأوصاف الموضوعه مكان ضمير المتكلم على تعليل الأمر فى قوله: «فَأْمِنُوا» و قوله: «وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» .

و المراد بالاهتداء الاهتداء الى السعاده الآخره التى هى رضوان الله و الجنه لا الاهتداء الى سبيل الحق فإن الإيمان بالله و رسوله و اتباع رسوله بنفسه اهتداء، فيرجع معنى قوله «لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» الى معنى قوله فى الآية السابقه فى نتيجته الإيمان و الاتباع «أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» .

قوله تعالى: «وَمِنْ قَوْمٍ مُّوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ» و هذا من نصفه القرآن مدح من يستحق المدح، و حمد صالح أعمالهم بعد ما قرعهم بما صدر عنهم من السيئات فالمراد أنهم ليسوا جميعا على ما وصفنا من مخالفه الله و رسوله، و التزام الضلال و الظلم بل منهم أمه يهدون الناس بالحق و بالحق يعدلون فيما بينهم فالباء فى قوله: «بِالْحَقِّ» لآله و تحتمل الملايسه.

و على هذا فالآيه من الموارد التى نسبت الهدايه فيها الى غيره تعالى و غير الأنبياء و الأئمه كما فى قوله حكايه عن مؤمن آل فرعون و لم يكن بنبي ظاهرا: «وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ (المؤمن ٣٨)» .

و لا يبعد أن يكون المراد بهذه الأمه من قوم موسى عليه السلام الأنبياء و الأئمه الذين نشئوا فيهم بعد موسى و قد وصفهم الله فى كلامهم بالهدايه كقوله تعالى: «وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَ كَانُوا بآيَاتِنَا يوقنون (الم السجده ٢٤)» و غيره من الآيات و ذلك أن الآية أعنى

قوله: «أُمَّهُ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ» لو حملت على حقيقه معناها من الهدايه بالحق و العدل بالحق لم يتيسر لغير النبي و الإمام أن يتلبس بذلك و قد تقدم كلام في الهدايه في تفسير قوله:

□ قال إني جاعلك للناس إماماً (البقره ١٢٤/) و قوله: فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ (الأنعام ١٢٥/). و غيرهما من الآيات.

قوله تعالى: وَ قَطَّعْنَا لَهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيطًا أُمَّماً الى آخر الآيه؛ السبب بحسب اللغه ولد الولد أو ولد البنت. و الجمع أسباط، و هو في بنى إسرائيل بمعنى قوم خاص، فالسبب عندهم بالمنزله القبيله عند العرب. و قد نقل عن ابن الحاجب أن أسباطا في الآيه بدل من العدد لا تمييز و إلا لكانوا ستة و ثلاثين سبباً على إرادته أقل الجمع من «أَسْبَابًا» و تمييز العدد محذوف للدلاله عليه بقوله: «أَسْبَابًا» و التقدير و قَطَّعْنَا لَهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ فَرَقَهُمْ بِأَسْبَابٍ هَذَا. و ربما قيل: إنه تمييز لكونه بمعنى المفرد و المعنى اثنتى عشره جماعه مثلاً.

و قوله: وَ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ الْآيَةَ الْانْبِجَاسِ هُوَ الْانْفِجَارُ وَ قِيلَ الْانْبِجَاسُ خُرُوجُ الْمَاءِ بِقَلْبِهِ، وَ الْانْفِجَارُ خُرُوجُهُ بكَثْرِهِ، وَ ظَاهِرٌ مِنْ قَوْلِهِ: «فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ» أن العيون كانت بعدد الأسباط و أن كل سبب اختصوا بعين من العيون، و أن ذلك كانت عن مشاجره بينهم و منافسه، و هو يؤيد ما في الروايات من قصتها. و باقى الآيه ظاهر.

و قد عدَّ اللهُ سبحانه في هذه الآيات من معجزات موسى عليه السَّلام و آياته: الثعبان و اليد البيضاء، و سنى آل فرعون و نقص ثمراتهم، و الطوفان، و الجراد، و القمل، و الضفادع، و الدم، و فلق البحر، و إهلاك السبعين، و إحياءهم، و انبجاس العيون من الحجر بضرب العصا، و التظليل بالغمام، و إنزال المنّ و السلوى، و نثق الجبل فوقهم كأنه ظله. و يمكنك أن تضيف إليها التكليم و نزول التوراه، و مسح بعضهم قرده خاسئين. و سيجىء تفصيل البحث في قصته عليه السَّلام

[سورة الأعراف (٧): الآيات ١٦١ الى ١٧١]

إشارة

وَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ اُسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَ كُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَ قُولُوا حِطَّةً وَ ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١٦١) فَيَدُلُّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) وَ سَأَلْتَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْبُدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتٌ مِنْهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَ يَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣) وَ إِذْ قَالَتْ أُمُّهُ مِنْهُمْ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ إِلَيْنَا رَبِّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَ أَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قَرَدَةً حَاسِيَيْنَ (١٦٦) وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفَيْئَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) وَ قَطَعْنَا هَمَّ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِنْهُمْ الصَّالِحِينَ وَ مِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَ بَلَوْنَا هُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَ السَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٦٨) فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَذْنَى وَ يَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَ إِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَ دَرَسُوا مَا فِيهِ وَ الدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٦٩) وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضَعُ يَدَ الْمُصْلِحِينَ (١٧٠) وَ إِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَ ظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَ اذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١)

ص: ٥٩٢

١- ١). الاعراف ١٥٥-١٦٠: بحث روائى فى: العله التى تمنع القوم من اختيار امام لانفسهم؛ ميقات موسى عليه السلام اوضاع بنى اسرائيل بعد موت موسى عليه السلام.

قوله تعالى: وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كَانَتْ فِي الْأَرْضِ الْمُقَدَّسَةِ امْرُؤًا بِدْخُولِهَا وَقَتَالَ أَهْلِهَا مِنَ الْعَمَالِقَةِ وَإِخْرَاجِهِمْ مِنْهَا فَتَمَرَّدُوا عَنِ الْأَمْرِ، وَرَدُّوا عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فَابْتَلَوْا بِالنِّيبَةِ، وَالْقِصَّةُ مَذْكُورَةٌ فِي سُورَةِ الْمَائِدَةِ آيَةَ ٢٠-٢٦.

وقوله: وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا ۗ الْآيَةَ تَقْدِمُ الْكَلَامَ فِي نَظِيرِهِ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ آيَةَ ٥٨-٥٩، وَقَوْلُهُ: «سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ» فِي مَوْضِعِ الْجَوَابِ عَنْ سُؤَالِ مُقَدَّرٍ كَأَنَّهُ لَمَّا قَالَ: «نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ» قِيلَ: ثُمَّ مَاذَا فَقَالَ: «سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ».

قوله تعالى: وَ سَيُؤْتُهُمُ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ أَي سَأَلَ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْ حَالِ أَهْلِ الْقَرْيَةِ: «الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ» أَي قَرْيَةٍ مِنْهُ مَشْرُفَةٌ عَلَيْهِ مِنْ حَضْرَةِ الْأَمْرِ إِذَا أَشْرَفَ عَلَيْهِ وَ شَهِدَهُ «إِذْ يَعْدُونَ» وَ يَتَجَاوَزُونَ حُدُودَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ فِي أَمْرِ «السَّبْتِ» وَ تَعْظِيمِهِ وَ تَرْكِ الصَّيْدِ فِيهِ «إِذْ تَأْتِيهِمْ حَيَاتَانُهُمْ» وَ السَّمَكُ الَّذِي فِي نَاحِيَتِهِمْ «يَوْمَ سَيَأْتِيهِمْ شُرْعًا» جَمْعُ شَارِعٍ وَ هُوَ الظَّاهِرُ الْبَيِّنُ «وَ يَوْمَ لَا يَسْتَيْتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ» أَي إِنْ تَجَاوَزَهُمْ عَنْ حُدُودِ مَا أَمَرَ بِهِ اللَّهُ كَانَ إِذْ كَانَتِ الْحَيَاتَانُ تَأْتِيهِمْ شُرْعًا يَوْمَ مَنَعُوا مِنَ الصَّيْدِ وَ أَمَرُوا بِالسَّبْتِ، وَ أَمَّا إِذَا مَضَى الْيَوْمُ وَ أُبِيحَ لَهُمُ الصَّيْدُ وَ ذَلِكَ غَيْرُ يَوْمِ السَّبْتِ فَكَانَ لَا تَأْتِيهِمُ الْحَيَاتَانُ وَ كَانَ ذَلِكَ مِنْ بَلَاءِ اللَّهِ وَ أُبِيحَ لَهُمُ الصَّيْدُ وَ ذَلِكَ غَيْرُ يَوْمِ السَّبْتِ فَكَانَ لَا تَأْتِيهِمُ الْحَيَاتَانُ وَ كَانَ ذَلِكَ مِنْ بَلَاءِ اللَّهِ وَ امْتِحَانُهُ ابْتِلَاءُهُمْ بِذَلِكَ لِشَيْعِ الْفَسْقِ بَيْنَهُمْ فَبَعَثَهُمُ الْحَرَضُ عَلَى صَيْدِهَا عَلَى مَخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ لَمْ يَمْنَعَهُمْ تَقْوَى عَنِ التَّعَدَى، وَ لِذَلِكَ قَالَ: «كَذَلِكَ نَبَلُّوهُمْ» أَي نَمْتَحِنُهُمْ «بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ» .

قوله تعالى: وَإِذْ قَالَتْ أُمَّهُ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ إِنَّمَا قَالَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ مَا قَالَتْ، لِأَنَّ أُخْرَى مِنْهُمْ كَانَتْ تَعْظُهُمْ وَ تَنْهَاهُمْ عَنْ مَخَالَفَةِ أَمْرِ اللَّهِ فِي السَّبْتِ.

فالتقدير: «وَ إِذْ قَالَتْ أُمَّهُ مِنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مَعِدِّبُهُمْ» عَذَابًا شَدِيدًا» أَنَّهُمْ كَانُوا أَهْلَ تَقْوَى يَجْتَنِبُونَ مَخَالَفَةَ الْأَمْرِ إِلَّا أَنَّهُمْ تَرَكَوا نَهْيَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ فَخَالَطُوهُمْ وَ عَاشَرُوهُمْ وَ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ اللَّائِمُونَ مِنَ الْمُتَعَدِينَ الْفَاسِقِينَ لَوْعَظَهُمْ أَوْلَيْكَ الْمَلُومُونَ، وَ لَمْ يَجِيبُوهُمْ بِمِثْلِ قَوْلِهِمْ: مَعَذْرَةُ إِلَى رَبِّكُمْ، الْخ؛ وَ أَنَّ الْمُتَعَدِينَ طَغَوْا فِي تَعْدِيهِمْ وَ تَجَاهَرُوا فِي فَسْقِهِمْ فَلَمْ يَكُونُوا لِيَنْتَهَوْا بِنَهْيِ ظَاهِرِهَا غَيْرَ أَنَّ الْأُمَّةَ الَّتِي كَانَتْ تَعْظُهُمْ لَمْ يَأْسُوا مِنْ تَأْثِيرِ الْعِظَةِ فِيهِمْ، وَ كَانُوا يَرْجُونَ مِنْهُمْ الْإِنْتِهَاءَ لَوْ اسْتَمَرُّوا فِي عِظَتِهِمْ، وَ لَا أَقْلَ مِنْ انْتِهَاءِ بَعْضِهِمْ وَ لَوْ بَعْضُ الْإِنْتِهَاءِ، وَ لِيَكُونَ ذَلِكَ مَعَذْرَةً مِنْهُمْ

الى الله سبحانه بإظهار أنهم غير موافقين لهم فى فسقهم منزجرون عن طغيانهم بالتمرد.

و لذلك أجابوا عن قولهم: «لِمَ تَعْظُونَ» الخ؛ بقولهم «مَعِيدَةٌ إِلَيْنَا رَبُّكُمْ وَ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ» أى إنما نعظهم ليكون ذلك عذرا الى ربكم، ولأننا نرجو منهم أن يتقوا هذا العمل.

و فى قولهم: إِلَيْنَا رَبُّكُمْ حيث أضافوا الرب الى اللائمين و لم يقولوا: الى ربنا إشاره الى أن التكليف بالعظه ليس مختصا بنا بل أنتم أيضا مثلنا يجب عليكم أن تعظوهم لأن ربكم لمكان ربوبيته يجب أن يعتذر إليه، و يبذل الجهد فى فراغ الذمه من تكاليفه و الوظائف التى أحالها الى عباده، و أنتم مربوبون له كما نحن مربوبون فعليكم من التكاليف ما هو علينا.

قوله تعالى: فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ المراد بنسيانهم ما ذكروا انقطاع تأثير الذكر فى نفوسهم و إن كانوا ذاكرين لنفس التذكر حقيقه فإنما الأخذ الإلهى مسبب عن الاستهانه بأمره و الإعراض عن ذكره، بل حقيقه النسيان بحسب الطبع مانع عن فعلية التكليف و حلول العقوبه.

فالإنسان يطوف عليه طائف من توفيق الله يذكره بتكاليف هامه إلهيه ثم إن استقام و ثبت، و إن ترك الاستقامه و لم يزجره زاجر باطنى و لا-ردعه رادع نفسانى عدا حدود الله بالمعصيه غير أنه فى بادئ أمره يتألم تألما باطنيا و يتحرج تحرجا قلبيا من ذلك ثم اذا عاد إليها ثانيا من غير توبه زادت صوره المعصيه فى نفسه تمكنا، و ضعف أثر التذكير و هان أمره، و كلما عاد إليها و تكررت منه المخالفه زادت تلك قوه و هذه ضعفا حتى يزول أثر التذكير من أصله، ساوى وجوده عدمه فلحق بالنسيان فى عدم التأثير، و هو المراد بقوله «فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا» أى زال أثره كأنه منسى زائل، الصورة عن النفس.

و فى الآيه دلالة على أن الناجين كانوا هم الناهين عن السوء فقط، و قد أخذ الله الباقين، و هم الذين يعدون فى السبب و الذين قالوا: «لِمَ تَعْظُونَ» الخ.

و فيه دلالة على أن اللائمين كانوا مشاركين للعادين فى ظلمهم و فسقهم حيث تركوا عظمتهم

و لم يهجرهم.

و فى الآيه دلاله على سنّه إلهيه عامه، و هى أن عدم ردع الظالمين عن ظلمهم بمنع، و عظه إن لم يمكن المنع أو هجره إن لم تمكن العظه أو بطل تأثيرها، مشاركه معهم فى ظلمهم، و أن الأخذ الإلهى الشديد كما يرصد الظالمين كذلك يرصد مشاركيهم فى ظلمهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَنِّ نُّهُوا عَنْهُ قُلُوبُهُمْ كُتُوبًا قِرْدَةً خَاسِيَةً﴾ العتو المبالغه فى المعصيه و القرده جمع القرد و هو الحيوان المعروف، و الخاسئ الطريد البعيد من خسأ الكلب اذا بعد.

و قوله: ﴿فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَنِّ نُّهُوا عَنْهُ﴾ أى عن ترك ما نهوا عنه فإن العتو إنما يكون عن ترك المنهيات لا عن نفسها، و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: ﴿وَ إِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لِيُبَعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْفِيءِ﴾ الى آخر الآيه؛ تأذن و أذن بمعنى أعلم، و اللام فى قوله: ﴿لِيُبَعَثَنَّ﴾ للقسم، و المعنى: و اذكر اذ أعلم ربك أنه قد أقسم لبعثن على هؤلاء الظالمين بعثا يدون عليهم ما دامت الدنيا من يذيقهم و يولّهم سوء العذاب.

و قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ معناه أن من عقابه ما يسرع الى الناس كعقاب الطاغى لطغيانه، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ - الى أن قال - إِنَّ رَبَّكَ لَبَالِغُ الْمَضَادِ﴾ (الفجر ١٤) و الدليل على ما فسرنا به قوله بعده: ﴿وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ فإن الظاهر أنه لم يؤت به إلا للدلاله على أنه تعالى ليس بسرّيع العقاب دائما و إلا فمضمون الآيه ليس مما يناسب التذليل باسمى الغفور و الرحيم لتمحضه فى معنى المؤاخذه و الانتقام فمعنى قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ أنه تعالى غفور للذنوب رحيم بعباده لكنه اذا قضى لبعض عباده بالعقاب لاستيجابهم ذلك بطغيان و عتو و نحو ذلك فسرعان ما يتبعهم اذ لا مانع يمنع عنه و لا عائق يعوقه.

ص: ٥٩٦

و لعل هذا هو معنى قول بعضهم: إن معنى قوله: «إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ» سريع العقاب لمن شاء أن يعاقبه في الدنيا، وإن كان الأنسب أن يقال: إن ذلك معنى قوله: «إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَ إِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ»، و يرتفع به ما يمكن أن يتوهم أن كونه تعالى سريع العقاب ينافي كونه حليما لا يسرع الى المؤاخذة.

قوله تعالى: وَ قَطَّعْنَا لَهُمُ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِنْهُمْ الصَّالِحِينَ الى آخر الآية؛ قال: في المجمع: دون في موضع الرفع بالابتداء، و لكنه جاء منصوبا لتمكنه في الظرفية، و مثله على قول أبي الحسن: «لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ» هو في موضع الرفع فجاء منصوبا لهذا المعنى، و كذلك في قوله: «يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ» بين في موضع رفع لقيامه مقام الفاعل، و إن شئت كان التقدير: و منهم جماعة دون ذلك فحذف الموصوف و قامت صفته مقامه. انتهى.

و المراد بالحسنات و السيئات نعماء الدنيا و ضرأءها و الباقي ظاهر.

قوله تعالى: فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ وَرثُوا الْكِتَابَ الى آخر الآية، العرض ما لا- ثبات له، و منه قوله تعالى: عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا (النساء/٩٤) أى ما لا ثبات له من شئونها، و المراد بعرض هذا الأدنى عرض هذه الحياه الدنيا و الدار العاجله غير أنه أشير إليها بلفظ التذكير لأخذها شيئا ليس له من الخصوصيات إلا أن يشار إليه تجاهلا بخصوصياتها تحقيرا لشأنها كأنها لا يخص بنعت من النعوت يرغب فيها، و قد تقدم نظيره في قول إبراهيم عليه السلام على ما حكاه الله: هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ (الأنعام/٧٨) يريد الشمس.

و قوله: وَ يَقُولُونَ سَيُعَذِّبُنَا قول جزافي لهم قالوه، و لا معول لهم فيه إلا الاغترار بشعبهم الذى سمّوه شعب الله كما سموا أنفسهم أبناء الله و أحببأءه، و لم يقولوا ذلك لوعده النفس بالتوبه لأن ذلك قيد لا يدل عليه الكلام، و لا أنهم قالوا ذلك رجاء للمغفره الإلهيه فإن للرجاء آثارا لا تلائم هذه المشيئه اذ رجاء الخير لا ينفك عن خوف الشر الذى يقابله و كما أن الرجاء يستدعى شيئا من ثبات النفس و طيبها كذلك الخوف يوجب قلق النفس و اضطرابها

و مساءتها فأيه الرجاء الصادق توسط النفس بين سكون و اضطراب، و جذب و دفع، و مسره و مساءه، و أما من توغل في شهوات نفسه و انغمر في لذائذ الدنيا من غير أن يتذكر بعقوبه ما يجنيه و يتقرفه ثم اذا رده رادع من نفسه أو غيره بما أوعده الله الظالمين، و ذكره شيئا من سوء عاقبه المجرمين قال: إن الله غفور رحيم يتخلص به من اللوم، و يخلص به الى صافى لذائذه الدنيه فليس ما يتظاهر به رجاء صادقا بل أمنيه نفسانيه كاذبه، و تسويل شيطاني موبق فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا و لا يشرك بعباده ربه أحدا.

و قوله: **وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ** أى لم يقنعوا بما أخذوه من العرض بمره حتى يكون تركهم ذلك و رجوعهم الى اتقاء محارم الله نحو من التوبه، و قولهم: **«سَيُغْفَرُ لَنَا»** نوعا من الرجاء يتلبس به النائبون بل كلما وجدوا شيئا من عرض الدنيا أخذوه من غير أن يراقبوا الله تعالى فيه فالجمله أعنى قوله: **«وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ»** فى معنى قوله تعالى فى وصفهم فى موضع آخر: **«كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ»** (المائدہ ۷۹).

و قوله: **وَ دَرَسُوا** فيه كأن الواو للحال، و الجمله حال عن ضمير **«عَلَيْهِمْ»** و قيل الجمله معطوفه على قوله: **«وَرِثُوا الْكِتَابَ»** فى صدر الآيه، و لا يخلو من بعد.

و المعنى: **«فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ»** أى من بعد هؤلاء الأسلاف من بنى إسرائيل و حالهم فى تقوى الله و اجتناب محارمه ما وصف: **«خَلَفُ وَرِثُوا الْكِتَابَ»** و تحملوا ما فيه من المعارف و الأحكام و المواعظ و العبر، و كان لازمه أن يتقوا و يختاروا الدار الآخرة، و يتركوا أعراض الدنيا الفانيه الصارفه عما عند الله من الثواب الدائم **«يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى»** و ينكبون على اللذائذ الفانيه العاجله، و لا يبالون بالمعصيه و إن كثرت **«وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا»** قولا بغير الحق و لا يرجعون عن المعصيه بالمره و المرتين بل هم على قصد العود إليها كلما أمكن **«وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ»** و لا يتناهون عما اقترفوه من المعصيه.

«أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ» و هو الميثاق المأخوذ عليهم عند حملهم إياه **«أَنْ لَا**

يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ» و الحال أنهم درسوا ما فيه، و علموا بذلك أن قولهم: «سَيُغْفَرُ لَنَا» قول بغير الحق ليس لهم أن يتفوهوا به، و هو يجزئهم على معاصي الله و هدم أركان دينه. «و» الحال أن «الذَّارُ الْآخِرَهُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ» لدوام ثوابها و أمنها من كل مكروه «أَفَلَا تَعْقِلُونَ» .

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُضِلِّينَ قال في المجمع: أمسك و مسك و تمسك و استمسك بالشىء بمعنى واحد أى اعتصم به. انتهى.

و تخصيص إقامه الصلاه بالذكر من بين سائر أجزاء الدين لشرفها و كونها ركنا من الدين يحفظ بها ذكر الله و الخضوع الى مقامه الذى هو بمنزله الروح الحيه فى هيكل الشرائع الدينيه.

و الآيه تعدد التمسك بالكتاب اصلاحا و الإصلاح يقابل الإفساد و هو الإفساد فى الأرض أو إفساد المجتمع البشرى فيها، و لا تفسد الأرض و لا المجتمع البشرى إلا بإفساد طريقه الفطره التى فطر الله الناس عليها، و الدين الذى يشتمل عليه الكتاب الإلهى النازل فى عصر من الأعصار هو المتضمن لطرق الفطره بحسب ما يستدعيه استعداد أهله فإن الله سبحانه يذكر فى كلامه أن الدين القيم الذى يقوم بحوائج الحياه هى الفطره التى فطر الناس عليها، و الخلقه التى لا حقيقه لهم وراءها قال: فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (الروم ٣٠) ثم قال: إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ (آل عمران ١٩) و الإسلام هو التسليم لله سبحانه فى سنته الجاربه فى تكوينه المبتنيه عليها تشريعه.

و الآيه أعنى قوله: «وَ الَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ» الآيه فى نفسها عامه مستقله لكنها بحسب دخولها فى سياق الكلام فى بنى إسرائيل معتنيه بشأنهم، و المراد بالكتاب بهذا النظر التوراه أو هى و الإنجيل.

قوله تعالى: وَإِذْ تَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ آتِيَةٌ؛ النطق قلع الشيء من أصله، والظلمه هي الغمامه، وما يستظل بها من نحو السقف، والباقي ظاهر.

والآيه تقصّ رفع الطور فوق رءوس بنى إسرائيل، وقد تقدمت هذه القصة مكرره فى سورتي البقره والنساء (١).

[سوره الاعراف (٧): الآيات ١٧٢ الى ١٧٤]

اشاره

وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤)

بيان:

قوله تعالى: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَخَذَ الشىء من الشىء يوجب انفصال المأخوذ من المأخوذ منه واستقلاله دونه بنحو من الأنحاء، وهو يختلف باختلاف العنايات المتعلقة بها والاعتبارات المأخوذه فيها كأخذ اللقمه من الطعام وأخذ الجرعه من ماء القدح وهو نوع من الأخذ، وأخذ المال والأثاث من زيد الغاصب أو الجواد أو البائع أو

ص: ٦٠٠

١- ١). الاعراف ١٦١-١٧١: بحث روائى فى طائفه من بنى اسرائيل و موضوع صيد الحيتان؛ نزول العذاب الالهى على بنى اسرائيل و نجاه الناهين عن المنكر؛ نزول التوراه و عدم ايمان بنى اسرائيل.

المعير و هو نوع آخر، أو أنواع مختلفه اخرى، و كأخذ العلم من العالم و أخذ الالهيه من المجلس و أخذ الحظ من لقاء الصديق و هو نوع و أخذ الولد من والده للتربيه و هو نوع الى غير ذلك.

فمجرد ذكر الأخذ من الشيء لا يوضح نوعه إلا ببيان زائد، و لذلك أضاف الله سبحانه إلى قوله: «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ» الدال على تفريقهم و تفصيل بعضهم من بعض، قوله «مِنْ ظُهُورِهِمْ» ليدل على نوع الفصل و الأخذ، و هو أخذ بعض الماده منها بحيث لا- تنقص الماده المأخوذه منها بحسب صورتها و لا- تنقلب عن تمامها و استقلالها ثم تكميل الجزء المأخوذ شيئاً تاماً مستقلاً من نوع المأخوذ منه فيؤخذ الولد من ظهر من يلبده و يولده، و قد كان جزء ثم يجعل بعد الأخذ و الفصل إنساناً تاماً مستقلاً من والديه بعد ما كان جزء منهما.

ثم يؤخذ من ظهر هذا المأخوذ مأخوذ آخر و على هذه الوتيره حتى يتم الأخذ و يفصل كل جزء عما كان جزء منه، و يتفرق الأناسى و ينتشر الأفراد و قد استقل كل منهم عن سواه و يكون لكل واحد منهم نفس مستقلة لها ما لها و عليها ما عليها، فهذا مفاد قوله «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» و لو قال: أخذ ربك من بنى آدم ذريتهم أو نشرهم و نحو ذلك بقى المعنى على إبهامه.

و قوله: «وَ أَشْهَدُهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ» ينبئ عن فعل آخر إلهى تعلق بهم بعد ما أخذ بعضهم من بعض و فصل بين كل واحد منهم و غيره و هو إشهدهم على أنفسهم، و الإشهد على الشيء هو إحضار الشاهد عنده و إراءته حقيقته ليتحملة علماً تحملاً- شهودياً فإشهدهم على أنفسهم هو إراءتهم حقيقه أنفسهم ليتحملوا ما اريد تحملمهم من أمرها ثم يؤدوا ما تحمלוه اذا سئلوا.

و للنفس فى كل ذى نفس جهات من التعلق و الارتباط بغيرها يمكن أن يستشهد الإنسان على بعضها دون بعض غير أن قوله: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» يوضح ما أشهدوا لأجله و اريد شهادتهم عليه، و هو أن يشهدوا ربوبيته سبحانه لهم فيؤدوها عند المسأله.

فالإنسان و إن بلغ من الكبر و الخيلاء ما بلغ، و غرته مساعده الأسباب ما غرته و استهوته لا يسعه أن ينكر أنه لا يملك وجود نفسه و لا يستقل بتدبير أمره، و لو ملك نفسه لوقاها مما يكرهه من الموت و سائر آلام الحياه و مصائبها، و لو استقل بتدبير أمره لم يفتقر إلى الخضوع قبال الأسباب الكونيه، و الوسائل التي يرى لنفسه أنه يسودها و يحكم فيها ثم هي كالإنسان في الحاجه الى ما وراءها، و الانقياد الى حاكم غائب عنها يحكم فيها لها أو عليها، و ليس الى الإنسان أن يسد خلتها و يرفع حاجتها.

فالحاجه الى رب-مالك مدبر-حقيقه الإنسان، و الفقر مكتوب على نفسه، و الضعف مطبوع على ناصيته، لا- يخفى ذلك على إنسان له أدنى الشعور الإنساني، و العالم و الجاهل و الصغير و الكبير و الشريف الوضيع في ذلك سواء.

فالإنسان في أى منزل من منازل الإنسانيه نزل يشاهد من نفسه أن له ربا يملكه و يدبر أمره، و كيف لا يشاهد ربه و هو يشاهد حاجته الذاتيه؟ و كيف يتصور وقوع الشعور بالحاجه من غير شعور بالذى يحتاج إليه؟ فقله: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» بيان ما أشهد عليه، و قوله: «قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا» اعتراف منهم بوقوع الشهاده و ما شهدوه، و لذا قيل: إن الآيه تشير الى ما يشاهده الإنسان في حياته الدنيا أنه محتاج في جميع جهات حياته من وجوه و ما يتعلق به وجوده من اللوازم و الأحكام، و معنى الآيه أنا خلقنا بنى آدم في الأرض و فرقناهم و ميزنا بعضهم من بعض بالتناسل و التوالد، و أوقفناهم على احتياجاتهم و مربوبيتهم لنا فاعترفوا بذلك قائلين: بلى شهدنا أنك ربنا.

و على هذا يكون قولهم: «بَلَىٰ شَهِدْنَا» من قبيل القول بلسان الحال أو إسناد اللانزم القول الى القائل بالملزوم حيث اعترفوا بحاجاتهم و لزمه الاعتراف بمن يحتاجون إليه، و الفرق بين لسان الحال، و القول بلانزم القول: أن الأول انكشاف المعنى عن الشيء لدلاله صفه من صفاته و حال من أحواله عليه سواء شعر به أم لا كما تفصح آثار الديار الخربه عن حال ساكنيها،

و كيف لعب الدهر بهم؟ و عدت عاديه الأيام عليهم؟ فأسكنت اجراسهم و أخدمت أنفاسهم، و كما يتكلم سيماء البائس المسكين عن فقره و مسكنته و سوء حاله. و الثانى انكشاف المعنى عن القائل لقوله بما يستلزمه أو تكلمه بما يدل عليه بالالتزام.

فعلى أحد هذين النوعين من القول أعنى القول بلسان الحال و القول بالاستلزام يحمل اعترافهم المحكى بقوله تعالى: «قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا» و الأول أقرب و أنسب فإنه لا يكتفى فى مقام الشهاده إلا بالصريح منها المدلول عليه بالمطابقه دون الالتزام.

و من المعلوم أن هذه الشهاده على أى نحو تحققت فهى من سنخ الاستشهاد المذكور فى قوله: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» فالظاهر أنه قد استوفى الجواب بعين اللسان الذى سألهم به، و لذلك كان هناك نحو ثالث يمكن أن يحمل عليه هذه المسأله و المجاوبه فإن الكلام الإلهى يكشف به عن المقاصد الإلهيه بالفعل، و الإيجاد كلام حقيقى - و إن كان بنحو التحليل - كما تقدم مرارا فى مباحثنا السابقه فليكن هنا قوله: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» و قولهم: «بَلَىٰ شَهِدْنَا» من ذاك القبيل، و سيجىء للكلام تتمه.

و كيف كان فقوله: «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ» الآيه يدل على تفصيل بنى آدم بعضهم من بعض، و إشهاد كل واحد منهم على نفسه، و أخذ الاعتراف على الربوبيه منه، و يدل ذيل الآيه و ما يتلوه أعنى قوله: «أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ» على الغرض من هذا الأخذ و الإشهاد.

و هو على ما يفيدته السياق إبطال حجتين للعباد على الله و بيان أنه لو لا هذا الأخذ و الإشهاد و أخذ الميثاق على انحصار الربوبيه كان للعباد أن يتمسكوا يوم القيامه بإحدى حجتين يدفعون بها تمام الحجه عليهم فى شركهم بالله و القضاء بالنار، على ذلك من الله سبحانه.

و التدبر فى الآيتين و قد عطفت إحدى الحجتين على الأخرى بأو الترديديه، و بنيت الحجتان جميعا على العلم اللازم للإشهاد، و نقلتا جميعا عن بنى آدم المأخوذين المفرقين يعطى أن الحجتين كل واحده منهما مبنيه على تقدير من تقديرى عدم الإشهاد كذلك.

و المراد أنا أخذنا ذريتهم من ظهورهم و أشهدناهم على أنفسهم فاعترفوا ربوبيتنا فتمت لنا الحجه عليهم يوم القيامه، و لو لم نفعل هذا و لم نشهد كل فرد منهم على نفسه بعد أخذه فإن كنا أهملنا الإشهاد من رأس فلم يشهد أحد نفسه و أن الله ربه، و لم يعلم به لأقاموا جميعا الحجه علينا يوم القيامه بأنهم كانوا غافلين فى الدنيا عن ربوبيتنا، و لا تكليف على غافل و لا مؤاخذه، و هو قوله تعالى: «أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ» .

و إن كنا لم نهمل أمر الإشهاد من رأس، و أشهدنا بعضهم على أنفسهم دون بعض بأن أشهدنا الآباء على هذا الأمر الهام العظيم دون ذرياتهم ثم أشرك الجميع كان شرك الآباء شركا عن علم بأن الله هو الرب لا رب غيره فكانت معصيه منهم، و أما الذريه فإنما كان شركهم بمجرد التقليد فيما لا سبيل لهم الى العلم به لا إجمالا و لا تفصيلا، و متابعه عمليه محضه لآبائهم فكان آباؤهم هم المشركون بالله العاصون فى شركهم لعلمهم بحقيقه الأمر، و قد قادوا ذريتهم الضعاف فى سبيل شركهم بتربيتهم عليه و تلقينهم ذلك، و لا سبيل لهم الى العلم بحقيقه الأمر و إدراك ضلال آبائهم و إضلالهم إياهم، فكانت الحجه لهؤلاء الذريه على الله يوم القيامه لأن الذين أشركوا أو عصوا بذلك و أبطلوا الحق هم الآباء فهم المستحقين للمؤاخذه، و الفعل فعلهم، و أما الذريه فلم يعرفوا حقا حتى يؤمروا به فيعصوا بمخالفته فهم لم يعصوا شيئا و لم يبطلوا حقا، و حينئذ لم تتم حجه على الذريه فلم تتم الحجه على جميع بنى آدم، و هذا معنى

رجعنا الى الآيه:

قوله: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ أَى و اذكر لأهل الكتاب فى تميم البيان السابق أو و اذكر للناس فى بيان ما نزلت السوره لأجل بيانه و هو أن لله عهدا على الإنسان و هو سائله عنه و أن أكثر الناس لا يفون به و قد تمت عليهم الحجه.

أذكر لهم موطننا قبل الدنيا أخذ فيه ربك «مِن بَنَى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» فما من أحد منهم إلا استقل من غيره و تميز منه فاجتمعوا هناك جميعا و هم فرادى فأراهم ذواتهم المتعلقة بربهم «وَ أَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ» فلم يحتجوا عنه و عاينوا أنه ربهم كما أن كل شىء بفطرته يجد ربه من نفسه من غير أن يحتج عنه، و هو ظاهر الآيات القرآنيه كقوله «وَ إِن مِنْ شَىءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَ لَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ (الإسراء ٤٤)».

«أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» و هو خطاب حقيقى لهم لا- بيان حال و تكليم إلهى لهم فإنهم يفهمون مما يشاهدون أن الله سبحانه يريد به منهم الاعتراف و إعطاء الموثق، و لا نعى بالكلام إلا ما يلحق للدلاله به على معنى مراد، و كذا الكلام فى قوله: «قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا»

و قوله: «أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ» الخطاب للمخاطبين بقوله: «أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ» القائلين: «بَلَىٰ شَهِدْنَا» فهم هناك يعاينون الإشهاد و التكليم من الله و التكلم بالاعتراف من أنفسهم، و إن كانوا فى نشأه الدنيا على غفله مما عدا المعرفه بالاستدلال، ثم اذا كان يوم البعث و انطوى بساط الدنيا، و انمحت هذه الشواغل و الحجب عادوا الى مشاهدتهم و معاينتهم، و ذكروا ما جرى بينهم و بين ربهم.

و يحتمل أن يكون الخطاب راجعا إلينا معاشر المخاطبين بالآيات أى إنما فعلنا بنى آدم

ص: ٦٠٥

ذلك حذر أن تقولوا أيها الناس يوم القيامة كذا و كذا،و الأول أقرب و يؤيده قراءه «أن يقولوا» بلفظ الغيبه.

و قوله: أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ هَذِهِ حجه الناس إن فرض الإشهاد و أخذ الميثاق من الآباء خاصه دون الذريه كما أن قوله: «أَنْ تَقُولُوا» الخ؛ حجه الناس إن ترك الجميع فلم يقع إشهاد و لا أخذ ميثاق من أحد منهم.

و من المعلوم أن لو فرض ترك الإشهاد و أخذ الميثاق فى تلك النشأه كان لازمه عدم تحقق المعرفه بالربوبيه فى هذه النشأه اذ لا- حجاب بينهم و بين ربهم فى تلك النشأه فلو فرض هناك علم منهم كان ذلك إشهادا و أخذ ميثاق،و أما هذه النشأه فالعلم فيها من وراء الحجاب و هو المعرفه من طريق الاستدلال.

فلو لم يقع هناك بالنسبه الى الذريه إشهاد و أخذ ميثاق كان لازمه فى هذه النشأه أن لا يكون لهم سبيل إلى معرفه الربوبيه فيها أصلا،و حينئذ لم يقع منهم معصيه شرك بل كان ذلك فعل آباءهم،و ليس لهم إلا التبعية العمليه لآبائهم و النشوء على شركهم من غير علم فصح لهم أن يقولوا:إنما أشرك آباؤنا من قبل و كنا ذريه من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون.

قوله تعالى: وَ كَذَلِكَ نَفْضُلُ آيَاتٍ وَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ تفصيل الآيات تفریق بعضها و تمييزه من بعض ليتبين بذلك مدلول كل منها و لا تختلط وجود دلالتها،و قوله «وَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ» عطف على مقدر،و التقدير:لغايات عاليه كذا و كذا و لعلهم يرجعون من الباطل الى الحق (١).

[سوره الاعراف (٧): الآيات ١٧٥ الى ١٧٩]

اشاره

وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَ لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْمَآرِضِ وَ اتَّبَعَ هِيَاةَ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَرَكَهُ يَلْهَثُ ذَلِكُمْ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْضِصْ الْقِصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) بِنَاءٍ مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَ أَنْفُسِهِمْ كَانُوا يَظْلُمُونَ (١٧٧) مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَ مَنْ يَضِلْ فَلْيَضِلْ فَاولئك هم الخاسرون (١٧٨) وَ لَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَ الْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا اولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون (١٧٩)

ص: ٦٠٦

(١ - ١). الاعراف ١٧٢-١٧٤: بحث روائى فى: عالم الذر، اشهاد بنى آدم على انفسهم؛ التوحيد.

قوله تعالى: وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا مَا يَعطيه السياق التلبس من الآيات الأنفسيه و الكرامات الخاصه الباطنيه بما يتنور به طريق معرفه الله له، و ينكشف له ما لا يبقى له معه ريب فى الحق و الانسلاخ خروج الشىء و انتزاعه من جلده، و هو كناية استعاريه عن أن الآيات كانت لزمته لزوم الجلد فخرج منها الخبث فى ذاته، و الاتباع كالتبع و الاتباع التعقيب و اقتفاء الأثر يقال: تبع و أتبع و اتبع، و الكل بمعنى واحد، و الغى و الغوايه هى الضلال، كأنه لخروج من الطريق للقصور عن حفظ المقصد الذى يوصل إليه الطريق ففيه نسيان المقصد و الغايه،

فالمتحير في أمره و هو في الطريق غوى، والخارج عن الطريق و هو ذاكر لمقصده ضال، و هو الأنسب لمورد الآيه فإن صاحب النبأ بعد ما انسلخ عن آيات الله و أتبعه الشيطان غاب عنه سبيل الرشد فلم يتمكن من إنجاء نفسه عن ورطه الهلاك، و ربما استعمل كل من الغوايه و الضلاله في معنى واحد. و هو الخروج عن الطريق الموصل إلى الغايه.

و قد اختلف المفسرون في تعيين من هو صاحب النبأ في هذه الآيه على أقوال مختلفه سنشير الى جلها أو كلها في البحث الروائي الآتي إن شاء الله.

و الآيه- كما ترى- أبهمت اسمه و اقتصرت على الإشاره الى إجمال قصته لكنها مع ذلك ظاهره في أنه نبأ واقع لا مجرد تمثيل فلا وقع لقول من قال: إنها مجرد تمثيل من غير نبأ واقع.

و المعنى: «وَ اتُّلُّ عَلَيْهِمْ» أى على بنى إسرائيل أو على الناس خبرا عن أمر عظيم و هو «نَبَأًا» الرجل «الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا» و كشفنا لباطنه عن علائم و آثار إلهيه عظام يتنور له بها حق الأمر «فَانْسَلَخَ مِنْهَا» و رفضها بعد لزومها «فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ» فلم يقو على إنجاء نفسه من الهلاك.

قوله تعالى: «وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا» وَ لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ الْآيَةَ؛ الإخلاق اللزوم على الدوام، و الإخلاق الى الأرض اللصوق بها، و هو كناية عن الميل الى التمتع بالملاذ الدنيويه و التزامها، و اللهث من الكلب أن يدلح لسانه من العطش.

فقوله: «وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا» أى لو شئنا لرفعناه بتلك الآيات و قربناه إلينا لأن فى القرب الى الله ارتفاعا عن حضيض هذه الدنيا التى هى بمالها من اشتغال الإنسان بنفسها عن الله و آياته أسفل سافلين، و رفعه بتلك الآيات بما أنها أسباب إلهيه ظاهريه تفيد اهتداء من تلبس بها لكنها لا تحتم السعاده للإنسان لأن تمام تأثيرها فى ذلك منوط بمشيئه الله، و الله سبحانه لا يشاء ذلك لمن أعرض عنه و أقبل الى غيرها. و هى الحياه الأرضيه اللاهيه عن الله و دار كرامته فإن الإعراض عن الله سبحانه و تكذيب آياته ظلم، و قد حق القول منه سبحانه أنه لا

يهدى القوم الظالمين، وأن الذين كفروا و كذبوا بآياته أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون.

و لذلك عقب تعالى قوله: «وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا» بقوله: «لَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَوَاهُ» فالتقدير: لكننا لم نشأ ذلك لأنه أخلد الى الأرض و اتبع هواه و كان ذلك موردا لإضلالنا لا- لهدايتنا كما قال تعالى: وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ (إبراهيم ٢٧).

و قوله: فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ أى إنه ذو هذه السجية لا يتركها سواء زجرته و منعه أو تركته و «تَحْمِلُ» من الحمله لا من الحمل «ذلك مثل الذين كذبوا بآياتنا» فالتكذيب منهم سجيته و هيئته نفسانيه خبيثه لازمه فلا تزال آياتنا تتكرر على حواسهم و يتكرر التكذيب بها منهم «فَأَقْصَىٰ صِ الْأَقْصَىٰ» و هو مصدر أى اقصى قصصا أو اسم مصدر أى اقصى القصة «لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» فينقادوا للحق و ينتزعوا عن الباطل.

قوله تعالى: سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَ أَنْفُسِهِمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ ذم لهم من حيث وصفهم، و إعلام لهم أنهم لا يضررون شيئا فى تكذيب آياته بل ذلك ظلم منهم لأنفسهم اذ يستنصر بذلك غيرهم.

قوله تعالى: مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِى وَ مَنْ يُضِلِّمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ اللام فى «الْمُهْتَدِى» و «الْخَاسِرُونَ» يفيد الكمال دون الحصر ظاهرا، و مفاد الآيه أن مجرد الاهتداء الى شىء لا ينفع شيئا و لا يؤثر أثر الاهتداء إلا اذا كانت معه هدايه الله سبحانه فهى التى يكمل بها الاهتداء، و تتحتم معها السعادة، و كذلك مجرد الضلال لا يضر ضررا قطعيا إلا بانضمام إضلال الله سبحانه إليه فعند ذلك يتم أثره، و يتحتم الخسران.

فمجرد اتصال الإنسان بأسباب السعادة كظاهر الإيمان و التقوى و تلبسه بذلك لا يورده مورد النجاه، و كذلك اتصاله و تلبسه بأسباب الضلال لا يورده مورد الهلاك و الخسران إلا أن يشاء الله ذلك فيهدى بمشيئته من هدى، و يضل بها من أضل.

فيثول المعنى الى أن الهدايه إنما تكون هدايه حقيقه تترتب عليها آثارها اذا كان لله فيها مشيه،و إلا فهي صوره هدايه و ليست بها حقيقه،و كذلك الأمر في الإضلال،و إن شئت فقل:

إن الكلام يدل على حصر الهدايه الحقيقه في الله سبحانه،و كذلك الإضلال و لا يضل به إلا الفاسقين.

قوله تعالى: **وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِلَىٰ آخِرِ الْأَيَّهِ؛ الذرء هو الخلق،و قد عرف الله سبحانه جهنم غايه لخلق كثير من الجن و الإنس،و لا ينافى ذلك ما عرف في موضع آخر أن الغايه لخلق الخلق هي الرحمه و هي الجنه في الآخره كقوله تعالى: **إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَ لِمَذَلِكِ خَلَقَهُمْ (هود ١١٩)** فإن الغرض يختلف معناه بحسب كمال الفعل و نهايه الفعل التي ينتهى إليها.**

بيان ذلك أن النجار إذا أراد أن يصنع بابا عمد إلى أخشاب يهيئها له ثم هندسه فيها ثم شرع في النشر و النحت و الخراط حتى أتم الباب فكمال غرضه من إيقاع الفعل على تلك الخشبات هو حصول الباب لا غير،هذا من جهه و من جهه اخرى هو يعلم من أول الأمر أن جميع أجزاء تلك الخشبات ليست تصلح لأن تكون أجزاء للباب فإن للباب هيئه خاصه لا تجماع هيئه الخشبات،و لا بد في تغيير هيئتها من ضيعه بعض الأجزاء لخروجها عن هندسه العمل فصيوره هذه الأبعاد فضله يرمى بها داخله في قصد الصانع مراده له بإرادته تسمى قصدا ضروريا فللنجار في صنع الباب بالنسبه إلى الأخشاب التي بين يديه نوعان من الغايه:

أحدهما الغايه الكماليه و هي أن يصنع منها بابا،و الثانى الغايه التابعه و هي أن يصنع بعضها بابا و يجعل بعضها فضله لا ينتفع بها و ضيعه يرمى بها،و ذلك لعدم استعدادها لتلبس صوره الباب.

و كذا الزارع يزرع أرضا ليحصد قمحا فلا يخلص لذلك الى يوم الحصاد إلا بعض ما صرفه من البذر،و يذهب غيره سدى يضيع فى الأرض أو تفسده الهوام أو يخصفه المواشى و الجميع

مقصوده للزراع من وجهه، والمحصول من القمح مقصود من وجه آخر.

وقد تعلق المشيه الإلهيه أن يخلق من الأرض إنسانا سويا يعبده و يدخل بذلك فى رحمته، و اختلاف الاستعدادات المكتسبه من الحياه الدنيويه على ما لها من مختلف التأثيرات لا يدع كل فرد من أفراد هذا النوع أن يجرى فى مجراه الحقيقى و يسلك سبيل النجاه إلا- من وفق له، و عند ذلك تختلف الغايات و صحح أن لله سبحانه غايه فى خلقه الإنسان مثلا و هو أن يشملهم برحمته و يدخلهم جنته، و صحح أن لله غايه فى أهل الخسران و الشقاوه من هذا النوع و هو أن يدخلهم النار و قد كان خلقهم للجنه غير أن الغايه الاولى غايه أصليه كماليه، و الغايه الثانيه غايه تبعيه ضروريه، و القضاء الإلهى المتعلق بسعاده من سعد و شقاوه من شقى ناظر إلى هذا النوع الثانى من الغايه فإنه تعالى يعلم ما يثول إليه حال الخلق من سعاده أو شقاء فهو مرید لذلك بإرادته تبعيه لا أصليه.

و على هذا النوع من الغايه ينزل قوله تعالى: «وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ» و ما فى هذا المساق من الآيات الكريمه و هى كثيره.

و قوله: لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَ لَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَ لَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا إشاره الى بطلان استعدادهم للوقوع فى مجرى الرحمه الإلهيه، و الوقوف فى مهب النفحات الربانيه، فلا ينفعهم ما يشاهدونه من آيات الله، و ما يسمعونه من مواعظ أهل الحق، و ما تلقنه لهم فطرتهم من الحججه و البينه.

و لا يفسد عقل و لا عين و لا أذن فى عمله و قد خلقها الله لذلك، و قد قال: لَا تَبْدِيلَ لِحَلْقِ اللَّهِ (الروم ٣٠) إلا أن يكون الذى يغيره هو الله سبحانه فيكون من جملة الخلق لكنه سبحانه لا يغير ما انعمه على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، قال تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعَيَّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (الأنفال ٥٣).

فالذى أبطل ما عندهم من الاستعداد، و أفسد أعمال قلوبهم و أعينهم و آذانهم هو الله

سبحانه فعل بهم ما فعل جزاء بما كسبوا نكالا- فهم غيروا نعمه الله بتغيير طريق العبوديه فجازاهم الله بالطبع على قلوبهم فلا يفقهون بها،و جعل الغشاوه على أبصارهم فلا يبصرون بها،و الوقر على آذانهم فلا يسمعون بها فهذه آيه أنهم مسيرون إلى النار.

و قوله: **أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ نَتِيجَهُ مَا تَقْدَمُ،** و بيان لحالهم فإنهم فقدوا ما يتميز به الإنسان من سائر الحيوان، و هو تمييز الخير و الشر و النافع و الضار بالنسبه الى الحياه الإنسانيه السعيده من طريق السمع و البصر و الفؤاد.

و إنما شبهوا من بين الحيوان العجم بالأنعام من أن فيهم خصال السباع الضاربه و خصائصها كخصال الأنعام الراعيه، لأن التمتع بالأكل و السفاد أقدم و أسبق بالنسبه إلى الطبع الحيوانى فجلب النفع أقدم من دفع الضر، و ما فى الإنسان من القوى الدافعه الغضبيه مقصوده لأجل ما فيه من القوى الجاذبه الشهويه، و غرض النوع بحسب حياته الحيوانيه يتعلق أولا بالتغذى و التوليد، و يتحفظ على ذلك بإعمال القوى الدافعه فالآيه تجرى مجرى قوله تعالى: **وَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَ النَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ** (محمد/ ١٢).

و أما كونهم أكثر أو أشد ضلالا من الأنعام، و لازمه ثبوت ضلال ما فى الأنعام فلأن الضلال فى الأنعام نسبي غير حقيقى فإنها مهتديه بحسب ما لها من القوى المركبه الباعثه لها الى قصر الهمة فى الأكل و التمتع غير ضاله فيما هيئت لها من سعادته الحياه و لا مستحقه للذم فيما أخذت إليه، و إنما تعد ضاله بقياسها الى السعاده الإنسانيه التى ليست لها و لا جهزت بما تتوسل به إليها.

و أما هؤلاء المطبوع على قلوبهم و أعينهم و آذانهم فالسعاده سعادتهم و هم مجهزون بما يوصلهم إليها و يدلهم عليها من السمع و البصر و الفؤاد لكنهم أفسدوا و ضيعوا أعمالها و نزلوها منزله السمع و البصر و القلب التى فى الأنعام، و استعملوها فيما تستعملها فيه الأنعام و هو التمتع

من لذائذ البطن و الفرج فهم أكثر أو أشد ضلالا من الأنعام، وإليهم يعود الدم.

وقوله: **أُولَئِكَ هُمُ الْعَافُونَ** نتيجة و بيان حال اخرى لهم و هو أن حقيقه الغفله هي التي توجد عندهم فإنها بمشيئه الله سبحانه، ألبسها إياهم بالطبع الذي طبع به على قلوبهم و أعينهم و آذانهم و الغفله ماده كل ضلال و باطل (١).

[سوره الاعراف (٧): الآيات ١٨٠ الى ١٨٦]

اشاره

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) وَ مِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَ أُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَّا بَصَّحَبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (١٨٤) أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَّا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَ أَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَ يَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٨٦)

بيان:

قوله تعالى: **وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا** الاسم بحسب اللغة ما يدل به

ص: ٦١٣

(١- ١). الاعراف ١٧٥-١٧٩: بحث روائى فى: بلعم بن باعورا؛ طبع القلب.

على الشيء سواء أفاد مع ذلك معنى وصفيا كاللفظ الذي يشار به إلى الشيء لدلالته على معنى موجود فيه، أو لم يفد إلا الإشاره إلى الذات كزيد و عمرو و خاصة المرتجل من الأعلام، و توصيف الأسماء الحسنى-و هى مؤنث أحسن-يدل على أن المراد بها الأسماء التى فيها معنى وصفى دون ما لا دلالة لها إلا على الذات المتعالیه فقط لو كان بين أسمائه تعالى ما هو كذلك، و لا كل معنى وصفى، بل المعنى الوصفى الذى فيه شىء من الحسن، و لا كل معنى وصفى حسن بل ما كان أحسن بالنسبه الى غيره اذا اعتبرا مع الذات المتعالیه: فالشجاع و العفيف من الأسماء الحسنه لكنهما لا يليقان بساحه قدسه لإنبائهما عن خصوصيه جسمانيه لا يمكن سلبها عنهما، و لو أمكن لم يكن مانع عن إطلاقهما عليه كالجواد و العدل و الرحيم.

فكون اسم ما من أسمائه تعالى أحسن الأسماء أن يدل على معنى كمالى غير مخالط لنقص أو عدم، مخالطه لا يمكن معها تحرير المعنى من ذلك النقص و العدم و تصفيته، و ذلك فى كل ما يستلزم حاجه أو عدما و فقدا كالأجسام و الجسمانيات و الأفعال المستقبحة أو المستثنعه، و المعانى العدميه:

فهذه الأسماء بأجمعها محصول لغاتنا لم نضعها إلا- لمصاديقها فينا التى لا تخلو عن شوب الحاجه و النقص غير أن منها ما لا يمكن سلب جهات الحاجه و النقص عنها كالجسم و اللون و المقدار و غيرها، و منها ما يمكن فيه ذلك كالعلم و الحياه و القدره فالعلم فينا الإحاطه بالشىء من طريق أخذ صورته من الخارج بوسائل ماديه، و القدره فينا المنشئيه للفعل بكيفيه ماديه موجوده لعضلاتنا، و الحياه كوننا بحيث نعلم و نقدر بمالنا من وسائل العلم و القدره فهذه لا تليق بساحه قدسه غير أنا اذا جردنا معانيها عن خصوصيات ماده عاد العلم و هو الإحاطه بالشىء بحضوره عنده، و القدره هى المنشئيه للشىء بإيجاده، و الحياه كون الشىء بحيث يعلم و يقدر، و هذه لا مانع من إطلاقها عليه لأنها معان كماليه خاليه عن جهات النقص و الحاجه، و قد دل العقل و النقل أن كل صفه كماليه فهى له تعالى و هو المفيض لها على غيره من غير مثال

سابق فهو تعالى عالم قادر حى لكن لا كعلمنا و قدرتنا و حياتنا بل بما يليق بساحه قدسه من حقيقه هذه المعانى الكماليه مجردة عن النقائص.

و قد قدم الخبر فى قوله: «وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ» و هو يفيد الحصر، و جىء بالأسماء محلى باللام، و الجمع المحلى باللام يفيد العموم، و مقتضى ذلك أن كل اسم أحسن فى الوجود فهو لله سبحانه لا يشاركه فيه أحد، و إذ كان الله سبحانه ينسب بعض هذه المعانى إلى غيره و يسميه به كالعلم و الحياه و الخلق و الرحمه فالمراد بكونها لله كون حقيقتها له وحده لا شريك له.

و ظاهر الآيات بل نص بعضها يؤيد هذا المعنى كقوله: «أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا» (البقره / ١٦٥). و قوله: «فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا» (النساء / ١٣٩)، و قوله: «وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ» (البقره / ٢٥٥)، و قوله: «هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» (المؤمن / ٦٦) فله سبحانه حقيقه كل اسم أحسن لا يشاركه غيره إلا بما ملكهم منه كيفما أراد و شاء.

و يؤيد هذا المعنى ظاهر كلامه أينما ذكر أسماءه فى القرآن كقوله تعالى: «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ» (طه / ٨) و قوله: «قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ» (أسرى / ١١٠)، و قوله: «لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» (الحشر / ٢٤) فظاهر الآيات جميعا كون حقيقه كل اسم أحسن لله سبحانه وحده.

و ما احتمله بعضهم أن اللام فى «الْأَسْمَاءُ» للعهد مما لا دليل عليه و لا فى القرائن الحافه بالآيات ما يؤيده غير ما عهده القائل من الأخبار العاده للأسماء الحسنى، و سيجىء الكلام فيها فى البحث الروائى التالى إن شاء الله.

و قوله: «فَادْعُوهُ بِهَا» إما من الدعوه بمعنى التسميه كقولنا: دعوته زيدا و دعوتك أبا عبد الله أى سميته و سميتك، و إما من الدعوه بمعنى النداء أى نادوه بها فقولوا: يا رحمان يا رحيم و هكذا. أو من الدعوه بمعنى العباده أى فاعبدوه مدعين أنه متصف بما يدل عليه هذه الاسماء من الصفات الحسنه و المعانى الجميله.

وقد احتملوا جميع هذه المعاني غير أن كلامه تعالى في مواضع مختلفه يذكر فيها دعاء الربّ يؤيد هذا المعنى الأخير كما في الآيه السابقه: قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وقوله: وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَاخِرِينَ (المؤمن ٦٠) حيث ذكر أولا الدعاء ثم بدله ثانيا من العباده إيماء الى اتحادهما، وقوله: وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ (الأحقاف ١٦)، وقوله: هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ (المؤمن ٦٥) يريد إخلاص العباده.

و يؤيده ذيل الآيه: «وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» بظاهره فإنه لو كان المراد بالدعاء التسميه أو النداء دون العباده لكان الأنسب أن يقال: بما كانوا يصفون كما قال في موضع آخر: سَيُجْزِيهِمْ وَصَفَهُمْ (الأنعام ١٣٩).

فمعنى الآيه -و الله أعلم- و لله جميع الأسماء التي هي أحسن فاعبدوه و توجهوا إليه بها، و التسميه و النداء من لواحق العباده.

قوله تعالى: وَ ذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ الى آخر الآيه. اللحد و الإلحاد بمعنى واحد و هو التطرف و الميل عن الوسط إلى أحد الجانبين، و منه لحد القبر لكونه في جانبه بخلاف الضريح الذي في الوسط فقراءه يلحدون بفتح الياء من المجرد، و يلحدون بضم الياء من باب الإفعال بمعنى واحد، و نقل عن بعض اللغويين: أن اللحد بمعنى الميل إلى جانب، و الإلحاد بمعنى الجدل و المماراه.

و قوله: سَيُجْزَوْنَ الآيه؛ بالفصل لأنه بمنزله الجواب لسؤال مقدر كأنه لما قيل «وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ» قيل: إلى م يصير حالهم؟ فأجيب «سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» و للبحث في الأسماء الحسنی بقايا ستوافيك في كلام مستقل نوره بعد الفراغ عن

قوله تعالى: وَ مِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهٖ يَعْدِلُونَ قد مر بعض ما يتعلق به من الكلام فى قوله تعالى: وَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَ بِهٖ يَعْدِلُونَ (الآية ١٥٩/) من السوره و تختص هذه الآية بأنها لوقوعها فى سياق تقسيم الناس إلى ضال و مهتد، و بيان أن الملا-ك فى ذلك دعاؤه سبحانه بأحسن الأسماء اللاتقه بحضرتة و الإلحاد فى أسمائه، تدل على أن النوع الإنسانى يتضمن طائفه قليله أو كثيره مهتديه حقيقه إذ الكلام فى الاهتداء و الضلال الحقيقين المستندين إلى صنع الله، و من يهدى الله فهو المهتدى و من يضل فاولئك هم الخاسرون، و الاهتداء الحقيقى لا يكون إلا عن هدايه حقيقه، و هى التى لله سبحانه، و قد تقدم فى قوله تعالى: فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هَؤُلَاءِ فَقَدْ وَكَلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيَسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ (الأنعام ٨٩/)، و غيره أن الهدايه الحقيقه الإلهيه لا تتخلف عن مقتضاها بوجه و توجب العصمه من الضلال، كما أن التردد الواقع فى قوله تعالى: أَمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ (يونس ٣٥/). يدل على أن من يهدى إلى الحق يجب أن لا- يكون مهتديا بغيره إلا بالله فافهم ذلك.

و على هذا فإسناد الهدايه إلى هذه الامه لا يخلو عن الدلاله عن مصونيتهم من الضلال و اعتصامهم بالله من الزيغ إما بكون جميع هؤلاء المشار إليهم بقوله: «أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ» متصفين بهذه العصمه و الصيانه كالانبياء و الأوصياء، و إما بكون بعض هذه الأمم كذلك و توصيف الكل بوصف البعض نظير قوله تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَ الْحُكْمَ وَ النَّبُوَّةَ (الجاثيه ١٦/)، و قوله: وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكًا (المائدة ٢٠/)، و قوله: لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ (البقره ١٤٣/)، و إنما المتّصف بهذه المزاي بعضهم دون الجميع.

و المراد بالآيه- و الله أعلم- إنا لا- نأمركم بامر غير واقع أو خارج عن طوق البشر فإنّ ممّن خلقنا أمه متلبسه بالاهتداء الحقيقى هادين بالحق لأن الله كرمهم بهدايته الخاصه.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ كَذَبُوا بآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ الاستدراج الاستعداد أو الاستنزال درجة فدرجه، والاستدناء من أمر أو مكان، وقرينه المقام تدل على أن المراد به هنا الاستدناء من الهلاك إما في الدنيا أو في الآخرة.

و تقييد الاستدراج بكونه من حيث لا يعلمون للدلالة على أن هذا التقريب خفي غير ظاهر عليهم بل مستبطن فيما يتلهون فيه من مظاهر الحياه الماديه فلا يزالون يقتربون من الهلاك باشتداد مظالمهم فهو تجديد نعمه بعد نعمه حتى يصرفهم التلذذ بها عن التأمل في وبال أمرهم كما مر في قوله تعالى: ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا (الأعراف ٩٥)، وقال تعالى: لَا يَعْزُبُكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (آل عمران ١٩٧).

و من وجه آخر لما انقطع هؤلاء عن ذكر ربهم و كذبوا بآياته سلبوا اطمئنان القلوب و أمنها بالتشبث بذيل الأسباب التي من دون الله، و عذبوا باضطراب النفوس و قلق القلوب و قصور الأسباب و تراكم النوائب، و هم يظنون أنها الحياه ناسين معنى حقيقه الحياه السعيده فلا- يزالون يستزيدون من مهلكات زخارف الدنيا فيزدادون عذابا و هم يحسبونهم زياده في النعمه حتى يردوا عذاب الآخرة و هو أمر و أدهى، فهم يستدرجون في العذاب من لدن تكذيبهم بآيات ربهم حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون.

قال تعالى: أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (الرعد ٢٨)، و قال: وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا (طه ١٢٤)، و قال: فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ (التوبه ٥٥)، و هذا معنى آخر من الاستدراج لكن قوله تعالى بعده: «وَأْمَلَىٰ لَهُمْ» لا يلائم ذلك فالمتعين هو المعنى الأول.

قوله تعالى: وَ أْمَلَىٰ لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ الإملاء هو الإمهال، و قوله: «إِنَّ كَيْدِي

مَتِينٌ» تعليل لمجموع ما فى الآيتين، و فى قوله: «وَ أَمْلَى» بعد قوله: «سَسَّيْتَدْرِجُهُمْ» الآيه؛ التفات من التكلم مع الغير إلى التكلم وحده للدلاله على مزيد العناية بتحريمهم من الرحمه الإلهيه و إيرادهم مورد الهلكه.

و أيضا الإملاء هو إمهالهم إلى أجل مسمى. فيكون فى معنى قوله: «وَ لَوْ لَا كَلِمَهُ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ» (الشورى ١٤/)، و هذه الكلمه هى قوله لآدم عليه السّلام حين إهباطه إلى الأرض: «وَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ» (البقره ٣٦/). و هو القضاء الإلهي و القضاء مختص به تعالى لا يشاركه فيه غيره، و هذا بخلاف الاستدراج الذى هو إيصال النعمه بعد النعمه و تجديدها فإنها نعم إلهيه مفاضه بالوسائط من الملائكه و الأمر فلهذا السبب جىء فى الاستدراج بصيغه المتكلم مع الغير، و غير ذلك فى الإملاء و فى الكيد الذى هو أمر متحصل من الاستدراج و الإملاء الى لفظ المتكلم وحده.

قوله تعالى: «أَوْ لَمْ يَتَّفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ» فى تركيب الكلام اختلاف شديد بينهم، و الذى يستبق إلى الذهن من السياق أن يكون قوله «أَوْ لَمْ يَتَّفَكَّرُوا» كلاما تاما سيق للإنكار و التوبيخ ثم قوله: «مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ» الآيه كلاما آخر سيق لبيان صدق النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ فى دعواه النبوه، و هو يشير إلى ما يتفكرون فيه كأنه قيل: أَوْ لَمْ يَتَّفَكَّرُوا فى أنه ما بصاحبهم من جنه الآيه؛ حتى يتبين لهم ذلك؟ نعم، ما به من جنه إن هو إلا نذير مبين.

و التعبير عن النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ بصاحبهم للإشاره إلى ماده الاستدلال الفكرى فإنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ كان يصحبهم و يصحبونه طول حياته بينهم فلو كان به شىء من جنه لبان لهم ذلك البته فهو فيما جاء به نذير لا مجنون، و الجنه بناء نوع من الجنون على ما قيل و إن كان من الجائر أن يكون المراد به الفرد من الجن بناء على ما يزعمونه أنّ المجنون يحلّ فيه بعض الجنّ فيتكلم من فيه و بلسانه.

قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ؛ قد مر كرارا أن الملكوت في عرف القرآن على ما يظهر من قوله تعالى: إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسَيُبْحَنَ الَّذِي يَبْدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ (يس ٨٣) هو الوجه الباطن من الأشياء الذي يلي وجهه الرب تعالى، وأن النظر إلى هذا الوجه واليقين متلازمان كما يفهم من قوله: وَكَذَلِكَ نُرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَ لِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (الأنعام ٧٥).

فالمراد توبيخهم في الإعراض والانصراف عن الوجه الملكوتي للأشياء لم نسوه ولم ينظروا فيه حتى يتبين لهم أن ما يدعوههم إليه هو الحق؟

وقوله: وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ عَظْفَ عَلَى مَوْضِعِ السَّمَاوَاتِ، وقوله: «مِنْ شَيْءٍ» بيان لما الموصول، ومعنى الآية: لم ينظروا في خلق السماوات والأرض وأي شيء آخر مما خلقه الله؟ لكن لا من الوجه الذي يلي الأشياء حتى ينتج العلم بخواص الأشياء الطبيعية بل من وجهه أن وجوداتها غير مستقلة بنفسها مرتبطة بغيرها محتاجة إلى رب يدبر أمرها وأمر كل شيء، وهو رب العالمين.

وقوله: وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ عَظْفَ عَلَى قَوْلِهِ: «مَلَكُوتِ» الآية؛ لكونه في تأويل المفرد والتقدير: أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا فِي أَنَّهُ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ النَّظَرَ فِي هَذَا الْإِحْتِمَالِ رَبَّمَا صَرَفَهُمْ عَنِ التَّمَادِي عَلَى ضَلَالِهِمْ وَغِيهِمْ فَأَغْلَبَ مَا يَصْرِفُ الْإِنْسَانَ عَنِ الْإِشْتِغَالِ بِأَمْرِ الْآخِرَةِ، وَيُوجِّهُ وَجْهَهُ إِلَى الْإِغْتِرَارِ بِالدُّنْيَا نَسِيَانِ الْمَوْتِ الَّذِي لَا يَدْرِي مَتَى يَرِدُ رَائِدُهُ، وَأَمَّا إِذَا التَّفَتَ إِلَى ذَلِكَ وَشَاهَدَ جَهْلَهُ بِأَجَلِهِ وَأَنَّ مِنَ الْمَرْجُوِّ الْمَحْتَمَلِ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ يَقْطَعُ مَنَابِتَ الْغَفْلَةِ وَيَمْنَعُهُ عَنِ اتِّبَاعِ الْهَوَى وَطَوْلِ الْأَمَلِ.

وقوله: فَبِأَيِّ حَيْدٍ بَعِيدَةٍ يُؤْمِنُونَ الضمير للقرآن على ما يستدعيه السياق، وفي الكلام إثناس من إيمانهم بالمره أي إن لم يؤمنوا بالقرآن وهو تجليه سبحانه عليهم بكلامه

يكلّمهم بما يضطر عقولهم بقبوله من الحجج و البراهين و الموعظه الحسنه و هو مع ذلك معجزه باهره فلا يؤمنون بشيء آخر البته، و قد أخبر سبحانه أنه طبع على قلوبهم فلا- سبيل لهم إلى فقه القول و الإيمان بالحق، و لذلك عقبه بقوله في الآيه التاليه: «مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ» الآيه.

قوله تعالى: مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ العمه الحيره و التردد في الضلال أو عدم معرفه الحجه، و إنما لم يذكر ما يقابله و هو أن من يهدى فلا مضل له لأن الكلام مسوق لتعليل الآيه السابقه: «فَبِأَيِّ حَدِيثٍ» الآيه؛ كأنه قيل: لم لا يؤمنون بحديث البته؟ فقيل: لأن من يضل الله الآيه (١)(٢).

[سوره الاعراف (٧): الآيات ١٨٧ الى ١٨٨]

اشاره

يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَفْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَئِسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٧) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَ لَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَ مَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَ بَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨)

ص: ٦٢١

- ١- ١). الاعراف ١٨٠-١٨٦: كلام في الأسماء الحسنی في فصول (ما معنى الاسماء الحسنی، ما هو حد ما نصفه أو نسّميه به من الاسماء؟ الانقسامات التي لها، نسب الصفات و الأسماء إلینا، ما معنى الاسم الاعظم، عدد الاسماء الحسنی. هل اسماء الله توقيفيه؟
- ٢- ٢). الاعراف ١٨٠-١٨٦: بحث روائي في الاسماء الحسنی.

قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا - إلى قوله - إِلَّا هُوَ السَّاعَةَ سَاعَهُ الْبَعْثِ وَالرَّجُوعِ إِلَى اللَّهِ لِفَصْلِ الْقَضَاءِ الْعَامِ فَالْإِلَهِ لِلْعَهْدِ لَكِنَّهُ صَارَ فِي عَرَفِ الْقُرْآنِ وَالشَّرْعِ كَالْحَقِيقَةِ فِي هَذَا الْمَعْنَى.

والمرسى اسم زمان و مكان و مصدر ميمى من أرسيت الشيء إذا أثبتته، أى متى وقوعها و ثبوتها، و التجليه الكشف و الإظهار يقال جلاه فانجلى أى كشف عنه فانكشف.

فقوله: لَا يُجَلِّيهَا لَوْفِهَا إِلَّا هُوَ أَي لَا يَظْهَرُهَا وَلَا يَكْشِفُ عَنْهَا فِي وَقْتِهَا وَعِنْدَ وَقْعِهَا إِلَّا اللَّهُ سَبْحَانَهُ، وَ يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ ثَبُوتَهَا وَ جُودَهَا وَالْعِلْمُ بِهَا وَاحِدٌ أَي إِنَّهَا مَحْفُوظَةٌ فِي مَكْمَنِ الْغَيْبِ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى يَكْشِفُ عَنْهَا وَيَظْهَرُهَا مَتَى شَاءَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَحِيطَ بِهَا غَيْرُهُ سَبْحَانَهُ أَوْ يَظْهَرُ لَشَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَحِيطَ بِهَا شَيْءٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ أَوْ يَنْكَشِفُ عِنْدَهُ، وَ تَحَقُّقُهَا وَ ظُهُورُهَا يَلِازِمُ فَنَاءَ الْأَشْيَاءِ، وَ لَا شَيْءٍ مِنْهَا يَسْعَهُ أَنْ يَحِيطَ بِفَنَاءِ نَفْسِهِ أَوْ يَظْهَرُ لَهُ فَنَاءَ ذَاتِهِ، وَ النِّزَامُ السَّبَبِيُّ الْحَاكِمُ مِنَ الْكَوْنِ يَتَبَدَّلُ عِنْدَ وَقْعِهَا، وَ هَذَا الْعِلْمُ الَّذِي يَصْحَبُهَا مِنْ هَذَا النِّزَامِ.

و من هنا يظهر: أن المراد بقوله: «ثُقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» -و الله أعلم- ثقل علمها في السماوات و الأرض و هو بعينه ثقل وجودها فلا ثمره لاختلافهم في أن المراد بثقل الساعه فيها ثقل علمها عليها، أو المراد ثقل صفتها على أهل السماوات و الأرض لما فيها من الشدائد و العقاب و الحساب و الجزاء، أو ثقل وقوعها عليهم لما فيها من انطواء السماء و انتشار الكواكب و اجتماع الشمس و القمر و تسيير الجبال، أو أن السماوات و الأرض لا تطيق حملها لعظمتها و شدتها.

و ذلك أنها ثقيله بجميع ما يرجع إليها من ثبوتها و العلم بها و صفاتها على السماوات

و الأرض، و لا تطيق ظهورها لملازمته فناءها و الشيء لا يطيق فناء نفسه.

و من ذلك يظهر أيضا وجه قوله سبحانه: «لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَعْتُهُ» فإن البعته و الفجأه ظهور الشيء من غير أن يعلم به قبل ظهوره، و الساعه لتقلها لا يظهر وصف من أوصافها، و لا جزء من أجزائها قبل ظهورها النام، و لذلك كان ظهورها لجميع الأشياء بعته.

و من هنا أيضا يظهر معنى تتمه الآية: «يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ» الآية؛ على ما سيأتى.

قوله تعالى: «يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا» الى آخر الآية؛ قال الراغب: الحفى العالم بالشيء (انتهى) و كأنه مأخوذ من حفيت فى السؤال إذا ألححت، و قوله: «كَأَنَّكَ خَفِيٌّ» متخلل بين يسألونك و الظرف المتعلق به، و الاصل: يسألونك عنها كأنك حفى عالم بها، و هو يلوح الى أنهم كرروا السؤال و ألحوا عليه، و لذلك كرر السؤال و الجواب بوجه فى اللفظ.

ففى قوله ثانيا: «يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ خَفِيٌّ عَنْهَا» إشعار أو دلالة على أنهم حسبوا أن جوابه صلى الله عليه و آله و سلم بأمر ربه أولا «إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي» من قبيل إحاله علم ما لا يعلمه الى ربه -على ما هو من أدب الدين- و لذا قال: «عِنْدَ رَبِّي» إشعارا بالعبودية و وظيفتها، و أن قوله «لَا يُجَلِّيهَا لِوَفَّيْتَهَا إِلَّا هُوَ» وصف لعظمتها من غير أن يرتبط ذلك بالعلم بوقتها، و لذلك كله كرروا السؤال ليقول صلى الله عليه و آله و سلم فى ذلك شيئا أو يعترف بجهله لنفسه.

فأمره الله سبحانه أن يعيد الجواب عليهم «إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ اللَّهِ» دالا به على أن القول جد و الجواب فصل، فهو من العلم لا من الجهل، و الغرض به إفاده العلم بانحصار علمها فيه تعالى دون الجهل بها، و إحاله علمها الى ربه عملا بوظيفه العبوديه، و لذا بدل قوله فى الجواب الأول «عِنْدَ رَبِّي» فى هذا الجواب الثانى الى قوله: «عِنْدَ اللَّهِ» .

ثم قال: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ» يشير به الى جهلهم بمعنى قوله: «إِنَّمَا عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي» الآية فإنهم لانسهم بالحس و المحسوس يقيسون كل شيء سمعوه الى المحسوس،

ويعممون حكمه عليه فيظنون أن كل ما وصف لهم بوجه يسع لهم أن يعلموه و يحيطوا به علما، و أنه لو كان هناك أمر أخفى عنهم فإنما يخفى بالكتمان، و لو أظهر لهم أحاطوا به علما كسائر ما عندهم من الامور المحسوسه، و قد أخطأ قياسهم و اشتبه عليهم فإن بعض ما فى الغيب و من جملته الساعه لا يطيق علمه إلا الله سبحانه.

و قد ظهر من الآيه أن علم الساعه مما لا يطيقه شىء من الأشياء إلا الله سبحانه، و كذا حقيقه ما له من الأوصاف و النعوت فإن الجميع ثقيله بثقلها.

قوله تعالى: **قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ** إلى آخر الآيه لما كان فى سؤالهم الغيب عنه صلى الله عليه و آله و سلم إيهام أن دعواه النبوه دعوى لعلم الغيب، و لا يعلم الغيب حقيقه غيره تعالى إلا بوحي و تعليم إلهي، أمر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم أن يتبرأ من دعوى العلم بالغيب.

و حقيقه السبب فى اختصاص العلم بالغيب به تعالى أن غيره تعالى اياما كان محدود الوجود لا سبيل له إلى الخارج منه الغائب عنه من حيث إنه غائب، و لا شىء غير محدود و لا غير متناه محيط بكل شىء إلا الله سبحانه فله العلم بالغيب.

لكن لما كان اولئك السائلون لا يسعهم فهم هذا السبب على ما لهم من الأفهام البسيطة العاميه أمره صلى الله عليه و آله و سلم أن يكلمهم بما يسعهم فهمه، و هو أن العلم بالغيب يهدى الإنسان الى كل خير و شر و العاده تأبى أن يعلم أحد الخير و الشر و يهتدى إلى موقعهما ثم لا يستفيد من ذلك لنفسه فالإنسان اذا لم يستكثر من الخير و لم يوق من الشر كيف يعلم الغيب؟.

فقوله فى صدر الآيه: **«قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي»** الآيه وصف لنفسه بما ينافى فى نتيجة العلم بالغيب ثم قوله: **«وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ»** الآيه بيان نتيجة العلم بالغيب، لينتج من الفصلين عدم علمه بالغيب، ثم قوله: **«إِن أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ»** بيان حقيقه حاله فيما يدعيه من الرساله من غير أن يكون معها دعوى اخرى.

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيْفًا فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَا اللَّهَ رَبَّهُمْ لَأِن آتَيْتِنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِيْنَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٩٠) أَ يُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٢) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ سِوَاءَ عَلَيْكُمْ أَدْعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ صٰمِتُونَ (١٩٣) إِن الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنتُمْ صٰدِقِيْنَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنظِرُونِ (١٩٥) إِنِّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّٰلِحِيْنَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ (١٩٧) وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يُنظِرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨)

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ. الكلام فى الآيتين جار مجرى المثل المضروب لبنى آدم فى نقضهم موثقهم الذى واثقوه، و ظلمهم بآيات الله.

و المعنى: «هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ» يا معشر بنى آدم «مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ» هو أبوكم «وَ جَعَلَ مِنْهَا» أى من نوعها «زَوْجَهَا لِيَسِيْرَنَّ» الرجل الذى هو النفس الواحد «إِلَيْهَا» أى إلى الزوج التى هى امرأته «فَلَمَّا تَغَشَّاهَا» و التغشى هو الجماع «حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيْفًا» و المحمول النطفه و هى خفيفه «فَمَرَّتْ بِهِ» أى استمرت الزوج بحملها تذهب و تجىء و تقوم و تقعد حتى نمت النطفه فى رحمها و صارت جنينا ثقيلا. أثقلت به الزوج «فَلَمَّا أَثَقَلَتْ دَعَا اللّٰهَ رَبَّهُمَا» و عاهداه و واثقاه «لِئِنْ آتَيْتَنَا» و رزقتنا ولدا «صَالِحًا» يصلح للحياه و البقاء بكونه إنسانا سويا تام الأعضاء غير ذى عاهه و آفه فإن ذلك هو المرجو للولد حين ولادته و بدء نشوئه دون الصلاح الدينى «لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ» لك ياظهار نعمتك، و الانقطاع إليك فى أمره لا نميل إلى سبب دونك، و لا نتعلق بشىء سواك.

فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا كَمَا سَأَلَهُ وَ جَعَلَهُ إِنْسَانًا سَوِيًّا صَالِحًا لِلْبَقَاءِ وَ قَرَّتْ بِهِ أَعْيُنُهُمَا جَعَلًا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا مِنَ الْوَلَدِ الصَّالِحِ حَيْثُ بَعَثْتَهُمَا الْمَحْبَبَةَ وَ الشَّفَقَةَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَعَلَّقَا بِكُلِّ سَبَبٍ سِوَاهُ، وَ يَخْضَعَا لِكُلِّ شَيْءٍ دُونَهُ مَعَ أَنَّهُمَا كَانَا قَدْ اشْتَرَطَا لَهُ أَنْ يَكُونَا شَاكِرِينَ لَهُ غَيْرَ كَافِرِينَ لِنِعْمَتِهِ وَ رُبُوبِيَّتِهِ فَنَقُضَا عَهْدَهُمَا وَ شَرَطَهُمَا.

و هكذا عامه الانسان إلا من رحمه الله مهتمون بنقض موثيقهم و خلف وعدهم، و عدم

الوفاء بعهدهم مع الله «فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» .

و القصة- كما ترى- يمكن أن يراد بها بيان حال الأبوين من نوع الإنسان في استيلادهما الولد بالاعتبار العام النوعي فإن كل إنسان فإنه مولود أبويه فالكثرة الإنسانية نتيجة أبوين يولدان ولدا كما في قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ (الحجرات ٤٣/).

و الغالب على حال الأبوين و هما يحبان ولدهما و يشفقان عليه أن ينقطعا طبعاً إلى الله في أمر ولدهما و إن لم يلتفتا إلى تفصيل انقطاعهما كما ينقطع راكب البحر إلى الله سبحانه إذا تلاطمت و أخذت أمواجها تلعب به ينقطع إلى ربه و إن لم يعبد ربا قط فإنما هو حال قلبى يضطر الإنسان إليه.

فلأبوين انقطاع إلى ربهما في أمر ولدهما لئن آتيتنا صالحا نرضاه لنكونن من الشاكرين فلما استجاب لهما و آتاها صالحا جعلنا له شركاء و تشبثا في حفظه و تربيته بكل سبب، و لا إذا إلى كل كهف.

و يؤيد هذا الوجه قوله في ذيل الآية: «فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ» فإن المراد بالنفس و زوجها في صدر الكلام لو كان شخصين من الإنسان بعينهما كآدم و حواء مثلاً كان من حق الكلام أن يقال: فتعالى الله عن شركهما أو عما أشركا.

على أنه تعالى يعقب هذه الآية بآيات أخر يذم فيها الشرك و يوبخ المشركين بما ظاهره أنه الشرك بمعنى عباده غير الله، و حاشا أن يكون صفى الله آدم يعبد غير الله و قد نص الله سبحانه على أنه اجتنابه و هداه، و نص على أن لا سبيل للضلال على من هداه الله و أى ضلال أضل من عباده غير الله، قال تعالى: ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَقَاتَبَ عَلَيْهِ وَ هَدَاهُ (طه ١٢٢/)، و قال: وَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ (أسرى ٩٧/)، و قال: وَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ (الأحقاف ٥/)، و بذلك يظهر أن الضلال و الشرك غير منسوب

إلى آدم و إن لم نقل بنوته أو قلنا بها و لم نقل بعصمه الأنبياء عليهم السلام.

و إن أريد بالنفس و زوجها فى القصة آدم زوجته كان المراد بشركهما المذكور فى الآيه أنهما اشتغلا بتربيته الولد و اهتما فى أمره بتدبير الأسباب و العوامل، و صرفهما ذلك عن بعض ما لهما من التوجه إلى ربهما و الخلوص فى ذلك، و من الدليل عن ذلك قوله تعالى حكاية عنهما:

﴿لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ و قد تقدم فى تفسير أوائل هذه السوره فى قوله: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ (الآيه ١٧) أن الشاكرين فى عرف القرآن هم المخلصون-بفتح اللام-الذين لا-سبيل لإبليس عليهم و لا ديب للغفله فى قلوبهم فالعتاب المتوجه إليهما فى قوله ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إنما هو بالشرك بمعنى الاشتغال عن الله بغيره من الأسباب الكونيه يوجه خلاف إخلاص القلب له تعالى.

لكن يبقى عليه إتيان قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بصيغه الجمع، و تعقيبه بما ظاهره أنه الشرك بمعنى عباده غير الله.

و ربما دفعه بعضهم بأن الآيه فى التخصيص أولا و التعميم ثانيا عكس قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ (يونس ٢٢) حيث خاطب أولا-عامتهم بالتسيير ثم خص الكلام براكبي الفلك منهم خاصة، و الآيه التى نحن فيها تخص أول القصة بآدم و زوجته فهما المعنيان بقوله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ ثم انقضى حديث آدم و زوجته، و خص بالذكر المشركون من بنى آدم الذين سألوا ما سألوا، و جعلوا له شركاء فيما آتاهم أى إن كل اثنين منهم يولدان ولدا هذا حالهما من العهد ثم النقض.

و فيه أن قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ﴾ الآيه؛ محفوف بقريته قطعيه تدل على المراد و تزيل اللبس بخلاف التدرج من الخصوص إلى العموم فى هذه الآيه فإنه موقع فى اللبس لا يصار إليه فى الكلام البليغ، اللهم إلا أن يجعل قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إلى آخر الآيات قريته

على ذلك.

و كيف كان فهذا الوجه كالمأخوذ من الوجهين الأولين بحمل صدر الآية على الوجه الثانى و ذيلها على الوجه الأول.

و ربما دفع الاعتراض السابق بأن فى الكلام حذفاً و إيصالاً- و التقدير: «فما آتاهما أى آدم و حواء صالحا جعل أولادهما له شركاء» فحذف المضاف و هو الأولاد، و أقيم المضاف إليه و هو ضمير التثنية المدلول عليه فى قوله: «جعلاً مقامه». و فيه أنه لا دليل عليه.

و ربما التزم بعض المفسرين الإشكال، و تسلم أن المراد بهما آدم و زوجته، و أنهما أشركا بالله عملاً بروايات وردت فى القصة عن بعضهم، و هى موضوعه أو مدسوسه مخالفه للكتاب لا سبيل إلى الأخذ بأمثالها.

قوله تعالى: أَيْشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَ هُمْ يُخْلَقُونَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ. صدر الآيات و إن احتمل أن يكون المراد الشرك بالأصنام أو بسائر الأسباب غير الله، التى الاعتماد عليها نوع من الشرك لكن ذيلها ظاهر فى أن المراد هو الشرك بالأصنام المتخذة آلهة و هى جماد لا يستطيع نصر من يعبدها و لا نصر أنفسها، و لا يشعر بشيء من الدعاء و عدمه.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ - إِلَى قَوْلِهِ - يَسْتَمْعُونَ بِهَا احتجاج على مضمون الآيات الثلاثة السابقة، و المعنى إنما قلنا إنهم مخلوقون لا يقدرون على شيء لأنهم عباد أمثالكم فكما أنكم مخلوقون مدبرون كذلك هم.

و الحجج عليه أنهم لا- يستجيبون لكم إن دعوتهم فادعهم إن كنتم صادقين فى دعواكم أن لهم علما و قدره و إنما نسب إليهم دعوى كونهم ذوى علم و قدره لما فى دعوتهم من الدلالة على ذلك- و كيف يستجيبون لكم؟ و ليست ما عبأتم لهم من الأرجل و الأيدي ماشيه و باطشه، و لا ما صورتم لهم من الأعين و الآذان مبصره و سامعه لأنهم جمادات.

ص: ٦٢٩

و فى الآيات إطلاق العباد على الجمادات.

قوله تعالى: قُلِ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ إِلَى آخِرِ الآياتِ ثُمَّ أَمَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَكْرِ عَلَيْهِمْ عَلَى انْتِصَارِهِمْ بِأَرْبَابِهِمْ وَآلِهِتِهِمْ بِالتَّحْدَى وَالإِعْجَازِ لِسِتِينَ سَبِيلِهِ مِنْ سَبِيلِهِمْ، وَيُظْهِرُ أَنَّ رَبَّهُ هُوَ اللَّهُ الَّذِى لَهُ كُلُّ الْعِلْمِ وَالقُدْرَةَ، وَأَنَّ أَرْبَابَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ عِلْمًا لِيَهْتَدُوا بِهِ إِلَى شَيْءٍ وَلَا قُدْرَةَ لِيَنْصُرُوهُمْ فِي شَيْءٍ.

فقال: قل لهم ادعوا شركاءكم لنصركم على ثم كيدونى فلا تنظرونى ولا تمهلونى إن ربه ينصرنى ويدفع عنى كيدكم فإنه الذى نزل الكتاب ليهدى به الناس، وهو يتولى الصالحين من عباده فينصرهم، وهو القائل: إن الأرض يرثها عبادى الصالحون وأنا من الصالحين فينصرنى ولا محاله، وأما أربابكم الذين تدعون من دونه فلا يستطيعون نصركم ولا نصر أنفسهم ولا يسمعون ولا يبصرون فلا قدره لهم ولا علم.

و فى الآيات أمر النبى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَخْبِرَهُمْ أَنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ وَ لَمْ يَعْهَدْ فِيمَا يَخْبِرُ بِهِ الْقُرْآنَ مِنْ صِلاَحِ الْأَنْبِيَاءِ مِثْلَ ذَلِكَ فِي غَيْرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

و فيها التحدى على الأصنام و عبدتهم كما تحدى بذلك غيره من الأنبياء عليهم السلام.

[سوره الأعراف (٧): الآيات ١٩٩ الى ٢٠٦]

إشارة

خُذِ الْعَفْوَ وَ أْمُرْ بِالْعُرْفِ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَ إِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) وَ إِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بآيَةٌ قَالُوا لَوْ لَا إِجْتَبَيْنَاهَا قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) وَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٢٠٤) وَ أذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَ الْأَصَالِ وَ لَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ يُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦)

قوله تعالى: **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** الأخذ بالشىء هو لزومه أو عدم تركه فأخذ العفو ملازمه الستر على إساءه من أساء إليه، و الإغماض عن حق الانتقام الذى يعطيه العقل الاجتماعى لبعضهم على بعض. هذا بالنسبه إلى إساءه الغير بالنسبه إلى نفسه و التضييع لحق شخصه، و أما ما أضيع فيه حق الغير بالإساءه إليه فليس مما يسوغ العفو فيه لأنه إغراء بالإثم و تضييع لحق الغير بنحو أشد، و إبطال للنواميس الحافظه للاجتماع، و يمنع عنه جميع الآيات الناهيه عن الظلم و الإفساد و إعانه الظالمين و الركون إليهم بل جميع الآيات المعطيه لاصول الشرائع و القوانين، و هو ظاهر.

فالمراد بقوله: **«خُذِ الْعَفْوَ»** هو الستر بالعفو فيما يرجع إلى شخصه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، و على ذلك كان يسير فقد تقدم فى بعض الروايات المتقدمه فى أدبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ: أنه لم ينتقم من أحد لنفسه قط.

هذا على ما ذكره القوم أن المراد بالعفو ما يساوق المغفرة، وفي بعض الروايات الآتية عن الصادق عليه السلام أن المراد به الوسط وهو أنسب بالآية وأجمع للمعنى من غير شائبه التكرار الذى يلزم من قوله: «وَ أَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ» على التفسير الأول.

وقوله: «وَ أَمْرٌ بِالْعُرْفِ» والعرف هو ما يعرفه عقلاء المجتمع من السنن والسير الجميله الجارية بينهم بخلاف ما ينكره المجتمع و ينكره العقل الاجتماعى من الأعمال النادرة الشاذة، ومن المعلوم أن لازم الأمر بمتابعه العرف أن يكون نفس الأمر مؤتمرا بما يأمر به من المتابعه، ومن ذلك أن يكون نفس أمره بنحو معروف غير منكر فمقتضى قوله: «وَ أَمْرٌ بِالْعُرْفِ» أن يأمر بكل معروف، وأن لا يكون نفس الأمر بالمعروف على وجه منكر.

وقوله: «وَ أَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ» أمر آخر بالمداراه معهم، وهو أقرب طريق وأجمله لإبطال نتائج جهلهم وتقليل فساد أعمالهم فإن فى مقابله الجاهل بما يعادل جهله إغراء له بالجهل والإداهه على الغى والضلال.

قوله تعالى: «وَ إِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» قال الراغب فى المفردات: النزغ دخول فى أمر لأجل إفساده، قال: من بعد أن نزغ الشيطان بينى وبين إخوتى. انتهى، وقيل: هو الازعاج والإغراء وأكثر ما يكون حال الغضب، وقيل: هو من الشيطان أدنى الوسوسه، والمعانى متقاربه، وأقربها من الآيه هو الأوسط لمناسبتة الآيه السابقه الأمره بالإعراض عن الجاهلين فإن مماستهم الإنسان بالجهاله نوع مداخله من الشيطان لإثاره الغضب، وسوقه إلى جهاله مثله.

فيرجع معنى الآيه إلى أنه لو نزغ الشيطان بأعمالهم المبنيه على الجهاله وإساءتهم إليك ليسوقك بذلك إلى الغضب والانتقام فاستعد بالله إنه سميع عليم، والآيه مع ذلك عامه خوطب بها النبى صلى الله عليه وآله وسلم وقصد بها أمته لعصمته.

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ

مُبَيَّنَةٌ نُحَوِّدُهَا لِلْعَمَلِ فِي الْأَيَّامِ السَّابِقَةِ وَالطَّائِفِ مِنَ الشَّيْطَانِ هُوَ الَّذِي يَطُوفُ حَوْلَ الْقَلْبِ لِيَلْقَى إِلَيْهِ الْوَسْوَسه أَوْ وَسْوَسته
الَّتِي تَطُوفُ حَوْلَ الْقَلْبِ لَتَقَعَ فِيهِ وَتَسْتَقِرَّ عَلَيْهِ، وَ«مَنْ» بَيَانِيهِ عَلَى الْأَوَّلِ، وَنَشِئَتُهُ عَلَى الثَّانِي، وَمَأَلِ الْمَعْنِيَيْنِ مَعَ ذَلِكَ وَاحِدًا، وَ
التَّذَكُّرَ تَفَكَّرَ مِنَ الْإِنْسَانِ فِي أُمُورٍ لَتَهْدِيهِ إِلَى نَتِيجَةٍ مَغْفُولٍ عَنْهَا أَوْ مَجْهُولَةٍ قَبْلَهُ.

وَالْآيَةُ بِمَنْزِلَةِ التَّعْلِيلِ لِلْأَمْرِ بِالِاسْتِعَاذَةِ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَالْمَعْنَى اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ عِنْدَ نَزْغِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّ هَذَا طَرِيقَ الْمُتَّقِينَ فَهَمَّ إِذَا
مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ. تَذَكَّرُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّهُمْ الَّذِي يَمْلِكُهُمْ وَيَرْبِيهِمْ يَرْجِعُ إِلَيْهِ أَمْرُهُمْ فَأَرْجِعُوا إِلَيْهِ الْأَمْرَ فَكَفَاهُمْ مَثُونَتَهُ، وَ
دَفَعَ عَنْهُمْ كَيْدَهُ، وَرَفَعَ عَنْهُمْ حِجَابَ الْغَفْلَةِ فَإِذَا هُمْ مَبْصُرُونَ غَيْرَ مَضْرُوبٍ عَلَى أَبْصَارِهِمْ بِحِجَابِ الْغَفْلَةِ.

فَالْآيَةُ - كَمَا عَرَفْتَ - فِي مَعْنَى قَوْلِهِ: إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (النحل ٩٩).

وَكَانَ ظَهْرُهَا أَيْضًا أَنَّ الْاسْتِعَاذَةَ بِاللَّهِ نَوْعٌ مِنَ التَّذَكُّرِ لِأَنَّهَا مَبْنِيَةٌ عَلَى أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَهُوَ رَبُّهُ هُوَ الرُّكْنُ الْوَحِيدُ الَّذِي يَدْفَعُ هَذَا الْعَدُوَّ
الْمُهَاجِمَ بِمَالِهِ مِنْ قُوَّتِهِ، وَأَيْضًا الْاسْتِعَاذَةَ نَوْعٌ مِنَ التَّوَكُّلِ كَمَا مَرَّ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ كَأَنَّ الْجُمْلَةَ حَالِيَةً، وَالْمُرَادُ بِإِخْوَانِهِمْ إِخْوَانُ الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ الشَّيَاطِينُ
كَمَا وَقَعَ قَوْلُهُ: إِنَّ الْمُبَدَّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ (الإسراء ٢٧) وَالْإِقْصَارُ الْكُفُّ وَالِانْتِهَاءُ.

وَالْمَعْنَى: أَنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا عَلَى هَذَا الْحَالِ مِنَ التَّذَكُّرِ وَالِإِبْصَارِ وَالْحَالِ أَنَّ إِخْوَانَ الْمُشْرِكِينَ مِنَ الشَّيَاطِينِ يَمْدُونُ الْمُشْرِكِينَ فِي
غِيْبِهِمْ وَيَعِينُونَهُمْ ثُمَّ لَا يَكْفُونَ عَنْ مَدِّهِمْ وَإِعَانَتِهِمْ، أَوْ لَا يَكْفِي الْمَشْرُوكُونَ وَلَا يَنْتَهَوْنَ عَنْ غِيْبِهِمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْ لَا اجْتَبَيْتَهَا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الْاجْتِبَاءُ افْتِعَالٌ مِنَ الْجَبَايَةِ، وَقَوْلُهُمْ: «لَوْ لَا اجْتَبَيْتَهَا» كَلَامٌ مِنْهُمْ
جَارٌ مَجْرَى التَّهْكَمِ وَالسَّخْرِيَةِ وَالْمَعْنَى

على ما يعطيه السياق: أنك إذا آتيتهم بآيه كذبوا بها و إذا لم تأتتهم بآيه كما لو أبطأت فيها قالوا:

لولا اجتبيت ما تسميه آيه و جمعتها من هنا و هناك فأتيت بها «قل» ليس لى من الأمر شيء «إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِيَّايَ مِنْ رَبِّي هَذَا» القرآن «بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ» يريد أن يبصركم بها «و هُدًى وَ رَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» .

قوله تعالى: وَ إِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَ أَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ الإنصات السكوت مع استماع، و قيل: هو الاستماع مع سكوت يقال: أنصت الحديث و أنصت له أى استماع، و قيل: هو الاستماع مع سكوت يقال: أنصت الحديث و أنصت له أى استمع ساكتا، و أنصته غيره و أنصت الرجل أى سكت؛ فالمعنى: استمعوا للقرآن و اسكتوا.

و الآيه بحسب دلالتها عامه و إن قيل: أنها نزلت فى الصلاه جماعه.

قوله تعالى: وَ اذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَ خِيفَةً وَ دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ. قسم الذكر إلا ما فى النفس و دون الجهر من القول: ثم أمر بالقسمين، و أما الجهر من القول فى الذكر فمضرب عنه لا لأنه ليس ذكرا بل لمنافاته لأدب العبوديه و يدل على ذلك ما ورد أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم سار بأصحابه فى بعض غزواته فدخلوا واديا موحشا و الليل داج فكان ينادى بعض أصحابه بالتكبير فنهاه النبى صلى الله عليه و آله و سلم و قال: إنكم لا تدعون غائبا بعيدا (١).

و التضرع من الضراعه و هو التملق بنوع من الخشوع و الخضوع، و الخيفه بناء نوع من الخوف، و المراد به نوع من الخوف يناسب ساحه قدسه تعالى ففى التضرع معنى الميل إلى المتضرع إليه و الرغبة فيه و التقرب منه، و فى الخيفه معنى اتقائه و الرهبه و التبعد عنه، فمقتضى توصيف الذكر بكونه عن تضرع و خيفه أن يكون بحركه باطنيه إليه و منه كالذى يجب شيئا

ص: ٦٣٤

(١ - ١). الروايه منقوله بالمعنى.

و يهابه فيدنو منه لحبه و يتعبد عنه لمهابته، و الله سبحانه و إن كان محض الخير لا شر فيه، و إنما الشر الذى يمسننا هو من قبلنا لكنه تعالى ذو الجلال و الإكرام له أسماء الجمال التى تدعو إليه و تجذب نحوه كل شىء.

و له أسماء الجلال التى تقهر و تدفع عنه كل شىء فحق ذكره و هو الله له الأسماء الحسنى كلها أن يكون على ما يقتضيه مجموع أسمائه الجماليه و الجلاليه، و هو أن يذكر تعالى تضرعا و خيفه، و رغبا و رهبا.

و قوله: بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ظاهره أنه قيد لقوله: «و دُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ» فيكون الذكر القولى هو الموزع إلى الغدو و الآصال، و ينطبق على بعض الفرائض اليوميه.

و قوله: وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ تأكيد للأمر بالذكر فى أول الآيه و لم ينه تعالى عن أصل الغفله، و إنما نهى عن الدخول فى زمرة الغافلين، و هم الموصوفون بالغفله الذين استقرت فيهم هذه الصفه.

و يتبين بذلك أن الذكر المطلوب المأمور به هو أن يكون الإنسان على ذكر من ربه حيناً بعد حين، و يبادر إليه لو عرضت له غفله منسيه، و لا يدع الغفله تستقر فى نفسه، و فى الآيه التاليه: دلالة على ذلك على ما سيجىء.

فمحصل الآيه: الأمر بالاستمرار على ذكر الله فى النفس تضرعا و خيفه حيناً بعد حين، و ذكره بالقول دون الجهر بالغدو و الآصال.

قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ ظاهر السياق أنه فى موضع التعليل للأمر الواقع فى الآيه السابقه فيكون المعنى:

اذكر ربك كذا و كذا فإن الذين عند ربك كذلك أى اذكر ربك كذا لتكون من الذين عند ربك و لا تخرج من زميرتهم.

و يتبين بذلك أن المراد بقوله: «الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ» ليس هم الملائكه فقط—على ما فسره

كثير من المفسرين-اذ لا معنى لقولنا: اذكر ربك كذا لأن الملائكة يذكرونه كذلك بل مطلق المقربين عنده تعالى على ما يفيد
لفظ «عِنْدَ رَبِّكَ» من الحضور من غير غيبه.

و يظهر من الآيه أن القرب من الله إنما هو بذكره، فبه يرتفع الحجاب بينه و بين عبده، وإلا فجميع الأشياء متساويه فى النسبه إليه
من غير اختلاف بينها بقرب أو بعد أو غير ذلك.

و قوله: «لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَبْخُونَهُ وَ لَهُ يَسْجُدُونَ» فيه امور ثلاثه يتصف بها الذكر النفسى كما يتصف بها الذكر
القولى فإن للنفس أن تتصف بحال عدم الاستكبار، و بحال تنزيهه تعالى، و بحال السجده و كمال الخشوع له كما يتصف بها
الذكر القولى و يعنون بها العمل الخارجى، فليس التسييح و السجود مما يختص بالأعضاء من لسان و غيره كما يدل عليه قوله:

وَ إِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (أسرى/٤٤)، و قوله: وَ النَّجْمُ وَ الشَّجَرُ يَسْجُدَانِ (الرحمن/٦)، و قوله: وَ لِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَ مَا فِي الْأَرْضِ (النحل/٤٩).

و ما فى الآيه توصيف القوم بعدم الاستكبار و التسييح و السجود أخف و أهون مما يشتمل عليه قوله تعالى: وَ مَن عِنْدَهُ لَا
يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَ لَا يَسْتَحْسِرُونَ يَسْتَبْخُونَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (الأنبياء/٢٠) و قوله: فَإِن اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ
يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ هُمْ لَا يَشْأَمُونَ (حم السجده/٣٨) فإن هذه الآيات ظاهرها الاستمرار الذى لا يتخلله عدم، و لا يتوسطه
مناف، و الآيه التى نبحت عنها لم يأمر إلا بما لا تثبت معه الغفله فى النفس كما عرفت.

فهذه الآيه تأمر بمرتبته من الذكر هى دون ما تتضمنه آيات سورتي الأنبياء و حم السجده و الله العالم (١).

ص: ٦٣٦

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

[سوره الأنفال (٨): الآيات ١ الى ٦]

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
رَسُولَهُ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمُ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) كَلِمَاتٍ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهِونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦)

قوله تعالى: يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ الْأَنْفَالُ جمع نفل بالفتح وهو الزيادة على الشيء، و لذا يطلق النفل و النافلة على التطوع لزيادته على الفريضة، و تطلق الأنفال على ما يسمّى فينا أيضا و هي الأشياء من الأموال التي لا مالك لها من الناس كرهوس الجبال، و بطون الأودية، و الديار الخربة، و القرى التي باد أهلها، و تركه من لا وارث له، و غير ذلك كأنها زيادة على ما ملكه الناس فلم يملكها أحد و هي لله و لرسوله، و تطلق على غنائم الحرب كأنها زيادة على ما قصد منها فإن المقصود بالحرب و الغزوه الظفر على الأعداء و استئصالهم فاذا غلبوا و ظفر بهم فقد حصل المقصود، و الأموال التي غنمه المقاتلون و القوم الذين أسروهم زيادة على أصل الغرض.

و «ذات» في الأصل مؤنث «ذا» بمعنى الصاحب من الألفاظ اللانزاه الإضافة غير أنه كثر استعماله في نفس الشيء بمعنى ما به الشيء هو هو فيقال: ذات الإنسان أى ما به الإنسان إنسان، و ذات زيد أى النفس الإنسانية الخاصة التي سميت بزيد، و كأن الأصل فيها النفس ذات أعمال كذا ثم أفردت بالذكر فقيل ذات الأعمال أو ما يؤدي مؤداه ثم قيل ذات، و كذلك الأمر في ذات البين فلكون الخصومه لا- تتحقق إلا- بين طرفين نسب إليها البين فقيل ذات البين أى الحالة و الرابطة السيئه التي هي صاحبه البين فالمراد بقوله: أصلحوا ذات بينكم أى أصلحوا الحالة الفاسده و الرابطة السيئه التي بينكم.

و قال الراغب في المفردات: «ذو» على وجهين: أحدهما يتوصل به الى الوصف بأسماء الأجناس و الأنواع، و يضاف الى الظاهر دون المضمرة، و يثنى و يجمع، و يقال في التثنية: ذواتا، و في الجمع: ذوات، و لا يستعمل شيء منها إلا مضافا.

قال: وقد استعار أصحاب المعانى الذات فجعلوه عباره عن عين الشىء جوهرًا كان أو عرضًا، واستعملوها مفردة و مضافه الى المضمرة و بالألف و اللام، و أجروها مجرى النفس و الخاصه فقالوا: ذاته و نفسه و خاصته، و ليس ذلك من كلام العرب، و الثانى فى لفظ ذو لغه لطىئ يستعملونه استعمال «الذى» و يجعل فى الرفع و النصب و الجرّ و الجمع و التانيث على لفظ واحد نحو:

و بئرى ذو حفرت و ذو طويت

أى التى حفرت و التى طويت. انتهى.

و الذى ذكره من عدم إضافته الى الضمير منقول عن الفراء، و لازمه كون استعماله مضافا الى الضمير من كلام المولدين و الحق أنه قليل لا متروك، و قد وقع فى كلام على عليه السلام فى بعض خطبه كما فى نهج البلاغه.

و قد اختلف المفسرون فى معنى الآيه و موقعها اختلافا شديدا من جهات: من جهه معنى قوله: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ» و قد نسب الى أهل البيت عليهم السّلام و بعض آخر كعبد الله بن مسعود و سعد بن أبى وقاص و طلحه بن مصرف أنهم قرءوا «يسألونك الأنفال» فقيل: عن زائده فى القراءه المشهوره، و قيل: بل مقدره فى القراءه الشاذه، و قيل: إن المراد بالأنفال غنائم الحرب، و قيل: غنائم غزوه بدر خاصه بجعل اللام فى الأنفال للعهد، و قيل: الفىء الذى لله و الرسول و الإمام، و قيل: إن الآيه منسوخه بآيه الخمس، و قيل: بل محكمه، و قد طالت المشاجره بينهم كما يعلم بالرجوع الى مطوّلات التفاسير كتفسيرى الرازى و الآلوسى و غيرهما.

و الذى ينبغى أن يقال بالاستمداد من السياق: أن الآيه بسياقها تدل على أنه كان بين هؤلاء المشار إليهم بقوله: «يَسْأَلُونَكَ» تخاصم خاصم به بعضهم بعضا بأخذ كل جانبا من القول لا يرضى به خصمه، و التفريع الذى فى قوله: «فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ» يدل

على أن الخصومه كانت في أمر الأنفال، ولازم ذلك أن يكون السؤال الواقع منهم المحكى في صدر الآيه إنما وقع لقطع الخصومه، كأنهم تخاصموا في أمر الأنفال ثم راجعوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسألونه عن حكمها لتقطع بما يجيبه الخصومه و ترتفع عما بينهم.

و هذا- كما ترى- يؤيد أولا القراء المشهوره: «يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ» فإن السؤال اذا تعدى بعن كان بمعنى استعلام الحكم و الخبر، و أما اذا استعمل متعديا بنفسه كان بمعنى الاستعطاف و لا يناسب المقام إلا المعنى الأول.

و ثانيا: أن الأنفال بحسب المفهوم و إن كان يعم الغنيمه و الفىء جميعا إلا ان مورد الآيه هي الأنفال بمعنى غنائم الحرب لا غنائم غزوه بدر خاصه اذ لا وجه للتخصيص فإنهم اذ تخاصموا في غنائم بدر لم يتخاصموا فيها لأنها غنائم بدر خاصه بل لأنها غنائم مأخوذه من أعداء الدين في جهاد ديني، و هو ظاهر.

و اختصاص الآيه بحسب موردها بغنيمه الحرب لا يوجب تخصيص الحكم الوارد فيها بالمورد، فان المورد لا يخصص، بإطلاق حكم الآيه بالنسبه الى كل ما يسمى بالنفل في محله، و هي تدل على ان الأنفال جميعا لله و لرسوله لا يشارك الله و رسوله فيها أحد من المؤمنين سواء في ذلك الغنيمه و الفىء.

ثم الظاهر من قوله: «قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ» و ما يعظهم الله به بعد هذه الجملة و يحرضهم على الايمان هو ان الله سبحانه فصل الخصومه بتشريع ملكها لنفسه و لرسوله، و نزعها من ايديهم و هو يستدعى أن يكون تخاصمهم من جهه دعوى طائفه منهم ان الأنفال لها خاصه دون غيرها، او انها تختص بشىء منها، و إنكال الطائفه الاخرى ذلك، ففصل الله سبحانه خصومتهم فيها بسلب ملكهم منها و إثبات ملك نفسه و رسوله، و موعظتهم ان يكفوا عن المخاصمه و المشاجره، و أما قول من يقول: ان الغزاه يملكون ما اخذوه من الغنيمه بالإجماع فأحرى به ان يورد في الفقه دون التفسير.

و بالجمله فنزاعهم فى الأنفال يكشف عن سابق عهد لهم بأن الغنيمه لهم او ما فى معناه غير انه كان حكما مجملا اختلف فيه المتخاصمان و كل يجبر النار الى قرصته، و الآيات الكريمة تؤيد ذلك.

توضيحه: ان ارتباط الآيات فى السوره و التصريح بقصه وقوعه بدر فيها يكشف ان السوره بأجمعها نزلت حول وقوعه بدر و بعيدا حتى ان ابن عباس -على ما نقل عنه- كان يسميها سوره بدر، و التى تتعرض لأمر الغنيمه من آياتها خمس آيات فى مواضع ثلاثه من السوره هى بحسب ترتيب السوره، قوله تعالى: «يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» الآية؛ و قوله تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَ لِلَّذِينَ قَاتَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، و قوله تعالى: «مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَشْرَى حَتَّى يُثَخِّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ».

و سياق الآية الثانيه يفيد انها نزلت بعد الآية الاولى و الآيات الاخيره جميعا لمكان قوله فيها: «إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ فَهِيَ نازله بعد الوقعه بزمان».

ثم الآيات الاخيره تدل على انهم كلموا رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فى امر الاسرى و سألوه ان لا يقتلهم و يأخذ الفديه، و فيها عتابهم على ذلك، ثم تجوز ان يأكلوا مما غنموا و كأنهم فهموا من ذلك انهم يملكون الغنائم و الأنفال على إبهام فى امره: هل يملكه جميع من حضر الوقعه او بعضهم كالمقاتلين دون القاعدین مثلا؟ و هل يملكون ذلك بالسويه فيقسم بينهم كذلك أو يختلفون فيه بالزيادة و النقصه كأن يكون سهم الفرسان منها ازيد من المشاه؟ او نحو ذلك.

و كان ذلك سبب التخاصم بينهم فتشاجروا فى الامر، و رفعوا ذلك الى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فنزلت الآيه الاولى: «قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ» الآيه؛ فخطأ تهم الآيه فيما زعموا انهم مالكو الانفال بما استفادوا من قوله: «فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ» الآيه؛ و أقرت ملك الأنفال لله و الرسول و نهتهم عن التخاصم و التشاجر، فلما انقطع بذلك تخاصمهم ارجعها النبي صلى الله عليه و آله و سلم اليهم، و قسمها بينهم بالسويه، و عزل السهم لعهده من اصحابه لم يحضروا الوقعه، و لم يقدم مقاتلا- على قاعد، و لا- فارسا على ماش، ثم نزلت الآيه الثانيه: «وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ الْآيَهُ؛ بعد حين فأخرج النبي صلى الله عليه و آله و سلم مما رد اليهم من السهام الخمس و بقى لهم الباقي. هذا ما يتحصل من انضمام الآيات المربوطه بالانفال بعضها ببعض.

فقوله تعالى: «يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ» يفيد بما ينضم اليه من قرائن السياق انهم سألو النبي صلى الله عليه و آله و سلم عن حكم غنائم الحرب بعد ما زعموا انهم يملكون الغنيمه، و اختلفوا فيمن يملكها، او فى كيفيه ملكها و انقسامها بينهم، او فيهما معا، و تخاصموا فى ذلك.

و قوله: «قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» جواب عن مسألتهم و فيه بيان انهم لا يملكونها و إنما هى أنفال يملكها الله و رسوله، فيوضع حيثما اراد الله و رسوله، و قد قطع ذلك اصل ما نشب بينهم من الاختلاف و التخاصم.

و يظهر من هذا البيان ان الآيه غير ناسخه لقوله تعالى: «فَكُلُّوا مِمَّا غَنِمْتُمْ الى آخر الآيه؛ و إنما تبيّن معناها بالتفسير، و ان قوله: «كلوا» ليس بكنايه عن ملكهم للغنيمه بحسب الأصل، و إنما المراد هو التصرف فيها و التمتع منها إلا ان يمتلكوا بقسمه النبي صلى الله عليه و آله و سلم إياها بينهم.

و يظهر ايضا ان قوله تعالى: «وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِإِخْوَتِكُمُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِحُكْمِ رَسُولِ اللَّهِ» الآيه؛ ليس بناسخ لقوله: «قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» الآيه؛ فإن قوله: «وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ الآيه؛ إنما يؤثر بالنسبه الى المجاهدين منعهم عن اكل تمام الغنيمه و التصرف فيه

اذ لم يكن لهم بعد نزول قوله: «الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» إلا ذلك، و أما قوله «الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» فلا يفيد إلا كون اصل ملكها لله و الرسول من دون ان يتعرض لكيفية التصرف و جواز الأكل و التمتع، فلا يناقضه في ذلك قوله: وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمُ الْآيَةَ؛ حتى يكون بالنسبة إليه ناسخا، فيحصل من مجموع الآيات الثلاث: ان اصل الملك في الغنيمه لله و الرسول ثم يرجع اربعة أخصاسها الى المجاهدين يأكلونها و يمتلكونها و يرجع خمس منها الى الله و الرسول و ذى القربى و غيرهم لهم التصرف فيها و الاختصاص بها.

و يظهر بالتأمل فى البيان السابق أيضا: ان فى التعبير عن الغنائم بالأنفال و هو جمع نفل بمعنى الزيادة إشاره الى تعليل الحكم بموضوعه الأثم، كأنه قيل: يسألونك عن الغنائم و هى زيادات لا مالك لها من بين الناس، و اذا كان كذلك فأجبهم بحكم الزيادات و الأنفال، و قل:

الأنفال لله و الرسول، و لازم ذلك كون الغنيمه لله و الرسول.

و بذلك ربما تأيد كون اللام فى لفظ الأنفال الاول للعهد و فى الثانى للجنس او الاستغراق، و تبين وجه الإظهار فى قوله: «قُلِ الْآَنْفَالُ الْآيَةَ؛ حيث لم يقل: قل هى لله و الرسول.

و يظهر بذلك أيضا: ان قوله: «قُلِ الْآَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» حكم عام يشمل بعمومه الغنيمه و سائر الاموال الزائده فى المجتمع نظير الديار الخاليه و القرى البائده و رعوس الجبال و بطون الاوديه و قطائع الملوكة و تركه من لا وارث له، أما الأنفال بمعنى الغنائم فهى متعلقه بالمقاتلين من المسلمين بعمل النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و بقى الباقي تحت ملك الله و رسوله.

هذا ما يفيدته التأمل فى كرائم الآيات، و للمفسرين فيها اقاويل مختلفه تعلم بالرجوع الى مطولات التفاسير لا جدوى فى نقلها و التعرض المنقضى و الإبرام فيها.

قوله تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ الى آخر الآيتين؛ الآيتان و التى بعدهما بيان ما يتميز به المؤمنون بحقيقه الايمان و يختصون به من الاوصاف الكريمة و الثواب الجزيل يثبت ليتأكد به ما يشتمل عليه قوله تعالى: «فَاتَّقُوا اللَّهَ

وَ أَضْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ» الى آخر الآيه.

وقد ذكر الله تعالى لهم خمس صفات اختارها من بين جميع صفاتهم التي ذكرها في كلامه لكونها مستلزمه لكرائم صفاتهم على كثرتها و ملازمه لحق الايمان، و هي بحيث اذا تنبهوا لها و تأملوها كان ذلك مما يسهل لهم توطين النفس على التقوى و إصلاح ذات بينهم، و إطاعه الله و رسوله.

و هاتيك الصفات الخمس هي: وجل القلب عند ذكر الله، و زياده الايمان عند استماع آيات الله، و التوكل، و إقامة الصلاه، و الإنفاق مما رزقهم الله، و معلوم ان الصفات الثلاث الاول من اعمال القلوب، و الأخيرتان من اعمال الجوارح.

وقد روعى في ذكرها الترتيب الذى بينها بحسب الطبع، فإن نور الإيمان إنما يشرق على القلب تدريجاً، فلا يزال يشتد و يضاعف حتى يتم و يكمل بحقيقته، فأول ما يشرق يتأثر القلب بالوجل و الخشية اذا تذكر بالله عند ذكره، و هو قوله تعالى: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ» .

ثم لا- يزال ينبسط الإيمان و يتعرق و ينمو و يتفرع بالسير فى الآيات الداله عليه تعالى، و الهاديه الى المعارف الحقه، فكلما تأمل المؤمن فى شىء منها زادته ايماناً، فيقوى الايمان و يشتد حتى يستقر فى مرحله اليقين، و هو قوله تعالى: «وَ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا» .

و اذا زاد الايمان و كمل كما لا- عرف عندئذ مقام ربه و موقع نفسه، معرفه تطابق واقع الأمر، و هو أن الأمر كله الى الله سبحانه فإنه تعالى وحده هو الرب الذى إليه يرجع كل شىء، فالواجب الحق على الإنسان ان يتوكل عليه و يتبع ما يريد منه بأخذه و كيلا- فى جميع ما يهمله فى حياته، فيرضى بما يقدر له فى مسير الحياه، و يجرى على ما يحكم عليه من الأحكام و يشرعه من الشرائع فليأتمر بأوامره و ينتهى عن نواهيه، و هو قوله تعالى: «وَ عَلَى رَبِّهِمْ

ثم اذا استقر الإيمان على كماله في القلب، استوجب ذلك أن ينعطف العبد بالعبودية الى ربه، و ينصب نفسه في مقام العبودية و إخلاص الخضوع و هو الصلاة، و هي أمر بينه و بين ربه، و أن يقوم بحاجه المجتمع في نواقص مساعيهم بالإنفاق على الفقراء مما رزقه الله من مال أو علم أو غير ذلك، و هو أمر بينه و بين سائر أفراد مجتمعه، و هو قوله تعالى: «الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ» .

و قد ظهر مما تقدم أن قوله تعالى: «زَادَتْهُمْ إِيمَانًا» إشارة الى الزيادة من حيث الكيفية و هو الاشتداد و الكمال، دون الكمية و هي الزيادة من حيث عدد المؤمنين كما احتمله بعض المفسرين.

قوله تعالى: «أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ» قضاء منه تعالى بثبوت الايمان حقا فيمن اتصف بما عدّه تعالى من الصفات الخمس، و لذلك أطلق ما ذكره لهم من كريم الأجر في قوله: «لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ» الآية؛ فلهؤلاء من صفات الكمال و كريم الثواب و عظيم الأجر ما لكل مؤمن حقيقى.

و أما قوله: «لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ» فالمغفرة هي الصفح الإلهي عن ذنوبهم، و الرزق الكريم ما يرتقون به من نعم الجنة، و قد أراد الله سبحانه بالرزق الكريم الجنة و نعمها في مواضع من كلامه، كقوله تعالى: «فَالَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ وَ الَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (الحج ٥١)» و غير ذلك.

و بذلك يظهر أن المراد بقوله: «لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ» مراتب القرب و الزلفى و درجات الكرامة المعنوية، و هو كذلك. فإن المغفرة و الجنة من آثار مراتب القرب من الله سبحانه و فروعه البته.

و الذى يشتمل عليه الآيه من إثبات الدرجات لهؤلاء المؤمنين، هو ثبوت جميع الدرجات لجميعهم، لا ثبوت جميعها لكل واحد منهم فإنها من لوازم الإيمان، والإيمان مختلف ذو مراتب فالدرجات الموهوبه بإزائه كذلك لا محاله، فمن المؤمنين من له درجه واحده، ومنهم ذو الدرجتين، ومنهم ذو الدرجات على اختلاف مراتبهم فى الإيمان.

و يؤيده قوله تعالى: ﴿رَفَعَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ (المجادله ١١)، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ، هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ (آل عمران ١٦٣).

و بما تقدم يظهر أن تفسير بعضهم ما فى الآيه من الدرجات بدرجات الجنه، ليس على ما ينبغى، و ان المتعين كون المراد بها درجات القرب؛ كما تقدم و إن كان كل منهما يلزم الآخر.

قوله تعالى: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ﴾ الى آخر الآيتين؛ ظاهر السياق أن قوله: «كَمَا أَخْرَجَكَ» متعلق بما يدل عليه قوله تعالى: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ و التقدير: أن الله حكم بكون الأنفال له و لرسوله بالحق مع كراهتهم له، كما أخرجك من بيتك بالحق مع كراهه فريق منهم له، فلجميع حق يترتب عليه من مصلحه دينهم و دنياهم ما هم غافلون عنه.

و المراد بالحق ما يقابل الباطل، و هو الأمر الثابت الذى يترتب عليه آثاره الواقعيه المطلوبه، و كون الفعل -و هو الإخراج- بالحق هو أن يكون هو المتعين الواجب بحسب الواقع، و قيل: المراد به الوحي، و قيل: المراد به الجهاد، و قيل غير ذلك، و هى معان بعيده.

و الأصل فى معنى الجدل شدة القتال، يقال: زمام جدل أى شديد القتال، و سُمى الجدل جدالا لأن فيه نزاعا بالقتل عن مذهب الى مذهب كما ذكره فى المجمع.

و معنى الآيتين: ان الله تعالى حكم فى امر الأنفال بالحق مع كراهتهم لحكمه كما أخرجك من

بيتك بالمدينه إخراجا يصاحب الحق، والحال ان فريقا من المؤمنين لكارهون لذلك، ينازعونك فى الحق بعد ما تبين لهم
اجمالا، والحال انهم يشبهون جماعه يساقون الى الموت، وهم ينظرون الى ما أعد لهم من أسبابه و أدواته (١).

[سوره الأنفال (٨): الآيات ٧ الى ١٤]

إشاره

وَ إِذْ يَعِدُّكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَه تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَ يَقْطَعَ
ذَابِرَ الْكَافِرِينَ (٧) لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ
الْمَلَائِكَةِ مُزْدِفِينَ (٩) وَ مَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَ لَتَطْمِئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَ مَا النَّصِيرُ إِلَّا- مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ
يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَ لِيُزَبِّطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ
الْأَقْدَامَ (١١) إِذْ يُوحى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَلِّطُوا لِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ
الْأَعْنَاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ (١٢) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٣) ذَلِكَم
فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ (١٤)

ص: ٦٤٧

قوله تعالى: وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِخِيدَىٰ الطَّاغُوتَيْنِ أَنَّهُمَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَهِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ أَي واذكروا اذ يعدكم الله، وهو بيان ممن الله و عدّ نعمه عليهم ليكونوا على بصيره من ان الله سبحانه لا يستقبلهم بأمر ولا يأتهم بحكم إلا بالحق وفيه حفظ مصالحهم و إسعاد جدّهم فلا يختلفوا فيما بينهم، ولا يكرهوا ما يختاره لهم، و يكلوا أمرهم إليه فيطيعوه و رسوله.

و المراد بالطائفتين العير و النفير، و العير قافله قريش و فيها تجارتهم و أموالهم و كان عليها أربعون رجلا منهم أبو سفيان بن حرب، و النفير جيش قريش و هم زهاء ألف رجل.

و قوله: «إِخِيدَىٰ الطَّاغُوتَيْنِ» مفعول ثان لقوله: «يَعِدُكُمْ» و قوله: «أَنَّهَا لَكُمْ» بدل منه و قوله: «و تَوَدُّونَ» الآيه؛ في موضع الحال، و المراد بغير ذات الشوكه: الطائفة غير ذات الشوكه و هي العير الذي كان أقل عدّه و عدّه من النفير، و الشوكه الحدّه، استعاره من الشوك.

و قوله: «و يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ» في موضع الحال، و المراد باحقاق الحق إظهاره و إثباته بترتيب آثاره عليه، و كلمات الله هي ما قضى به من نصره أنبيائه و إظهار دينه الحق، قال تعالى: «و لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَاتُنَا لِجِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَ إِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْعَالِيُونَ (الصافات ١٧٣)» و قال تعالى: يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ اللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ

كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (الصف ٩/١)؛ وقريء «بكلمته»: و هو اوجه و أقرب و الدابر ما يأتى بعد الشىء مما يتعلق به و يتصل إليه و قطع دابر الشىء، كناية عن إفناؤه و استئصاله بحيث لا يبقى بعده شىء من آثاره المتفرعه عليه المرتبطه به.

و معنى الآيه: و اذكروا اذ يعدكم الله أن إحدى الطائفتين لكم تستعلون عليها بنصر الله إما العير و إما النفير و أنتم تودون أن تكون تلك الطائفه هى العير لما تعلمون من شوكة النفير، و قوتهم و شدتهم، مع ما لكم من الضعف و الهوان، و الحال ان الله يريد خلاف ذلك و هو أن تلاقوا النفير فيظهركم عليهم و يظهر ما قضى ظهوره من الحق، و يستأصل الكافرين و يقطع دابرهم.

قوله تعالى: لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ وَ يَبْطِلَ الْبَاطِلَ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ظاهر السياق ان اللام للغايه، و قوله: «لِيُحَقِّقَ» الآيه؛ متعلق بقوله: «يَعِدُّكُمْ اللَّهُ» أى إنما وعدكم الله ذلك و هو لا- يخلف الميعاد ليحق بذلك الحق و يبطل الباطل و لو كان المجرمون يكرهونه و لا يريدونه.

و بذلك يظهر ان قوله: «لِيُحَقِّقَ الْحَقَّ» الآيه؛ ليس تكرارا لقوله: «وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحَقِّقَ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ» و إن كان فى معناه.

قوله تعالى: إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ الاستغاثه طلب الغوث و هو النصره كما فى قوله: فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ (القصص ١٥/١) و الإمداد معروف، و قوله: «مُرْدِفِينَ» من الإرداف و هو ان يجعل الراكب غيره ردفا له، و الردف التابع، قال الراكب: الردف التابع، و ردف المرأه عجيزتها، و الترادف: التابع، و الرادف: المتأخر، و المردف المقدم الذى اردف غيره. انتهى.

و بهذا المعنى تلائم الآيه ما فى قوله تعالى فيما يشير به الى هذه القصة فى سوره آل عمران:

وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمِدِّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (آل عمران ١٢٦).

فإن تطبيق الآيات من السورتين يوضح ان المراد بنزول الف من الملائكة مردفين نزول الف منهم يستتبعون آخرين فينطبق الألف المردفون على الثلاثة آلاف المنزلين.

قوله تعالى: وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ الضميران في قوله: «جَعَلَهُ» وقوله: «بِهِ» للإمداد بالملائكة على ما يدل عليه السياق، والمعنى ان الإمداد بالملائكة إنما كان لغرض البشرى و اطمئنان نفوسكم لا- ليهلك بأيديهم الكفار كما يشير اليه قوله تعالى بعد: «إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ» .

و بذلك يتأيد ما ذكره بعضهم: ان الملائكة لم ينزلوا ليقتلوا المشركين و لا قتلوا منهم احدا فقد قتل ثلث المقتولين منهم او النصف على عليه السلام و الثلثين الباقين او النصف سائر المسلمين.

و إنما كان للملائكة تكثير سواد المسلمين حينما اختلطوا بالقوم و تثبيت قلوب المسلمين، و إلقاء الرعب في قلوب المشركين، و سيجيء بعض الكلام في ذلك.

و قوله: وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ بيان انحصار حقيقه النصر فيه تعالى و أنه لو كان بكثرة العدد و القوه و الشوكة كانت الدائرة يومئذ للمشركين بما لهم من الكثرة و القوه على المسلمين على ما بهم من القله و الضعف.

و قد علل بقوله: «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» جميع مضمون الآيه و ما يتعلق به من الآيه السابقه فبعزته نصرهم و أمدهم، و بحكمته جعل نصره على هذه الشاكلة.

قوله تعالى: إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ. النعاس اول النوم

و هو خفيفه و التغشيه الإحاطه، و الأمانه الامان، و قوله: «أَمَنَّهُ» أى من الله و قيل: أى من العدو، و الرجز هو الرجس و القذاره، و المراد برجز الشيطان القذاره التى يطرأ القلب من وسوسته و تسويله.

و معنى الآيه: ان النصر و الإمداد بالبشرى و اطمئنان القلوب كان فى وقت يأخذكم النعاس للأمن الذى افاضه الله على قلوبكم فنتمت و لو كنتم خائفين مرتاعين لم يأخذكم نعاس و لا نوم، و ينزل عليكم المطر ليظهركم به و يذهب عنكم وسوسه الشيطان و ليربط على قلوبكم و يشد عليها- و هو كناية عن التشجيع- و ليثبت بالمطر اقدامكم فى الحرب بتلبد الرمل او ثبات القلوب.

و الآيه تؤيد ما ورد ان المسلمين سبقهم المشركون الى الماء فنزلوا على كثيب رمل، و أصبحوا محدثين و مجننين، و أصابهم الظمأ، و وسوس اليهم الشيطان فقال: إن عدوكم قد سبقكم الى الماء، و أنتم تصلون مع الجنابه و الحدث و تسوخ اقدامكم فى الرمل فأمطر عليهم الله حتى اغتسلوا به من الجنابه، و تطهروا به من الحدث، و تلبدت به أرضهم، و أوحلت أرض عدوهم.

قوله تعالى: إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَبَيَّنُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتَنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّغْبَ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ حال الظرف فى أول الآيه كحال الظرف فى قوله: «إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ» و قوله: «إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ» و معنى الآيه ظاهر.

و أما قوله: «فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» فالظاهر أن يكون المراد بفوق الأعناق الرءوس و بكل بنان جميع الأطراف من اليدين و الرجلين أو أصابع الأيدى لثلا يطبقوا حمل السلاح بها و القبض عليه.

و من الجائز أن يكون الخطاب بقوله: «فَاضْرِبُوا» الخ؛ للملائكه كما هو المتسابق الى

الذهن، والمراد بضرب فوق الأعناق و كل بنان ظاهر معناه، أو الكناية عن اذلالهم و إبطال قوه الإمساك من أيديهم بالإرعاب، و أن يكون الخطاب للمؤمنين و المراد به تشجيعهم على عدوهم بتثبيت أقدامهم و الربط على قلوبهم، و حثهم و إغراؤهم بالمشركين.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ المشاقه المخالفه و أصله الشق بمعنى البعض كأن المخالف يميل الى شق غير شق من يخالفه، و المعنى أن هذا العقاب للمشركين بما أوقع الله بهم، لأنهم خالفوا الله و رسوله و ألحوا و أصروا على ذلك و من يشاقق الله و رسوله فإن الله شديد العقاب.

قوله تعالى: ذَلِكَ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ خطاب تشديدي للكفار يشير الى ما نزل بهم من الخزي و يأمرهم أن يذوقوه، و يذكر لهم أن وراء ذلك عذاب النار (١).

[سورة الأنفال (٨): الآيات ١٥ الى ٢٩]

إشارة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ (١٥) وَ مَنْ يُؤَلِّمُ يَوْمَئِذٍ ذُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَ مَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦) فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَ لِيُنذِرَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلََاءٌ حَسِينًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧) ذَلِكَمُ وَ أَنَّ اللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ الْكَافِرِينَ (١٨) إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ الْفَتْحُ وَ إِنْ تَنْتَهُوا فُتُوْا خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَ لَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئًا وَ لَوْ كَثُرَتْ وَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَا تَوَلَّوْا عَنَّهُ وَ أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ (٢٠) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ هُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١) إِنْ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ (٢٢) وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٥) وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَ أَيَّدَكُمْ بِنَضِيرِهِ وَ زَرَقَكُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٢٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٧) وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَ أَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَ يُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَ يَغْفِرْ لَكُمْ وَ اللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩)

ص: ٦٥٢

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ اللقاء مصدر لقي يلقى من المجرد و لاقي يلاقي من المزيد فيه، قال الراغب في مفردات القرآن: اللقاء مقابله الشيء و مصادفته معا، وقد يعتبر به عن كل واحد منهما يقال:

لقيه يلقاه لقاء و لقيًا و لقيه، و يقال ذلك في الإدراك بالحس و بالبصر و بالبصيره قال: لقد كنتم تمنون الموت من قبل ان تلقوه، و قال: لقد لقينا من سفرنا هذا نصبا، و ملاقاه الله عباره عن القيامه و عن المصير اليه قال: و اعلموا انكم ملاقوه، و قال: الذين يظنون انهم ملاقوا الله، و اللقاء الملاقاء، قال: و قال الذين لا يرجون لقاءنا، و قال: الى ربك كدحا فملاقيه. انتهى.

و قال في المجمع: اللقاء الاجتماع على وجه المقاربه لان الاجتماع قد يكون على غير وجه المقاربه فلا يكون لقاء كاجتماع الأعراض في المحل الواحد. انتهى.

و قال فيه: الزحف الدنو قليلا قليلا، و التراحف التداني يقال: زحف يزحف زحفا و أزحفت للقوم اذا دنوت لقتالهم و ثبت لهم. قال الليث: الزحف جماعه يزحفون الى عدو لهم بمره و جمعه زحوف. انتهى.

و توليه الأعداء الادبار جعلهم يلونها و هو استدبار العدو و استقبال جهه الهزيمه.

و خطاب الآيه عام غير خاص بوقت دون وقت و لا غزوه دون غزوه فلا وجه لتخصيصها

بغزوه بدر و قصر حرمه الفرار من الزحف بها كما يحكى عن بعض المفسرين. على انك عرفت أن ظاهر سياق الآيات انها نزلت بعد غزوه بدر لا- يومها، و ان الآيات ذيل ما فى صدر السوره من قوله: «يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ» الآية؛ و للكلام تتمه ستوافيك فى البحث الروائى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: وَ مَنْ يُؤَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبْرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّرًا إِلَىٰ فِيهِ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ. التحرف: الزوال عن جهه الاستواء الى جهه الحرف و هو طرف الشىء و هو أن ينحرف و يعطف المقاتل من جهه الى جهه أخرى ليتمكن من عدوه و يبادر الى إلقاء الكيد عليه، و التحيز هو أخذ الحيز و هو المكان، و الفئه القطعه من جماعه الناس، و التحيز الى فئه أن يعطف المقاتل عن الانفراد بالعدو الى فئه من قومه فيلحق بهم و يقاتل معهم.

و البواء الرجوع الى مكان و الاستقرار فيه، و لذا قال الراغب: أصل البواء مساواه الأجزاء فى المكان خلاف النبوه الذى هو منافاه الأجزاء. انتهى. فمعنى قوله: بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ أَى رَجَعَ وَمَعَهُ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ.

فمعنى الآيةين: يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا لقاء زحف أو زاحفين للقتال فلا تفروا منهم و من يفر منهم يومئذ أى وقتئذ فقد رجع و معه غضب من الله و مأواه جهنم و بس المصير إلا أن يكون فراره للتحرف لقتال أو التحيز الى فئه فلا بأس به.

قوله تعالى: فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ التدبر فى السياق لا يدع شكاً فى أن الآية تشير الى وقعه بدر و ما صنعه رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم من رميهم بكف من الحصا، و المؤمنون بوضع السيف فيهم و قتلهم القتل الذريع، و ذيل الآية أعنى قوله: و ليلى المؤمنين منه بلاء حسنا يدل على أن الكلام جار مجرى الامتنان منه تعالى، و قد أثبت تعالى عين ما نفاه فى جملة واحده أعنى قوله: «وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ» .

فمن جميع هذه الشواهد يتحصل أن المراد بقوله: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى» نفي أن تكون وقعه بدر و ما ظهر فيها من استئصال المشركين و الظفر بهم جاريه على مجرى العاده و المعروف من نواميس الطبيعه، و كيف يسع لقوم هم شرذمه قليلون ما فيهم على ما روى الافرسان و فرسان و بضعه أدرع و بضعه سيوف، أن يستأصلوا جيشا مجهزا بالأفراس و الأسلحة و الرجال و الزاد و الراحله، هم أضعافهم عده و لا يقاسون بهم قوه و شده، و أسباب الغلبه عندهم، و عوامل البأس معهم، و الموقف المناسب للتقدم لهم.

إلا ان الله سبحانه بما أنزل من الملائكه ثبت أقدام المؤمنين و أربع قلوب المشركين، و ألقى الهزيمة بما رماه النبي صلى الله عليه و آله و سلم من الحصاه عليهم فشملمهم المؤمنون قتلا و أسرا فبطل بذلك كيدهم و خمدت أنفاسهم و سكنت أجراسهم.

فبالحرى أن ينسب ما وقع عليهم من القتل بأيدي المؤمنين و الرمي الذي شملت شملهم و ألقى الهزيمة فيهم اليه سبحانه دون المؤمنين.

فما في الآيه من النفي جار مجرى الدعوى بنوع من العنايه، بالنظر الى استناد الوقعه بأطرافها الى سبب إلهي غير عادى، و لا ينافى ذلك استنادها بما وقع فيها من الوقائع الى اسبابها القريبه المعهوده فى الطبيعه بأن يعد المؤمنون قاتلين لمن قتلوا منهم، و النبي صلى الله عليه و آله و سلم راميا لما رماه من الحصاه.

و قوله: «و لِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسِينًا الظاهر ان ضمير «مِنْهُ» راجع الى الله تعالى، و الجملة لبيان الغايه و هى معطوفه على مقدر محذوف، و التقدير: إنما فعل الله ما فعل من قتلهم و رميهم لمصالح عظيمه عنده، و ليبلي المؤمنين و يمتحنهم بلاء و امتحانا حسنا أو لينعم عليهم بنعمه حسنه، و هو إثناء خصمهم و إعلاء كلمه التوحيد بهم و إغناؤهم بما غنموا من الغنائم.

و قوله: إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ تعليل لقوله: «وَ لِيُنذِرَ الْمُؤْمِنِينَ» أى إنه تعالى يليلهم لأنه سميع باستغاثتهم عليم بحالهم فيليلهم منه بلاء حسنا.

و التفریع الذی فی صدر الآیه «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ» الخ؛ متعلق بما يتضمنه الآيات السابقة «إِذْ تَسْتَعْثِنُونَ رَبَّكُمْ» الى آخر الآيات من المعنى، فإنها تعد من الله عليهم من انزال الملائكة و امدادهم بهم و تغشيه النعاس اياهم و امطار السماء عليهم و ما أوحى الى الملائكة من تأييدهم و تثبيت أقدامهم و القاء الرعب فى قلوب أعدائهم، فلما بلغ الكلام هذا المبلغ فرع عليه قوله: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى» .

و على هذا فقوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ» الى قوله: «وَ بِنَسِ الْمَصِيرِ» معترضه متعلقه بقوله: «فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَ اضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ» او بمعناه المفهوم من الجمل المسروده، و قوله: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ» الخ؛ متصل بما قبله بحسب النظم.

و ربما يذكر فى نظم الآيه وجهان آخران:

احدهما: ان الله سبحانه لما أمرهم بالقتل فى الآيه المتقدمه ذكر عقبيها ان ما كان من الفتح يوم بدر و قهر المشركين انما كان بنصرته و معونته تذكيرا للنعمة. ذكره ابو مسلم.

و الثانى: انهم لما أمروا بالقتال ثم كان بعضهم يقول: أنا قتلت فلانا و أنا فعلت كذا نزلت الآيه على وجه التنبيه لهم لئلا يعجبوا بأعمالهم. و ربما قيل: ان الفاء فى قوله: «فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ» لمجرد ربط الجمل بعضها ببعض. و الوجه ما قدمناه.

قوله تعالى: «ذَلِكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ مُبِينٌ كَيِّدٌ الْكَافِرِينَ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ «ذَلِكُمْ» موضعه رفع، و كذلك «أَنَّ اللَّهَ» فى موضع رفع، و التقدير: الأمر ذلكم و الأمر ان الله موهن، و كذلك الوجه فيما تقدم من قوله: «ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَ أَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ»، و من قال: ان «ذَلِكُمْ» مبتدأ و «فَذُوقُوهُ» خبره فقد أخطأ لأن ما بعد الفاء لا يكون خبرا لمبتدأ، و لا يجوز:

زيد فمنطلق، و لا: زيد فاضربه، إلا ان تضمير «هذا» تريد: هذا زيد فاضربه. انتهى. فمعنى

(الأنفال ٣١)، لكنهم كذبوا و لم يسمعوا و لو سمعوا لاستجابوا كما قال الله تعالى: **وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا** (الأعراف ١٧٩)، و قال تعالى حكاية عن اصحاب السعير **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** (الملك ١٠) فالمراد بالسمع فى الآيه الاولى تلقى الكلام الحق الذى هو صوت من طريق الاذن، و فى الآيه الثانية الانقياد لما يتضمنه الكلام الحق المسموع.

و الآيتان- كما ترى- خطاب متعلق بالمؤمنين متصل نوع اتصال بالآيه السابقه عليهما و تعريض للمشركين، فهو تعالى لما التفت الى المشركين فذمهم و تهكم عليهم بسؤالهم الفتح، و ذكر لهم ان الغلبه دائما لكلمه الايمان على كلمه الكفر و لدعوه الحق على دعوه الباطل، التفت الى حزبه و هم المؤمنون فأمرهم بالطاعه له و لرسوله، و حذرهم عن التولى عنه بعد استماع كلمه الحق، و أن يكونوا كأولئك اذ قالوا: سمعنا و هم لا يسمعون.

قوله تعالى: **إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقلُونَ** الى آخر الآيتين؛ تعريض و ذم للذين سبق ذكرهم من الكفار على ما يعطيه سياق الكلام و ما اشتملت عليه الآيه من الموصول و الضمائر المستعمله فى اولى العقل، و على هذا فالظاهر ان الام فى قوله: «الضُّمُّ الَّذِينَ» للعهد الذكري، و يؤول المعنى الى ان شر جميع ما يدب على الأرض من أجناس الحيوان و أنواعها هؤلاء الصم البكم الذين لا يعقلون، و إنما لم يعقلوا لأنه لا طريق لهم الى تلقى الحق لفقدهم السمع و النطق فلا يسمعون و لا ينطقون.

ثم ذكر تعالى ان الله إنما ابتلاهم بالصمم و البكمه فلا- يسمعون كلمه الحق و لا ينطقون بكلمه الحق، و بالجمله حرّمهم نعمه السمع و القبول، لأنه تعالى لم يجد عندهم خيرا و لم يعلم به و لو كان لعلم، لكن لم يعلم فلم يوفقههم للسمع و القبول، و لو انه تعالى رزقهم السمع و الحال هذه لم يثبت السمع و القبول فيهم بل تولوا عن الحق و هم معرضون.

و من هنا يعلم ان المراد بالخير حسن السريره الذى يثبت به الاستعداد لقبول الحق

و يستقر فى القلب، و ان المراد بقوله: «وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ» الإسماع على تقدير عدم الاستعداد الثابت المستقر فافهم ذلك فلا يرد انه تعالى لو أسمعهم و رزقهم قبول الحق استلزم ذلك تحقق الخير فيهم و لا وجه مع ذلك لتوليهم و إعراضهم و ذلك ان الشرط فى قوله: «وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ» على تقدير فقدهم الخير على ما يفيدته السياق.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ لِمَا دَعَاكُمْ اللَّهُ وَ الرَّسُولَ الخ؛ الى إطاعه الدعوه الحقه و عدم التولى عنها بعد استماعها اكده ثانيا بالدعوه الى استجابته الله و الرسول فى دعوه الرسول، ببيان حقيقته الأمر و الركن الواقعى الذى تعتمد عليه هذه الدعوه، و هو ان هذه الدعوه دعوه الى ما يحيى الانسان بإخراجه من مهبط الفناء و البوار، و موقفه فى الوجود، ان الله سبحانه اقرب اليه من قلبه و انه سيحشر اليه فليأخذ حذره و ليجمع هممه و يعزم عزمه.

و بالجمله فلإنسان حياه حقيقه اشرف و أكمل من حياته الدينيه الدنيويه يتلبس بها اذا تم استعدادة بالتحلى بحليه الدين و الدخول فى زمره الأولياء الصالحين كما تلبس بالحياه الدنيويه حين تم استعدادة للتلبس بها و هو جنين انسانى.

و على ذلك ينطبق قوله تعالى فى الآيه المبحوث عنها: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» فالتلبس بما تندب اليه الدعوه الحقه من الاسلام يجر الى الانسان هذه الحياه الحقيقه كما ان هذه الحياه منبع ينبع منه الاسلام و ينشأ منه العلم النافع و العمل الصالح، و فى معنى هذه الآيه قوله تعالى: مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَ لَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (النحل ٩٧).

و الآيه اعنى قوله فيها: «إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» مطلق لا- يأبى الشمول لجميع دعوته صلى الله عليه و آله و سلم المحييه للقلوب، او بعضها الذى فيه طبيعه الإحياء أو لتائجها التى هى أنواع الحياه السعيده الحقيقه كالحياه السعيده فى جوار الله سبحانه فى الآخره.

قوله تعالى: وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ الحيلولة هي التخلل وسطا، والقلب العضو المعروف. ويستعمل كثيرا في القرآن الكريم في الأمر الذى يدرك به الانسان و يظهر به أحكام عواطفه الباطنه كالحب و البغض و الخوف و الرجاء و التمنى و القلق و نحو ذلك فالقلب هو الذى يقضى و يحكم، و هو الذى يحب شيئا و يبغض آخر، و هو الذى يخاف و يرجو و يتمنى و يسر و يحزن، و هو فى الحقيقة النفس الانسانية تفعل بما جهزت به من القوى و العواطف الباطنه.

فالله سبحانه هو الحائل المتوسط بين الإنسان و بين قلبه و كل ما يملكه الإنسان و يرتبط و يتصل هو به نوعا من الارتباط و الاتصال و هو اقرب اليه من كل شىء كما قال تعالى وَ نَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (ق ١٦).

□
و الى هذه الحقيقة يشير قوله: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» فهو تعالى لكونه مالكا لكل شىء و من جملتها الإنسان ملكا حقيقيا لا مالك حقيقه سواه، أقرب اليه حتى من نفسه و قوى نفسه التى يملكها لأنه سبحانه هو الذى يملكه اياها فهو حائل متوسط بينه و بينها يملكه اياها و يربطها به فافهم ذلك.

و لذلك عقب الجمله بقوله: «وَ أَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» فإن الحشر و البعث هو الذى ينجلي عنده الملك الحق لله وحده لا شريك له، و يبطل عند ذلك كل ملك صورى و سلطنه ظاهريه إلا ملكه الحق حل ثناؤه كما قال سبحانه: لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (المؤمن / ١٦)، و قال: يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (الانفطار ١٩).

فكان الآيه تقول: و اعلموا ان الله هو المالك بالحقيقه لكم و لقلوبكم و هو أقرب اليكم من كل شىء، و انه ستحشرون اليه فيظهر حقيقه ملكه لكم و سلطانه عليكم يومئذ فلا يغنى عنكم منه شىء.

□
قوله تعالى: وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ

اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ قرأ عليّ و الباقر عليهما السّلام من أئمة اهل البيت و كذا زيد بن ثابت و الربيع بن انس و أبو العالیه علی ما فی المجمع: لتصيين باللام و نون التأكيد الثقيله، و القراءه المشهوره:

لا تصيين بلا الناهيه و نون التأكيد الثقيله.

و علی أی تقدير كان، تحذر الآيه جميع المؤمنین عن فتنه تختص بالظالمین منهم، و لا يتعداهم الى غيرهم من الكفار و المشركين، و اختصاصها بالظالمین من المؤمنین و أمر عامتهم مع ذلك باتقائها يدل علی انها و إن كانت قائمه ببعض الجماعه لكن السيئ من أثرها يعمّ الجميع ثم قوله تعالى: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» تهديد للجميع بالعقاب الشديد و لا دليل يدل علی اختصاص هذا العقاب بالحياه الدنيا و كونه من العذاب الدنيوی من قبيل الاختلافات القوميه و شيوع القتل و الفساد و ارتفاع الأمن و السلام و نحو ذلك.

و مقتضى ذلك ان تكون الفتنه المذكوره علی اختصاصها ببعض القوم مما يوجب علی عامه الامه ان يبادروا علی دفعها، و يقطعوا دابرها و يطفئوا لهيب نارها بما اوجب الله عليهم من النهي عن المنكر و الأمر بالمعروف.

فيؤول معنى الكلام الى تحذير عامه المسلمين عن المساهله فى امر الاختلافات الداخليه التى تهدد وحدتهم و توجب شق عصاهم و اختلاف كلمتهم، و لا تلبث دون ان تحزّبهم أحزابا، و تبغضهم أبعاضا، و يكون الملك لمن غلب منهم، و الغلبه لكلمه الفساد لا لكلمه الحق و الدين الحنيف الذى يشترك فيه عامه المسلمين.

فهذه فتنه تقوم بالبعض منهم خاصه و هم الظالمون غير ان سيئ أثره يعمّ الكل و يشمل الجميع فيستوعبهم الذله و المسكنه و كل ما يترقب من مر البلاء بنشوء الاختلاف فيما بينهم، و هم جميعا مسئولون عند الله و الله شديد العقاب.

و قد ابهم الله تعالى امر هذه الفتنه و لم يعرفها بكمال اسمها و رسمها غير ان قوله فيما بعد: «لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» و قوله: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» - كما تقدم -

يوضحها بعض الايضاح، و هو انها اختلاف البعض من الامه مع بعض منها فى امر يعلم جميعهم وجه الحق فيه فيجمع البعض عن قبول الحق و يقدم الى المنكر بظلمه فلا- يرد عونه عن ظلمه و لا- ينهونه عن ما ياتيه من المنكر، و ليس كل ظلم، بل الظلم الذى يسرى سوء أثره الى كافه المؤمنين و عامه الامه لمكان امره سبحانه الجميع باتقائه، فالظلم الذى هو لبعض الامه و يجب على الجميع ان يتقوه، ليس الا ما هو من قبيل التغلب على الحكومه الحقه الاسلاميه، و التظاهر بهدم القطيعات من الكتاب و السنه التى هى من حقوقها.

و أيا ما كان ففى الفتن الواقعه فى صدر الاسلام ما ينطبق عليه الآيه اوضح انطباق و قد انهدمت بها الوحده الدينيه، و بدت الفرقه و نفدت القوه، و ذهبت الشوكه على ما اشتملت عليه من القتل و السبى و النهب و هتك الاعراض و الحرمات و هجر الكتاب و إلغاء السنّه، و قال الرسول: يا رب ان قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورا.

و من شمول مشأمتها و تعرّق فسادها ان الامه لا تستطيع الخروج من أليم عذابها حتى بعد التنبه منهم لسوء فعالهم و تفریطهم فى جنب الله كلما أرادوا ان يخرجوا منها اعيدوا فيها و ذوقوا عذاب الحريق.

و قد تفتن بعض المفسرين بأن الآيه تحذر الامه و تهددهم بفتنه تشمل عامتهم و تفرّق جمعهم، و تشتت شملهم، و توعدهم بعذاب الله الشديد، و قد احسن التفتن غير انه تكلف فى توجيه العذاب بالعذاب الدنيوى، و تمحل فى تقييد ما فى الآيه من إطلاق العقاب، و أنى لهم التناوش من مكان بعيد.

و لنرجع الى لفظ الآيه:

أما على قراءه اهل البيت عليهم السلام و زيد «و اتقوا فتنه لتصيبين الذين ظلموا منكم خاصه» فاللام فى «لتصيبين» للقسم و النون الثقيله لتأكيده، و التقدير: و اتقوا فتنه اقسام لتصيبين الذين ظلموا منكم خاصه، و خاصه حال من الفتنه، و المعنى اتقوا فتنه تختص إصابته بالذين ظلموا

منكم أيها المخاطبون وهم الذين آمنوا، و عليك ان تتذكر ما سلف بيانه ان لفظ «الَّذِينَ آمَنُوا» في القرآن خطاب تشریفى للمؤمنين فى اول البعثه و بدء انتشار الدعوه لو لا قرينه صارفه عن ذلك، ثم تذكر ان فتن صدر الاسلام تنتهى الى اصحاب بدر، و الآيه على أى حال يأمر الجميع ان يتقوا فتنه تثيرها بعضهم، و ليس إلا لأن أثرها السيئ يعم الجميع كما تقدم.

و أما على قراءه المشهور: «وَ اتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» فقد ذكروا:

ان لا- فى «لا- تُصِيبَنَّ» ناهيه و النون لتأكيد النهى، و ليس «لا- تُصِيبَنَّ» جوابا للأمر فى «اتقوا» بل الكلام جار مجرى الابتداء و الاستيناف كقوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَ جُنُودُهُ (النمل ١٨) فقد قال اولاً: «وَ اتَّقُوا فِتْنَةً» ثم استأنف و قال: «لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً» لاتصال الجملتين معنى.

و ربما جوز بعض النحاه ان يكون «لا- تُصِيبَنَّ» نهياً واردا فى جواب الأمر كما يقال: اتق زيدا لا يضربك أو لا يضربنك و التقدير: اتق زيدا فإنك إن اتقيته لا يضربك و لم يشترط فى نون التأكيد أن لا يدخل الخبر.

و الآيه- كما عرفت- تتضمن خطابا اجتماعيا متوجها الى مجموع الامه و ذلك يؤيد كون الخطاب فى الآيه السابقه «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» خطابا اجتماعيا متوجها الى كافه المؤمنين، و يتفرع عليه ان المراد بالدعوه الى ما يحييهم الدعوه الى الاتفاق على الاعتصام بحبل الله و إقامة الدين و عدم التفرق فيه كما قال وَ اعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَ لَا تَفَرَّقُوا (آل عمران ١٠٣) و قال: أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَ لَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ (الشورى ١٣) و قوله: وَ أَنْ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ لَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ (الأنعام ١٥٣).

و بهذا يتأيد بعض الوجوه المذكوره سابقا فى قوله: «إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» و كذا فى قوله:

«أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَ قَلْبِهِ» و تختص الآيه به بحسب السياق و إن كانت تفيد معنى اوسع من

ذلك باعتبار اخذها في نفسها مفردة عن السياق، و الباحث الناقد لا يعوز عليه تمييز ذلك و الله الهادي.

قوله تعالى: وَ اذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الاستضعاف عدّ الشيء ضعيفا بتوهين امره، و التخطف و الخطف و الاختطاف أخذ الشيء بسرعه انتزاع، و الإيواء جعل الانسان ذا مأوى و مسكن يرجع اليه و يأوى، و التأيد من الأيد و هو القوه.

و السياق يدل على ان المراد بقوله: «إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ» الزمان الذي كان المسلمون محصورين بمكه قبل الهجره و هم قليل مستضعفون، و بقوله: «تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ» مشركوا العرب و صناديد قريش، و بقوله: «فَأَوَّكُكُمْ» أى بالمدينه، و بقوله: «وَ أَيْدِكُمْ بِنَصْرِهِ» ما اسبغ عليهم من نعمه النصر ببدر، و بقوله: «وَ رَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ» ما رزقهم من الغنائم و أحلها لهم.

و ما عده في الآيه من احوال المؤمنين و منته عليهم بالإيواء و إن كانت مما يختص بالمهاجرين منهم دون الأنصار إلا ان المراد الامتنان على جميعهم من المهاجرين و الأنصار فإنهم امه واحده يوحدهم دين واحد. على ان فيما ذكره الله في الآيه من منته التأيد بالنصر و الرزق من الطيبات و هما يعمان الجميع، هذا بحسب ما تقتضيه الآيه من حيث وقوعها في سياق آيات بدر، و لكن هى وحدها و باعتبار نفسها تعم جميع المسلمين من حيث انهم امه واحده يرجع لاحقهم الى سابقهم فقد بدأ ظهور الاسلام فيهم و هم قليل مستضعفون بمكه يخافون ان يتخطفهم الناس فأوهم بالمدينه و كثرهم بالأنصار و أيدهم بنصره فى بدر و غيره و رزقهم من جميع الطيبات الغنائم و غيرها من سائر النعم لعلهم يشكرون.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ إِلَى آخِرِ الْآيَتِينَ؛ الخيانه نقض الأمانه التى هى حفظ الامن

لحق من الحقوق بعهد أو وصيه و نحو ذلك، قال الراغب: الخيانه و النفاق واحد إلا ان الخيانه تقال اعتبارا بالعهد و الأمانه، و النفاق يقال اعتبارا بالدين ثم يتداخلان فالخيانه مخالفه الحق بنقض العهد فى السر، و نقيض الخيانه الأمانه يقال: خنت فلانا، و خنت امانه فلان و على ذلك قوله: لا تخونوا الله و الرسول و تخونوا أماناتكم. انتهى.

و قوله: «وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ» من الجائز ان يكون مجزوما معطوفا على تخونوا السابق، و المعنى: و لا تخونوا اماناتكم، و أن يكون منصوبا بحذف أن و التقدير: و أن تخونوا اماناتكم و يؤيد الوجه الثانى قوله بعده: «وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» .

و ذلك ان الخيانه و إن كانت إنما يتعلق النهى التحريمى بها عند العلم فلا نهى مع جهل بالموضوع و لا تحريم غير ان العلم من الشرائط العامه التى لا- ينجز تكليف من التكاليف المولويه إلا به فلا نكته ظاهره فى تقييد النهى عن الخيانه بالعلم مع ان العلم لكونه شرطاً عاماً مستغنى عن ذكره، و ظاهر قوله: «وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» بحذف متعلقات الفعل ان المراد: و لكم علم بأنه خيانه لا ما قيل: إن المعنى: و أنتم تعلمون مفسد الخيانه و سوء عاقبتها و تحريم الله اياها فان ذلك لا دليل عليه من جهه اللفظ و لا من جهه السياق.

فالوجه ان تكون الجملة بتقدير: و أن تخونوا أماناتكم، و يكون مجموع قوله: «ال- تَخُونُوا اللَّهَ وَ الرَّسُولَ وَ تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ» نهياً واحدا متعلقاً بنوع خيانه هى خيانه أمانه الله و رسوله و هى بعينها خيانه لأمانه المؤمنين انفسهم فان من الأمانه ما هى امانه الله سبحانه عند الناس كأحكامه المشرعه من عنده و منها ما هى أمانه الرسول كسيرته الحسنه، و منها ما هى امانه الناس بعضهم عند بعض كالأمانات من اموالهم او اسرارهم، و منها ما يشترك فيه الله و رسوله و المؤمنون، و هى الامور التى امر بها الله سبحانه و أجازها الرسول و ينتفع بها الناس و يقوم بها صلب مجتمعهم كالأسرار السياسيه و المقاصد الحريه التى تضيع بإفشائها آمال الدين و تضل بإذاعتها مساعى الحكومه الاسلاميه فيبطل به حق الله و رسوله و يعود ضرره الى

لهذا النوع من الأمانة خيانتة خيانه لله و رسوله و للمؤمنين فالخائن بهذه الخيانه من المؤمنين يخون الله و الرسول و هو يعلم ان هذه الامانه التي يخونها امانه لنفسه و لسائر اخوانه المؤمنين و هو يخون امانه نفسه، و لن يقدم عاقل على الخيانه لأمانه نفسه فان الانسان بعقله الموهوب له يدرك قبح الخيانه للأمانه فكيف يخون امانه نفسه؟

فالمراد بقوله: «و تَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» -و الله اعلم- و تخونوا في ضمن خيانه الله و الرسول اماناتكم و الحال انكم تعلمون انها امانات انفسكم و تخونونها، و أى عاقل يقدم على خيانه امانه نفسه و الاضرار بما لا يعود إلا الى شخصه فتذليل النهى بقوله:

«وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ» لتهديج العصبية الحقه و إثارة قضاء الفطره لا لبيان شرط من شرائط التكليف.

فكأن بعض افراد المسلمين كان يفشى امورا من عزائم النبي صلى الله عليه و آله و سلم المكتومه من المشركين او يخبرهم ببعض اسراره فسماه الله تعالى خيانه و نهى عنه، و عدها خيانه لله و الرسول و المؤمنين.

و يؤيد ذلك قوله بعد هذا النهى: «وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ» الخ؛ فان ظاهر السياق انه متصل بما قبله غير مستقل عنه، و يفيد حينئذ ان موعظتهم فى امر الاموال و الأولاد مع النهى عن خيانه الله و الرسول و أماناتهم انما هو لإخبار المخبر منهم المشركين بأسرار رسول الله المكتومه، استماله منهم مخافه ان يتعدوا على اموالهم و أولادهم الذين تركوهم بمكه بالهجره الى المدينة، فصاروا يخبرونهم بالأخبار إلقاء للموده و استبقاء للمال و الولد او ما يشابه ذلك نظير ما كان من أبى لبابه مع بنى قريظه.

و هذا يؤيد ما ورد فى سبب النزول ان ابا سفيان خرج من مكه بمال كثير فأخبر جبرئيل النبي صلى الله عليه و آله و سلم بخروجه و أشار عليه بالخروج اليه و كتمان أمره فكتب اليه بعضهم بالخبر فأنزل الله

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أُمَّانَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ و في نزول الآيه بعض أحاديث أخر سيأتي ان شاء الله في البحث الروائي التالي.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَقْوَى اللَّهِ يَجْعَلُ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ الفرقان ما يفرق به بين الشىء و الشىء، و هو فى الآيه بقرينه السياق و تفريعه على التقوى الفرقان بين الحق و الباطل سواء كان ذلك فى الاعتقاد بالترقيه بين الايمان و الكفر و كل هدى و ضلال او فى العمل بالتمييز بين الطاعه و المعصيه و كل ما يرضى الله او يسخطه، او فى الرأى و النظر بالفصل بين الصواب و الخطأ فان ذلك كله مما تثمره شجره التقوى، و قد اطلق الفرقان فى الآيه و لم يقيده و قد عدّ جمل الخير و الشر فى الآيات السابقه و الجميع يحتاج الى الفرقان (١).

[سوره الأنفال (٨): الآيات ٣٠ الى ٤٠]

اشاره

وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يُقَاتِلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْلَا نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ أَوْ ارْتِنَّا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ إِنْ أَوْلِيَاؤُهُ إِلَّا الْمُتَّفِقُونَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيهًا فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلُهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلَّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠)

ص: ٤٤٨

١ - ١. الانفال ١٥-٢٩: بحث روائى فى: الجهاد فى سبيل الله؛ معنى الآيه «اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ» ؛ و الآيه «أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ»؛ أصحاب الجمل.

قوله تعالى: وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ

الى آخر الآيه؛ قال الراغب: المكر صرف الغير عما يقصده بحيله، و ذلك ضربان: ضرب محمود و ذلك ان يتحرى به فعل جميل و على ذلك قال: و الله خير الماكرين، و مذبوم و هو ان يتحرى به فعل قبيح قال: و لا يحيق المكر السيئ إلا بأهله. و اذ يمكر بك الذين كفروا. فانظر كيف كان عاقبه مكرهم، و قال فى الأمرين: و مكروا مكرًا و مكرنا مكرًا، و قال بعضهم: من مكر الله امهال العبد و تمكينه من اعراض الدنيا، و لذلك قال امير المؤمنين رضى الله عنه: من وسع عليه دنياه و لم يعلم انه مكر به فهو مخدوع عن عقله. انتهى.

و فى المجمع: الإثبات الحبس يقال: رماه فأثبته أى حبسه مكانه، و أثبته فى الحرب أى جرحه جراحه مثقله. انتهى.

و مقتضى سياق الآيات ان يكون قوله: «وَ إِذِ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا» الآيه؛ معطوفه على قوله سابقا: «وَ إِذِ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ» فالآيه مسوقه لبيان ما اسبغ الله عليهم من نعمته، و أيدهم به من اياديه التى لم يكن لهم فيها صنع.

و معنى الآيه: و اذكر او و ليذكروا اذ يمكر بك الذين كفروا من قريش لإبطال دعوتك ان يوقعوا بك احد أمور ثلاثه: إما ان يحبسوك و اما ان يقتلوك و اما ان يخرجوك و يمكرون و يمكر الله و الله خير الماكرين.

و الترديد فى الآيه بين الحبس و القتل و الإخراج بيانا لما كانوا يمكرونه من مكر يدل انه كان منهم شورى يشاور فيها بعضهم بعضا فى امر النبى صلى الله عليه و آله و سلم و ما كان يهمهم و يهتمون به من اطفاء نور دعوته، و بذلك يتأيد ما ورد من اسباب النزول ان الآيه تشير الى قصه دار الندوه على ما سيجىء فى البحث الروائى التالى ان شاء الله تعالى.

قوله تعالى: «وَ إِذِ تَتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِلَى آخِرِ الآيه الأساطير الأحاديث جمع اسطوره و يغلب فى الأخبار الخرافيه، و قوله حكاية عنهم: «قَدْ سَمِعْنَا» و قوله: «لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا» و قوله: «مِثْلَ هَذَا» و لم يقل: مثل هذه او

مثلها كل ذلك للدلالة على اهانتهم بآيات الله و إزرائهم بمقام رساله، و نظيرها قولهم: «إِنَّ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ» .

و المعنى: و اذا تتلى عليهم آياتنا التي لا ريب في دلالتها على انها من عندنا و هي تكشف عن ما نريده منهم من الدين الحق ليجوا و اعتدوا بها و هونوا امرها و أزروا برسالتنا و قالوا قد سمعنا و عقلنا هذا الذي تلى علينا لا حقيقه له الا انه من أساطير الأولين، و لو نشاء لقلنا مثله غير أننا لا نعتنى به و لا نهتم بأمثال هذه الأحاديث الخرافيه.

قوله تعالى: وَ إِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ. الإمطار هو انزال الشىء من فوق، و غلب في قطرات الماء من المطر او هو استعاره امطار المطر لغيره كالحجاره و كيف كان فقولهم: امطر علينا حجاره من السماء بالتصريح باسم السماء للدلالة على كونه بنحو الآيه السماويه و الإهلاك الإلهى محضاً.

فإمطار الحجاره من السماء عليهم على ما سألوا احد اقسام العذاب و يبقى الباقي تحت قولهم: «أَوِ اثْنًا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» و لذلك نكر العذاب و أبهم وصفه ليدل على باقى اقسام العذاب، و يفيد مجموع الكلام: ان امطر علينا حجاره من السماء او اثنتا بعذاب آخر غيره يكون أليماً، و انما افرد امطار الحجاره من بين افراد العذاب الأليم بالذكر لكون الرضخ بالحجاره مما يجتمع فيه عذاب الجسم بما فيه من تألم البدن و عذاب الروح بما فيه من الذله و الإهانه.

ثم قوله: «إِنَّ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ» يدل بلفظه على ان الذى سمعوه من النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بلسان القال او الحال بدعوته هو قوله: «هذا هو الحق من عند الله» و فيه شىء من معنى الحصر، و هذا غير ما كان يقوله لهم: هذا حق من عند الله فان القول الثانى يواجه به الذى لا يرى دينا سماويا و نبوه إلهيه كما كان يقوله المشركون و هم الوثنيه: ما انزل الله على بشر من شىء، و اما القول الأول فإنما يواجه به من يرى ان هناك دينا حقاً من عند الله و رساله إلهيه يبلغ الحق من عنده ثم ينكر كون ما أتى به النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أو بعض ما أتى به هو الحق من عند الله

تعالى فيواجه بأنه هو الحق من عند الله لا غيره، ثم يرد بالاشتراط في مثل قوله: اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك فامطر علينا حجاره من السماء او ائتنا بعذاب اليم.

فالأشبه ان لا يكون هذا حكاية عن بعض المشركين بنسبته الى جميعهم لاتفاقهم فى رأى او رضا جميعهم بما قاله هذا القائل بل كأنه حكاية عن بعض أهل الردة ممن اسلم ثم ارتد او عن بعض اهل الكتاب المعتقدين بدين سماوى حق فافهم ذلك.

قوله تعالى: **وَ مَا لَهُمْ اَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللّٰهُ وَ هُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَ مَا كَانُوا اَوْلِيَاءَهُ اِلَّا اٰخِرَ الْاَيَّامِ** استفهام فى معنى الإنكار او التعجب، وقوله: **وَ مَا لَهُمْ** بتقدير فعل يتعلق به الظرف و يكون قوله: «ان لا يعذبهم» مفعول له او هو من التضمين نظير ما قيل فى قوله: **هَلْ لَكَ اِلٰى اَنْ تَزْكٰى** (النازعات ١٨).

و التقدير على أى حال نحو من قولنا: «و ما الذى يثبت و يحق لهم عدم تعذيب الله اياهم و الحال انهم يصدون عن المسجد الحرام و يمنعون المؤمنين من دخوله و ما كانوا اولياءه».

فقوله: **وَ هُمْ يَصُدُّونَ** الخ؛ حال عن ضمير **يُعَذِّبُهُمُ** و قوله: **وَ مَا كَانُوا اَوْلِيَاءَهُ** حال عن ضمير **يَصُدُّونَ** .

و قوله: **اِنْ اَوْلِيَاؤُهُ اِلَّا الْمُتَّقُونَ** تعليل لقوله: **وَ مَا كَانُوا اَوْلِيَاءَهُ** أى ليس لهم ان يلوا امر البيت فيجيزوا و يمنعوا من شاءوا لأن هذا المسجد مبنى على تقوى الله فلا يلي امره إلا المتقون و ليسوا بهم.

فقوله: **اِنْ اَوْلِيَاؤُهُ اِلَّا الْمُتَّقُونَ** جملة خبرية تعلل القول بأمر بين يدركه كل ذى لب، و ليست الجملة إنشائية مشتملة على جعل الولاية للمتقين، و يشهد لما ذكرناه قوله بعد **وَ لَكِنَّ اَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** كما لا يخفى.

و المراد بالعذاب العذاب بالقتل أو الأعم منه على ما يفيد السياق باتصال الآية بالآية التالية، و قد تقدم ان الآية غير متصله ظاهرا بما تقدمها أى ان الآيتين **وَ اِذْ قَالُوا اللّٰهُمَّ** الخ؛

«وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ» الخ؛ خارجتان عن سياق الآيات، ولازم ذلك ما ذكرناه.

قوله تعالى: «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصَدِيهً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» المكاء بضم الميم الصغير، والمكاء بصيغه المبالغة طائر بالحجاز شديد الصغير، ومنه المثل السائر: بنيك حمرى و مككىنى. و التصديه التصفيق بضرب اليد على اليد.

و قوله: «وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ» الضمير لهؤلاء الصادقين المذكورين فى الآيه السابقه و هم المشركون من قريش، و قوله: «فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ» بيان إنجاز العذاب الموعد لهم بقريته التفرغ بالفاء.

و من هنا يتأيد ان الآيتين متصلتان كلاما واحدا، و قوله: «وَمَا كَانَ» الخ؛ جملة حالیه و المعنى: و ما لهم ان لا يعذبهم الله و الحال انهم يصدون العباد من المؤمنين عن المسجد الحرام و ما كان صلاتهم عند البيت إلا ملعبه من المكاء و التصديه فإذا كان كذلك فليذوقوا العذاب بما كانوا يكفرون، و الالتفات فى قوله: «فَذُوقُوا الْعَذَابَ» عن الغيبه الى الخطاب لبلوغ التشديد.

و يستفاد من الآيتين ان الكعبه المشرفه لو تركت بالصد استعقب ذلك المؤاخذة الإلهيه بالعذاب قال على عليه السلام فى بعض وصاياه «الله الله فى بيت ربكم فانه إن ترك لم تنظروا» (١).

قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيُصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ يَبِينُ حَالُ الْكُفَّارِ فِي ضَلَالٍ سَعِيهِمُ الَّذِي يُسْعَوْنَهِ لِإِبْطَالِ دَعْوَةِ اللَّهِ وَ الْمَنَعِ عَنِ سُلُوكِ السَّالِكِينَ لِسَبِيلِ اللَّهِ، وَ يشرح ذلك قوله: «فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ» الخ.

ص: ٦٧٣

و بهذا السياق يظهر ان قوله: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ» بمنزله التعليل، و محصل المعنى ان الكفر سيبعثهم -بحسب سنه الله في الأسباب- الى ان يسعوا في إبطال الدعوة و الصّد عن سبيل الحق غير ان الظلم و الفسق و كل فساد لا يهدى الى الفلاح و النجاح فسينفقون اموالهم في سبيل هذه الاغراض الفاسده فتضيع الاموال في هذا الطريق فيكون ضيعتها موجب لتحصيرهم، ثم يغلبون فلا ينتفعون بها، و ذلك ان الكفار يحشرون الى جهنم و يكون ما يأتون به في الدنيا من التجمع على الشر و الخروج الى محاربه الله و رسوله بحداء خروجهم محشورين الى جهنم يوم القيامة.

و قوله: «فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ» الى آخر الآيه؛ من ملاحم القرآن و الآيه من سوره الأنفال النازله بعد غزوه بدر فكانها تشير الى ما سيقع من غزوه أحد او هي و غيرها، و على هذا فقوله: «فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً» اشاره الى غزوه أحد او هي و غيرها، و قوله: «ثُمَّ يُغْلَبُونَ» الى فتح مکه، و قوله: «وَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ» الى حال من لا يوفق للإسلام منهم.

قوله تعالى: لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَ يَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمُهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ الخبائثه و الطيب معنيان متقابلان و قد مر شرحهما و التمييز إخراج الشيء عما يخالفه و إلحاقه بما يوافقه بحيث ينفصل عما يخالفه، و الركم جمع الشيء فوق الشيء و منه سحب مركوم أى مجتمع الأجزاء بعضها الى بعض و مجموعها و تراكم الأشياء تراكب بعضها بعضا.

و الآيه في موضع التعليل لما أخبر به في الآيه السابقه من حال الكفار بحسب السنه الكونيه، و هو انهم يسعون بتمام وجدهم و مقدرتهم الى ان يطفئوا نور الله و يصدوا عن سبيل الله فينفقون في ذلك الاموال و يبذلون في طريقه المساعى غير انهم لا يهتدون الى مقاصدهم و لا يبلغون آمالهم بل تضيع اموالهم، و تحبط اعمالهم و تضل مساعيهم، و يرثون بذلك

قوله تعالى: قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ الانتهاء الإقلاع عن الشيء لأجل النهي، والسلف التقدم، والسنة هي الطريقه و السيره.

امر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَم ان يبلغهم ذلك و فى معناه تطميع و تخويف و حقيقته دعوه الى ترك القتال و الفتنه ليغفر الله لهم بذلك ما تقدم من قتلهم و إيذائهم للمؤمنين فان لم ينتهوا عما نهوا عنه فقد مضت سنه الله فى الأولين منهم بالإهلاك و الإباده و خسران السعى.

قوله تعالى: وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَ يَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ الْآيَةُ؛ و ما بعدها يشتملان على تكليف المؤمنين بحذاء ما كلف به الكفار فى الآيه السابقه، و المعنى: قل لهم إن ينتهوا عن المحاده لله و رسوله يغفر لهم ما قد سلف و ان يعودوا الى مثل ما عملوا فقد علموا بما جرى على سابقتهم قل لهم كذا و أما انت و المؤمنون فلا تهنوا فيما يهكم من إقامة الدين و تصفيه جو صالح للمؤمنين، و قاتلوهم حتى تنتهى هذه الفتن التى تفاجئكم كل يوم، و لا تكون فتنه بعد فإن انتهوا فإن الله يجازيهم بما يرى من اعمالهم، و إن تولوا عن الانتهاء فأديموا القتال و الله مولاكم فاعلموا ذلك و لا تهنوا و لا تخافوا.

و الفتنه ما يمتحن به النفوس و تكون لا- محاله مما يشق عليها، و غلب استعمالها فى المقاتل و ارتفاع الأمن و انتقاض الصلح، و كان كفار قريش يقبضون على المؤمنين بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَم قبل الهجره و بعدها الى مده فى مكه و يعذبونهم و يجبرونهم على ترك الاسلام و الرجوع الى الكفر، و كانت تسمى فتنه.

و قد ظهر بما يفيد السياق من المعنى السابق ان قوله: «وَ قَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ» كناية عن تضعيفهم بالقتال حتى لا يغتروا بكفرهم و لا- يلقوا فتنه يفتتن بها المؤمنون، و يكون الدين كله لله لا- يدعو الى خلافه احد، و ان قوله: «فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» المراد

به الانتهاء عن القتال و لذلك اردفه بمثل قوله: «فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» أى عندئذ يحكم الله فيهم بما يناسب اعمالهم و هو بصير بها، و ان قوله: «و إن تولوا» الخ؛ أى ان تولوا عن الانتهاء، و لم يكفوا عن القتال و لم يتركوا الفتنه فاعلموا ان الله مولاكم و ناصركم و قاتلوهم مطمئنين بنصر الله نعم المولى و نعم النصير.

و قد ظهر ان قوله: «و يَكُونُ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ» لا- ينافى إقرار اهل الكتاب على دينهم ان دخلوا فى الذمه و اعطوا الجزية فلا نسبه لآليه مع قوله تعالى: حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (التوبه ٢٩/)/بالناسخيه و المنسوخيه (١).

[سوره الأنفال (٨): الآيات ٤١ الى ٥٤]

اشاره

وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبَىٰ وَ لِالْيَتَامَىٰ وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنْزَلْنَا عَلَىٰ عِبَادِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ وَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَىٰ وَ الرِّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتِلَافْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَ لَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ يُخَيَّبَ مَنْ حَتَّىٰ عَنْ بَيِّنَةٍ وَ إِنْ اللَّهُ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَايِكٍ قَلِيلًا وَ لَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَ تَلَتَّازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَ لَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّفَقُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَ يُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَ إِلَىٰ اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ اذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ وَ لَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَ لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَ رِئَاءَ النَّاسِ وَ يُصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَ إِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَ قَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَ إِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ وَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُبَغِّضُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَوَاهُمْ دِينَهُمْ وَ مَنْ يَتَّوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) وَ لَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَ اذْبَارَهُمْ وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَبَرًا بِعَمَلِهِمْ عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُعَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَذَابُ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَ اعْرِفْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَ كُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)

ص: ٤٧٤

قوله تعالى: وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَ لِلرَّسُولِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الغنم و الغنيمه إصابه الفائده من جهه تجاره او عمل او حرب و ينطبق بحسب مورد نزول الآية على غنيمه الحرب، قال الراغب: الغنم-بفتحتين-معروف قال: و من البقر و الغنم ما حرمننا عليهم شحومهما، و الغنم-بالضم فالسكون-إصابته و الظفر به ثم استعمل فى كل مظفور به من جهه العدى و غيرهم قال: و اعلموا أنما غنمتم من شىء، فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا. و المغنم ما يغنم و جمعه مغانم قال: فعند الله مغانم كثيره، انتهى.

و ذو القربى القريب و المراد به قرابه النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم او خصوص اشخاص منهم على ما يفسره الآثار القطعيه، و اليتيم هو الانسان الذى مات ابوه و هو صغير، قالوا: كل حيوان يتيم من قبل أمه إلا الانسان فان يتمه من قبل ابيه.

و قوله: «فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ» الخ؛ قرئ بفتح أن، و يمكن ان يكون بتقدير حرف الجرّ و التقدير:

و اعلموا ان ما غنمتم من شىء فعلى أن لله خمسه اى هو واقع على هذا الاساس محكوم به، و يمكن ان يكون بالعطف على أن الاولى، و حذف خبر الاولى لدلاله الكلام عليه، و التقدير:

اعلموا أن ما غنمتم من شىء يجب قسمته فاعلموا ان خمسه لله، او يكون الفاء لاستشمام معنى

الشرط فان مآل المعنى الى نحو قولنا: إن غنمتم شيئاً فخمسه لله، الخ؛ فالفاء من قبيل فاء الجزاء، وكرر أن للتأكيد، والأصل اعلموا أن ما غنمتم من شيء أن خمسه لله، الخ؛ والأصل الذى تعلق به العلم هو: ما غنمتم من شيء خمسه لله و للرسول، الخ؛ وقد قدم لفظ الجلاله للتعظيم.

□
و قوله: **إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ الْخ؛** قيد للأمر الذى يدل عليه صدر الآية أى أدوا خمسه إن كنتم آمنتم بالله و ما أنزلنا على عبدنا، و ربما قيل: انه متصل بقوله تعالى فى الآية السابقة: «فاعلموا ان الله موليكم» هذا و السياق الذى يتم بحيلولة قوله: «وَ اعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ الْخ؛ لا يلائم ذلك.

و قوله تعالى: **وَ مَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ** الظاهر ان المراد به القرآن بقريته تخصيص النبي صلى الله عليه و آله و سلم بالإنزال، و لو كان المراد به الملائكة المنزلون يوم بدر- كما قيل - لكان الأنسب اولاً: ان يقال: و من أنزلنا على عبدنا، او ما يؤدى هذا المعنى و ثانياً: ان يقال:

عليكم لا على عبدنا فان الملائكة كما أنزلت لنصره النبي صلى الله عليه و آله و سلم أنزلت لنصره المؤمنين معه كما يدل عليه قوله: **فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّينَ** (الأنفال/٩).

و قوله بعد ذلك: **إِذْ يُوحَى رُبَّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَجَبَّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا الْخ؛** (الأنفال/ ١٢). و نظيرهما قوله: **إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ بَلَىٰ إِنْ تَصَبَّرُوا وَ تَتَّقُوا وَ يَأْتُواكُمْ مِنْ قُدْرِهِمْ هَذَا يُمِدُّكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ** (آل عمران/١٢٥).

□
و فى الالتفات من الغيبة الى التكلم فى قوله: **«إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَ مَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا»** من بسط اللطف على رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم و اصطفاؤه بالقرب ما لا يخفى.

□
و يظهر بالتأمل فيما قدمناه من البحث فى قوله تعالى فى اول السوره: **«يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ»** الآية؛ أن المراد بقوله: **«وَ مَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ»** هو قوله

تبارك و تعالی: «فَكَلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا» بما يحتف به من الآيات.

و المراد بقوله: «يَوْمَ الْفُرْقَانِ» يوم بدر كما يشهد به قوله بعده: «يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ» فان يوم بدر هو اليوم الذى فرق الله فيه بين الحق و الباطل فأحق الحق بنصرته، و أبطل الباطل بخذلانه.

و قوله تعالى: وَ اللَّهُ عَلِي كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ بمنزله التعليل لقوله: «يَوْمَ الْفُرْقَانِ» بما يدل عليه من تمييزه تعالى بين الحق و الباطل كأنه قيل: و الله على كل شىء قدير فهو قادر ان يفرق بين الحق و الباطل بما فرق.

فمعنى الآية-و الله أعلم-و اعلموا ان خمس ما غنمتم اى شىء كان هو لله و لرسوله و لذى القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل فردوه الى أهله ان كنتم آمنتم بالله و ما أنزله على عبده محمد صلى الله عليه و آله و سلم يوم بدر، و هو ان الأنفال و غنائم الحرب لله و لرسوله لا يشارك الله و رسوله فيها احد، و قد أجاز الله لكم أن تأكلوا منها و أباح لكم التصرف فيها فالذى أباح لكم التصرف فيها يأمركم ان تؤدوا خمسها الى أهله.

و ظاهر الآية أنها مشتملة على تشريع مؤبد كما هو ظاهر التشريعات القرآنية، و أن الحكم متعلق بما يسمى غنما و غنيمه سواء كان غنيمه حربيه مأخوذه من الكفار أو غيرها مما يطلق عليه الغنيمه لغه كأرباح المكاسب و الغوص و الملاحه و المستخرج من الكنوز و المعادن، و إن كان مورد نزول الآية هو غنيمه الحرب فليس للمورد أن يخصص.

و كذا ظاهر ما عد من موارد الصرف بقوله: «لِللَّهِ خُمُسُهُ وَ لِلرَّسُولِ وَ لِذِي الْقُرْبَى وَ لِالْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» انحصار الموارد فى هؤلاء الأصناف، و أن لكل منهم سهما بمعنى استقلاله فى اخذ السهم كما يستفاد مثله من آيه الزكاه من غير ان يكون ذكر الأصناف من قبيل التمثيل.

فهذا كله مما لا ريب فيه بالنظر الى المتبادر من ظاهر معنى الآية، و عليه وردت الأخبار

من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السّلام وقد اختلفت كلمات المفسرين من أهل السنه فى تفسير الآيه و ستعرض لها فى البحث الروائى التالى إن شاء الله تعالى.

قوله تعالى: إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَ هُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَ الرِّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَ لَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا الْعُدْوَةَ بِالضَّمِّ وَ قد يكسر شفير الوادى، و الدنيا مؤنث أدنى كما ان القصوى و قد يقال:القصيا مؤنث اقصى و الركب كما قيل هو العير الذى كان عليه ابو سفيان بن حرب.

و الظرف فى قوله: «إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ» بيان ثان لقوله فى الآيه السابقه: «يَوْمَ الْفُرْقَانِ» كما أن قوله: «يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ» بيان اول له متعلق بقوله: «أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا» و اما ما يظهر من بعضهم إنه بيان لقوله: «وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» بما يفيد به حسب المورد، و المعنى: و الله قدير على نصركم و أنتم أذله اذ انتم نزول بشفير الوادى الأقرب، فلا يخفى بعده و وجه التكلف فيه.

و قوله تعالى: «وَ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ»، سياق ما تقدمه من الجمل الكاشفه عن تلاقى الجيشين، و كون الركب اسفل منهم، و ان الله بقدرته التى قهرت كل شىء فرق بين الحق و الباطل، و أيد الحق على الباطل، و كذا قوله بعد: «وَ لَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا» كل ذلك يشهد على أن المراد بقوله: «وَ لَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِأَخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ» بيان ان التلاقى على هذا الوجه لم يكن إلا- بمشيئه خاصه من الله سبحانه حيث نزل المشركون و هم ذووا عده و شده بالعدوه القصوى و فيها الماء و الأرض الصلبة، و المؤمنون على قله عددهم و هوان امرهم بالعدوه الدنيا و لا ماء فيها و الأرض رملية لا تثبت تحت اقدامهم، و تخلص العير منهم اذ ضرب ابو سفيان فى الساحل أسفل، و تلاقى الفريقان لا- حاجز بينهما و لا مناص عندئذ عن الحرب، فالتلاقى و المواجهه على هذا الوجه ثم ظهور المؤمنين على المشركين، لم يكن عن اسباب عاديه بل لمشيئه خاصه إلهيه ظهرت بها قدرته و بانته بها عنايته الخاصه و نصره

و تأييده للمؤمنين.

فقوله: «وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاحْتِلَافِي فِي الْمِيعَادِ» بيان ان هذا التلاقي لم يكن عن سابق قصد و عزمه، و لا رويه او مشوره، و لهذا المعنى عقبه بقوله: «وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا» بما فيه من الاستدراك.

و قوله: لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنِهِ وَيُحْيِي مَنْ حَيَّ عَن بَيْنِهِ لتعليل ما قضى به من الأمر المفعول أى إن الله إنما قضى هذا الذى جرى بينكم من التلاقي و المواجهه ثم تأييد المؤمنين و خذلان المشركين ليكون ذلك بينه ظاهره على حقيقه الحق و بطلان الباطل فيهلك من هلك عن بينه و يحيى من حى عن بينه.

و بذلك يظهر ان المراد بالهلاكه و الحياه هو الهدى و الضلال لأن ذلك هو الذى يرتبط به وجود الآيه البينه ظاهرا.

و كذا قوله: وَ إِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ عطف على قوله: «لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيْنِهِ» الخ؛ أى و إن الله إنما قضى ما قضى و فعل ما فعل لأنه سميع يسمع دعاءكم عليم يعلم ما فى صدوركم، و فيه إشاره الى ما ذكره فى صدر الآيات: «إِذْ تَسْتَدْعِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ» الى آخر الآيات.

و على هذا السياق- أى لبيان أن مرجع الأمر فى هذه الوقعه هو القضاء الخاص الإلهى دون الأسباب العاديه- سيق قوله تعالى بعد: «إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَاةٍ قَلِيلًا» الخ؛ و قوله «وَ إِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَنْ أَعْمَهُمُ» الخ؛ و قوله: «إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ» الخ.

و معنى الآيه يوم الفرقان هو الوقت الذى انتم نزول بالعدوه الدنيا و هم نزول بالعدوه القصى، و قد توافق نزولكم بها و نزولهم بها بحيث لو تواعدتم بينكم ان تلتقوا بهذا الميعاد لاختلقتم فيه و لم تتلاقوا على هذه الوتيره فلم يكن ذلك منكم و لا منهم و لكن ذلك كان امرا

مفعولا و الله قاضيه و حاكمه، و إنما قضى ما قضى ليظهر آيه بينه فتتم بذلك الحجه، و لأنه قد استجاب ذلك دعوتكم بما سمع من استغاثتكم و علم به من حاجه قلوبكم.

قوله تعالى: إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَاكِبِكُمْ قَلِيلًا إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ الفشل هو الضعف مع الفرع، و النزاع هو الاختلاف و هو من النزاع نوع من القلع كأن المتنازعين ينزع كل منهما الآخر عما هو فيه، و التسليم هو النتيجة.

و الكلام على تقدير اذكر أى اذكر وقتا يريكمهم الله فى منامك قليلا، و إنما أراكمهم قليلا ليربط بذلك قلوبكم و تطمئن نفوسكم و لو أراكمهم كثيرا ثم ذكرتها للمؤمنين افزعكم الضعف و اختلفتم فى امر الخروج اليهم و لكنه تعالى نجاكم بإراءتهم قليلا عن الفشل و النزاع انه عليهم بذات الصدور و هى القلوب يشهد ما يصلح به حال القلوب فى اطمئنانها و ارتباطها و قوتها.

و الآيه تدل على ان الله سبحانه أرى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم رؤيا مبشره رأى فيها ما وعده الله من إحدى الطائفتين انها لهم، و قد أراهم قليلا لا يعبا بشأنهم، و أن النبى صلى الله عليه و آله و سلم ذكر ما رآه للمؤمنين و وعدهم وعد تبشير فعزموا على لقائهم. و الدليل على ذلك قوله: «وَلَوْ أَرَأَوْكُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ» الخ؛ و هو ظاهر.

قوله تعالى: وَ إِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّقَاتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيَقَلُّكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ معنى الآيه ظاهر، و لا تنافى بين هذه الآيه و قوله تعالى: فَذَكَرَ اللَّهُ لَكُمْ آيَةً فِي فَتْنِ التَّقَاتِ فَتَهُ تَقَاتُلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ أُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلِهِمْ رَأَى الْعَيْنِ وَ اللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ (آل عمران ١٦٣) بناء على ان الآيه تشير الى وقعه بدر.

و ذلك ان التقليل الذى يشير اليه فى الآيه المبحوث عنها مقيد بقوله: «اذ التقيتم» و بذلك يرتفع التنافى كأن الله سبحانه أرى المؤمنين قليلا فى اعين المشركين فى بادئ الالتقاء ليستحقروا جمعهم و يشجعهم ذلك على القتال و النزال حتى اذا زحفوا و اختلطوا، كثر المؤمنين فى أعينهم فأوهم مثلهم رأى العين فأوهم بذلك عزمهم و أطار قلوبهم فكانت الهزيمة فأيه

الأنفال تشير الى اول الوقعه، و آيه آل عمران الى ما بعد الزحف و الاختلاط و قوله: «لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا» متعلق بقوله: «يُرِيكُمُوهُمْ» و تعليل لمضمونه.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ الى آخر الآيات الثلاث؛ قال الراغب فى المفردات: الثبات - بفتح الثاء - ضد الزوال انتهى فهو فى المورد ضد الفرار من العدو، و هو بحسب ماله من المعنى اعم من الصبر الذى يأمر به فى قوله: «وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» فالصبر ثبات قبال المكروه بالقلب بأن لا يضعف و لا يفزع و لا يجزع، و بالبدن بأن لا يتكاسل و لا يتساهل و لا يزول عن مكانه و لا يعجل فيما لا يحمد فيه العجل فالصبر ثبات خاص.

و الريح على ما قيل، العز و الدوله، و قد ذكر الراغب ان الريح فى الآيه بمعنى الغلبه استعاره كأن من شأن الريح ان تحرك ما هبت عليه و تقلعه و تذهب به، و الغلبه على العدو يفعل به ما تفعله الريح بالشىء كالتراب فاستعيرت لها.

و قال الراغب: البطر دهش يعتري الانسان من سوء احتمال النعمه و قله القيام بحقها و صرفها الى غير وجهها قال عز و جل: «بَطْرًا وَرِثَاءَ النَّاسِ» و قال: «بَطْرَتْ مَعِيشَتُهَا» و أصله: بطرت معيشته فصرف عنه الفعل و نصب، و يقارب البطر الطرب، و هو خفه أكثر ما يعتري من الفرح و قد يقال ذلك فى الترح، و البيطره معالجه الدابه. انتهى. و الرثاء المراءاه.

و قوله: فَاثْبُتُوا أمر بمطلق الثبوت امام العدو، و عدم الفرار منه فلا يتكرر بالأمر ثانيا بالصبر كما تقدمت الإشارة اليه.

و قوله: وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا اى فى جنانكم و لسانكم فكل ذلك ذكر، و من المعلوم أن الأحوال القليله الباطنه من الإنسان هى التى تميز مقاصده و تشخصها سواء وافقها اللفظ كالفقير المستغيث بالله من فقره و هو يقول: يا غنى و المريض المستغيث به من مرضه و هو يقول: يا شافى و لو قال الفقير فى ذلك: يا الله او قال المريض فيه ذلك لكان معناه: يا غنى و يا

شافى لأنهما بمقتضى الحال الباعث لهما على الاستغاثه و الدعوه لا يريدان إلا ذلك كما هو ظاهر.

و الذى يخرج الى قتال عدوه، ثم لقيه و استعد الظرف للقتال، و ليس فيه إلا زهاق النفوس، و سفك الدماء و نقص الأطراف و كل ما يهدد الانسان بالفناء فى ما يحبه فان حاله يحوّل فكرته و يصرف إرادته الى الظفر بما يريد بالقتال، و الغلبه على العدو الذى يهدده بالفناء، و الذى حاله هذا الحال و تفكيره هذا التفكير انما يذكر الله سبحانه بما يناسب حاله و تنصرف اليه فكرته.

و هذا اقوى قرينه على ان المراد بذكر الله كثيرا ان يذكر المؤمن ما علمه تعالى من المعارف المرتبطه بهذا الشأن و هو انه تعالى إلهه و ربه الذى بيده الموت و الحياه و هو على نصره لقدير، و أنه هو مولاه نعم المولى و نعم النصير، و قد وعده النصر اذ قال: إن تنصروا الله ينصركم و يثبت اقدامكم، و أن الله لا يضيع أجر من احسن عملا، و أن مآل امره فى قتاله الى احدى الحسنين إما الظفر على عدوه و رفع رايه الاسلام و إخلاص الجو لسعادته الدينيه، و إما القتل فى سبيل الله و الانتقال بالشهاده الى رحمته، و الدخول فى حظيره كرامته، و مجاوره المقربين من اوليائه، و ما فى هذا الصف من المعارف الحقيقه التى تدعو الى السعاده الواقعيه و الكرامه السرمديه.

و قد قيد الذكر بالكثير لتجدد به روح التقوى كلما لاح للانسان ما يصرف نفسه الى حب الحياه الفانيه و التمتع بزخارف الدنيا الغارّه و الخطورات النفسانيه التى يلقيها الشيطان بتسويله.

□
و قوله: وَ أَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ ظاهر السياق ان المراد بها إطاعه ما صدر من ناحيته تعالى و ناحيه رسوله من التكاليف و الدساتير المتعلقة بالجهاد و الدفاع عن حومه الدين و بيضه الإسلام مما تشتمل عليه آيات الجهاد و السنّه النبويه كالاتداء بإتمام الحجّه

و عدم التعرض للنساء و الذرارى و الكف عن تبييت العدو و غير ذلك من أحكام الجهاد.

و قوله: «و لا تَأَزَعُوا فَتَفْشَلُوا وَ تَذْهَبَ رِيحُكُمْ» اى و لا- تختلفوا بالنزاع فيما بينكم حتى يورث ذلكم ضعف ارادتكم و ذهاب عزتكم و دولتكم او غلبتكم فان اختلاف الآراء يخلّ بالوحده و يوهن القوه.

و قوله: «وَ اصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» اى الزموا الصبر على ما يصيبكم من مكاره القتال مما يهددكم به العدو، و على الإكثار من ذكر الله، و على طاعه الله و رسوله من غير ان يهزكم الحوادث او يزجركم ثقل الطاعه او تغويكم لذه المعصيه او يضلكم عجب النفس و خيلاؤها.

و قد أكد الأمر بالصبر بقوله: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ» لأن الصبر اقوى عون على الشدائد و أشد ركن تجاه التلون فى العزم و سرعه التحول فى الإمراده، و هو الذى يخلّى بين الانسان و بين التفكير الصحيح المطمئن حيث يهجم عليه الخواطر المشوشه و الأبتكار الموهنه لإرادته عند الأهوال و المصائب من كل جانب فالله سبحانه مع الصابرين.

و قوله: «و لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطْرًا وَ رِثَاءَ النَّاسِ الآيه؛ نهى عن اتخاذ طريقه هؤلاء البطرين المرئين الصادين عن سبيل الله، و هم على ما يفيدته سياق الكلام فى الآيات، كفّار قريش، و ما ذكره من اوصافهم أعنى البطر و رثاء الناس و الصدّ عن سبيل الله هو الذى أوجب النهى عن التشبه بهم و اتخاذ طريقتهم بدلاله السياق، و قوله:

«وَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» ينبى عن إحاطته تعالى بأعمالهم و سلطنته عليها و ملكه لها، و من المعلوم أن لازم ذلك كون أعمالهم داخله فى قضائه متمشيه بإذنه و مشيته و ما هذا شأنه لا يكون مما يعجز الله سبحانه فالجمله كالكنايه عما يصرح به بعد عدّه آيات بقوله: «وَ لا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لا يُعْجِزُونَ (الأنفال ٥٩)».

و ظاهر أن أخذ هذه القيود أعنى قوله: «بَطْرًا وَ رِثَاءَ النَّاسِ وَ يَصُدُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ»

يوجب تعلق النهى بها و التقدير:و لا تخرجوا من دياركم الى قتل اعداء الدين بطرين و مرءين بالتجملات الدنيويه،و صد الناس عن سبيل الله بدعوتهم بأقوالكم و أفعالكم الى ترك تقوى الله و التوغل فى معاصيه و الانخلاع عن طاعه او امره و دساتيره فإن ذلك يحبط أعمالكم و يطفى نور الإيمان و يبطل أثره عن جمعكم فلا طريق الى نجاح السعى و الفوز بالمقاصد الهامه إلا سوى الصراط الذى يمهدده الدين القويم و تسهله المله الفطريه و الله لا يهدى القوم الفاسقين الى مقاصدهم الفاسده.

و قد اشتملت الآيات الثلاث على امور سته أوجب الله سبحانه على المؤمنين رعايتها فى الحروف الإسلاميه عند اللقاء و هى الثبات،و ذكر الله كثيرا،و طاعه الله و رسوله،و عدم التنازع،و أن لا يخرجوا بطرا و رثاء الناس و يصدون عن سبيل الله.

و مجموع الامور الستة دستور حربى جامع لا يفقد من مهام الدستورات الحربيه شيئا، و التأمل الدقيق فى تفاصيل الوقائع فى تاريخ الحروب الإسلاميه الواقعه فى زمن النبى صلى الله عليه و آله و سلم كبدر و أحد و الخندق و حنين و غير ذلك يوضح أن الأمر فى الغلبه و الهزيمه كان يدور مدار رعايه المسلمين موادّ هذا الدستور الإلهى و عدم رعايتها،و المراقبه لها و المساهله فيها.

قوله تعالى: **وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَنْ أَعْمَلَهُمْ** **وَ قَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ** الى آخر الآيه؛تزيين الشيطان للانسان عمله هو إلقاءه فى قلبه كون العمل حسنا جميلا يستلذ به و ذلك بتهييج قواه الباطنه و عواطفه الداخله المتعلقة بذلك العمل فينجذب إليه قلبه،و لا يجد فراغا يعقل ماله من سوء الأثر و شؤم العقابه.

و ليس من البعيد ان يكون قوله: **«وَ قَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ»** الآيه؛مفسرا أو بمنزله المفسر للتزيين الشيطانى على ان يكون المراد بالأعمال نتائجها و هى ما هيئوه من قوه و سلاح و عدّه و ما اخرجوه من القيان و المعازف و الخمور،و ما تظاهروا به من نظام الجيش و الجنائب تساق بين أيديهم،و يمكن أن يكون المراد بها نفس الأعمال و هى أنواع تماديتهم فى الغى

و الضلال و إصرارهم في محادّه الله و رسوله، و استرسالهم في الظلم و الفسق فيكون قوله المحكيّ: «لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ» مما يتم به تزيين الشيطان، و تطيب به نفوسهم فيما اهتموا به من قتال المسلمين، و قد اكمل ذلك بقوله: «وَإِنِّي لَجَارٌّ لَكُمْ»

و الجوار من سنن العرب في الجاهليه التي كانت تعيش عيشه القبائل، و من حقوق الجوار نصره الجار للجار اذا دهمه عدو، و له آثار مختلفه بحسب السنن الجارويه في المجتمعات الإنسانيه.

و قوله: فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئْتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ النكوص الإحجام عن الشيء و «عَلَى عَقَبَيْهِ» حال و العقب مؤخر القدم أى أحجم و قد رجع القهقري منهزما وراءه.

و قوله: إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ الْآيَةَ؛ تعليل لقوله: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ» و لعله إشاره إلى نزول الملائكه المردين الذين نصر الله المسلمين بهم، و كذا قوله: «إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَ اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ» تعليل لقوله: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ» و مفسر للتعليل السابق.

و المعنى و يوم الفرقان هو الوقت الذي زين الشيطان لمشركين ما كانوا يعملونه لمحادّه الله و رسوله و قتال المؤمنين، و يتلبسون به للتهىء على إطفاء نور الله، فزين ذلك في أنظارهم، و طيب نفوسهم بقوله: لا غالب لكم اليوم من الناس، و إني مجير لكم أذب عنكم فلما تراءت الفئتان فرأى المشركون المؤمنين و المؤمنون المشركين رجع الشيطان القهقري منهزما وراءه و قال للمشركين إني بريء منكم إني أرى ما لا ترونه من نزول ملائكه النصر للمؤمنين و ما عندهم من العذاب الذي يهددكم انى أخاف عذاب الله و الله شديد العقاب.

قوله تعالى: إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هُوَ لَاءِ دِينُهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ اى يقول المنافقون و هم الذين أظهروا الإيمان و أبطنوا الكفر، و الذين في قلوبهم مرض و هم الضعفاء في الايمان ممن لا يخلو نفسه من الشك و الارتياب. يقولون

المعنى يراد به الإزراء و الإذلال.

و قوله: وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ أَي يَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ: ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ وَ هُوَ النَّارُ.

و قوله: ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ تَتِمُّ لِقَوْلِهِمُ الْمُحْكَى أَوْ إِشَارُهُ إِلَى مَجْمُوعِ مَا يَفْعَلُ بِهِمْ وَ مَا يَقُولُ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَ الْمَعْنَى إِنَّمَا نَذِيقُكُمْ عَذَابَ الْحَرِيقِ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ أَوْ: نَضْرِبُ وَ جَوْهَكُمْ وَ أَدْبَارَكُمْ وَ نَذِيقُكُمْ عَذَابَ الْحَرِيقِ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ.

و قوله: وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ مَعْطُوفٌ عَلَى مَوْضِعِ قَوْلِهِ: «بِمَا قَدَّمْتُمْ» أَي وَ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ أَي لَا يَظْلِمُ أَحَدًا مِنْ عِبِيدِهِ فَإِنَّهُ تَعَالَى عَلَى صَرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ لَا تَخْلِفُ وَ لَا اخْتِلَافَ فِي فِعْلِهِ فَلَوْ ظَلَمَ أَحَدًا لَظَلَمَ كُلَّ أَحَدٍ، وَ لَوْ كَانَ ظَالِمًا لَكَانَ ظَالِمًا لِلْعَبِيدِ فَافْهَمِ ذَلِكَ.

و سياق الآيات يشهد على ان المراد بهؤلاء الذين يصفهم الله سبحانه بأن الملائكة يتوفاهم و يعذبهم هم المقتولون بيد من مشركى قريش.

قوله تعالى: كَذَابٍ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الدُّبُّ وَ الدِّيدَنُ: الْعَادَةُ وَ هِيَ الْعَمَلُ الَّذِي يَدُومُ وَ يَجْرَى عَلَى الْإِنْسَانِ، وَ الطَّرِيقَةُ الَّتِي يَسْلُكُهَا، وَ الْمَعْنَى كَفَرُوا هَؤُلَاءِ يَشْبَهُ كُفْرَ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْخَالِيَةِ الْكَافِرَةِ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَ أَذْنَبُوا بِذَلِكَ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنْ اللَّهُ قَوِي لَا يَضْعَفُ عَنْ أَخْذِهِمْ شَدِيدَ الْعِقَابِ إِذَا أَخَذَ.

قوله تعالى: ذَلِكَ بِمَا أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ الْخُ؛ أَي إِنْ الْعِقَابَ الَّذِي يَعَاقِبُ بِهِ اللَّهُ سَبْحَانَهُ إِنَّمَا يَعْقِبُ نِعْمَةَ إِلَهِيهِ سَابِقَهُ بِسَلْبِهَا وَ اسْتِخْلَافِهَا، وَ لَا تَزُولُ نِعْمَةٌ مِنَ الْإِلَهِيهِ وَ لَا تَتَبَدَّلُ نِقْمَةٌ وَ عِقَابًا إِلَّا مَعَ تَبَدُّلِ مَحَلِّهِ وَ هُوَ النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ، فَالْنِعْمَةُ الَّتِي أَنْعَمَ بِهَا عَلَى قَوْمٍ إِنَّمَا أُفِيضَتْ عَلَيْهِمْ لَمَّا اسْتَعَدُّوا لَهَا فِي

انفسهم، ولا يسلبونها ولا تتبدل بهم نعمة و عقابا إلا لتغييرهم ما بأنفسهم من الاستعداد و ملاك الإفاضه و تلبسهم باستعداد العقاب.

و هذا ضابط كلى فى تبدل النعمة الى النقمه و العقاب، و أجمع منه قوله تعالى: **إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ** (الرعد ١١) و إن كان ظاهره اظهر انطباقا على تبدل النعمة الى النقمه.

و كيف كان فقوله: **«ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا»** الخ؛ من قبيل التعليل بأمر عام و تطبيقه على مورد الخاص أى اخذ مشركى قريش بذنوبهم، و عقابهم بهذا العقاب الشديد، و تبديل نعمة الله عليهم عقابا شديدا إنما هو فرع من فروع سنّه جاريه إلهيه هى ان الله لا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.

و قوله: **وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** تعليل آخر بعد التعليل بقوله: **«ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا»** و ظاهره -بمقتضى إشعار السياق- ان المراد به: و ذلك بأن الله سميع لدعواتكم عليم بحاجاتكم سمع استغاثتكم و علم بحاجتكم فاستجاب لكم فعذب أعداءكم الكافرين بآيات الله، و يحتمل أن يكون المراد: ذلك بأن الله سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم فعذبهم على ذلك، و يمكن الجمع بين المحتملين.

قوله تعالى: **كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ** الخ؛ كرر التنظير السابق لمشابهة الفرض مع ما تقدم فقوله **«كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ»** الخ؛ السابق تنظير لقوله: **«ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَكُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ»** كما ان قوله: **«كَذَابِ آلِ فِرْعَوْنَ»** -الى قوله- **وَ كُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ»** ثانيا تنظير لقوله **«ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً»** الخ.

غير ان التنظير الثانى يشتمل على نوع من الالتفات فى قوله: **«فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ»** و قد وقع بحذائه فى التنظير الأول **«فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ»** من غير التفات و لعل الوجه فيه ان

التنظير الثاني لما كان مسبقا بإفاده ان الله هو المفيض بالنعم على عباده و لا يغيرها إلا عن تغييرهم ما بأنفسهم، وهذا شأن الرب بالنسبة الى عباده اقتضى ذلك ان يعد هؤلاء عبيده غير جارين على صراط عوديه ربهم و لذلك غير بعض سياق التنظيم فقال فى الثاني «كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ» و قد كان بحدائه فى الأول قوله: «كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ» و لذلك التفت هاهنا من الغيبة الى التكلم مع الغير فقال: «فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ» للدلالة على انه سبحانه هو ربهم و هو مهلكهم، و قد أخذ المتكلم مع الغير للدلالة على عظمه الشأن و جلاله المقام، و ان له وسائل يعملون بأمره و يجرون بمشيته.

و قوله: وَ أَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ أَظْهَرَ الْمَفْعُولَ و لم يقل: و أغرقناهم ليؤمن الالتهاس برجوع الضمير الى آل فرعون و الذين من قبلهم جميعا.

و قوله تعالى: وَ كُلُّ كَانُوا ظَالِمِينَ أى جميع هؤلاء الذين أخذهم العذاب الإلهي من كفار قريش و آل فرعون و الذين من قبلهم كانوا ظالمين فى جنب الله.

و فيه بيان ان الله سبحانه لا يأخذ بعقابه الشديد أحدا، و لا يبدل نعمته على احد نقمه إلا اذا كان ظالما ظلما يبدل نعمه الله كفرا بآياته فهو لا يعذب بعذابه إلا مستحقه (١).

[سورة الأنفال (٨): الآيات ٥٥ الى ٦٦]

اشاره

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدتْ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْفُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَ هُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِذَا تَتَفَتَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ (٥٧) وَإِذَا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَ لَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَ أَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبَاطِ الْحَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَ مَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَ إِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَ أَلْفَ بَيْنٍ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْمَآرِضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) أَلَمْ يَأْنِ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَ عَلَّمَ أَنْ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَ اللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦)

ص: ٦٩٢

قوله تعالى: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ الكلام مسوق لبيان كون هؤلاء شر جميع الموجودات الحيه من غير شك في ذلك لما في تقييد الحكم بقوله: «عِنْدَ اللَّهِ» من الدلاله عليه فان معناه الحكم؛ و ما يحكم و يقضى به الله سبحانه لا يتطرق اليه خطأ و قد قال تعالى: لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسِي (طه ٥٢).

و قد افتتح هذه القطعه من الكلام المتعلق بهم بكونهم شر الدواب عنده لأن مغزى الكلام التحرز منهم و دفعهم، و من المغروز في الطباع ان الشر الذى لا- يرجى معه خير يجب دفعه بأى وسيله صحت و أمكنت فناسب ما سيأمره فى حقهم بقوله: «فَأَمَّا تَثَقَفَتْهُمُ فِي الْحَرْبِ فَشَرَّدُوهُمْ مِنْ خَلْفِهِمْ» الخ؛ الافتتاح بيان كونهم شر الدواب.

و عقب قوله: «الَّذِينَ كَفَرُوا» بقوله: «فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» مبتدأ بفاء التفريع اى ان من وصفهم الذى يتفرع على كفرهم انهم لا يؤمنون، و لا يتفرع عدم الايمان على الكفر إلا اذا رسخ فى النفس رسوخا لا يرجى معه زواله فلا مطمع حينئذ فى دخول الايمان فى قلب هذا شأنه لمكان المضاده التى بين الكفر و الايمان.

و من هنا يظهر ان المراد بقوله: «الَّذِينَ كَفَرُوا» الذين ثبتوا على الكفر، و عند هذا يرجع معنى هذه الآيه الى نظيرتها السابقه: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَ لَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَ لَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (الأنفال ٢٣).

على ان الآيتين لما دلتا على حصر الشر عند الله فى طائفه معينه من الدواب كانت الآيه الاولى مع دلالتها على كون اهلها ممن لا يؤمنون البتة داله على ان المراد بقوله فى الآيه الثانيه:

«الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ» كونهم ثابتين على كفرهم لا يزولون عنه البتة.

قوله تعالى: الَّذِينَ لَعَلَّيْتُمْ لَكُمْ كَفَارًا فَمَا يَكْفُرُ بِهِمْ لَبِيسًا بَدَلُوا بِهَا مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ. قوله: «لَعَلَّيْتُمْ» تعيضيّه و المعنى: الذين عاهدتهم من بين الذين كفروا، و أما احتمال ان يكون من زائده و المعنى: الذين عاهدتهم، او بمعنى مع و المعنى: الذين عاهدت معهم: فليس بشيء.

و المراد بكل مره مرات المعاهده اى ينقضون عهدهم فى كل مره عاهدتهم و هم لا يتقون الله فى نقض العهد او لا يتقونكم و لا يخافون نقض عهدكم، و فيه دلالة على تكرار النقض منهم.

قوله تعالى: فَأَمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلَفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ الثَّقَفُ الظفر و الادراك بسرعه، و التشريد التفريق على اضطراب.

انتهى، و قوله: «فَأَمَّا تَثَقَفَنَّاهُمْ» أصله إن تثقفهم دخل «ما» التأكيد على ان الشرطيه ليصح دخول نون التأكيد على الشرط و الكلام مسوق للتأكيد فى ضمن الشرط.

و المراد بتشريد من خلفهم بهم ان يفعل بهم من التنكيل و التشديد ما يعتبر به من خلفهم، و يستولى الرعب و الخوف على قلوبهم فيتفرقوا و ينحل عقد عزمهم و اتحاد ارادتهم على قتال المؤمنين و إبطال كلمه الحق.

و على هذا فالمراد بقوله: «لَعَلَّهُمْ يَدَّكُرُونَ» رجاء ان يتذكروا ما لنقض العهد و الإفساد فى الارض و المحاذة مع كلمه الحق من التبعه السيئه و العاقبه المشؤمه فان الله لا يهدى القوم الفاسقين و إن الله لا يهدى كيد الخائنين.

فى الآيه إيماء الى الأمر بقتالهم ثم التشديد عليهم و التنكيل بهم عند الظفر بهم و ثقفهم، و إيماء الى ان وراءهم من حاله حالهم فى نقض العهد و تربص الدوائر على الحق و أهله.

قوله تعالى: وَ إِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا

يُحِبُّ الْخَائِنِينَ الخيانه-على ما فى المجمع-نقض العهد فيما يؤتمن عليه، وهذا معنى الخيانه فى العهود و المواثيق، و أما الخيانه بمعناها العام فهى نقض ما أبرم من الحق فى عهد أو امانه، و النبذ هو الإلقاء و منه قوله: فَتَبَدُّوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ (آل عمران ١٨٧/) و السواء بمعنى الاستواء و العدل.

و قوله: «وَ إِمَّا تَخَافَنَّ» كقوله فى الآيه السابقه: «فَأِمَّا تَثَقَّفَهُمْ» و معنى الخوف ظهور امارات تدل على وقوع ما يجب التحرز منه و الحذر عنه و قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ» تعليل لقوله: «فَأَبْذُ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» .

و معنى الآيه: و إن خفت من قوم بينك و بينهم عهد ان يخونوك و ينقضوا عهدهم و لاحت آثار دالله على ذلك فانبذ و ألق إليهم عهدهم و أعلمهم إلغاء العهد لتكونوا انتم و هم على استواء من نقض العهد او تكون مستويا على عدل فإن من العدل المعامله بالمثل و السواء لأنك إن قاتلتهم بغير إعلام إلغاء العهد كان ذلك منك خيانه و الله لا يحب الخائنين.

و ملخص الآيتين دستوران إلهيان فى قتال الذين لا عهد لهم بالنقض او بخوفه فان كان أهل العهد من الكفار لا يثبتون على عهدهم بنقضه فى كل مره فعلى ولى الأمر ان يقاتلهم و يشدد عليهم، و إن كانوا بحيث يخاف من خيانتهم و لا وثوق بعهدهم فيعلمون إلغاء عهدهم ثم يقاتلون و لا يبدأ بقتالهم قبل الإعلام فإنما ذلك خيانه، و أما إن كانوا عاهدوا و لم ينقضوا و لم يخف خيانتهم فمن الواجب حفظ عهدهم و احترام عقدهم و قد قال تعالى: فَاتَّبِعُوا إِلَيْهِمْ وَعْهَدَهُمْ إِلَىٰ مِידَتِهِمْ (التوبه ٤/). و قال: أَوْفُوا بِالْعُقُودِ (المائده ١/).

قوله تعالى: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ» القراءه المشهوره «تحسبن» بقاء الخطاب، و هو خطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم تطيبا لنفسه و تقويه لقلبه كالخطاب الآتى بعد هذه آيات «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ» و كالخطاب الملقى بعده لتحريض المؤمنين: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ» .

و السبق تقدم الشيء على طالب اللحوق به، و الإعجاز إيجاد العجز، و قوله: «إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ» تعليل لقوله: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الْخَيْلُ وَالْإِنْسَانُ وَالْأَنْعَامُ أَنْ يَنْفَعُوا شَيْئًا بِأَعْيُنِنَا سَبَّحَ لِلَّهِ الْمَلَأَ سَمَاوَاتِهِ الْعَرْشَ عِلْمُهُ الْغُيُوبِ» و قوله: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ الْإِعْدَادُ تَهَيَّئِ الشَّيْءَ لِلظَّفَرِ بِشَيْءٍ آخِرٍ وَ إِيجَادُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الشَّيْءُ الْمَطْلُوبُ فِي تَحْقِيقِهِ كِإِعْدَادِ الْحَطَبِ وَ الْوُقُودِ لِلإِيقَادِ وَ إِعْدَادِ الإِيقَادِ لِلطَّبْخِ، وَ الْقُوَّةُ كُلُّ مَا يُمْكِنُ مَعَهُ عَمَلٌ مِنَ الْأَعْمَالِ، وَ هِيَ فِي الْحَرْبِ كُلُّ مَا يَتِمُّشَى بِهِ الْحَرْبُ وَ الدِّفَاعُ مِنْ أَنْوَاعِ الْأَسْلِحَةِ، وَ الرِّجَالُ الْمُدْرِبِينَ وَ الْمَعَاهِدَ الْحَرْبِيَّةَ الَّتِي تَقُومُ بِمَصْلَحَتِهِ ذَلِكَ كُلُّهُ، وَ الرِّبَاطُ مَبَالِغُهُ فِي الرِّبْطِ وَ هُوَ أَيْسَرُ مِنَ الْعَقْدِ يُقَالُ: رَبَطَهُ يَرْبِطُهُ رَبْطًا وَ رَابِطَةً يَرْبِطُهُ رَابِطَةً وَ رِبَاطًا فَالْكَلِّ بِمَعْنَى غَيْرِ انِ الرِّبَاطِ ابْلَغُ مِنَ الرِّبْطِ، وَ الْخَيْلُ هُوَ الْفَرَسُ، وَ الإِرْهَابُ قَرِيبُ الْمَعْنَى مِنَ التَّخْوِيفِ.

و قوله: «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَ مِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ» امر عام بتهيئة المؤمنين مبلغ استطاعتهم من القوى الحربية ما يحتاجون إليه قبال ما لهم من الأعداء في الوجود أو في الفرض و الاعتبار فإن المجتمع الانساني لا يخلو من التآلف من أفراد أو أقوام مختلفي الطباع و متضادي الأفكار لا- ينعقد بينهم مجتمع على سنه قيمه بمنافعهم إلا- و هناك مجتمع آخر يضاده في منافعه، و يخالفه في سنته، و لا يعيشان معا برهه من الدهر إلا و ينشب بينهما الخلاف و يؤدي ذلك الى التغلب و القهر.

فالحروب المبيده و الاختلافات الداعيه إليها مما لا مناص عنها في المجتمعات الانسانية و المجتمعات هي هذه المجتمعات، و يدل على ذلك ما نشاهده من تجهز الانسان في خلقه بقوى لا يستفاد منها إلا للدفاع كالغضب و الشده في الأبدان، و الفكر العامل في القهر و الغلبه، فمن الواجب الفطري على المجتمع الإسلامي أن يتجهز دائما بإعداد ما استطاع من قوه و من رباط الخيل بحسب ما يفترضه من عدو لمجتمعه الصالح.

وقوله تعالى: تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَ عَدُوَّكُمْ وَ آخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ فِي مقام التعليل لقوله: «وَ أَعِدُّوا لَهُمْ» أى و أعدوا لهم ذلك لترهبوا و تخوفوا به عدو الله و عدوكم، و فى عدوهم عدوا لله و لهم جميعا بيان للواقع و تأكيد فى التحريض.

و فى قوله: «وَ آخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ» دلالة على ان المراد بالأولين هم الذين يعرفهم المؤمنون بالعداوة لله و لهم، و المراد بهؤلاء الذين لا يعلمهم المؤمنون -على ما يعطيه إطلاق اللفظ- كل من لا خبره للمؤمنين بتهديده إياهم بالعداوة من المنافقين الذين هم فى كسوة المؤمنين و صورتهم يصلون و يصومون و يحجون و يجاهدون ظاهرا، و من غير المنافقين من الكفار الذين لم يتبل بهم المؤمنون بعد.

و الإرهاب باعداد القوه، و ان كان فى نفسه من الأ-غراض الصحيحة التى تتفرع عليها فرائد عظيمة ظاهره غير أنه ليس تمام الغرض المقصود من إعداد القوه، و لذلك أردفه بقوله «وَ مَا تَنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَ أَنْتُمْ لَا تَظْلَمُونَ» ليدل على جماع الغرض.

و ذلك ان الغرض الحقيقى من إعداد القوى هو التمكن من الدفع مبلغ الاستطاعة، و حفظ المجتمع من العدو الذى يهدده فى نفوسه و أعراضه و أمواله، و باللفظ المناسب لغرض الدين إطفاء نائره الفساد الذى يبطل كلمه الحق و يهدم بنيان دين الفطره الذى به يعبد الله فى أرضه و يقوم ملاك العدل فى عبادته.

قوله تعالى: «وَ إِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ» فى المجمع: الجنوح الميل، و منه جناح الطائر لأنه يميل به فى احد شقيه، و لا جناح عليه أى لا ميل الى مأثم. انتهى، و السلم بفتح السين و كسرهما الصلح.

و قوله: «وَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» من تتمه الأمر بالجنوح فالجميع فى معنى امر واحد، و المعنى:

و إن مالوا الى الصلح و المسالمة فمل إليها و توكل فى ذلك على الله و لا تخف من ان يضطهدك

أسباب خفيه عنك على غفله منك و عدم تهيؤ لها فإن الله هو السميع العليم لا يغفله سبب و لا يعجزه مكر بل ينصرک و يكفيك و هذا هو الذى يثبته قوله فى الآيه التاليه: «وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ» .

و قد تقدم فيما اسلفناه من معنى التوكل على الله انه ليس اعتمادا عليه سبحانه بإلغاء الأسباب الظاهريه بل سلب الاعتماد القطعى على الأسباب الظاهريه لأن الذى يبدو للإنسان منها بعض يسير منها دون جميعها،و السبب التام الذى لا يتخلف عن مسببه هو الجميع الذى يحمل إرادته سبحانه.

فالتوكل هو توجيه الثقه و الاعتماد الى الله سبحانه الذى بمشيئته يدور رحى الأسباب عامه،و لا ينافيه ان يتوسل المتوكل بما يمكنه التوسل به من الأسباب اللائحه عليه من غير ان يلغى شيئا منها فيركب مطيه الجهل.

قوله تعالى: «وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصِيرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ الْآيَهُ»؛متصله بما قبلها و هى بمنزله دفع الدخل،و ذلك ان الله سبحانه لما امر نبيه صلى الله عليه و آله و سلم بالجنوح للسلم ان جنحوا له و لم يرض بالخديعه لأنها من الخيانه فى حقوق المعاشره و المواصله للعامه و الله لا- يحب الخائنين كان امره بالجنوح المذكور مظنه سؤال و هو ان من الجائر ان يكون جنوحهم للسلم خديعه منهم يضلون بها المؤمنين ليغيروا عليهم فى شرائط و أحوال مناسبة فأجاب سبحانه بأنا امرناك بالتوكل فإن أرادوا بذلك ان يخدعوك فإن حسبك الله و قد قال تعالى: «وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ» .

و هذا مما يدل على ان هناك أسبابا وراء ما ينكشف لنا من الأسباب الطبيعیه العاديه تجرى على ما يوافق صلاح العبد المتوكل اذا خانته الأسباب الطبيعیه العاديه و لم تساعده على مطلوبه الحق.

و قوله: «هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِبَصِيرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ» بمنزله الاحتجاج على قوله: «فَإِنَّ حَسْبَكَ

اللَّهُ» بذكر شواهد تدل على كفايته تعالى و هي انه ائده بنصره و ائده بالمؤمنين و ألف بين قلوبهم و هي شىء متباغضه.

قوله تعالى: وَ أَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَ لَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ الخ؛ قال الراغب: الإلف اجتماع مع التيام يقال:

ألفت بينهم، و منه الألفه، و يقال: للمألوف إلف و ألف قال تعالى: «إِذْ كُنْتُمْ أَغْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ» انتهى.

أورد سبحانه فى جملة ما استشهد على كفايته لمن توكل عليه انه كفى نبيه صلى الله عليه و آله و سلم بتأليف قلوب المؤمنين بعد ذكر تأييده بهم، و الكلام مطلق و الملاك المذكور فيه عام يشمل جميع المؤمنين و إن كانت الآيه اظهر انطباقا على الأنصار حيث ائد الله بهم نبيه صلى الله عليه و آله و سلم فأووه و نصره و ألف الله سبحانه بدينه بينهم أنفسهم و قد نشبت فيهم الحروب المبيده و كانت قائمه على ساقها دهرا طويلا و هي حرب «بغاث» بين الأوس و الخزرج حتى اصطلحوا بنزول الاسلام فى دارهم و أصبحوا بنعمته إخوانا (١).

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَ مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ تطيب لنفس النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و قد قال تعالى قبله: «فَإِنَّ حَسْبُكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ» فالمراد- و الله اعلم- يكفيك الله بنصره و بمن اتبعك من المؤمنين، و ليس المراد ان هناك سببين كافيين او سببا كافيا ذا جزئين يتألف منهما سبب واحد كاف فالتوحيد القرآنى يأبى ذلك.

و ربما قيل: ان المعنى حسبك الله و حسب من اتبعك من المؤمنين بعطف قوله: «مَنْ اتَّبَعَكَ» على موضع الكاف من «حَسْبُكَ».

ص: ٧٠٠

و الكلام على اى حال مسوق للتحريض على القتال على ما يفيدته السياق و القرائن الخارجة فان تأثير المؤمنين فى كفايتهم له صلى الله عليه و آله و سلم إنما هو فى القتال على ما يسبق الى الذهن.

و ذكر بعضهم: ان الآيه نزلت بالبديء قبل غزوه بدر، و على هذا لا اتصال لها بما بعدها، و أما اتصالها بما قبلها فغير مقطوع به.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ التحريض و التحضيض و الترغيب و الحضّ و الحث بمعنى و الفقه ابلغ و أغزر من الفهم، و قوله «إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ» اى من الذين كفروا كما قيد به الألف بعدا، و كذا قوله: «وَ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ» اى مائه صابره كما قيد بها «عَشْرُونَ» قبلا.

و قوله: بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ الْبَاءَ لِلْسَّبِيهِ أَوْ الْآلَةِ، و الجملة تعليليه متعلقه بقوله: «يَغْلِبُوا» اى عشرون صابرون منكم يغلبون مائتين من الذين كفروا، و مائه صابره منكم يغلبون الفا من الذين كفروا كل ذلك بسبب ان الكفار قوم لا يفقهون.

و فقدان الفقه فى الكفار و بالمقابل ثبوته فى المؤمنين هو الذى اوجب ان يعدل الواحد من العشرين من المؤمنين اكثر من العشره من المائتين من الذين كفروا حتى يغلب العشرون من هؤلاء المائتين من اولئك على ما بنى عليه الحكم فى الآيه فان المؤمنين انما يقدمون فيما يقدمون عن ايمان بالله و هو القوه التى لا يعادله و لا يقاومه اى قوه اخرى لا بتائه على الفقه الصحيح الذى يوصفهم بكل سجيته نفسانيه فاضله كالشجاعه و الشهامه و الجراءه و الاستقامه و الوقار و الطمأنينه و الثقة بالله و اليقين بأنه على احدى الحسينيين ان قتل فى الجنة و إن قتل فى الجنة، و أن الموت بالمعنى الذى يراه الكفار و هو الفناء لا مصداق له.

و أما الكفار فإنما اتكاؤهم على هوى النفس، و اعتمادهم على ظاهر ما يسؤله لهم الشيطان، و النفوس المعتمده على اهوائها لا تتفق للغايه و إن اتفقت احيانا فإنما تدوم عليه ما لم يلح لائح الموت الذى تراه فناء، و ما اندر ما تثبت النفس على هواها حتى حال ما تهدد بالموت و هى

على استقامه من الفكر بل تميل بأدنى ريح مخالف، و خاصه فى المخاوف العامه و المهاول الشامله كما أثبتته التاريخ من انهزام المشركين يوم بدر و هم ألف بقتل سبعين منهم، و نسبه السبعين الى الألف قريبه من نسبه الواحد الى اربعة عشر فكان انهزامهم فى معنى انهزام الأربعة عشر مقاتلا- من مقاتل واحد، و ليس ذلك إلا لفقته المؤمنين الذى يستصحب العلم و الايمان، و جهل الكفار الذى يلازمه الكفر و الهوى.

□
قوله تعالى: «الآن خفف الله عنكم و علم أن فيكم ضعفاً فإن يكن النخ؛ أى إن يكن منكم مائه صابره يغلبوا مائتين من الذين كفروا و إن يكن منكم ألف صابر يغلبوا الفين من الذين كفروا على وزن ما مرّ فى الآيه السابقه.

و قوله: «و علم أن فيكم ضعفاً» المراد به الضعف فى الصفات الروحيه و لا محاله ينتهى الى الايمان فإن الايقان بالحق هو الذى ينبعث عنه جميع السجايا الحسنه الموجهه للفتح و الظفر كالشجاعه و الصبر و الرأى المصيب و أما الضعف من حيث العده و القوه فمن الضرورى ان المؤمنين لم يزلوا يزيدون عده و قوه فى زمن النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

□
و قوله: «يأذن الله تقييد لقوله: «يغلبوا» أى إن الله لا يشاء خلافه و الحال انكم مؤمنون صابرون، و بذلك يظهر ان قوله: «و الله مع الصابرين» يفيد فائده التعليل بالنسبه الى الإذن.

□
و قوله تعالى فى الآيه السابقه تعليلاً للحكم: «بأنهم قوم لا يفقهون» و كذا فى هذه الآيه «و علم أن فيكم ضعفاً» «و الله مع الصابرين» و عدم الفقه و الضعف الروحى و الصبر من العلل و الأسباب الخارجيه المؤثره فى الغلبه و الظفر و الفوز بلا شك يدل على ان الحكم فى الآيتين مبنى على ما اعتبر من الأوصاف الروحيه فى الفئتين: المؤمنين و الكفار، و أن القوى الداخله الروحيه التى اعتبرت فى الآيه الاولى ما فى المؤمن الواحد منها غالبه على القوى الداخله الروحيه فى عشر من الكفار عادت بعد زمان يسير يشير اليه بقوله: «الآن خفف الله عنكم»

لا يربو ما في المؤمن الواحد منها-من متوسطى المؤمنين-إلا على اثنين من الكفار فقد فقدت القوه من أثرها بنسبه الثمانين فى المائه،و تبدلت العشرون و المائتان فى الآيه الاولى الى المائه و المائتين فى الآيه الثانيه،و المائه و الألف فى الاولى الى الألف و الألفين فى الثانيه (١)(٢).

[سوره الأنفال (٨): الآيات ٦٧ الى ٧١]

اشاره

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسِيرٌ حَتَّى يُخْرَجَ فِي الْمَآرِضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسِيرِ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)

ص: ٧٠٣

١- ١). الانفال ٥٥-٦٦: كلام فى عله تخفيف الله فى حكم الجهاد.

٢- ٢). الانفال ٥٥-٦٦: بحث روائى فى:الذين عاهد منهم رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم ثم ينقضون عهدهم فى كل مره؛معنى الآيه «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ» .

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث، الأسر: الشد على المحارب بما يصير به في قبضه الآخذ له كما قيل والأسير هو المشدود عليه، وجمعه الأسرى و الاسراء و الاسارى و الأسارى، وقيل الأسارى جمع جمع و على هذا فالسبى أعم موردا من الأسر لصدقه على أخذ من لا يحتاج الى شد كالذرارى.

و الثخن بالكسر فالفتح الغلظ، و منه قولهم: أثخنه الجراح و أثخنه المرض قال الراغب في المفردات: يقال: ثخن الشيء فهو ثخين إذا غلظ فلم سل و لم يستمر في ذهابه، و منه استعير قولهم: أثخنه ضربا و استخفا قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ «حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ» فالمراد بإثخان النبي في الأرض استقرار دينه بين الناس كأنه شيء غليظ انجمد فثبت، بعد ما كان رقيقا سائلا مخشى الزوال بالسيلان.

و العرض ما يطرأ على الشيء و يسرع فيه الزوال، و لذلك سمي به متاع الدنيا لدثورته و زواله عما قليل، و الحلال وصف من الحل مقابل العقد و الحرمة كأن الشيء الحلال كان معقودا عليه محروما منه فحل بعد ذلك؛ و قد مر معنى الطيب و هو الملائمه للطبع.

و قد اختلف المفسرون في تفسير الآيات بعد اتفاقهم على انها إنما نزلت بعد وقعه بدر تعاتب أهل بدر و تبيح لهم الغنائم (1).

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى﴾ إلى آخر الآية

ص: ٧٠٤

كون الأسرى بأيديهم استعاره لتسلطهم عليهم تمام التسلط كالشيء يكون في يد الانسان يقبله كيف يشاء.

وقوله: إِنَّ يَعْلمَ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا كُنَايَه عَنِ الْإِيمَانِ أَوْ اتِّبَاعِ الْحَقِّ الَّذِي يَلْزِمُهُ الْإِيمَانُ فَإِنَّهُ تَعَالَى يَعْدَهُمْ فِي آخِرِ الْآيَةِ بِالْمَغْفِرَةِ، وَلَا مَغْفِرَةَ مَعَ شَرِكٍ قَالَ تَعَالَى إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ (النساء ٤٨).

و معنى الآية: يا أيها النبي قل لمن في أيديكم من الأسرى الذين تسلطتم عليهم و أخذت منهم الفداء: إن ثبت في قلوبكم الإيمان و علم الله منكم ذلك- و لا يعلم إلا ما ثبت و تحقق- يؤتكم خيرا مما أخذ منكم من الفداء و يغفر لكم و الله غفور رحيم.

وقوله تعالى: فَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ الْخَيْبَةُ؛ أمكنه منه أى أقدره عليه، و إنما قال أولا: «خِيَانَتَكَ» ثم قال: «خَانُوا اللَّهَ» لأنهم أرادوا بالفديه ان يجمعوا الشمل ثانيا و يعودوا الى محاربتة صلى الله عليه و آله و سلم، و أما خيانتهم لله من قبل فهى كفرهم و إصرارهم على ان يطفئوا نور الله و كيدهم و مكرهم.

و معنى الآية: إن آمنوا بالله و ثبت الإيمان فى قلوبهم آتاهم الله خيرا مما أخذ منهم و غفر لهم، و أرادوا خيانتك و العود الى ما كانوا عليه من العناد و الفساد فإنهم خانوا الله من قبل فأمكنك منهم و أقدرك عليهم و هو قادر على ان يفعل بهم ذلك ثانيا، و الله عليه بخيانتهم لو خانوا حكيم فى إمكانك منهم (١).

[سوره الأنفال (٨): الآيات ٧٢ الى ٧٥]

إشارة

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ لَمْ يَهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَ إِنْ اسْتَنْصَيْتُمْهُمْ فَعَلَيْكُمْ النَّصِيرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فسادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ الَّذِينَ آوَوْا وَ نَصَرُوا أَوْلِيَاءَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَ أُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)

ص: ٧٠٥

من الجميع وليّ البعض من الجميع كالمهاجر هو ولي كل مهاجر و أنصاري، و الأنصاري ولي كل أنصاري و مهاجر، كل ذلك بدليل إطلاق الولاية في الآية.

فلا- شاهد على صرف الآية الى ولاية الإرث بالمؤاخاه التي كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ جعلها في بدء الهجره بين المهاجرين و الأنصار و كانوا يتوارثون بها زمانا حتى نسخت.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ معناه واضح و قد نفيت فيها الولاية بين المؤمنين المهاجرين و الأنصار و بين المؤمنين غير المهاجرين إلا- ولاية النصره اذا استنصروهم بشرط ان يكون الاستنصار على قوم ليس بينهم و بين المؤمنين ميثاق.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ أَى ان ولايتهم بينهم لا تتعداهم الى المؤمنين فليس للمؤمنين ان يتولواهم، و ذلك ان قوله هاهنا في الكفار: «بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» كقوله في المؤمنين: «أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» إنشاء و تشريع في صورته الإخبار، و جعل الولاية بين الكفار أنفسهم لا يحتمل بحسب الاعتبار إلا ما ذكرناه من نفى تعديه عنهم الى المؤمنين.

قوله تعالى: إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَ فسادٌ كَبِيرٌ إشاره الى مصلحه جعل الولاية على النحو الذي جعلت، فان الولاية مما لا غنى عنها في مجتمع من المجتمعات البشريه سيما المجتمع الإسلامى الذى أسس على اتباع الحق و بسط العدل الإلهى كما ان تولى الكفار و هم أعداء هذا المجتمع يوجب الاختلاط بينهم فيسرى فيه عقائدهم و أخلاقهم، و تفسد سيره الإسلام المبنيه على الحق بسيرهم المبنيه على اتباع الهوى و عباده الشيطان، و قد صدق جريان الحوادث فى هذه الآونه ما أشارت اليه هذه الآية.

قوله تعالى: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ اثبات لحق الإيمان على من اتصف بآثاره اتصافا حقا، و وعد لهم بالمغفره و الرزق الكريم.

بِإِذْنِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسَيُحْوَى فِي الْأَرْضِ أَنْبَعَهُ أَشْهُرٌ وَإِعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ
اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَ أَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى الدَّاسِ يَوْمَ الْحِجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ
خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا عِلْمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ
يَنْقُصُوا شَيْئًا وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحِدًا فَأَتَمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مِدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ
فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَ خُدُوهُمْ وَ أَحْضَرُوهُمْ وَ أَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا
سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَ إِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا
يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ
فَأَسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا تَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا وَ لَا ذِمَّةَ يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَ تَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ
وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اسْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصِيدُوا عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا تَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَ لَا
ذِمَّةَ وَ أَوْلِيكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَ نُفِصِلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١)
وَ إِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَنَّمَا الْكُفْرُ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا
نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَ هُمُ بِالرَّسُولِ وَ هُمْ يَدْعُوكُمْ أَوْلَٰ مَرَّةٍ أ تَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ
يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يَخْزِهِمْ وَ يَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَ يَشْفِ صُلُوبَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَ يُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَ تَتُوبُ اللَّهُ عَلَيَّ مَنْ
يَشَاءُ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَ لَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَ لَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ لَا رَسُولِهِ وَ لَا
الْمُؤْمِنِينَ وَ لِيَجْهَ وَ اللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦)

قوله تعالى: ﴿بِرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ قال الراغب: أصل البرء والبراء والتبرى: التفصى مما يكره مجاورته، ولذلك قيل: برأت من المرض و برأت من فلان و تبرأت، و أبرأته من كذا و برأته، و رجل برىء و قوم راء و بريئون قال تعالى: براءه من الله و رسوله. انتهى.

و الآية بالنسبه الى الآيات التاليه كالعنوان المصدر به الكلام المشير الى خلاصه القول على نهج سائر السور المفصله التى تشير الآيه و الآيتان من اولها على إجمال الغرض المسرود لأجل بيانه آياتها.

و الخطاب فى الآيه للمؤمنين او للنبي صلى الله عليه و آله و سلم و لهم على ما يدل عليه قوله: ﴿عَاهَدْتُمْ﴾ و قد أخذ الله تعالى و منه الخطاب و رسوله صلى الله عليه و آله و سلم و هو الواسطه، و المشركون و هم الذين أريدت البراءه منهم، و وجه الخطاب ليبلغ اليهم جميعا فى الغيبه، و هذه الطريقه فى الأحكام و الفرامين المراد إيصالها الى الناس نوع تعظيم لصاحب الحكم و الأمر.

و الآيه تتضمن إنشاء الحكم و القضاء بالبراءه من هؤلاء المشركين و ليس بتشريع محض بدليل تشريكه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم في البراءه فان دأب القرآن ان ينسب الحكم التشريعى المحض الى الله سبحانه وحده، و قد قال تعالى: وَ لَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا (الكهف ٢٦) و لا ينسب الى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم إلا الحكم بالمعنى الذى فى الولايه و السياسه و قطع الخصومه.

فالمراد بالآيه القضاء برفع الأمان عن الذين عاهدوهم من المشركين و ليس رفعا جزافيا و إبطالا للعهد من غير سبب يبيح ذلك فان الله تعالى سيذكر بعد هذه آيات أنهم لا وثوق بعهدهم الذى عاهدوه و قد فسق اكثرهم و لم يراعوا حرمة العهد و نقضوا ميثاقهم، و قد أباح تعالى عند ذلك إبطال العهد بالمقابله نقضا بنقض حيث قال: وَ إِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (الأنفال ٥٨) فأباح إبطال العهد عند مخافه الخيانه و لم يرض مع ذلك إلا بابلاغ النقض اليهم لئلا يؤخذوا على الغفله فيكون ذلك من الخيانه المحظوره.

و لو كان إبطالا لعهدهم من غير سبب مبيح لذلك من قبل المشركين لم يفرق بين من دام على عهده منهم و بين من لم يدم عليه، و قد قال تعالى مستثنيا: «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَهُمْ وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحِدًا فَأَتَتْهُمْ إِلَىٰ عَهْدِهِمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» .

و لم يرض تعالى بنقض عهد هؤلاء المعاهدين الناقضين لعهدهم دون ان ضرب لهم أجلا ليفكروا فى أمرهم و يرتثوا رأيهم و لا يكونوا مأخوذين بالمباغته و المفاجأه.

فمحصل الآيه الحكم ببطلان العهد و رفع الأمان عن جماعه من المشركين كانوا قد عاهدوا المسلمين ثم نقضه اكثرهم و لم يبق الى من بقى منهم وثوق تطمئن به النفس الى عهدهم و تعتمد على يمينهم و تأمن شرهم و أنواع مكرهم.

قوله تعالى: فَيَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَ اعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ السياحه هى السير فى الأرض و الجرى و لذلك يقال

للماء الدائم الجريه فى ساحه:السائح.

و أمرهم بالسياحه اربعة اشهر كنايه عن جعلهم فى مأمن فى هذه البرهه من الزمان و تركهم بحيث لا- يتعرض لهم بشر حتى يختاروا ما يرونه أنفع بحالهم من البقاء او الفناء مع ما فى قوله:

«وَاعْلَمُوا أَنكُمُ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ» من إعلامهم ان الأصلح بحالهم رفض الشرك، و الإقبال الى دين التوحيد، و موعظتهم ان لا يهلكوا أنفسهم بالاستكبار و التعرض للخزى الإلهى.

و قد وجه فى الآيه الخطاب إليهم بالالتفات من الغيبه الى الخطاب لما فى توجيه الخطاب القاطع و الإراده الجازمه الى الخصم من الدلاله على بسط الاستيلاء و الظهور عليه و استدلاله و استحقاق ما عنده من قوه و شده.

قوله تعالى: «وَ أَذَانَ مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَ رَسُولُهُ الْأَذَانُ هُوَ الْإِعْلَامُ، و ليست الآيه تكرر القوله تعالى السابق: «بِرَاءةً مِنَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ» فإن الجملتين و ان رجعتا الى معنى واحد و هو البراءه من المشركين إلا ان الآيه الاولى إعلام البراءه و إبلاغه الى المشركين بدليل قوله فى ذيل الآيه:

«إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» بخلاف الآيه الثانيه فإن وجه الخطاب فيه الى الناس ليعلموا براءه الله و رسوله من المشركين، و يستعدوا و يتهيئوا لإنفاذ أمر الله فيهم بعد انسلاخ الاشهر الحرم بدليل قوله: «إِلَى النَّاسِ» و قوله تفريعا: «فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» الى آخر الآيه.

و قد اختلفوا فى تعيين المراد بيوم الحج الاكبر على أقوال:

منها: أنه يوم النحر من سنه التسع من الهجره لأنه كان يوما اجتمع فيه المسلمون و المشركون و لم يحج بعد ذلك العام مشرك، و هو المؤيد بالأحاديث المرويه عن أئمه اهل البيت عليهم السلام و الأنسب بأذان البراءه، و الاعتبار يساعد عليه لأنه كان اكبر يوم اجتمع فيه

ص: ٧١٣

المسلمون و المشركون من اهل الحج عامه بمنى و قد ورد من طرق اهل السنه روايات فى هذا المعنى غير ان مدلول جلها أن الحج الاكبر اسم يوم النحر فيتكرر على هذا كل سنه و لم ثبت من طريق النقل تسميه على هذا النحو.

و منها: أنه يوم عرفه لأن فيه الوقوف، و الحج الاصغر هو الذى ليس فيه وقوف و هو العمره، و هو استحسان لا دليل عليه، و لا سبيل الى تشخيص صحته.

و منها: أنه اليوم الثانى ليوم النحر لأن الإمام يخطب فيه و سقم هذا الوجه ظاهر.

و منها: أنه جميع ايام الحج كما يقال: يوم الجمل، و يوم صفين، و يوم بغاث، و يراد به الحين و الزمان، و هذا القول لا يقابل سائر الاقوال كل المقابله فانه انما يبين أن المراد باليوم جميع ايام الحج، و أما وجه تسميه هذا الحج بالحج الاكبر فيمكن أن يوجه ببعض ما فى الاقوال السابقه كما فى القول الاول.

و كيف كان فالاعتبار لا يساعد على هذا القول لأن وجود يوم بين ايام الحج يجتمع فيه عامه اهل الحج يتمكن فيه من أذان براءه كل التمكن كيوم النحر يصرف قوله: «يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ» الى نفسه، و يمنع شموله لسائر ايام الحج التى لا يجتمع فيها الناس ذاك الاجتماع.

ثم التفت سبحانه الى المشركين ثانيا و ذكّرهم أنهم غير معجزين لله ليكونوا على بصيره من امرهم كما ذكّرهم بذلك فى الآيه السابقه بقوله: «وَ اعْلَمُوا أَنكُم غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَ أَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ» غير انه زاد عليه فى هذه الآيه قوله: «فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ» ليكون تصريحاً بما لّوح اليه فى الآيه السابقه فان التذكير بأنهم غير معجزى الله انما كان بمنزله العظه و بذل النصح لهم لئلا يلقوا بأيديهم الى التهلكه باختيار البقاء على الشرك و التولى عن الدخول فى دين التوحيد ففى التريد تهديد و نصيحه و عظه.

ثم التفت سبحانه الى رسوله فخطابه ان يبشر الذين كفروا بعذاب أليم فقال: «وَ بَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» و الوجه فى الالتفات الذى فى قوله: «فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ» الخ؛ ما

تقدم فى قوله: «فَسَيُحُوا فِي الْأَرْضِ» الخ؛ و فى الالتفات الذى فى قوله: «وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا» الخ؛ أنه رساله لا تتم إلا من جهه مخاطبه النبى صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُواكُمْ شَيْئًا وَ لَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحِدًا الخ؛ استثناء من عموم البراهه من المشركين، و المستثنون هم المشركون الذين لهم عهد لم ينقضوه لا مستقيماً و لا غير مستقيم فمن الواجب الوفاء بميثاقهم و إتمام عهدهم الى مدتهم.

و قد ظهر بذلك أن المراد من اضافه قوله: «وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحِدًا» الى قوله: «لَمْ يَنْقُصُواكُمْ شَيْئًا» استيفاء قسمى النقض و هما النقض المستقيم كقتلهم بعض المسلمين، و النقض غير المستقيم نظير مظاهرتهم بعض اعداء المسلمين عليهم كإمداد مشركى مكه بنى بكر على خزاعه بالسلاح، و كانت بنو بكر فى عهد قريش و خزاعه فى عهد النبى صلى الله عليه وآله وسلم فحاربوا فأعانت قريش بنى بكر على خزاعه و نقضت بذلك عهد حديبيه الذى عقده بينهم و بين النبى صلى الله عليه وآله وسلم، و كان ذلك من اسباب فتح مكه سنه ثمان.

و قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ فى مقام التعليل لوجوب الوفاء بالعهد ما لم ينقضه المعاهد المشرك، و ذلك يجعل احترام العهد و حفظ الميثاق احد مصاديق التقوى المطلق الذى لا يزال يأمر به القرآن و قد صرح به فى نظائر هذا المورد كقوله تعالى: وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعِيدُوا عَهْدَكُمْ أَوْ لَا تَعِيدُوا عَهْدَكُمْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ (المائدة ٨) و قوله: وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا، وَ تَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَ التَّقْوَىٰ وَ لَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَ الْعُدْوَانِ وَ اتَّقُوا اللَّهَ (المائدة ٢).

و بذلك يظهر ما فى قول بعضهم: إن المراد بالمتقين الذين يتقون نقض العهد من غير سبب، و ذلك أن التقوى بمعنى الورع عن محارم الله عامه كالحقيقه الثانيه فى القرآن فيحتاج إرادته خلافه الى قرينه صارفه.

قوله تعالى: فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَخْصِرُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ أَصْل
الانسلاخ من سلخ الشاه و هو نزع جلدها عنها، و انسلاخ الشهر نوع كناية عن خروجه، و الحصر هو المنع من الخروج عن محيط، و
المرصد اسم مكان من الرصد بمعنى الاستعداد للرقوب.

قال الراغب: الرصد الاستعداد للترقب يقال: رصد له و ترصد و أرصدته له، قال عزّ و جلّ: «وَإِزْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ
قَبْلُ» و قوله عزّ و جلّ: «إِنَّ رَبَّكَ لَبَلِْمُرْصِدٍ» تنبيهاً أنه لا ملجأ و لا مهرب، و الرصد يقال للراصد الواحد و الجماعه الراصدين و
للمرصد واحدًا كان او جمعا، و قوله تعالى: «يَسْئَلُكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَ مِنْ خَلْفِهِ رَصِيدًا» يحتمل كل ذلك، و المرصد موضع
الرصد. انتهى.

و المراد بالأشهر الحرم هي الأربعة الأشهر: أشهر السياحه التي ذكرها الله سبحانه في قوله: «فَسِيَّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» و
جعلها أجلا مضروبا للمشركين لا يتعرّض فيها لحالهم و أما الأشهر الحرم المعروفه أعنى ذا القعدة و ذا الحجة و المحرم فإنها لا
تنطبق على أذان براءة الواقع في يوم النحر عاشر ذي الحجة بوجه كما تقدمت الإشارة إليه.

و على هذا فاللام في الأشهر الحرم للعهد الذكري أي اذا انسلاخ هذه الأشهر التي ذكرناها و حرمانها للمشركين لا يتعرّض
لحالهم فيها فاقتلوا المشركين، الخ.

و يظهر بذلك ان لا- وجه لحمل قوله: «فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ» على انسلاخ ذي القعدة و ذي الحجة و المحرم بأن يكون
انسلاخ الاربعه الأشهر بانسلاخ الأشهر الثلاثة منطبقا عليه او يكون انسلاخ الأشهر الحرم مأخوذا على نحو الإشارة الى انقضاء
الاربعه الأشهر و ان لم ينطبق الاشهر على الاشهر فان ذلك كله مما لا سبيل اليه بحسب السياق و ان كان لفظ الاشهر الحرم في
نفسه ظاهرا في شهور رجب و ذي القعدة و ذي الحجة و المحرم.

و قوله: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» محقق للبراءه منهم و رفع الاحترام عن

نفوسهم باهدار الدماء فلا مانع من اى نازله نزلت بهم، و فى قوله: «حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» تعميم للحكم فلا مانع حاجب عن وجوب قتلهم حيثما وجدوا فى حل او حرم بل و لو ظفر بهم فى الشهر الحرام-بناء على تعميم «حَيْثُ» للزمان و المكان كليهما-فيجب على المسلمين كائنين من كانوا اذا ظفروا بهم ان يقتلوهم، كان ذلك فى الحل او الحرم فى الشهر الحرام او غيره.

و انما امر بقتلهم حيث وجدوا للتوسيل بذلك الى ايرادهم مورد الفناء و الانقراض، و تطيب الارض منهم، و انجاء الناس من مخالطتهم و معاشرتهم بعد ما سمح و ابيح لهم ذلك فى قوله: «فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» .

و لازم ذلك أن يكون كل من قوله: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» و قوله «وَ اخْذُوهُمْ» و قوله: «وَ احْصُرُوهُمْ» و قوله: «وَ اقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ» بيانا لنوع من الوسيله الى افناء جمعهم و انقاد عددهم، ليتفصى المجتمع من شرهم.

فان ظفر بهم و أمكن قتلهم قتلوا، و ان لم يمكن ذلك قبض عليهم و أخذوا، و ان لم يمكن أخذهم حصروا و حبسوا فى كهفهم و منعوا من الخروج الى الناس و مخالطتهم و ان لم يعلم محلهم قعد لهم فى كل مرصد ليظفر بهم فيقتلوا او يؤخذوا.

و لعل هذا المعنى هو مراد من قال: ان المراد: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم او خذوهم و احصروهم على وجه التخيير فى اعتبار الاصلح من الامرين، و ان كان لا يخلو عن تكلف من جهة اعتبار الاخذ و الحصر و القعود فى كل مرصد امرا واحدا فى قبال القتل، و كيف كان فالسياق إنما يلائم ما قدمناه من المعنى.

و اما قول من قال: ان فى قوله: فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم و خذوهم، تقديما و تأخيرا، و التقدير: فخذوا المشركين حيث وجدتموهم و اقتلوهم فهو من التصرف فى معنى الآيه من غير دليل مجوز، و الآيه و خاصه ذيلها يدفع ذلك سياقا.

و معنى الآية: فاذا انسلخ الاشهر الحرم و انقضى الاربعة الاشهر التى امهلناهم بها بقولنا «فَسَيَّحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ» فأفنوا المشركين بأى وسيله ممكنه رأيتموها اقرب و أوصل الى إفناء جمعهم و إمحاء رسمهم من قتلهم اينما وجدتموهم من حل او حرم و متى ما ظفرتم بهم فى شهر حرام او غيره، و من أخذهم او حصرهم او القعود لهم فى كل مرصد حتى يفتنوا عن آخرهم.

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ اشتراط فى معنى الغايه للحكم السابق، و المراد بالتوبه معناها اللغوى و هو الرجوع اى ان رجعوا من الشرك الى التوحيد بالايمان و نصبوا لذلك حجه من اعمالهم و هى الصلاه و الزكاه و التزموا احكام دينكم الراجعه الى الخالق جميعا فخلوا سبيلهم.

و تخليه السبيل كناية عن عدم التعرض لسالكيه و ان عادت مبتذله بكشره التداول كأن سبيلهم مسدوده مشغوله بتعرض المتعرضين فاذا خلّى عنها كان ذلك ملازما او منطبقا على عدم التعرض لهم.

و قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ تعليل لقوله: «فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ» إما من جهه الأمر الذى يدل عليه بصورته او من جهه المأمور به الذى يدل عليه بمادته اعنى تخليه سبيلهم.

و المعنى على الاول: و إنما امر الله بتخليه سبيلهم لانه غفور رحيم يغفر لمن تاب اليه و يرحمه.

و على الثانى: خلّوا سبيلهم لان تخليتكم سبيلهم من المغفره و الرحمه، و هما من صفات الله العليا فتتصفون بذلك بصفه ربكم، و أظهر الوجهين هو الاول.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ الى آخر الآيه؛ الآيه تتضمن حكم الإجاره لمن استجار من المشركين لان يسمع كلام الله، و هى بما تشتمل عليه من الحكم و ان كانت معترضه او كالمعترضه بين ما يدل على البراه

و رفع الامان عن المشركين إلا أنها بمنزله دفع الدخل الواجب الذى لا يجوز إهماله فان أساس هذه الدعوه الحقه و ما يصاحبها من الوعد و الوعيد و التبشير و الانذار، و ما يترتب عليه من عقد العقود و إبرام العهود او النقض و البراءه و احكام القتال كل ذلك انما هو لصف الناس عن سبيل الغى و الضلال الى صراط الرشده و الهدى، و انجائهم من شقاء الشرك الى سعادته التوحيد.

و لازم ذلك الاعتناء التام بكل طريق يرجى فيه الوصول الى هدايه ضال و الفوز باحياء حق و ان كان يسيرا قليلا فان الحق حق و ان كان يسيرا، و المشرك غير المعاهد و إن أبرأ الله منه الذمه و أهدر دمه و رفع الحرمة عن كل ما يعود اليه من مال و عرض لكنه تعالى إنما فعل به ذلك ليحيى حق و يبطل باطل فاذا رجا منه الخير منع ذلك من اى قصد سيئ يقصد به حتى يحصل اليأس عن هدايته و انجائه.

فاذا استجار المشرك لينظر فيما تندب اليه الدعوه الحقه و يتبعها ان اتضح له كان من الواجب اجارته حتى يسمع كلام الله و يرتفع عنه غشاوه الجهل و تتم عليه الحجه فاذا تمادى بعد ذلك فى ضلاله و أصر فى استكباره صار ممن ارتفع عنه الأمان و برأت منه الذمه و وجب تطيب الارض من قذاره وجوده بأيه وسيله امكنت و اى طريق كان اقرب و اسهل و هذا هو الذى يفيد قوله تعالى: «وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ» الآية؛ بما يكتنف به من الآيات.

فمعنى الآية: ان طلب منك بعض هؤلاء المشركين الذين رفع عنهم الأمان أن تأمنه فى جوارك ليحضر عندك و يكلمك فيما تدعو اليه من الحق الذى يتضمنه كلام الله فأجره حتى يسمع كلام الله و يرتفع عنه غشاوه الجهل ثم أبلغه مأمنه حتى يملك منك أمنا تاما كاملا، و إنما شرع الله هذا الحكم و بذل لهم هذا الامن التام لانهم قوم جاهلون و لا بأس على جاهل اذا رجا منه الخير بقبول الحق لو وضح له.

و هذا غاية ما يمكن مراعاته من اصول الفضيله و حفظ الكرامه و نشر الرحمه و الرأفه و شرافه الانسانيه اعتبره القرآن الكريم، و ندب اليه الدين القويم.

قوله تعالى: كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ الْآيَه؛ تبين و توضيح لما مر إجمالاً من الحكم بنقض عهد المشركين ممن لا وثوق بوفائه بعهد، و قتلهم الى ان يؤمنوا بالله و يخضعوا لدين التوحيد، و استثناء من لم ينقض العهد و بقى على الميثاق حتى ينقضى مده عهدهم.

فالآيه و ما يتلوها الى تمام ست آيات تبين ذلك و توضح الحكم و استثناء ما استثني منه و الغايه و المعنى جميعاً.

قوله: «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ رَسُولِهِ» استفهام فى مقام الإنكار، و قد بادرت الآيه الى استثناء الذين عاهدوهم من المشركين عند المسجد الحرام لكونهم لم ينقضوا عهداً و لم يساهلوا فيما واثقوا به بدليل قوله تعالى: «فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ» و ذلك أن الاستقامه لمن استقام و السلم لمن يسالم من لوازم التقوى الدينى، و لذلك علل قوله ذلك بقوله:

«إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» كما جاء مثله بعينه فى الآيه السابقه: «فَأْتَمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مَدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ» .

قوله تعالى: كَيْفَ وَ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا - يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا - وَ لَا ذِمَّةَ إِلَىٰ آخِر الْآيَه؛ قال الراغب فى المفردات: الإلّ كل حاله ظاهره من عهد حلف، و قرابه تنلّ: تلمع فلا- يمكن انكاره، قال تعالى: لا يرقبون فى مؤمن إلا و لا ذمه، و ألّ الفرس: اسرع، حقيقته لمع، و ذلك استعاره فى باب الإسراع نحو برق و طار. انتهى.

و قال ايضاً: الذمام- بكسر الهمزة- ما يذمّ الرجل على إضاعته من عهد، و كذلك الذمه و المذمه، و قيل: لى مذمه فلا تهتكها، و أذهب مذمتهم بشىء: أى اعطهم شيئاً لما لهم من الذمام. انتهى. و هو ظاهر فى أن الذمه مأخوذه من الذم بالمعنى الذى يقابل المدح.

و لعل إلقاء المقابلة فى الآيه بين الإلّ و الذمه للدلاله على أنهم لا يحفظون فى المؤمنین شیئا من المواثیق التى یجب رقبوها و حفظها سواء كانت مبنیه على اصول واقعیه تکوینیّه كالقرابه التى توجب بوجه على القرب رعایه حال قریبه، او على الجعل و الاصطلاح كالعهود و المواثیق المعقوده بحلف و نحوه.

و قد كررت لفظه «كَيْفَ» للتأکید و لرفع الإبهام فى البیان الناشئ من تخلل قوله: «إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ» الآیه؛ بطولها بین قوله: «كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ» الآیه؛ و قوله: «وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ» الآیه.

فمعنى الآیه: كيف یكون للمشركین عهد عند الله و عند رسوله و الحال أنهم إن یظهروا علیكم و یغلبوكم على الامر لا یحفظوا و لا یراعوا فیکم قرابه و لا عهدا من العهود یرضونكم بالكلام المدلس و القول المزوّق، و یأبى ذلك قلوبهم، و أكثرهم فاسقون.

و من هنا ظهر أن قوله: «يُضْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ» من المجاز العقلى نسب فيه الإرضاء الى الأفواه و هو فى الحقیقه منسوب الى القول و الكلام الخارج من الأفواه المكوّن فیها.

و قوله: «يُضْضُونَكُمْ» الآیه؛ تعلیل لإنكار وجود العهد للمشركین و لذلك جىء به بالفصل، و التقدير: كيف یكون لهم عهد و هم یرضونكم بأفواههم و تأبى قلوبهم و أكثرهم فاسقون.

و أما قوله: «وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ» ففیه بیان أن أكثرهم ناقضون للعهد و الميثاق بالفعل من غیر ان ینتظروا ظهورهم جميعا علیكم فالآیه توضح حال آحادهم و جميعهم بأن أكثرهم فاسقون بنقض العهد من غیر ان یرقبوا فى مؤمن إلا و لا ذمه، و لو انهم ظهروا علیكم جميعا لم یرقبوا فیکم الإلّ و الذمه.

قوله تعالى: «اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا» الى آخر الآيتين، بین و تفسیر لقوله فى الآیه السابقه: «وَ أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ» و كأن قوله: «اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا» الى آخر

الآية توطئه و تمهيد لقوله في الآية الثانية: «لَا يَزُقُّونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَ لَا ذِمَّةً» .

و بذلك يظهر أن الأقرب أن المراد بالفسق الخروج عن العهد و الذمه دون الفسق بمعنى الخروج عن زى عبوديه الله سبحانه و إن كان الامر كذلك.

و قوله: وَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ كالتفسير لجميع ما مر من أحوالهم الروحيه و أعمالهم الجسميه، و تفيد الجملة مع ذلك جوابا عن سؤال مقدر او ما يجرى مجراه و المعنى: اذا كان هذا حالهم و هذه أفعالهم فلا تحسبوا ان لو نقضتم عهدهم اعتديتم عليهم فاولئك هم المعتدون عليكم لما اضمروه من العداوه و البغضاء و لما اظهره اكثرهم فى مقام العمل من الصد عن سبيل الله، و عدم رعايه قرابه و لا عهد فى المؤمنين.

قوله تعالى: فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِ، الْآيَاتِ ببيان تفصيلي لقوله فيما تقدم: «فَإِنْ تَبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ» .

و المراد بالتوبه بدلاله السياق الرجوع الى الايمان بالله و آياته، و لذلك لم يقتصر على التوبه فقط بل عطف عليها إقامه الصلاه التى هى أظهر مظاهر عباد الله، و إيتاء الزكاه الذى هو اقوى اركان المجتمع الدينى، و قد أشير بهما الى نوع الوظائف الدينيه التى بإتيانها يتم الايمان بآيات الله بعد الايمان بالله عز اسمه فهذا معنى قوله: «تَابُوا وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ» .

و اما قوله: فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ، فإلى الدِّينِ فالمراد به بيان التساوى بينهم و بين سائر المؤمنين فى الحقوق التى يعتبرها الاسلام فى المجتمع الاسلامى: لهم ما للمسلمين و عليهم ما على المسلمين.

و قد عبّر فى الآية عن ذلك بالاخوة فى الدين، و قال فى موضع آخر: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ (الحجرات ١٠) اعتبارا بما بينهم من التساوى فى الحقوق الدينيه فان الأخوين شقيقان اشتقا من ماده واحده و هما لذلك متساويان فى الشئون الراجعه الى ذلك فى مجتمع المنزل عند والدهما الذى هو رب البيت، و فى مجتمع القرابه عند الأقرباء و العشيره.

و إذا كان لهذا المعنى المسمّى بلسان الدين أخوّه أحكام و آثار شرعيه اعتنى بها قانون الاسلام فهو اعتبار حقيقه لنوع من الاخوّه بين افراد المجتمع الاسلامى لها آثار مترتبه كما أن الاخوّه الطبيعيه فيما اعتبرها الاسلام لها آثار مترتبه عقلائيّه و دينيه و ليست تسميه ذلك أخوّه مجرد استعاره لفظيه عن عنايه مجازيه، و فيما نقل عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم: قوله: «المؤمنون إخوه يسعى بذمتهم أدناهم، و هم يد واحده على من سواهم».

و قوله: «وَ إِنْ نَكُنُوا أَيَّمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَ طَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَتَمَّ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ الْآيَه؛ يدل السياق أنهم غير المشركين الذين أمر الله سبحانه في الآيه السابقه بنقض عهدهم و ذكر انهم هم المعتدون لا يرقبون في مؤمن إلا و لا ذمه فانهم ناكثون للأيمان ناقضون للعهد، فلا يستقيم فيهم الاشتراط الذى ذكره الله سبحانه بقوله:

«وَ إِنْ نَكُنُوا أَيَّمَانَهُمْ» الْآيَه.

فهؤلاء قوم آخرون لهم مع ولى الأمر من المسلمين عهود و أيمان ينكثون أيمانهم من بعد عهدهم، أى ينقضون عهودهم من بعد عقدها فأمر الله سبحانه بقتالهم و ألغى أيمانهم و سمّاهم أئمه الكفر لأنهم السابقون فى الكفر بآيات الله يتبعهم غيرهم ممن يليهم، يقاتلون جميعا لعلهم ينتهون عن نكث الأيمان و نقض العهود.

قوله تعالى: «أَلَا تَقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَ هُمْ بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ الْآيَه؛ و ما بعدها الى تمام اربع آيات تحريض للمؤمنين و تهيج لهم على قتال المشركين بيان ما اجرموا به فى جنب الله و خانوا به الحق و الحقيقه، و عدّ خطاياهم و طغياناتهم من نكث الأيمان و الهّم بإخراج الرسول و البدء بالقتال اول مره.

ثم بتعريف المؤمنين أن لازم إيمانهم بالله الذى يملك كل خير و شر و نفع و ضرر أن لا يخشوا إلا إياه ان كانوا مؤمنين به ففى ذلك تقويه لقلوبهم و تشجيعهم عليهم، و ينتهى الى بيان أنهم ممتحنون من عند الله بإخلاص الإيمان له و القطع من المشركين حتى يؤجروا بما يؤجر به المؤمن

المتحقق في إيمانه.

قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ. أَعَادَ الْأَمْرَ بِالْقِتَالِ لِأَنَّهُ صَارَ مِنْ جِهَةِ مَا تَقَدَّمَ مِنَ التَّحْرِيزِ وَ التَّحْضِيضِ أَوْقَعَ فِي الْقَبُولِ فَانِ الْأَمْرَ الْأَوَّلَ كَانَ ابْتِدَائِيًّا غَيْرَ مَسْبُوقٍ بِتَمْهِيدٍ وَ تَوَطَّئُهُ بِخِلَافِ الْأَمْرِ الثَّانِي الْوَارِدِ بَعْدَ اسْتِعْدَادِ الْإِسْتِعْدَادِ وَ كَمَالِ التَّهَيُّؤِ مِنَ الْمَأْمُورِينَ.

على ان ما أتبع به الامر من قوله: «يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَ يُخْزِيهِمْ» الى قوله: «وَ يُذْهِبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ» يؤكد الامر و يغري المأمورين على امتثاله و إجرائه على المشركين فان تذكرهم أن قتل المشركين عذاب إلهي لهم بأيدي المؤمنين، و أن المؤمنين أياد مجريه لله سبحانه و أن في ذلك خزيا للمشركين و نصره من الله للمؤمنين عليهم و شفاء لصدور قوم مؤمنين و اذهابا لغيظ قلوبهم، يجزئهم للعمل و ينشطهم و يصفى إرادتهم.

و قوله: «وَ يُتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ» الآية بمنزله الاستثناء لئلا يجرى حكم القتال على إطلاقه.

قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهِدُوا مِنْكُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ بِمَنْزَلِهِ تَعْلِيلَ آخِرِ لَوْجُوبِ قِتَالِهِمْ لِيَنْتِجَ تَحْرِيزُهُمْ عَلَى الْقِتَالِ وَ فِيهِ بَيَانُ حَقِيقَةِ الْأَمْرِ، وَ مُحْصَلُهُ أَنَّ الدَّارَ دَارَ الْإِمْتِحَانِ وَ الْإِبْتِلَاءِ فَانِ نَفُوسَ الْآدَمِيِّينَ تَقْبَلُ الْخَيْرَ وَ الشَّرَّ وَ السَّعَادَةَ وَ الشَّقَاوَةَ فَهِيَ فِي أَوَّلِ كَيْنُونَتِهَا سَازِجَةٌ مَبْهَمَةٌ، وَ مَرَاتِبُ الْقُرْبِ وَ الزُّلْفَى إِنَّمَا تَبْدُلُ بِإِزَاءِ الْإِيمَانِ الْخَالِصِ بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ، وَ لَا يَظْهَرُ صِفَاءُ الْإِيمَانِ إِلَّا بِالْإِمْتِحَانِ الَّذِي يورِدُ الْمُؤْمِنَ مَقَامَ الْعَمَلِ، لِيَمِيزَ اللَّهُ بِذَلِكَ الطَّيِّبَ مِنَ الْخَبِيثِ، وَ الصَّافِيَ الْإِيمَانِ مِمَّنْ لَيْسَ عِنْدَهُ إِلَّا مَجْرَدُ الدَّعْوَى أَوْ الْمَزْعَمَةِ.

فمن الواجب أن يمتحن هؤلاء المدعون أنهم باعوا أنفسهم و أموالهم لله بأن لهم الجنة، و يبتلوا بمثل القتال الذي يميز به الصادق من الكاذب و يفصل الذي قطع روابط المحبة و الصلة

من أعداء الله سبحانه ممن فى قلبه بقايا من ولايتهم و مودتهم حتى يحيى هؤلاء و يهلك أولئك.

فعلى المؤمنين أن يمتثلوا أمر القتال بل يتسارعوا اليه و يتسابقوا فيه ليظهروا بذلك صفاء جوهرهم و حقيقه إيمانهم و يحتجوا به على ربهم يوم لا نجاح فيه إلا بحجه الحق.

فقوله: «أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا» أى بل أظننتم ان تتركوا على ما أنتم عليه من الحال و لما تظاهر حقيقه صدقكم فى دعوى الإيمان بالله و بآياته.

و قوله: «وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ» الآيه اى و لما يظهر فى الخارج جهادكم و عدم اتخاذكم من دون الله و لا رسوله و لا المؤمنين وليجه فإن تحقق الأشياء علم منه تعالى بها و قد مر نظير الكلام مع بسط ما فى تفسير قوله تعالى: أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ الآيه (آل عمران ١٤٢) فى الجزء الرابع من الكتاب. و من الدليل على هذا الذى ذكرنا فى معنى العلم قوله فى ذيل الآيه: «وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ».

و الوليجه على ما فى مفردات الراغب كل ما يتخذه الإنسان معتمدا عليه و ليس من اهله (١)(٢)(٣).

[سوره التوبه (٩): الآيات ١٧ الى ٢٤]

إشارة

١ كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَحْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُتَهَدِّينَ (١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَشْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمَ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُشْرِكُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَدَاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤)

ص: ٧٢٥

١- ١). التوبه ١-١٦: بحث روائى فى سنه العرب فى الحج و طواف البيت؛ القتال فى سيره رسول الله؛ نزول آيات البراءه؛ نزول جبرئيل على ان تبليغ آيات البراءه يتم بواسطه النبى صلى الله عليه و آله و سلم او رجل منه؛ عزل ابى بكر عن تبليغ آيات البراءه و انتخاب على عليه السلام؛ الغاء السنه الجاهليه؛ آراء بعض المفسرين الخاطئه فى قصص عزل أبى بكر و انتخاب على عليه السلام لتبليغ الاحكام الالهيه و الرد على هذه الآراء؛ يوم الحج الاكبر؛ الاشهر الحرم؛ ائمه الكفر.

٢-٢) التوبه ١-١٦: كلام فى معنى العهد و اقسامه و احكامه.

٣-٣) التوبه ١-١٦: كلام فى نسبه الاعمال الى الاسباب طولاً.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِم بِالْكَفْرِ الْعِمَارَةَ ضِدَّ الْخَرَابِ يُقَالُ: عَمَّرَ الْأَرْضَ إِذَا بَنَىٰ بِهَا بِنَاءً، وَعَمَّرَ الْبَيْتَ إِذَا أَصْلَحَ مَا أَشْرَفَ مِنْهَا عَلَى الْفَسَادِ، وَالتَّعْمِيرُ بِمَعْنَاهُ وَمِنْهُ الْعَمْرُ لِأَنَّهُ عِمَارَةُ الْبَدَنِ بِالرُّوحِ، وَالْعَمْرُ بِمَعْنَى زِيَارَةِ الْبَيْتِ الْحَرَامِ لِأَنَّهُ فِيهَا تَعْمِيرُهُ.

والمسجد اسم مكان بمعنى المحل الذي يتعلق به السجده كالبيت الذي يبنى ليسجد فيه الله تعالى، وأعضاء السجده التي تتعلق بها السجده نوع تعلق وهي الجبهه والكفان والركبتان و رءوس إبهامى القدمين.

وقوله: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية؛ لنفى الحق والملك فإن اللام للملك والحق، والنفى الحالى للكون السابق يفيد أنه لم يتحقق منهم سبب سابق يوجب لهم أن يملكوا هذا الحق وهو حق ان يعمرؤا مساجد الله ويرمؤا ما استرم منها أو يزوروا كقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِئِبْنِيَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَشْرَى﴾ (الأنفال ٦٧) وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِئِبْنِيَّ أَنْ يَغُلَّ﴾ (آل عمران ١٦١).

و المراد بالعماره فى قوله: «أَنْ يَعْمُرُوا» إصلاح ما أشرف على الخراب من البناء ورم ما استرم منه دون عماره المسجد بالزياره فإن المراد بمساجد الله هى المسجد الحرام و كل مسجد لله ولا عمره فى غير المسجد الحرام، والدخول فى المساجد للعباده فيها و إن أمكن ان يسمى عماره و زياره لكن التعبير المعهود من القرآن فيه الدخول.

على أن فى قوله فى الآيه الآتيه: «أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ» تأييدا ما لكون المراد بالعماره هو إصلاح البناء دون زياره البيت الحرام.

و المراد بمساجد الله بيوت العباده المبنيه لله لكن السياق يدل على أن المراد نفى جواز عمارتهم للمسجد الحرام، و يؤيد قراءه من قرأ «أن يعمرؤا مسجد الله» بالإفراد.

و لا- ضير فى التعبير بالجمع و المقصود الأصيل بيان حكم فرد خاص من أفراده لأن الملاك عام، و التعليل الوارد فى الآيه غير مقيد بخصوص المسجد الحرام فالكلام فى معنى: ما كان لهم ان يعمروا المسجد الحرام لأنه مسجد و المساجد من شأنها ذلك.

و قوله: «شَاهِدِينَ عَلَيَّ أَنْفُسَهُمْ بِالْكَفْرِ» المراد بالشهادة أدائها و هو الاعتراف إما قولاً كمن يعترف بالكفر لفظاً، و إما فعلاً كمن يعبد الأصنام و يتظاهر بكفره فكل ذلك من الشهاده و الملاك واحد.

فمعنى الآيه: لا يحق و لا يجوز للمشركين أن يرموا ما استترم من المسجد الحرام كسائر مساجد الله و الحال أنهم معترفون بالكفر بدلاله قولهم أو فعلهم.

قوله تعالى: «أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَ فِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ» فى مقام التعليل لما أفيد من الحكم فى قوله: «مَا كَانَ» الخ؛ و لذلك جىء به بالفصل دون الوصل.

و المراد بالجملة الاولى بيان بطلان الأثر و ارتفاعه عن أعمالهم، و العمل إنما يؤتى به للتوسل به الى أثر مطلوب، و اذ كانت أعمالهم حابطه لا- أثر لها لم يكن ما يجوز لهم الإتيان بها، و الأعمال العباديه كعمارته مساجد الله إنما تقصد لما يطمع فيه و يرجى من أثرها و هو السعاده و الجنه، و العمل الحابط لا يتعقب سعاده و لا جنه البته.

و المراد بالجملة الثانيه بيان ظرفهم الذى يستقرون فيه لو لا- السعاده و الجنه و هو النار فكأنه قيل: اولئك لا يهديهم أعمالهم العباديه الى الجنه بل هم فى النار الخالده، و لا تفيد لهم سعاده بل هم فى الشقاوه المؤبده.

و فى الآيه دلالة على أصلين لطيفين من أصول التشريع:

أحدهما: أن تشريع الجواز بالمعنى الأعم الشامل للواجبات و المستحبات و المباحات يتوقف على أثر فى الفعل ينتفع به فاعله فلا لغو مشروعاً فى الدين، و هذا أصل يؤيده العقل، و هو منطبق على الناموس الجارى فى الكون: أن لا فعل إلا لنفع عائد الى فاعله.

و ثانيهما: ان الجواز فى جميع موارد مسبق بحق مجعول من الله لفاعله فى أن يأتى بالفعل من غير مانع.

قوله تعالى: **إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مِنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ** الآيه السياق كاشف عن ان الحصر من قبيل قصر الأفراد كأن متوهمًا يتوهم أن للمشركين و المؤمنين جميعًا أن يعمروا مساجد الله فافرد و قصر ذلك فى المؤمنين، و لازم ذلك ان يكون المراد بقوله: «يَعْمُرُ» إنشاء الحق و الجواز فى صورته الإخبار دون الإخبار، و هو ظاهر.

و قد اشترط سبحانه فى ثبوت حق العماره و جوازها أن يتصف العامر بالإيمان بالله و اليوم الآخر قبال ما نفى عن المشركين ان يكون لهم ذلك و لم يقنع بالإيمان بالله وحده لأن المشركين يذعنون به تعالى بل شفع ذلك بالإيمان باليوم الآخر لأن المشركين ما كانوا مؤمنين به، و بذلك يختص حق العماره و جوازها بأهل الدين السماوى من المؤمنين.

و لم يقنع بذلك ايضا بل ألحق به قوله: **«وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَ لَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ»** لأن المقام مقام بيان من ينتفع بعمله فيحق له بذلك ان يقترفه، و من كان تاركا للفروع المشروعه فى الدين و خاصة الركنتين: الصلاة و الزكاه فهو كافر بآيات الله لا ينفعه مجرد الإيمان بالله و اليوم الآخر و إن كان مسلما، اذا لم ينكرها بلسانه، و لو انكرها بلسانه ايضا كان كافرا غير مسلم.

و قد خص من بينها الصلاة و الزكاه بالذكر لكونهما الركنتين الذين لا غنى عنهما فى حال من الاحوال.

و بما ذكرنا من اقتضاء المقام يظهر ان المراد بقوله: **«وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ»** الخشيه الدينيه و هى العباده دون الخشيه الغريزيه التى لا يسلم منها إلا المقربون من اولياء الله كالأنبياء قال تعالى: **الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَ يَخْشَوْنَهُ وَ لَا يَخْشُونَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ** (الأحزاب / ٣٩).

و الوجه فى التكنيه عن العباده بالخشيه ان الأعراف عند الانسان من علل اتخاذ الإله

للعباده الخوف من سخطه او الرجاء لرحمته، و رجاء الرحمه ايضا يعود بوجه الى الخوف من انقطاعها و هو السخط فمن عبد الله سبحانه او عبد شيئا من الاصنام فقد دعاه الى ذلك اما الخوف من شمول سخطه او الخوف من انقطاع نعمته و رحمته فالعباده ممثله للخوف و الخشيته مصداق لهما لتمثيلها اياها، و بينهما حاله الاستلزام، و لذلك كنى بها عنها، فالمعنى -و الله اعلم- و لم يعبد احدا من دون الله من الآلهه.

و قوله: فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ اى اولئك الذين آمنوا بالله و اليوم الآخر و لم يعبدوا احدا غير الله سبحانه يرجى فى حقهم ان يكونوا من المهتدين، و هذا الرجاء قائم بأنفسهم او بأنفس المخاطبين بالآيه، و أما هو تعالى فمن المستحيل ان يقوم به الرجاء الذى لا يتم إلا مع الجهل بتحقيق الأمر المرجو الحصول.

و انما أخذ الاهتداء مرجو الحصول لا محقق الوقوع مع أن من آمن بالله و اليوم الآخر حقيقه و حققه اعماله العباديه فقد اهتدى حقيقه لأن حصول الاهتداء مره او مرات لا يستوجب كون العامل من المهتدين، و استقرار صفه الاهتداء و لزومها له، فالتلبس بالفعل الواقع مره او مرات غير التلبس بالصفه اللازمه فأولئك حصول الاهتداء لهم محقق، و أما حصول صفه المهتدين فهو مرجو التحقيق لا محقق.

و قد تحصل من الآيه أن عماره المساجد لا تحقق و لا تجوز لغير المسلم أما المشركون فلعدم إيمانهم بالله و اليوم الآخر، و أما اهل الكتاب فلأن القرآن لا يعد إيمانهم بالله ايمانا قال تعالى: إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا (النساء ١٥١)، و قال ايضا فى آيه ٢٩ من السوره: قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ الْآيَه.

قوله تعالى: أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْآيَةَ؛ السقايه كالحكايه و الجنايه و النكايه مصدر يقال: سقى يسقى سقايه.

و السقايه ايضا الموضع الذى يسقى فيه الماء، و الإناء الذى يسقى به قال تعالى: جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ (يوسف ٧٠)، و قد روي في الآثار ان سقايه الحاج كانت احدى الشئونات الفاخره و المآثر التى يباهى بها في الجاهليه، و أن السقايه كانت حياضا من آدم على عهد قصي بن كلاب احد اجداد النبي صلى الله عليه و آله و سلم توضع بفناء الكعبه، و يستقى فيها الماء العذب من الآبار على الإبل، و يسقى الحاج فجعل قصي امر السقايه عند وفاته لابنه عبد مناف و لم يزل في ولده حتى ورثه العباس بن عبد المطلب.

و سقايه العباس هو الموضع الذى كان يسقى فيه الماء في الجاهليه و الاسلام و هو في جهه الجنوب من زمزم بينهما اربعون ذراعا، و قد بنى عليه بناء هو المعروف اليوم بسقايه العباس.

و المراد بالسقايه في الآيه-على اى حال-معناها المصدرى و هو السقى، و يؤيده مقابلتها في الآيه عماره المسجد الحرام و المراد بها المعنى المصدرى قطعا بمعنى الشغل.

قوله تعالى: الَّذِينَ آمَنُوا وَ هَاجَرُوا وَ جَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ بيان لحق الحكم الذى عند الله في المسأله بعد إنكار المساواه، و هو ان الذى آمن و هاجر و جاهد في سبيل الله ما استطاع ببذل ما عنده من مال و نفس، أعظم درجه عند الله و إنما عبر في صورته الجمع-الذين آمنوا-الخ؛ إشاره الى ان ملاك الفصل هو الوصف دون الشخص.

و ما تقدم من دلالة الكلام على أن الأعمال من غير إيمان بالله لا فضل لها و لا درجه لصاحبها عند الله، قرينه على ان ليس المراد بالقياس الذى يدل عليه أفعال التفضيل في قوله:

«أَوْلَيْكَ أَكْبَرُ دَرَجَةً» الخ؛ هو ان بين الفريقين اشتراكا في الدرجات غير ان درجه من جاهد

عن إيمان أعظم ممن سقى و عمر.

بل المراد بيان ان النسبه بينهما نسبه الأفضل الى من لا فضل له كالمقايسه المأخوذه بين الأكثر و الأقل فإنها تستدعى وجود حد متوسط بينهما يقاسان اليه فهناك ثلاثه امور امر متوسط يؤخذ مقياسا معدلا و آخر يكون أكثر منه، و آخر يكون أقل منه فاذا قيس الأكثر من الأقل كان الأكثر مقيسا الى ما لا كثره فيه أصلا.

فقوله: **أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ** أى بالقياس الى هؤلاء الذين لا درجه لهم أصلا، و هذا نوع من الكنايه عن ان لا نسبه حقيقه بين الفريقين لأن أحدهما ذو قدم رفيع فيما لا قدم للآخر فيه أصلا و يدل على ذلك أيضا قوله: **«وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ»** بما يدل على انحصار الفوز فيهم و ثبوتها لهم على نهج الاستقرار.

قوله تعالى: **يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ** الى آخر الآيتين ظاهر السياق أن ما يعده من الفضل فى حقهم بيان و تفصيل لما ذكر فى الآيه السابقه من فوزهم جىء به بلسان التبشير.

فالمعنى **«يُبَشِّرُهُمْ»** أى هؤلاء المؤمنين **«رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ»** عظيمه لا يقدر قدرها **«وَرِضْوَانٍ»** كذلك **«وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا»** فى تلك الجنات **«نَعِيمٌ مُّقِيمٌ»** لا يزول و لا ينفد حالكونهم **«خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا»** لا ينقطع خلودهم بأجل و لا أمد.

ثم لما كان المقام مقام التعجب و الاستبعاد لكونها بشاره بأمر عظيم لم يعهد فى ما نشاهده من أنواع النعيم الذى فى الدنيا، رفع الاستبعاد بقوله: **«إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ»**.

و سيوافيك الكلام فى توضيح معنى رحمته تعالى و رضوانه فيما سيمر من موضع مناسب و قد تقدم بعض الكلام فيهما.

قوله تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَ إِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ** الى آخر الآيه؛ نهى عن تولى الكفار و لو كانوا آباء و إخوانا فإن الملاك عام، و الآيه التاليه تنهى

عن تولى الجميع غير أن ظاهر لفظ الآيه النهى عن اتخاذ الآباء و الإخوان أولياء إن استحبا الكفر و رجحوه على الإيمان.

و إنما ذكر الآباء و الإخوان دون الأبناء و الأزواج مع كون القبيلين و خاصه الأبناء محبوبين عندهم كالأباء و الإخوان لأن التولى يعطى للتولى ان يداخل امور وليه و يتصرف فى بعض شئون حياته، و هذا هو المحذور الذى يستدعى النهى عن تولى الكفار حتى لا يداخلوا فى امورهم الداخليه و لا يأخذوا بمجامع قلوبهم، و لا يكف المؤمنون و لا يستتكفوا عن الإقدام فيما يسوؤهم و يضرهم، و من المعلوم ان النساء و الذرارى لا يترقب منهم هذا الأثر السيئ إلا بواسطه، فلذلك خص النهى عن التولى بالآباء و الإخوان فهم الذين يخاف نفوذهم فى قلوب المؤمنين و تصرفهم فى شئونهم.

و قد ورد النهى عن اتخاذ الكفار اولياء فى موضع من كلامه تقدم بعضها فى سوره المائده و آل عمران و النساء و الأعراف و فيها إنذار شديد و تهديدات بالغه كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ (المائده ٥١/)، و قوله: ﴿وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ (آل عمران ٢٨/)، و قوله: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ (آل عمران ٢٨/)، و قوله: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ (النساء ١٤٤/).

و أندرهم فى الآيه التى نحن فيها بقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ و لم يقل:

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ اذ من الجائز ان يتوهم بعض هؤلاء انه منهم لأنهم آباؤه و إخوانه فلا يؤثر فيه التهديد أثرا جديدا يبعثه نحو رفض الولاية.

و كيف كان فقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بما فى الجملة من المؤكدات كاسميه الجملة، و دخول الام على الخبر و ضمير الفصل يفيد تحقق الظلم منهم و استقراره فيهم، و قد كرر الله فى كلامه ان الله لا يهدى القوم الظالمين، و قال فى نظير الآيه من سوره المائده: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فهؤلاء محرومون

من الهدايه الإلهيه لا ينفعهم شىء من أعمالهم الحسنه فى جلب السعاده اليهم،و السماح بالفوز و الفلاح عليهم.

قوله تعالى: قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛التفت من مخاطبتهم الى مخاطبه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ إيماء الى الإعراض عنهم لما يستشعر من حالهم أن قلوبهم مائله الى الاشتغال بما لا ينفع معه النهى عن تولي آبائهم و إخوانهم الكافرين،و إيجاد الداعى فى نفوسهم الى الصدور عن امر الله و رسوله،و قتال الكافرين جهادا فى سبيل الله و إن كانوا آباءهم و إخوانهم.

و الذى يمنعهم من ذلك هو الحب المتعلق بغير الله و رسوله و الجهاد فى سبيل الله،و قد عدَّ اللهُ سبحانه اصول ما يتعلق به الحب النفسانى من زينه الحياه الدنيا،و هى الآباء و الأبناء و الإخوان و الأزواج و العشيره-و هؤلاء هم الذين يجمعهم المجتمع الطبيعى بقرابه نسبيه قريبه او بعيده او سببيه-و الأموال التى اكتسبها و جمعوها،و تجاره التى يخشون كسادها و المساكن التى يرضونها-و هذه اصول ما يقوم به المجتمع فى المرتبه الثانيه-.

و ذكر تعالى أنهم إن تولوا أعداء الدين،و قدموا حكم هؤلاء الامور على حب الله و رسوله و الجهاد فى سبيل فليترصبوا و لينتظروا حتى يأتى الله بأمره و الله لا يهدى القوم الفاسقين.

و من المعلوم أن الشرط أعنى قوله: «إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ» الى قوله: «فِي سَبِيلِهِ» فى معنى أن يقال: إن لم تنتهوا عما ينهاكم عنه من اتخاذ الآباء و الإخوان الكافرين اولياء باتخاذكم سببا يودى الى خلاف ما يدعوكم اليه،و إهمالكم فى أمر غرض الدين و هو الجهاد فى سبيل الله.

فقوله فى الجزاء: «فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ» لا محاله إما أمر يتدارك به ما عرض على الدين من ثلمه و سقوط غرض فى ظرف مخالفتهم،و إما عذاب يأتيهم عن مخالفه أمر الله و رسوله و الإعراض عن الجهاد فى سبيله.

غير ان قوله تعالى فى ذيل الآيه: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» يعرض لهم أنهم

خارجون حينئذ عن زى العبوديه، فاسقون عن أمر الله و رسوله فهم بمعزل من أن يهديهم الله بأعمالهم و يوفقهم لنصره الله و رسوله، و إعلاء كلمه الدين و إمحاء آثار الشرك.

فذيل الآيه يهدى الى أن المراد بهذا الأمر الذى يأمرهم الله أن يتربصوا له حتى يأتى به أمر منه تعالى، متعلق بنصره دينه و إعلاء كلمته فينطبق على مثل قوله تعالى فى سورة المائده بعد آيات ينهى فيها عن تولّى الكافرين: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَزْتَدِ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَ اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (المائده ٥٤).

و الآيه بقيودها و خصوصياتها- كما ترى- تنطبق على ما تفيده الآيه التى نحن فيها.

فالمراد- و الله اعلم- ان اتخذتم هؤلاء اولياء، و استنكفتم عن اطاعه الله و رسوله و الجهاد فى سبيل الله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره، و يبعث قوما لا- يحبون إلا- الله، و لا- يوالون اعداءه و يقومون بنصره الدين و الجهاد فى سبيل الله افضل قيام فانكم اذا فاسقون لا ينتفع بكم الدين، و لا يهدى الله شيئا من اعمالكم الى غرض حق و سعاده مطلوبه.

و ربما قيل: ان المراد بقوله: «فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ» الاشاره الى فتح مكه، و ليس بسديد فان الخطاب فى الآيه للمؤمنين من المهاجرين و الانصار و خاصه المهاجرين، و هؤلاء هم الذين فتح الله مكه بأيديهم، و لا معنى لأن يخاطبوا و يقال لهم: ان كان آباؤكم و ابناؤكم، الخ؛ أحب اليكم من الله و رسوله و جهاد فى سبيله فواليتموهم و استنكفتم عن اطاعه الله و رسوله و الجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يفتح الله مكه بأيديكم و الله لا يهدى القوم الفاسقين، او فتربصوا حتى يفتح الله مكه و الله لا يهديكم لمكان فسقكم فتأمل (١).

ص: ٧٣٥

١- ١). التوبه ١٧-٢٤: بحث روائى فى: سقايه الحاج و عماره المسجد الحرام؛ فضائل امير المؤمنين على عليه السلام؛ الجهاد فى سبيل الله.

اشاره

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مَّدْيَرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَ عَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَن يَشَاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَ إِن حِفْتُمْ عَيْلَهُ فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨)

بيان:

قوله تعالى: لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ -الى قوله- وَلَّيْتُم مَّدْيَرِينَ المواطن جمع موطن و هو الموضع الذى يسكنه الإنسان و يتوطن فيه.

و حنين اسم واد بين مكه و الطائف وقع فيه غزوه حنين قاتل فيه النبى صلى الله عليه و آله و سلم هوازن و ثقيف و كان يوما شديدا على المسلمين انهزموا أولا ثم أيدهم الله بنصره فغلبوا.

و الإعجاب الإسرار و العجب سرور النفس بما يشاهده نادرا، و الرحب السعه فى المكان و ضده الضيق.

وقوله: «لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ» ذكر لنصرته تعالى لهم في مواطن كثيرة و مواضع متعددة يدلّ السياق على انها مواطن الحروب كوقائع بدر و أحد و الخندق و خيبر و غيرها، و يدل السياق أيضا أن الجملة كالمقدمه الممهده لقوله: «وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثُرَتْكُمُ الْآيَاتُ الْفُورِ؛ فَإِنَّ الثَّلَاثَ مَسْجِدَ لَتَذْكُرَ قِصَّةَ وَقَعِهِ حُنَيْنٍ، وَ عَجِيبَ مَا أَفَاضَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ نَصْرَتِهِ وَ خَصَّهِمْ بِهِ مِنْ تَأْيِيدِهِ فِيهَا.

وقوله: «وَ يَوْمَ حُنَيْنٍ أَي وَ يَوْمَ وَقَعَتْ فِيهِ الْقِتَالُ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَ أَعْدَائِكُمْ بِوَادِي حُنَيْنٍ، وَ إِضَافَةُ الْيَوْمِ إِلَى امْكِنَةِ الْوَقَائِعِ الْعَظِيمَةِ شَائِعٌ فِي الْعَرَفِ كَمَا يُقَالُ: يَوْمَ بَدْرٍ وَ يَوْمَ أُحُدٍ وَ يَوْمَ الْخَنْدَقِ نَظِيرٌ إِضَافَتُهُ إِلَى الْجَمَاعَةِ الْمُتَلَبِّسِينَ بِذَلِكَ كَيَوْمِ الْأَحْزَابِ وَ يَوْمِ تَمِيمٍ، وَ إِضَافَتُهُ إِلَى نَفْسِ الْحَادِثَةِ كَيَوْمِ فَتْحِ مَكَّةَ.

وقوله: «إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثُرَتْكُمُ الْآيَاتُ الْفُورِ؛ أَي أَسْرَتْكُمْ الْكُثْرَةُ الَّتِي شَاهَدْتُمُوهَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَانْقَطَعْتُمْ عَنِ الْإِعْتِمَادِ بِاللَّهِ وَ الثَّقَى بِأَيْدِهِ وَ قُوَّتِهِ وَ اسْتَنْدَظْتُمْ إِلَى الْكُثْرَةِ فَجَوَّزْتُمْ أَنْ سَتَدْفَعَ عَنْكُمْ كَيْدَ الْعَدُوِّ وَ تَهْزِمَ جَمْعَهُمْ، وَ إِنَّمَا هُوَ سَبَبٌ مِنَ الْأَسْبَابِ الظَّاهِرِيَّةِ لَا أَثَرَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ الَّذِي إِلَيْهِ تَسْبِيبُ الْأَسْبَابِ.

و بالنظر الى هذا المعنى أردف قوله: «إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثُرَتْكُمُ الْآيَاتُ الْفُورِ» بقوله: «فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا» أَي اتَّخَذْتُمُوهَا سَبَبًا مُسْتَقْلَلًا دُونَ اللَّهِ فَانْسَاكُمُ الْإِعْتِمَادَ بِاللَّهِ، وَ رَكَنْتُمْ إِلَيْهَا فَبَانَ لَكُمْ مَا فِي وَسْعِ هَذَا السَّبَبِ الْمَوْهُومِ وَ هُوَ أَنْ لَا غِنَى عِنْدَهُ حَتَّى يَغْنِيَكُمْ فَلَمْ يَغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَ لَا نَصْرًا وَ لَا شَيْئًا آخَرَ.

وقوله: «وَ ضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ» أَي مَعَ مَا رَحِبَتْ، وَ هُوَ كُنَايَةٌ عَنِ إِحْاطَةِ الْعَدُوِّ بِهِمْ إِحْاطَةً لَا يَجِدُونَ مَعَ ذَلِكَ مَأْمَنًا مِنَ الْأَرْضِ يَسْتَقِرُّونَ فِيهِ وَ لَا كَهْفًا يَأْوُونَ إِلَيْهِ فَيَقِيهِمْ مِنَ الْعَدُوِّ، أَي فَرَرْتُمْ فَرَارًا لَا تَلْوُونَ عَلَى شَيْءٍ.

فهو قريب المعنى من قوله تعالى في قصة الأحزاب: «إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَ مِنْ

أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (الأحزاب ١٠).

وقوله: ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ أى جعلتم العدو يلى أذباركم وهو كناية عن الانهزام وهذا هو الفرار من الزحف ساقهم إليه اطمئنانهم بكثرتهم و الانقطاع من ربهم، قال تعالى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَذْبَارَ وَمَنْ يُولُوهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبرُهُ -الى ان قال- فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (الأنفال ١٦) وقال ايضا: وَ لَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُولُونَ الْأَذْبَارَ وَ كَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا (الأحزاب ١٥).

فهذا كله اعنى ضيق الأرض عليهم بما رحبت ثم انهزامهم و فرارهم من الزحف على ما فيه من كبير الإثم، ووقوفهم هذا الموقف الذى يستتبع العتاب من ربهم إنما ساقهم إليه اعتمادهم و اطمئنانهم الى هذه الأسباب السرابيه التى لا تغنى عنهم شيئاً.

و الله سبحانه بسعه رحمته و عظم منه امتن عليهم بنصره و إنزال سكينته و إنزال جنود لم يروها، و تعذيب الكافرين، و وعد مجمل بمغفرته: وعدا ليس بالمقطوع وجوده حتى تبطل به صفة الخوف من قلوبهم، و لا- بالمقطوع عدمه حتى تزول صفة الرجاء من نفوسهم بل وعدا يحفظ فيهم الاعتدال و التوسط بين صفتى الخوف و الرجاء، و يرببهم تربيته حسنه تعددهم و تهيئهم للسعادة الواقعيه.

قوله تعالى: ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ السكينه- كما تقدم-حاله قلبيه توجب سكون النفس و ثبات القلب ملازمه لازدياد الإيمان مع الإيمان و لكلمه التقوى التى تهدى الى الورع عن محارم الله على ما تفسرها الآيات.

و هى غير العدالة التى هى ملكه نفسانيه تردع عن ركوب الكبائر و الإصرار على الصغائر

فان السكينه تردع عن الصغائر والكبائر جميعا.

وقد نسب الله السكينه فى كتابه الى نفسه نسبه تشعر بنوع من الاختصاص كما نسب الروح الى نفسه دون العداله و وصفها بالإنزال فلها اختصاص عندى به تعالى بل ربما يشعر بعض الآيات بأنه عدّها من جنوده كقوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزِدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيْمَانِهِمْ وَ لِلّٰهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ (الفتح ٤/).

و فى غير واحد من الآيات المشتمله على ذكر السكينه ذكر الجنود كقوله: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا (التوبه ٤٠/)، و كما فى الآيه المبحوث عنها: «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَ أَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا» .

و الذى يفهم من السياق ان هذه الجنود هى الملائكه النازله الى المعركه، او أن يقال من جملتها الملائكه النازله و الذى ينتسب الى السكينه و الملائكه أن يعذب بهم الكفار و يسدد و يسعد بهم المؤمنون كما اشتملت عليه آيات آل عمران القاصه قصه أحد، و آيات فى أول سوره الفتح فراجعها حتى يتبين لك حقيقه الحال إن شاء الله تعالى.

و قد تقدم فى قوله تعالى: فِيهِ سَكِينَةٌ مِّنْ رَبِّكُمْ (البقره ٢٤٨/٢٤٨) فى الجزء الثانى من الكتاب بعض ما يتعلق بالسكينه الإلهيه من الكلام مما لا يخلو من نفع فى هذا المقام.

قوله تعالى: ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِّنْ بَعِيدٍ ذَلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ قد تقدم مرارا أن التوبه من الله سبحانه هى الرجوع الى عبده بالعنايه و التوفيق أولا ثم بالعفو و المغفره ثانيا، و من العبد الرجوع الى ربه بالندامه و الاستغفار، و لا يتوب الله على من لا يتوب اليه.

و الإشاره فى قوله: «مِنْ بَعِيدٍ ذَلِكَ» على ما يعطيه السياق الى ما ذكره فى الآيتين السابقتين من خطيئتهم بالركون الى غير الله سبحانه و معصيتهم بالفرار و التولى ثم إنزال السكينه و إنزال الجنود و تعذيبهم الذين كفروا.

و الملائم لذلك ان يكون الموصول في «مَنْ يَشَاءُ» شاملا للمسلمين و الكافرين جميعا فقد ذكر من الفريقين جميعا ما يصلح لأن يتوب الله عليهم فيه إن تابوا، و هو من الكفار كفرهم و من المسلمين خطيئتهم و معصيتهم، و لا وجه لتخصيص التوبه على بعضهم مع ما في آيات التوبه من عموم الحكم وسعته و لم يقيد في هذه الآيه المبحوث عنها بما يوجب اختصاصها بأحد الفريقين: المسلمين او الكافرين مع وجود المقتضى فيهما جميعا.

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ قال في المجمع: كل مستقذر نجس يقال: رجل نجس و امرأه نجس و قوم نجس لأنه مصدر، و اذا استعملت هذه اللفظه مع الرجس قيل: رجس نجس - بكسر النون - قال: و العيله الفقر يقال عال يعيل اذا افتقر. انتهى.

و النهى عن دخول المشركين المسجد الحرام بحسب المتفاهم العرفي يفيد أمر المؤمنين بمنعهم عن دخول المسجد الحرام، و في تعليقه تعالى منع دخولهم المسجد بكونهم نجسا اعتبار نوع من القذاره لهم كاعتبار نوع من الطهاره و النزاهه للمسجد الحرام، و هي كيف كانت أمر آخر وراء الحكم باجتنااب ملاقاتهم بالرطوبه و غير ذلك.

و المراد بقوله: «عَامِهِمْ هَذَا» سنه تسع من الهجره، و هي السنه التي أذن فيها على عليه السلام بالبراءه، و منع طواف البيت عريانا، و حج المشركين البيت.

و قوله: «وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةَ الْآيَةِ؛ أَى و إن خفتنم فى إجراء هذا الحكم أن ينقطعوا عن الحج، و يتعطل أسواقكم، و تذهب تجارتكم فتفتقروا و تعيلوا فلا تخافوا فسوق يغنيكم الله من فضله، و يؤمنكم من الفقر الذى تخافونه.

و هذا وعد حسن منه تعالى فيه تطيب نفوس أهل مكه و من كان له تجاره هناك بالموسم، و كان حاضر العالم الاسلامى يبشرهم يومئذ بمضمون هذا الوعد فقد كان الاسلام تعلق كلمته، و ينتشر صيته حالا بعد حال، و كانت عامه المشركين فى عتبه

الاستئصال بعد إيدان براءه لم يبق لهم إلا اربعة أشهر إلا شردمه قليله من العرب كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم عاهدهم عند المسجد الحرام الى أجل ما بعده من مهل فالجميع كانوا في معرض قبول الاسلام (١).

[سوره التوبه (٩): الآيات ٢٩ الى ٣٥]

اشاره

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحِبَابَهُمْ رُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيُعْبَدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنَ الْآخِبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيُصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥)

ص: ٧٤١

قوله تعالى: قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ أهل الكتاب هم اليهود و النصارى على ما يستفاد من آيات كثيره من القرآن الكريم و كذا المجوس على ما يشعر أو يدل عليه قوله تعالى: إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ كُلُّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (الحجج ١٧) حيث عدوا في الآية مع سائر ارباب النحل السماويه في قبال الذين اشركوا، و الصابئون كما تقدم طائفه من المجوس صبوا الى دين اليهود فاتخذوا طريقا بين الطريقين.

و السياق يدل على ان لفظه «مِنَ» في قوله: «مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» بيانيه لا تبعيضييه فان كلاً من اليهود و النصارى و المجوس امه واحده كالمسلمين في اسلامهم و ان تشعبوا شعبا مختلفه و تفرقوا فرقا متشتته اختلط بعضهم ببعض و لو كان المراد قتال البعض و اثبات الجزيه على الجميع او على ذلك البعض بعينه لاحتاج المقام في افاده ذلك الى بيان غير هذا البيان

يحصل به الغرض.

و حيث كان قوله: «مَنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ» بيانا لما قبله من قوله: «الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ» الآية فالأوصاف المذكوره اوصاف عامه لجميعهم و هى ثلاثه أوصاف وصفهم الله سبحانه بها: عدم الايمان بالله و اليوم الآخر، و عدم تحريم ما حرّم الله و رسوله، و عدم التدبّر بدين الحق.

فأول ما وصفهم به قوله: «الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» و هو تعالى ينسب اليهم فى كلامه أنهم يشتونه إليها و كيف لا؟ و هو يعدّهم اهل الكتاب، و ما هو إلا الكتاب السماوى النازل من عند الله على رسول من رسله و يحكى عنهم القول او لازم القول بالالوهيه فى مئات من آيات كتابه (١).

فمعنى الآية- و الله اعلم- قاتلوا اهل الكتاب لأنهم لا يؤمنون بالله و اليوم الآخر إيماناً مقبولاً- غير منحرف عن الصواب و لا يحرمون ما حرّمه الإسلام مما يفسد اقترافه المجتمع الإنسانى و لا يدينون ديناً منطبقاً على الخلقه الإلهيه قاتلوهم و دوما على قتالهم حتى يصغروا عندكم و يخضعوا لحكومتم، و يعطوا فى ذلك عطيه مالىه مضروبه عليهم يمثل صغارهم، و يصرف فى حفظ ذمتهم و حقن دمائهم و حاجه إداره امورهم.

قوله تعالى: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ الْمُضَاهَاهُ الْمَشَاكِلَهُ وَالْإِفْكَ عَلَى مَا ذَكَرَهُ الرَّاغِبُ كُلُّ مَصْرُوفٍ عَنْ وَجْهِهِ الَّذِى يَحِقُّ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ فَمَعْنَى «يُؤْفَكُونَ» يَصْرَفُونَ فِي اعْتِقَادِهِمْ عَنِ الْحَقِّ إِلَى الْبَاطِلِ.

و قوله: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ» عزيز هذا هو الذى يسميه اليهود عزرا غيرت

ص: ٧٤٣

(١- ١). التوبه ٢٩-٣٥: بحث فى صله الايمان بالتوحيد و باليوم الآخر؛ لم عد الله اهل الكتاب كفارا.

اللفظه عند التعريف كما غير لفظ «يسوع» فصار بالتعريب «عيسى» و لفظ «يوحنا» فصار كما قيل «يحيى».

و قوله: «وَ قَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ» كلمه قالتها النصارى، و قد تقدم الكلام فيها و فى ما يتعلق بها فى قصه المسيح عليه السلام من سوره آل عمران فى الجزء الثالث من الكتاب.

و قوله: يُضَاهُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ تَنْبِئُ الْآيَةَ عَنْ ان القول بالنبوه منهم مضاهاه و مشاكله لقول من تقدمهم من الأمم الكافره و هم الوثنيون عبده الأصنام فإن من آلهتهم من هو إله أب إله و من هو إله ابن إله، و من هى إلهه ام إله او زوجه إله، و كذا القول بالثالوث مما كان دائرا بين الوثنيين من الهند و الصين و مصر القديم و غيرهم و قد مرّ نبذه من ذلك فيما تقدم من الكلام فى قصه المسيح فى ثالث أجزاء هذا الكتاب.

ثم دعا عليهم بقوله: «قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنْى يُؤْفَكُونَ» و ختم به الآية.

قوله تعالى: اِتَّخَذُوا أَحْبَابَهُمْ وَ رُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ الْأَحْبَارَ جَمَعَ حَبْرَ بَفَتْحِ الْحَاءِ وَ كَسْرِهَا وَ هُوَ الْعَالَمُ وَ غَلَبَ اسْتِعْمَالُهُ فِي عُلَمَاءِ الْيَهُودِ وَ الرَّهْبَانِ جَمَعَ رَاهِبٌ وَ هُوَ الْمَتَلْبَسُ بِلِبَاسِ الْخَشِيهِ وَ غَلَبَ عَلَى الْمَتَسَكِّينَ مِنَ النَّصَارَى.

و اتخاذهم الأحبار و الرهبان أربابا من دون الله هو إصغائهم لهم و إطاعتهم من غير قيد و شرط و لا يطاع كذلك إلا الله سبحانه.

و أما اتخاذهم المسيح بن مريم ربا من دون الله فهو القول بالوهيته بنحو كما هو المعروف من مذاهب النصارى، و فى إضافه المسيح الى مريم إشاره الى عدم كونهم محقين فى هذا الاتخاذ لكونه إنسانا ابن مرأه.

و لكون الاتخاذين مختلفين من حيث المعنى فصل بينهما فذكر اتخاذهم الأحبار و الرهبان أربابا من دون الله أولا، ثم عطف عليه قوله: «وَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ» .

و الكلام كما يدل على اختلاف الربوبيتين كذلك لا يخلو عن دلاله على أن قولهم بينوّه عزير و بنوه المسيح على معنيين مختلفين، و هو البنوه التشريفيّه فى عزير و البنوه بنوع من الحقيقه فى المسيح عليه السلام فإن الآيه أهملت ذكر اتخاذهم عزيرا ربا من دون الله، و لم يذكر مكانه إلا اتخاذهم الأحبار و الرهبان أربابا من دون الله.

فهو رب عندهم بهذا المعنى إما لاستلزام التشريف بالبنوه ذلك أو لأنه من أحبارهم و قد أحسن إليهم فى تجديد مذهبهم ما لا يقاس به إحسان غيره، و أما المسيح فبنوته غير هذه البنوه.

و قوله: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» جملة حاله أى اتخذوا لهم أربابا و الحال هذه.

و فى الكلام دلاله أولا: على أن الاتخاذ بالربوبيه بواسطة الطاعه كالاتخاذ بها بواسطة العباده فالطاعه اذا كانت بالاستقلال كانت عباده، و لازم ذلك ان الرب الذى هو المطاع من غير قيد و شرط و على نحو الاستقلال إله، فإن الإله هو المعبود الذى من حقه أن يعبد، يدل على ذلك كله قوله تعالى: «وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا» حيث يدل الرب بالإله، و كان مقتضى الظاهر ان يقال و ما أمروا إلا ليتخذوا ربا واحدا فالاتخاذ للربوبيه بواسطة الطاعه المطلقه عباده، و اتخاذ الرب معبودا اتخاذ له إلهافهم ذلك.

و ثانيا: على ان الدعوه الى عباده الله وحده فيما وقع من كلامه تعالى كقوله تعالى: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (الأنبياء ٢٥) و قوله: فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ (الشعراء ٢١٣) و أمثال ذلك كما أريد بها قصر العباده بمعناها المتعارف فيه تعالى كذلك أريد قصر الطاعه فيه تعالى، و ذلك انه تعالى لم يؤاخذهم فى طاعتهم لأحبارهم و رهبانهم إلا بقوله عزّ من قائل:

«وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» .

و على هذا المعنى يدل قوله تعالى: أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ

لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (يس ١٦١)، و هذا باب يفتح منه ألف باب.

و فى قوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» تتميم لكلمه التوحيد التى يتضمنها قوله: «وَمَا أُمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا» فإن كثيرا من عبده الاصنام كانوا يعتقدون بوجود آلهه كثيره، و هم مع ذلك لا- يخصون بالعباده إلا واحدا منها فعباده إله واحد لا يتم به التوحيد إلا مع القول بأنه لا إله إلا هو.

و قد جمع تعالى بين العبادتين مع الإشاره الى مغايره ما بينهما و ان قصر العباده بكلا معنيها عليه تعالى هو معنى الإسلام له سبحانه الذى لا- مفر منه للانسان؛ فمما أمر به نبيه صلى الله عليه و آله و سلم من دعوه أهل الكتاب بقوله: قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَ لَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَ لَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (آل عمران ٦٤).

و قوله تعالى فى ذيل الآيه: «سُبْحَانَ عَمَّا يُشْرِكُونَ» تنزيه له تعالى عما يتضمنه قولهم بربوبيه الأبحار و الرهبان، و قولهم بربوبيه المسيح عليه السلام من الشرك.

و الآيه بمنزله البيان التعليلى لقوله تعالى فى أول الآيات: «الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» فان اتخاذ إله او آلهه دون الله سبحانه لا يجامع الإيمان بالله، و لا الإيمان بيوم لا ملك فيه إلا الله.

قوله تعالى: يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الإطفاء اخماد النار او النور، و الباء فى قوله: «بِأَفْوَاهِهِمْ» للآله او السبيه.

و إنما ذكر الأفواه لأن النفخ الذى يتوسل به الى اخماد الانوار و السرج يكون بالأفواه، قال فى المجمع: و هذا من عجيب البيان مع ما فيه من تصغير شأنهم و تضعيف كيدهم لأن الفم يؤثر فى الأنوار الضعيفه دون الاقباس العظيمه. انتهى.

وقال في الكشاف: مثل حالهم في طلبهم ان يطلوا نبوه محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بالتكذيب بحال من يريد ان ينفخ في نور عظيم منبث في الآفاق يريد الله ان يزيده، و يبلغه الغايه القصوى في الاشرار و الاضاءه ليطفئه بنفخه و يطمسه. انتهى، و الآيه اشاره الى حال الدعوه الإسلاميه، و ما يريده منه الكافرون، و فيها وعد جميل بأن الله سيتم نوره.

قوله تعالى: هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ الهدى الهدايه الإلهيه التي قارنها برسوله ليهدى بأمره، و دين الحق هو الاسلام بما يشتمل عليه من العقائد و الأحكام المنطبقه على الواقع الحق.

و المعنى أن الله هو الذى ارسل رسوله و هو محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ مع الهدايه-او الآيات و البيئات- و دين فطرى ليظهر و ينصر دينه الذى هو دين الحق على كل الأديان و لو كره المشركون ذلك.

و بذلك ظهر أن الضمير فى قوله: «لِيُظْهِرَهُ» راجع الى دين الحق كما هو المتبادر من السياق، و ربما قيل: ان الضمير راجع الى الرسول، و المعنى ليظهر رسوله و يعلمه معالم الدين كلها و هو بعيد.

و فى الآيتين من تحريض المؤمنين على قتال اهل الكتاب و الاشاره الى وجوب ذلك عليهم ما لا يخفى فانهما تدلان على أن الله أراد انتشار هذا الدين فى العالم البشرى فلا بد من السعى و المجاهده فى ذلك، و أن اهل الكتاب يريدون أن يطفئوا هذا النور بأفواههم فلا بد من قتالهم حتى يفتنوا او يستبقوا بالجزيه و الصغار، و أن الله سبحانه يابى إلا ان يتم نوره، و يريد ان يظهر هذا الدين على غيره فالدائرته بمشيئه الله لهم على اعدائهم فلا ينبغى لهم ان يهنوا و يحزنوا و هم الأعلون ان كانوا مؤمنين.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَعْيَابِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُوا

أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَ يَصِيءُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ الظاهر أن الآيه اشاره الى بعض التوضيح لقوله في أول الآيات: «وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ» كما ان الآيه السابقه كالتوضيح لقوله فيها: «الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ» .

أما ايضاح قوله تعالى: «وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» بقوله: «إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَ الرَّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ» فهو إيضاح بأوضح المصديق و أهمها تأثيرا فى افساد المجتمع الانسانى الصالح، و ابطال غرض الدين.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَ الفِضَّةَ وَ لَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ قال الراغب: الكنز جعل المال بعضه على بعض و حفظه، و أصله من كترت التمر فى الوعاء، و زمن الكنز وقت ما يكثر فيه التمر، و ناقه كنز مكتنزه اللحم، و قوله: «وَ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَ الفِضَّةَ» أى يدخرونها، انتهى.

ففى مفهوم الكنز حفظ المال المكنوز و ادخاره و منعه من ان يجرى بين الناس فى وجوه المعاملات فينمو نماء حسنا، و يعم الانتفاع به فى المجتمع فينتفع به هذا بالأخذ، و ذاك بالرد، و ذلك بالعمل عليه و قد كان دأبهم قبل ظهور البنوك و المخازن العامه أن يدفوا الكنوز فى الأرض ستر عليها من أن تقصد بسوء.

و الآيه و إن اتصلت فى النظم اللفظى بما قبلها من الآيات الدائمه لأهل الكتاب و الموبخه لأخبارهم و رهبانهم فى أكلهم اموال الناس بالباطل و الصد عن سبيل الله إلا أنه لا دليل من جهه اللفظ على نزولها فيهم و اختصاصها بهم البتة.

فلا سبيل الى القول بأن الآيه إنما نزلت فى أهل الكتاب و حرمت الكنز عليهم، و أما المسلمون فهم و ما يقتنون من ذهب و فضه يصنعون بأموالهم ما يشاءون من غير بأس عليهم.

و الآيه توعد الكانزين إيعادا شديدا، و يهددهم بعذاب شديد غير أنها تفسر الكنز

المدلول عليه بقوله: «الَّذِينَ يَكْتُمُونَ الذَّهَبَ وَ الفِضَّةَ» بقوله: «وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» فتدل بذلك على أن الذي يبغضه الله من الكنز ما يلازم الكف عن إنفاقه في سبيل الله إذا كان هناك سبيل.

فآليه ناظره الى الكنز الذي يصاحبه الامتناع عن الانفاق في الحقوق الماليه الواجبه لا بمعنى الزكاه الواجبه فقط بل بمعنى يعمها وغيرها من كل ما يقوم عليه ضروره المجتمع الدينى من الجهاد و حفظ النفوس من الهلكه و نحو ذلك.

و قوله فى ذيل الآيه: «فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» إيعاد بالعذاب يدل على تحريمه الشديد.

قوله تعالى: يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَ جُنُوبُهُمْ وَ ظُهُورُهُمْ الى آخر الآيه. إحماء الشىء جعله حاراً فى الاحساس، و الإحماء عليه الايقاد ليتسخن و الإحماء فوق التسخين، و الكوى إصاق الشىء الحار بالبدن.

و المعنى: أن ذلك العذاب المبشّر به فى يوم يوقد على تلك الكنوز فى نار جهنم فتكون محماه بالنار فتلتصق بجباههم و جنوبهم و ظهورهم، و يقال لهم عند ذلك: «هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ»: فقد عاد عذاباً عليكم تعذبون به.

و لعل تخصيص الجباه و الجنوب و الظهر لأنهم خضعوا لها و هو السجده التى تكون بالجباه و لاذوا إليها و اللواذ بالجنوب، و اتكئوا عليها و الاتكاء بالظهور، و قيل غير ذلك و الله أعلم (١)(٢).

ص: ٧٤٩

١-١). التوبه ٢٩-٣٥: بحث روائى فى: السيوف الثلاثه، سيره الاسلام مع اهل الكتاب و الكفار من غيرهم؛ الجزيه؛ معنى اتخاذ اهل الكتاب احبارهم و رهبانهم ارباباً من دون الله؛ ظهور المهدي عليه السلام؛ كنز الذهب و الفضة؛ الدرهم و الدينار.

٢-٢). التوبه ٢٩-٣٥: كلام فى معنى الكنز.

إشارة

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُجَلُّونَهُ عَمَّا يُحَرِّمُونَهُ عَمَّا لِيُطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ الشهر كالسنه و الاسبوع مما يعرفه عامه الناس منذ اقدم اعصار الإنسانيه، و كأن لبعضها تأثيرا في تنبهم لبعض فقد كان الانسان يشاهد تحول السنين و مرورها بمضى الصيف و الشتاء و الربيع و الخريف و تكررهما بالعود ثم العود ثم تنبها لانقسامها الى اقسام هي اقصر منها مده حسب ما ساقهم اليه مشاهده اختلاف اشكال القمر من الهلال الى الهلال، و ينطبق على ما يقرب من ثلاثين يوما و تنقسم بذلك السنه الى اثني عشر شهرا.

و السنه التي ينالها الحس شمسيه تتألف من ثلاثمائه و خمسه و ستين يوما و بعض يوم لا تنطبق على اثني عشر شهرا قمريا هي ثلاثمائه و أربعه و خمسون يوما تقريبا إلا برعايه حساب

الكيسه غير ان ذلك هو الذى يناله الحس و ينتفع به عامه الناس من الحاضر و البادى و الصغير و الكبير و العالم و الجاهل.

فقوله تعالى: «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا» الخ؛ ناظر الى الشهور القمرية التى تتألف منها السنون و هى التى لها اصل ثابت فى الحس و هو التشكلات القمرية بالنسبه الى اهل الارض.

و الدليل على كون المراد بها الشهور القمرية-اولا-قوله بعد: «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ» لقيام الضروره على ان الاسلام لم يحرم إلا اربعة من الشهور القمرية التى هى ذو القعدة و ذو الحجة و المحرم و رجب، و الاربعه من القمرية دون الشمسية.

و ثانيا: قوله «عِنْدَ اللَّهِ» و قوله: «فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ» فإن هذه القيود تدل على ان هذه العده لا سبيل للتغير و الاختلاف إليها لكونها عند الله كذلك و لا يتغير علمه، و كونها فى كتاب الله كذلك يوم خلق السماوات و الارض فجعل الشمس تجرى لمستقر لها، و القمر قدره منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغى لها ان تدرك القمر و لا الليل سابق النهار و كل فى فلك يسبحون فهو الحكم المكتوب فى كتاب التكوين، و لا معقب لحكمه تعالى.

فمعنى الآيه ان عده الشهور اثنا عشر شهرا تتألف منها السنون، و هذه العده هى التى فى علم الله سبحانه، و هى التى أثبتها فى كتاب التكوين يوم خلق السماوات و الارض و أجرى الحركات العامه التى منها حركه الشمس و حركه القمر حول الارض و هى الاصل الثابت فى الكون لهذه العده.

قوله تعالى: «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ الْحَرَمُ جَمْعُ حَرَامٍ وَ هُوَ الْمَمْنُوعُ مِنْهُ، وَ الْقِيَمُ هُوَ الْقَائِمُ بِمَصْلَحَةِ النَّاسِ الْمَهِيْمِينَ عَلَى إِدَارَةِ أُمُورِ حَيَاتِهِمْ وَ حَفْظِ شُؤْنِهَا.

وقوله: «مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ» هي الأشهر الأربعة: ذو القعدة و ذو الحجة و المحرم و رجب بالنقل القطعي، و الكلمة كلمة تشريع بدليل قوله: «ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ» الخ.

و إنما جعل الله هذه الأشهر الأربعة حرما ليكف الناس فيها عن القتال و ينسبط عليهم بساط الأمن، و يأخذوا فيها الأهبه للسعادة، و يرجعوا الى ربهم بالطاعات و القربات.

و كانت حرمتها من شريعة إبراهيم، و كانت العرب تحترمها حتى في الجاهلية حينما كانوا يعبدون الأوثان غير أنهم ربما كانوا يحولون الحرمه من شهر الى شهر سنه أو أزيد منها بالنسيء الذي تتعرض له الآيه التاليه.

و قوله: «ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ»، الإشاره الى حرمه الأربعة المذكوره، و الدين كما تطلق على مجموع ما أنزله الله على أنبيائه تطلق على بعضها فالمعنى ان تحريم الأربعة من الشهور القمرية هو الدين الذي يقوم بمصالح العباد. كما يشير اليه في قوله: «جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْيُبَيْتِ الْحَرَامِ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ الْآيَه (المائدة ٩٧)»؛ و قد تقدم الكلام فيه في الجزء السادس من الكتاب.

و قوله: «فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ» الضمير الى الأربعة اذ لو كان راجعا الى «اثْنَا عَشَرَ» المذكور سابقا لكان الظاهر أن يقال: «فيها» كما نقل عن الفراء، و أيضا لو كان راجعا الى «اثْنَا عَشَرَ» و هي تمام السنه لكان قوله: «فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ» كما قيل في معنى قولنا:

فلا تظلموا أبدا أنفسكم، و كان الكلام متفرقا على كون عده الشهور عند الله اثني عشر شهرا، و لا تفرع له عليه ظاهرا فالمعنى لما كانت هذه الأربعة حرما تفرع على حرمتها عند الله أن تكفوا فيها عن ظلم أنفسكم رعايه لحرمتها و عظم منزلتها عند الله سبحانه.

فالنهي عن الظلم فيها يدل على عظم الحرمه و تأكدها لتفرعها على حرمتها أولا و لأنها نهى خاص بعد النهى العام كما يفيدته قولنا: لا تظلم أبدا و لا تظلم في زمان كذا.

و الجملة أعنى قوله: «فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ» و إن كانت بحسب إطلاق لفظها نهيا عن

كل ظلم و معصيه لكن السياق يدل على كون المقصود الأهم منها النهى عن القتال فى الأشهر الحرم.

قوله تعالى: وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ قال الراغب فى المفردات: الكف كفى الإنسان و هى ما بها يقبض و يبسط، و كفته أصبت كفه، و كفته أصبته بالكف و دفعته بها، و تعورف الكف بالدفع على أى وجه كان، بالكف كان أو غيرها حتى قيل: رجل مكفوف لمن قبض بصره.

و قوله: و ما أرسلناك إلا كافه للناس أى كافا لهم عن المعاصى، و الهاء فيه للمبالغه كقولهم:

راويه و علامه و نسيابه، و قوله: «و قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً» قيل: معناه كافين لهم كما يقاتلونكم كافين، و قيل: معناه جماعه كما يقاتلونكم جماعه، و ذلك أن الجماعه يقال لهم: الكافه كما يقال لهم: الوازعه لقوتهم باجتماعهم، و على هذا قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً». انتهى.

و قال فى المجمع: كافه بمعنى الإحاطه مأخوذ من كافه الشىء و هى حرفه و اذا انتهى الشىء الى ذلك كف عن الزياده، و أصل الكف المنع. انتهى.

و قوله: «كَافَّةً» فى الموضوعين حال عن الضمير الراجع الى المسلمين او المشركين أو فى الأول عن الأول و فى الثانى عن الثانى او بالعكس فهناك وجوه أربعة، و المتبادر الى الذهن هو الوجه الرابع للقرب اللفظى الذى بين الحال و ذى الحال حينئذ، و معنى الآيه على هذا: و قاتلوا المشركين جميعهم كما يقاتلونكم جميعكم.

فالآيه توجب قتال جميع المشركين فتصير نظيره قوله تعالى: «فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ» الآيه؛ ينسخ هذه ما ينسخ تلك و تخصص أو تقيد بما تخصص او تقيد به هى.

و الآيه مع ذلك إنما تتعرض لحال القتال مع المشركين و هم عبده الأوثان غير أهل الكتاب فإن القرآن و إن كان ربما نسب الشرك تصريحا او تلويحا الى أهل الكتاب لكنه لم يطلق

المشركين على طريق التوصيف إلا على عبده الأوثان، و أما الكفر فعلا او وصفا فقد نسب الى اهل الكتاب و أطلق عليهم كما نسب و أطلق الى عبده الأوثان.

فالأية أعنى قوله: «وَ قَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً» الآية؛ لا هي ناسخه لآيه أخذ الجزية من أهل الكتاب، ولا هي مخصصة او مقيدة بها. و قد قيل في الآية بعض وجوه آخر تركناه لعدم جدوى في التعرض له.

و قوله: «وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» تعليم و تذكير و فيه حث على الاتصاف بصفه التقوى يترتب عليه من الفائدة: أولاً- الوعد الجميل بالنصر الإلهي و الغلبة و الظفر فإن حزب الله هم الغالبون.

و ثانيا: منعهم ان يتعدوا حدود الله في الحروب و المغازي بقتل النساء و الصبيان و من ألقى اليهم السلام كما قتل خالد في غزوه حنين مرأه فأرسل اليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم ينهاه عن ذلك و قتل رجالا من بنى جذيمه و قد اسلموا فوداهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم ينهاه عن ذلك و قتل رجالا من بنى جذيمه و قد اسلموا فوداهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم و تبرأ الى الله من فعله ثلاثا (1)، و قتل إسامه يهوديا اظهر له الاسلام فنزل قوله تعالى: «وَ لَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسِبْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ (النساء ٩٤)» و قد تقدم.

قوله تعالى: إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ الى آخر الآية؛ يقال: نسأ الشيء ينسؤه نساءً و منسأه و نسيئا اذا اخره تأخيرا، و قد يطلق النسيء على الشهر الذي اخر تحريمه على ما كانت العرب تفعله في الجاهلية فإنهم ربما كانوا يؤخرون حرمة بعض الأشهر الحرم الى غيره و أما انه كيف كان ذلك فقد اختلف فيه كلام المفسرين كأهل التاريخ.

و الذي يظهر من خلال الكلام المسرود في الآية أنه كانت لهم فيها بينهم سنه جاهليه في امر الأشهر الحرم و هي المسماه بالنسيء، و هو يدل بلفظه على تأخير الحرمة من شهر حرام

ص: ٧٥٤

(١- ١). القستان الاوليان المذكورتان في كتب السير و المغازي و الثالثة تقدمت في تفسير الآية سابقا.

الى بعض الشهور غير المحرّمه الذى بعده، وانهم كانوا يؤخرون الحرمه و لا يطلونها برفعها من اصلها لإرادتهم بذلك ان يتحفظوا على سنّه قوميه ورثوها عن اسلافهم عن إبراهيم عليه السلام.

فكانوا لا- يتركون أصل التحريم لغى و إنما يؤخرونه الى غير الشهر سنه او أزيد ليواطئوا عدّه ما حرّم الله، و هى الأربعة ثم يعودون و يعيدون الحرمه الى مكانها الأول.

و هذا نوع تصرف فى الحكم الإلهى بعد كفرهم بالله باتخاذ الأوثان شركاء له تعالى و تقدّس، و لذا عدّه الله سبحانه فى كلامه زياده فى الكفر.

و قد ذكر الله سبحانه من الحكم الخاص بحرمه الأشهر الحرم النهى عن ظلم الأنفس حيث قال: «فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ» و اظهر مصاديقه القتال كما ان المصداق الوحيد الذى استفتوا فيه النبى صلّى الله عليه و آله و سلم فحكاه الله سبحانه بقوله: يَسِيْرُ تُلُوْنَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَتَالِ فِيهِ الْآيَةَ (البقره ٢١٧)؛ و كذا ما فى معناه من قوله: لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ (المائده ٢) و قوله: جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَ الْهَدْيَ وَ الْقُلَائِدَ (المائده ٩٧).

و كذلك الأثر الظاهر من حرمه البيت او الحرم هو جعل الامن فيه كما قال: وَ مَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا (آل عمران ٩٧) و قال: أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا (القصص ٥٧).

فالظاهر ان النسيء الذى تذكره الآيه عنهم إنما هو تأخير حرمه الشهر الحرام للتوسّل بذلك الى قتال فيه لا لتأخير الحج الذى هو عباده دينيه مختصه ببعضها.

و هذا كله يؤيد ما ذكره: أن العرب كانت تحرّم هذه الأشهر الحرم، و كان ذلك مما تمسّكت به من مله ابراهيم و اسماعيل عليهما السلام، و هم كانوا أصحاب غارات و حروب فربما كان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثه اشهر متواليه لا يغزون فيها فكانوا يؤخرون تحريم المحرّم الى صفر فيحرّمونه و يستحلون المحرم فيمكثون بذلك زمانا ثم يعود التحريم الى المحرّم، و لا يفعلون ذلك اى إنساء

حرمه المحرم الى صفر إلا في ذى الحجه.

و أما ما ذكره بعضهم أن النسيء هو ما كانوا يؤخرون الحج من شهر الى شهر فمما لا ينطبق على لفظ الآية البتة، و سيجيء تفصيل الكلام فيه فى البحث الروائى الآتى ان شاء الله. و لارجع الى ما كُنا فيه.

فقوله تعالى: «إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ» أى تأخير الحرمة التى شرعها الله لهذه الأشهر الحرم من شهر منها الى شهر غير حرام زياده فى الكفر لأنه تصرف فى حكم الله المشروع و كفر بآياته بعد الكفر بالله من جهه الشرك فهو زياده فى الكفر.

و قوله: يُضِلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا أى ضلوا فيه بإضلال غيرهم إياهم بذلك، و فى الكلام إشعار أو دلالة على أن هناك من يحكم بالنسيء، و قد ذكروا أن المتصدى لذلك كان بعض بنى كنانة، و سيجيء تفصيله فى البحث الروائى إن شاء الله.

و قوله: يُحِلُّونَهُ عَامًا وَ يُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُؤَاطُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ فى موضع التفسير للإنسان، و الضمير للشهر الحرام المعلوم فى سياق الكلام أى و هو انهم يحلون الشهر الحرام الذى نسئوه بتأخير حرمة عامًا و يحرمونه عامًا، أى يحلون عامًا بتأخير حرمة الى غيره، و يحرمونه عامًا بإعاده حرمة اليه.

و إنما يعملون على هذه الشاكلة بالتأخير سنه و الإثبات اخرى ليؤاطوا و يوافقوا عده ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله فى حال حفظهم اصل العدد أى انهم يريدون التحفظ على حرمة الاشهر الاربعه بعددها مع التغيير فى محل الحرمة ليتمكنوا مما يريدونه من الحروب و الغارات مع الاستئان بالحرمة.

و قوله: زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ الْمَزِينِ هو الشيطان كما وقع فى آيات من الكتاب، و ربما الى الله سبحانه كما فى آيات أخر، و لا ينسب الشر اليه سبحانه إلا ما قصد به الجزاء على الشر كما قال تعالى: يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَ يَهْدِي بِهِ

كثيراً و ما يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ (البقره ٢٦).

و ذلك بأن يفسق العبد فيمنعه الله الهدايه فيكون ذلك إذنا لداعى الضلال و هو الشيطان ان يزین له سوء عمله فيغويه و يضلّه، و لذلك قال تعالى: «زُيِّنَ لَهُمْ سُوءَ أَعْمَالِهِمْ» ثم عقبه بقوله:

«إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» كأنه لما قيل: زين لهم سوء أعمالهم قيل: كيف أذن الله فيه و لم يمنع ذلك قيل: إن هؤلاء كافرون و الله لا يهدي القوم الكافرين (١).

[سوره التوبه (٩): الآيات ٣٨ الى ٤٨]

اشاره

بِأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِتَّقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) لَوْ كَانِ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعَدَتْ عَلَيْهِمُ السُّفْهُةُ وَسَيَّخِلْفُونَ بِاللَّهِ لَوْ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَّبِعَنَّ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمُ الْكَاذِبِينَ (٤٣) لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨)

ص: ٧٥٧

(١ - ١). التوبه ٣٦-٣٧: بحث روائى فى الاشهر الحرم.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ الْآيَةَ؛ اثَّاقَلْتُمْ أَصْلُهُ تَثَاقَلْتُمْ عَلَى وَزَانِ
إِدَارِكُوا وَغَيْرِهِ، وَكَأَنَّهُ

أشرب معنى الميل ونحوه فعدي بإلى وقيل: اثاقلتم الى الأرض أى ملتم الى الأرض متثاقلين او ثاقلتم مائلين الى الأرض و المراد بالنفر فى سبيل الله الخروج الى الجهاد.

وقوله: أَرْضِيَّتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ كَأَنَّ الرِّضَا أَشْرَبُ مَعْنَى الْقَنَاعَةِ فَعَدَى بِمَنْ كَمَا يُقَالُ: رَضِيْتُ مِنَ الْمَالِ بَطِيئَةً، وَرَضِيْتُ مِنَ الْقَوْمِ بِخَلِّهِ فُلَانٌ، وَعَلَى هَذَا فِي الْكَلَامِ نَوْعٌ مِنَ الْعِنَايَةِ الْمَجَازِيَةِ كَأَنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا نَوْعٌ حَقِيرٌ مِنَ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ قَنَعُوا بِهَا مِنْهَا، وَيُشْعِرُ بِذَلِكَ قَوْلُهُ بَعْدَهُ: «فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ» .

فمعنى الآية: يا أيها الذين آمنوا ما لكم اذا قال لكم النبي صلى الله عليه وآله وسلم -لم صرّح باسمه صونا و تعظيما- اخرجوا الى الجهاد أبطأتم كأنكم لا تريدون الخروج أفنعتكم بالحياة الدنيا راضين بها من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا بالنسبة الى الحياة الآخرة إلا قليل.

و فى الآية و ما يتلوها عتاب شديد للمؤمنين و تهديد عنيف و هى تقبل الانطباق على غزوه تبوك كما ورد ذلك فى اسباب النزول.

قوله تعالى: **إِلَّا تَنْفَرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ** الى آخر الآية؛ العذاب الذى أنذروا به مطلق غير مقيد فلا وجه لتخصيصه بعذاب الآخرة بل هو على إبهامه، وربما أيد السياق كون المراد به عذاب الدنيا او عذاب الدنيا والآخرة جميعا.

وقوله: **يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ** أى يستبدل بكم قوما غيركم لا- يتشاقلون فى امتثال أوامر الله و النفر فى سبيل الله اذا قيل لهم: انفروا، و الدليل على هذا المعنى قرينه المقام.

وقوله: **وَ لَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا** إشاره الى هوان أمرهم على الله سبحانه لو أراد ان يذهب بهم و يأتى بآخرين فإن الله لا ينتفع بهم بل نفعهم لأنفسهم فضررهم على أنفسهم، و قوله: **وَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** تعليل لقوله: **يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ** .

قوله تعالى: **إِلَّا- تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ثَانِيًا** اثنين اى أحدهما، و الغار الثقبه العظيمة فى الجبل، و المراد

به غار جبل ثور قرب منى و هو غير غار حراء الذى ربما كان النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يأوى اليه قبل البعثة للأخبار المستفيضة، والمراد بصاحبه هو ابو بكر للنقل القطعى.

و قوله: إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا أَى لَا تَحْزَنْ خَوْفًا مِمَّا تَشَاهَدُهُ مِنَ الْوَحْدَةِ وَالْغُرْبَةِ وَفَقْدِ النَّاصِرِ وَتَظَاهِرِ الْأَعْدَاءِ وَتَعْقِيهِمْ إِيَّايَ فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ مَعَنَا يَنْصُرُنِي عَلَيْهِمْ.

و قوله: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَ أَيْدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا أَى أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَأَيْدِ رَسُولِهِ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا يَصْرَفُونَ الْقَوْمَ عَنْهُمْ بِوَجْهِهِ مِنَ الصَّرْفِ بِجَمِيعِ الْعَوَامِلِ الَّتِي عَمَلَتْ فِي أَنْصِرَافِ الْقَوْمِ عَنْ دُخُولِ الْغَارِ وَالظَّفْرِ بِصَلَّى اللَّهِ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ رَوَى فِي ذَلِكَ أَشْيَاءَ سَتَأْتِي فِي الْبَحْثِ الرَّوَائِيَّ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

و الدليل على رجوع الضمير فى قوله: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» الى النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ اولاً:

رجوع الضمائر التى قبله وبعده اليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كقوله: «إِلَّا تَنْصُرُوهُ» و «نَصْرَهُ» و «أَخْرَجَهُ» و «يَقُولُ» و «لِصَاحِبِهِ» و «أَيْدَهُ» فلا سبيل الى رجوع ضمير «عَلَيْهِ» من بينها وحده الى غيره من غير قرينه قاطعه تدل عليه.

و ثانياً: أن الكلام فى الآيه مسوق لبيان نصر الله تعالى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حيث لم يكن معه أحد ممن يتمكن من نصرته اذ يقول تعالى: «إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ» والآيه و إنزال السكينه و التقويه بالجنود من النصر فذاك له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ خاصه.

و يدل على ذلك تكرار «إِذْ» و ذكرها فى الآيه ثلاث مرات كل منها بيان لما قبله بوجه فقوله: «إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا» بيان لوقت قوله: «فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ» و قوله: «إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ» بيان لتشخيص الحال الذى هو قوله: «ثَانِي اثْنَيْنِ» و قوله: «إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ» بيان لتشخيص الوقت الذى يدل عليه قوله: «إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ» .

و ثالثاً: أن الآيه تجرى فى سياق واحد حتى يقول: «وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى»

وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا» و لا ريب أنه بيان لما قبله، و أن المراد بكلمه الذين كفروا هي ما قضاوا به في دار الندوه و عزموا عليه من قتله صَلَّى الله عليه و آله و سلم و إطفاء نور الله، و بكلمه الله هي ما وعده من نصره و إتمام نوره، و كيف يجوز أن يفرق بين البيان و المبين و جعل البيان راجعا الى نصره تعالى إياه صَلَّى الله عليه و آله و سلم، و المبين راجعا الى نصره غيره.

فمعنى الآية: ان لم تنصروه أنتم ايها المؤمنون فقد اظهر الله نصره إياه في وقت لم يكن له احد ينصره و يدفع عنه و قد تظاهرت عليه الأعداء و أحاطوا به من كل جهه و ذلك اذ هم المشركون به و عزموا على قتله فاضطر الى الخروج من مكه في حال لم يكن إلا احد رجلين اثنين، و ذلك اذ هما في الغار اذ يقول النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم لصاحبه و هو ابو بكر: لا تحزن مما تشاهده من الحال ان الله معنا بيده النصر فنصره الله.

حيث أنزل سكينته عليه و أيده بجنود غائبه عن ابصاركم، و جعل كلمه الذين كفروا - و هي قضاؤهم بوجوب قتله و عزيمنتهم عليه - كلمه مغلوبه غير نافذه و لا مؤثره، و كلمه الله - و هي الوعد بالنصر و إظهار الدين و اتمام النور - هي العليا العاليه القايره و الله عزيز لا يغلب حكيم لا يجهل و لا يغلط في ما شاءه و فعله.

و قد تبين مما تقدم أولا: ان قوله: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» متفرع على قوله: «فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ» في عين انه متفرع على قوله: «إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ» فان الظرف ظرف للنصره على ما تقدم، و الكلام مسوق لبيان نصره تعالى إياه صَلَّى الله عليه و آله و سلم لا غيره فالتفريع تفريع على الظرف بمظروفه الذي هو قوله: «فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ» لا على قوله: «يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ» .

و ربما استدلل لذلك بأن النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم لم يزل على سكينه من ربه فانزال السكينه في هذا الظرف خاصه يكشف عن نزوله على صاحبه.

و يدفعه أولا قوله تعالى: «ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ» في قصه حنين، و القول بأن نفسه الشريفه اضطربت بعض الاضطراب في وقعه حنين فناسب نزول السكينه

بخلاف الحال في الغار. يدفعه أنه من الافتعال بغير علم فالآية لا تذكر منه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ حزنا ولا اضطرابا ولا غير ذلك إلا ما تذكر من فرار المؤمنين. على أنه يبطل أصل الاستدلال ان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لم يزل على سكينه من ربه لا يتجدد له شيء منها فكيف جاز له أن يضطرب في حين فتنزل عليه سكينه جديدة اللهم إلا أن يريدوا به أنه لم يزل في الغار كذلك.

و نظيرتها الآية الناطقة بنزول السكينه عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ و على المؤمنين في سورة الفتح: إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ (الفتح/٢٦).

و يدفعه ثانيا: لزوم تفرع قوله: «وَ أَيْدُهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا» على اثر تفرع قوله: «فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» لأنهما في سياق واحد، ولازمه عدم رجوع التأييد بالجنود اليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أو التفكيك في السياق الواحد من غير مجوز يجوزه.

و ربما التزم بعضهم- فرارا من شناعه لزوم التفكيك- أن الضمير في قوله تعالى: «وَ أَيْدُهُ» أيضا أيضا راجع الى صاحبه، ولازمه كون إنزال السكينه و التأييد بالجنود عائدین الى أبي بكر دون النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

و ربما أزيد بعض آخر بأن الوقائع التي تذكر الآيات فيها نزول جنود لم يروها كوقعه حنين و الأحزاب و كذا نزول الملائكة لوقعه بدر و ان لم تذكر نزولهم على المؤمنين و لم تصرح بتأييدهم بهم لكنهم حيث كانوا انما نزلوا للنصر و فيه نصر المؤمنين و إمدادهم فلا مانع من القول بأن الجنود التي لم يروها إنما أيدت أبا بكر، و تأييدهم المؤمنين جميعا أو ابا بكر خاصه تأييد منهم في الحقيقة للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ.

و الأولى على هذا البيان أن يجعل الفرع الثالث الذي هو قوله: «وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى» الآية؛ مترتبا على ما تقدمه من الفرعين لئلا يلزم التفكيك في السياق.

و لا يخفى عليك أن هذا الذي التزموا به يخرج الآية عن مستقر معناها الوحداى الى معنى

متهافت الأطراف يدفع آخره أوله، و ينقض ذيله صدره فقد بدأت الآية بأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أكرم على الله و أعز من أن يستذله و يحوجه الى نصره هؤلاء بل هو تعالى وليه القائم بنصره حيث لم يكن أحد من هؤلاء الحافين حوله المتبعين أثره ثم اذا شرعت في بيان نصره تعالى إياه بين نصره غيره بإنزال السكينة عليه و تأييده بجنود لم يروها الى آخر الآية.

هب أن نصره تعالى بعض المؤمنين به صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أو جميعهم نصر منه له بالحقيقه لكن الآية في مساق يدفعه البتة فإن الآية السابقه يجمع المؤمنين في خطاب واحد-يا أيها الذين آمنوا- و يعاتبهم و يهددهم على الثاقل عن إجابته النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الى ما أمرهم به من النفر في سبيل الله و الخروج الى الجهاد ثم الآية الثانيه تهددهم بالعذاب الاستبدال إن لم ينفروا و تبين لهم أن الله و رسوله في غنى عنهم و لا يضررونه شيئاً، ثم الآية الثالثه توضح ان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ في غنى عن نصرهم لأن ربه هو وليه الناصر له، و قد نصره حيث لم يكن لأحد منهم صنع فيه و هو نصره إياه اذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا.

و من البين الذي لا مريه فيه ان مقتضى هذا المقام بيان نصره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الخاص به المتعلق بشخصه من الله سبحانه خاصه من دون صنع لأحد من المؤمنين في ذلك لا- بيان نصره إياه بالمؤمنين أو ببعضهم و قد جمعهم في خطاب المعاتبه، و لا بيان نصره بعض المؤمنين به ممن كان معه.

و لا- أن المقام مقام يصلح لأن يشار بقوله: «إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا» إشارة إجمالية الى نصره العزيز لنيبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ثم يؤخذ في تفصيل ما خص به صاحبه من الخصيصه بإنزال السكينة و التأييد بالجنود فإن المقام على ما تبين لك يابى ذلك.

و يدفعه ثالثاً: أن فيه غفله عن حقيقه معنى السكينة و قد تقدم الكلام فيها في ذيل قوله تعالى: [□] ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ الآية: ٢٦ من السوره.

و الأمر الثاني: أن المراد بتأييده صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بجنود لم يروها تأييده بذلك يومئذ على ما يفيد

السياق، و أما قول بعضهم: إن المراد به ما أيده بالجنود يوم الأحزاب و يوم حنين على ما نطقت به الآيات فمما لا دليل عليه من اللفظ البتة.

و الأمر الثالث: أن المراد بالكلمه فى قوله: «وَ جَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى» هو ما قضاوا به فى دار الندوه و عزموا عليه من قتله صلى الله عليه و آله و سلم و إبطال دعوته الحقه بذلك، و بقوله «وَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا» هو ما وعد الله نبيه صلى الله عليه و آله و سلم من النصر و إظهار دينه على الدين كله.

و ذلك أن هذه الآيه بما تتضمنه من قوله: «فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا» تشير الى ما يقصه قوله تعالى: «وَ إِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَ يَمْكُرُونَ وَ يَمْكُرُ اللَّهُ وَ اللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ (الأنفال ٣٠)»، و الذى فى ذيل الآيه من إبطال كلمتهم و إحقاق الكلمه الإلهيه مرتبط بما فى صدر الآيه من حديث الإخراج أى الاضطرار الى الخروج لا محاله، و الذى اضطره صلى الله عليه و آله و سلم الى الخروج هو عزمهم على قتله حسب ما اتفقوا عليه من القضاء بقتله فهذه هى الكلمه التى أبطلها الله سبحانه و جعلها السفلى و تقابلها كلمه الله و ليست إلا النصر و الإظهار.

و من هنا يظهر ان قول بعضهم إن المراد بكلمه الذين كفروا الشرك و الكفر، و بكلمه الله تعالى التوحيد و الإيمان غير سديد فإن الشرك و إن كان كلمه لهم، و التوحيد كلمه الله لكنه لا- يستلزم كونهما المرادين كلما ذكرت الكلمتان حتى مع وجود القرينه على الخلاف.

قوله تعالى: «انْفِرُوا خِفَافًا وَ ثِقَالًا- وَ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الخفاف و الثقال جمعاً خفيف و ثقيل، و الثقل بقرينه المقام كناية عن وجود الموانع الشاغله الصارفه للإنسان عن الخروج الى الجهاد نظير كثره المشاغل المالىه و حب الأهل و الولد و الأقرباء و الأصدقاء الذى يوجب كراهه مفارقتهم، و فقد الزاد و الراحله و السلاح و نحو ذلك، و الخفه كناية عن خلاف ذلك.

فالأمر بالنفر خفافاً و ثقالا و هما حالان متقابلان فى معنى الأمر بالخروج على أى حال،

و عدم اتخاذ شىء من ذلك عذرا يعتذر به لترك الخروج كما أن الجمع بين الأموال و الأنفس فى الذكر فى معنى الأمر بالجهاد بأى وسيله أمكنت.

و قد ظهر بذلك ان الأمر فى الآيه مطلق لا يأبى التقييد بالأعذار التى يسقط معها وجوب الجهاد كالمرض و العمى و العرج و نحو ذلك فإن المراد بالخفه و الثقل امر وراء ذلك.

قوله تعالى: لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَ سَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ الى آخر الآيه.

العرض ما يسرع اليه الزوال و يطلق على المال الدنيوى و هو المراد فى الآيه بقريته السياق، و المراد بقربه كونه قريبا من تناول، و القاصد من القصد و هو التوسط فى الأمر، و المراد بكون السفر قاصدا كونه غير بعيد المقصد سهلا على المسافر، و الشقه: المسافه لما فى قطعها من المشقه.

و الآيه كما يلوح من سياقها تعبير و ذم للمنافقين المتخلفين عن الخروج مع النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم الى الجهاد الى غزوه تبوك اذ الغزوه التى خرج فيها النبى صَلَّى الله عليه و آله و سلم و تخلف عنه المنافقون و هى على بعد من المسافه هى غزوه تبوك لا غيرها.

و معنى الآيه: لو كان ما امرتهم به و دعوتهم اليه عرضا قريب تناول و غنيمه حاضره و سفرا قاصدا قريبا هينا لاتبعوك يا محمّد و خرجوا معك طمعا فى الغنيمه و لكن بعدت عليهم الشقه و المسافه فاستصعبوا السير و ثاقلوا فيه.

و سيحلفون بالله اذا رجعت اليهم و لمتموهم على تخلفهم: لو استطعنا الخروج لخرجنا معكم يهلكون انفسهم بما اخذوه من الطريقه: من الخروج الى القتال طمعا فى عرض الدنيا اذا استيسروا القبض عليه، و التخلف عنه اذا شق عليهم ثم الاعتذار بالعدر الكاذب على نبيهم و الحلف فى ذلك بالله كاذبين، او يهلكون انفسهم بهذا الحلف الكاذب، و الله يعلم انهم لكاذبون.

قوله تعالى: عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذْنَتْ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا

وَ تَعَلَّمَ الْكَاذِبِينَ الْجَمْلَةَ الْاُولَى دَعَاءَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ بِالْعَفْوِ نَظِيرَ الدَّعَاءِ عَلَى الْاِنْسَانِ بِالْقَتْلِ فِي قَوْلِهِ: قُتِلَ الْاِنْسَانُ مَا اَكْفَرَهُ (عبس ١٧/)، وَ قَوْلِهِ: فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَرَ (المدثر ١٩/) وَ قَوْلِهِ: قَاتَلَهُمُ اللهُ اَنْتَى يُؤْفَكُونَ (التوبه ٣٠/).

وَ الْجَمْلَةَ مُتَعَلِّقَهُ بِقَوْلِهِ: «لِمَ اَذْنَتَ لَهُمْ» اَى فِي التَّخْلَفِ وَ الْعُقُودِ، وَ لَمَّا كَانَ الْاِسْتِفْهَامُ لِلْاِنْكَارِ اَوْ التَّوْبِيخِ كَانَ مَعْنَاهُ: كَانَ يَنْبَغِي اِنْ لَا تَأْذَنَ لَهُمْ فِي التَّخْلَفِ وَ الْعُقُودِ، وَ يَسْتَقِيمُ بِهِ تَعَلُّقُ الْغَايَةِ الَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا قَوْلُهُ: «حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِيْنَ صَدَقُوا» الْاَيَّهُ؛ بِقَوْلِهِ: «لِمَ اَذْنَتَ لَهُمْ» فَالتَّعَلُّقُ اِنْمَاءٌ هُوَ بِالْمُسْتَفْهَمِ عَنْهُ دُونَ الْاِسْتِفْهَامِ وَ اِلَّا اَفَادَ خِلَافَ الْمَقْصُودِ، وَ الْكَلَامُ مَسْوُوقٌ لِبَيَانِ ظُهُورِ كَذِبِهِمْ وَ اَنْ اَدْنَى الْاِمْتِحَانِ كَالْكَفِّ عَنْ اِذْنِهِمْ فِي الْعُقُودِ يَكْشِفُ عَنْ فَصَاحَتِهِمْ.

وَ مَعْنَى الْاَيَّةِ: عَفَا اللهُ عَنْكَ لَمَّا اَذْنَتَ لَهُمْ فِي التَّخْلَفِ وَ الْعُقُودِ؟ وَ لَوْ شِئْتَ لَمَّا تَأْذَنَ لَهُمْ - وَ كَانُوا اَحَقَّ بِهِ - حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِيْنَ صَدَقُوا وَ تَعَلَّمَ الْكَاذِبِينَ فَيَتَمَيَّزُ عِنْدَكَ كَذِبُهُمْ وَ نِفَاقُهُمْ.

وَ الْاَيَّةُ - كَمَا تَرَى وَ تَقَدَّمَتْ الْاِشَارَةُ اِلَيْهِ - فِي مَقَامِ دَعْوَى ظُهُورِ كَذِبِهِمْ وَ نِفَاقِهِمْ وَ اَنْهَمُ مَفْتَضِحُونَ بِاَدْنَى اِمْتِحَانِ يَمْتِحُنُونَ بِهِ، وَ مِنْ مَنَاسِبَاتِ هَذَا الْمَقَامِ اِلْقَاءُ الْعِتَابِ اِلَى الْمَخَاطَبِ وَ تَوْبِيخُهُ وَ الْاِنْكَارُ عَلَيْهِ كَاَنَّهُ هُوَ الَّذِي سَتَرَ عَلَيْهِمْ فِضَائِحَ اَعْمَالِهِمْ وَ سَوَاءٌ سَرِيْرَتُهُمْ، وَ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الْعِنَايَةِ الْكَلَامِيَّةِ يَتَبَيَّنُ بِهِ ظُهُورُ الْاَمْرِ وَ وَضُوحُهُ لَا - يَرَادُ اَزْيَدُ مِنْ ذَلِكَ فَهُوَ مِنْ اَقْسَامِ الْبَيَانِ عَلَى طَرِيْقِ «اِيَّاكَ اَعْنِي وَ اَسْمَعِي يَا جَارَهُ».

فَالْمُرَادُ بِالْكَلَامِ اِظْهَارُ هَذِهِ الدَّعْوَى لَا الْكَشْفَ عَنْ تَقْصِيْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ وَ سَوَاءٌ تَسْبِيْرُهُ فِي اِحْيَاءِ اَمْرِ اللهِ، وَ اِرْتِكَابُهُ بِذَلِكَ ذَنْبًا - حَاشَا - وَ اَوْلَوِيَّةُ عَدَمِ الْاِذْنِ لَهُمْ مَعْنَاهَا كَوْنُ عَدَمِ الْاِذْنِ اَنْسَبَ لظُهُورِ فِضِيْحَتِهِمْ وَ اَنْهَمُ اَحَقُّ بِذَلِكَ لَمَّا بِهِمْ مِنْ سَوَاءِ السَّرِيْرَةِ وَ فِسَادِ النِّيَّةِ لِاَنَّهُ كَانَ اَوْلَى وَ اَحْرَى فِي نَفْسٍ وَ اَقْرَبُ وَ اَمْسُ بِمَصْلَحَةِ الدِّيْنِ.

وَ الدَّلِيْلُ عَلَى هَذَا الَّذِي ذَكَرْنَا قَوْلَهُ تَعَالَى بَعْدَ ثَلَاثِ اَيَّاتٍ: «لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوْكُمْ اِلَّا خَبَالًا وَ لَأَوْضَعُوْا خِلَالَكُمْ يَبْغُوْنَكُمْ الْفِتْنَةَ وَ فِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ» اِلَى اٰخِرِ الْاَيَّتِيْنَ، فَقَدْ كَانَ

الأصلح ان يؤذن لهم فى التخلف ليصان الجمع من الخبال و فساد الرأى و تفرق الكلمه، و المتعين ان يقعدوا فلا يفتنوا المؤمنين بإلقاء الخلاف بينهم و التفتين فيهم و فيهم ضعفاء الإيمان و مرضى القلوب و هم سماعون لهم يسرعون الى المطاوعه لهم و لو لم يؤذن لهم فأظهروا الخلاف كانت الفتنة اشد و التفرق فى كلمه الجماعه اوضح و أبين.

و يؤكد ذلك قوله تعالى بعد آيتين: «وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَ لَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ» فقد كان تخلفهم و نفاقهم ظاهرا لانحنا من عدم إعدادهم العده يتوسمه فى وجوههم كل ذى لب، و لا يخفى مثل ذلك على مثل النبي صلى الله عليه و آله و سلم و قد نبأه الله بأخبارهم قبل نزول هذه السوره كرارا فكيف يصح ان يعاتب هاهنا عتابا جديا بأنه لم يكف عن الإذن و لم يستعلم حالهم حتى يتبين له نفاقهم و يميز المنافقين من المؤمنين؟ فليس المراد بالعتاب إلا ما ذكرناه.

و مما تقدم يظهر فساد قول من قال: إن الآيه تدل على صدور الذنب عنه صلى الله عليه و آله و سلم لأن العفو لا يتحقق من غير ذنب، و ان الإذن كان قبيحا منه صلى الله عليه و آله و سلم و من صغائر الذنوب لأنه لا يقال فى المباح لم فعلته؟ انتهى.

و هذا من لعبهم بكلام الله سبحانه، و لو اعترض معترض على ما يهجون به فى مثل المقام الذى سيقى الآيه فيه لم يرضوا بذلك، و قد اوضحنا ان الآيه مسوقه لغرض غير غرض الجدل فى العتاب.

على ان قولهم: إن المباح لا يقال فيه: لم فعلت؟ فاسد فإن من الجائز اذا شوهده من رجح غير الأولى على الأولى ان يقال له: لم فعلت ذلك و رجحته على ما هو اولى منه؟ على انك قد عرفت ان الآيه غير مسوقه لعتاب جدى.

و نظيره ما ذكره بعض آخر حيث قال: إن بعض المفسرين و لا سيما الزمخشري قد أساءوا الأدب فى التعبير عن عفو الله تعالى عن رسوله صلى الله عليه و آله و سلم فى هذه الآيه، و كان يجب ان يتعلموا

أعلى الأدب معه صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم إذ أخبره ربه و مؤدبه بالعفو قبل الذنب، و هو منتهى التكريم و اللطف.

و بالغ آخرون كالرازي في الطرف الآخر فأرادوا ان يثبتوا ان العفو لا يدل على الذنب، و غايته ان الإذن الذي عاتبه الله عليه هو خلاف الاولى.

و هو جمود مع الاصطلاحات المحدثه و العرف الخاص في معنى الذنب هو المعصيه، و ما كان ينبغي لهم ان يهربوا من إثبات ما اثبته الله في كتابه تمسكا باصطلاحاتهم و عرفهم المخالف له و المدلول اللغه ايضا.

فالذنب في اللغه كل عمل يستتبع ضررا او فوت منفعه او مصلحة، مأخوذ من ذنب الدابه، و ليس مرادفا للمعصيه بل اعم منها. و الإذن المعفو عنه قد استتبع فوت المصلحه المنصوصه في الآيه و هي تبين الذين صدقوا و العلم بالكاذبين، و قد قال تعالى: **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا لِيُغْفَرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَ مَا تَأَخَّرَ** (الفتح ٢).

ثم ذكر في كلام له طويل ان ذلك كان اجتهادا منه صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم فيما لا وحى فيه من الله و هو جائز و واقع من الأنبياء عليهم السلام و ليسوا بمعصومين من الخطاء فيه و إنما العصمه المتفق عليها خاصه بتبليغ الوحى بيانه و العمل به فيستحيل على الرسول ان يكذب او يخطئ فيما يبلغه عن ربه او يخالفه بالعمل.

و منه ما تقدم في سورة الأنفال من عتابه تعالى لرسوله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم في اخذ الفديه من اسارى بدر حيث قال: **مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَشْرَى حَتَّى يُثَخَّنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّيَا وَ اللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ** (الأنفال ٦٧) ثم بين انه كان مقتضيا لنزول عذاب أليم لو لا كتاب من الله سبق فكان مانعا انتهى كلامه بنوع من التخليص.

و ليت شعري ما الذى زاد في كلامه على ما تفصى به الرازي و غيره حيث ذكروا ان ذلك من ترك الاولى، و لا يسمونه ذنبا في عرف المتشرعين و هو الذى يستتبع عقابا، و ذكر هو انه من ترك الأصلح و سماه ذنبا لغه.

على انك قد عرفت فيما تقدم انه لم يكن ذنبا لا عرفا و لا لغه بدلاله ناصه من الآيات على ان عدم خروجهم كان هو الأصلح لحال جيش المسلمين لتخلصهم بذلك عن غائله وقوع الفتنة و اختلاف الكلمه، و كانت هذه العله بعينها موجوده لو لم يأذن لهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم وَ ظهر منهم ما كانوا ابطنوه من الكفر و الخلاف و أن الذى ذكره الله بقوله: «وَ لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً» ان عدم إعدادهم العده كان يدل على عدم إرادتهم الخروج، كان رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم اجل من ان يخفى عليه ذلك و هم بمرأى منه و مسمع.

مضافا الى انه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم كان يعرفهم فى لحن القول كما قال تعالى: «وَ لَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ (محمّد ٣٠)» و كيف يخفى على من سمع من احدهم مثل قوله: «أُذِّنْ لِي وَ لَا تَفْتِنِّي» او يقول للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم «هُوَ أُذُنٌ» او يلزمه فى الصدقات و لا ينصح له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم أن ذلك من طلائع النفاق يطلع منهم و ما وراءه إلا كفر و خلاف.

فقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم يتوسم منهم النفاق و الخلاف و يعلم بما فى نفوسهم، و مع ذلك فعتابه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم بأنه لم يكف عن الإذن و لم يستعلم حالهم و لم يميزهم من غيرهم؟ ليس إلا- عتابا غير جدوى للغرض الذى ذكرناه.

و أما قوله: «إن الإذن المعفو عنه قد استتبع فوت المصلحه المنصوصه فى الآيه و هى تبين الذين صدقوا و العلم بالكاذبين» ففيه أن الذى تشتمل عليه الآيه من المصلحه هو تبين الذين صدقوا للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و علمه هو بالكاذبين لا مطلق تبينهم و لا مطلق العلم بالكاذبين، و قد ظهر مما تقدم انه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم لم يكن يخفى عليه ذلك، و أن حقيقه المصلحه إنما كانت فى الإذن و هى سدّ باب الفتنة و اختلاف الكلمه فانه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم كان يعلم من حالهم انهم غير خارجين البتّه سواء أذن لهم فى القعود أم لم يأذن فبادر الى الإذن حفظا على ظاهر الطاعه و وحده الكلمه.

و ليس لك ان تتصور انه لو بان نفاقهم يومئذ و ظهر خلافهم بعدم إذن النبي لهم بالقعود لتخلص الناس من تفتينهم و إلقاءهم الخلاف لما فى الاسلام يومئذ- هو يوم خروج

النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الى غزوه تبوك-من الشوكه و القوه،و له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ من نفوذ الكلمه.

فان الإسلام يومئذ إنما كان يملك القوه و المهابه فى أعين الناس من غير المسلمين كانوا يرتاعون شوكته و يعظمون سواد أهله و يخافون حد سيوفهم،و أما المسلمون فى داخل مجتمعهم و بين انفسهم فلم يخلصوا بعد من النفاق و مرض القلوب،و لم يستول عليهم بعد وحده الكلمه و جدّ الهمه و العزيمه،و الدليل على ذلك نفس هذه الآيات و ما يتلوها الى آخر السوره تقريباً.

و قد كانوا تظاهروا بمثل ذلك يوم أحد و قد هجم عليهم العدو فى عقر دارهم فرجع ثلث الجيش الاسلامى من المعركه و لم يؤثر فيهم عظه و لا إلحاح حتى قالوا:لو نعلم قتالا لاّ تبعناكم،فكان ذلك احد الأسباب العامله فى انهزام المسلمين.

و أما قوله:و من عتابه تعالى لرسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فى اجتهاده ما تقدم فى سوره الأنفال من عتابه فى اخذ الفديه من أسارى بدر حيث قال: «مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أُسْرَىٰ ۚ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ» الآية.

ففيه أولاً:انه من سوء الفهم فمن البين الذى لا يرتاب فيه أن الآية بلفظها لا تعاتب على اخذ الفديه من الأسرى و إنما تعاتب على نفس اخذ الأسرى-ما كان لنبى ان يكون له اسرى-و لم تنزل آيه و لا وردت روايه فى ان النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ كان امرهم بالأسر بل روايات القصه تدل على ان النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ لما أمر بقتل بعض الأسرى خاف الناس ان يقتلهم على آخرهم فكلّموه و ألحوا عليه فى أخذ الفديه منهم ليتقوا بذلك على أعداء الدين و قد ردّ الله عليهم ذلك بقوله: «تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ» .

و هذا من أحسن الشواهد على أن العتاب فى الآية متوجه الى المؤمنين خاصه من غير ان يختص به النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ او يشاركهم فيه و أن اكثر ما ورد من الأخبار فى هذا المعنى موضوعه او مدسوسه.

و ثانيا: ان العتاب فى الآيه لو اختص بالنبى صلى الله عليه وآله وسلم او شمله و غيره لم يكن من العتاب على ما ذكره على الذنب بمعناه اللغوى و هو تفويت المصلحه بوجه فان هذا العتاب مذيّل بقوله تعالى فى الآيه التاليه: لَوْ لَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (الأنفال / ٦٨) فلا يرتاب ذولب فى أن التهديد بالعذاب العظيم لا يتأتى إلا مع كون المهتد عليه من المعصيه المصطلحه بل و من كبائر المعاصى، و هذا ايضا من الشواهد على ان العتاب فى الآيه متوجه الى غير النبى صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله تعالى: لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ، تذكر الآيتان أحد ما يعرف به المنافق و يتميز به من المؤمن و هو الاستيذان فى التخلف عن الجهاد فى سبيل الله.

و قد بين الله سبحانه ذلك بأن الجهاد فى سبيل الله بالأموال و الأنفس من لوازم الايمان بالله و اليوم الآخر بحقيقه الايمان لما يورثه هذا الايمان من صفه التقوى، و المؤمن لما كان على تقوى من قبل الإيمان بالله و اليوم الآخر كان على بصيره من وجوب الجهاد فى سبيل الله بماله و نفسه.

و لا يدعه ذلك ان يتناقل عنه فيستأذن فى القعود لكن المنافق لعدم الإيمان بالله و اليوم الآخر فقد صفه التقوى فارتاب قلبه و لا يزال يتردد فى ريبه فيحب التطرف، و يستأذن فى التخلف و القعود عن الجهاد.

قوله تعالى: وَ لَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً إِلَى آخِرِ آيَةِ الْعُدَّةِ الْأَهْبَةِ، و الانبعاث-على ما فى المجمع-الانطلاق بسرعه فى الأمر، و التثبيط التوقيف عن الأمر بالترهيد فيه.

و الآيه معطوفه على ما تقدم من قوله: «وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» بحسب المعنى أى هم كاذبون فى دعواهم عدم استطاعتهم الخروج بل ما كانوا يريدونه و لو أرادوه لأعدوا له عدّه لأن من آثار من يريد أمرا من الامور أن يتأهب له بما يناسبه من العدّه و الأهبه و لم يظهر منهم

شيء من ذلك.

وقوله: «وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ» أي جزاء بنفاقهم و امتنانا عليك و على المؤمنين لئلا يفسدوا جمعكم، و يفترقوا كلمتكم بالتفتين و إلقاء الخلاف.

وقوله: «وَقِيلَ أَفَعُدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ» أمر غير تشريعي لا ينافي الأمر التشريعي بالنفر و الخروج، فقد أمرهم الله بلسان نبيه صلى الله عليه و آله و سلم بالنفر و الخروج -و هو أمر تشريعي- و أمرهم من ناحيه سريرتهم الفاسده و الريب المتردد في قلوبهم و سجايهم الباطنيه الخبيثه بالقعود -و هو أمر غير تشريعي- و لا تنافي بينهما.

و لم ينسب قول: «أَفْعُدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ» الى نفسه تنزيها لنفسه عن الأمر بما لا- يرتضيه و هناك اسباب متخلله آخره بذلك كالشيطان و النفس، و إنما ينسب اليه تعالى بالواسطه لانطباق معنى الجزاء و الامتتان على المؤمنين عليه.

و ليتوافق الأمران المتخالفان صورته في السياق أعنى قوله: «قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ» و قوله: «قِيلَ أَفَعُدُّوا مَعَ الْقَاعِدِينَ» .

قوله تعالى: لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا و لَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ الآية؛ الخبال هو الفساد و اضطراب الرأى، و الإيضاح: الإسراع في الشر، و الخلال: البين، و البغى هو الطلب فمعنى ييغونكم الفتنة أى يطلبون لكم أو فيكم الفتنة على ما قيل، و الفتنة هى المحنة كالفرقه و اختلاف الكلمه على ما يناسب الآية من معانيها، و السَّماع السريع الإجابة و القبول.

و الآية فى مقام التعليل لقوله: «وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ» امتنانا، و لذا جىء بالفصل من غير عطف، و المعنى ظاهر.

قوله تعالى: لَقَدْ ابْتَعُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلِ و قَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ و ظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ و هُمْ كَارِهُونَ أى أقسم لقد طلبوا المحنة و اختلاف الكلمه و تفرق

الجماعه من قبل هذه الغزوه-و هي غزوه تبوك-كما في غزوه أحد حين رجع عبد الله بن أبي بن سلول بثلاث القوم و خذل النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم،و قلبوا لك الأمور بدعوه الناس الى الخلاف و تحريضهم على المعصيه و خذلانهم عن الجهاد و بعث اليهود و المشركين على قتال المؤمنين و التجسس و غير ذلك حتى جاء الحق-و هو الحق الذي يجب أن يتبع-و ظهر أمر الله-و هو الذي يريده من الدين-و هم كارهون لجميع ذلك.

و الآيه تستشهد على الآيه السابقه بذكر الأمثال كما يستدل على الأمر بمثله،و توجيه الخطاب الى النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم خاصه بعد عمومه في الآيه السابقه لاختصاص الأمر فيه بالنبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم أعنى تقلاب الامور عليه بخلاف ما في الآيه السابقه من خروجهم في الناس (١).

[سوره التوبه (٩): الآيات ٤٩ الى ٦٣]

اشاره

وَ مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ اِئْتِنَا لِي وَ لَا تَفْتِنِنِي اَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَ اِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيْطَةٌ بِالْكَافِرِيْنَ (٤٩) اِنَّ تَصَدَّقَ بِكَ حَسَنَةً تَسْؤُهُمْ وَ اِنْ تَصَدَّقَ بِكَ مُصِيبَةً يَقُولُوْا قَدْ اَخَذْنَا اَمْرًا مِنْ قَبْلِكَ وَ يَتَوَلَّوْا وَ هُمْ فَرِحُوْنَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا اِلَّا مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَ عَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُوْنَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُوْنَ بِنَا اِلَّا اِحْدَى الْحُسَيْنِيْنَ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ اَنْ يُصِيبَكُمْ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ اَوْ بِاَيْدِيْنَا فَتَرَبَّصُوْا اِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبَّصُوْنَ (٥٢) قُلْ اَنْفِقُوا طَوْعًا اَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ اِنْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِيْنَ (٥٣) وَ مَا مَنَعَهُمْ اَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ اِلَّا اَنْهُمْ كَفَرُوْا بِاللّٰهِ وَ بِرَسُوْلِهِ وَ لَا يَأْتُوْنَ الصَّلَاةَ اِلَّا وَ هُمْ كَسَالِيٌّ وَ لَا يُنْفِقُوْنَ اِلَّا وَ هُمْ كَارِهُوْنَ (٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ اَمْوَالُهُمْ وَ لَا اَوْلَادُهُمْ اِنَّمَا يُرِيْدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ اَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُوْنَ (٥٥) وَ يَخْلِفُوْنَ بِاللّٰهِ اِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَ لَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَّفْرَقُوْنَ (٥٦) لَوْ يَجِدُوْنَ مَلْجَاً اَوْ مَغَارَاتٍ اَوْ مِيَدًا خَلَا لَوْلَوْا اِلَيْهِ وَ هُمْ يَجْمَعُوْنَ (٥٧) وَ مِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَاِنْ اَعْطَا مِنْهَا رَضُوا وَ اِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا اِذَا هُمْ يَشِيْحُوْنَ (٥٨) وَ لَوْ اَنَّهُمْ رَضُوا مَا اتَاهُمُ اللهُ وَ رَسُوْلُهُ وَ قَالُوْا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِنَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ رَسُوْلُهُ اِنَّا اِلَى اللهِ رَاغِبُوْنَ (٥٩) اِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسْكِيْنِ وَ الْعَامِلِيْنَ عَلَيْهَا وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوْبُهُمْ وَ فِي الرِّقَابِ وَ الْعَارِمِيْنَ وَ فِي سَبِيْلِ اللهِ وَ اِبْنِ السَّبِيْلِ فَرِيضَةٌ مِنَ اللهِ وَ اللهُ عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ (٦٠) وَ مِنْهُمْ الَّذِيْنَ يُؤْذُوْنَ النَّبِيَّ وَ يَقُوْلُوْنَ هُوَ اُذُنٌ قُلْ اُذُنٌ خَيْرٌ لَكُمْ يُوْمِنُ بِاللّٰهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِيْنَ وَ رَحْمَةً لِلَّذِيْنَ اٰمَنُوْا مِنْكُمْ وَ الَّذِيْنَ يُؤْذُوْنَ رَسُوْلَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيْمٌ (٦١) يَخْلِفُوْنَ بِاللّٰهِ لَكُمْ لِيُضِلُّوْكُمْ وَ اللهُ وَ رَسُوْلُهُ اَحَقُّ اَنْ يُرْضُوْهُ اِنْ كَانُوْا مُؤْمِنِيْنَ (٦٢) اَلَمْ يَعْلَمُوْا اَنَّهٗ مَنْ يُحَادِدِ اللهُ وَ رَسُوْلَهُ فَاَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيْهَا ذَلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيْمُ (٦٣)

ص: ٧٧٣

١- ١). التوبه ٣٨-٤٨: بحث روائي في: هجره رسول الله؛ نزول السكينه على النبي صَلَّى الله عليه و آله و سلم في الهجره و تأييد بجنود؛ غزوه تبوك و تخلف المنافقين عن رسول الله صَلَّى الله عليه و آله و سلم.

قوله تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي اَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا اَلَا يَهْدِي اِلَيْهِ السِّيَاقُ-إما الإلقاء الى ما يفتتن و يغربه،و إما الإلقاء فى الفتنة و البليه الشامله.

و المراد على الأول:اِئذْن لى فى القعود و عدم الخروج الى الجهاد،و لا تلقنى فى الفتنة بتوصيف ما فى هذه الغزوه من نفائس الغنائم و مشتبهات الأنفس فافتتن بها و أضطر الى الخروج،و على الثانى ائذْن لى و لا تلقنى الى ما فى هذه الغزوه من المحنه و المصيبه و البليه.

فأجاب الله عن قولهم بقوله: «أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا» و معناه أنهم يحترزون بحسب زعمهم عن فتنة مترقبه من قبل الخروج،و قد أخطأوا فإن الذى هم عليه من الكفر و النفاق و سوء السريره،و من آثاره هذا القول الذى تفوهوا به هو بعينه فتنة سقطوا فيها فقد فتنهم الشيطان بالغرور،و وقعوا فى مهلكه الكفر و الضلال و فتنته.

هذا حالهم فى هذه النشأه الدنيويه و أما فى الآخره فإن جهنم لمحيطه بالكافرين على حذو إحاطه الفتنة بهم فى الدنيا و سقوطهم فيها فقوله: «أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا» و قوله: «وَ إِنَّ جَهَنَّمَ

لَمْحِيطَةً بِالْكَافِرِينَ» كأنهما معا يفيدان معنى واحدا وهو ان هؤلاء واقعون فى الفتنه و التهلكه ابدًا فى الدنيا و الآخره.

و يمكن ان يفهم من قوله: «وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ» الإحاطه بالفعل دون الإحاطه الاستقباليه كما تهدى اليه الآيات الداله على تجسم الأعمال.

قوله تعالى: إِنَّ تَصَبُّجَكَ حَسَنَةً تَسُوهُمْ وَإِنْ تُصَبِّجْ مُصِيبُهُ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ الْمُرْنَا مِنْ قَبْلُ المراد بالحسنه و السيئه بقربنه السياق ما تتعقبه الحروب و المغازى لأهلها من حسنه الفتح و الظفر و الغنيمه و السبى، و من سيئه القتل و الجرح و الهزيمه.

و قوله: «يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلُ» كناية عن الاحتراز عن الشر قبل وقوعه كأن أمرهم كان خارجا من ايديهم فأخذوه و قبضوا و تسلطوا عليه فلم يدعوه يفسد و يضيع.

فمعنى الآية أن هؤلاء المنافقين هواهم عليك: إن غنمت و ظفرت فى وجهك هذا ساءهم ذلك، و إن قتلت او جرحت او اصبت بأى مصيبه اخرى قالوا قد احترزنا عن الشر من قبل و تولوا و هم فرحون.

و قد أجاب الله سبحانه عن ذلك بجوابين اثنين فى آيتين قوله: «قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا الْخ» و قوله: «قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ الْخ».

قوله تعالى: قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ محصيه له أن ولايه امرنا إنما هى لله سبحانه فحسب-على ما يدل عليه قوله: «هُوَ مَوْلَانَا» من الحصر» لا الى انفسنا و لا الى شىء من هذه الاسباب الظاهره، بل حقيقه الامر لله وحده و قد كتب كتابه حتم ما سيصينا من خير او شر او حسنه او سيئه، و اذا كان كذلك فعلينا امثال امره و السعى لإحياء امره و الجهاد فى سبيله و لله المشيئه فيما يصينا فى ذلك من حسنه او سيئه فما على العبيد إلا ترك التدبير و امثال الامر و هو التوكل.

و بذلك يظهر: ان المراد بقوله: «وَ عَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ» ليس كلاما مستأنفا بل

معطوف على ما قبله متمم له، والمعنى ان ولايه امرنا لله و نحن مؤمنون به، ولازمه ان نتوكل عليه و نرجع الأمر اليه من غير ان نختار لأنفسنا شيئاً من الحسنه و السيئه فلو اصابتنا حسنه كان المن له و إن اصابتنا سيئه كانت المشيه و الخيره له، و لا لوم علينا و لا شماته تتعلق بنا، و لا حزن و لا مساءه يطرأ على قلوبنا.

قوله تعالى: قُلْ هَلْ تَرَبُّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَ نَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ الْآيَةَ الْحَسَنِيَّاتِ هُمَا الْحَسَنَةُ وَ السَّيِّئَةُ عَلَى مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ الْآيَةُ الْاُولَى الْحَاكِيَهُ انْهَم يَسُوؤُهُمْ مَا اَصَابَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَمٍ مِنْ حَسَنَةٍ، وَ تَسْرَهُمْ مَا اَصَابَهُ مِنْ سَيِّئَةٍ فَيَقُولُونَ قَدْ اخَذْنَا امْرَأًا مِنْ قَبْلِ فَهَمٍ عَلَى حَالٍ تَرَبَّصُوا مَا يَقَعُ بِهِ وَ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْحَسَنَةِ وَ السَّيِّئَةِ.

و الحسنه و السيئه كلتاها حسنيان بحسب النظر الدينى فإن فى الحسنه حسنه الدنيا و عظيم الأجر عند الله، و فى السيئه التى هى الشهاده او أى تعب و عناء اصابهم مرضاه الله و ثواب خالد دائم.

و معنى الآيه أنا نحن و أنتم كل يتربص بصاحبه غير انكم تتربصون بنا إحدى خصلتين كل واحده منهما خصله حسنى و هما: الغلبه على العدو مع الغنيمه، و الشهاده فى سبيل الله، و نحن تتربص بكم ان يعذبكم الله بعذاب من عنده كالعذاب السماوى او بعذاب يجرى بأيدينا كأن يأمرنا بقتالكم و تطهير الأرض من قذاره وجودكم فنحن فائزون على أى حال، إن وقع شىء مما تتربصتم سعدنا، و إن وقع ما تتربصنا سعدنا فتربصوا إنا معكم متربصون، و هذا جواب ثان على المنافقين.

و قد ذكر فى الآيه الاولى إصابه الحسنه و السيئه النبى صلى الله عليه و آلِهِ وَ سَلَمٍ، و فى مقام الجواب فى الآيتين الثانية و الثالثه إصابتهما النبى و المؤمنين جميعاً لملازمتهم إياه و مشاركتهم إياه فيما أصابه من حسنه او سيئه.

قوله تعالى: قُلْ أَنْفَقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ إِنْ كُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا

فَاسْتَقِيمَ لَفْظَ امْرٍ فِي مَعْنَى الشَّرْطِ. وَ التَّرْدِيدُ لِلتَّعْمِيمِ وَ لَفْظُ الْأَمْرِ فِي هَذِهِ الْمَوَارِدِ كَنَائِهِ عَنِ عَدَمِ النُّهْيِ وَ سَدِّ السَّبِيلِ إِيمَاءً إِلَى أَنَّ الْفِعْلَ لِعَوْلَا- يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ أَثْرٌ، وَقَوْلُهُ: «لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ» تَعْلِيلٌ لِلأَمْرِ كَمَا أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: «إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ» تَعْلِيلٌ لِعَدَمِ الْقَبُولِ.

وَ مَعْنَى الْآيَةِ: لَا نَمْنَعُكُمْ عَنِ الْإِنْفَاقِ فِي حَالِ طَوْعٍ أَوْ كَرِهٍ فَإِنَّهُ لِعَوْلَا غَيْرُ مَقْبُولٍ لِأَنَّكُمْ فَاسِقُونَ، وَ لَا يَقْبَلُ عَمَلُ الْفَاسِقِينَ، قَالَ تَعَالَى: **إِنَّمَا يُتَقَبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ** (المائدة: ٢٧) وَ التَّجْبَلُ أَيْ بَلَغَ مِنَ الْقَبُولِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: **وَ مَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ بِرَسُولِهِ** الْخِ الْآيَةِ؛ تَعْلِيلٌ تَفْصِيلِيٌّ لِعَدَمِ تَقْبَلِ نَفَقَاتِهِمْ، وَ بَعْبَارِهِ أُخْرَى بِمَنْزِلِهِ الشَّرْحُ لِفَسَقِهِمْ، وَ قَدْ عَدَّتْ الْكُفْرَ بِاللَّهِ تَعَالَى وَ رَسُولَهُ وَ الْكُسْلَ فِي إِقَامَةِ الصَّلَاةِ وَ الْكُرْهَ فِي الْإِنْفَاقِ أَرْكَانًا لِنَفَاقِهِمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: **فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ لَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا** إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الْإِعْجَابُ بِالشَّيْءِ السَّرُورُ بِمَا يَشَاهِدُ فِيهِ مِنْ جَمَالٍ أَوْ كَمَالٍ أَوْ نَحْوِهِمَا، وَ الزُّهُوقُ خُرُوجُ الشَّيْءِ بِصُعُوبَةٍ وَ أَصْلُهُ الْهَلَاكُ عَلَى مَا قِيلَ.

وَ قَدْ نَهَى اللَّهُ سُبْحَانَهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ عَنِ الْإِعْجَابِ بِأَمْوَالِ الْمُنَافِقِينَ وَ أَوْلَادِهِمْ أَيْ بِكَثْرَتِهَا عَلَى مَا يُعْطِيهِ السِّيَاقُ، وَ عِلْلُ ذَلِكَ أَنَّ هَذِهِ الْأَمْوَالَ وَ الْأَوْلَادَ- هِيَ شَاغِلَةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا مَحَالَةَ- لَيْسَتْ مِنَ النِّعْمَةِ الَّتِي تَهْتَفُ لَهُمْ بِالسَّعَادَةِ بَلْ مِنَ النِّقْمَةِ الَّتِي تَجْرَهُمْ إِلَى الشَّقَاءِ فَإِنَّ اللَّهَ وَ هُوَ الَّذِي خَوَّلَهُمْ إِيَّاهَا إِنَّمَا أَرَادَ بِهَا تَعْذِيبَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَ تَوْفِيهِمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: **وَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَ مَا هُمْ مِنْكُمْ** إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ؛ الْفَرْقُ انْتِزَاعُ النَّفْسِ مِنْ ضَرَرٍ مُتَوَقَّعٍ، وَ الْمَلْجَأُ الْمَوْضِعُ الَّذِي يَلْتَجَأُ إِلَيْهِ وَ يَتَحَصَّنُ فِيهِ، وَ الْمَغَارُ الْمَحَلُّ الَّذِي يَغُورُ فِيهِ الْإِنْسَانُ فَيَسْتَرِهُ عَنِ الْأَنْظَارِ، وَ يُطْلَقُ عَلَى الْغَارِ وَ هُوَ الثَّقْفُ الَّذِي يَكُونُ فِي الْجِبَالِ، وَ الْمَدْخَلُ مِنَ الْإِفْتِعَالِ الطَّرِيقُ الَّذِي يَتَدَسَّسُ بِالدُّخُولِ فِيهِ، وَ الْجَمَاحُ مَضَى الْمَارِ

مسرعا على وجهه لا يصرفه عنه شيء، والمعنى ظاهر.

قوله تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطُوا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسِيخُطُونَ اللّٰمِزَ الْعَيْبِ، وإنما كانوا يعيبنه فيها إذا لم يعطهم منها لعدم استحقاقهم ذلك أو لأسباب أخر كما يدل عليه ذيل الآية.

قوله تعالى: وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ؛ «لَوْ» للتمنى وقوله: «رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ» كأن الرضى ضمن معنى الأخذ و لذا عدى بنفسه أى اخذوا ذلك راضين به أو رضوا آخذين ذلك، والإيتاء الإعطاء، وحسبنا الله أى كفانا فيما نرغب اليه و نأمله.

وقوله: سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ بيان لما يرغب اليه و يطمع فيه و ليس اخبارا عما سيكون، وقوله: «إِنَّا إِلَىٰ اللَّهِ رَاغِبُونَ» كالتعليل لقوله: «سَيُؤْتِينَا اللَّهُ» الى آخر الآية.

و المعنى و كان مما يتمنى لهم ان يكونوا اخذوا ما اعطاهم الله و رسوله بأمر منه من مال الصدقات او غيره، وقالوا كفانا الله سبحانه من سائر الأسباب و نحن راغبون فى فضله و نطمع ان يؤتينا من فضله و يؤتينا رسوله.

و فى الآية ما لا يخفى من لطيف البيان حيث نسب الايتاء الى الله و الى رسوله و خص الكفايه و الفضل و الرغبة بالله على ما هو لازم دين التوحيد.

قوله تعالى: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسْكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَ فِي الرِّقَابِ وَ الْغَارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ الْآيَةِ؛ بيان لموارد تصرف إليها الصدقات الواجبه و هى الزكوات بدليل قوله فى آخر الآية «فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ» و هى ثمانيه. و ارد على ظاهر ما يعطيه سياق الآية و لازمه أن يكون الفقير و المسكين موردين أحدهما غير الآخر.

وقد اختلفوا فى الفقير و المسكين أنهما صنف واحد أو صنفان، ثم على الثانى فى معناهما على أقوال كثيرة لا ينتهى أكثرها الى حجه بينه، و الذى يعطيه ظاهر لفظهما ان الفقير هو الذى اتصف بالعدم و فقدان ما يرفع حوائجه الحيويه من المال قبال الغنى الذى اتصف بالغنى و هو الجده و اليسار.

و أما المسكين فهو الذى حلت به المسكنه و الذله مضافه الى فقدان المال و ذلك انما يكون بأن يصل فقر الى حد يستذله بذلك كمن لا يجد بدا من ان يبذل ماء وجهه و يسأل كل كريم و لئيم من شدة الفقر كالأعمى و الأعرج فالمسكين أسوأ حالا من الفقير.

و الفقير و المسكين و إن كانا بحسب النسبه أعمّ و أخص فكل مسكين من جهه الحاجه المالىه فقير و لا عكس غير ان العرف يراهما صنفين متقابلين لمكان مغايره الوصفين فى نفسهما فلا يرد أن ذكر الفقير على هذا المعنى مغن عن ذكر المسكين لمكان أعميته و ذلك أن المسكنه هى وصف الذله كالزمانه و العرج و العمى و ان كان بعض مصاديقه نهايه الذله من جهه فقد المال. و أما العاملون عليها اى على الصدقات فهم الساعون لجمع الزكوات و جباتها.

و أما المؤلفه قلوبهم فهم الذين يؤلف قلوبهم بإعطاء سهم من الزكاه ليسلموا أو يدفع بهم العدو او يستعان بهم على حوائج الدين.

و أما قوله: وَ فِي الرِّقَابِ فَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِمَقَدَّرٍ وَ التَّقْدِيرُ: وَ المَصْرَفُ فِي الرِّقَابِ أَيْ فِي فَكِّهَا كَمَا فِي الْمَكَاتِبِ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى تَأْدِيهِ مَا شَرَطَهُ لِمَوْلَاهُ عَلَى نَفْسِهِ لِعَتَقِهِ أَوْ الرِّقَ الَّذِي كَانَ فِي شَدِّهِ.

و قوله: وَ الْغَارِمِينَ أَيْ وَ لِلصَّرْفِ فِي الْغَارِمِينَ الَّذِينَ رَكِبْتَهُمُ الدِّيُونَ فَيَقْضَى دِيُونَهُمْ بِسَهْمٍ مِنَ الزَّكَاةِ.

و قوله: وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَيْ وَ لِلصَّرْفِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَ هُوَ كُلُّ عَمَلٍ عَامٍ يَعُودُ

عائده الى الإسلام و المسلمين و تحفظ به مصلحه الدين و من أظهر مصاديقه الجهاد فى سبيل الله، و يلحق به سائر الأعمال التى تعم نفعه و تشمل فائده كاصلاح الطرق و بناء القناطر و نظائر ذلك.

و قوله: وَ ابْنِ السَّبِيلِ اى و للصرف فى ابن السبيل و هو المنقطع عن وطنه الفاقد لما يعيش به و إن كان غنيا ذا يسار فى بلده فيرفع حاجته بسهم من الزكاه.

و قد اختلف سياق العد فيما ذكر فى الآيه من الأصناف الثمانية فذكرت الأربعة الأولى باللام: «لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسْكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهِمْ وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ» ثم غير السياق فى الأربعة الباقية فقيل: «وَ فِي الرُّقَابِ وَ الْغَارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» فان ظاهر السياق الخاص بهذه الاربعة أن التقدير: و فى الرقاب و فى الغارمين و فى سبيل الله و فى ابن السبيل.

اما الأربعة الاول: «لِلْفُقَرَاءِ وَ الْمَسْكِينِ وَ الْعَامِلِينَ عَلَيْهِمْ وَ الْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ» فاللام فيها للملك بمعنى الاختصاص فى التصرف فان الآيه بحسب السياق كالجواب عن المنافقين الذين كانوا يطمعون فى الصدقات و هم غير مستحقين لها و كانوا يلمزون النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى حرمانهم منها فاجبوا بالآيه أن للصدقات مواضع خاصه تصرف فيها و لا تتعدها، و الآيه ليست بظاهره فى أزيد من هذا المقدار من الاختصاص.

و أما كون ملكهم للصدقات هو الملك بمعناه المعروف فقها؟ و كذا حقيقه هذا الملك مع كون المالكين أصنافا بعناوينهم الصنفيه لا ذوات شخصيه؟ و نسبه سهم كل صنف الى بقية السهام؟ فإنما هى مسائل فقهيه خارجه عن غرضنا، و قد اختلفت اقوال الفقهاء فيها اختلافا شديدا فليرجع الى الفقه.

و أما الأربعة الباقية: «وَ فِي الرُّقَابِ وَ الْغَارِمِينَ وَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» فقد قيل فى تغيير السياق فيها و فى تأخيرها عن الأربعة الاول وجوه:

منها: ان الترتيب لبيان الأحق فالأحق من الأصناف، فأحق الأصناف بها الفقراء ثم

المساكين و هكذا على الترتيب، و لكون الأربعة الأخرى بحسب ترتيب الأحقىه واقعه فى المراتب الأربعة الأخرى وضع كل فى موضعه الخاص، و لو لا- هذا الترتيب لكان الأنسب ان يذكر الأصناف ثم تذكر موارد المصالح فىقال: للفقراء و المساكين و العاملين عليها و المؤلفه قلوبهم و الغارمين و ابن السبيل ثم يقال: و فى الرقاب و سبيل الله.

و الحق أن دلالة الترتيب بما فيه من التقديم و التأخير على أهميه الملاك و قوه المصلحه فى اجزاء الترتيب لا ريب فيه فان كان مراده بالأحق فالأحق الأهم ملاكا فالأهم فهو، و لو كان المراد التقدم و التأخر من حيث الإعطاء و الصرف ما يشبه ذلك فلا دلالة من جهه اللفظ عليه البتة كما لا يخفى و الذى أیده به من الوجه لا جدوى فيه.

و منها: ان العدول عن الام فى الأربعة الأخرى الى «فى» للإيدان بأنهم ارسخ فى استحقاق التصديق عليهم ممن سبق ذكره لأن «فى» للوعاء فتبه على انهم أحقاء بأن توضع فيهم الصدقات و يجعلوا مظنه لها و مصبا، و ذلك لما فى فك الرقاب من الكتابه او الرق و الأسر، و فى فك الغارمين من الغرم و التخليص و الانقاذ، و لجمع الغازى الفقير او المنقطع فى الحج بين الفقر و العباده، و كذلك ابن السبيل جامع بين الفقر و الغربه عن الأهل و المال.

□

و تكرير «فى» فى قوله: «وَ فى سَبِيلِ اللَّهِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ» فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب و الغارمين. كذا ذكره فى الكشاف.

و فيه: أنه معارض بكون الأربعة الاول مدخوله للام الملك فان المملوك اشد لزوما و اتصالا بالنسبه الى مالكة من المظروف بالنسبه الى ظرفه، و هو ظاهر.

و منها: أن الأصناف الأربعة الاوائل ملاك لما عساه يدفع اليهم، و إنما يأخذونه ملكا فكان دخول اللام لائقا بهم، و أما الأربعة الاواخر فلا يملكون ما يصرف نحوهم بل و لا يصرف اليهم و لكن فى مصالح تتعلق بهم.

فالمال الذى يصرف فى الرقاب انما يتناوله الساده المكاتبون و البائعون فليس نصيبهم

مصروفا الى ايديهم حتى يعبر عن ذلك باللام المشعره بتملكهم لما يصرف نحوهم، و إنما هم محال لهذا الصرف و المصلحه المتعلقه به، و كذلك الغارمون انما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصا لذممهم لا لهم، و أما سبيل الله فواضح ذلك فيه، و أما ابن السبيل فكأنه كان مندرجا في سبيل (١) الله، و إنما أفرد بالذكر تنبيها على خصوصيته مع انه مجرد من الحرفين جميعا و عطفه على المجرور باللام ممكن و لكنه على التقريب منه أقرب.

و هذا الوجه لا- يخلو عن وجه غير أن اجراءه في ابن السبيل لا- يخلو عن تكلف، و ما ذكر من دخوله في سبيل الله و هو وجه مشترك بينه و بين غيره.

و لو قال قائل بكون الغارمين و ابن السبيل معطوفين على المجرور باللام ثم ذكر الوجه الاول بالمعنى الذى ذكرناه وجها للترتيب و الوجه الاخير وجها لاختصاص الرقاب و سبيل الله بدخول «فى» لم يكن بعيدا عن الصواب.

و قوله فى ذيل الآيه: «فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» إشاره الى كون الزكاه فريضة واجبه مشرعه على العلم و الحكمة لا تقبل تغيير المتغير، و لا يبعد ان يتعلق الفرض بتقسيمها الى الاصناف الثمانية كما ربما يؤيده السياق فان الغرض فى الآيه إنما تعلق ببيان مصارف الصدقات لا- بفرض اصلها فالأنسب ان يكون قوله: «فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ» اشاره الى ان تقسيمها الى الاصناف الثمانية امر مفروض من الله لا يتعدى عنه على خلاف ما كان يطمع فيه المنافقون فى لمزهم النبى صلى الله عليه و آله و سلم.

و من هنا يظهر ان الآيه لا- تخلو عن إشعار بكون الاصناف الثمانية على سهمها من غير اختصاص بزمان دون زمان خلافا لما ذكره بعضهم: أن المؤلفه قلوبهم كانوا جماعه من

ص: ٧٨٣

١- ١). بل هو ايضا كالغارمين و الرقاب لا يدفع اليه نصيبه و انما يصرف فى المصلحه المتعلقه به من الزاد و اكتراء الراحله حتى يصل الى وطنه (ب).

الاشراف فى زمن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ألف قلوبهم بإعطاء سهم من الصدقات إياهم، وأما بعده صلى الله عليه وآله وسلم فقد ظهر الاسلام على غيره، وارتفعت الحاجه الى هذا النوع من التأليفات، وهو وجه فاسد وارتفاع الحاجه ممنوع.

قوله تعالى: وَمِنْهُمْ الَّذِينَ يُؤَدُّونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أَدْنَىٰ قُلُوبِ أَدْنَىٰ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ الْإِذْنَ جَارِحَهُ السَّمْعَ الْمَعْرُوفَهُ، وقد أطلقوا عليه صلى الله عليه وآله وسلم الاذن وسموه بها إشاره الى أنه يصغى لكل ما قيل له ويستمع الى كل ما يذكر له فهو أذن.

وقوله: «قُلْ أَدْنَىٰ خَيْرٍ لَكُمْ» من الإضافه الحقيقه اى سَمَاعٍ يَسْمَعُ مَا فِيهِ خَيْرٌ لَكُمْ حيث يسمع من الله سبحانه الوحي و فيه خير لكم، و يسمع من المؤمنين النصيحه و فيها خير لكم و يمكن ان يكون من إضافه الموصوف الى الصفه اى أذن هى خير لكم لأنه لا يسمع إلا ما ينفعكم و لا يضركم.

و الفرق بين الوجهين أن اللانزم على الاول ان يكون مسموعه خيرا لهم كالوحي من الله و النصيحه من المؤمنين، و اللانزم على الثانى ان يكون استماعه استماع خير و إن لم يكن مسموعه خيرا كأن يستمع الى بعض ما ليس خيرا لهم لكنه يستمع اليه فيحترم بذلك قائله ثم يحمل ذلك القول منه على الصحه فلا يهتك حرمة و لا يسىء الظن به ثم لا يرتب أثر الخبر الصادق المطابق للواقع عليه فلا يؤاخذ من قيل فيه بما قيل فيه فيكون قد احترم إيمانه كما احترم إيمان القائل الذى جاءه بالخبر.

و من هنا يظهر أن الأنسب بسياق الآيه هو الوجه الثانى لما عقبه بقوله: «يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا» الآيه.

قوله تعالى: يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضَوْكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِنَّ كَانُوا مُؤْمِنِينَ قال فى المجمع: «الفرق بين الأ-حق و الأصلح أن الأ-حق قد يكون من

غير صفات الفعل كقولك: زيد أحق بالمال، والأصلح لا يقع هذا الموضع لأنه من صفات الفعل و تقول: الله أحق بأن يطاع و لا تقول أصلح» انتهى.

و السبب الأصلي فيه أن الصلاحيه و الصلوح يحمل معنى الاستعداد و التهيؤ، و الحق يحمل معنى الثبوت و اللزوم، و الله سبحانه لا يتصف بشيء من معنى الاستعداد و القبول المستلزم لتأثير الغير فيه و تأثره عنه.

و قد حول الله الخطاب في الآيه عن نبيه صلى الله عليه و آله و سلم الى المؤمنين التفاتا و كأن الوجه فيه التلويح لهم بما يشتمل عليه قوله: «وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ إِذْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ» من الحكم و هو ان من الواجب على كل مؤمن ان يرضى الله و رسوله، و لا يحاد الله و رسوله فإن فيه خزيا عظيما نار جهنم خالدا فيها.

و من أدب التوحيد في الآيه ما في قوله: «أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ» من أفراد الضمير و لم يقل:

أحق ان يرضوهما صونا لمقامه تعالى من ان يعدل به أحد فإن أمثال هذه الحقوق و كذا الاوصاف التي يشاركه تعالى غيره من حيث الإطلاق و الإجراء، له تعالى بالذات و لنفسه و لغيره بالتبع أو بالعرض و من جهته كوجوب الإرضاء و التعظيم و الطاعة و غيرها، و كالاتصاف بالعلم و الحياه و الإحياء و الإماتة و غيرها.

و قد روعى نظير هذا الأدب في القرآن في موارد كثيرة فيما يشارك النبي صلى الله عليه و آله و سلم غيره من الامه من الشئون فأخرج النبي صلى الله عليه و آله و سلم من بينهم و أفرد بالذكر كما في قوله: يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا (التحریم ٨) و قوله: فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ (الفتح ٢٦) و قوله: آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ (البقره ٢٨٥) و غير ذلك.

قوله تعالى: أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ إِلَى آخِرِ آيِهِ قَالَ فِي الْمَجْمَعِ: المحاده مجاوزه الحد بالمشاقه، و هى و المخالفه و المجانبه و المعاده

نظائر، وأصله المنع و المحاده ما يلحق الإنسان من النزق لأنه يمنعه من الواجب و قال: و الخزي الهوان و ما يستحي منه. انتهى.

و الاستفهام فى الآيه للتعجب، و الكلام مسوق لبيان كونه تعالى و كون رسوله أحق بالإرضاء و محصله أنهم يعلمون أن محاده الله و رسوله و المشافه و المعاده مع الله و رسوله و الإسقاط يوجب خلود النار، و اذا حرم إسقاط الله و رسوله و جب إرضاءه و إرضاء رسوله على من كان مؤمنا بالله و رسوله (١).

[سوره التوبه (٩): الآيات ٦٤ الى ٧٤]

إشاره

يَعْدِرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحَدَّرُونَ (٦٤) وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ قُلْ أ بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَشْتَهَرُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبْ طَائِفَةٌ بَأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) الْمُنَافِقُونَ وَ الْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَ عِيدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَ الْمُنَافِقَاتِ وَ الْكُفَّارِ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَ لَعْنَهُمُ اللَّهُ وَ لَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالًا وَ أَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلْقِهِمْ وَ خُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَ أَصْحَابِ مِدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ يُطِيعُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَ عِيدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَدَاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ مَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَ رِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَ الْمُنَافِقِينَ وَ أَعْلُظْ عَلَيْهِمْ وَ مَا لَهُمْ جَهَنَّمَ وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَ لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَ هُمُومًا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَ مَا نَعْمُوا إِلَّا أَنْ أَعْنَاهُمْ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَ الْآخِرَةِ وَ مَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ (٧٤)

ص: ٧٨٦

(١- ١). التوبه ٤٩-٦٣: بحث روائى فى: المنافقين و لمزهم لرسول الله فى الصدقات؛ الصدقات لمن هى و على من تجب.

قوله تعالى: **يَحْذِرُ الْمُنَافِقُونَ** أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى آخِرِ آيَاتِهِ؛ كان المنافقون يشاهدون ان جل ما يستسرون به من شئون النفاق؛ و يناجى به بعضهم بعضا من كلمه الكفر و وجوه الهمز و اللمز و الاستهزاء او جميع ذلك لا يخفى على الرسول، و يتلى على الناس فى آيات من القرآن يذكر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم انه من وحى الله، و لا محاله كانوا لا يؤمنون بأنه وحى نزل به الروح الأمين على رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم، و يقدرّون ان ذلك مما يتجسسه المؤمنون فيخبرون به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم فيخرجه لهم فى صورته كتاب سماوى نازل عليهم و هم مع ذلك كانوا يخافون ظهور نفاقهم و خروج ما خبوه فى سرائرهم الخبيثه لأن السلطنه و الظهور كانت للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم عليهم يجرى فيهم ما يأمر به و يحكم عليه.

فهم كانوا يحذرون نزول سورة يظهر بها ما اضمروه من الكفر و هموا به من تقلب الأمور على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و قصده بما يبطل به نجاح دعوته و تمام كلمته فأمر الله نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم ان يبلغهم ان الله عالم بما فى صدورهم مخرج ما يحذرون خروجه و ظهوره بنزول سورة من عنده أى يخبرهم بأن الله منزل سورة هذا نعتها.

و بهذا يستتير معنى الآية فقوله: **يَحْذِرُ الْمُنَافِقُونَ** أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ» الخطاب للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم و وجه الكلام اليه، و هو يعلم بتعليم الله ان هذا الكلام الذى يتلوه على الناس كلام إلهى و قرآن منزل من عنده فيصف سبحانه الكلام الذى يخاف منه المنافقون بما له من

الوصف عند النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ أَنَّهُ سُورَةٌ مَنَزَلَتْ مِنَ اللَّهِ عَلَى النَّاسِ وَمِنْهُمْ الْمُنَافِقُونَ لَا عَلَى مَا يَرَاهُ الْمُنَافِقُونَ أَنَّهُ كَلَامٌ بَشَرِيٌّ يَدْعَى كَوْنَهُ كَلَامَ اللَّهِ.

فَهُمْ كَانُوا يَحْذَرُونَ أَنْ يَتْلُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى النَّاسِ كَلَامًا هَذَا نَعْتُهُ الْوَاقِعِيَّ وَهُوَ أَنَّهُ سُورَةٌ مَنَزَلَتْ عَلَيْهِمْ بِمَا أَنَّهَا مَتَوَجَّهَةٌ بِمَضْمُونِهَا إِلَيْهِمْ قَاصِدَةٌ نَحْوَهُمْ يَنْبَغُ لَهُمْ هَذِهِ السُّورَةُ النَّازِلَةُ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ فَيُظْهِرُ عَلَى النَّاسِ وَيُفْشِي بَيْنَهُمْ مَا كَانُوا يَسْرُونَهُ مِنْ كُفْرِهِمْ وَسُوءِ نِيَّتِهِمْ، وَهَذَا الظُّهُورُ فِي الْحَقِيقَةِ هُوَ الَّذِي كَانُوا يَحْذَرُونَهُ مِنْ نَزُولِ السُّورَةِ.

وَقَوْلُهُ: قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ كَأَنَّ الْمَرَادَ بِالِاسْتِهْزَاءِ هُوَ نِفَاقُهُمْ وَمَا يَلْحَقُ بِهِ مِنَ الْآثَارِ فَإِنَّ اللَّهَ سَمَّى نِفَاقَهُمْ اسْتِهْزَاءً حَاكِيًا فِي ذَلِكَ قَوْلَهُمْ حَيْثُ قَالَ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شِيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ (البقرة ١٤/١٤) فَالْمَرَادُ بِالِاسْتِهْزَاءِ هُوَ سَتْرٌ مَا يَحْذَرُونَ ظُهُورَهُ، وَالأَمْرُ تَعْجِيزِيٌّ أَيْ دَوْمُوا عَلَىٰ نِفَاقِكُمْ وَاسْتِرْكُمَا مَا تَحْذَرُونَ خُرُوجَهُ مِنْ عِنْدِكُمْ إِلَىٰ مَرِيئِ النَّاسِ وَمَسْمَعِهِمْ فَإِنَّ اللَّهَ مَخْرَجٌ ذَلِكَ وَكَاشَفَ عَنْ وَجْهِهِ الْغَطَاءَ، وَمَظْهَرٌ مَا اخْفَيْتُمُوهُ فِي صُدُورِكُمْ.

فَصَدَرَ الْآيَةُ وَإِنْ كَانَ يَذَكُرُ أَنَّهُمْ يَحْذَرُونَ تَنْزِيلَ سُورَةِ كُذَّابٍ وَكُذَّابٍ لَكِنَّهُمْ إِنَّمَا كَانُوا يَحْذَرُونَهَا لِمَا فِيهَا مِنَ الْأَنْبَاءِ الَّتِي يَحْذَرُونَ أَنْ يُطَّلَعَ عَلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَتَنْجَلِيٌّ لِلنَّاسِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي يَذَكُرُ ذَيْلُهَا أَنَّهُمْ يَحْذَرُونَهُ فَالْكَلَامُ بِمَنَزَلِهِ أَنْ يُقَالَ: يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ تَنْزِيلَ سُورَةِ قُلِ إِنَّ اللَّهَ مَنَزَّلُهَا، أَوْ يُقَالَ: يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ انْكَشَافَ بَاطِنِ أَمْرِهِمْ وَمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهِزُّوا إِنَّ اللَّهَ سَيَكْشِفُ ذَلِكَ وَيُنَبِّئُ عَمَّا فِي قُلُوبِكُمْ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤْنَ الْخَوْضُ - عَلَى مَا فِي الْمَجْمَعِ - دَخُولُ الْقَدَمِ فِيمَا كَانَ مَائِعًا مِنَ الْمَاءِ وَالطِّينِ ثُمَّ كَثُرَ حَتَّى اسْتَعْمَلَ فِي غَيْرِهِ.

وَقَالَ الرَّاعِبُ فِي الْمَفْرَدَاتِ: الْخَوْضُ هُوَ الشَّرُوعُ فِي الْمَاءِ وَالْمَرُورُ فِيهِ، وَاسْتِعَارٌ فِي الْأُمُورِ،

و أكثر ما ورد فى القرآن ورد فىما يذم الشروع فىه. انتهى.

و لم يذكر الله سبحانه متعلق السؤال و أن المسئول عنه الذى إن سأل النبى صلى الله عليه و آله و سلم سأل عنه ما هو؟ غير أن قوله: «لَيَقُولَنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ» بما له من السياق المصدر بإنما يدل على أنه كان فعلا صادرا منهم له نوع تعلق بالنبى صلى الله عليه و آله و سلم، و كان أمرا مرثيا يسىء الظن بهم، و لم يكن فى وسعهم أن يعتذروا منه بعد ما تبين و انكشف للنبى صلى الله عليه و آله و سلم إلا بأنه إنما كان منهم خوضا و لعبا لم يريدوا به غير ذلك.

و الخوض و اللعب الذين اعتذروا بهما من الأعمال السيئه التى لا يعترف بهما الناس فى حالهم العادى و خاصه المؤمنون و سائر المتظاهرين بالإيمان و خاصه اذا كان ذلك فى أمر يرجع الى الله و رسوله غير أنهم لم يجدوا وصفا يصفون به فعلهم لإخراجه عن ظاهر ما يدل عليه، دون أن يعنونوه بأنه كان خوضا و لعبا.

و لذا أمر نبىه صلى الله عليه و آله و سلم أن يوبخهم على ما اعتذروا به فقال: «قُلْ أ بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤْنَ» ثم فسر عملهم فى آخر الآيات بقوله: «يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَ لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَ هُمُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا» الآية.

و يتحصل من مجموع هذه القرائن أن المنافقين كانوا أرادوا النبى صلى الله عليه و آله و سلم بسوء كالفتك به و مفاجأته بما يهلكه و أقدموا على ما قصدوه و تكلموا عند ذلك بشيء من الكلام الردى لكنهم أخطئوا فى ما أوقعوه عليه و اندفع الشر عنه، و لم يصب السهم هدفه فلما خاب سعيهم و بان أمرهم سألهم النبى صلى الله عليه و آله و سلم عن ذلك و ما تصدوه به اعتذروا بأنهم كانوا يخوضون و يلعبون فوبخهم النبى صلى الله عليه و آله و سلم بقوله: «أ بِاللَّهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤْنَ» و رد الله سبحانه إليهم عذرهم الذى اعتذروا به و بين حقيقه ما قصدوا بذلك.

و بالجمله معنى الآية: و أقسم لئن سألتهم عن فعلهم الذى شوهد منهم: ما الذى أرادوا به؟ و كان ظاهره أنهم هموا بأمر فيك ليقولن: لم يكن قصد سوء و لا بالذى ظننت فأسأت الظن

بنا، وإنما كنا نخوض و نلعب خوض الركب فى الطريق لا على سبيل الجد و لكن لعبا.

و هذا اعتذار منهم بالاستهزاء بالله و آياته و رسوله فإنهم يعترفون بأنهم فعلوا فيك ما فعلوا خوضا و لعبا فقد استهزءوا بالله و رسوله فقل: أ بالله و آياته و رسوله كنتم تستهزءون أى أ تعتذرون عن سيئ فعلكم بسيئه أخرى هى الاستهزاء بالله و آياته و رسوله، و هو كفر؟

و ليس من البعيد أن يكون الغرض الأصيل بيان كونه استهزاء بالرسول، و إنما ذكر الله و آياته للدلالة على معنى الاستهزاء بالرسول، و أنه لما كان من آيات الله كان الاستهزاء به استهزاء بآيات الله، و الاستهزاء بآيات الله استهزاء بالله العظيم فالاستهزاء برسول الله استهزاء بالله و آياته و رسوله.

قوله تعالى: **لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةٌ آيَةٌ**؛ قال الراغب فى المفردات: الطوف المشى حول الشىء و منه الطائف لمن يدور حول البيوت حافظا-الى أن قال- و الطائفه من الناس جماعه منهم و من الشىء القطعه منه.

و قوله تعالى: **«فَلَوْ لَا نَفَرْنَا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ»** قال بعضهم: قد يقع ذلك على الواحد فصاعدا، و على ذلك قوله: **«وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ»**.

و الطائفه اذا أريد بها الجمع فجمع طائف، و اذا اريد بها الواحد فيصح أن يكون جمعا و يكتنى به عن الواحد، و يصح أن يجعل كراويه و علامه و نحو ذلك. انتهى.

و قد خطأ بعضهم القول بجواز صدق الطائفه على الواحد و الاثنين من الناس كما تصدق على الثلاثة فصاعدا، و بالغ فى ذلك حتى عدّه غلطا و لا دليل له على ما ذكره، و ماده اللفظ لا يستوجب شيئا معينا من العدد، و إطلاقها على القطعه من الشىء يؤيد استعمالها فى الواحد.

و قوله: **«لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ»** نهى عن الاعتذار بدعوى أنه لغو كما يدل عليه

و بعبارة اخرى رابطته اللزوم بين الشرط و الجزاء بترتب الجزاء و تفرعه على الشرط إنما هي بالتبع و أصله ترتب الجزاء هاهنا على امر يتعلق به الشرط و هو ان العذاب و جب على جماعتهم فإن عفى عن بعضهم تعين الباقيون من غير تخلف.

قوله تعالى: الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ ذكروا أنه استئناف يتعرض لحال عامه المنافقين بذكر أوصافهم العامة الجامعه و تعريفهم بها و ما يجازيهم الله في عاقبه أمرهم ثم يتعرض لحال عامه المؤمنين و يعرفهم بصفاتهم الجامعه و يذكر ما ينبئهم الله به على سبيل المقابله استتماما للقسمه، و من الدليل على هذا الاستيفاء ذكر جزاء الكفار مع المنافقين في قوله: «وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ» الآية.

و الظاهر أن الآية في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة: «إِنْ نَعُفْ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً» و سياق مخاطبه المنافقين جار لم ينقطع بعد.

فالآية السابقة لما دلت على أنه تعالى لا يترك المنافقين حتى يعذبهم بإجرامهم فإن ترك بعضا منهم لحكمه و مصلحه أخذ آخرين منهم بالعذاب كان هناك مظنه أن يسأل فيقال: ما وجه أخذ البعض اذا ترك غيره؟ و هل هو إلا كأخذ الجار بجرم الجار فاجيب ببيان السبب و هو أن المنافقين جميعا بعضهم من بعض لا شراكتهم في خباث الصفت و الأعمال، و اشتراكهم في جزاء أعمالهم و عاقبه حالهم.

و لعله ذكر المنافقات مع المنافقين مع عدم سبق لذكرهن للدلالة على كمال الاتحاد و الاتفاق بينهم في نفسيتهم، و ليكون تلويحا على أن من النساء أيضا أجزاء مؤثره في هذا المجتمع النفاقي الفاسد المفسد.

فمعنى الآية لا- ينبغي أن يستغرب أخذ بعض المنافقين اذا ترك البعض الآخر لأن المنافقين و المنافقات يحكم عليهم نوع من الوحده النفسيه يوحد كثرتهم فيرجع بعضهم الى بعض، فيشركهم في الاوصاف و الأعمال و ما يجازون به بوعد من الله تعالى.

فهم يأمرون بالمنكر و ينهون عن المعروف و يمسكون عن الإنفاق في سبيل الله و بعبارة اخرى نسوا الله تعالى بالإعراض عن ذكره لأنهم فاسقون خارجون عن زى العبودية فسيهم الله فلم يثبهم بما أثار عباده الذاكرين مقام ربهم.

ثم ذكر ما وعدهم على ذلك فقال: «وَعِدَ اللَّهُ الْمُتَّقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارِ - وَعَطَفَ عَلَيْهِمُ الْكُفَّارَ لِأَنَّهُمْ جَمِيعًا سِوَاءَ - نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُ لَهُمْ» من الجزاء لا يتعدى فيهم الى غيرها «وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ» و أبعدهم «وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌّ» ثابت لا يزول عنهم البتة.

و قد ظهر بذلك أن قوله تعالى: «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» الخ؛ بيان لما تقدمه من قوله «يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَ يَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَ يَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ» .

و يتفرع على ذلك أن الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و الإنفاق في سبيل الله من الذكر.

قوله تعالى: كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَ أَكْثَرَ أَمْوَالًا - وَ أَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلْقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلْقِكُمْ الخ؛ قال الراغب: الخلاق ما اكتسبه الإنسان من الفضيله بخلقه قال تعالى: «وَ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ» انتهى و فسره غيره بمطلق النصيب.

و الآية من تتمه مخاطبه المنافقين التى فى قوله: «لَا تَعْتَدِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ» الآية؛ فى سياق واحد متصل و فى الآية تشبيه حال المنافقين بحال من كان قبلهم من الكفار و المنافقين و قياسهم إليهم ليستشهد بذلك على ما قيل: ان المنافقين و المنافقات بعضهم من بعض و أنهم جميعا و الكفار ذووا طبيعه واحده فى الإعراض عن ذكر الله و الإقبال على الاستمتاع بما أوتوا من أعراض الدنيا من أموال و أولاد و الخوض فى آيات الله ثم فى حبط أعمالهم فى الدنيا و الآخرة و الخسران.

و معنى الآية - و الله أعلم - أنتم كالذين من قبلكم كانت لهم قوه و أموال و أولاد بل أشد و أكثر فى ذلك منكم، فاستمتعوا بنصيبيهم و قد تفرع على هذه المماثلة أنكم استمتعتم كما

استمتعوا و خضتم كما خاضوا اولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا و الآخرة و اولئك هم الخاسرون و أنتم أيضا أمثالهم فى الحبط و الخسران و لذا وعدكم النار الخالده و لعنكم.

و ذكر كون قوه من قبلهم أشد و أموالهم و أولادهم أكثر للإيماء الى أنهم لم يعجزوا الله بذلك، و لم يدفع ذلك عنهم غائله الحبط و الخسران فكيف بكم و أنتم أضعف قوه و أقل أموالا و أولادا؟

قوله تعالى: أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَ أَصْحَابِ مَدْيَنَ وَ الْمُؤْتَفِكَاتِ الْآيَةَ رَجُوعَ إِلَى السِّيَاقِ الْأَوَّلِ وَ هُوَ سِيَاقُ مَخَاطَبَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ مَعَ افْتِرَاضِ الْغِيْبَةِ فِي الْمُنَافِقِينَ، وَ تَذْكَيرِ لَهُمْ بِمَا قَصَّ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ مِنْ قِصَصِ الْأُمَمِ الْمَاضِينَ.

فذاك قوم نوح عمهم الله سبحانه بالغرق، و عاد و هم قوم هود أهلكتهم بريح صرصر عاتيه، و ثمود و هم قوم صالح عذبهم بالرجفه، و قوم ابراهيم اهلك ملكهم نمروذ و سلب عنهم النعمه، و المؤتفكات و هى القرى المنقلبات على وجهها-من انتفكت الأرض اذا انقلبت- قرى قوم لوط جعل عاليها سافلها.

و قوله: أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ أَى بِالْوَاضِحَاتِ مِنَ الْآيَاتِ وَ الْحُجُجِ وَ الْبُرَاهِينِ وَ هُوَ بَيَانُ إِجْمَالِ لِنَبْتِهِمْ أَى كَانَ نَبَاهُمْ أَنْتَ أَتَيْتَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَةِ فَكَذَّبُوهَا فَانْتَهَى أَمْرُهُمْ إِلَى الْهَلَاكِ، وَ لَمْ يَكُنْ مِنْ شَأْنِ السَّنَةِ الْإِلَهِيَّةِ أَنْ يَظْلَمَهُمْ لِأَنَّهُ بَيْنَ لَهُمُ الْحَقُّ وَ الْبَاطِلُ، وَ مَيِّزُ الرَّشْدِ مِنَ الْغَى، وَ الْهُدَى مِنَ الضَّلَالِ، وَ لَكِنْ كَانَ أَوْلَئِكَ الْأَقْوَامِ وَ الْأُمَمِ أَنْفُسُهُمْ يَظْلَمُونَ بِالْإِسْتِمْتَاعِ مِنْ نَصِيبِ الدُّنْيَا وَ الْخَوْضِ فِي آيَاتِ اللَّهِ وَ تَكْذِيبِ رِسَالِهِ.

قوله تعالى: وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضُهُمْ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ ثُمَّ وَصَفَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ حَالَ الْمُؤْمِنِينَ عَامَهُ مُحَاذَاهُ لِمَا وَصَفَ بِهِ الْمُنَافِقِينَ فَقَالَ: «وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ الْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ» لِيَدُلَّ بِذَلِكَ عَلَى أَنَّهُمْ مَعَ كَثْرَتِهِمْ وَ تَفْرِيقِهِمْ مِنْ حَيْثُ الْعِدَدِ

و من الذكوره و الانوثه ذوو كينونه واحده متفقه لا تشعب فيها و لذلك يتولى بعضهم امر بعض و يدبره.

و لذلك كان يأمر بعضهم بعضا بالمعروف و ينهى بعضهم بعضا عن المنكر فلولايه بعض المجتمع على بعض ولايه ساريه فى جميع الأبعاض دخل فى تصديهم الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر فيما بينهم أنفسهم.

ثم وصفهم بقوله: «وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ» و هما الركنا الوثقان فى الشريعة فالصلاه ركن العبادات التى هى الرابطه بين الله و بين خلقه، و الزكاه فى المعاملات التى هى رابطه بين الناس أنفسهم.

ثم وصفهم بقوله: «وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَ رَسُولَهُ» فجمع فى إطاعه الله جميع الأحكام الشرعيه الإلهيه و جمع فى إطاعه رسوله جميع الأحكام الولائيه التى صدرها رسوله فى إداره امور الامه و إصلاح شئونهم كفرامينه فى الغزوات، و أحكامه فى القضايا و إجراء الحدود و غير ذلك.

على أن إطاعه شرائع الله النازله من السماء من جهه اخرى منطويه فى إطاعه الرسول فان الرسول هو الصادع بالحق القائم بالدعوه الى اصول الدين و فروعه.

و قوله: «أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ» إخبار عما فى القضاء الإلهي من شمول الرحمه الإلهيه لهؤلاء القوم الموصوفين بما ذكر، و كأن فى هذه الجملة محاذاه لما سرد فى المنافقين من قوله تعالى: «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» و الظاهر ايضا أن قوله: «إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» تعليل لما ذكر من الرحمه فلا مانع من رحمته لعزته، و لا اختلال او وهنا و جزافا فى حكمته.

قوله تعالى: «وَعِدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ» الى آخر الآيه؛ المعدن مصدر بمعنى الإقامه و الاستقرار يقال: عدن بالمكان اى اقام فيه و استقر و منه المعدن للأرض التى تستقر فيه الجواهر و الفلزات المعدنيه، و على هذا فمعنى جنات عدن جنات إقامه و استقرار و خلود.

وقوله: وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ أَي رَضِيَ اللَّهُ سبحانه عنهم أكبر من ذلك كله -على ما يفيدُه السياق- وقد نكر «رضوان» إيماء إلى أنه لا- يقدر بقدر ولا- يحيط به وهم بشر أو لأن رضوانا ما منه ولو كان يسيرا أكبر من ذلك كله لا لأن ذلك كله مما يتفرع على رضا تعالى و يترشح منه وإن كان كذلك في نفسه، بل لأن حقيقه العبوديه التي يندب إليها كتاب الله هي عبوديته تعالى حباله: لا طمعا في جنه، أو خوفا من نار، وأعظم السعاده و الفوز عند المحب ان يستجلب رضى محبوبه دون ان يسعى لإرضاء نفسه.

و كأنه للإشاره الى ذلك ختم الآيه بقوله: «ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» و تكون في الجملة دلاله على معنى الحصر أى أن هذا الرضوان هو حقيقه كل فوز عظيم حتى الفوز العظيم بالجنه الخالده اذ لو لا شيء من حقيقه الرضى الإلهى في نعيم الجنه كان نقمه لا نعمه.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ جهاد القوم و مجاهدتهم بذل غايه الجهد فى مقاومتهم و هو يكون باللسان و باليد حتى ينتهى الى القتال، و شاع استعماله فى الكتاب فى القتال و إن كان ربما استعمل فى غيره كما فى قوله: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا» الآيه.

و استعماله فى قتال الكفار على رسله لكونهم متجاهرين بالخلاف و الشقاق، و أما المنافقون فهم الذين لا يتظاهرون بكفر و لا يتجاهرون بخلاف، و إنما يبطنون الكفر و يقبلون الامور كيدا و مكرا و لا معنى للجهاد معهم بمعنى قتالهم و محاربتهم؟ و لذلك ربما يسبق الى الذهن أن المراد بجهادهم مطلق ما تقتضيه المصلحه من بذل غايه الجهد فى مقاومتهم فإن اقتضت المصلحه هجروا و لم يخالطوا و لم يعاشروا، و ان اقتضت وعظوا باللسان، و ان اقتضت أخرجوا و شردوا الى غير الأرض أو قتلوا اذا اخذ عليهم الرده، أو غير ذلك.

و ربما شهد لهذا المعنى اعنى كون المراد بالجهاد فى الآيه مطلق بذل الجهد تعقيب قوله «جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ» بقوله: «وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ» أى شدد عليهم و عاملهم بالخشونه.

و أما قوله: «وَمَا أَهْمُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ» فهو عطف على ما قبله من الأمر، ولعل الذى هوّن الأمر فى عطف الإخبار على الإنشاء هو كون الجملة السابقة فى معنى قولنا: «ان هؤلاء الكفار و المنافقين مستوجبون للجهاد». و الله أعلم.

قوله تعالى: يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَ لَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَ كَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَ هُمُوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا الْآيَةَ. سياق الآيه يشعر بأنهم أتوا بعمل سيئ و شفّعوه بقول تفوّهوا به عند ذلك، و أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم عاتبهم على قولهم مؤاخذا لهم فحلفوا بالله ما قالوا كما تقدّم فى قوله: «وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَ نَلْعَبُ» الى آخر الآيه أنهم كانوا يعتذرون بذلك عن عملهم أنه كان خوضا و لعبا لا غير ذلك.

و الله سبحانه يكذبهم فى الأمرين جميعا: أما فى إنكارهم القول بقوله: «وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ» و فسره ثانيا بقوله: «وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ» للدلالة على جد القول فيتفرع عليه الكفر بعد الاسلام.

و لعله قال هاهنا: «وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ» و قد قيل سابقا: «قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ» لأن القول السابق للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم الجارى على ظاهر حالهم و هو الإيمان الذى كانوا يدّعونونه و يتظاهرون به، و القول الثانى لله العالم بالغيب و الشهادة فيشهد بأنهم لم يكونوا مؤمنين و لم يتعدوا الشهادتين بلسانهم فهم كانوا مسلمين لا مؤمنين، و قد كفروا بقولهم و خرجوا عن الاسلام الى الكفر، و فى هذا إيماء الى ان قولهم كان كلمه فيه الرد على الشهادتين او إحداهما.

او لأن القول الأول فى قبال عملهم الذى أرادوا ايقاع الشر بالنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم، و العمل الخالى من القول و هو لم يصب الغرض لا يضر بالاسلام الذى هو نصيب اللفظ و الشهاده، و انما يضر بالايمان الذى هو نصيب الاعتقاد، و القول الثانى فى قبال قولهم الذى تفوّهوا به، و هو ينافى الاسلام الذى يكتسب باللفظ دون الايمان الذى هو نوع من الاعتقاد القلبي.

و اما فى إنكارهم العمل السيئ الذى اتوا به و تأويلهم إياه الى الخوض و اللعب فبقوله

«وَهُمْوَا بِمَا لَمْ يَنَالُوا» .

ثم قال فى مقام ذمهم و تعبيرهم: «وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ» أى بسبب أن اغناهم الله و رسوله، أى كان سبب نقتهم هذه ان الله اغناهم من فضله بما رزقهم من الغنائم و بسط عليهم الأمن و الرفاهيه فمكّنهم من توليد الثروه و انماء المال من كل جهه، و كذا رسوله حيث هداهم الى عيشه صالحه تفتح عليهم أبواب بركات السماء و الأرض، و قسم بينهم الغنائم و بسط عليهم العدل.

فهو من قبيل وضع الشىء موضع ضده: وضع فيه الاغناء و هو بحسب الطبع سبب للرضى و الشكر موضع سبب النقمه و السخطه كالظلم و الغضب و ان شئت قلت: وضع فيه الإحسان موضع الإساءه، ففيه نوع من التهكم المشوب بالذم نظير ما فى قوله تعالى: وَ تَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تُكَذِّبُونَ (الواقعه ٨٢) أى تجعلون رزقكم سببا للتكذيب بآيات الله و هو سبب بحسب الطبع لشكر النعمه و الرضا بالموهبه على ما قيل: إن المعنى: و تجعلون بدل شكر رزقكم أنكم تكذبون.

و الضمير فى قوله: «مِنْ فَضْلِهِ» راجع الى الله سبحانه، قال فى المجمع: و إنما لم يقل: من فضلها لأنه لا يجمع بين اسم الله و اسم غيره فى الكنايه تعظيما لله، و لذلك قال النبى صلى الله عليه و آله و سلم لمن سمعه يقول: «من أطاع الله و رسوله فقد اهتدى و من عصاهما فقد غوى»: بنس خطيب القوم أنت فقال: كيف أقول يا رسول الله؟ قال: قل: و من يعص الله و رسوله، و هكذا القول فى قوله سبحانه: «وَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ» و قيل: إنما لم يقل من فضلها لأن فضل الله منه و فضل رسوله من فضله، انتهى كلامه.

و هناك وراء التعظيم أمر آخر قدمنا القول فيه فى تفسير قوله تعالى: لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ (المائده ٧٣) فى الجزء السادس من الكتاب، و هو أن وحدته تعالى ليست من سنخ الوحده العديده حتى يصح بذلك تأليفها مع وحده غيره و استنتاج عدد من

ثم بين الله سبحانه لهؤلاء المنافقين أن لهم مع هذه الذنوب المهلكة و صريح كفرهم بالله و همهم بما لم ينالوا أن يرجعوا الى ربهم، و بين عاقبه أمر هذه التوبه و عاقبه التولى و الإعراض عنها فقال: «فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ» لادائه الى المغفره و الجنه «وَ إِنْ يَتَوَلَّوْا» و يعرضوا عن التوبه «يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا» بالسياسه و النكال او بإغراء النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سلم عليهم او بالمكر و الاستدراج، و لو لم يكن من عذابهم إلا أنهم مخالفون بنفاقهم نظام الأسباب المبنى على الصدق و الإيمان فتقادمهم سلسله الاسباب و تحطمهم و تفضحهم لكان فيه كفايه، و قد قال الله: وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (التوبه ٢٤) «وَ الْآخِرَهُ» بعذاب النار.

و قوله تعالى: وَ مَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا نَصِيرٍ معناه أن هؤلاء لا ولى لهم فى الأرض يتولى امرهم و يصرف العذاب عنهم، و لا نصير ينصرهم و يمدّهم بما يدفعون به العذاب الموعود عن انفسهم لأن سائر المنافقين ايضا منهم و كلمه الفساد يجمعهم و أصلهم الفساد منقطع عن سائر الأسباب الكونيه فلا ولى لهم يتولى امرهم و لا ناصر لهم ينصرهم و لعل هذه الجملة من الآيه إشاره الى ما أوأنا اليه فى معنى عذاب الدنيا (١).

[سوره التوبه (٩): الآيات ٧٥ الى ٨٠]

اشاره

وَ مِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَ لَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَ تَوَلَّوْا وَ هُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سَرَّهُمْ وَ نَجْوَاهُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرُوا لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ إِنَّ تَسْتَغْفِرُوا لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠)

ص: ٨٠٠

قوله تعالى: وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ إِلَى آخِرِ آيَتَيْنِ؛ الإيتاء الإعطاء، وقد كثر إطلاق الإيتاء من الفضل على إعطاء المال، ومن القرائن عليه في الآية قوله: «فنصدقن» أي لتصدقن مما آتانا من المال وكذلك ما في الآية التالية من ذكر البخل به.

و السياق يفيد ان الكلام متعرض لأمر واقع، و الروايات تدل على ان الآيات نزلت في ثعلبه في قصه سيأتي نقلها في البحث الروائي التالي إن شاء الله تعالى، و معنى الآيتين ظاهر.

قوله تعالى: فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ الْآيَةَ؛ الإعتاب الإيراث قال في المجمع: و أعقبه و أورثه و أداه نظائر و قد يكون أعقبه بمعنى جازاه. انتهى. و هو مأخوذ من العقب، و معناه الإتيان بشيء عقيب شيء.

و الضمير في قوله: «فَأَعْقَبَهُمْ» راجع الى البخل او الى فعلهم الذي منه البخل، و على هذا

فالمراد بقوله: «يَوْمٌ يَلْقَوْنَهُ» يوم لقاء البخل أى جزاء البخل بنحو من العناية.

و يمكن ان يرجع الضمير اليه تعالى و المراد بيوم يلقونه يوم يلقون الله و هو يوم القيامة على ما هو المعروف من كلامه تعالى من تسميه يوم القيامة بيوم لقاء الله او يوم الموت كما هو الظاهر من قوله تعالى: مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ (العنكبوت ٥).

و هذا الثانى هو الظاهر على الثانى لأن الأنسب عند الذهن ان يقال: فهم على نفاقهم الى ان يموتوا. دون ان يقال: فهم على نفاقهم الى ان يبعثوا اذ لا تغير لحالهم فيما بعد الموت على أى حال.

و قوله: بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ الباء فى الموضوعين منه للسببيه أى إن هذا البخل اورثهم نفاقا بما كان فيه من الخلف فى الوعد و الاستمرار على الكذب الموجبين لمخالفه باطنهم لظاهرهم و هو النفاق.

و معنى الآيه: فأورثهم البخل و الامتناع عن إيتاء الصدقات نفاقا فى قلوبهم يدوم لهم ذلك و لا يفارقهم الى يوم موتهم و إنما صار هذا البخل و الامتناع سببا لذلك لما فيه من خلف الوعد لله و الملازمه و الاستمرار على الكذب.

او المعنى: جازاهم الله نفاقا فى قلوبهم الى يوم لقائه و هو يوم الموت لأنهم أخلفوه ما وعدوه و كانوا يكذبون.

قوله تعالى: أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ الْآيَه: النجوى الكلام الخفى و الاستفهام للتوبيخ و التأنيب.

قوله تعالى: الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ الْآيَه: التطوع الإتيان بما لا تكرهه النفس و لا تحسبه شاقا و لذلك يستعمل غالبا فى المندوبات لما فى الواجبات من شائبه التحميل على النفس بعدم الرضى بالترك.

و مقابله المطوعين من المؤمنين في الصدقات بالذين لا يجدون إلا جهدهم قرينه على أن المراد بالمطوعين فيها الذين يؤتون الزكاه على السعه و الجده كأنهم لسعتهم و كثره مالهم يؤتونها على طوع و رغبه من غير ان يشق ذلك عليهم بخلاف الذين لا يجدون إلا جهدهم أى مبلغ جهدهم و طاقتهم او ما يشق عليهم القنوع بذلك.

و قوله: «الَّذِينَ يَلْمِزُونَ» الآية كلام مستأنف او هو وصف للذين ذكروا بقوله: «و مِنْهُمْ مِرْنَ عَاهِدَ اللَّهُ» الآية كما قالوا. و المعنى: الذين يعيبون الذين يتطوعون بالصدقات من المؤمنين الموسرين و الذين لا يجدون من المال إلا جهد انفسهم من الفقراء المعسرين فيعيون المتصدقين موسرهم و معسرهم و غنيهم و فقيرهم و يسخرون منهم سخر الله منهم و لهم عذاب أليم، و فيه جواب لاستهزائهم و إيعاد بعذاب شديد.

قوله تعالى: اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ التريديد بين الأمر و النهى كناية عن تساوى الفعل و الترك أى لغويه الفعل كما مر نظيره فى قوله: أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَلَ مِنْكُمْ (التوبه ٥٣).

فالمعنى ان هؤلاء المنافقين لا تنالهم مغفره من الله و يستوى فيهم طلب المغفره و عدمها لأن طلبها لهم لغو لا اثر له.

و قوله: «إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ» تأكيد لما ذكر قبله من لغويه الاستغفار لهم، و بيان ان طبيعه المغفره لا تنالهم البته سواء سئلت المغفره فى حقهم او لم تسأل، و سواء كان الاستغفار مره او مرات قليلا او كثيرا.

فذكر السبعين كناية عن الكثره من غير ان يكون هناك خصوصيه للعدد حتى يكون الواحد و الاثنان من الاستغفار حتى يبلغ السبعين غير مؤثر فى حقهم فاذا جاوز السبعين أثر اثره، و لذلك علله بقوله: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ» أى ان المانع من شمول المغفره هو كفرهم بالله و رسوله، و لا يختلف هذا المانع بعدم الاستغفار. و لا وجوده واحدا او كثيرا فهم

على كفرهم.

و من هنا يظهر أن قوله: «وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ» متم لسابقه و الكلام مسوق سوق الاستدلال القياسى و التقدير: انهم كافرون بالله و رسوله فهم فاسقون خارجون عن عبوديه الله، و الله لا يهدى القوم الفاسقين، لكن المغفره هدايه الى سعاده القرب و الجنة فلا تشملهم المغفره و لا تنالهم البته.

و استعمال السبعين فى الكثره المجزده عن الخصوصيه كاستعمال المائه و الألف فيها كثير فى اللغة (١).

[سوره التوبه (٩): الآيات ٨١ الى ٩٦]

اشاره

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعِدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَ كَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ قَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَ لَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَ لَا تَصِلْ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَ لَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ مَا تَوَا وَ هُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَ لَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَ أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَ هُمْ كَافِرُونَ (٨٥) وَ إِذَا أَنْزَلْتَ سُورَةَ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ جَاهَدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُوا الطُّولِ مِنْهُمْ وَ قَالُوا ذُرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طَبَعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهَمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنَّ الرُّسُولَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ أَوْلِيَّكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَ أَوْلِيَّكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) وَ لَجَاءَ الْمُعَذَّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعِدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَ لَا عَلَى الْمَرْضَى وَ لَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَ لَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتُّوِكَ لَتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أُحْمَلِكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْيَاءٌ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهَمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهَ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ ثُمَّ تَرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضُوا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦)

ص: ٨٠٤

قوله تعالى: فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ الْآيَةَ؛ الفرح و السرور خلاف الغم و هما حالتان نفسيّتان وجدائيتان ملذه و مؤلمه، و المخلفون اسم مفعول من قولهم خلفه اذا تركه بعده و المقعد كالمقعد كالمقعد مصدر قعد يقعد و هو كناية عن عدم الخروج الى الجهاد.

و الخلاف كالمخالفه مصدر خالف يخالف، و ربما جاء بمعنى بعد كما قيل و لعل منه قوله «وَ إِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا» و كان قياس الكلام أن يقال: «خِلَافَكَ» لأن الخطاب فيه للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ و إنما قيل: «خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ» للدلاله على أنهم إنما يفرحون على مخالفه الله العظيم فما على الرسول إلا البلاغ.

و المعنى فرح المنافقون الذين تركتهم بعدك بعدم خروجهم معك خلافا لك- أو بعدك-

و كرهوا ان يجاهدوا بأموالهم و أنفسهم فى سبيل الله.

وقوله تعالى: «وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ» خاطبوا بذلك غيرهم ليخذلوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ وَيَبْطَلُوا مَسْعَاهُ فِي تَنْفِيرِ النَّاسِ إِلَى الْغَزْوَةِ، وَلِذَلِكَ أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَجِيبَ عَنْ قَوْلِهِمْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا» أَي أَنَّ الْفِرَارَ عَنِ الْحَرِّ بِالْقَعْدِ انْجَاكُمْ مِنْهُ لَمْ يَنْجِكُمْ مِمَّا هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ وَهُوَ نَارُ جَهَنَّمَ الَّتِي هِيَ أَشَدُّ حَرًّا فَانْزِلُوا عَنِ الْفِرَارِ عَنْ هَذَا الْهَيْئِ يُوَقِّعُكُمْ فِي ذَاكَ الشَّدِيدِ. ثُمَّ أَفَادَ بِقَوْلِهِ: «لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ» الْمَصْدَرُ بَلُو التَّمَنَى الْيَأْسَ مِنْ فَهْمِهِمْ وَفَهْمِهِمْ.

قوله تعالى: «فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا» وَ لِيُبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ تَفْرِيعٌ عَلَى تَخْلُفِهِمْ عَنِ الْجِهَادِ بِالْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَفَرَحِهِمْ بِالْقَعْدِ عَنْ هَذِهِ الْفَرِيضَةِ الْإِلَهِيَّةِ الْفَطْرِيَّةِ الَّتِي لَا سَعَادَةَ لِلْإِنْسَانِ فِي حَيَاتِهِ دُونَهَا.

وقوله: «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ» وَ الْبَاءُ لِلْمُقَابَلَةِ أَوْ السَّبْبِيَّةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِالضَّحْكَ الْقَلِيلِ هُوَ الَّذِي فِي الدُّنْيَا فَرَحًا بِالتَّخْلُفِ وَ الْقَعْدِ وَ نَحْوِ ذَلِكَ، وَ بِالْبُكَاءِ الْكَثِيرِ مَا كَانَ فِي الْآخِرَةِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ الَّتِي هِيَ أَشَدُّ حَرًّا فَانْزِلُوا عَنِ الدُّنْيَا فَرَحًا بِالضَّحْكَ وَ الْبُكَاءِ هُوَ مَا فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَ هُوَ فَرَحُهُمْ بِالتَّخْلُفِ وَ خُرُوجِهِمْ مِنْ حَرِّ الْهَوَاءِ إِلَى حَرِّ نَارِ جَهَنَّمَ.

فالمعنى: فمن الواجب بالنظر الى ما عملوه و اكتسبوه ان يضحكوا و يفرحوا قليلا فى الدنيا و ان يبكوا و يحزنوا كثيرا فى الآخرة فالأمر بالضحك و البكاء للدلالة على ايجاب السبب و هو ما كسبوه من الأعمال لذلك.

و اما حمل الأمر فى قوله: «فَلْيَضْحَكُوا» وَ قَوْلِهِ: «وَلْيُبْكُوا» عَلَى الْأَمْرِ الْمَوْلُودِ لِيَنْتِجَ تَكْلِيفًا مِنَ التَّكْلِيفِ الشَّرْعِيِّ فَلَا يَنَاسِبُهُ قَوْلُهُ: «جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ».

و يمكن ان يكون المراد الأمر بالضحك القليل و البكاء الكثير معا ما هو فى الدنيا جزاء لسابق اعمالهم فانها هدتهم الى راحه وهميه فى ايام قلائل و هى ايام قعودهم خلاف رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ إِلَى هَوَانٍ وَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَ الْمُؤْمِنِينَ مَا دَامُوا أَحْيَاءَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَى شَدِيدِ حَرِّ

النار فى الآخرة بعد موتهم.

قوله تعالى: فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ إِلَى آخِرِ آيَةِ الْمَرَادِ بِالْقَعْدِ أَوَّلَ مَرَّةٍ التَّخَلُّفِ عَنِ الْخُرُوجِ فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ كَانَ عَلَيْهِمْ أَنْ يَخْرُجُوا فِيهَا فَلَمْ يَخْرُجُوا، وَلَعَلَّهَا غَزْوَةُ تَبُوكَ كَمَا يَهْدَى إِلَيْهِ السِّيَاقُ.

والمراد بالخالفين المتخلفون بحسب الطبع كالنساء والصبيان والمرضى والزمنى وقيل:

المتخلفون من غير عذر، وقيل: الخالفون هم أهل الفساد، والباقي واضح.

وفى قوله: «فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ» الآية دلالة على أن هذه الآية وما فى سياقها المتصل من الآيات السابقة واللاحقة نزلت ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى سفره ولما يرجع إلى المدينة، وهو سفره إلى تبوك.

قوله تعالى: وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَيْدَاءً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ نهى عن الصلاة لمن مات من المنافقين والقيام على قبره وقد علل النهى بأنهم كفروا وفسقوا وأماتوا على فسقهم، وقد علل لغويه الاستغفار لهم فى قوله تعالى: السَّابِقُ: إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ (آية ٨٠ من السورة)، وكذا فى قوله: سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفِرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (المنافقون ٦) بالكفر والفسق أيضا.

ويتحصل من الجميع أن من فقد الإيمان بالله باستيلاء الكفر على قلبه وإحاطته به فلا سبيل له إلى النجاة يهتدى به، وأن الآيات الثلاث جميعا تكشف عن لغويه الاستغفار للمنافقين والصلاة على موتاهم والقيام على قبورهم للدعاء لهم.

وفى الآية إشارة إلى أن النبى صلى الله عليه وآله وسلم كان يصلى على موتى المسلمين ويقوم على قبورهم للدعاء.

قوله تعالى: وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ الْآيَةُ؛ تقدم بعض ما يتعلق بالآية

من الكلام فى الآيه ٥٥ من السوره.

قوله تعالى: وَإِذَا أَنْزَلْتُ سُورَةَ أَنْ آمَنُوا بِهَا لِلَّهِ وَجَاهِدُوا مَعِ رَسُولِهِ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ الطول القدره و النعمه، و الخوالف هم الخالفون و الكلام فيه كالكلام فيه، و الباقى ظاهر.

قوله تعالى: لَكِنَّ الرُّسُولَ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ لِمَا ذَمَّ الْمُنَافِقِينَ فِى الْآيَاتِينَ السَّابِقَتَيْنِ بِالرِّضَا بِالْقَعُودِ مَعَ الْخَوَالِفِ وَ الطَّبَعِ عَلَى قُلُوبِهِمْ اسْتَدْرَكَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَمٍ وَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ - و المراد بهم المؤمنون حقا الذين خلصت قلوبهم من رين النفاق بدليل المقابله مع المنافقين - ليمدحهم بالجهد بأموالهم و أنفسهم أى انهم لم يرضوا بالعود و لم يطبع على قلوبهم بل نالوا سعاده الحياه و النور الإلهى الذى يهتدون به فى مشيهم كما قال تعالى: أَوْ مَنْ كَانَ مَمِيئًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَ جَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشَى بِهِ فِى النَّاسِ (الأنعام ١٢٢).

و لذلك عقب الكلام بقوله: «وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» فلهم جميع الخيرات - على ما يقتضيه الجمع المحلى باللام - من الحياه الطيبه و نور الهدى و الشهاده و سائر ما يتقرب به الى الله سبحانه، و هم المفلحون الفائزون بالسعاده.

قوله تعالى: أَعِدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى الْآيَةُ؛ الإعداد هو التهيئه و قد عبر بالإعداد دون الوعد لأن الامور بخواتيمها و عواقبها فلو كان وعدا و هو وعد لجميع من آمن معه لكان قضاء حتميا واجب الوفاء سواء بقى الموعودون على صفاء إيمانهم و صلاح اعمالهم او غيروا و الله لا يخلف الميعاد.

و الا-صول القرآنيه لا- تساعد على ذلك، و لا- الفطره السليمه ترضى ان ينسب الى الله سبحانه ان يطبع بطابع المغفره و الجنه الحتميه على احد لعمل عمله من الصالحات ثم يخلى بينه و بين ما شاء و أراد.

و لذلك نجده سبحانه اذا وعد وعدا علقه على عنوان من العناوين العامه كالإيمان و العمل الصالح يدور معه الوعد الجميل من غير ان يخص به اشخاصا بأعيانهم فيفيد التناقض بالجمع بين التكليف و التأمين كما قال تعالى: وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ (الآيه ٧٢ من السوره)، و قال تعالى: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ - الى ان قال- وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (الفتح ٢٩).

قوله تعالى: وَجَاءَ الْمُعَذَّبُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ الْآيَةُ؛ الظاهر أن المراد بالمعذرين هم اهل العذر كالذى لا يجد نفقه و لا سلاحا بدليل قوله: «وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا» الْآيَةَ؛ و السياق يدل على ان فى الكلام قياسا لإحدى الطائفتين الى الاخرى ليظهر به لؤم المنافقين و خستهم و فساد قلوبهم و شقاء نفوسهم، حيث ان فريضة الجهاد الدينيه و النصره لله و رسوله هيح لذلك المعذرين من الأعراب و جاءوا الى النبى صلى الله عليه و آله و سلم يستأذنونهم، و لم يؤثر فى هؤلاء الكاذبين شيئا.

قوله تعالى: لَيْسَ عَلَى الضُّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ الْمُرَادُ بِالضُّعْفَاءِ بَدَلَالَهُ سِيَاق الْآيَةِ: الَّذِينَ لَا قُوَّةَ لَهُمْ عَلَى الْجِهَادِ بِحَسَبِ الطَّبَعِ كَالزَّمَنِ كَمَا أَنَّ الْمَرْضَى لَا قُوَّةَ لَهُمْ عَلَيْهِ بِحَسَبِ عَارِضِ مَزَاجِي، وَ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ لَا قُوَّةَ لَهُمْ عَلَيْهِ مِنْ جِهَةِ فَقْدِ الْمَالِ وَ نَحْوِهِ.

فهؤلاء مرفوع عنهم الحرج و المشقه أى الحكم بالوجوب الذى لو وضع كان حكما حرجيا، و كذا ما يستتبعه الحكم من الذم و العقاب على تقرير المخالفه.

و قد قيد الله تعالى رفع الحرج عنهم بقوله: «إِذَا نَصَّحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ» وَ هُوَ نَاطِرُ إِلَى الذَّمِّ وَ الْعِقَابِ عَلَى الْمَخَالَفَةِ وَ الْقُعُودِ فَإِنَّمَا يَرْفَعُ الذَّمَّ وَ الْعِقَابَ عَنْ هَؤُلَاءِ الْمَعذُورِينَ إِذَا نَصَّحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولَهُ، وَ أَخْلَصُوا مِنَ الْغِشِّ وَ الْخِيَانَةِ وَ لَمْ يَجْرُوا فِي قُعُودِهِمْ عَلَى مَا يَجْرَى عَلَيْهِ الْمُنَافِقُونَ

المتخلفون من تقلب الامور و إفساد القلوب فى مجتمع المؤمنين، و إلا فيجرى عليهم ما يجرى على المنافقين من الذم و العقاب.

و قوله: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ فِي مَقَامِ التَّعْلِيلِ لِنَفْيِ الْحَرَجِ عَنِ الطَّوَائِفِ الْمَذْكُورِينَ بِشَرَطِ أَنْ يَنْصَحُوا لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ أَيْ لِأَنْهُمْ يَكُونُونَ حِينَئِذٍ مُحْسِنِينَ وَ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ فَلَا سَبِيلَ يَتَسَلَطُ عَلَيْهِمْ يُؤْتُونَ مِنْهُ فَيَصَابُونَ بِمَا يَكْرَهُونَهُ.

ففى السبيل كناية عن كونهم فى مأمن مما يصيبهم من مكروه كأنهم فى حصن حصين لا طريق الى داخله يسلكه الشر اليهم فيصيبهم، و الجملة عامه بحسب المعنى و إن كان مورد التطبيق خاصا.

قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ الْآيَةَ﴾؛ قال فى المجمع: إطاء المركوب من فرس او بعير او غير ذلك تقول: حملة يحمله حملا اذا أعطاه ما يحمله عليه قال:

ألا فتى عنده خفان يحملنى

عليهما إننى شيخ على سفر

قال: و الفيض الجرى عن امتلاء من قولهم: فاض الإناء بما فيه، و الحزن ألم فى القلب لفوت امر مأخوذ من حزن الأرض و هى الأرض الغليظة المسلك. انتهى.

و قوله: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ﴾ الآية؛ موصول صلته قوله: «تَوَلَّوْا» الآية، و قوله: «إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ» كالشرك و الجزاء و المجموع ظرف لقوله: «تَوَلَّوْا» و حزنا مفعول له، «و ان لا يجدوا» منصوب بنزع الخافض.

و المعنى: و لا- حرج على الفقراء الذين اذا ما اتوك لتعطيهم مركوبا يركبونه و تصلح سائر ما يحتاجون اليه من السلاح و غيره قلت لا أجد ما احملكم عليه تولوا و الحال ان اعينهم تمتلئ و تسكب دموعا للحزن من ان لا يجدوا- او لأن لا يجدوا- ما ينفقونه فى سبيل الله للجهاد مع اعدائه.

و عطف هذا الصنف على ما تقدمه من عطف الخاص على العام عناية بهم لأنهم فى أعلى درجه من النصح و احسانهم ظاهر.

قوله تعالى: إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَ هُمْ أَغْيَاءٌ بِاللَّامِ كَالْبَاءِ - او لن نصدق تصديقا ينفعكم -

قوله تعالى: يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ إِلَى آخِرِ آيَةٍ؛ خطاب الجمع للنبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ وَ الْمُؤْمِنِينَ جَمِيعًا، وَ قوله: «لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ» اى لن نصدقكم على ما تعتذرون به بناء على تعديه الإيمان باللام كالباء - او لن نصدق تصديقا ينفعكم - بناء على كون اللام للنفع - و الجملة تعليل لقوله: «لَا تَعْتَذِرُوا» كما أن قوله: «قَدْ تَبَّأْنَا اللَّهُ مِنْ أَجْبَارِكُمْ» تعليل لهذه الجملة.

و المعنى يعتذر المنافقون اليكم عند رجوعكم من الغزوه اليهم قل يا محمد لهم: لا تعتذروا لينا لأننا لن نصدقكم فيما تعتذرون به لأن الله قد اخبرنا ببعض اخباركم مما يظهر به نفاقكم و كذبكم فيما تعتذرون به، و سيظهر عملكم ظهور شهود لله و رسوله ثم تردون الى الله الذى يعلم الغيب و الشهاده يوم القيامة فيخبركم بحقائق اعمالكم.

و فى قوله: «وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ» الخ؛ فى إيضاحه كلام سيمر بك عن قريب.

قوله تعالى: سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتُعَرِّضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ آيَةٍ؛ اى لتعرضوا عنهم فلا تتعرضوا لهم بالعتاب و التقرير و ما يتعقب ذلك فأعرضوا عنهم لا تصديقا لهم فيما يحلفون له من الأعداء بل لأنهم رجس ينبغي أن لا يقترب منهم و مأواهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون.

قوله تعالى: يَحْلِفُونَ لَكُمْ لَتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ اى هذا الحلف منهم كما كان للتوسل الى صرفكم عنهم ليأمنوا الدم و التقرير كذلك هو للتوسل الى رضاكم عنهم أما الإعراض فافعلوه لأنهم رجس

لا- ينبغي لنزاهه الإيمان و طهارته ان تتعرض لرجس النفاق و الكذب و قذاره الكفر و الفسق، و أما الرضى فاعلموا انكم ان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عنهم لفسقهم و الله لا يرضى عن القوم الفاسقين.

فالمراد أنكم إن رضيتم عنهم فقد رضيتم عن من لم يرض الله عنه أي رضيتم بخلاف رضى الله، ولا ينبغي لمؤمن ان يرضى عما يسخط ربه فهو ابلغ كناية عن النهى عن الرضا عن المنافقين (١).

[سوره التوبه (٩): الآيات ٩٧ الى ١٠٦]

اشاره

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَ نِفَاقًا وَ أَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَ يَتَرَبَّصُّ بِكُمْ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَيَلَمَاتٍ الرُّسُولِ أَلَّا إِنَّمَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَبِّحُوا لَهُمْ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩) وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهِاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَيُعَذِّبُهُمْ مَرَّةً ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ (١٠١) وَ آخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَ آخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهَا وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صِيْلَاتِكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَ يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَ قُلْ إِعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَ رَسُولُهُ وَ الْمُؤْمِنُونَ وَ سَتَرْدُونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَ آخَرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَ إِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)

ص: ٨١٣

قوله تعالى: الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ الْآيَةَ؛ قال الراغب في المفردات: العرب ولد اسماعيل، و الأعراب جمعه في الأصل، و صار ذلك اسما لسكان البادية، «قالت الأعراب آمنا».

و الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا. وَ مِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَ الْيَوْمِ الْآخِرِ، و قيل في جمع

الأعراب أعراب، قال الشاعر:

أعراب ذوو فخر يافك

و ألسنه لطاف في المقال

و الأعرابي في التعارف صار اسما للمنسوب الى سكان البادية، و العربيّ المفصح و الإعراب البيان، انتهى موضع الحاجة. يبين تعالى حال سكان البادية و أنهم أشد كفرا و نفاقا لأنهم لبعدهم عن المدنيه و الحضاره، و حرمانهم من بركات الإنسانيه من العلم و الأدب أفسى و أجفى، فهم أجدر و أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله من المعارف الأصيله و الأحكام الشرعيه من فرائض و سنن و حلال و حرام.

قوله تعالى: **وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُّ بِكُمُ الدَّوَائِرَ** الآية، قال في المجمع: المغرم الغرم و هو نزول نائبه بالمال من غير خيانه، و أصله لزوم الأمر، و منه قوله: إن عذابها كان غراما، و حبّ غرام أى لازم، و الغريم يقال لكل واحد من المتدائنين للزوم احدهما الآخر و غرّمته كذا أى ألزّمته إياه فى ماله، انتهى.

و الدائرته الحادثه و تغلب فى الحوادث السوء كأن الحوادث السوء تدور بين الناس فتتزل كل يوم بقوم فتربص الدوائر بالمؤمنين انتظار نزول الحوادث السوء عليهم للتخلص من سلطتهم و الرجوع الى رسوم الشرك و الضلال.

و قوله: **يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا** أى يفرض الإنفاق غرما او المال الذى ينفقه مغرما-على أن يكون ما مصدرية او موصوله-و المراد الإنفاق فى الجهاد او أى سبيل من سبيل الخير على ما قيل، و يمكن ان يكون المراد الإنفاق فى خصوص الصدقات ليكون الكلام كالتوطئه لما سيجىء بعد عده آيات من حكم أخذ الصدقه من اموالهم، و يؤيده ما فى الآية التاليه من قوله: **«وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ»** فانه كالتوطئه لقوله فى آيه الصدقه **«وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ»**.

فمعنى الآية: و من سكان البادية من يفرض الإنفاق فى سبيل الخير او فى خصوص

الصدقات غرما و خساره و ينتظر نزول الحوادث السيئه بكم، عليهم دائره السوء-قضاء منه تعالى او دعاء عليهم-و الله سميع للأقوال عليم بالقلوب.

قوله تعالى: وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ يُنْفِقُ قُرْبَاتٍ عِنْدَ اللَّهِ وَ صَلَوَاتِ الرَّسُولِ الْخ؛ الظاهر أن قوله: «صَلَوَاتِ الرَّسُولِ» عطف على قوله: «مَا يُنْفِقُ» و أن الضمير فى قوله: «أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ» عائد الى ما ينفق و صلوات الرسول.

و معنى الآيه: و من الأعراب من يؤمن بالله فيوحده من غير شرك و يؤمن باليوم الآخر فيصدق الحساب و الجزاء و يتخذ إنفاق المال لله و ما يتبعه من صلوات الرسول و دعواته بالخير و البركه، كل ذلك قربات عند الله و تقربات منه اليه ألا إن هذا الإنفاق و صلوات الرسول قربه لهم، و الله يعدهم بأنه سيدخلهم فى رحمته لأنه غفور للذنوب رحيم بالمؤمنين به و المطيعين له.

قوله تعالى: وَ السَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ الْخ؛ القراءه المشهوره «و الأنصار» بالكسر عطفاً على «الْمُهَاجِرِينَ» و التقدير: السابقون الأولون من المهاجرين و السابقون الأولون من الأنصار و الذين اتبعوهم بإحسان؛ و قرء يعقوب: و الأنصار بالرفع فالمراد به جميع الأنصار دون السابقين الأولين منهم فحسب.

و قد اختلفت الكلمه فى المراد بالسابقين الأولين فقيل: المراد بهم من صلى الى القبلتين، و قيل: من بايع بيعة الرضوان و هى بيعة الحديبيه، و قيل: هم أهل بدر خاصه، و قيل: هم الذين أسلموا قبل الهجره، و هذه جميعاً و جوه لم يوردوا لها دليلاً من جهة اللفظ.

و الذى يمكن أن يؤيده لفظ الآيه بعض التأييد هو أن بيان الموضوع-السابقون الأولون- بالوصف بعد الوصف من غير ذكر أعيان القوم و أشخاصهم يشعر بأن الهجره و النصره هما

ثم الذى عطف عليهم من قوله: «وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، يذكر قوما ينعتهم بالاتباع و يقيده بأن يكون بإحسان و الذى يناسب وصف الاتباع أن يترتب عليه هو وصف السبق دون الأوليه فلا- يقال: أول و تابع و إنما يقال: سابق و تابع، و تصديق ذلك قوله تعالى: لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ إِلَى ان قال: وَ الَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ إِلَى ان قال: وَ الَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ الْآيَات: (الحشر ١٠/).

فالمراد بالسابقين هم السابقون الى الإيمان من بين المسلمين من لدن طلوع الإسلام الى يوم القيامة (١).

قوله تعالى: وَ مِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُتَّفِقُونَ وَ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ الْآيَة؛ حول الشيء ما يجاوره من المكان من اطرافه و هو ظرف، و المرد العتو و الخروج عن الطاعة، و الممارسه و التمرين على الشر و هو المعنى المناسب لقوله فى الآيه: «مَرَدُّوا عَلَى النِّفَاقِ» أى مروا عليه و مارسوا حتى اعتادوه.

و معنى الآيه: و ممن فى حولكم او حول المدينة من الأعراب الساكنين فى البوادي منافقون مروا على النفاق و من اهل المدينة أيضا منافقون معتادون على النفاق لا تعلمهم انت يا محمد نحن نعلمهم سنعدّ بهم مرتين ثم يردون الى عذاب عظيم.

و قد اختلفت كلماتهم فى المراد من تعذيبهم مرتين. ما هما المرتان؟ فقيل: يعنى مره فى الدنيا بالسبى و القتل و نحوهما و مره بعذاب القبر، و قيل: فى الدنيا بأخذ الزكاه و فى الآخره بعذاب القبر، و قيل بالجوع مرتين و قيل مره عند الاحتضار و مره فى القبر و قيل: بإقامه الحدود

و عذاب القبر، و قيل: مره بالفضيحة فى الدنيا و مره بالعذاب فى القبر، و قيل غير ذلك، و لا دليل على شىء من هذه الأقوال، و إن كان و لا بد فأولها أولاها.

قوله تعالى: «وَ آخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَ آخَرَ سَيِّئًا أَيُّهَا وَمِنَ الْأَعْرَابِ جَمَاعَةٌ آخَرُونَ مُذْنِبُونَ لَا يَنفَقُونَ مِثْلَ نَبْتٍ مِن بَعْدِ حَبِّهِمْ أَتَى اللَّهُ الْأَعْرَابَ لِيُذَنِّبَهُمْ فَهُمْ لَا يَدْرُونَ» مثل غيرهم بل اعترفوا بذنوبهم لهم عمل صالح و عمل آخر سىئ خلطوا هذا بذلك من المرجو ان يتوب الله عليهم إن الله غفور رحيم.

و فى قوله: «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ» إيجاد الرجاء فى نفوسهم لتكون نفوسهم واقعه بين الخوف و الرجاء من غير ان يحيط بها اليأس و القنوط، و فى قوله: «إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» ترجيح جانب الرجاء.

قوله تعالى: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صِدْقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهَا وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صِدْقَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَ اللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» إزاله الأوساخ و القدرات من الشىء ليصفى وجوده و يستعد للنشوء و النماء و ظهور آثاره و بركاته، و التزكية إنماءه و إعطاء الرشد له بلحوق الخيرات و ظهور البركات كالشجره بقطع الزوائد من فروعها فتزيد فى حسن نموها و جوده ثمرتها فالجمع بين التطهير و التزكية فى الآية من لطيف التعبير.

فقوله: «خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صِدْقَةً» أمر للنبي صلى الله عليه و آله و سلم بأخذ الصدقه من اموال الناس و لم يقل:

من مالهم ليكون اشاره الى انها مأخوذه من أصناف المال، و هى النقدان: الذهب و الفضة، و الأنعام الثلاثة: الإبل و البقر و الغنم، و الغلات الأربع: الحنطة و الشعير و التمر و الزبيب.

و قوله: «تُطَهِّرُهُمْ وَ تُزَكِّيهِمْ بِهَا» خطاب للنبي صلى الله عليه و آله و سلم، و ليس وصفا لحال الصدقه، و الدليل عليه ضمير بها الراجع الى الصدقه اى خذ يا محمد من اصناف اموالهم صدقه تطهرهم انت و تزكيهم بتلك الصدقه اى أخذها.

و قوله: «وَ صَلِّ عَلَيْهِمْ» الصلاة عليهم هى الدعاء لهم و السياق يفيد انه دعاء لهم

و لأموالهم بالخير و البركه و هو المحفوظ من سنّه النبي صلى الله عليه و آله و سلم فكان يدعو لمعطي الزكاه و لماله بالخير و البركه.

و قوله: «إِنَّ صِيْلَاتِكُمْ سَكَنٌ لَهُمْ» السكّن ما يسكّن اليه الشىء و المراد به أن نفوسهم تسكّن الى دعائك و تثق به و هو نوع شكر لسعيهم فى الله كما أن قوله تعالى فى ذيل الآيه: «وَ اللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» سكّن يسكّن اليه نفوس المكلفين ممن يسمع الآيه او يتلوها.

و الآيه تتضمن حكم الزكاه المالىة التى هى من أركان الشريعة و المله على ما هو ظاهر الآيه فى نفسها، و قد فسرتها بذلك اخبار متكاثرة من طرق أئمة أهل البيت عليهم السّلام و غيرهم.

قوله تعالى: أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ استفهام إنكارى بداعى تشويق الناس الى إيتاء الزكاه، و ذلك أنهم إنما يؤتون الصدقه لله و إنما يسلمونها الى الرسول او الى عامله و جاييه بما أنه مأمور من قبل الله فى اخذها فإيتاؤه إيتاء لله، و أخذه أخذ من الله فالله سبحانه هو الآخذ لها بالحقيقه، و قيد قال تعالى فى أمثاله: إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ (الفتح ١٠) و قال: وَ مَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَ لَكِنَّ اللَّهَ رَمَى (الأنفال ١٣) و قال قولاً عاماً: مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ (النساء ٨٠).

فاذا ذكّر الناس بمثل قوله: «أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ» الآيه؛ انبعثت رغباتهم و اشتاقوا أن يعاملوا ربهم فيصافحوه و يمسوا بأيديهم يده تنزّه عن عوارض الأجسام و تعالى عن ملابسه الحدثان.

و مقارنته الصدقه بالتوبه لما أن التوبه تطهّر و إيتاء الصدقه تطهّر فالتصدّق بصدقه توبه مالىة كما ان التوبه بمنزله الصدقه فى الأعمال و الحركات، و لذلك عطف على صدر الآيه قوله ذيلًا- «وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» فذكر عباده باسميه التواب و الرحيم، و جمع فيهما التوبه

و التصدق.

و قد بان من الآيه ان التصدق و إيتاء الزكاه نوع من التوبه.

قوله تعالى: وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ الْآيَهُ؛ الْآيَهُ عَلَى ظَاهِرِ اتِّصَالِهَا بِمَا قَبْلُهَا كَأَنَّهَا تَخاطبُ الْمُؤْمِنِينَ وَ تَسوقُهُمْ وَ تحرضُهُم الى إيتاء الصدقات.

غير أن لفظها مطلق لا دليل على تخصيص خطابها بالمتصدقين من المؤمنين و لا بعامه المؤمنين بل هي تشمل كل ذى عمل من الناس من الكفار و المنافقين و المؤمنين و لا أقل من شمولها للمنافقين و المؤمنين جميعا.

إلا أن نظير الآيه الذى مر أعنى قوله فى سياق الكلام على المنافقين: وَ سَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تَرُدُّونَ إِلَى عَالَمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (التوبه ٩٤/) حيث ذكر الله و رسوله فى رؤيه عملهم و لم يذكر المؤمنين لا يخلو من إيماء الى أن الخطاب فى الآيه التى نحن فيها للمؤمنين خاصه فإن ضم إحدى الآيتين الى الاخرى يخطر بالبال ان حقيقه أعمال المنافقين أعنى مقاصدهم من أعمالهم لما كانت خفيه على ملائـ الناس فإنما يعلم بها الله و رسوله بوحي من الله تعالى، و أما المؤمنون فحقائق أعمالهم أعنى مقاصدهم منها و آثارها و فوائدها التى تتفرع عليها و هى شيوخ التقوى و إصلاح شئون المجتمع الإسلامى و إمداد الفقراء فى معاشهم و زكاه الأموال و نماؤها يعلمها الله تعالى و رسوله و يشاهدها المؤمنون فيما بينهم.

لكن ظهور الأعمال بحقائق آثارها و عامه فوائدها أو مضراتها فى محيط كينونتها و تبدلها بأمثالها و تصورها فى أطوارها زمانا بعد زمان و عصرا بعد عصر مما لا يختص بعمل قوم دون عمل قوم، و لا مشاهدتها و التأثير بها بقوم دون قوم.

فلو كان المراد من رؤيه المؤمنين أعمالا لعاملين ظهور آثارها و نتائجها و بعبارة

أخرى ظهور أنفسها فى ألبسه نتائجها لهم لم يختص المشاهده بقوم دون قوم ولا بعمل قوم دون عمل قوم فما بال الأعمال يراها المؤمنون ولا يراها المنافقون وهم أهل مجتمع واحد؟ وما بال أعمال المنافقين لا يشاهدها المؤمنون وقد كوّنت فى مجتمعهم وداخلت أعمالهم؟

و هذا مع ما فى الآيه من خصوص السياق مما يقرب الذهن أن يفهم من الآيه معنى آخر فإن قوله: «سَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالَمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ» يدل أولا على أن قوله:

«فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ» الآيه؛ ناظر الى ما قبل البعث و هى الدنيا لمكان قوله: «ثُمَّ تُرَدُّونَ» فإنه يشير الى يوم البعث و ما قبله هو الدنيا.

و ثانيا: أنهم إنما يوقفون على حقيقه أعمالهم يوم البعث و أما قبل ذلك فإنما يرون ظاهرها، و قد نبهنا على هذا المعنى كرارا فى أبحاثنا السابقه، و اذ قصر علمهم بحقائق أعمالهم على إنبائه تعالى إياهم بها يوم القيامة و ذكر رؤيه الله و رسوله و المؤمنين أعمالهم قبل يوم البعث فى الدنيا و قد ذكر الله مع رسوله و غيره و هو عالم بحقائقها له أن يوحى الى نبيه بها كان المراد بها مشاهده الله سبحانه و رسوله و المؤمنون حقيقه أعمالهم، و كان المراد بالمؤمنين شهداء الأعمال منهم لا عامه المؤمنين كما يدل عليه أمثال قوله تعالى: وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسِيًّا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا (البقره ١٤٣) و قد مر الكلام فيه فى الجزء الأول من الكتاب.

و على هذا فمعنى الآيه: و قل يا محمّد اعملوا ما شئتم من عمل خيرا أو شرا فسيشاهد الله سبحانه حقيقه عملكم و يشاهدها رسوله و المؤمنون-و هم شهداء الأعمال-ثم تردون الى الله عالم الغيب و الشهاده يوم القيامة فيريكم حقيقه عملكم.

و بعبارة اخرى: ما عملتم من عمل خيرا او شرا فإن حقيقته مرثيه مشهوده لله عالم الغيب و الشهاده ثم لرسوله و المؤمنين فى الدنيا ثم لكم أنفسكم معاشر العاملين يوم القيامة.

قوله تعالى: «وَ آخِرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» الارجاء التأخير، والآيه معطوفه على قوله: «وَ آخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ» و معنى إرجائهم الى امر الله انهم لا سبب عندهم يرجح لهم جانب العذاب او جانب المغفره فأمرهم يؤول الى أمر الله ما شاء و أراد فيهم فهو النافذ فى حقهم؟

و هذه الآيه تنطبق بحسب نفسها على المستضعفين الذين هم كالبرزخ بين المحسنين و المسيئين، و إن ورد فى أسباب النزول ان الآيه نازله فى الثلاثه الذين خلفوا ثم تابوا فأنزل الله توبتهم على رسوله صلى الله عليه و آله و سلم و سيجىء إن شاء الله تعالى.

و كيف كان فالآيه تخفى ما يؤول اليه عاقبه امرهم و تبقياها على إبهامها حتى فيما ذيلت به من الاسميين الكريمين: العليم و الحكيم الدالين على ان الله سبحانه يحكم فيهم بما يقتضيه علمه و حكمته، و هذا بخلاف ما ذيل قوله: «وَ آخِرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ» حيث قال: «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنْ اللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ» (١)(٢).

[سوره التوبه (٩): الآيات ١٠٧ الى ١١٠]

اشاره

وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسَدًا ضِعْرًا وَ كُفْرًا وَ تَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَ إِزْوَاجًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهُ وَ رَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَ لِيَحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لا- تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أُسِّسَ بُيَاتُهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَ رِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسِّسَ بُيَاتُهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارٍ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ وَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لا- يَزَالُ بُيَاتُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَهُ فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا- أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠)

ص: ٨٢٢

١- ١). التوبه ٩٧-١٠٦: بحث روائى فى السابقين الاولين...؛ الاعراب؛ الصدقات.

٢- ٢). التوبه ٩٧-١٠٦: كلام فى الزكاه و سائر الصدقات.

قوله تعالى: وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَيْرًا وَ كُفَرًا إِلَىٰ آخِرِ الْآيَةِ، الضرار و المضاره إيصال الضرر، و الإرصاء اتخاذ الرصد و الانتظار و الترقب.

و قوله: «وَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَيْرًا» إن كانت الآيات نازله مع ما تقدمها من الآيات النازله فى المنافقين فالعطف على ما تقدم ذكرهم من طوائف المنافقين المذكورين بقوله:

و منهم، و منهم اى و منهم الذين اتخذوا مسجدا ضاررا.

و إن كانت مستقلة بالنزول فالوجه كون الواو استثنافيه و قوله: «الَّذِينَ اتَّخَذُوا» مبتدأ خبره قوله: «لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا» و يمكن إجراء هذا الوجه على التقدير السابق أيضا، و قد ذكر المفسرون فى إعراب الآيه وجوها اخرى لا تخلو عن تكلف تركناها.

و قد بين الله غرض هذه الطائفة من المنافقين فى اتخاذ هذا المسجد و هو الضرار بغيرهم و الكفر و التفريق بين المؤمنين و الإرصاء لمن حارب الله و رسوله، و الأغراض المذكوره خاصه ترتبط الى قصه خاصه بعينها، و هى على ما اتفق عليه أهل النقل أن جماعه من بنى عمرو بن عوف بنوا مسجد قبا و سألوا النبى أن يصلى فيه فصلى فيه فحسداهم جماعه من بنى غنم بن عوف و هم منافقون فبنوا مسجدا الى جنب مسجد قبا ليضروا به و يفرقوا المؤمنين منه

و ينتظروا لأبى عامر الراهب الذى وعدهم أن يأتيهم بجيش من الروم ليخرجوا النبى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ مِنَ الْمَدِينَةِ، وَ أَمْرَهُمْ أَنْ يَسْتَعِدُّوا لِلْقِتَالِ مَعَهُمْ.

وَ لَمَّا بَنُوا الْمَسْجِدَ أَتَى النَّبَى صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ وَ هُوَ يَتَجَهَّزُ إِلَى تَبُوكَ وَ سَأَلُوهُ أَنْ يَأْتِيَهُ وَ يَصَلِّيَ فِيهِ وَ يَدْعُو لَهُمُ الْبِرْكَهَ فَوَعَدَهُمْ إِلَى الْفَرَاغِ مِنْ أَمْرِ تَبُوكَ وَ الرَّجُوعِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَتَزَلَّتِ الْآيَاتُ.

فَكَانَ مَسْجِدُهُمْ لِمُضَارَّهَ مَسْجِدِ قِبَا، وَ لِلْكَفْرِ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ، وَ لِتَفْرِيقِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَجْتَمِعِينَ فِي قِبَا، وَ لِإِرْصَادِ أَبِي عَامِرِ الرَّاهِبِ الْمَحَارِبِ لِلَّهِ وَ رَسُولِهِ مِنْ قَبْلِ، وَ قَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ عَنْهُمْ أَنْهُمْ لِيُحْلِفْنَ إِنْ أَرَدْنَا مِنْ بِنَاءِ هَذَا الْمَسْجِدِ إِلَّا الْفَعْلَةَ الْحَسَنَى وَ هُوَ التَّسْهِيلُ لِلْمُؤْمِنِينَ بِتَكْثِيرِ مَعَابِدٍ يَعْبُدُ فِيهَا اللَّهَ، وَ شَهِدَ تَعَالَى بِكَذِبِهِمْ بِقَوْلِهِ: «وَ لَيُحْلِفَنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسَيْنَى وَ اللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ» .

قَوْلُهُ تَعَالَى: لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا إِلَى آخِرِ الْآيَةِ، بِدَأْ بِنَهْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَ سَلَّمَ عَنْ أَنْ يَقُومَ فِيهِ ثُمَّ ذَكَرَ مَسْجِدَ قِبَا وَ رَجَّحَ الْقِيَامَ فِيهِ بَعْدَ مَا مَدَّحَهُ بِقَوْلِهِ: «لَمَسِجِدٍ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ» فَمَدَّحَهُ بِحَسَنِ نِيَّةِ مُؤَسِّسِهِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ وَ بَنَى عَلَيْهِ رَجْحَانَ الْقِيَامِ فِيهِ عَلَى الْقِيَامِ فِي الضَّرَارِ.

وَ الْجُمْلَةُ وَ إِنْ لَمْ تَفِدْ تَعَيَّنَ الْقِيَامُ فِي مَسْجِدِ قِبَا حَيْثُ عَبَّرَ بِقَوْلِهِ: أَحَقُّ، غَيْرَ أَنْ سَبَقَ النَّهْيُ عَنِ الْقِيَامِ فِي مَسْجِدِ الضَّرَارِ يَوْجِبُ ذَلِكَ، وَ قَوْلُهُ تَعَالَى: «فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّطَّهَّرُوا» تَعْلِيلٌ لِلرَّجْحَانِ السَّابِقِ، وَ قَوْلُهُ: «وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ» مَتَمِّمٌ لِلتَّعْلِيلِ الْمَذْكُورِ، وَ هَذَا هُوَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْمَرَادَ بِقَوْلِهِ: «لَمَسْجِدٍ أُسَسَ» الْخ؛ هُوَ مَسْجِدُ قِبَا لَا مَسْجِدَ النَّبِيِّ أَوْ غَيْرِهِ.

وَ مَعْنَى الْآيَةِ: لَا تَقُمْ أَى لِلصَّلَاةِ فِي مَسْجِدِ الضَّرَارِ أَبَدًا، أَقْسَمُ، لِمَسْجِدِ قِبَا الَّذِي هُوَ مَسْجِدُ أُسَسَ عَلَى تَقْوَى اللَّهِ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ وَ أُخْرَى أَنْ تَقُومَ فِيهِ لِلصَّلَاةِ وَ ذَلِكَ أَنْ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ التَّطَهَّرَ مِنَ الذُّنُوبِ أَوْ مِنَ الْأَرْجَاسِ وَ الْأَحْدَاثِ وَ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ وَ عَلَيْكَ أَنْ تَقُومَ فِيهِمْ.

وقد ظهر بذلك أن قوله: «لَمَسِدِ جِدِّ أَسَسَ» الخ؛ بمنزله التعليل لرجحان المسجد على المسجد و قوله: «فِيهِ رِجَالٌ» الخ؛ لإفاده رجحان أهله على أهله، وقوله الآتي: «أَفَمَنْ أَسَسَ بُيَاتَهُ» الخ؛ لبيان الرجحان الثاني.

قوله تعالى: «أَفَمَنْ أَسَسَ بُيَاتَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ شفا البئر طرفه، و جرف الوادى جانبه الذى انحفر بالماء أصله و هار الشىء يهار فهو هائر و ربما يقال: هار بالقلب و انهار ينهار انهيارا اى سقط عن لين فقوله: «عَلَى شِفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ» استعاره تخيليه شبه فيها حالهم بحال من بنى بيانا على نهايه شفير واد لا ثقه بثباتها و قوامها فتساقطت بما بنى عليه من البنيان و كان فى أصله جهنم فوقع فى ناره، و هذا بخلاف من بنى بيانه على تقوى من الله و رضوان منه اى جرى فى حياته على اتقاء عذاب الله و ابتغاء رضاه.

و ظاهر السياق أن قوله: «أَفَمَنْ أَسَسَ بُيَاتَهُ عَلَى تَقْوَى» الخ؛ و قوله: «أَمْ مَنْ أَسَسَ بُيَاتَهُ عَلَى شِفَا جُرْفٍ» الخ؛ مثلان يمثل بهما ببيان حياه المؤمنين و المنافقين و هو الدين و الطريق الذى يجريان عليه فيها فدين المؤمن هو تقوى الله و ابتغاء رضوانه عن يقين به، و دين المنافق مبنى على التزلزل و الشك.

و لذلك أعقبه الله تعالى و زاد فى بيانه بقوله: «لَا يَزَالُ بُيَاتُهُمْ» يعنى المنافقين «الَّذِي بَنَوْا رِيْبَةً» و شكا «فِي قُلُوبِهِمْ» لا يتعدى الى مرحله اليقين «إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ» فتتلاشى الريبه بتلاشيها «وَ اللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ» و لذلك يضع هؤلاء و يرفع اولئك.

[سورة التوبه (٩): الآيات ١١١ الى ١٢٣]

اشاره

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَ أَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَ يُقْتَلُونَ وَ وَعِدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَ الْأَنْجِيلِ وَ الْقُرْآنِ وَ مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمَتِ اللَّهِ الَّتِي بِإِيْمَتِهِ بِهِ وَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَ النَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ الْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَ بَشَرِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَ لَوْ كَانُوا أَوْلَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَ مَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَ لَا- نَصِيرٍ (١١٦) لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَ عَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَ ضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَ ظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا- إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَ لَا- يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَ لَا نَصَبٌ وَ لَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَ لَا يَطْؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَ لَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَ لَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَ لَا- كَبِيرَةً وَ لَا- يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) وَ مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَ لِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ

آَمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣)

ص: ٨٢٥

بيان:

قوله تعالى: إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُم

ص: ٨٢٧

الْجَنَّةَ إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ الْاِشْتِرَاءُ هُوَ قَبُولُ الْعَيْنِ الْمَبِيعَةَ بِنَقْلِ الثَّمَنِ فِي الْمَبِيعَةِ.

وَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يَذْكَرُ فِي الْآيَةِ وَعَدَهُ الْقَطْعَى لِلَّذِينَ يَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَنْفُسِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ بِالْجَنَّةِ، وَيَذْكَرُ أَنَّهُ ذَكَرَ ذَلِكَ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ كَمَا يَذْكَرُهُ فِي الْقُرْآنِ.

وَقَدْ قَلَبَهُ سَبْحَانَهُ فِي قَالِبِ التَّمْثِيلِ فَصَوَّرَ ذَلِكَ بَيْعًا، وَجَعَلَ نَفْسَهُ مُشْتَرِيًا وَالمُؤْمِنِينَ بَائِعِينَ، وَأَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ سَلْعَةً وَبَيْعًا، وَالجَنَّةَ ثَمَنًا، وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَالْقُرْآنَ سِنْدًا لِلْمَبِيعَةِ، وَهُوَ مِنْ لَطِيفِ التَّمْثِيلِ ثُمَّ يَبِشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ بِبَيْعِهِمْ ذَلِكَ، وَيَهْنَتْهُمْ بِالْفَوْزِ الْعَظِيمِ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: **الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** إِلَى آخِرِ الْآيَةِ؛ يَصِفُ سَبْحَانَهُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَجْمَلِ صِفَاتِهِمْ، وَالصِّفَاتِ مَرْفُوعَةٍ بِالْقَطْعِ أَيِ الْمُؤْمِنُونَ هُمُ التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ، الْخ؛ فَهَمُ التَّائِبُونَ لِرُجُوعِهِمْ مِنْ غَيْرِ اللَّهِ إِلَى اللَّهِ سَبْحَانَهُ الْعَابِدُونَ لَهُ وَيَعْبُدُونَهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ فِيحْمَدُونَهُ بِجَمِيلِ الثَّنَاءِ، وَبِأَقْدَامِهِمْ فَيَسِيحُونَ وَيَجُولُونَ مِنْ مَعْبَدٍ مِنَ الْمَعَاهِدِ الدِّينِيَّةِ وَمَسْجِدٍ مِنْ مَسَاجِدِ اللَّهِ إِلَى غَيْرِهِ، وَبِأَيْدَانِهِمْ فَيُرْكَعُونَ لَهُ وَيَسْجُدُونَ لَهُ.

هَذَا شَأْنُهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى حَالِ الْاِنْفِرَادِ وَأَمَّا بِالنِّسْبَةِ إِلَى حَالِ الْاجْتِمَاعِ فَهَمُ آمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ فِي السُّنَّةِ الدِّينِيَّةِ وَنَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ فِيهَا ثُمَّ هُمْ حَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ لَا يَتَعَدُّونَهُ فِي حَالَتِي اِنْفِرَادِهِمْ وَاجْتِمَاعِهِمْ خُلُوتِهِمْ وَجَلُوتِهِمْ، ثُمَّ يَأْمُرُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يَبْشِّرَهُمْ وَقَدْ بَشَّرَهُمْ تَعَالَى نَفْسَهُ فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَفِيهِ مِنْ كَمَالِ التَّكْوِينِ مَا لَا يَقْدَرُ قَدْرَهُ.

قَوْلُهُ تَعَالَى: **مَنْ كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَىٰ** إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ، مَعْنَى الْآيَةِ ظَاهِرٌ غَيْرُ أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَهُ فِي الْآيَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي تَبَيَّنَ سَبَبُ اسْتِغْفَارِ اِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ مَعَ كَوْنِهِ كَافِرًا أَنَّهُ تَبَرَّأَ مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ تَبَيَّنَ كَوْنَ الْمُشْرِكِينَ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ إِنَّمَا يَرُشِدُ إِلَى عَدَمِ جَوَازِ اسْتِغْفَارِ لِكُونِهِ مَلَازِمًا لِكُونِهِمْ أَعْدَاءَ لِلَّهِ فَإِذَا تَبَيَّنَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ الْمُشْرِكِينَ أَعْدَاءَ لِلَّهِ كَشَفَ ذَلِكَ لَهُمْ عَنِ حُكْمِ ضَرُورِيٍّ وَهُوَ عَدَمُ جَوَازِ اسْتِغْفَارِ لِكُونِهِ لِعَوَا لَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ أَثْرٌ وَخُضُوعٌ

الإيمان مانع أن يلغو العبد مع ساحه الكبرياء.

و ذلك أنه تاره يفرض الله تعالى عدوا للعبد مبغضا له لتقصير من ناحيته و سوء من عمله فمن الجائر بالنظر الى سعه رحمه الله أن يستغفر له و يسترحم اذا كان العبد متذللا غير مستكبر، و تاره يفرض العبد عدوا لله محاربا له مستكبرا مستعليا كأرباب الجحود و العناد من المشركين، و العقل الصريح حاكم بأنه لا ينفعه حينئذ شفاعه بمسأله او استغفار إلا أن يتوب و يرجع الى الله و ينسلخ عن الاستكبار و العناد و يتلبس بلباس الذلّه و المسكنه فلا- معنى لسؤال الرحمه و المغفره لمن يأبى عن القبول، و لا للاستعطاء لمن لا- يخضع للأخذ و التناول إلا- الهزؤ بمقام الربوبيه و اللعب بمقام العبوديه و هو غير جائز بضروره من حكم الفطره.

و قوله: إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ تعليل لوعد ابراهيم و استغفاره لأبيه بأنه تحمّل جفوه أبيه و وعده وعدا حسنا لكونه حلِيما و استغفر له لكونه أواها، و الأواه هو الكثير التأوه خوفا من ربه و طمعا فيه.

قوله تعالى: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إلى آخر الآيتين؛ الآيتان متصلتان بالآيتين قبلهما المسوقتين للنهي عن الاستغفار للمشركين.

أما الآية الاولى اعنى قوله: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ» الخ؛ ففيه تهديد لمؤمنين بالاضلال بعد الهدايه إن لم يتقوا ما بين الله لهم ان يتقوه و يجتنبوا منه، و هو بحسب ما ينطبق على المورد ان المشركين أعداء لله لا- يجوز الاستغفار لهم و التودد اليهم فعلى المؤمنين ان يتقوا ذلك و إلا فهو الضلال بعد الهدى، و عليك ان تذكر ما قدمناه فى تفسير قوله تعالى: أَلْيَوْمَ يَنْسَى الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَ أَحْسُونِ (المائدة/٣) فى الجزء الخامس من الكتاب و فى تفسير آيات ولايه المشركين و أهل الكتاب الواقعه فى السور المتقدمه.

و الآية بوجه فى معنى قوله تعالى: ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُعْتَبَرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى

يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (الأنفال ٥٣) وما في معناه من الآيات، وهي جميعا تهتف بأن من السنّه الإلهيه ان تستمر على العبد نعمته و هدايته حتى يغير هو ما عنده بالكفران و التعدى فيسلب الله منه النعمه و الهدايه.

و أما الآيه الثانيه أعنى قوله: «إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ» فذيلها بيان لعله الحكم السابق المدلول عليه بالآيه السابقه و هو النهى عن تولى أعداء الله او وجوب التبرى منهم اذ لا ولى و لا نصير حقيقه إلا- الله سبحانه و قد بينه للمؤمنين فعليهم بدلاله من إيمانهم ان يقصروا التولى عليه تعالى او من أذن فى توليهم له من اوليائه و ليس لهم ان تعتدوا ذلك الى تولى أعدائه كائنين من كانوا.

و صدر الآيه بيان لسبب هذا السبب و هو ان الله سبحانه هو الذى يملك كل شىء و بيده الموت و الحياه فإليه تدبير كل امر فهو الولى لا ولى غيره.

و قد ظهر من عموم البيان و العله فى الآيات الأربع ان الحكم عام و هو وجوب التبرى او حرمة التولى لأعداء الله سواء كان التولى بالاستغفار او بغير ذلك و سواء كان العدو مشركا او كافرا او منافقا او غيرهم من اهل البدع الكافرين بآيات الله او المصرين على بعض الكبائر كالمرابى المحارب لله و رسوله.

قوله تعالى: لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ إِلَى آخِرِ الْآيَاتِينَ؛ الساعه مقدار من الزمان فساعه العسره الزمان الذى تعسير فيه الحياه لابتلاء الانسان بما تشق معه العيشه عليه كعطش او جوع او حر شديد او غير ذلك، و الزبيغ هو الخروج من الطريق و الميل عن الحق، و إضافه الزبيغ الى القلوب و ذكر ساعه العسره و سائر ما يلوح من سياق الكلام دليل على ان المراد بالزبيغ الاستنكاف عن امثال امر النبى صلى الله عليه و آله و سلم و الخروج عن طاعته بالتثاقل عن الخروج الى الجهاد او الرجوع الى الأوطان بقطع السير تخرجنا من العسره و المشقه التى واجهتهم فى مسيرهم.

والتخليف-على ما فى المجمع-تأخير الشىء عن مضى فأما تأخير الشىء عنك فى المكان فليس بتخليف، و هو من الخلف الذى هو مقابل لوجه الوجه يقال، خلفه أى جعله خلفه فهو مخلف. انتهى و الرحب هو السعه التى تقابل الضيق، و بما رحبت أى برحبها فما مصدرية.

و الآيتان و إن كانت كل واحده منهما ناظره الى جهة دون جهة الاخرى فالاولى تبين التوبه على النبى و المهاجرين و الانصار و الثانية تبين توبه الثلاثة المخلفين مضافا الى أن نوع التوبه على أهل الآيتين مختلف فأهل الآيه الاولى او بعضهم تاب الله عليهم من غير معصيه منهم، و أهل الآيه الثانية تيب عليهم و هم عاصون مذنبون.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَ كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ [□] الصّديقين بحسب الأصل مطابقه القول و الخبر للخارج، و يوصف به الانسان اذا طابق خبره الخارج ثم لما عدّ كل من الاعتقاد و العزم-الاراده-قولا توسع فى معنى الصّديق فعّد الانسان صادقا اذا طابق خبره الخارج و صادقا اذا عمل بما اعتقده و صادقا اذا اتى بما يريد و يعزم عليه على الجّد.

و ما فى الآيه من إطلاق الامر بالتقوى و إطلاق الصادقين و إطلاق الأمر بالكون معهم -و المعية هى المصاحبه فى العمل و هو الاتباع- يدل على ان المراد بالصدق هو معناه الوسيع العام دون الخاص.

فالآيه تأمر المؤمنين بالتقوى و أتباع الصادقين فى اقوالهم و افعالهم و هو غير الأمر بالاتصاف بصفاتهم فانه الكون منهم لا الكون معهم و هو ظاهر.

قوله تعالى: [□] مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ [□] الى آخر الآيتين؛ الرغبه ميل خاص نفسانى و الرغبه فى الشىء الميل اليه لطلب منفعه فيه، و الرغبه عن الشىء الميل عنه بتركه و الباء للسببيه فقوله: «وَ لَا يَزْعُبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ» معناه و ليس لهم ان يشتغلوا بأنفسهم عن نفسه فيتركوه عند مخاطر المغازى و فى تعب الاسفار و دعائها

و يقعدوا للتمتع من لذائذ الحياه، و الظماً العطش، و النصب التعب و المخصمه المجاعه، و الغيظ أشد الغضب، و الموطئ الارض التي توطأ بالاقدام.

و الآيه تسلب حق التخلف عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم من أهل المدينه و الأعراب الذين حولها ثم تذكر ان الله قابل هذا السلب منهم بأنه يكتب لهم في كل مصيبه تصيبهم في الجهاد من جوع و عطش و تعب و في كل أرض يطئونها فيغيظون به الكفار أو نيل نالوه منهم عملاً صالحاً فانهم محسنون و الله لا يضيع أجر المحسنين، و هذا معنى قوله: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَخٌ».

ثم ذكر أن نفقاتهم صغيره يسيره كانت أو كبيره خطيره و كذا كل واد قطعوه فانه مكتوب لهم محفوظ لأجلهم ليجزوا به أحسن الجزاء.

و قوله: «لِيُجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» غاية متعلقه بقوله: «كُتِبَ لَهُمْ» أى غايه هذه الكتابه هى ان يجزيهم بأحسن أعمالهم، و إنما خص جزاء أحسن الاعمال بالذكر لأن رغبه العامل عاكفه عليه، أو لأن الجزاء بأحسنها يستلزم الجزاء بغيره، أو لأن المراد بأحسن الاعمال الجهاد فى سبيل الله لكونه أشقها و قيام الدعوه الدينيه به.

و هاهنا معنى آخر و هو ان جزاء العمل فى الحقيقه إنما هو نفس العمل عائدا الى الله فأحسن الجزاء هو أحسن العمل فالجزاء بأحسن الأعمال فى معنى الجزاء بأحسن الجزاء و معنى آخر و هو ان يغفر الله سبحانه سيئاتهم المشوبه بأعمالهم الحسنه و يستر جهات نقصها فيكون العمل أحسن بعد ما كان حسناً ثم يجيزهم بأحسن ما كانوا يعملون فافهم ذلك و ربما رجح المعنيان الى معنى واحد.

قوله تعالى: «وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْ لَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ السِّيَاقِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُرَادَ بِقَوْلِهِ: «لِيَنْفِرُوا كَافَّةً» لِيَنْفِرُوا وَ لِيُخْرَجُوا إِلَى الْجِهَادِ جَمِيعاً، وَ قَوْلِهِ: «فِرْقَةٍ مِنْهُمْ» الضَّمِيرُ لِلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَنْفِرُوا كَافَةً، وَ لَازِمُهُ أَنْ يَكُونَ النَّفَرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سلم مِنْهُمْ».

فالآيه تنهى مؤمنى سائر البلاد غير مدينه الرسول ان ينفروا الى الجهاد كافه بل يحضضهم ان ينفروا طائفه منهم الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم للتعرفه فى الدين، و ينفروا الى الجهاد غيرهم.

و الانسب بهذا المعنى ان يكون الضمير فى قوله: «رَجَعُوا» للطائفه المتفقهين، و فى قوله «إِلَيْهِمْ» لقومهم و المراد اذا رجع هؤلاء المتفقهون الى قومهم، و يمكن العكس بأن يكون المعنى: اذا رجع قومهم من الجهاد الى هؤلاء الطائفه بعد تفقهمهم و رجوعهم الى اوطانهم.

و معنى الآيه لا يجوز لمؤمنى البلاد ان يخرجوا الى الجهاد جميعا فهلاً نفروا خرج الى النبي صلى الله عليه وآله وسلم طائفه من كل فرقه من فرق المؤمنين ليتحققوا الفقه و الفهم فى الدين فيعملوا به لانفسهم و لينذروا بنشر معارف الدين و ذكر آثار المخالفه لاصوله و فروعه قومهم اذا رجعت هذه الطائفه اليهم لعلهم يحذرون و يتقون.

قوله تعالى: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَ لِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ امر بالجهاد العام الذى فيه توسع الاسلام حتى يشيع فى الدنيا فان قتال كل طائفه من المؤمنين من يليهم من الكفار لا ينتهى إلا باتساع الاسلام اتساعا باستقرار سلطنته على الدنيا و احاطته بالناس جميعا.

و المراد بقوله: «وَ لِيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً» اى الشده فى ذات الله و ليس يعنى بها الخشونه و الفظاظه و سوء الخلق و القساوه و الجفاء فجميع الأصول الدينيه تدم ذلك و تستبجحه، و لحن آيات الجهاد ينهى عن كل تعد و اعتداء و جفاء كما مرّ فى سوره البقره.

و فى قوله: «وَ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» وعد إلهى بالنصر بشرط التقوى، و يؤول معناه الى إرشادهم الى ان يكونوا دائما مراقبين لأنفسهم ذاكرين مقام ربهم منهم، و هو أنه معهم و مولاهم فهم الأعلون إن كانوا يتقون (١).

ص: ٨٣٣

١ - ١). التوبه ١١١-١٢٣: بحث روائى حول: الآيه «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ...»؛ النهى عن الاستغفار للمشركين؛ الصادقين.

اشاره

وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِدَاهِ إِيْمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيْمَانًا وَهُمْ يَسْتَبِشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوْ لَا- يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذْكُرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةً نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)

بيان:

قوله تعالى: وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةً فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هِدَاهِ إِيْمَانًا الى آخر الآيتين؛ نحو السؤال في قولهم: هل يراكم من أحد؟! يدل على أن سائله لا يخلو من شيء في قلبه فإن هذا السؤال بالطبع سؤال من لا يجد في قلبه أثرا من نزول القرآن و كأنه يذعن ان قلوب غيره كقلبه فيما يتلقاه فيتفحص عن أثر في قلبه نزول القرآن كأن يرى ان النبي صلى الله عليه وآله وسلم يدعى ان القرآن يصلح كل قلب سواء كان مستعدا مهينا للصلاح ام لا و هو

لا يذعن بذلك و كلما تليت عليه سورة جديدة و لم يجد في قلبه خشوعاً لله و لا ميلاً و حناناً الى الحق زاد شكاً فبعثه ذلك الى ان يسأل سائر من حضر عند النزول عن ذلك حتى يستقر في شكه و يزيد ثباتاً في نفاقه.

و بالجمله السؤال سؤال من لا يخلو قلبه من نفاق.

و قد فصل الله سبحانه امر القلوب و فرق بين قلوب المؤمنين و الذين في قلوبهم مرض فقال: «فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا» و هم الذين قلوبهم خالية عن النفاق بريئه من المرض و هم على يقين من دينهم بقربينه المقابله «فزادتهم» السوره النازله «إيماناً» فإنها يانارتها أرض القلب بنور هدايتها توجب اشتداد نور الإيمان فيه، و هذه زياده في الكيف، و باشمالها على معارف و حقائق جديده من المعارف القرآنيه و الحقائق الإلهيه، و بسطها على القلب نور الإيمان بها توجب زياده إيمان جديد على سابق الإيمان و هذه زياده في الكمية و نسبه زياده الإيمان الى السوره من قبيل النسبه الى الأسباب الظاهره و كيف كان فالسوره تزيد المؤمنين إيماناً فتشرح بذلك صدورهم و تتهلل وجوههم فرحاً «وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ» .

«وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» و هم اهل الشك و النفاق «فَرَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ» أى ضلالاً جديداً الى ضلالهم القديم و قد سمي الله سبحانه الضلال رجساً في قوله «وَمَنْ يَرِدْ أَنْ يَضِلَّهُ يُجْعَلْ صَدْرُهُ ضَيْقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (الأنعام ١٢٥)» و المقابله الواقعه بين «الَّذِينَ آمَنُوا» و «الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ» يفيد ان هؤلاء ليس في قلوبهم إيمان صحيح و إنما هو الشك او الجحد و كيف كان فهو الكفر و لذلك قال: «وَمَا تَوْأَمَهُمْ كَافِرُونَ» .

و الآيه تدل على ان السوره من القرآن لا تخلو عن تأثير في قلب من استمعه فإن كان قلباً سليماً زادته إيماناً و استبشاراً و سروراً، و إن كان قلباً مريضاً زادته رجساً و ضلالاً نظير ما يفيدته قوله: «وَنُزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَ رَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ لَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا»

قوله تعالى: «وَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ الْآيَةَ؛ الاستفهام للتقرير أى ما لهم لا يتفكرون و لا يعتبرون و هم يرون أنهم يبتلون و يمتحنون كل عام مره او مرتين فيعصون الله و لا- يخرجون من عهده المحنه الإلهيه و هم لا- يتوبون و لا يتذكرون و لو تفكروا فى ذلك انتبهوا لواجب امرهم و أيقنوا ان الاستمرار على هذا الشأن ينتهى بهم الى تراكم الرجس على الرجس و الهلاك الدائم و الخسران المؤبد.

قوله تعالى: «وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ الْآيَةَ؛ و هذه خصيصه أخرى من خصائصهم و هى أنهم عند نزول سورة قرآنيه- و لا محاله هم حاضرون- ينظر بعضهم الى بعض نظر من يقول: هل يراكم من احد، و هذا قول من يسمع حديثا لا يطيقه و يضيق بذلك صدره فيتغير لونه و يظهر القلق و الاضطراب فى وجهه فيخاف ان يلتفت اليه و يظهر السر الذى طواه فى قلبه فينظر الى بعض من كان قد اودعه سره و أوقفه على باطن امره كأنه يستفسره هل يطلع على ما بنا من القلق و الاضطراب احد؟

فقوله: «نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ» أى بعض المنافقين، و هذا من الدليل على أن الضمير فى قوله فى الآيه السابقه: «فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ» أيضا للمنافقين، و قوله: «نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ» أى نظر قلق مضطرب يحذر ظهور امره و انتهاك ستره، و قوله: «هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ» فى مقام التفسير للنظر أى نظر بعضهم الى بعض نظر من يقول: هل يراكم من احد؟ و من للتأكيد و أحد فاعل يراكم.

و قوله: «ثُمَّ انصَبَرُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ظَاهِرَ السِّيَاقِ ان المعنى ثم انصرفوا من عند النبى صلى الله عليه و آله و سلم فى حال صرف الله قلوبهم عن وعى الآيات الإلهيه و الإيمان بها بسبب انهم قوم لا يفقهون الكلام الحق فالجمله حاله على ما يجوز به بعضهم.

و ربما احتمال كون قوله: «صَيَّرَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ» دعاء منه تعالى على المنافقين، و له نظائر في القرآن، و الدعاء منه تعالى على احد إيعاد له بالشر.

قوله تعالى: لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ العنت هو الضرر و الهلاك، و ما فى قوله: «مَا عَنِتُّمْ» مصدرية التأويل عنتكم، و المراد بالرسول على ما يشهد سياق الآيتين محمّد صلى الله عليه و آله و سلم، و قد وصفه بأنه من انفسهم و الظاهر ان المراد به انه بشر مثلكم و من نوعكم اذ لا دليل يدل على تخصيص الخطاب بالعرب او بقريش خاصة، و خاصة بالنظر الى وجود رجال من الروم و فارس و الحبشه بين المسلمين فى حال الخطاب.

و المعنى لقد جاءكم ايها الناس رسول من انفسكم، من اوصافه انه يشق عليه ضرركم او هلاككم و أنه حريص عليكم جميعا من مؤمن او غير مؤمن، و أنه رءوف رحيم بالمؤمنين منكم خاصة فيحق عليكم ان تطيعوا امره لأنه رسول لا يصدع إلا عن امر الله، و طاعته طاعة الله، و ان تأنسوا به و تحنوا اليه لأنه من انفسكم، و ان تجيبوا دعوته و تصغوا اليه كما ينصح لكم.

و من هنا يظهر أن القيود المأخوذة فى الكلام من الاوصاف اعنى قوله: «رَسُولٌ» و «مِّنْ أَنْفُسِكُمْ» و «عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ» الخ؛ جميعها مسوقة لتأكيد الندب الى إجابته و قبول دعوته، و يدل عليه قوله فى الآية التالية: «فَإِنْ تَوَلَّوْا فُقُلٌ حَسْبِيَ اللَّهُ» .

قوله تعالى: فَإِنْ تَوَلَّوْا فُقُلٌ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ اى و ان تولوا عنكم و أعرضوا عن قبول دعوتك فقل حسبي الله لا إله إلا هو اى هو كافي لا إله إلا هو.

فقوله: «لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ» فى مقام التعليل لانقطاعه من الأسباب و اعتصامه بربه فهو كاف لا كافي سواه لأنه الله لا إله غيره، و من المحتمل ان تكون كلمه التوحيد جىء بها للتعظيم نظير قوله: وَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ (البقره ١١٦).

و قوله: «عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ» وفيه معنى الحصر تفسير يفسر به قوله: «حَسْبِيَ اللَّهُ» الدالّ على معنى التوكل بالالتزام، وقد تقدم في بعض الابحاث السابقه ان معنى التوكل هو اتخاذ العبد ربه وكيلا يحل محل نفسه و يتولى تدبير اموره اى انصرافه عن التسبب بذيل ما يعرفه من الاسباب، و لا محاله هو بعض الاسباب الذى هو علّه ناقصه و الاعتصام بالسبب الحقيقى الذى اليه ينتهى جميع الاسباب. و من هنا يظهر وجه تذييل الكلام بقوله: «وَ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ» اى الملك و السلطان الذى يحكم به على كل شىء و يدبر به كل امر.

و انما قال تعالى: «فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ» الآية؛ و لم يقل: فتوكل على الله لإرشاده الى ان يتوكل على ربه و هو ذاكر هذه الحقائق التى تنور حقيقه معنى التوكل، و ان النظر المصيب هو ان لا يثق الانسان بما يدركه من الاسباب الظاهره التى هى لا محاله بعض الاسباب بل يأخذ بما يعلمه منها على ما طبعه الله عليه و يثق بربه و يتوكل عليه فى حصول بغيته و غرضه.

و فى الآية من الدلاله على عجب اهتمامه صلى الله عليه و آله و سلم باهتمام الناس ما ليس يخفى فإنه تعالى يأمره بالتوكل على ربه فيما يهتم به من الأمر و هو ما تبينه الآية السابقه من شدة رغبته و حرصه فى اهتمام الناس و فوزهم بالسعادة فافهم ذلك.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدّم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آواده اى، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلى، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩